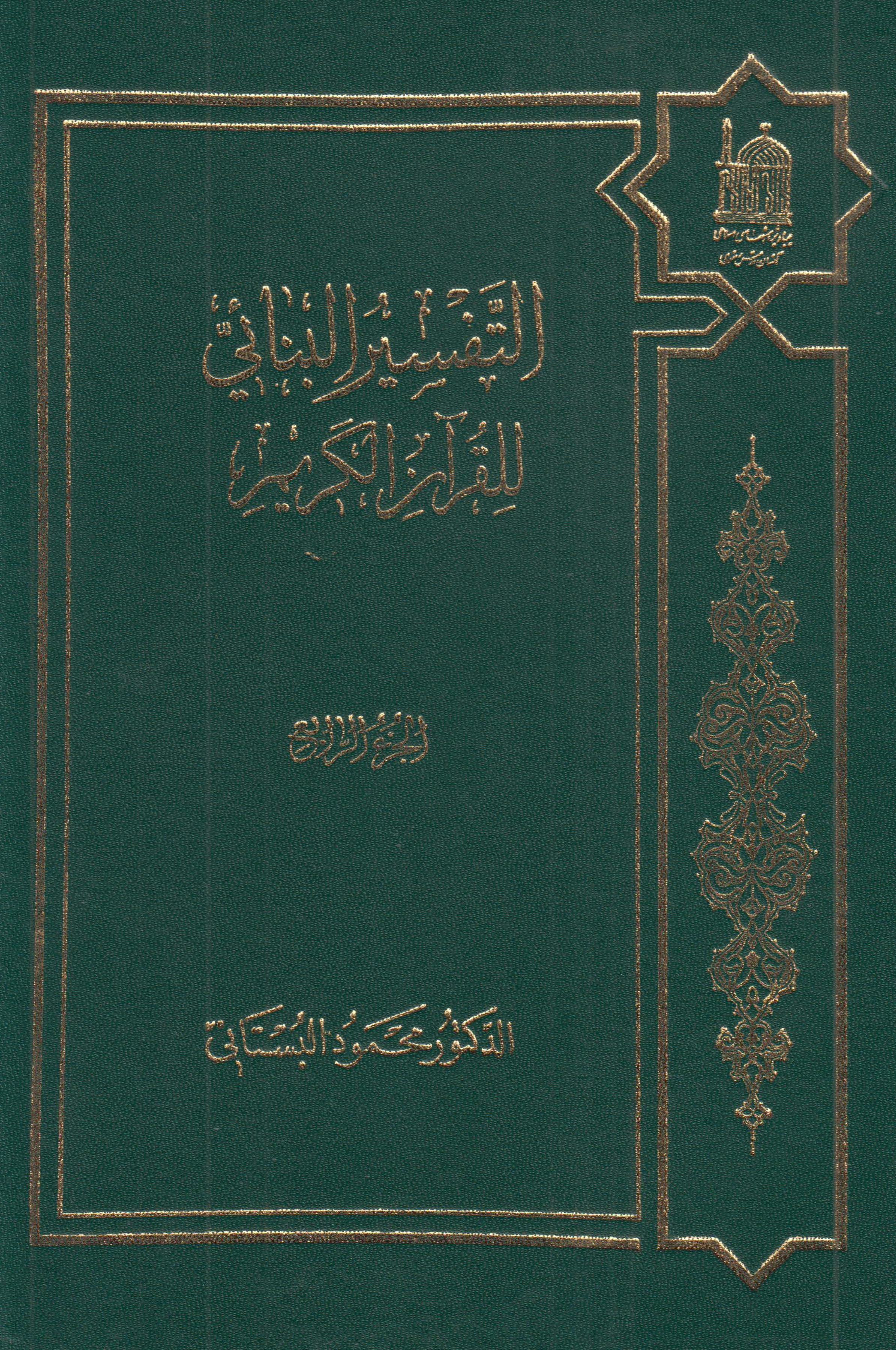
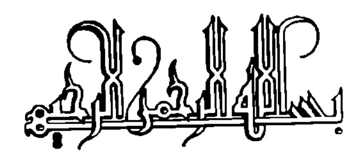

التفسير البنائي
للقرآن الكريم
الجزء الرابع
الدكتور محمود البستاني



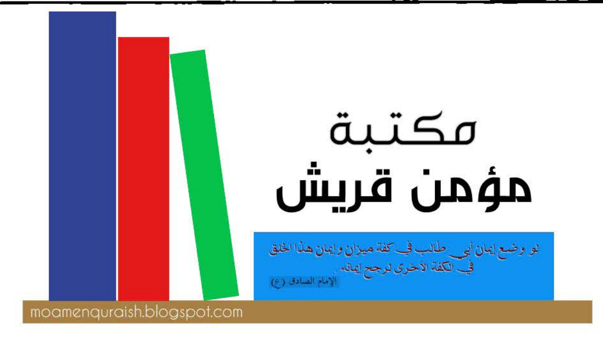
التفسير البنائي للقرآن الكريم

الجزء الرابع

تأليف

الدكتور محمود البستاني

بستاني، محمود، ١٣١٦ ـ
التفسير البنائي للقرآن الكريم / محمود البستاني. ـ مشهد: مجمع البحوث الاسلاميّة، ١٤٢٤ق. = ١٣٨٢ ش.
٥ ج. (دوره ٥ جلدى). ISBN 5 Vol set 964-444-359-4
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا. (ج. ٤) ISBN 964-444-367-5
عربى
كتابنامه
١. تفاسير شيعه ـ ـ قرن ١٤. ٢.قرآن ـ ـ مسائل ادبى. الف. بنياد پژوهشهاى اسلامى. ب.عنوان
BP ٩٨ / ب ٥ ت ٧ ٢٩٧/١٧٢
كتابخانه ملّى ايران ١٨٢٩٠ ـ ٧٩م





التفسير البنائيّ للقرآن الكريم

الجزء الرابع

الدكتور محمود البستانيّ

الطبعة الاولى: ١٤٢٤ق. / ١٣٨٢ش
١٥٠٠ نسخة
الطباعة: مؤسّسة الطبع التابعة للآستانة الرضويّة المقدّسة
الثمن ٣٠٠٠٠ ريال

مراكز التوزيع
مجمع البحوث الإسلاميّة ، الهاتف (مشهد) ٣ـ٢٢٥٣٠٠١، ص. ب ٣٦٦ ـ ٩١٧٣٥
شركة بهنشر، (مشهد) الهاتف ٧ ـ ٨٥١١١٣٦ الفاكس ٨٥١٥٥٦٠
Web Site: www.islamic-rf.org E-mail: info@islamic-rf.org

سورة الملائكة

قال تعالى ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله فاطرِ السماواتِ والأرض، جاعل الملائكة رسُلاً أولى أجنحةٍ مثنىٰ وثلاث ورُباع، يزيدُ في الخلق ما يشاء، ان الله علىٰ كل شيء قدير ما يفتح الله للنَّاس من رحمة فلا مُمسك لها، وما يُمسكْ فلا مُرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم يا أيها الناس: اذكروا نعمة الله عليكم، هل من خالقٍ غير الله يرزقُكم من السماء والأرض، لا إله إلاّ هو فأنّىٰ تؤفكون. . .**﴾.

بهذا المقطع تُفتح سورة الملائكة، حيث تتناول هذه البدايةُ مجموعة (أفكار) تنسحب على موضوعات السورة لاحقاً. . . وفي مقدمة هذه الأفكار أو الفكر فكرة النعم التي أغدقها الله على عباده ﴿**يا أيها الناس، اذكروا نعمة الله عليكم**﴾. طبيعياً، ثمّة أفكار متنوعة أخرى قد تضمنها البداية المشار إليها، و منها: ﴿**ما يفتح الله للنّاس من رحمة: فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده**﴾، وهذه الفكرة (رحمة الله تعالى) امتداد لفكرة (النعم) التي أشرنا إليها. . . هذا إلى أن هناك موضوعاً خاصاً طرحته السورة الكريمة في الآية الأولىٰ وهو: موضوع الملائكة التي جعلها الله تعالى (رسلاً أولى أجنحة: مثنىٰ وثلاث ورباع)، حيث أن افتتاح السورة بمثل هذا الموضوع يترك عند المتلقّي أثراً له أهميته، وهو لفتُ النظر إلي إحدىٰ الحقائق الإبداعية لله تعالى، متمثلة في جعل العنصر الملائكي رُسُلاً بين السماء والأرض، مع التأكيد على كونها ذات أجنحة متنوعة، يمكن للمتلقي أن يستخلص من هذه الحقيقة الإبداعية حقائق أخرىٰ ذات صلة بمفهوم (الرُسُل) بين السماء والأرض، حيث تتطلب مهمّة الرسول قوىٰ خاصة تسمح لها بعملية الانتقال بين السماء والأض، متمثلة في جعل (الأجنحة) لها.

والآن، بعد أن لحظنا هذه البداية للسورة الكريمة، يجدر بنا متابعة موضوعاتها التي سوف ترتبط (عمارياً) بالبداية المشار إليها. . . ولنقرأ:

﴿وإن يكذّبوك فقد كُذّبت رسل من قبلك، وإلى الله تُرجع الأمور يا أيها الناس: ان وعد الله حقٌّ، فلا تغرّنكم الحياةُ الدنيا، ولا يغرّنكم بالله الغرور ان الشيطان لكم عدوّ، فاتّخذوه عدوّاً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير الذين كفروا لهم عذاب شديد والّذين آمنوا وعملوا الصالحات: لهم مغفرة و أجر كبير أفَمن زُين له سوءُ عمله فرآه حسناً، فإنّ الله يضلّ من يشاء و يهدي من يشاء، فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات، ان الله عليم بما يصنعون﴾.

المقطع الجديد يطرح موضوعاتٍ متنوعةً، سوف ترتبط عضوياً بفكرة (النعم) التي تضمنها المقطع الأول: كما سنرىٰ. . . لكن، ينبغي أن نقف عند هذه الموضوعات الجديدة التي يستهدف المقطع توصيلها إلينا، وفي مقدمتها: تكذيب الكفار لرسالة محمد(ص)، ومطالبته محمداً(ص) بألاّ تذهب نفسه عليهم حسرات، والتلويح لهم بالعذاب الأخروي الذي ينتظرهم ثم (وهذا هو الموضوع الأشد أهمية في المقطع) الإشارة إلى كون الشيطان عدواً، وضرورة أن يتخذه الناس بدورهم عدوّاً: ما دام هدفه أن (يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير). . .

إن اتخاذنا الشيطان عدوّاً، يظل هو الخيار الوحيد الذي ينبغي أن يصدر المؤمنُ عنه في سلوكه الذي خلق الله تعالى الإنسان من أجله (أي: من أجل أن يختبره الله تعالى في الحياة الدنيا عبر ممارسته للمهمة العبادية). . . وحينئذٍ، إذا كان هدفُ الشيطان هو تحقيق نزعته الساديّة (أي: التلذّذ بتعذيب الآخرين من خلال دعوته حزبه ليكونوا من أصحاب السعير). . .

عندها، يتعيّن على الشخصية أن تحدّد موقفها من العدو المذكور، وذلك بأن تتخذه عدواً أيضاً، حتى تقهره وتحجزه من أن يتلذّذ بتعذيب

الآخرين. . . طبيعياً، أن هدف الشخصية أساساً، هو: ممارسة المهمة العبادية، إلاّ أن تحقيق الهدف المذكور يتوقف على إزاحة الحاجز الذي يقف حياله، متمثلاً في قوى الشيطان، كما لحظنا.

المهمّ ـ بعد ذلك، أن النص القرآني الكريم، ينتقل بعد هذا الطرح، إلى ربط السورة الكريمة، أي: (فكرتها) التي تحوم على موضوع (نِعَم الله) تعالى، مشيراً إلى إحدى الحقائق الإبداعية المتمثلة في نزول المطر **﴿والله الذي أرسل الرياح، فتثير سحاباً، فسقناه إلى بلد ميّت... إلخ﴾** محقّقاً بهذه النقلة الفنية إحكام السورة الكريمة من حيث عمارتها المتلاحمة عضوياً.

* * *

قال تعالى: **﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت، فأحيينا به الأرض بعد موتها، كذلك النشور من كان يريد العزّة فللّه العزّة جميعاً، إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور. . .﴾**.

في هذا المقطع من سورة الملائكة جملة من الحقائق، منها: الظاهرة الإبداعية «إرسال الرياح» وتسبيبها المطر وأحياؤه الأرض، وَربطُ هذه الظاهرة باليوم الآخر، حيث وَصل المقطعُ بين قدرته تعالى علىٰ إحياء الأرض الميتة وبين قدرته على إحياء البشر الميّت، فيما تظل هذه الإشارة إلى الانبعاث في اليوم الآخر تمهيداً فنّياً لموضوعات لاحقة سوف تتناول قضايا اليوم الآخر، كما سنرى.

هنا، ينبغي الاّ نغفل عن العنصر (الصوري) في الآية الكريمة التي أشارت إلى إحياء الأرض بعد موتها، حيث يرمز الإحياء والموت إلى الجدب والخصب، وحيث جاء رمزا الإحياء والموت مرتبطين بموت الإنسان وإحيائه، فيما يفسّر لنا هذا الانتخابُ الرمزي للإحياء و«الموت»، جانباً من الأسرار

الفنية في صياغة الصور «الرمزية» بدلاً من الصور المباشرة. . .

بعد ذلك، نواجه الآية الأخرىٰ التي تضمنها المقطع، فنجد أن عنصر الصورة الفنية، يكتسب بدوره دلالة عضوية تربط بين «الصور» وبين موضوعات السورة الكريمة. . . فقد استهدف النصُ توصيل حقائق جديدة عن العمل العبادي للإنسان، مشيراً إلى أنَّ من يريد العزَّة في الدنيا والآخرة فليتجه إلى طاعة الله تعالى، معقباً علىٰ ذلك بقوله تعالى ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه**﴾. فهنا نواجه صوراً فنية تنتسب إلى «الرمز» أيضاً، وهي رمزا «الصعود والرفع: يصعد الكلم الطيّب، والعمل الصالح يرفعه». إن «الكلمة الطيبة» بدورها تمثّل رمزاً أو استعارةً تشير إلى عبارات التقديس والحمد لله، والحصيلة لذلك كله هي: انّ المقطع يستهدف توصيل الحقيقة القائلة: بأنّ تمجيد الله تعالى يجسّد مهمة عبادية للإنسان، وأن هذا العمل سوف يقترن بثمين الله تعالى وتقديره. . . لكن، ما ينبغي ملاحظته هو: ان تثمين الله وتقديره قد صاغه المقطع عبْر صورتين رمزيتين ـ كما قلنا ـ وهما: صعود الكلم الطيب، ورفع العمل الصالح، حيث ينبغي أن نقف عند هذين الرمزين لملاحظة علاقتهما بعمارة السورة الكريمة، ما دمنا أساساً نُعنى ـ في هذه الدراسات ـ بالهيكل البنائي للنص القرآني الكريم. . .

في تصورنا الفنّي المُحتمل: إن السورة الكريمة بدأت بقوله تعالى ﴿**الحمد لله فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رسُلاً أولى أجنحة. . .**﴾ وفي حينه قلنا، أن استهلال السورة الكريمة بالإشارة إلى الملائكة وكونها ذات أجنحة: لا بدّ أن ينطوي على أسرار فنية ترتبط بموضوعات السورة لاحقاً، وقلنا أيضاً: إن كون الملائكة (رسلاً) يتطلب رسمُها أن تكون ذات تركيبة جسمية تتناسب مع مهمة الملائكة التي تنتقل بسرعة زمنية خاصة بين السماء والأرض. . . والآن، نواجه مستوى آخر من الأسرار الفنية لهذا الرسم

الملائكي الذي استُهلت به السورة، حيث نواجه رمزين هما (الصعود) و(الرفع) أي عبارة (إليه يصعد الكلم الطيب) وعبارة «العمل الصالح يرفعه). . . ألا يتداعى ذهن القارىء إلى الملائكة، تصعد بأعمال الإنسان إلى السماء، وترفع أعماله إليها؟؟. وكما رأينا تجانساً بين رمزي إحياء الأرض وموتها وبين موت الإنسان وإحيائه، كذلك، نجد الآن تجانساً بين (صعود الكلم الطيب، ورفع العمل الصالح) وبين مهمة (الملائكة) التي تصعد بالعمل و ترفعه...

إذن، بهذا النمط من التجانس بين الصور أو الرموز الفنية وبين موضوعات السورة، يحقق النص، إمتاعاً جمالياً للقارىء، نستكشف من خلاله مدىٰ إحكام العمارة القرآنية الكريمة: من حيث العلاقات المتشابكة بين موضوعاتها، بالنحو الذي فصّلنا الحديث عنه.

❊ ❊ ❊

قال تعالى: ﴿**والله خلقكم من تراب، ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحملُ من أنثىٰ ولا تضع إلاّ بعلمه، وما يُعمّر من معمّرٍ ولاينقص من عمره إلاّ في كتابٍ ان ذلك علىٰ الله يسير وما يستوي البحـــران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج، ومن كلٍّ تأكلون لحماً طريّاً، وتستخرجون حليةً تلبسونها، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون**﴾. . .

هذا المقطع من سورة الملائكة، يحوم علىٰ «فكرة» السورة الكريمة التي بدأت بـ ﴿**الحمد لله فاطر السماوات والأرض**﴾ وأشارت إلىٰ مفهوم (الرحمة) ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة. . .**﴾، حيث أنّ الرحمة أو النعمة والشكر عليها تظل هي «الفكرة» التي ستدور عليها موضوعات السورة الكريمة. . . وها هو المقطع الذي نتحدث عنه يشير إلى جملة من معطيات الله تعالى، ويُختَم بقوله تعالى: ﴿**لعلّكم تشكرون**﴾. . . إذن: من حيث عمارة النص، فإنّ

الموضوعات المطروحة: قد ارتبطت عضوياً بهيكل السورة، إمّا من حيث نمط الموضوعات المطروحة، فيُلاحظ أن المقطع طرح جملةً أفكار، منها: إبداعه تعالى للإنسان، وعلمه تعالى بما تحمل الأنثىٰ وما تضع وبعمر الإنسان طولاً أو قصراً، وتثبيت ذلك في اللوح المحفوظ... ومنها: الإشارة إلىٰ نمطي الماء (العذب والمالح).. وسنرىٰ أنّ لهذه الإشارة بين الماءين انعكاساتها علىٰ الموضوعات اللاحقة في النص، ثم: الإشارة إلى الثروة المائية من حيث الإفادة من السمك والإفادة من اللئالي، فضلاً عن وسائل الركوب في الماء ﴿**الفُلك**﴾ والإفادة منها في الأعمال التجارية والأسفار وسواها... هذه النِعَمُ أو المعطيات المتنوعة، شملت نمطَي الإشباع لحاجات الإنسان: الضرورية والثانوية (مثل الماء العذب والحُليّ) مثلما شملت حاجاته المتنوعة (من أكلٍ وشربٍ وملبس ومركب ـ أي المطعم والماء والحليّ والفُلك)... وكما قلنا، فإنّ المقطع القرآني الكريم وظّف هذه المعطيات لهدف عبادي هو (الشكر) عليها، حيث خَتَم سلسلة المعطيات بقوله تعالى ﴿**ولعلّكم تشكرون**﴾ حتى يرتبط هذا المقطع بالفكرة العامة للسورة الكريمة: مع ملاحظة أنّ مطالبته تعالى بالشكر جاءت عقب سرده للنعم التي ترتبط بحاجات الإنسان المباشرة: كالأكل والشرب ونحوهما مما لحظناه حتّىٰ يتبلور مفهوم النعمة والشكر عليها بوضوح سافر.

بعد ذلك، واصل المقطع حديثه عن ظواهر كونية عامة مثل ﴿**يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وسخّر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّى...**﴾ ثم رَبَط بين هذه الظواهر الإبداعية وبين الحياة الاجتماعية المنحرفة التي يحياها المشركون المعاصرن لرسالة محمد(ص)، قائلاً: ﴿**ذلكم الله ربكم، له المُلْكُ، والذين تدعون من دونه، ما يملكون من قطمير ان تدعوهم لا يسمعوا دُعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير يا أيّها الناس: أنتم الفقراء إلى**

الله. . .). لِنلاحظ (قبل أن نتحدّث عن الموضوعات التي تضمّنها هذا المقطع) كيف أنّ المقطع القرآني الكريم قد ربَطَ فنياً بين حديثه عن معطيات الله تعالى والمطالبة بالشكر عليها، وبين سلوك المشركين الذين لا يفقهون المعطيات المشار إليها. . . فالمقطع أشار (بعد أن سَردَ قدرات الله تعالى ومعطياته) إلى أن صاحب القدرات والمعطيات هو ﴿**ذلكم الله ربكم**﴾، وأما الأصنام أو سائر ما يدعو المشركون إليه من دون الله تعالى، فهم ﴿**ما يملكون من قطمير**﴾ أي: ما يملكون أية فاعلية حتىٰ لو كانت بحجم قشرة النَّواة. . . إنّ هذا التشبيه أو التمثيل يظل تركيبة صورية بالغة الإثارة والجمال من حيث ارتكانها إلى واقع حسّي يخبره الناس جميعاً، ومن حيث كونها قد لفتت نظر المتلقّي إلىٰ أصغر أو أبسط ظاهرة مثل (قشرة النواة) لا تستطيع الأصنام أو لا تملك الأصنام قدرة علىٰ تحقيق ذلك، أو ليست للأصنام حتىٰ تملّك هذا القدر البسيط من الظواهر: قبالة قدرات الله تعالى فيما يملك الكون بأجمعه. . . لذلك ختم المقطع حديثه بقوله تعالى: ﴿**أيها الناس: أنتم الفقراء إلى الله. . .**﴾. وبهذا النمط من الصياغة الفنية: ربَطَ المقطعُ أولاً بين سلوك المشركين وبين قدرات الله تعالى من خلال التقابل بين من يملك الكون، وبين من لا يملك قشرة نواة، وربَط المقطع ثانياً بين هذه الموضوعات وبين فكرة السورة الكريمة التي تدور حول معطيات الله تعالى والشكر عليها، كاشفاً بهذا النمط من أشكال الربط الفنّي بين الموضوعات عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص، من حيث علاقة أجزائه: بعضها على الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى، وان تدع مثقلة إلىٰ حملها لا يُحمل منه شيء ولو كان ذا قربىٰ، إنما تنذر الذين يخشون ربّهم بالغيب، وأقاموا الصلاة، ومن تزكّى فإنّما يتزكّىٰ لنفسه وإلى الله المصير وما يستوي**

الأعمىٰ والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء وَلَا الأموات، إنّ الله يُسمِع من يشاء، وما أنت بمُسمع مَن في القبور...﴾.

في هذا المقطع من سورة الملائكة، جملة من الموضوعات، كما أنه يتضمن حشداً من الصور الرمزية المدهشة، فيما يتعيّن الوقوف عندها: لملاحظتها فنياً، وملاحظة موقعها الهندسي من عمارة السورة الكريمة... أما الموضوعات فتتناول ظاهرة تحمّل المسؤولية وانعكاساتها أخروياً، حيث يطرح المقطع قضية الذنوب التي يقترفها الإنسان، وكونه يتحمّلها وحده، دون أن يُؤخَذ بذنب سواه أو يُؤخذ الآخر بذَنبه: حتى مع كون الآخر على صلة قريبة به... ومن الواضح، أنّ المقطع يستهدف مِن طَرحه لهذه الظاهرة حقيقة مزدوجة هي: أنّ كل شخص مسؤول عن نفسه من جانب، وأن الآخرين ليسوا علىٰ استعداد لتحمّل مسؤوليته: عند الحساب من جانب آخر.

بعد ذلك، يخاطب المقطعُ رسول الله(ص) قائلاً: **﴿إنما تنذر الذين يخشون ربّهم بالغيب، وأقاموا الصلاة، ومَن تزكّى فإنما يتزكّى لنفسه، وإلى الله المصير﴾**. إنّ إشارة النص إلىٰ أنه(ص) يُنذر الذين يخشون ربّهم بالغيب، تظل ذات صلة بمجموعة الصور الرمزية التي أعقبت هذه الإشارة...

إذن، لنقرأ أولاً: **﴿وما يستوي الأعمىٰ والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات، إنّ الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور﴾**.

إنّ كلاً من الأعمىٰ والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات إلخ تشكّل رموزاً أو تشبيهات أو استعارات صيغت وفق طابع استدلالي أو حكمي، لذلك اكتسبت أهمية فنية كبيرة من خلال كونها ذات عناصر متنوعة من الصياغة، فهناك عنصر (التكرار)، أي تكرار التشبيهات

أو الرموز المتنوّعة (الأعمىٰ، الظلمات، الحرور، الأموات. . . إلخ).

وهناك ثانياً عنصر (التقابل) بين الرموز، حيث تقابلت الرموز المذكورة مع رموز (البصير، النور، الظل، الأحياء).

ومن الواضح، أنّ عنصر (التكرار) وحده يساهم في تعميق خبرة المتلقي، فإذا أضفنا إليه عنصر (التقابل) أو التضاد بين الأشياء، حينئذٍ تتعمّق خبرة المتلقي بنحو أكثر طالما نعرف أنّ الأشياء تتبلور من خلال أضدادها، فإذا أضفنا إلى ذلك، عنصراً ثالثاً هو: صياغة الموضوعات من خلال التركيب الصوري (تشبيه، استعارة، رمز)، حينئذٍ تتضخم درجة التعميق لخبرة المتلقي، ثم إذا أضفنا إلى ذلك: عنصراً رابعاً هو: صياغة هذه الصور علىٰ نحو استدلالي أو حِكمي مثل (وما يستوي الأعمى والبصير. . . إلخ): حينئذٍ تبلغ الإثارة الفنية درجتها القصوىٰ في صعيد التعميق لخبرة المتلقي. . .

إذن، نحن الآن أمام صور فنية، مدهشة، مثيرة، ذات عمق وطرافة، مضافاً إلى كونها صوراً تُستقىٰ من التجارب أو الظواهر اليومية التي يخبرها الرجل العادي، مثل الأعمىٰ والبصير والظلمات والنور والظل والحرور والأموات والأحياء إلخ، حيث أنّ أُلفتنا لهذه التجارب التي نواجهها يومياً، يكسب الصورة مزيداً من التعميق في إدراكها ومعايشتها، فإذا أضفنا إلى ذلك: عنصراً سادساً هو أنّ لكل واحدٍ من هذه الرموز دلالة خاصة (بالرغم من كونها تبدو وكأنها متماثلة): حينئذٍ يدرك المتلقي أنه أمام صياغة فنية ذات طابع إعجازي: كما سنوضح ذلك لاحقاً. . .

لكن، حسبنا الآن أن نشير إلىٰ هذه السمات المجملة للصور المذكورة، مع ملاحظة جانب كبير من الأهمية هو: أنّ هذه الصورة الفنية جاءت متلاحمة عضوياً مع (الفكرة) التي يحوم عليها النص، حيث استهدف المقطع؟ القرآني الكريم: التأكيد على أنّ إنذار المنحرفين يشكل وظيفة للمبلغ الإسلامي، أمّا

أنّ المنحرفين سوف يعتبرون بهذا الإنذار أو سوف يعرضون عنه: فأمر آخر حسب ما جاء في الآية التي سبقت هذه الصور ﴿**إنّما تنذر الذي يخشون رَبَّهم بالغيب**﴾. . . وهذا النحو من التواشج العضوي بين عنصر «الصورة» وموضوعات النص، يكشف عن الإحكام البالغ لعمارة السورة الكريمة، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات انّ الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور**﴾.

هذه القيمة الفنية التي نطلق عليها مصطلح (الصورة الاستدلالية) مقابل الصورة التشبيهية والاستعارية والرمزية وسواها، تظل من الصور المدهشة التي تواجهنا في الفن المعجز. . . أنّها تتحديث عن المؤمن والكافر، تتحدث عن النموذج الذي يحمل استعداداً لتقبل الحق والخير والإيمان مقابل نموذج آخر قد طبع على قلبه فلا يتقبل الكلمة الخيِّرة. . . وهذان النمطان المتقابلان قد صوّرهما النص القرآني الكريم في صيغ ذات عنصر تشبيهي واستعاري ورمزي: مع إكسابها طابعاً استدلالياً أو حكمياً مثل النماذج المتقدمة (النور مقابل الظلمات) (الظل مقابل الحرور) (البصير مقابل الأعمى) (و الأحياء مقابل الأموات). ومن الواضح أنّ النص القرآني لا يستخدم ـ كما هو طابع الفن البشري ـ عنصر التكرار أو الكلام الزائد أو المترادف بل تظل كل صورة ذات دلالة مستقلة عن الأخرى.

ويمكن ملاحظة هذا التنوع الفنّي في الصور المشار إليها، عندما نواجه أولاً الصورة القائلة ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير**﴾ فقد رمز للكافر أو المنحرف بعامة بـ (الأعمى) ورمز لمقابله بـ (البصير). . . والسر الفني لهذا

الرمز الاستدلالي أنّ النص في صدد تبيين من يتقبل توصيات النبي(ص) وإنذاراته مقابل من يتمرّد عليها، لذلك كان الرمز للأول منهما بعبارة (البصير) مقابل (الأعمى) متجانساً مع طبيعة المستجيب للرسالة مقابل المتمرد عليها، لأنّ «البصير» يبصر الحقائق فيتقبلها والأعمى لا يبصرها فيتمرد عليها. . . بعد ذلك نجد رمزاً استدلالياً آخر هو (ولا الظلمات ولا النور)، فالظلمات ترمز إلى الانحراف والكفر، والنور يرمز إلى الاستواء والإيمان. . . لذلك (من حيث المبنى الهندسي لهذه الصورة) جاءت صورة (الظلمات والنور) استكمالاً لصورة (الأعمى و البصير) نظراً لعلاقة (البصر) بالنور، وعلاقة العمىٰ بالظلام. . . ثم جاءت صورة ثالثة هي (ولا الظل ولا الحرور). . . هنا قد نتساءل: ما هي العلاقة العضوية بين الصورة الأخيرة والصورة السابقة؟ أنّ (الظل) يستريح إليه الإنسان ويحقق له إشباعاً من جانب واجتناباً من الألم من جانب آخر ، أي (ألم الحرّ)، ويقابله (الحرور) الذي يسبب الألم للإنسان. . . وفي ضوء هذه الحقيقة يستطيع المتلقي أن يستكشف بسرعة: أنّ الإيمان والكفر يتقابلان في مستويات متنوعة: مادياً وروحياً، فهناك (النور) مقابل (الظلام) حيث يرمزان إلى حقائق مادية. . . والأن، بعد أن انتهى النص من تقرير هذه الحقائق التي بدأها أولاً برسم (البصير والأعمى)، ختم الصور المذكورة بصورة هي ﴿**وما يستوي الأحياء ولا الأموات، إنّ الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمعٍ من في القبور**﴾.

هذه الصورة التي ختم بها المقطع الصوري المشار إليه، تنطوي على أسرار فنية مدهشة لا بد من الوقوف عندها. . . لكن ـ قبل ذلك ـ ينبغي أن نعرض لموقعها الهندسي من الصور السابقة عليها. . . فالملاحظ أنّ صورة ﴿**وما يستوي الأحياء ولا الأموات**﴾ قد صيغت بعبارة مماثلة للصورة الأولى ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير**﴾ أي: الصورة الأولى والصورة الأخيرة تماثلتا في الصياغة من خلال عبارة (وما يستوي). . . بينما نجد أنّ الصورتين اللتين

جاءتا في الوسط وهما ﴿ولا الظلمات ولا النور﴾ ﴿ولا الظل ولا الحرور﴾ قد صيغتا بعبارة أخرى هي (ولا)... لذلك لا بد أن نستكشف هذا السر الفني للصياغتين المختلفتين المشار إليهما، وأول ما يمكن ملاحظته هنا، أنّ الصورتينْ الأولى والأخيرة جاءتا مفصلتين لحقائق الوعي والاستبصار والإدراك، بينما جاءت صورة النور والظلمات وصورة الظل والحرور مفصلتين لحقائق روحية ومادية تتصل بمعطيات الإيمان والكفر، وهذا ما جعل الصور ذات الطابع المرتبط بالوعي مشفوعة بعبارة ﴿ما يستوي﴾: تفصيلاً لهذه الحقيقة التي تستهدف الإشارة إلى من يتقبل الإسلام مقابل من تمرد عليه، بينما جاءت الصور ذات المعطى المادي والروحي غير مشفوعة بعبارة الاستواء بل بمجرد الأداة النافية (ولا)...

ولا شك، أنّ النص عندما استهدف ربط من يتقبل أو يرفض مبادىء الإسلام برمزي البصير والأعمى، ثم برمزي (الأحياء والأموات) إنّما جعلهما ـ من خلال (بداية) و(نهاية) ـ تتواشجان فيما بينهما بنحو يكشف لنا عن مدى الإحكام الهندسي للنص، بالنحو الذي أوضحناه، وبالنحو الذي سنوضحه لاحقاً إنشاءالله تعالى.

* * *

قال تعالى **﴿وَما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات انّ الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير...﴾**.

تحدثنا عن الأسرار الفنية للصورة التشبيهية والاستعارية والرمزية (للأعمى) مقابل (البصير)، والظلمات مقابل النور و«الحرور مقابل الظل»، وعلاقتها العضوية بفكرة السورة الكريمة. أما الآن فنتحدث عن الصورة الأخيرة التي ختم بها العنصر الصوري من المقطع، ونعني بها صورة **﴿وما**

يستوي الأحياء ولا الأموات، إن الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمعٍ من في القبور...﴾ هذه الصورة الرمزية (أي عدم استواء الأحياء ـ وهو رمز للمؤمنين ـ مع الأموات ـ وهو رمز، للمنحرفين) تظل محتشدة بأسرار ووظائف فنية متنوعة، منها ما هو مرتبط بالصور السابقة (حيث أوضحناها في حينه) ومنها: ما هو مرتبط بفكرة النص، ومنها ما هو مستقل في ذاته... وهذا الجانب الأخير يمكن ملاحظته من خلال صور أخرى قد شكلت مع صورة (الأحياء والأموات) صورة موحدة استمرارية، حيث عقب النص على ذلك بقوله ـ مخاطباً النبي(ص) **﴿إنّ الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلاّ نذير﴾**. هذه الصورة الموحدة ذات طابع استدلالي يشير إلى أنّ من يضمّه القبر لا يسمع أصوات الآخرين... ترى: ما هو السر الفني لهذه الصورة الاستدلالية وما تنطوي عليه من الرموز؟. طبيعياً، ما دام المقطع القرآني الكريم قد أوضح أولاً بأنه **﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾** حينئذٍ فإنّ الحيّ والميت ـ وهما رمزان للمؤمن والمنحرف كما قلنا أو هما رمز للواعي وعديم الوعي، سوف يعقبها كلام صوري يتناسب مع دلالات هذين الرمزين، لذلك جاء الكلام بأنّه **﴿إنّ الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور﴾** فالرمز أو الاستدلال الرمزي الذي يتوكأ على ظاهرة (الإسماع) جاء متجانساً مع رمزي **﴿الأحياء والأموات﴾** طالما ندرك بأنّ الميت لا يسمع أصوات الأخرين، ولا يعي شيئاً من أقوالهم، ثم، بما أنّ مهمة التبليغ تعتمد على الكلام، حينئذٍ فلا بدّ من مجيء الرمز متوكئاً على ما له ارتباط بإسماع الكلام.

ومن هنا جاءت ظاهرة (الإسماع) تفسّر لنا السر الفني وراء انتخابها رمزاً محدداً دون سواها من الرموز، وإلاّ كان من الممكن أن يقول النص بأنّ أهل القبور لا (وعي) لديهم، ولكنه استخدم (السمع) بدلاً من الوعي للسبب المتقدم. وأما رمز (القبور) فمن الوضوح بمكان، حيث أنّ (الميت) الذي لا

يسمع شيئاً هو من يضمّه (القبر) دون سواه من الأمكنة كما هو بيّنٌ، بيد أن الأهم من ذلك كله، أن هذه الرموز (الميت) (عدم الإسماع) (القبر) جاءت ذات طابع استدلالي وليس مجرد صُور رمزية، بصفة أن النبيّ(ص) كان مضطلعاً بإيصال الرسالة إلى الآخرين، وبما أن الآخرين (وهم طائفة من المنحرفين) لم يستجيبوا للرسالة، حينئذٍ جاء الاستدلال الصوري مسوّغاً لهذا النمط من الصياغة التي تقول (مخاطبة النبيّ(ص)) إنك نذير فحسب، وأن الله هو الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء تبعاً للاختيار الذي يملكه الشخص من تقبّل الخير ورفضه، وإنّك لا يمكن أن تُسمع من يستقر في (القبر): نظراً لكونه ميتاً. . . طبيعياً، أن النص القرآني لا يتحدث بهذا التفصيل، بل يعتمد الاقتصاد اللغوي في رسم هذه الحقائق، تاركاً القارىء أن يستوحي بنفسه هذه الدلالات، وهو سمة الفن العظيم. . . فهو بدلاً من أن يقول (إنك لا تسمع الموتى ـ كما استخدم هذه الصورة في موقع آخر) قال إنك لست بمسمع من في القبور أي جاء برمز القبر بدلاً من الميت لأنه سبق أن قال (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) وحينئذٍ جاء رمزاً آخر لا يحمل سمة التكرار، فضلاً عن كونه ذا دلالة غنيّة وطريفة، والأهم أيضاً، أن هذه الصور جاءت في سياق الحديث عن كون النبيّ(ص) (نذيراً) للآخرين، حيث سبقتها عبارة تقول (إنما تنذر الذين يخشون ربهم) وخُتمت بعبارة ﴿**ان أنت إلاّ نذير**﴾. وهذه البداية والنهاية وما انتظمها من الوسط المرتبط بها، يكشف عن مدىٰ الأحكام الهندسي للنص من حيث علاقة الموضوعات بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى ﴿**أَلَمَ تَرَ أَنَّ الله أنزلَ منَ السَّماءِ ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدد بيض وحُمر مختلف ألوانها وغرابيبُ سود ومن الناس**

والدواب والأنعام مختلف ألوانه، كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماءُ، ان الله عزيز غفور. . .﴾.

هذا المقطع يتحدث عن جملة من الظواهر الإبداعية التي تُعدّ امتداداً لما سبقها: حيث اختتمت السورة الكريمة بجملة من الظواهر الإبداعية لله تعالى، وحيث جاء الوسط من السورة يواصل الحديث عنها، ومنها: هذا المقطع الذي نتحدث عنه الآن... طبيعياً، أن الهدف الفكري من رسم هذه الظواهر هو رَبْطُها بالمهمة العبادية للإنسان، والمطالبة بالشكر عليها، لكن بما أنّ الناس على مستويات مختلفة من الإفادة من هذا التذكير لهم بمعطيات الله تعالى، حينئذٍ نجد أن النص القرآني الكريم يرسم هذه الظواهر ليربطها بسلوك الإنسان عبادياً، فيعرض حيناً للمنحرفين وأخرى للمؤمنين وثالثةً للمتراوحين بين هذا الفريق أو ذاك. . . والآن، لنقف عند هذه الظواهر الإبداعية وملاحظة ربطها بسلوك الناس. . . يقول النص:

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً، فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها. . .﴾. لقد سبق للسورة الكريمة أن أشارت إلى معطى (المطر) أيضاً، إلاّ أن الإشارة هناك كانت في سياق خاص هو ربط المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها بعملية إحياء الإنسان بعد موته في اليوم الآخر (فأحيينا به الأرض بعد موتها: كذلك النشور)، أمّا الآن، فإنّ النص عندما يرسم ظاهرة المطر فإنّه يرسمها في سياق جديد هو: تسبيبه لإخراج الثمرات المختلفة (فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها). إذن، جاء (عنصر التكرار) ـ من زاوية البناء الفنّي لهيكل السورة الكريمة ـ يحمل وظيفة عضوية هي: ربط الموضوعات بعضها مع الآخر، مع تأكيدٍ على ظاهرة دون أخرىٰ، حتى يلفت النظر إلى أهمية الظاهرة التي يكرر الحديث عنها، ومنها: ظاهرة المطر التي تحمل معطيات متنوعة. . . بعد ذلك: يتجه المقطع القرآني الكريم إلى عَرْض معطيات أخرى

هي (الجبال) فيقول: ﴿**ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها، وغرابيب سود**﴾ ثم يذكر معطيات أخرى غير ما تقدّم فيقول: (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه)... فالملاحظ (من الزاوية الفنية) أن الرَسْمَ لهذه المعطيات قد تمّ من خلال عنصر مشترك بينها هو (اختلاف الألوان)، فالثمرات التي يسبّبها المطر، رسمها النص بقوله (ثمرات مختلفاً ألوانُها)، والجبال قد رسمها بقوله: (... وحمر مختلف ألوانها)، والناس والدواب والأنعام، رسمها النص بقوله (... والأنعامِ مختلف الألوانُ).

إذن، عبارة (مختلف ألوانه)، جاءت عنصراً مشتركاً يتكرر في هذا المقطع الذي يتحدث عن معطيات الله تعالى في صعيد الثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام... وما دمنا (في هذه الدراسات) نُعنى ببناء السورة القرآنية من حيث علاقة أجزائها: بعضها مع الآخر، حينئذٍ ينبغي ألاّ نمرّ عابراً على هذه الظاهرة الجمالية التي أشرنا إليها، ونعني بها: هذا الرسم الفنّي للظواهر الإبداعية (الثمرات، الجبال، الدواب، الأنعام... إلخ) حيث ربط المقطع بينها جميعاً، من خلال إخضاعها لعنصر مشترك يوحّد بين موضوعاتها، وهو عنصر: (اختلاف الألوان) الذي يطبعها جميعاً...

إنّ (اختلاف الألوان) ظاهرة (جمالية) دون ادنىٰ شك، فالثمرات بألوانها المتنوعة، والجبال بألوانها: البيض، والحمر، والسود، ثم: الناس والدواب والأنعام بمختلف ألوانها، يشكل ظواهر (جمالية) من حيث الإشباع الحسّي لأحد الدوافع المركبة في الإنسان وهو: الدافع أو الحاجة إلى الجمال»... إلاّ أنّ هذا الدافع أو الحاجة لا فاعلية له إلاّ من خلال كونه وسيلةً يستثمرها الإنسان لتحقيق المهمة العبادية، ولذلك ربط المقطع القرآني الكريم بين هذه الظواهر الجمالية وبين المهمة العبادية للإنسان، حينما عقبَ على ذلك مباشرةً بقوله تعالى ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾. وبهذا الربط، نستكشف مدى

الإحكام العضوي لعمارة السورة الكريمة من حيث علاقة موضوعاتها بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قلنا إنّ الهدف الفكري لرسم الظواهر الإبداعية مثل الثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام هو ربطها بالمهمة العبادية للإنسان، لذلك، ما أن انتهى المقطع القرآني الكريم من عرضه لهذه الظواهر حتى وصلها بقوله تعالى: ﴿**كذلك إنّما يخشى الله من عباده العلماء**﴾... طبيعياً، أنّ (اختلاف الألوان) التي أشار المقطع إلى تحققها في الثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام، بالرغم من كونها ذات سمة جمالية تحقق واحدة من حاجات الإنسان الذوقية، إلاّ أنّها ـ في الآن ذاته ـ تنطوي هذه الألوان على معطيات ضرورية تتصل بطعام الإنسان وملبسه ومركبه ومسكنه وسائر الحاجات الضرورية والثانوية، فالثمرات (ذات الألوان المختلفة) هي في الآن ذاته ذات عناصر غذائية، والأنعام (ذات الألوان المختلفة) تنطوي على نفس المعطيات، والدواب (ذات الألوان المختلفة) تنطوي على معطيات الركوب والحمل وسواهما... والجبال (ذات الألوان المختلفة) تنطوي على أحجار ثمينة تستخدم لأغراض جمالية، فضلاً عن أحجارها وصخورها المستخدمة للبناء وسواه... أمّا الناس «في مختلف ألوانهم»، فإنّ معطياتهم لا تحتاج إلى تعقيب، ما دامت «العلاقات الاجتماعية» بما يواكبها من تبادل المصالح تجسّد المعطيات المذكورة. إذن: الحاجات الجمالية والحاجات الرئيسة ـ وهما قمة الإشباع الذي ينشده الإنسان ـ قد توفرت في تلكم المعطيات التي عرضها المقطع القرآني الكريم... وحيال مثل هذه المعطيات الضخمة ينبغي أن تكون استجابة الإنسان ضخمة أيضاً، وهو أمر لا يعيه الإنسان العادي بقدر ما يعيه الإنسان المستبصر.

لذلك، عقّب المقطع القرآني الكريم على هذا الجانب بقوله تعالى: ﴿**إنّما يخشى الله من عباده العلماء**﴾، حيث أشار إلى (العلماء) دون سائر الناس بأنّهم يخشون الله تعالى نظراً لكونهم يعون كل الوعي ضخامة هذه المعطيات، ومن ثم يدركون تماماً بأنّ الظواهر الإبداعية المشار إليها، ينبغي أن تقرن بإدراك السر العبادي لها، وهو: تجسيد خلافة الناس في الأرض، أي: أن يلتزم الإنسان بمبادىء الله تعالى، ممارساً مهمته العبادية التي خلق من أجلها أساساً. . . لذلك أيضاً، نجد أنّ النص القرآني الكريم، يتابع حديثه عن الشخصيات التي أدركت مهمّتها العبادية، فيعرض لبعض سماتها، قائلاً: ﴿**إنّ الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة، وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية، يرجون تجارة لن تبور. . .**﴾. ثم يعرض مستويات الإيمان لدى مختلف الشخوص، فيقول: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله. . .**﴾.

هذا التقسيم لطبقات الناس يكشف عن درجات الوعي العبادي لدى هذا الشخص أو ذاك، أي: مستوياتهم العليا والوسطى والدنيا، فإذا ربطنا ذلك بالعبارة السابقة التي تقول: ﴿**إنّما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ حينئذٍ نستكشف السر الفني الكامن وراء العرض للظواهر الإبداعية (الثمرات، الجمال. . . إلخ)، حيث تتحدّد مستويات الناس تبعاً لدرجة وعيهم العبادي بضخامة المعطيات التي يغدقها الله تعالى على عباده، ثم استكناه السر العبادي وراء ذلك، حيث تتصاعد درجة الإيمان بالله تعالى تبعاً لحجم الوعي الذي يصدر عن هذا الشخص أو ذاك، ومن ثم تتصاعد درجة (الخشية) من الله تعالى تبعاً لضخامة الوعي بمعطياته تعالى، ويلاحظ، أنّ النص القرآني الكريم قد لوّح بالجزاء الأخروي للمؤمنين الذين تقدمت الإشارة إليهم قائلاً: ﴿**جنات عدن يدخلونها، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير**

وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إنّ ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله، لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسّنا فيها لغوب﴾. إنّ هذه الملامح التي رسمها النص (بالنسبة لبيئة الجنة) تتناسب فنياً مع الحاجات الجمالية التي عرضها (بالنسبة لبيئة الحياة الدنيا): من حيث تنوّعها وضخامة معطياتها، كما سنوضح ذلك لاحقاً، مما يكشف ذلك عن مدى الإحكام الهندسي للنص: من حيث تلاحم جزئياته، بعضها عن الآخر بالنحو الذي أوضحناه.

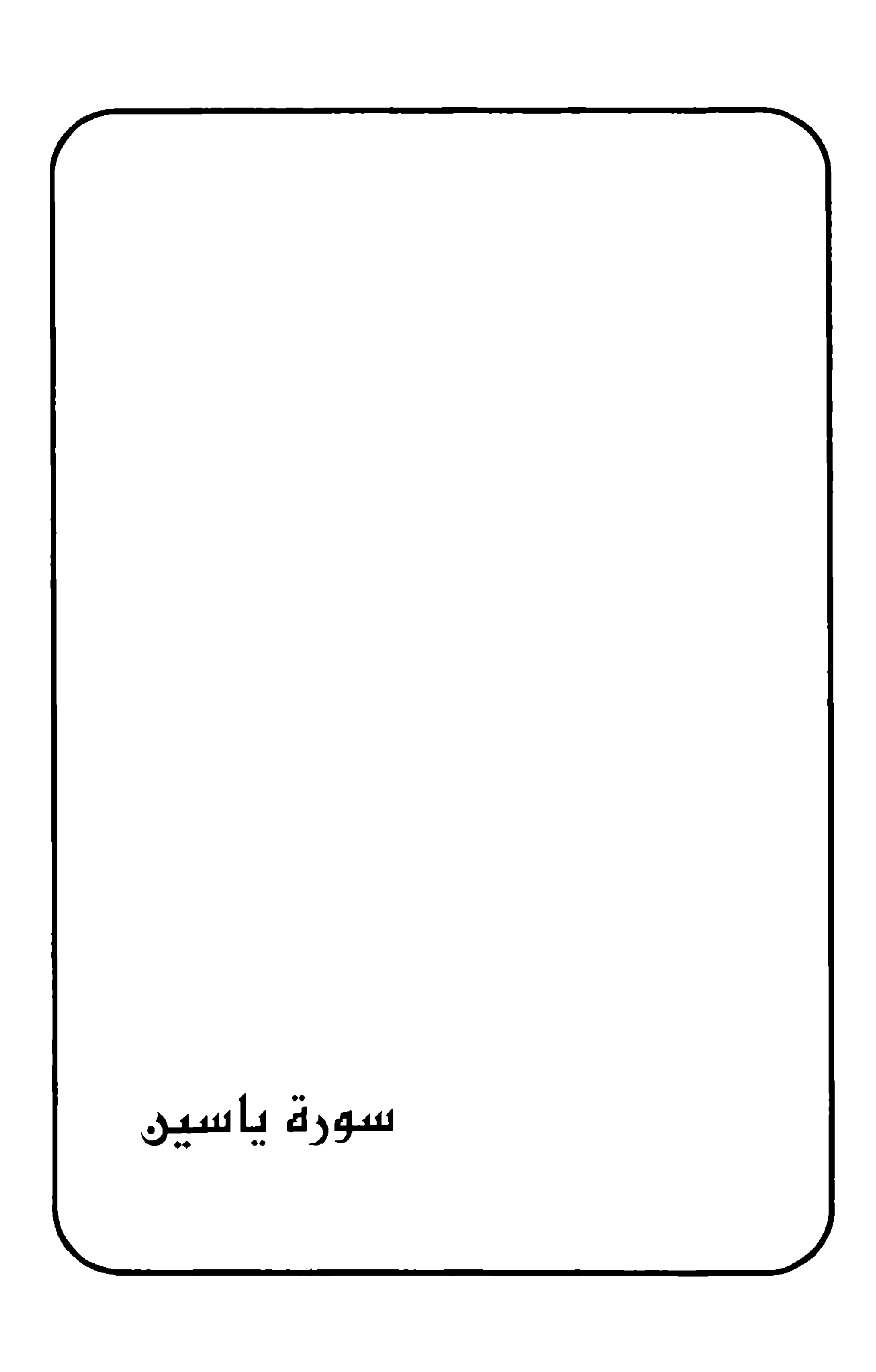
* * *

قال تعالى: **﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السماوات، أم آتيناهم كتاباً، فهم على بيّنة منه، بل إن يعِدُ الظالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً إنّ الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنّه كان حليماً غفوراً. . .﴾**.

بهذا المقطع وما بعده تختم سورة الملائكة التي استهلّت بالحديث عن فاطر السماوات والأرض، وإنّه **﴿ما يفتح الله للنّاس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده. . .﴾**، وها هي السورة الكريمة تختم بنفس الموضوع الذي استهلت به، حيث يقول المقطع **﴿إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾** . . .

لنلاحظ كيف أنّ السورة بدأت بالحديث عن السماوات والأرض وأنّ الله إذا أمسك فلا مرسل من بعده، وإن فتح الرحمة فلا ممسك لها، حيث تطوّرت هذه الفكرة وتنامت عضوياً خلال الموضوعات المتنوعة، حتى تختم بفكرة الإمساك نفسها، ولكن من خلال مفهوم العطاء أو الرحمة التي عرض النص القرآني جملة من مصاديقها مثل: المطر والنبات والجبال والدواب

والأنعام... إلخ، ومن جملتها أيضاً ظاهرة السماوات والأرض التي فطرها، حيث تنطوي هذه الظاهرة على معطيات الله تعالى أيضاً، ولذلك ختم الحديث عن المعطيات بقول تعالى ﴿**إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنّه كان حليماً غفوراً...**﴾ إنّ عطاء السماوت والأرض يتمثل في ثباتهما الذي لولاه لما اتيح للكائن الآدمي أن يستقر في الأرض... والمهم ـ بعد ذلك ـ أن يفيد الإنسان من هذا المعطى وسواه من المعطيات التي تقدم ذكرها في السورة الكريمة، حتى يستثمر ذلك عبادياً، ويمارس مهمته الخلافية في الأرض... لذلك، اتجه النص القرآني الكريم إلى عرض سلوك المنحرفين الذين لم يفقهوا هذه الأسرار العبادية، ولفت نظرهم إلى بعض أنماط سلوكهم، فيما يتنافى مع حقائق الكون الذي أبدعه الله تعالى حيث تساءل قائلاً ﴿**أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ أم لهم شركٍ في السماوات؟**﴾. إنّ النص القرآني الذي ركز على ظاهرة السماوات والأرض، ثم على خلق الله تعالى، قد ربط بينها وبين موقف المشركين الذين يدعون من دون الله تعالى، قائلاً لهم: ﴿**أروني ماذا خلقوا من الأرض؟**﴾ ﴿**أم لهم شرك في السماوات**﴾. وبهذا الربط، ندرك بوضوح مدى الإحكام الهندسي للنص.



سورة ياسين

قال تعالى ﴿**يس، والقرآن الحكيم إنّك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. . .**﴾.

بهذا المقطع تفتتح سورة ياسين، حيث تناول هذا المقطع موضوعاً هو «إنذار» المنحرفين ﴿**لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون**﴾، مع ملاحظة أنّ هؤلاء المنحرفين سوف لن يعتبروا بالإنذار ﴿**وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾. . .

إذن، من حيث العمارة الفنية للسورة الكريمة، نجد أنّ العنصر القصصي وغيره قد وظف من أجل إنارة «الفكرة» التي تحوم عليها السورة الكريمة، أي: فكرة أنّ المنحرفين (في صعيد أحد المجتمعات المحلية) سوف لن يؤمنوا برسالة السماء، لكن، قبل أن نتحدث عن القصة المشار إليها، وعلاقتها بعمارة السورة الكريمة بشكل مفصل، ينبغي أن نعرض للعناصر الفنية الأخرى التي تضمنها هذا المقطع الذي استهل به النص، ولعل أبرز العناصر الفنية التي تواجهنا في هذه المقدمة، هو: عنصر «الصورة» حيث نواجه مجموعة من الصور الاستعارية والرمزية التي رسمها المقطع في رصده لسمات المنحرفين وما يترتب على انحرافاتهم من الجزاءات التي تنتظرهم. . .

الصورة الفنية التي رسمت ملامح هؤلاء المنحرفين هي ﴿**أنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً، فهي إلى الأذقان، فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً، فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾. هذه الصور قد تكون «واقعية»

وقد تكون «رمزية»، وفي الحالين؛ الصورة الواقعية تتمثل في كون المنحرفين في اليوم الآخر تجعل الأغلال في أعناقهم وتشد بها أذقانهم، فترفع رؤوسهم إلى الأعلى كالإبل بحيث لا يملكون حراكاً لرؤوسهم: امعاناً في العذاب، كما أنّهم حينما يدخلون جهنم تجعل أمامهم السدود كما تجعل من خلفهم بحيث لا يملكون حراكاً لأنفسهم: إمعاناً في العذاب... وهناك صورة «واقعية» أخرى أشار المفسرون إليها أيضاً وهي أنّ هؤلاء المنحرفين قد تدخلت السماء في سلوكهم عندما قرّروا إيذاء النبي صلى الله عليه وآله مثل إلقاء الحجر عليه أو ضربه إلخ، حيث جعل الله تعالى في أعناقهم أغلالاً، وسمر رؤوسهم، وجعل السدود أمامهم وخلفهم، حتى يشلهم عن الحركة تماماً...

أما التفسير الثالث لهذه الصور فيتمثل في كونها «رموزاً» فنية تشير إلى أنّ الأغلال والسدود وهي حواجز معنوية تحتجزهم عن الهداية، ويكون تسمر الرؤوس وشد الأعناق إلى الأذقان بواسطة الأغلال: تعبيراً رمزياً عن خواء الأفكار وتحجّرها، ويكون السد من بين أيديهم ومن خلفهم: تعبيراً رمزياً عن عدم إمكان استبصارهم ذات يوم حيث تحتجزهم السدود عن معاينة الهداية... ونحن إذا نظرنا إلى سياق الموضوعات التي تتضمنها السورة الكريمة، أمكننا أن نلحظها متجانسة مع جميع التفسيرات المشار إليها، حيث أنّ تفسيرها في ضوء الجزاء الأخروي يتجانس مع نهاية المقطع الذي يقول: **﴿إنّا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾**، كما أنّ تفسيرها في ضوء الانغلاق الفكري والروحي الذي يطبع المنحرفين يتجانس مع وصف المقطع لهؤلاء الشخوص الذين قال عنهم **﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾**، حيث أن عدم هدايتهم البتة يتجانس مع الصورة الرمزية التي أشارت إلى الأغلال والسدود: بصفة أنّها (أي الأغلال والسدود) رموز لإغلال الفكر وسدوده.

إذن، في الحالات جميعاً، نجد أنفسنا أمام صور فنيّة وظفها النص

لإنارة (فكرة) خاصة هي: أنّ المنحرفين (في بعض نماذجهم) لا يمكن أن يهتدوا ذات يوم، كما سنجد أنّ عنصر (القصة) يتآزر مع عنصر (الصورة) في إنارة هذه الفكرة: حيث سنواجه بعد هذا المقطع قصة ممتعة تتحدث عن مجتمع بأنّه أرسل إليه أكثر من رسول، ومع ذلك لم يوفق إلى الإيمان... وهذا النمط من التآزر بين عناصر النص والقصة والصورة ثم تآزر هذه العناصر جميعاً مع موضوعات السورة الكريمة، يكشف عن مدى الإحكام الهندسي للنص، من حيث تلاحم أجزائه بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى ﴿**واضرب لهم مثلاً: أصحاب القرية، إذا جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم إثنين فكذّبوهما فعززنا بثالث، فقالوا إنّا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلاّ بشر مثلنا وما أنزل الرحمان من شيء إن أنتم إلاّ تكذبون قالوا ربنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون وما علينا إلاّ البلاغ المبين قالوا إنّا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم، أإن ذُكِّرتُم، بل أنتم قوم مسرفون...**﴾.

نواجه الآن أقصوصة في سورة ياسين التي افتتحت بالحديث عن المنحرفين الذين لا أمل في إصلاحهم، حيث جاء في آخر المقطع الافتتاحي قوله تعالى: ﴿**وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾. هذه الآية تحمل وظيفة فنيّة هي إنماء وتطوير الموضوعات اللاحقة في السورة... وفعلاً، نواجه في المقطع الثاني من السورة هذه الأقصوصة التي تحوم على (فكرة) هي: أنّ المنحرفين سوف لن يؤمنوا برسالات السماء... أي نفس الفكرة التي انطوت عليها بداية السورة الكريمة، الأقصوصة تتحدث عن بعض المجتمعات البائدة، تتحدث عن مدينة خاصة أرسل إليها أكثر من رسول ﴿**واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون**﴾. وعندما تفتح القصة

بالحديث عن مجموعة من المرسلين وليس عن مرسل واحد، فهذا يعني أنّ مجتمع هذه المدينة قد بلغ بهم الانحراف لدرجة أن الرسول الواحد لا يمكنه أن يعدّل من سلوكها. . . بل أنّ مجموعة من الرسل لم يتح لهم أن يحققوا ذلك، وهذا يعني ـ كما هو واضح ـ أنّ الانحراف في مجتمع هذه المدينة بلغ درجته القصوى، مما يتجانس مع مقدمة السورة التي قالت: **﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾**.

لكن لنرَ كيفية الصياغة الفنية التي سلكها النص القرآني الكريم في معالجة هذا الموضوع. . . لقد أجمل النص أولاً بأنّ هناك مدينة قد جاءها المرسلون. . . ثم بدأ يفصل الحديث عن المرسلين فقال: **﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما، فعززنا بثالث. . .﴾**. هذا التفصيل له قيمته الفنية المدهشة، حيث كان من الممكن أن يقول النص بأنّ هناك مدينة منحرفة أرسل إليها ثلاثة، فلم يفلحوا في إصلاحها، ولكنه قال أولاً: **﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾** ثم قال **﴿فكذبوهما، فعززنا بثالثٍ﴾** أي أنّه ذكر أولاً بأنّ اثنين من المرسلين قد بعثا إلى المدينة، ولكن القوم كذّبوهما، لذلك عززنا المرسلين بمرسل ثالث ... هذه الصياغة لأرقام المرسلين: الاثنين، ثم الثالث، وكون هذا الثالث قد عزز من أجل الاثنين السابقين، لا بد أن تحمل أسراراً فنية تتجانس مع (فكرة) السورة التي تقول بأن المنحرفين **﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾**. . . وأول ما يتبادر إلى الذهن، أنّ السر الفني لكون المرسلين اثنين وليس واحداً هو، أن الاثنين يتآزران في توصيل الرسالة بحيث يكمل أحدهما مهمة الآخر من جانب، وكون أنّ الاثنين أشد تأثيراً في الإقناع من الشخص الواحد، لكن بما أنّ المنحرفين قد كذبوا الشخصين السابقين، حينئذٍ جاءت الحاجة إلى شخص ثالث يضطلع بمهمة تختلف عن المهمة السابقة للرسولين: بحيث يتوسّل بأسلوب آخر يكمّل به مهمة الرسولين، وتكون الحجة على المنحرفين كاملة.

طبيعياً، أنّ القصة لم تذكر لنا الوسائل التي استخدمها الرسولان، ولا الوسيلة التي استخدمها الرسول الثالث، إلاّ أنّ رجوعنا إلى النصوص المفسّرة يلقي الضوء على هذه الوسائل، كما أنّ الملاحظ الفني يمكنه أن يستنتج بأن الأساليب لابد أن تتفاوت بين المرسلين، وأنّ الثالث بخاصة لا بد أن يستخدم أسلوباً يختلف عن أسلوب رفيقيه.. وهو أثر سنوضحه لاحقاً، إلاّ أنّنا نعتزم هنا الإشارة إلى أنّ هذا النمط من الصياغة الفنية لأعداد المرسلين، يتجانس عضوياً مع مقدمة السورة الكريمة، وأنّ المنحرفين ما داموا... كما ذكرت مقدمة السورة ـ لم يؤمنوا برسالات السماء سواء أأنذروا أم لم ينذروا، حينئذٍ فإنّ إرسال أكثر من واحدٍ سوف يتناسب مع حقيقة عدم إيمانهم... مضافاً إلى أنّ النص حينما أجمل أولاً بأنّ هناك مجموعة من المرسلين، ثم فصّل ذلك برسولين، فالتعزيز بثالث، هذا النمط من الصياغة يفصح عن مدى الإحكام الهندسي لعمارة السورة الكريمة، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى ﴿**واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما فعزّزنا بثالثٍ، فقالوا: انا إليكم مرسلون...**﴾ قلنا إن هذا التفصيل لعدد المرسلين وكونهم اثنين أولاً، ثم تعزيزهما بثالث: إنّما ينطوي على أسرار فنية ترتبط بفكرة السورة الكريمة من جانب (حيث أن تنوعهم وكثرتهم تتجانس مع فكرة السورة الذاهبة إلى أن المنحرفين لم يؤمنوا، سواء أنذروا أم لم يُنذروا)، وترتبط من جانب آخر بطبيعة الوسائل التي استخدمها المرسلون، بحيث تستوجب مثل هذا التفصيل...

تقول النصوص المفسّرة، أن الرسولين الأولّين قد سجنهما حاكم المدينة بعد أن رفض دعوتهما إلى الله تعالى... وهذه الحادثة تستوجب (من وجهة النظر الفنية) إرسال شخصية ثالثة تقوم بمهمتين، أولاهما: محاولة إنقاذهما

من الأذىٰ، والأخرىٰ: استكمال المهمّة العبادية أي: تبليغ الرسالة إلى المجتمع المنحرف المذكور... وفي ضوء هذا الاستنتاج الفني لا بدّ أن يتميّز الرسول الثالث بسمات خاصة تتناسب مع تينك المهمتين... لذلك ـ وهذا ما أيدته النصوص المفسّرة ـ استخدم هذا الرسولُ أسلوب المجاملة السياسية مع حاكم المدينة، فصادق كبار المسؤولين أولاً، ثم رفعوا خبره إلى الحاكم، فاستدعاه وأنس بمعاشرته، حتى استطاع بأسلوب أو بآخر أن يستفسر منه عن حال السجينين، وأن يحمله علىٰ استدعائهما للاستفسار عن مهمتهما، وهنا تقمص الرسول الثالث شخصية المتجاهل لهما، فسألهما عن مهمتهما، وطلب منهما تقديم أدلّة حسيّة علىٰ صدق دعوتهما من نحو إحياء الميت وإبراء المريض (بصفة أن الرسل الثلاثة بعثوا من قبل عيسى عليه السلام إلى المدينة المذكورة، وكانت معجزاته متمثلة في إبراء الأكمه والأبرص... إلخ). النصوص المفسرة تتراوح بين الذهاب إلى نجاح المهمة التي اضطلع بها الرسول الثالث، وبين إخفاقه فيه.

ولكن ـ في الحالين ـ ما دام الهدف هو استكمال الحجة علىٰ المنحرفين، حينئذٍ فإنّ التفسير الفنّي الذاهب إلى أنّ التفاوت في أساليب التبليغ للرسالة، يكشف عن السر الكامن وراء التفصيل المذكور... ونحن ما دمنا نُعنىٰ بالبناء الهندسي للنص وصلة أجزائه بعضها مع الآخر، حينئذٍ لا بدّ من ملاحظة الصلة العضوية بين موضوعات المقطع، حيث اتّضح مدىٰ التجانس بين فكرة السورة الكريمة وبين موضوعات المقطع الذي فصّل الحديث عن المرسلين الثلاثة والفارقية بين الأولين والثالث منهم... والآن: حين نتابع المقطع المذكور، نجد مستويات أخرىٰ من التلاحم العضوي بين فكرة السورة الكريمة التي تحوم علىٰ إبراز سلوك خاص لبعض المنحرفين ممن لا يؤمنون بالحق (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)، وبين الموضوعات المطروحة في النص... وهذه الموضوعات (في المقطع الذي

نتحدث عنه) تتجسّد في القسم الجديد من القصة (قصة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون الثلاثة). . . فما هي محتويات هذا القسم؟.

بعد أن مارس الرسلُ الثلاثةُ مهمتهم في تبليغ الرسالة إلى هؤلاء المنحرفين، كان ردّ الفعل من قبل المنحرفين هو الرفض بطبيعة الحال، لأن مقدمة السورة الكريمة أو فكرتها الدائرة على أنّه (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)، تستوجب فنّياً أن يكون أصحاب القرية نموذجاً للأشخاص الذين يرفضون الخير، سواء أأنذروا أم لم يُنذروا. . .

ولنستمع إلى أجوبتهم للرسل الثلاثة:

﴿قالوا: ما أنتم إلاّ بشر مثلنا، وما أنزل الرحمـن من شيء، إن أنتم إلاّ تكذبون﴾. . . ثم ماذا كان جواب المرسلين الثلاثة:

﴿قالوا: ربّنا يعلم انا إليكم لمرسلون وما علينا إلاّ البلاغ المبين﴾).

وهنا أجاب المنحرفون من جديد:

﴿قالوا: إنا تطيّرنا بكم، لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسنّكم منّا عذاب أليم﴾. . .

ومن جديد، ردّ المرسلون عليهم:

﴿قالوا: طائركم معكم، أإن ذُكِّرْتُمْ، بل أنتم قوم مسرفون﴾.

هذه الصيغ الحوارية المتنوعة بين الرسل الثلاثة والمنحرفين، تنطوي على أسرار فنية ممتعة، تتناسب مع فكرة السورة التي تؤكد استحالة الهداية لبعض المنحرفين: سواء بلّغوا أم لم يُبلغوا، كما تكشف عن ضرورة عملية تبليغ للرسالة: بغض النظر عن استجابة المنحرفين أو عدم استجابتهم، مما سنفصّل الحديث عنه لاحقاً، بيد أنّنا نعتزم الإشارة هنا إلىٰ مدىٰ الاحكام الهندسي للنص من حيث علاقة موضوعاته: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي ألمحنا إليه.

قال تعالى ﴿**وجاء من أقصى المدينة رجل يسعىٰ قال: يا قوم اتّبعوا المرسلين اتّبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مُهتدون، وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجعون، أأتّخِذُ من دونه آلهة إن يُرِدنِ الرحمانُ بضرّ لا تغنِ عنّي شفاعتهم شيئاً ولا يُنقذون إني ـ إذاً ـ لفي ضلال مبين إني آمنت بربكم فاسمعون. . .**﴾.

هذا هو القسم الثالث من قصة أصحاب القرية التي جاءها عدد من المرسلين. . . لقد جاء المدينة رسولان أولاً ﴿**إذ أرسلنا إليهم اثنين، فكذّبوهما**﴾ ثم جاء رسول ثالث بعد أن سجن الرسولان الأولان (فعزّزنا بثالثٍ. . .)، إلاّ أن هاتين المرّتين من إرسال الرسل الثلاثة لم تسفرا عن النتيجة المطلوبة. . . هنا تتدخل شخصية رابعة أو لِنقُلْ: هنا يتحقق إرسال ثالث بعد إرسال الرسولين وتعزيز آخر بهما. . إرسال هذه الشخصية يختلف (من حيث الهوية العبادية) عن الرسل الثلاثة، نظراً لكونه غير مرسل رسمياً من قبل عيسى عليه السلام، بل تطوّع تلقائياً بالذهاب إلى أهل القرية (وهو يعيش في أطرافها البعيدة) (وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعىٰ). . . إن دخول هذه الشخصية الجديدة في القصة، ينطوي على أسرار فنية بالغة الإثارة والدهشة والإمتاع (من حيث الصياغة القصصية)، فالملاحظ، أن فكرة السورة الكريمة التي تدور حول الحقيقة القائلة بأن المنحرفين (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)، لا تزال هي البطانة الخلفية التي تدور حولها موضوعات السورة الكريمة (ومنها: قصة أصحاب القرية) حيث يستهدف النص ـ كما احتملنا فنّياً ـ تجسيد الحقيقة المذكورة، أي: إن المنحرفين سوف لن يؤمنوا، بالرغم من الإنذارات المتنوعة. . . فلقد جاءهم رسولان أولاً، فرفضوهما، ثم عُزّزا برسول ثالثٍ فرفضوه أيضاً، وها هو الشخص الرابع يتجه إليهم أيضاً. . . ونتوقّع فنّياً أن يرفضوه أيضاً، وهو ما يتناوله هذا القسم من القصة، غير أنّ ما

ينبغي الالتفات إليه، أن لهذه الشخصية الرابعة (دوراً) قصصياً أو اجتماعياً يختلف عن (الأدوار) التي مارسها الرسل الثلاثة، فالأولان، قد مارسا أسلوب التبليغ المباشر، أمّا الثالث فقد استخدم الأسلوب غير المباشر (حيث عقد علاقات اجتماعية مع القوم) من أجل إنقاذ زميليه من جانب. ومن أجل (وهذا هو المهم) إيصال الرسالة بأسلوب المجاملة السياسية من جانب آخر. . . أمّا الشخصية الرابعة (في القصة) فقد تقدمت بأسلوب جديد يختلف عن سابقيه. . . وهذا الاختلاف في الأسلوب تفرضه طبيعة هويته غير الرسمية (حيث يعدّ واحداً من أهل المدينة، وليس رسولاً من منطقة أخرىٰ، أو من قبل شخص يحمل طابعاً رسمياً، أسفرت عنه مصائر الرسل الثلاثة، فالرسل الثلاثة قد استشهدوا (كما تقول بعض النصوص المفسرة، وحينئذٍ، فإنّ مثل هذا المصير لا بد أن يترك آثاره على الشخصية الجديدة: من حيث تحركاتها التي ستأخذ منحىً آخر من التبليغ. . . لكن، قبل أن نتحدث عن أسلوب تبليغه، لا بدّ من معرفة ملامح هذه الشخصية، والتساؤل عن سبب مجيئها أو تبليغها أو لنقل: لا بدّ من معرفة الأسباب التي جعلت من هذه الشخصية: شخصيةً إيجابية مؤمنة، مع أن مجتمع المدينة قد طبعه الكفر بأجمعه أو غالبيته، أو ـ لا أقل ـ فإنّ النص القصصي ساكت عن تحديد ردود الفعل المتفاوتة لدىٰ أهل المدينة، بل ركزّ علىٰ أنهم بنحوٍ مجمل منحرفون، وحينئذٍ كيف انبثق منهم (مؤمن) يضطلع بمهمة التبليغ، بحيث يسعى من أقصىٰ المدينة ليحقق مهمته التبليغية. . .

هنا تتبدّى أمامنا أسرار الفن القصصي، فيما سنوضحها لاحقاً.

لكن قبل ذلك، ينبغي ألاّ يغيب عن أذهاننا أنّنا أمام عمارة فنية (ونعني بها عمارة السورة الكريمة ـ سورة ياسين)، كما أنّنا أمام عمارة فنية داخل العمارة الرئيسية وهي عمارة (القصة ـ قصة أصحاب القرية)، حيث تنطوي كل

منهما علىٰ أبنية خاصة، ولكنها تصب في محور واحد هو: قصة المنحرفين الذين لا يؤمنون بالله: (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) وها هي الشخصية الرابعة تتدخل في هذا الموقف، لتكشف لنا أنّ تعدد المبلغين وتنوّع أساليبهم: له دخل في عمارة النص القرآني الكريم بالنسبة لبلورة الفكرة الرئيسية التي يستهدفها النص، فيما يفصح ذلك عن متانة البناء الهندسي للنص من حيث علاقة أجزائه: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي نوضحه لاحقاً.

* * *

قال تعالى ﴿**وجاء من أقصى المدينة رجل، يسعى، قال: يا قوم اتّبعوا المرسلين اتّبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجعون، أأتّخِذُ من دونه آلهةً إن يُردنِ الرحمانُ بضرّ لا تُغنِ عني شفاعتهم شيئاً ولا يُنقذون، إني إذاً لفي ضلالٍ مُبين إنّي آمنت بربكم فاسمعون...**﴾.

قلنا إن شخصية جديدة دخلت في قصة أصحاب القرية التي جاءها ثلاثة مرسلين من قِبَل عيسى عليه السلام.. هذه الشخصية الجديدة التي لم تحمل مهمة رسمية من قِبل عيسى عليه السلام بل تطوّعت لإصلاح القرية المنحرفة، تتميّز بطابع خاص، كما تتميّز بأسلوب تبليغي خاص ينبغي أن نقف عنده لملاحظة سياقه في القصة التي نتحدث عنها...

تقول النصوص المفسّرة، أن هذه الشخصية كانت في أقصىٰ المدينة، وعندما دخلها الرسولان الأوّلان، عقدا لقاءًا مع هذا الرجل بحيث اقتنع بدعوتهما إلى الله تعالى بعد أن لحظ الظواهر الإعجازية التي صدرت عنهما.. لذلك، عندما رفض مجتمع المدينة التي قصدها المرسلان، ثم قصدها المرسل الثالث، عندما رفض الدعوة الخيرة لهؤلاء الرسل، بحيث استشهدوا جميعاً، نتيجة للتعذيب الذي مارسه المجتمع المنحرف المذكور... عندما وصل إلى هذا الرجل المؤمن خبر الاستشهاد، سارع من أقصىٰ المدينة إلىٰ هؤلاء

المنحرفين: ليوصل إليهم صوت الحق.. هنا، ينبغي أن نقف عند هذه الظاهرة، ظاهرة تحرّك الرجل المؤمن، لملاحظة موقعها الفنّي من عمارة القصة القرآنية.. ولعلّ أوّل ما يستوقفنا من ملامح هذه الشخصية القصصية هو: أن الإيمان بالله تعالى يجد طريقه إلىٰ أعماق الشخصية النظيفة التي لم تتلوّث بالعُقد والأمراض والتخلّف الفكريّ، كما أن تحرّكها نحو عمل الخير ـ كما هو طابع هذه الشخصية التي جاءت من أقصىٰ المدينة ـ يعدّ حُجّة علىٰ الآخرين الذين لم يؤمنوا، بخاصة: أنّ هذه الشخصية تحدّثت بكلام إصلاحي يُعدّ مكمّلاً لحديث الرسل الثلاثة، بحيث يمكن القول بأنّ المهمة الفنّية لدخول هذه الشخصية في القصة، تتمثّل ـ في أحد أشكالها ـ في كون الشخص قد جسَّد مهمة رسولٍ رابع يُبعث إلى هذه المدينة المنحرفة...

والآن، إذا أدركنا هذه المهمة الفنية للبطل الجديد في القصة، حينئذٍ يتعيّن علينا الوقوف عند أسلوبها التبليغي الذي مارَسَتْهُ حيال المنحرفين... وأول كلام وجّهه إلى القوم هو قوله ﴿**يا قوم: اتّبعوا المرسلين اتّبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون**﴾... لقد وجّه الرجل كلامه إلى قومه... ومجرّد انتسابه إلىٰ مجتمع المدينة، فيما خاطبه بعبارة ﴿**يا قُوم**﴾، يحمل دلالة فنية مزدوجة هي: استقطاب محبّتهم من جانب (حيث نسبَ القوم إلى نفسه أو نسب نفسه إليهم)، كما أنه ـ من جانب آخر ـ لم يكن غريباً علىٰ قومه في دعوتهم إلىٰ الخير، أنه يختلف عن الرسل الثلاثة الذين وفدوا من خارج المدينة، أنه واحد منهم... لذلك: عندما يحدّثهم عن عمل الخير يكون بهذا أقرب احتمالاً إلىٰ تقبّل كلامه... طبيعياً، بما أن القصة تستهدف ـ كما احتملنا فنياً ـ إبراز الفكرة الرئيسة في سورة ياسين (وهي أنّ المنحرفين: سواء أأُنذِروا أم لم يُنذروا لا يؤمنون) حينئذٍ فإنّ تقديم شخصية جديدة تنتسب إلى نفس المدينة المنحرفة: يُعد تجسيداً لإبراز الفكرة المذكورة، بصفة أن المنحرفين بالرغم من أنّ واحداً من مجتمعهم قد آمن بالله تعالى وبالرغم من

أنه أوضح لهم ما هو الحق، بالرغم من ذلك كله، فهم لم يُوفقوا إلى الإيمان، مما يتجانس هذا الموقف مع الفكرة الرئيسة التي تشير إلى عدم الإمكان في إصلاح المنحرفين الذين بلغوا في انحرافاتهم درجةً كبيرة بحيث تأتيهم رسل أو أشخاص أربعة، ومع ذلك لم يُوفقوا إلى الإيمان. . .

ولنعُد من جديد إلى كلام هذه الشخصية التي بدأت بمخاطبة قومها: (يا قوم: اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً. . . الخ) على عملهم هذا، أن هذه المخاطبة تظل مرتبطةً عضوياً بالهيكل العام للقضية، حيث سبق أن جاء المدينة ثلاثةُ مرسلين طالبوا المدينة بأن تؤمن بالله تعالى، وبما أن المنحرفين رفضوا الانصياع للرسل، حينئذٍ تكون مطالبة هذا الرجل قومهُ بأن يتّبعوا المرسلين الثلاثة: مهمة تستكمل بها مهمة السابقين، كما أن تأكيده بأن هؤلاء الرسل لا يبتغون أجراً على عملهم، وأنّهم مهتدون: يُعدّ استكمالاً آخر للمهمة السابقة، حيث أن توصيفهم بالهداية من جانب: وكونهم يعملون مخلصين لله تعالى وليس من أجل المكاسب الشخصية، يُعدّ عملاً له قيمته في استكمال مهمة التبليغ، حتى تتعمق لديهم القناعة بمشروعية الرسل التي اضطلع بها هؤلاء المبلغون. . . وهذا النمط من استكمال المهمة التبليغية يكشف ـ كما هو واضح ـ عن تماسك النص وتلاحم جزئياته من حيث المبنىٰ الهندسي للنص، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى ﴿**قيل ادخلِ الجنةَ، قالَ: يا ليتَ قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين وما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماءِ وما كنّا منزلين إن كانت إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون. . .**﴾.

في هذا القسم من قصة أصحاب القرية نواجه البطل الجديد (ونعني به: الشخصية الرابعة التي مارست عملية التبليغ بعد أن استشهد الرسل الثلاثة الذين

أرسلهم عيسىٰ للقرية أو المدينة المنحرفة)، هذا البطل بعد أن تطوّع، من أجل استكمال مهمة التبليغ ـ في المجيء من أقصىٰ المدينة ـ نصحَ قومه بهذه العبارات: **﴿يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون وما لي لا أعبدُ الذي فطرني وإليه ترجعون أأتّخذ من دونه آلهةً إن يردنِ الرحمن بضرّ لا تغنِ عنّي شفعاتهم شيئاً ولا يُنقذون إني إذاً ـ لفي ضلالٍ مبين إني آمنت بربكم فاسمعون﴾**. هذه النصائح التي قدمها إلى أهل المدينة ذاتها، يبدو أنها لم تؤثر في المنحرفين، وإذا كان الرسل الثلاثة ـ وهم أجانب بالنسبة إلى المدينة ـ لم يؤثروا في المنحرفين، فحينئذٍ يتوقع أن يكون للشخص المنتسب إليهم بعض التأثير... لكن بما أن مقدمة السورة الكريمة قالت (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون)، حينئذٍ فإن المنطق الفنّي للقصة يدلنا علىٰ أنّ المنحرفين لا سبيل إلىٰ إصلاحهم، لذلك فإنّ الملاحظ الفني يتوقع هذه النتيجة السلبية للمنحرفين... وفعلاً، نجد القصة: ما أن تنتهي من عرض الكلام الذي وجّهه البطل إلىٰ قومه، حتى تنتقل إلىٰ بيئة أخرىٰ هي بيئة الجنة، فتقول: (قيل: ادخل الجنة) وهذا يعني أن البطل قد انتقل من الدنيا إلى الآخرة ودخل الجنّة... لكن: ما دلالة هذا من الوجهة الفنيّة؟.

إن الإمتاع القصصي يبلغ ذروته حينما نجد أن الصياغة الفنيّة سلكت منحى غير مباشر في الوصول إلىٰ هذه الحقيقة، القصة لم تقل لنا أن المنحرفين قد رفضوا كلام البطل (كما رفضوا كلام الرسل الثلاثة بصريح القول)، ولم تقل لنا أيضاً أن المنحرفين قد قتلوا البطل مثلاً... وإنما قالت بأنّ البطل قيل له: ادخل الجنّة... ودخول الجنّة يعني: أمّا أن البطل قد استشهد، فكان مصيره إلى الجنّة، أو أنه عُذّبَ مثلاً، أو أنّ الله تعالى رفعه إلى الجنة قبل محاولة قتله... لكن في الحالات جميعاً، فإنّ البطل قد نقله النص من بيئة الدنيا إلى بيئة الآخرة: الجنّة.

هذه النقلة القصصية للبطل ـ من الدنيا إلىٰ الجنّة، تحمل (فضلاً عن الخصائص الفنية التي ذكرناها) خصائص فنيّة أخرىٰ تتصل بالبُعد الزمنيّ للقصة. . . فالزمن ـ في القصة ـ له دلالات متنوعة من حيث استثماره وتقطيعه (عبر الماضي والحاضر والمستقبل) بحيث ينطوي تقطيعه أو تذويبه بهذه الصورة على دلالات ممتعة ومثيرة حقاً. . . وفي مقدمة ذلك: لفت نظر المتلقّي إلىٰ مصائر الأبطال المجاهدين في سبيل الله تعالى، متمثلةً في دخولهم الجنّة. . . وها هو بطل القصة يدخل الجنة فعلاً. . . ودخوله الجنة ينطوي ـ مضافاً لما تقدم ـ علىٰ أسرار فنية أخرىٰ لا بدّ من ملاحظتها ولو عابراً، لقد كان من الممكن أن نشير القصة إلى أن البطل دخل الجنّة جزاءً لموقفه أو استشهاده إلخ، لكن الملاحظ أن إدخال البطل إلىٰ الجنّة قد تمّ من خلال صياغة خاصة هي أنه قيل له: ادخل الجنة، وعند دخوله الجنة وجّه البطل نصائحه إلى قومه أيضاً، أي أنه لم يكفّ عن تقديم النصائح حتىٰ بعد أن استشهد وواجه الأذىٰ من قومه، لقد وجّه كلامه ـ وهو في الجنّة ـ إلى قومه أو لنقُلْ وجه كلامه إلىٰ نفسه (من خلال الحوار الداخلي) قائلاً (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) هذه العبارة القصصية أو هذا الحوار الداخلي يحمل أسرار فنية بالغة الإثارة و الدهشة و الإمتاع... أنه يوضّح لنا مصائر المؤمنين أولاً حيث أن الله تعالى يغفر لعباده المؤمنين ويكرمهم: نتيجة لمواقفهم في الدنيا، ويوضّح ثانياً بأن البطل نفسه يحمل مشاعر طيّبة تتناسب مع طبيعة النفس المؤمنة التي تحبّ الآخرين وتتمنّىٰ لهم الخير، بالرغم من أن قومه قد قتلوه وركلوه بالأرجل (كما تقول النصوص المفسرة) فإنّه لا يزال يتمنّىٰ لهم مصيراً أخروياً يستمتعون به في حياتهم الأبدية، إنه يهتف بمرارة وشوق (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي. . .) إنه يتمزّق ألماً من أجل قومه. . . إنه يتمنىٰ لهم الجنَّة. . . إنه يشفق عليهم من المصير البائس الذي ينتظرهم نتيجة لانحرافاتهم. . .

إذن، كم جاءت هذه العبارة الحوارية مدهشة فنياً، بحيث كشفت عن سرائر الشخصيات المؤمنة مقابل الشخصية المنحرفة، مضافاً إلىٰ أنها كشفت عن مصائر المؤمنين، مثلما تكشف ـ من خلال التداعي الذهني ـ عن مصائر المنحرفين أيضاً، مما تتجانس هذه الكشوفات مع أفكار السورة الكريمة التي أوضحت سابقاً ـ كما سنوضح ذلك لاحقاً ـ حيث تربط هذه الأفكار أو الموضوعات بين الإيمان والانحراف وانعكاسات كل منهما علىٰ مصائر الشخوص دنيوياً وأخروياً: كما سنرىٰ وهو أمر يفصح عن مدىٰ الأحكام الهندسي للنص: من حيث تلاحم أجزائه بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى **﴿وما أنزلنا علىٰ قوْمِه من بعدهِ مِنْ جُنْدٍ من السماءِ وما كُنّا مُنْزِلين إنْ كانت إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم خامِدون يا حَسْرةً على العبادِ ما يَأتيهم مِنْ رسولٍ إلاّ كانوا به يستهزءون ألمْ يروا كم أهلكنا قبلهُمْ من القرونِ أنَّهم إليهم لا يرجعون وإن كُلٌّ لمَّا جميعٌ لدينا مُحضرون﴾**.

بهذا القسم تنتهي قصة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون **﴿إنا أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما، فعززنا بثالث﴾**، ثم جاءها المبلّغ الرابع (وجاء من أقصىٰ المدينة رجل، يسعىٰ قال: اتبعوا المرسلين)، حيث استشهد الأشخاص الأربعة الذين مارسوا مهمة التبليغ دون أن يوفق أهل القرية إلىٰ الإيمان بالله تعالى، مما ترتّب علىٰ ذلك، أن ينزل عليهم العذاب الدنيوي، فضلاً عن التلويح بالعذاب الأخروي الذي ينتظرهم... هذا العذاب بنمطيه: الدنيوي والأخروي، تكفل القسمُ الأخير من القصة برسمه، في هذا المقطع الذي نتحدث عنه... هنا ينبغي أن نتذكر جملةً من القضايا المرتبطة بهذه القصة وبموقعها الهندسي من عمارة السورة الكريمة... أما القصة، فقد سبق أن لحظنا بأن المبلغ الرابع الذي جاء من أقصىٰ المدينة يسعىٰ من أجل إصلاح

قومه، قد استشهد وقيل له ادخل الجنة، حيث تمنّىٰ ـ وهو في الجنة ـ أن يوفّق قومُه إلىٰ الإيمان (قيل ٱدخُلِ الجنةَ، قال: يا ليتَ قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المُكرمين)... لكن بما أن القصة قالت مقدمتها عن المنحرفين المعاصرين لرسالة محمد(ص) ﴿**وسواء عليهم أأنْذَرتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرهُمْ لا يُؤمنون**﴾. هذه الفكرة (فكرة أن المنحرفين لن يؤمنوا سواء أُنذروا أم لم ينذروا)، حينئذٍ فإنّ تمنّي البطل الرابع بأن يطلع قومه علىٰ موقعه في الجنة، هذا التمنّي لن يترك أثراً علىٰ أحداث القصة، طالما تستهدف القصةُ التركيز علىٰ أن المنحرفين لا أمَلَ في إصلاحهم، وإذا كان الأمر كذلك، حينئذٍ نتوقّع ـ وفق المنطق الفنّي للقصة، بأنّ يترتب علىٰ المنحرفين جزاءُ سلبي يتناسب مع عنادهم الذي بلغ الذروة بحيث لم يتأثروا بأربعة مبلغين، وبحيث لم يكتفوا بذلك، بل قتلوهم أيضاً... لذلك ما أن انتهىٰ البطل الرابع من قوله ﴿**يا ليْتَ قومي يَعلمُون بما غَفَرَ لي ربّي وجَعَلني من المُكرمين**﴾ حتىٰ علق النص على ذلك بقوله ﴿**وما أنزلنا علىٰ قومهِ مِنْ بعدهِ من جُنْدٍ من السماءِ وما كُنّا مُنزلين إنْ كَانت إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون**﴾. إن إرسال (الصيحة) عليهم بحيث أصبحوا خامدين، يشكل الجزاء المناسب لموقفهم المتمرّد... ولا نغفل هنا عن الاستعارة التي استخدمتها القصةُ في قوله تعالى ﴿**فإذا هم خامدون**﴾، حيث أن الخمود يشير إلى شلهم عن الحركة تماماً، إنهم كالنّار الّتي انطفأت تماماً بحيث لا يُرىٰ بها إلاّ الرماد...

أمّا العذاب الأخروي، فقد لوّح به النص في نهاية القصة (وإنْ كُلّ لَمّا جميع لدينا محضرون) حيث ينتظرهم الحساب الأبدي في اليوم الآخر... أيضاً، ينبغي الاّ نغفل عن هذه العبارات التي ختمت بها القصة، أي: عبارات (إن كانت إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون) (وإن كل لمّا جميع لدينا محضرون)... حيث ستكون لها أصداء تتكرر في الأجزاء اللاحقة من السورة الكريمة من نحو قوله تعالى: ﴿**ما ينظرون إلاّ صيحة واحدة تأخذهم وهم**

يخصمون﴾ ونحو قوله تعالى: **﴿إنْ كانت إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾**. . . إنّ تكرر هذه العبارات في مواقع متنوعة من السورة الكريمة، تكشف عن واحدٍ من أسرار البناء الفني للنص، بحيث يستكشف القارىء بسهولة مدىٰ تجانس الموضوعات المختلفة في السورة: من حيث ربطها بعضاً مع الآخر علىٰ النحو الذي سنوضحه في حينه.

لكن يعنينا هنا ـ في هذا المقطع الذي نتحدث عنه ـ ان نشير إلىٰ انعكاس عبارتي **﴿إن كانت إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون﴾** **﴿وإنْ كل لمّا جميع لدينا مُحضرون﴾** علىٰ الأجزاء اللاحقة من النص، فضلاً عن كونها منعكسةً علىٰ الأقسام السابقة من السورة، حيث قلنا أن سورة ياسين تحوم فكرتُها علىٰ موضوع محدّد هو: أنّ بعض المنحرفين لا أمل في إصلاحهم **﴿سواء عليهم أأنذرتَهُمْ أمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يؤمنون﴾**. وبما أن قصة أصحاب القرية قد صيغت من أجل بلورة هذه (الفكرة)، حينئذٍ فإنّ نهايتها المتمثلة في كون القرية المنحرفة لم تُوفق إلىٰ الإيمان، تظل هذه النهاية منسجمةً مع (الفكرة) المشار إليها، مما يُفصح ذلك عن مدىٰ الإحكام الهندسي للسورة الكريمة من حيث تلاحم جزئياتها: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي فصلنا الحديث عنه.

* * *

قال تعالى **﴿وآية لهُمُ الأرض الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكُلون وجَعَلْنا فيها جناتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ وفجّرنا فيها من العُيونِ ليأكُلوا من ثمره وما عَمِلتْهُ أيديهم أفلا يشكُرون سبحانَ الذي خلَقَ الأزواج كلَّها مما تُنبِتُ الأرضُ ومِنْ أنفسِهم وممّا لا يَعلمون وآية لهُمُ الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هم مُظلِمون والشمسُ تجري لمستقرٍ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم والقمر قدّرناهُ منازلَ حتى عاد كالعُرْجُون القديم لا الشمسُ ينبغي لها أنْ تدرك القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار، وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون وآية لهم أنّا حملْنا ذريّتهم في الفُلْكِ**

المشحون وخلقّنا لهم مِنْ مثلهِ ما يركبونَ وإنْ نشأ نُغرِقهُم فلا صريخَ لهم ولا هم يُنقذون إلاّ رحمةً منّا ومتاعاً إلىٰ حين﴾.

هذا المقطع من سورة ياسين يتناول (فكرة) واحدةً هي: الظواهر الإبداعية التي خلقها الله تعالى من أجل الإنسان... لقد جاء هذا المقطع بعد قصة (أصحاب القرية) التي جاءها المرسلون، جاءَ بعد قصة سيقت من أجل إنارة (الفكرة الرئيسية) في السورة، وهي: فكرة أن بعض المنحرفين لا أمَلَ في إصلاحهم: سواء أُنذِروا أم أم يُنذروا... هنا، عندما يعرضَ النص للظواهر الإبداعية أو معطياته تعالى إنما يقوم بعملية تذكير، تكون بمثابة حجة علىٰ المنحرفين، حتى ينكشفوا تماماً للآخرين: من حيث انغلاقهم الذهني عن إدراك هذه الحقائق، وهذا ما تضطلع به نهاية المقطع الذي جاء فيه (وما تأتيهم من آيةٍ من آياتِ ربّهم إلاّ كانوا عنها مُعرضين) وبهذا التعقيب يربط المقطع بين موضوعات السورة الكريمة التي تحوم ـ كما قلنا ـ علىٰ فكرة أن بعض المنحرفين لا سبيل إلى إصلاحهم البتة... لكن، خارجاً عن هذا الهيكل البنائي للمقطع، يحسن بنا أن نعرض لموضوعاته وطريقة صياغتها فنيّاً، وصلتها بالهيكل المذكور، الموضوعات هي ـ كما أشرنا ـ مجموعة من الظواهر الإبداعية التي سخرها الله تعالى للإنسان من نحو: إحياء الأرض بالمزروعات، وتفجير الأرض بالعيون... إلخ. بيد أن النص القرآني الكريم قد استخدم أكثر من (صورة فنية) في صياغة هذه الموضوعات، متمثلة في صور التشبيه والاستعارة والرمز، فقوله تعالى في أول المقطع (وآية لهُمُ الأرض الميتة أحييناها، وأخرجنا منها حباً... إلخ) ينطوي علىٰ صورة (رمزية) هي: الموت والإحياء حيث رمز بهما إلىٰ الجدب والإخصاب، كما أن قوله تعالى: **﴿وآية لهمُ الليلُ نسلخُ مِنهُ النَّهارَ، فإذا همُ مظلِمون﴾** ينطوي علىٰ صورة استعارية (فإذا هم مظلمون) حيث اكسب الناس في الليل صفة(الظلمة) فخلعها عليهم: كما هو واضح... كما أن قوله تعالى: **﴿والقمر**

قدرناهُ منازِلَ حتى عاد كالعُرجونِ القديم﴾ ينطوي علىٰ صورة تشبيهية، هذا فضلاً عن أن قوله تعالى ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ، وكل في فَلَكٍ يسبحون﴾ تنطوي علىٰ أكثر من صورة استعارية تتصل بإكساب الشمس والقمر والليل والنهار: صفاتٍ بشرية مثل الجري والسباحة.

هذه الصور الرمزية والتشبيهية والاستعارية جاءت في سياق التعريف بظواهر الكون، حيث أن اللغة العلمية هي التي تتكفل ببيان حقائق الكون، بيد أن النص القرآني الكريم استخدم لغة (الفن) أيضاً في عرضه للحقائق العلمية المشار إليها، مما يكسب ذلك: إمتاعاً فنياً بالغ الإثارة والدهشة... فمثلاً أن عَرْضَه لحركة القمر من حيث كونه يتحرك ضمن (منازل) مقدَّرة حتى يعود كالعرجون القديم، أي: مثل العذق اليابس المتقوّس، يظل تشبيهاً علمياً أو فنياً يبعث الإثارة دون أدنىٰ شك، نظراً لارتباطه بالحس الجمالي لدىٰ الإنسان، حيث أوجَدَ التشبيهُ علاقة بين عودة القمر في نهاية المطاف: في شكله الدقيق آخر الشهر أو آخر نصف من السنة (كما تذكر ذلك: بعضُ النصوص المفسرة)، وبين العذق الذي يصير إلىٰ شكله الدقيق المتقوس بعد جفافه... إن إحداثَ مثل هذه العلاقة الحسية بين جزءين يألفهما الإنسان: رؤية القمر وهو يعود في نهاية المطاف إلىٰ شكله الدقيق ورؤية العذق كذلك، تحقق ـ دون ادنىٰ شك ـ إشباعاً للحاسة الجمالية عند الإنسان: بمجرد تأمله لهذا التشبيه... كذلك: عندما يوجد النصُ علاقةً بين الجري والسباحة للشمس والقمر والليل والنهار، وبين الجري والسباحة للإنسان، حينئذٍ يُحقّق له إشباعاً للحاسة الجمالية التي تستمتع بمشاهد الجري والسباحة... وهكذا سائر الصور الفنية التي أشرنا إليها... بيد أنّ الأهم من ذلك أن المقطع القرآني الكريم عَرَضَ لهذه الظواهر الإبداعية ﴿وآية لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها﴾ و ﴿آية لهم الليلُ نسلخُ منه النهار﴾ ﴿وآية لهم: أنا حملنا ذريتهُم...﴾.

هذه الظواهر أو الآيات الكونية قد اخضعها النص لعنصر (التكرار) أي عبارة «وآية لهم» حيث كررها ثلاث مرات، فلأنها تظل مرتبطةً بفكرة السورة الكريمة من جانب وبهيكل المقطع الذي تحدّثنا عنه الآن من جانب آخر، حيث علّق النصُ القرآني علىٰ هذه (الآيات) الكونية التي (كرّرها) قائلاً (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلاّ كانوا عنها معرضين)، وهذا يعني أن المقطع القرآني ربط بين فكرة السورة الكريمة التي جاء في مقدمتها قوله تعالى: ﴿**سواء عليهم أأَنذرتهمْ أم لم تُنْذِرْهُمْ لا يُؤمنون**﴾، وبين هؤلاء الذين يعرضون عن الآيات الكونية: بالرغم من مشاهدتهم لظواهر الشمس والقمروالليل والنهار... إلخ. وهذا النمط من الربط، يكشف بوضوح عن مدىٰ الإحكام الهندسي للسورة الكريمة، من حيث ترابط موضوعاتها: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى ﴿**وإذا قيل لهم أَنفِقُوا مِمّا رزَقكم الله، قال الذين كَفَرُوا للذين آمنوا: أَنُطعِمُ مَنْ لو يَشاءُ الله أطعَمَهُ، إنْ أنتُمْ إلاّ في ضلالٍ مبينٍ ويَقولون: متىٰ هذا الوعدُ إنْ كنتُمْ صادقِين ما ينظُرُون إلاّ صيحةً واحدةً تأخذُهُمْ وهم يخصّمون فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهِمْ يرجعون**﴾.

هذا المقطع من سورة ياسين: امتداد لمقطع سابق يتحدث عن المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام، حيث وصفهم النص منذ بداية السورة بألاّ أمل في إصلاحهم (وهي الفكرة التي يحوم عليها هيكلُ السورة الكريمة)... كما أن النص ـ في مقطع. سابق ـ دلّل على سلوكهم المذكور من خلال تذكيرهم بمجموعة من الظواهر الكونية التي سخّرها الله للإنسان، ولكنهم اعرضوا عنها... وها هو المقطع الحاليّ الذي نتحدث عنه، ينقل لنا شريحةً أخرىٰ من سلوكهم: تُدلّل علىٰ عدم الأمل في إصلاحهم... وقد

اعتمد النصُ عنصر «الحوار الفنّي» في نقل هذه الحقيقة حينما قال عن المنحرفين (وإذا قيل لهم: أنفِقُوا مِمّا رزقكُمْ الله، قال الذين كفروا للذين آمنوا: انُطعِمُ مَن لو يشاءُ الله أطعَمهُ، إنْ أنتُمْ إلاّ في ضلالٍ مبين)، أن هذا الحوار ينطوي علىٰ أكثر من مهمة فنّية، فهو ـ من جانبٍ ـ يكشف لنا عن وجود «المؤمنين» وممارستهم لمهمتهم العبادية وهي عملية «التبليغ»، حيث أن المؤمنين هم الذين قاموا بتوجيه الأسئلة إلى المنحرفين وطالبوهم بالإنفاق في سبيل الله، مضافاً إلى أنّ المطالبة من قِبَل المؤمنين (وهم ممن ينتمون إلىٰ نفس المجتمع الذي ينتمي المنحرفون إليه) تكون أشدّ وقعاً وتأثيراً عليهم، وهذا ما لحظناه عند، وقوفنا على قصة أصحاب القرية، التي جاءها المرسلون حيث كان المبلغُ الأخير رجلاً من أقصىٰ المدينة جاء يسعىٰ لإصلاحهم. وهذا واحد من أبعاد التجانس الفنّي بين المواقف المختلفة في السورة، حيث تتجانس فيها مواقف التبليغ لرسالات الله تعالى.

وإذا تجاوزنا هذا الجانب من الحوار واتجهنا إلىٰ معطياته الفنية الأخرىٰ، وجدنا أن المنحرفين يكشفون بأنفسهم عن الواقع المُظلم لأعماقهم حينما تسمع كلامهم من ألسنتهم، حيث يكون هذا أشدّ تأثيراً في السامع، بصفة أن الوصف لسلوك الآخرين يختلف عن الاستماع إلىٰ كلامهم مباشرة... والأهم من ذلك كله، أن الحوار كشَفَ عن سمة جديدة من سمات المنحرفين الذين لا أمل في إصلاحهم وهو: جوابهم القائل لمن طالبهم بالإنفاق ﴿**أنُطعمُ مَن لو يشاءُ الله أطعمه؟ إنْ أنتُمْ إلاّ في ضلالٍ مُبين**﴾ إن هذا الجواب يكشف عن نزعة «العناد» في أشدّ مستوياتها المَرَضية... فمن الممكن أن يهرب المنحرف من هذه المسؤولية فلا يتقدّم بجواب، ومن الممكن أن يعتذر ببعض الأعذار التي تقترن بتقبل اجتماعي، أمّا أن يقول المنحرف: أأطعم مَن لو يشاء الله أطعمه؟) فهذا يعني أنه يستهين بالله تعالى (وهو قمة الانحراف المُتصور)، كما أنَّهُ أردف ذلك الجواب بجواب آخر هو

مخاطبتُهم للمؤمنين «ان أنتم إلاّ في ضلال مبين» يشكّل بُعداً آخر من نزعة العناد المتأصلة لدىٰ المنحرفين. . .

إذن، عندما كشفَ الحوار عن هذا السلوك البالغ شدَّتُه في الانحراف، يكون بذلك قد جانس بين فكرة السورة الكريمة التي تدور حول الحقيقة القائلة بأنّ المنحرفين لا أمل في إصلاحهم وبين هذه الشريحة من سلوكهم. . .

بعد ذلك يتجه المقطعُ إلى عرضِ شريحة أخرىٰ من سلوكهم، وهو قولهم «متىٰ هذا الوعدَ إنْ كنتم صادقين؟) هذا الكلامُ أيضاً، يُعبّرُ عن نفسِ نزعةِ العناد المتمثلة في سخريتهم من اليوم الآخر. . . إلاّ أنّ المقطع يجيبهم قائلاً (﴿**ما يَنظُرون إلاّ صيحةً واحدةً تأخذهُمْ وهم يخصّمون فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون**﴾. لنتذكَّر أن قصة أصحاب القرية قد ختمت بعبارة مماثلة لهذه العبارة (إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم خامدون) وها هو النص يختم هذا المقطع بعبارة مماثلة لما ختم به القصة المذكورة، محقّقاً بهذا التجانس بين ختام المقاطع القرآنية: الإحكام الهندسي لعمارة السورة الكريمة، حيث لوّح النصُ القرآني في ختام القصة بأن هناك صيحة واحدة تأخذهم فإذا هم خامدون، ولوّح هنا أيضاً بأن هناك صيحةً تأخذهم وهم يخصّمون، غير أن الصيحة هنا تتجانس مع سلوك المنحرفين الذين لحظنا مدىٰ عنادهم ومخاصمتهم، لذلك فإن النص هنا أوضح بأنّ الصيحة تأتي وهم يختصمون في أمورهم، وهي الصيحة الأولىٰ: نظراً لكونهم انكروا اليوم الآخر، أمّا الصيحة هناك (في قصة أصحاب القرية) فكانت جزاءاً دنيوياً يتجانس مع سلوكهم الذي أوضحناه في حينه. . . وبهذه المستويات المتنوعة من التجانس تبيّن مدىٰ الإحكام الفنّي للنص، بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿**ونُفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون**

قالوا يا ويلنا مَن بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون﴾

هذا المقطع، يتحدث عن بيئة اليوم الآخر: بدءاً من النفخة التي تزيل معالم الوجود، حيث أشار النص إليها في مقطع سابق **﴿إن كانت إلاّ صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾** مروراً بالنفخة الأخرى التي يحدثنا هذا المقطع عنها بقوله تعالى: **﴿ونُفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾**، وانتهاء بالوقوف في عرصات القيامة حيث تتم المحاكمة، وتساق الخلائق إلى مصائرها الأبدية: الجحيم أو النعيم...

طبيعياً يعنينا من هذا المقطع ما تضمّنه من موضوعات ترتبط بهيكل السورة الكريمة التي تحوم على فكرة مشتركة تصب في عصب السورة جميعاً، وهي فكرة أنّ بعض المنحرفين لا أمل في إصلاحهم، كما يعنينا من المقطع ما تضمّنه من أسرار فنية من حيث صياغة علاقته بالهيكل المذكور...

المقطع يتحدث عن أولئك المنحرفين المشككين باليوم الآخر، وبرسالة السماء، وبمبادئها التي عرضنا لموقف المنحرفين منها في المقاطع السابقة من السورة... ويلاحظ، أنّ المقطع نقل لنا (حواراً جمعياً) للمنحرفين وهم يسرعون من الأجداث إلى عرصات القيامة، حيث يظل «الحوار» عنصراً فنياً قد توكأت السورة الكريمة عليه في عرضها لسلوك المنحرفين... وكما كررنا، فإن أهمية مثل هذه المحاورات تتمثل في كونها: تعرض لنا أفكار المنحرفين من خلال ألسنتهم أنفسهم، حتى يكون تأثيرها أشدّ وقعاً لدى المتلقي... ولنستمع إلى محاورتهم الجمعية: **﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون﴾**. إنّ هذا التساؤل **﴿من بعثنا من مرقدنا؟.. إلخ﴾** ينطوي على أهمية فنية كبيرة من حيث علاقته بفكرة السورة الكريمة التي ركزت على عدم الأمل في إصلاح المنحرفين، وبالفعل، فإنّ المنحرفين لو اتيح لهم أن يؤمنوا في الحياة الدنيا: لما تساءلوا عند الانبعاث **﴿يا ويلنا من**

بعثنا من مرقدنا؟﴾. إنّ عبارة ﴿**يا ويلنا**﴾ تكشف عن الهول الذي يواجه المنحرفين عند الانبعاث، كما أنّ قولهم ﴿**من بعثنا من مرقدنا**﴾ يكشف عن عنصر التشكيك الذي طبعهم في الحياة الدنيا. . . لكن، بما أنّ المنحرفين واجهوا حقيقة الانبعاث، حينئذٍ اضطروا إلى الإقرار بها حينما اضافوا إلى التساؤل السابق كلاماً آخر هو ﴿**هذا ما وعد الرحمان، وصدق المرسلون**﴾.

إنّ بعض المفسرين ذهب إلى أنّ هذا الكلام هو كلام المؤمنين، وأنّ التساؤل الذي سبقه هو كلام الكافرين، إلاّ أنّ هذا التفسير ـ كما نحتمل فنياً ـ لا يتوافق مع سياق الموضوع الذي تحدثنا عنه، بل أنّ السياق يتطلّب ـ كما احتملنا أن يكون هذا الكلام للمنحرفين، لسبب بسيط هو: أنّ مواجهتهم لليوم الآخر ـ وقد كانوا ينكرونه، قد تحقق في الانبعاث الفعلي، وحينئذٍ لايبقى أي معنى للتشكيك، بل لا بد أن يعقب ذلك: اعتراف منهم بالحقيقة التي واجهوها، بخاصة أنّهم كانوا يسخرون في الحياة من الانبعاث (وهذا ما تضمنه المقطع السابق الذي جاء فيه: ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟**﴾ وها هم في المقطع الجديد الذي يتحدث عن الانبعاث ـ يقرون بكلام شكّل جواباً لسؤالهم السابق، حيث قالوا سابقاً ﴿**متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟**﴾ أي أنّهم شككوا بمصداقية كلام المرسلين، وها هم يقولون الآن ﴿**هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون**﴾. إنّهم يقولون الآن ﴿**صدق المرسلون**﴾، وكانوا سابقاً يتساءلون ﴿**متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟**﴾. . .

إذن، من حيث المبنى الهندسي للنص، جاءت هذه المحاورة التي أقرت بأنّه ﴿**صدق المرسلون**﴾ مرتبطة عضوياً، أو لنقل: أنّها تطوير وإنماء عضويّ لمحاورة سابقة تقول: ﴿**متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**﴾. . .

بعد ذلك، يتحدث النص عن الانبعاث من جديد حينما يقول ﴿**إنْ كانت إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم جميع لدينا محضرون**﴾، الجحيم أو النعيم. . .

ومن الواضح أنّ النص قد انتقل من حديث خاص بالمنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام أو مطلق المنحرفين: عند انبعاثهم، انتقل منه إلى الحديث عن الانبعاث في صورته المطلقة وما تترتب عليه من المصائر الأبدية. . . وبهذا الربط الذي سنتحدث عنه لاحقاً، يكون النص قد أفصح عن مدى الإحكام الهندسي لعمارة السورة الكريمة التي تترابط موضوعاتها فيما بينها: سواء كان ذلك في صعيد المقطع الواحد، أو الانتقال منه إلى الآخر، أو صعيد المقاطع جميعاً من حيث علاقتها بهيكل السورة الكريمة، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿إنْ كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلاّ ما كنتم تعملون. . . ﴾**.

هذا المقطع وما بعده، يتحدث عن بيئة أصحاب الجنة وأصحاب النار مطلقاً، حيث كان النص القرآني يتحدث (في المقاطع السابقة) عن المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام، فيما نقلهم إلى بيئة الآخرة، وعرض لنا ردود أفعالهم التي تصدر عنهم حينئذٍ: وهم يقفون في عرصات القيامة. . . لذلك، ما انتهى النص من عرض ردود الفعل للمنحرفين حتى انتقل إلى تقرير حقائق عامة تتصل بمطلق المنحرفين وبمطلق ما يقابلهم من المؤمنين. . . وهذا النمط في الانتقال من حديث خاص إلى حديث عام: يشكل واحداً من سمات الفن العظيم، حيث يستهدف النص من عرضه للخاص أن يفيد منه عامة الناس: كما هو واضح. . . من هنا، فإنّ النص بعد أن عرض في هذا المقطع العام مصائر المنحرفين والمؤمنين، عاد إلى الحديث الخاص، فواصل عرضه لسلوك المنحرفين، ملوّحاً بالجزاء الدنيوي لهم، بقوله تعالى: **﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم، فاستبقوا الصراط، فأنّىٰ يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على**

مكانتهم **فما استطاعوا مضيّاً ولا يرجعون﴾**... ففي هذا المقطع يلوّح النص بإمكان أن ينزل على المنحرفين عقاب دنيوي مثل طمس الأعين، ومثل مسخهم (قردة وخنازير مثلاً كما صُنع بالأقوام البائدة)...

وأهمية مثل هذا التلويح بالعذاب الدنيوي تتمثل (من الزاوية الفنية) في أنّ النص القرآني الكريم عرض ـ قبل ذلك ـ المصائر التي لم تقع بعد أيضاً، وهي مصائر المنحرفين في اليوم الآخر، سواء كان ذلك في نطاق الوقوف في عرصات القيامة من أجل المحاكمة أو في نطاق المصير الأبديّ لهم... وما دام هدف النص هو: حمل المتلقي أو حمل البعض ممن يؤمل أن يعدل سلوكه من المنحرفين، على الاتعاظ بأمثلة هذه المصائر، حينئذٍ يمكننا أن ندرك السّر الكامن وراء هذا التلويح بنمطين من العقاب الذي لم يقع بعد: مع ملاحظة أن (فكرة) السورة الكريمة تحوم على موضوع مضاد لإمكانية التعديل في السلوك، لذلك، عاد النص من جديد ليعرض لنا شرائح جديدة من سلوك المنحرفين، نلمس من خلالها عدم الأمل في تعديل سلوكهم، بالرغم من الاستدلال لهم بظواهر جديدة من الإبداع الكوني لله تعالى... يقول النص: **﴿أولم يروا أنّا خلقنا لهم مِمَّا عَمِلَتْ أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم، فمنها ركوبهم، ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون؟﴾** ليلاحظ أن النص (في المقاطع السابقة من السورة) عرض ظواهر كونية مثل الشمس والقمر والليل والنهار والثمار والفلك إلخ، إلاّ أنَّ عرض تلكم الظواهر جاء في صعيد التذكير بالمعطيات التي تحقق إشباعاً للحس الجمالي لدى الإنسان، أما هنا، فقد انتخب النص ظاهرة ترتبط بإشباع الحاجات الضرورية (وليس: الجمالية)، لذلك انتخب ظاهرة (الأنعام) فأشار إلى فوائد الركوب والأكل والشرب وسائر المنافع العامة وعقب على ذلك بقوله تعالى: **﴿أفلا يشكرون؟﴾** حيث أنّ الشكر يقرن بما هو أشد ضرورة لحاجات الإنسان، بينا عقب على الظواهر الجمالية **﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلّا كانوا عنها معرضين﴾** حيث سيقت

تلكم الظواهر بمثابة حجج أو آيات: ينبغي أن يُعبر بها في التدليل على قدرة الله تعالى...

إذن، جاء المقطع الجديد الذي ينطوي على تكرار التذكر لظواهر الإبداع الكوني، جاء في سياق آخر يختلف عن السياق الذي ورد سابقاً، مما يكشف مثل هذا التكرار عن واحدٍ من خطوط التلاحم العضوي بين مقاطع السورة الكريمة. . . والمهم، بما أنّ فكرة السورة الكريمة، تحوم ـ كما كررنا ـ على عدم الأمل في إصلاح المنحرفين، لذلك جاء القسم اللاحق بهذا المقطع، مشيراً إلى الحقيقة المتقدمة: ﴿**وٱتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون فلا يحزنك قولهم إنّا نعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾. إنّ عبارة ﴿**فلا يحزنك قولهم**﴾ تشير إلى عدم الأمل في إصلاح هؤلاء المنحرفين، كما أن عرضه لشريحة من سلوكهم القائم على الشرك، بعد أن ذكرهم بمعطيات الله تعالى: في الأنعام التي يفيدون منها يُعد تجسيداً للفكرة التي تستبعد إمكانية هداية المنحرفين. . . ويلاحظ أيضاً، أنّ هذا المقطع وصل بين المقاطع التي سبقتها بالنسبة إلى ما ينتظر المنحرفين من عقاب أخروي، وبين هذه القوى التي أشركوها مع الله تعالى ﴿**وٱتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون**﴾ حيث أشار المقطع إلى أنّ هؤلاء الشركاء سوف يحضرون في اليوم الآخر مثل إحضار المنحرفين أنفسهم دون أن يستطيعوا أن يقدّموا أية معونة لهم. . .

إذن، للمرة الجديدة، أمكننا ملاحظة مدى الصلات العضوية بين مقاطع السورة الكريمة، بحيث يلتحم بعضها مع الآخر، فضلاً عن التحامها بعمارة السورة الكريمة التي تحوم على فكرة أنّ المنحرفين لا أمل في إصلاحهم، فيما تفصح مثل هذه المستويات من البناء، عن مدى إحكام العمارة القرآنية الكريمة، بالنحو الذي أوضحناه.

قال تعالى: ﴿**أوَلَم يرَ الإنسان أنّا خلقناه من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكلّ خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاّق العليم إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾.

بهذا المقطع، تختم سورة ياسين التي استهلت بالحديث عن المنحرفين الذين لا أمل في إصلاحهم، أي قوله تعالى: ﴿**وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾، حيث ترددت هذه الفكرة في عصب السورة جميعاً، وحيث ختمت بها أيضاً عبر هذا المقطع الذي نتحدث عنه الآن... لقد انتخب النص القرآني الكريم، شريحة جديدة من سلوك المنحرفين الذين عرض النص لنا شرائح متنوعة من انحرافاتهم، وها هو النص يختم ذلك بإبراز هذه المقولة المنحرفة القائلة ﴿**من يحيى العظام وهي رميم؟**﴾. واضح، أنّ إنكار اليوم الآخر، يظل واحداً من أبرز الانحرافات التي يصدر عنها هؤلاء القوم، لذلك، فإنّ إبراز هذا النمط من السلوك (في ختام السورة) يعني: خطورة ما ينطوي عليه من المفارقات والالتواء في السلوك، والمهم، أنّ المقطع أبرز لنا ظاهرة خلق الإنسان من (نطفة)، هي أصغر وأقذر عينة حسية يخبرها الإنسان، ثم أبرز لنا ظاهرة المخاصمة في الكلام ﴿**فإذا هو خصيم مبين**﴾ حيث ربطها ببدء خلق أو أصل الإنسان، حتى يستخلص المتلقي مدى تفاهة المنحرف الذي خلق من نطفة تافهة ثم يتحول إلى خصيم مبين بحيث يجرأ على إثارة التساؤلات السخيفة، فيضرب مثلاً ويقول ﴿**من يحيى العظام وهي رميم**﴾.

لنلاحظ بدقة، كيف أنّ النص اختار ظاهرة أصل الإنسان (وهو:

النطفة)، وربطها بأوسخ المواقف الكلامية أو الإدراكية التي استثمرها المنحرف في استدلالاته السخيفة، وبهذا الربط، أمكن للمتلقي أن يدرك مدى هزال وتفاهة ما استبدل به المنحرف: في تساؤله الهزيل المنكر لانبعاث الإنسان في اليوم الآخر... مع ذلك، فإنّ المقطع يجيب على التساؤل المذكور ﴿**قل يحييها الذي أنشأها أول مرة**﴾. وبهذا الربط بين نشأة الإنسان ﴿**من نطفة**﴾، وبين عودته من جديد في اليوم الآخر، تتم عملية الاقتناع الكامل بإمكان العودة المشار إليها... هنا يتقدم النص بعرض ظاهرة إبداعية جديدة (بعد أن لحظنا عرضه لظواهر ابداعية مثل السماء والأرض والليل والنهار والثمار والأنعام... إلخ) حيث أوضحنا في حينه صلة هذا العرض للظواهر الإبداعيه: بفكرة السورة الكريمة...

والآن، يعرض لنا النص ظاهرة إبداعية هي ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً، فإذا أنتم منه توقدون**﴾. إن انتخاب هذه الظاهرة الإبداعية في ختام السورة، يحمل دلالات فنية متنوعة، منها: أنّ هذه الظاهرة تحمل فاعلية (التضاد) بين شيئين هما: الرطوبة والنار، حيث أنّ أحدهما يضاد الآخر، حينئذٍ فإنّ الذي جعل من أحد الشيئين ﴿**الشجر الأخضر**﴾، ضداً آخر ﴿**ناراً**﴾، بمقدوره أن يجعل من الميت حيّاً أي يجعل من العظام أو الرميم خلقاً جديداً... المقطع لم يقل هذا مباشرة بل استدل على عملية الانبعاث بقوله تعالى: ﴿**أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟**﴾. هنا ينبغي أن نتذكر أنّ النص في مقاطع سابقة لم يعرض لظاهرة خلق السماوات والأرض، بل عرض لمفردات من ظواهر الأرض والجوّ، أما الآن، فيعرض لما هو أوسع من ذلك، حتى يتجانس التقابل بين أوسع الظواهر الإبداعية التي يخبرها المنحرفون حسّياً وبين واحدة من الظواهر التي يشككون فيها وهي: إحياء العظام وهي رميم.

لكن، ينبغي ألا نغفل عن المنحى الفني الذي سلكه النص بشكل غير مباشر: حينما ذكّر المنحرفين بأنّ الله تعالى جعل من الشجر الأخضر ناراً، حيث أنّ المتلقي سيخرج بحصيلة (من خلال عملية التداعي الذهني) هي: أنّ من جعل من الشجر الأخضر ناراً، بمقدوره أن يجعل من العظام خلقاً جديداً: بصفة أن (التضاد) بين الأشياء تقترن بصعوبة التكيّف بينهما أو امتناعه، لكن بما أن النص استشهد بما هو أكبر وأوسع ﴿**خلق السموات والأرض**﴾ للتدليل بإمكانية ما هو أصغر ﴿**إحياء العظام**﴾ حينئذٍ، فإن المتلقي وهو مقتنع بإمكانية التكييف أو الجمع بين المتضادين اللذين يحتفظ ذهنه بحدوثها فعلاً ـ سوف يقرن هذا الإمكان وهو (التضاد) مع إمكان آخر خَبَره حسّياً أيضاً وهو خلق السماوات والأرض وهما جميعاً أكثر إفصاحاً عن الإدراك لقدر ة الله تعالى.

إذن، جاء هذا التذكير الجديد ببعض الظواهر الإبداعية في الكون، مقروناً بأسرار فنية أمكننا ملاحظتها في هذا المقطع الذي ختمت به سورة ياسين، كما أمكننا ملاحظة الصلة الفنية بين هذا الختام أو المقطع وبين (الفكرة الرئيسية) التي حامت عليها موضوعات السورة الكريمة، ونعني بها: عدم الأمل في إصلاح بعض المنحرفين، حيث أنّ صدورهم عن أمثلة ذلك التساؤل السخيف عمّن يحيي العظام وهي رميم، يكشف عن انغلاقهم الفكري تماماً، بحيث لا أمل في إصلاحهم فعلاً، وبهذا نستكشف مدى الإحكام الهندسي للسورة الكريمة من حيث صلة نهايتها ببدايتها وبمطلق أقسامها، أي: صلة أجزائها بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

سورة الصافات

تبدأ سورة الصافات بهذا النحو: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم والصَّافَّاتِ صفاً فالزّاجرات زَجراً فالتَّاليات ذِكراً إنَّ إلٰهكم لواحد ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينَهما وربُّ المشارق إنّا زيَّنا السماءَ الدّنيا بزينةٍ الكواكب وحفظاً من كلِّ شيطانٍ ماردٍ د لا يسَّمَّعُون إلى الملإِ الأعلى ويُقذفون من كل جانبٍ، دُحوراً ولَهم عذابٌ واصِبٌ إلاّ مَن خَطِفَ الخَطفة فاتبعه شِهابٌ ثاقبٌ**﴾.

هذا المقطع يشكل (المقدمة) الفنية للسورة: حيث تنتظم السورة موضوعات مختلفة: بخاصةٍ سلوك الأنبياءِ عليهم السلام، فضلاً عن موضوعاتٍ متفرقةٍ تصُبُّ جميعاً في رافدٍ فكري موحدٍ بينها هندسياً على النحو الذي سنفصل الحديث عنه لاحقاً.

المقدمة المذكورة تتناول أوّلاً سلوك الملائكة في بعض ممارساتها العبادية، كما تتناول: السلوك المضاد من قبل مخلوقات مماثلةٍ لهم غيبياً أي الشياطين... أنّ الاستهلال بعرض السلوك الملائكي من جانب والسلوك المضاد له من جانبٍ آخر، وربطه بالسلوك البشري من جانب ثالث، هذا النمط من الاستهلال من العرض ينطوي على أهميةٍ كبيرةٍ في حقل الصياغة الفنية: بصفتها انعكاساتٍ للأفكار التي تستهدف السورة الكريمة توصيلها إلى الملتقي.

لقد بدأ الحديث عن «الملائكة» بظاهرة (القسم) بهم. والقسم ـ كما هو طابع ملحوظ في استهلال كثيرٍ من السور به يعني انطواءَ الظاهرةِ التي يقسم بها: على خطورة ما تتضمنه من دلالات. فالملائكة مخلوقات (غير مرئية) أولاً وتمارس فاعلياتٍ ضخمة ثانياً من حيث كونها أدوات توظيف لإدارة

الكون)، وتمحضها للعبادة الحقة ثالثاً. . .

لقد وسمها النص هنا بسمات الاصطفاف والزجر، وتلاوة الذكر ﴿**والصافاتِ صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذِكراً**﴾ فالملاحظ أنّ كل واحدةٍ من هذه السمات ترشح بوظيفةٍ خاصةٍ يختلف أحدها عن الآخر، فالسّمة الأولى وهي (الاصطفاف) رمز للوقوف الذي ينتظر إصدار الأوامر إليه من قبل الله تعالى حيث يفصح هذا الرمز عن دلالةٍ خاصة هي (عبودية) المخلوقات لله تعالى متمثلة في أبسط مصاديقها في الاستعداد لأنْ تمتثل أوامر الله تعالى. . أما السّمة الثانية فهي: (الزجر) عن ممارسة ما يضاد العبودية أي: وقوفها حاجزاً عن وصول أيّ نشاطٍ سلبيٍ إلى بيئة السّماء التي يحيون فيها، فالسماء أو الملأ الأعلى هي بيئة خاصة لم تتلوث بأية معصيةٍ مماثلة في بيئة الأرض، إنّها متمحضة للعناصر النظيفة فحسب. نفهم هذا من خلال الوقائع التي عرضتها مقدمة السورة ذاتها حيث تشير فيما بعد إلى أنّ الملائكة تحتجز الشياطين من الصعود والاستماع إلى الملأ الأعلى. . .

وأما السّمة الثالثة للملائكة فهي تلاوة الذكر (فالتاليات ذكراً). وهذه السمة لا تحتاج إلى التعقيب من حيث دلالتها الفنية المتمثلة في أنَّ (الذكر) هو التجسيد الحي للوظيفة العبادية: بغض النظر عن مستوياته وأنماطه. . .

إنّ ما نعتزم توضيحه في هذا الاستهلال بالقسم الملائكي هو: دلالاته الفنية أولاً وبناؤه أو موقعه الهندسي من عمارة السورة ثانياً. إنّ النصوص المفسرة تفاوتت في استخلاص ما هو المقصود من الاصطفاف والزجر وتلاوة الذكر، حيث ذكر بعضها ما استخلصناه من العنصر الملائكي، وذكر بعضها أنّ ذلك مرتبط بالعنصر البشري كاصطفاف المؤمنين في الصلاة أو الجهاد، كما ذكر بعضها دلالاتٍ أخرى، بيد أنَّ ما استخلصناه فنياً يظل أقرب إلى السياق أو الموقع الهندسي الذي ينتظم مقدمة السورة، نظراً للتجانس بين عنصر

(الملائكة) وبين عنصر (الشياطين) من حيث كون الملائكة تقف حاجزاً عن نشاط الشياطين الذين قالت المقدمة عنهم ﴿**وحفظاً من كل شيطانٍ ماردٍ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً... إلخ**﴾. فهذا التجانس (أو التقابل بين الملائكة والشياطين فضلاً عن كونه يفصح عن (الرمز) الذي تضمنه لفظ الاصطفاف والزجر و«تلاوة الذكر»، فإنّه رمز ينطوي أيضاً على جماليةٍ مدهشةٍ في عمارة المقطع، حيث يشع بدلالاته على أجزاء لاحقةٍ من النص، مما يكشف عن مدى إحكام النص و(تنامي) موضوعاته، وتلاحمها بعضاً مع الآخر.

* * *

تحدثنا عن (الرمز) الفني لدلالة ﴿**والصافات صفاً فالزاجرت زجراً فالتاليات ذكراً**﴾ متمثلة في سلوك (الملائكة). والآن: نواجه أفكاراً خاصة طرحها هذا المقطع هي: أولاً الإشارة إلى وحدانية الله تعالى ﴿**إنَّ إلٰهكم لواحد**﴾ وإبداعه السماوات والأرض والشمس ﴿**رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق**﴾ والسؤال هو: لماذا طرح النص هذا القسم ﴿**ورب المشارق**﴾ وما هي دلالته الفنية؟ لقد كان من الممكن أن يقسم النص بالشمس بدلاً من (مشارق الشمس)، كما أنّه من الممكن أن يقسم بمشارق الشمس ومغاربها (كما هو الأمر في آية أخرى من غير هذه السورة)... أقول: كان من الممكن أن يقسم النص بالشمس أو بمشارقها ومغاربها جميعاً، فلماذا خصص القسم بـ(المشارق) فحسب؟ إننا ما دمنا نتحدث عن البناء الفني للسورة القرآنية الكريمة لا حينئذٍ لا بد أن نقف عند هذه الظاهرة الفنية.

إنّ بعض المفسرين ذكروا أنّ سر ذلك هو أنّ (الشروق) قبل (الغروب) ولذلك تم القسم به...

من الممكن أن يكون الأمر كذلك... لكن في تصورنا الفني أنَّ التركيز

على (المشارق) دون (المغارب)، فضلاً عن التركيز على (الشمس) دون غيرها من ظواهر الإبداع الكوني، هو: أنّ الجزء اللاحق من النص يتحدث عن ظاهرة (الكواكب) ﴿إنّا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ وحينئذٍ فإنَّ (الكواكب) بصفتها عنصراً مضيئاً لا بدَّ أن يجانسه عنصر آخر يحمل طابع الإضاءة أيضاً، وهو: إشراق الشمس. . . مضافاً لذلك: فإنّ النص يحدثنا بعد ذلك عن بيئة السماء وحفظها من كل شيطانٍ مارد وذلك من خلال رجمه بشهاب ثاقب ﴿إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ﴾ فالشهاب الثاقب يجسّد بدوره عنصر إضاءة: بصفة أنَّ الشهاب هو شعلة نار مضيئة. إذاً، نحن الآن أمام ثلاثة عناصر من الإضاءة تتجانس فيما بينها مع تميز كل واحد منها بطابع خاص إشراق الشمس، شعلة الشهاب، زينة الكواكب حيث يفصح مثل هذا التجانس عن جمالية العمارة التي انتظمت هذا المقطع الذي نتحدَّث عنه. . .

لكن خارجاً عن عمارة النص ينبغي أن نتابع موضوعاته. إنّ المقطع بعد أن أقسم بالملائكة وأشار إلى الوحدانية، ثم إلى إبداع السماوات والأرض وما بينهما والمشارق اتجه إلى رسم بيئة السماء بصفتها: موطن الملائكة الذين استهل المقطع بهم وهذا بعد آخر من أبعاد التجانس أو التلاحم أو الإحكام الفني بين موضوعات المقطع حيث أنّ الحديث عن الملائكة يقتاد فنياً إلى الحديث عن بيئتهم. فما هي معالم هذه البيئة؟؟.

البيئة هنا رسمت من خلال بعدين: البعد الجمالي والبعد العبادي أو الفكري. أما البعد الجمالي فيتمثل في ﴿إنّا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب﴾ مع ملاحظة أنّ (الحاجة إلى الجمال) تجسد واحدة من الحاجات التي تطبع التركيبة البشرية. لكن: إنَّ ما يفوق هذه الحاجة أهمية هو الدلالة العبادية للظواهر، ولذلك عندما رسم المقطع جمالية السماء من خلال تزينها بالكواكب

أتبع ذلك مباشرة بالحديث عن قدسية السماء وحفظها من كل دنسٍ **﴿وحفظاً من كل شيطانٍ ماردٍ﴾** ثم أوضح الطريقة التي يتحقق من خلالها الحفظ على السماء متمثلة في حجز الشياطين من الصعود إليها واستراق السمع إلى الملأ الأعلى. إنّ عملية رجم الشياطين من خلال (الشهب) تنطوي على عنصر (جمالي) أيضاً يتناسب مع جمالية الكواكب ذاتها، فرؤية الشهاب الثاقب وهو يخترق الجو بنارٍ مضيئة خاطفة إنما تنطوي على عملية إشباع للحسّ الجمالي عند الإنسان...

إذاً، نحن الآن أمام جمالية مدهشة في رسم هذا المقطع الذي تضمن حقائق فكرية: من وحدانية الله، وإبداعه السماء، ووظائف ملائكية، حيث تمَّ رسم هذه الحقائق العبادية من خلال رسم بيئةٍ جمالية تتركز في عناصر مضيئةٍ مختلفةٍ تطبع هذه البيئة: بدء من مشارق الشمس المضيئة، مروراً بالكواكب المضيئة وانتهاء بالشهب المضيئة، التي وظفت لطرد الشياطين...

إنّ المتلقي مدعو إلى أن يتأمل بدقة: هذه الأسرار الفنية المدهشة، المثيرة، الممتعة، وهي أسرار وظفت أساساً لتقرير حقائق عبادية يستهدف النص توصيلها إليها لكن من خلال هذا الإحكام الجمالي لعمارة النص من حيث تلاحم وتجانس وتنامي موضوعاتها بالنحو الذي فصلنا الحديث عنه.

* * *

قال تعالى **﴿فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنّا خلقناهم من طين لازبٍ بل عجبت ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا رأوا آية يستسخرون وقالوا إن هذا إلاّ سحر مبين أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل نعم وأنتم داخرون فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾**.

هذا المقطع وما بعده يتحدث عن المنحرفين فكرياً ممن طبعهم المرض فانسحب على سلوكهم حيال رسالة الإسلام. ويعنينا منه المنحى الفني الذي

سلكه النص في عرض مواقف المنحرفين وصلته بمقدمة السورة التي حدثتنا عن الملائكة ﴿**والصافات صفا فالزجرات زجرا فالتاليات ذكرا إنّ إلٰهكم لواحد...**﴾.

هذه المقدمة تنسحب (من حيث عمارة النص) على المقطع الذي يتحدث عن المنحرفين فكرياً ممن يشككون بالتوحيد وبرسالة الإسلام. لقد خاطبهم المقطع بقوله ﴿**أهم أشد خلقاً أم من خلقنا؟ إنّا خلقناهم من طين لازب**﴾ أي: هل أنّ العنصر البشري أشد خلقاً أم العنصر الملائكي الذي يوحد الله ويمارس وظيفته العبادية مثل الاصطفاف لتنفيذ أوامر السماء، وزجر المخلوقات عن المعاصي، والاهتمام بتلاوة الذكر...

طبيعياً، هذا الاستنتاج يظل من قبل المتلقي الذي تسوقه خبرته الفنية إلى أن يربط بين العنصر الملائكي والعنصر البشري: دون أن يحدثنا النص القرآني بذلك مباشرة. وهذه هي إحدى خصائص الفن الذي يدع المتلقي مساهماً في كشف الدلالات كلاً حسب خبرته الفنية، وإلاّ كان بمقدور النص أن يقول بوضوح (أهم أشد خلقاً أم من خلقنا من الملائكة) إلاّ أنّه حذف الملائكة ليدع المتلقي يستخلص بنفسه هذه الحقيقة، وأهمية هذا الإبهام للحقيقة المذكورة لا تنحصر في مجرد الكشف، بل تدع كل قارىء يستخلص الحقيقة حسب خبرته الشخصية بحيث يتفاوت القراء في كشف الحقيقة. ولذلك نجد أن من النصوص المفسرة ما يشير إلى أنّ المقصود ليس الملائكة فحسب بل الملائكة والسماء والأرض والكواكب إلخ، كما أنَّ من النصوص ما يشير إلى أنَّ المقصود هو الأمم الماضية.

وأياً كان فإذا تجاوزنا هذا الجانب الفني إلى الأفكار المطروحة في المقطع نجد أنّ المنحرفين يصدرون عن جملة من أنماط السلوك تدل جميعاً على شدة الاضطراب النفسي الذي يطبع شخوصهم، فالرسول(ص) يعجب من

عدم إيمانهم وهم يسخرون منه ﴿**بل عجبت ويسخرون**﴾ لنلاحظ الفارق بين الشخصية الناضجة التي تعجب فحسب من الانحراف (مع أنّ الانحراف يستدعي السخرية) بينما (يسخر) المنحرفون من الموقف الناصح الذي وقفه الرسول(ص) حيالهم. ومن البين أنَّ المريض أو المضطرب نفسياً يتعامل مع الحقائق بشكل يخالف ما هو سوي من السلوك. لذلك (سخروا) من محمد(ص) مع أنّه(ص) تعامل بسويةٍ كاملةٍ مع مواقفهم. وإليك الموقف الشاذ الآخر الذي صدر المنحرفون عنه ﴿**وإذا ذكروا لا يذكرون**﴾ وهذا كافٍ في دمغهم بانتفاء البصيرة عنهم. لكن لنلاحظ مزيداً من اضطراباتهم حينما يواجهون دلائل حسية مثل انشقاق القمر حيث يستسخرون من ذلك أيضاً ﴿**وإذا رأوا آيةً يستسخرون**﴾ فالمفروض أن الدليل الحسي يخفف من حدة الاضطراب أو التشكيك. إلا أنَّ شدة اضطرابهم قد دفعهم إلى أن يستسخروا، أي: أن يعتقدوها (وهي الآية الإعجازية) سخرية، لذلك اضطروا وهم يواجهون دلائل حسية إلى أن يقولوا ﴿**إنْ هذا إلا سحرٌ مبين**﴾. إذاً، أمكننا أن نلاحظ كيف أن المقطع القرآني الكريم شخص طبيعة الاضطراب لدى المنحرفين عبر المراحل النفسية التي قطعوها في مواجهة رسالة الإسلام على الصعيد الغيبي والحسي...

بعد ذلك يحدثنا المقطع عن تشكيكهم باليوم الآخر ﴿**أإذا متنا... إلخ**﴾. إلاّ أنّ النص يجيبهم ﴿**فإنّما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون**﴾. هذه الإجابة سوف يفصل النص الحديث عنها لاحقاً حينما يرسم مختلف ردود الفعل منهم حيال التي يواجهونها...

هنا ينبغي لفت النظر إلى التجانس الفني بين قوله تعالى عن قيام الساعة ﴿**فإنما هي زجرة واحدة**﴾ وبين مقدمة السورة التي حدثتنا عن الملائكة ﴿**والزاجرات زجرا**﴾ فالملاحظ أنَّ الرموز أو العبارات المستخدمة في قيام

الساعة تختلف من سورة إلى أخرى ومن موقع إلى آخر مما يعني أن السياق الفني هو الذي يحدد هذه الصورة أو تلك. ففي المقطع الذي نتحدَّث عنه جاءت الصورة متمثلة في عملية (زجر) عن الحالة الدنيوية التي يحيونها في حياتهم أو موتهم، حيث (رمز) النص بالصيحة التي تقود إلى الانبعاث في اليوم الآخر (رمز) لها بصورة (الزجرة الواحدة) حيث تتجانس هذه الصورة مع صورة (الزجر) وهو أمر يكشف عن إحكام البناء الهندسي لهذا المقطع وصلته بالمقاطع السابقة حيث لحظنا أكثر من بعد يصل بين أقسام السورة الكريمة على النحو الذي تقدّم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى ﴿**وقالوا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبُدون من دُون الله فاهدُوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنَّهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون**. . .﴾.

هذا المقطع يتحدث عن المصير الآخروي للمنحرفين الذين وصفهم مقطع سابق بالسلوك المشكك، المكذب باليوم الآحر، المصحوب بالسخرية من رسالة الإسلام، وحينئذٍ فإنَّ المصير الأخروي الذي ينتظرهم، نتوقع أن يكون متجانساً (من حيث عمارة النص) مع سلوكهم الدنيوي المذكور. إنّ أول ردّ فعل يواجهونه هو هتافهم بمرارة ﴿**يا ويلنا هذا يوم الدين**﴾ يقابل هذا الإقرار بأنفسهم: تأكيد من قبل الله تعالى أو الملائكة ﴿**هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون**﴾. . .

من الواضح، عندما يقر المنحرف بأنّه يواجه شدةً نفسيةً ثم عندما يؤكد له الطرف الآخر قيمة هذه الشدة: حينئذٍ تبلغ الشدة النفسية منتهاها. . . والأهم من ذلك أنّ النص ينتقل من هذه الواقعة الجزئية التي تخص المكذبين برسالة

الإسلام، إلى مطلق المنحرفين: حيث يواجه كل منحرفٍ كافراً كان أو فاسقاً يمارس هذا الذنب أو ذاك ـ المصير السلبي الذي ينتظره ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم**﴾ فالأزواج هنا يقصد به الأشباه والنظائر أي كل من مارس الخطيئة أياً كان نوعها...

ويلاحظ أن النص هنا مزج لغة الجزاء بلغة السخرية من المنحرفين حيث قال ﴿**فاْهدوهم إلى صراط الجحيم**﴾ فالهداية هنا لغة ساخرة طالما تعني: الذهاب بالمنحرف إلى الجحيم... وهذه السخرية تتجانس مع سلوك المنحرفين الذين وصفهم مقطع سابق بقوله: ﴿**بل عجبت ويسخرون**﴾وقوله: ﴿**وإذا رأوا آية يستسخرون**﴾ فالسخرية والاستسخار هنا قابلته لغة ساخرة في اليوم الآخر تتجانس مع سلوك المنحرفين، وهذا واحدٌ من أبعاد التلاحم الفني بين مقاطع السورة الكريمة...

ويتابع المقطع مزجه بين اللغة الساخرة، والمهددة، والمؤيسة حينما يقول ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون مالكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون**﴾. إنَّ أمثلة هذه اللغة الفنية تنطوي على أسرار بالغة بالنسبة إلى العمليات النفسية التي تصاحب المنحرفين في غمرة مواجهتهم لهذه اللغة التي تخاطبهم جدياً حينما تقول: ﴿**وقفوهم إنَّهم مسؤولون**﴾ أي: يحاسبون على كل سلوك صدر عنهم، وحينما تقول لهم بعد ذلك (ساخرةً) منهم ﴿**ما لكم لا تناصرون**﴾ أي: لماذا لم ينصر بعضكم بعضاً في التخلص من هذا المصير؟ ثم حينما تؤيسهم أخيراً من كل أمل: بهذه اللغة ﴿**بل هم اليوم مستسلمون**﴾ وهذا الاستسلام إفصاح عن اليأس الذي يغلف المنحرفين وهو يقابل فنياً ذلك (التمرد) الذي صدر عنهم دنيوياً، ففي حياتهم الدنيا كانوا متمردين، متعالين، مستكبرين: لا يخضعون لرسالة الحق، وها هم في اليوم الآخر على عكس الحالة الدنيوية نجدهم

(مستسلمين)... وهذا بدوره واحد من أبعاد الإحكام الفنّي بين مقاطع السورة...

بعد ذلك، يتقدم النص برسم موقف المنحرفين وهم (يتحاورون) فيما بينهم، حيث يكشف هذا التحاور عن شدة جديدة من شدائد اليوم الآخر ﴿**وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان...**﴾ ففي هذا الحوار حقائق من السلوك المتبادل بين الضالين والمضلين، فالضال يوجّه عتاباً إلى من أضله وخدعه، والمضل يرده بأنَّه لا سلطان له عليه بل هو الذي اختار الضلال، وعليه ﴿**فحق علينا قول ربنا إنّا لذائقون**﴾ هذا الحوار بما يتضمنه من عتابٍ، ثم بما يتضمنه من رد من قبل المضل نفسه بأنَّ الإنسان مختار في سلوكه وأنّه لولا تقبله للضلال لما أمكن لأحدٍ أن يفرض عليه، ثم إقرار المضل بأنَّه هو ومن تبعه يستحقون مثل هذا المصير: كل أولئك تشكل حقائق عبادية يستهدف النص توصيلها إلينا ـ نحن المتلقين ـ وهي: أنّ الإنسان لا يمكن أن تفرض عليه المعاصي بل هو الذي يختارها ملء إرادته، مما يترتب على ذلك تحمله لمسؤولية مثل هذا السلوك...

أخيراً ربط النصّ بين هذا المصير وبين السلوك الدنيوي الذي عرضه مقطع سابق، ثم أكدَّه المقطع الحالي بقوله ﴿**إنّا كذلك نفعل بالمجرمين انّهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون...**﴾.

وبهذا الربط بين السلوك الدنيوي والأخروي، يتحقق بعد جديد من أبعاد التلاحم بين مقاطع السورة الكريمة بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿**إلاّ عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم... فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم**

إنّي كان لي قرين يقول أإنك لمن المصدقين أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم قال تالله إنْ كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين إنّ هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون. . .﴾.

إنّ هذا المقطع ينطوي على أسرار فنية بالغة الجمالية والدهشة والإثارة والإمتاع، أنّه تحدَّث عن (الحوار) بين المؤمنين (وهم في الجنة) من جانب و بينهم و بين المنحرفين (و هم في النار من جانبٍ آخر...)

هذا الحوار جاء في سياق حوار سابقٍ تمّ بين المنحرفين حيث كان المنحرفون يعاتب بعضهم الآخر في المصير الذي انتهوا إليه. أما في المقطع الحالي فإنّ الحوار بين المؤمنين جاء مقابلاً للحوار بين المنحرفين، وهو أمرٌ يكشف عن جمالية العمارة التي انتظمت السورة من حيث تنامي وتلاحم موضوعاتها بعضاً مع الآخر، والمهم هو أن نقف عند هذا الحوار الذي بدأ أولاً بين المؤمنين نفسهم **﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾**. إنّ المؤمنين وهم يتحاورون في الجنة فيما بينهم يبدأ بعضهم بعملية استحضارٍ للذكريات الدنيوية فيقفز إلى ذهنه التساؤل التالي: **﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أإنك لمن المصدقين؟﴾** هذا المؤمن يداعي بأذهاننا إلى ما نخبره في حياتنا اليومية من أشخاص منحرفين يجادلوننا في الدين كأن يقول لنا أحدهم: **﴿أإنك لمن المصدقين أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنّا لمدينون؟. . .﴾** يثيرون أمثلة هذا التساؤل بسخرية سواء كان ذلك في نطاق المناقشة المنطوقة أو في نطاق المناقشة المكتوبة. لكن لنتقدم إلى الموقف الأخروي لنجد كيفية المصير الذي ينتهي إليه أمثلة هؤلاء الأشخاص. لقد رسم النص ماضي هؤلاء المنحرفين من خلال تحاور المؤمنين فيما بينهم حيث يستحضر أحدهم في ذهنه بعض القرناء الدنيويين الذين كانوا يقولون **﴿أإنك لمن المصدقين أإذا متنا**

وكنا تراباً وعظاماً. . . إلخ﴾ هنا، عندما يستحضر المؤمن صورة ذلك الشخص المنحرف، عندها يسرع إلى إخوانه المؤمنين فيقول لهم تعالوا لنشاهد ذلك المنحرف الذين سخر منه، وإذا به ملقى في وسط الجحيم ﴿**قال هل أنتم مطلعون فأطلع فرآه في سواء الجحيم. . .**﴾.

لكن، الحوار لا ينتهي عند هذا الموقف والمرأى، لا ينتهي عند محادثة المؤمنين بعضهم للآخر أو محادثة أحدهم للأخرين من خلال استحضاره لذلك الشخص المنحرف أو مشاهدته للمنحرف وهو في وسط النار، الحوار لا ينتهي عند هذا الموقف والمرأى، بل يتجه إلى حوارٍ جديد بين هذا المؤمن وبين ذلك المنحرف. يقول المؤمن (وهو في الجنة) للمنحرف (وهو في النار) ﴿**تالله إن كدت لتُردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين. . .**﴾ أي: إنّ المؤمن يقول للمنحرف كدت أن تضلني في الحياة الدنيا لولا لطف الله تعالى، ألم تقل لي ﴿**أفما نحن بميّتين إلا موتتنا الأولى ؟**﴾.

إنَّ هذا الحوار لا يعكس ـ فنياً ـ مجرد المواقف التي يستحضرها المؤمنون في اليوم الآخر بل يتجاوزه إلى بعد فني آخر هو: مضاعفة الشدة النفسية بالنسبة للمنحرف. فالمنحرفون ـ كما وصفهم مقطع سابق ـ تعرضوا لشدائد نفسية بالغة حينما عاتب بعضهم الآخر، وها هم (أي: المنحرفين) يتعرّضون لشدةٍ نفسيةٍ جديدةٍ حينما يجيء العتاب من قبل طرفٍ آخر هو (المؤمن) فما إن ينتهي المنحرف من عتاب أمثاله من المنحرفين حتى يواجه عتاباً من المؤمنين يذكره بنفس الموقف الدنيوي الضال. . .

ومن الواضح أنَّ العتاب حينما تتعدد أطرافه (أي حينما يشمل طرفين متضادين) حينئذٍ تبلغ الشدة النفسية منتهاها: كما هو بين. والأهم من ذلك أنّ النصَّ وصل بين مواقف المنحرفين (في مقطع سابق) وبين المقطع الذي

نتحدث عنه حالياً خلال التقابل بين المنحرفين والمؤمنين حيث شمل التحاور كل الأطراف كما لحظنا، وهو أمر يكشف عن مدى جمالية المبنى الهندسي للسورة من حيث تلاحم وتواشح مقاطعها بالنحو الذي فصلنا الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿**اذلِك خيرٌ نُزلاً أم شجرة الزَّقوم إنّا جعلناها فتنة للظالمين إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعُها كأنّه رؤوس الشياطين...**﴾.

هذا المقطع يتحدث عن بيئة جهنم (أعاذنا الله منها) بعد أن كان المقطع الذي سبق يتحدث عن بيئة الجنة... والملاحظ في رسم بيئة جهنم أنَّ المقطع اتجه إلى صياغة (صورة فنية) هي: شجرة الزقوم التي وصفها بأنَّها تخرج في أصل الجحيم وأن طلعها كأنه رؤوس الشياطين... والمهم هو: أنّ صورة (رؤوس الشياطين) تظل من الصور المتفردة التي تبعث الدهشة والطرافة اللتين لا سبيل إلى تسجيل مداهما، حتى أنَّه ليمكن القول إنّ هذه (الصورة) تنطوي على أسرار التركيب الفني الذي يعجز الدارسون عن استكشاف أبعاده المختلفة التي تثار عادة عند دراسة مفهوم الصورة الفنية... إن تركيب الصورة يعتمد عنصر (الواقع) كما هو واضح، أي أنّ نجاحها يتوقف على مدى ما تتضمنه من خبراتٍ واقعية يحياها الشخص. والفارق بين الصورة الفنية التي يصوغها البشر والصورة القرآنية هو: أنّ عنصر (الوهم) هو الذي يطبع غالبية النتاج البشري، في حين يظل (الواقع) هو العنصر الذي يطبع صور القرآن الكريم... فالشاعر ـ على سبيل المثال ـ عندما يصوغ صورة فنية يستهدف منها إبراز عنصر البطولة لدى أحد العسكريين مثلاً: كما لو قال: إنّ هذا البطل أخاف الأعداء بما فيهم النطف التي لم تر النور بعد، حينئذٍ فإنَّ (الوهم) أو (الكذب) يطبع مثل هذه الصورة طالما لا تعتمد على (الواقع) فالنطفة لا يمكن أن تعي

شيئاً من تجارب الحياة حتى يمكن أن تحدث لديها الخوف من بطل عسكري . . .

طبيعياً، إنّ (الواقع) لا ينحصر في ما هو (حسيّ)، بل يتجاوزه إلى ما هو (نفسي) أيضاً فعندما تصف النصوص الشرعية بأنَّ الدنيا (سجن) المؤمن مثلاً، فإنّ (الواقع) هنا واقع نفسي وليس حسياً لعدم وجود السجن الحقيقي بل إنّ الإحساس بالشيء هو الذي يخلع على ما هو مادي طابعاً نفسياً، لذلك تعد صورة (الدنيا سجن المؤمن) ذات (واقع) نفسي، بعكس صورة (النطف التي تخاف البطل) لأنّ النطف أساساً لا تملك الأحاسيس الدنيوية حتى يمكن أن تترجم ما هو مادي إلى ما هو نفسي. والأمر ذاته بالنسبة إلى الواقع الغيبي، أي أنَّ الشخصية الإسلامية المؤمنة بالغيب حينما تواجه صورة فنية لا وجود لها في البيئة الدنيوية: حئينذٍ تظل مثل هذه الصورة ذات طابع (واقعي) أيضاً إلاّ أنَّه واقع (غيبي) وليس واقعاً حسياً أو نفسياً. . .

والآن في ضوء هذا التمييز بين الصياغة الفنية التي يكتبها البشر من حيث كونها لا تتقيد بالواقع، وبين الصورة الفنية التي تعتمد الواقع بأشكاله الثلاثة: الحسي والنفسي والغيبي، أقول: في ضوء هذا الفارق بين ما يكتبه البشر وما يصوغه النص القرآني الكريم يمكننا أن نتجه إلى الصورة الفنية عن شجرة الزقوم التي وصفها المقطع القرآني بقوله: ﴿**طلعها كأنّه رؤوس الشياطين**﴾ لنلاحظ مدى ما تتضمنه من (واقع) نفسيٍ أو حسيٍ أو غيبي. . . لكن ـ قبل ذلك ـ ينبغي أن نقف على الصورة الكلية أو الصورة الموحدة التي تتركب من أجزاء تشكل بمجموعها صورة مركبة، فالصورة الكليه أو المركبة تتألف من الأجزاء التالية: ١ ـ شجرة الزقوم ـ ٢ ـ إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم ـ ٣ ـ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ـ ٤ ـ فإنَّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون. . .

هذا يعني أننا أمام صورة موحدة تتألف من أربع صورة جزئية تآزرت فيما بينها لتشكل صورة استمرارية عن شجرة في الجحيم ذات طابع خاص بالنسبة إلى العلاقة القائمة بينها وبين تناول المنحرفين من طعامها. . .

* * *

إنَّ الصورة الفنية لشجرة الزقوم وطلعها تتطلب إلقاء مزيد من الحديث عنها، نظراً لما تنطوي عليه من الأسرار الفنية في صياغة هذا النمط من الصورة. ونحن إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنَّ نجاح الصورة يعتمد على كونها (مألوفة) في تجارب البشر، حينئذٍ فإنَّ كلاً من (الشجر) و(الزقوم) يظل منتسباً لما هو مألوف في التجارب البشرية. أما (الشجر) فمن الوضوح بمكان وأمّا (الزقوم) فطعام كريه إلى النفس حسب ما هو معروف في اللغة اليومية التي يحياها الناس حيث تستخدم هذه العبارة قبل نزول القرآن الكريم حسب ما ذكره المعنيون بشؤون اللغة، مثلما نستخدمها ـ نحن في سياق الطعام الكريه أو المضر مثلاً. . .

إذاً، من حيث (الألفة: تجيء صورة (شجرة الزقوم) بنحوٍ يرتبط بتجارب البشر وهو ما يسمها بطابع المشروعية الفنية. بيد أنَّ المهم هو: تركيب الصورة أي (الشجر) و(الزقوم) فالنصوص المفسرة يذهب بعضها إلى أنّ الزقوم هو (ثمر) شجرةٍ أو شجرة تعرفها العرب، إلاّ أنّ البعض الآخر يذهب إلى أنّ العرب لم يعرفوا مثل هذه الشجرة، بقدر ما تنحصر معرفتهم بالزقوم من حيث كونه طعاماً كريهاً أو مضراً. . . فإذا انسقنا مع التفسير الذاهب إلى أنَّ العرب لم يألفوا الزقوم (شجراً) أو (ثمرة) بل يألفونها طعاماً أو رمزاً لطعامٍ كريه، حينئذٍ فإنَّ (شجرة الزقوم) تصبح صورة (رمزية) وليس صورة مباشرة، وهو أمر يخلع على هذا الصورة دلالة فنية هي: إحداث علاقةٍ بين طعام كريه وبين شجرة تثمر الطعام المذكور: أعدّت للمنحرفين. علماً بأنَّ

جعل الطعام مرتبطاً بشجرةٍ يظل اشد فاعلية من جعله مجرد طعام: لأنَّ الشجر يمثل عنصراً استمرارياً في تقديم الثمر. مضافاً لذلك، فإنّ الشجر هنا يتجانس فنياً مع البيئة المقابلة لبيئة الجحيم أي الجنة، فما دام النص في مقطع أسبق قد تحدَّث عن الجنة التي تداعي الذهن إلى كونها بيئةً زراعيةٍ، حينئذٍ فإن مقابلتها ببيئة النار من خلال إحداث عنصر زراعي فيها (وهو شجرة الزقوم) يظل أمراً له إثارته وخطورته الفنية...

إذاً، أمكننا الآن أن نتعرف جانباً من الاسرار الفنية الكامنة وراء صياغة صورة (شجرة الزقوم) في بيئة النار...

والأمر نفسه يمكننا أن نتعرّفه حين نتجه إلى الصورة الجزئية التي ارتبطت بالشجرة المشار إليها وهي صورة ﴿**إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم**﴾...

طبيعياً، بعد أن أوجد النص علاقة فنية بين بيئة النار وبين شجرة الزقوم، حينئذٍ فإنّ إحداث العلاقات المتفرعة عن ذلك: يظل أمراً له مسوغه الفني كما هو واضح...

العلاقة الجديدة هي: أنَّ الشجرة المذكورة تنبت في أرضٍ خاصةٍ وليس: في مطلق الأراضي التي تكتنف بيئة النار... هذه الأرض هي (قعر) جهنم (إنَّها شجرة تخرج في (أصل) الجحيم)... وأهمية هذه الصورة تتمثل في أنّ انتخاب (القعر) بدلاً من الأبعاد المكانية الأخرى: ينطوي على دلالة خاصة هي: ضخامة هذه الشجرة وارتفاع أغصانها بحيث تتناسب هذه الضخامة وذلك الارتفاع: مع نوعية الجزاء الأخروي الذي ينتظر الكافرين أو مطلق المنحرفين المنعزلين عن مبادىء الله تعالى...

إذاً، للمرة الجديدة، أمكننا نتعرف اسراراً فنيّة أخرى تقف وراء صورة الشجرة التي تنبت في أصل الجحيم، فضلاً عن الأسرار الفنية التي لحظناها في صورة (الشجرة) ذاتها بصفتها (شجرة زقوم) ثم ارتباط ذلك (من حيث عمارة

النص) بالمقاطع السابقة مما يفصح عن مدى إحكام النص وتلاحم جزئياته بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

تحدثنا عن الصورتين الفنيتين (شجرة الزقوم) وكونها (شجرة تخرج في أصل الجحيم)...

أما الآن فنتحدث عن الصورة الثالثة وهي صورة ﴿**طلعها كأنّه رؤوس الشياطين**﴾.

قلنا إنّ هذه الصورة الفنية المدهشة ترتكن إلى (واقعيةٍ) خاصة، أي إنَّها تتعامل مع (واقع) قد يكون (حسياً) وقد يكون (نفسياً) وقد يكون (غيبياً)، وقد يجمع بين ما هو حسي ونفسي وغيبي، وهذا ما يجعلها من الصور المدهشة التي تنطوي على أسرار فنيةٍ في غاية الخطورة...

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنَّ الصورة الناجحة فنياً هي الصورة التي تعتمد (الواقع) وليس (الوهم)، حينئذٍ يمكننا أن نتعرَّف الجوانب المختلفة لهذا التعامل الفني مع (الواقع)، وهو واقع ـ كما قلنا ـ قد يكون حسياً ندركه بحواسنا، أو نفسياً نخلع عليه أحاسيسنا، أو غيبياً تتمثله تصوراتنا الذهنية التي تمدنا بها: المعرفة العبادية...

إنَّ المدهش ـ في هذه الصورة ﴿**طلعها كأنَّه رؤوس الشياطين**﴾ ـ هو: الركون إلى الأشكال الثلاثة من الواقع: أي النفسي والحسي والغيبي... فالملاحظ أنّ هذه الصورة تتضمن طرفين ـ كما هو شأن التركيب للصورة ـ أحدهما: (الطلع) وهو حمل النخلة والآخر هو (رؤوس الشياطين) أما (الطلع) فيظل من الواضح بمكان، ما دمنا جميعاً نخبر هذا النمط من الظواهر. ونحن إذا أخذنا بنظر الاعتبار ما سبق أن كررناه من أنَّ الصورة الناجحة فنياً هي التي تتركب من ظواهر مألوفةٍ في تجارب البشر، حينئذٍ فإنَّ (الطلع) ـ وهو ما

نشاهده في أول نمو الثمرة ـ يظل في الصميم من الخبرات المألوفة كما هو واضح، إلا أنّ الطرف الآخر من الصورة وهو (رؤوس الشياطين) قد يبدو وكأنَّه غير مألوفٍ في تجاربنا اليومية. . . إلاّ أننا لو دققنا النظر لوجدنا أنّ هذا الطرف من الصورة (رؤوس الشياطين) يظل مرتبطاً بدوره بخبرات البشر، لكن: وفق احتمالاتٍ أو إيحاءات متنوعة سنقف عليها فيما بعد، غير أنَّ ما نعتزم تأكيده الآن هو، أنَّ هذه الإيحاءات أو الاحتمالات تظل منتسبة إمّا إلى واقعٍ حسيٍ أو نفسيٍ أو غيبيٍ أو جميعاً: كما أشرنا، وهذا بخلاف الطرف الأولِ من الصورةِ (أي الطلع) حيث تظل خبراتنا ذات طابعٍ حسيٍ بالنسبة لظاهرة (الطلع). . . والسؤال هو، لماذا جاء التشبيه برؤوس الشياطين: من خلال (الطلع) وليس من خلال (الثمر) نفسه وهو التمر أو الرطب مثلاً؟ أي: كان بمقدور النص أن يشبه (تمر) الشجرة برؤوس الشياطين ولكنه شبه (طلع) الشجرة بدلاً من ذلك، فلماذا؟

في تصورنا الفني أنَّ (الثمر) ما دام مقترناً بما هو (شهي) عند التناول، حينئذٍ فإنّه لا يتجانس مع (الزقوم) الذي يقترن بما هو (كريه) عند التناول. صحيح أنَّ (الطلع) ليس كريهاً أيضاً بل ينطوي على جانب من التذوق الجيد، إلاّ أنّه لا يرقى البتة إلى درجة التذوق الذي ينطوي عليه التمر أو الرطب مثلاً، مع ملاحظة أن (المرارة) تظل مقترنة بتذوق (الطلع) كما هو واضح. يضاف إلى ذلك أنّ الطلع من حيث كونه حملاً، وليس (ثمراً) إنّما يرمز إلى استمرارية النمو وهو يتجانس مع ما سبق أن أشرنا إليه من أنَّ (الشجر) أساساً يجسّد (استمرارية) العطاء بحيث يستهدف النص تقرير الحقيقة القائلة بأنَّ شجرة الزقوم تظل طعاماً استمرارياً لا ينضب بالنسبة إلى المنحرفين، حينئذٍ فإنَّ انتخاب ظاهرة (الطلع) بدلاً من الثمر نفسه يرمز إلى الاستمرارية المشار إليها. . .

وأياً كان الأمر، فإنّ المهم ـ بعد ذلك ـ هو أن نقف على الطرف الآخر في التشبيه وهو ﴿**رؤوس الشياطين**﴾ بصفته العنصر الرئيسي الذي يستهدف النص القرآني تعميق دلالته لدى المتلقي.

* * *

تحدثنا عن الصورة الفنية لشجرة الزقوم وأصلها وطلعها...

أما الآن فنتحدث عن صورة ﴿**رؤوس الشياطين**﴾.

إنَّ هذه الصورة المدهشة تتمثل طرافتها في جملةٍ من المستويات، منها: كون الصورة تشع بإيحاءاتٍ متنوعةٍ تتصل إما بما هو حسيٌ من تجارب الإنسان أو بما هو نفسي أو بما هو غيبي أو بهم جميعاً. فلو انسقنا مع النصوص التفسيرية الذاهبة إلى أن ﴿**رؤوس الشياطين**﴾ ثمرة يخبرها العرب آنئذ ولها شواهد شعرية تشير إليها، أو أنّ الشيطان: جنس من الحيات مثلاً، حينئذٍ فإنّ الصورة المشار إليها تظل مرتبطة بما هو (حسّي)... لكن إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ ألفة هذه الصورة تختص بزمن نزول الرسالة حينئذٍ فإنّ استيحاء ما هو نفسي أو غيبي منها يفرض ضرورته على المتلقي، بصفة أنّ النص الفني الخالد هو ما يجمع بين الخاص والعام. أما الخاص فيتمثل في زمن نزول القرآن، وأما العام فيمتد إلى مطلق الأزمان حيث يمكن للمتلقي أن يستوحي من الصورة المشار إليها (واقعاً غيبياً) أو (نفسياً). فالشيطان طالما تصوره النصوص الإسلامية عنصراً خبيثاً كريهاً، شريراً، قبيحاً إلخ وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ (الرأس) وهو يحوي الجهاز العقلي بما في ذلك مراكز التنظيم لمختلف فعاليات النفس، حينئذٍ يمكننا أن نتصور ﴿**رؤوس الشياطين**﴾ وهي مظاهر لكل ما هو شر وخبث. كما أنَّ طلع الشجرة التي يتغذى منها المنحرفون تشبه رؤوس الشياطين في مادتها الكريهة، للنفس... وهذا يعني أنّ ما هو (كريه) هو: الواقع النفسي الذي يختزن تجارب خاصة أو تصوراتٍ

خاصةٍ في الذهن، وهذا بخلاف ما هو (وهمي) من التصورات لأنّ (الوهم) هو ما لا وجود له في واقع النفس أو الحق كما لو خلعنا على الجنين) مثلاً: أفكاراً وأحاسيس عن تجارب الحياة خارج الرحم حيث لا وجود لمثل هذه الأحاسيس بطبيعة الحال...

وأياً كان الأمر، فإنَّ الصورة المشار إليها بما تضمنته من عنصر إيحائي، وبما يشع به الأيحاء من خبراتٍ حسيةٍ أو نفسيةٍ أو غيبيةٍ: تظل من الصورة الفنية التي تطبعها سمات الدَّهشة والإثارة والطرافة على نحو ما أوضحناه.

والمهم، أنَّ المقطع القرآني الكريم، يتجه بعد ذلك إلى استكمال الصورة الاستمرارية الموحدة، المركبة من: صورٍ جزئيةٍ هي: ﴿**شجرة الزقوم**﴾ و﴿**تخرج في أصل الجحيم**﴾ و﴿**فإنَّهم لآكلون منها، فمالئون منها البطون**﴾...

ومن الواضح، أنَّ الصور الثلاثة (الشجرة، وأصلها، وطلعها) إنّما تستكمل من خلال عملية (التناول) منها، الأكل من الشجرة المذكورة الذي تكفلت به الصورة الأخيرة التي حددت عملية الأكل بقولها: ﴿**فإنَّهم لآكلون منها، فمالئون منها البطون**﴾.

هنا ينبغي أن نشير إلى سمةٍ فنيةٍ تطبع هذه الصورة وهي أنَّ المقطع لم يكتف بالقول: ﴿**فإنّهم لآكلون منها**﴾ بل أردف ذلك بقوله: ﴿**فمالئون منها البطون**﴾، لأنَّ الأكل وحده قد يحسس المتلقي بتناول قسم منه ثم يحسم الأمر. لكن: عندما يقرر المقطع بأنَّ المنحرفين يملأون بطونهم من الشجرة، حينئذٍ فإنَّ ظاهرة (الامتلاء) توحي ـ كما هو واضح ـ بمزيد من الشدة التي يكابد منها المنحرفون، طالما يضاعف الامتلاء من حجم الأذى الذي يسببه التناول...

أخيراً، يصل النص بين هذه الصورة من بيئة الجحيم وبين السلوك

الدنيوي الذي صدر عنه المنحرفون، وهو سلوك سبق أن عرضه النص مفصلاً ووصله بهذه الصورة الفنية، إلاّ أنّه الآن (وهذا واحد من أسرار عمارة النص) يعود ليصل بين السلوك الدنيوي للمنحرفين وبين سلوك السابقين عليهم ﴿**إنّهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين**﴾.

إنّ هذا الربط بين بيئة الجحيم من جانب وبين سلوك المنحرفين عن رسالة الإسلام من جانب آخر، وربطه بسلوك المجتمعات السابقة من جانبٍ ثالثٍ (حيث سينسحب هذا الربط على مقاطع لاحقة تتحدث عن المجتمعات السابقة)... كل أولئك تكشف لنا عن مدى إحكام المبنى الهندسي للنص القرآني من حيث تلاحم وتنامي موضوعاته المختلفة بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي تحدثنا عنه وبالنحو الذي سنفصل الحديث عنه لاحقاً إن‌شاءالله تعالى).

* * *

قال تعالى: ﴿**ولقد نادانا نوح فَلَنعمَ المجيبونَ ونجَّيناهُ وأهْلَه من الكرْب العظيمِ وجَعلنا ذريتهُ همُ الباقينَ وتركْنا عليه في الآخرين سلام علىٰ نوح في العالمين إنا كذلك نجزي المحسنين إنهُ مِنْ عبادِنَا المؤمنين ثم أَغرَقنا الآخرين**﴾.

هذا المقطع يتحدَّثُ عن نوحٍ عليه السلام وسائر الأنبياء، ويبدأُ القسمُ الأولُ بالحديث عن المجتمع الذي عاصَر رسالةَ الإسلام...

القسمُ الجديد الذي تطرحهُ السورةُ يتمثّلُ في عُنْصرٍ (قصصي) يتحدّثُ عن نوحٍ، وإبراهيم، وإسحاق، وموسىٰ، وهارون، والياس، ولوط، ويونس عليهم السلام، حيث ينتظمُ هذه القصصَ بناء فنّي خاص يتوزّعُ في خطوطٍ تتوازنُ وتتقابلُ فيما بينها علىٰ نحوٍ ممعنٍ في الإحكامِ والجمالِ والدَّهشةِ، يواكبُها بناء (فكري) يركز على دلالاتٍ معينة: كما سنرىٰ، بحيث تتلاحم فنياً

مع بناءِ السورةِ العام.

تتجسّدُ أبنية القصص في كونها منَ القصص الصغيرة: من حيثُ الحجمُ، وفي كونها تخضعُ لبداياتٍ وخواتيم وأواسط متجانسةٍ فكرياً وأسلوبياً: فكلُّ أقصوصة ـ إلاّ نادراً حيث سنوضحُ السرّ الفنّي لهذه الاستثناءات ـ تُختمُ بالسلام علىٰ بطل القصة، وإثابة مطلق المحسنين، وبالإشارة إلى أنّه من العباد المؤمنين، مثل ﴿**سلام على إبراهيم**﴾ ﴿**إنّا كذلك نجزي المحسنين**﴾ ﴿**إنّه من عبادنا المؤمنين**﴾. هذه العبارات الثلاث التي خُتمت بها أقصوصة إبراهيم عليه السلام، تختم بها أكثر من أقصوصةٍ أيضاً مثل ﴿**سلامٌ على موسى وهارون إنّا كذلك نجزي المحسنين إنّه من عبادنا المؤمنين**﴾ ومثل ﴿**سلامٌ على ال ياسين إنّا كذلك نجزي المحسنين إنّه من عبادنا المؤمنين**﴾. والعبارات الثلاث ذاتها تختم بها أقصوصة نوحٍ أيضاً: حيث جاءت أولى القصص التي نبدأ بالحديث عنها. . . لكن قبل أن نتحدَّث عن هذه الأقصوصة ينبغي أن نشير إلى أنّ بداية هذه الأقصوصة ووسطها سوف يخضعان أيضاً لخطوطٍ متجانسة مع سائر القصص مثل: الإشارة إلى نصرة السماء لرسلها من نحو ﴿**ولقد نادانا نوح فنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم**﴾ ومثل ﴿**ولقد مننّا على موسى وهارون ونجّيناهما وقومهما من الكرب العظيم**﴾ ومثل ﴿**وإنَّ لوطاً لمن المرسلين إذ نجّيناه وأهله أجمعين**﴾. هذا فضلاً عن تجانس بدايات بعض القصص مع الأخرى مثل الإشارة التي لحظناها بالنسبة إلى لوط عليه السلام ﴿**وإنَّ لوطاً لمن المرسلين**﴾ ومثلها بالنسبة إلى إلياس عليه السلام ﴿**وإنّ الياس لمن المرسلين**﴾. . .

هذه الأبنية المتجانسة لبدايات وأواسط وخواتيم القصص أسلوبياً وفكرياً ينبغي ألاّ تغيب عن أذهاننا ما دمنا نعنىٰ بعمارة السورة القرآنية الكريمة، وما دامت السورة ذاتها تعلن بوضوحٍ عن خضوعها لهذا البناء الهندسي،

الجميل، المحكم، وما دام هذا البناء الفني ينطوي على دلالاتٍ فكرية يستهدف النص توصيلها إلى المتلقّي لتعديل سلوكه: بطبيعة الحال. . .

وأيّاً كان، حين نتّجه إلى أقصوصة نوح عليه السلام، نجد أنّها طرحت المفهوماتِ التي أشرنا إلى بعضها مثل مناداته عليه السلام لله تعالى وإجابة ذلك ﴿(ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾ ومثل إنقاذه ومن آمن معه ﴿ونجّيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ ومثل «السلام عليه»، والإثابة، والإشارة إلى الإيمان ﴿سلامٌ على نوح في العالمين إنّا كذلك نجزي المحسنين إنّه من عبادنا المؤمنين﴾. هذه الدلالات تظل مشتركة ـ كما قلنا ـ بين غالبية القصص. لكن لا بدَّ أن تتضمن كل أقصوصة طرحاً جديداً أيضاً بحيث يفرزها بعضاً عن الآخر في نفس الوقت الذي تتوحد من خلاله بطوابع مشتركة. . .

فما هو البُعد المستقل الذي طرحته قصة نوح ؟.

الطرح هو: ﴿وجعلنا ذرّيته هم الباقين﴾ و﴿تركنا عليه في الآخرين﴾ أي: أنّ الأقصوصة طرحت حقيقة تأريخية تتصل بنشأة المجتمع البشري من جانب، وبالفهم العبادي لهذه الحقيقة من جانب آخر. . .

الحقيقة التأريخية أو الاجتماعية تقول: إنّ ذرّية نوحٍ فحسب هم الذين سلموا من الموت في حادثة الطوفان مما يعني أنّ البشرية هم من ولد نوحٍ عليه السلام (في مجتمعهم الجديد: أي بعد المجتمع الأول المتمثل في آدم وزوجته وذرّيتهما). . . وأما الحقيقة الأخرى فتتمثّل في قوله تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾، وهي حقيقة عبادية يستهدفها النص أساساً في عرضه لهذه الأقصوصة، وسائر الأقاصيص حيث يظل عليه السلام نموذجاً للآخرين من حيث كونه نموذجاً عبادياً آمن بالله تعالى، وتحمل شدائد الحياة في تبليغ رسالة السماء، ومن حيث كونه ـ نتيجة لإيمانه وصلابته يظل موضع تقدير من الله تعالى في تحقيق طلبه وهو النجاة من الكرب العظيم، ومن حيث النتائج

المترتّبة على مطلق سلوكه متمثّلة في ﴿**سلام على نوحٍ في العالمين إنّا كذلك نجزي المحسنين إنَّه من عبادنا المؤمنين**﴾.

إذاً، ثمة دلالة فكرية قد استهدفها النص في هذه الأقصوصة، وهي دلالة ـ ذات استقلال من جانب ـ حيث تطرح قضية الطوفان، ونشأة المجتمع البشري الجديد، وذات طابع مشترك ـ من جانب آخر ـ حيث تطرح ظاهرة نصرة السماء لعبادها المؤمنين. وكما قلنا، فإنّ هذه الدلالات تظل ـ من حيث عمارة النص ـ مرتبطة بالقسم الأول من السورة من حيث الوصل بين رسالة الإسلام والرسالات السابقة في خضوعها جميعاً لأحداث ومواقف متماثلةٍ. كما أنّها مرتبطة بسائر الأقاصيص التي سنقف عليها، مما تفصح عن مدى إحكام النص في تلاحم موضوعاته على النحو الذي سنفصّل الحديث عنه لاحقاً إن شاء الله تعالى.

* * *

قال تعالى: ﴿**وإنّ مِنْ شيعته لإبْراهيمَ إذْ جاءَ ربّه بقلبٍ سليمٍ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أإفكاً آلهةً دون الله تريدون فما ظنكم بربّ العالمين فنظر نظرةً في النجوم فقال إنّي سقيم فتولوا عنه مُدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين فأقبلوا إليه يزفّون قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ٱبنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين**﴾.

هذه هي القصة الثانية التي يسردها هذا القسم من السورة، حيث كانت القصة الأولى تتحدّث عن نوح عليه السلام. وأمّا هذه القصة فتتحدّث عن إبراهيم عليه السلام. هذه القصة لها تميّزها عن مجموعة الأقاصيص التي تطبعها سمات مشتركة أوضحناها في حينه، فشخصية إبراهيم ترتبط بسلوك خاص مع الله تعالى، فهو خليله. وهو صاحب الحنيفية التي امتدّت في الزمن.

وهو الذي رفع قواعد البيت. وهو الذي وصفه الله تعالى بأنَّه (أمة) وحده. هذه الخصائص المتميّزة لشخصية إبراهيم عليه السلام تفسر لنا سرَّ تميّزه عبر قصةٍ مستقلّة تتحدث بشيء من التفصيل عن المواقف والأحداث التي واكبت حياته...

والمهم أن نعرض لهذه التفصيلات القصصية...

لقد وصف النص شخصية إبراهيم بأنَّه من شيعة نوح عليه السلام: علماً بأنَّ نوحاً قدر رسمه النص أول شخصيةٍ نموذجية رسخت في ذاكرة الأجيال ﴿**وتركنا عليه في الآخرين**﴾ بصفة أنّها ترتبط بالنشأة الجديدة للمجتمع البشري بعد أن انقرض المجتمع البشري الأول في حادثة الطوفان... المهم أنَّ النص عندما يرسم إبراهيم بأنَّه من شيعة نوح ﴿**وإنَّ من شيعته لإبراهيم**﴾ إنّما يركز في ذهن المتلقّي: النموذج الأمثل للمجتمع الجديد الذي نشأ بعد الطوفان...

ثم بدأ النصّ القصصي يرسم معالم هذه الشخصيّة من خلال الجهاد الذي مارسته في مجتمعها الوثني، وهو مجتمع طبعته الوثنية بحيث شملت حتى أباه إذْ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون... لقد بدأ حياته بهذه الممارسة الجريئة التي جاهدت أباها وقومها حيث وصف النَّص هذه الشخصية أوّلاً بأنّها ذات قلبٍ سليم (إذ جاء ربّه بقلب سليم)... والإشارة إلى سلامة القلب تنطوي على دلالةٍ مهمةٍ في علاقة الشخصية بمواقف وأحداث القصة، وفي مقدّمة ذلك سلوكه العبادي الذي تفرَّد به بحيث كان وحده حاملاً لمفهوم التوحيد الخالص دون مجتمعه الوثني الذي شمل حتى أباه ـ كما قلنا ـ كما أنَّ محاربته عليه السلام لأبيه تمثّل نموذجاً آخر لسلامة قلبه المتّجه إلى الله تعالى حيث لم تتدخّل عاطفة البنوّة في التأثير علىٰ سلامة قلبه حيال الله تعالى.

بعد ذلك عرض النص تفصيلاً لمواقفه وحادثة إلقائه في الحريق ونجاته منه: حيثُ تحدَّثنا عن ذلك في سورة سابقةٍ.

إلاّ أنّ الجديد في القصة هو: عرض الشّطر الآخر من حياة إبراهيم عليه السلام، فالشطر الأول من حياته يتمثّل في مجاهدته قومه الوثنيين فيما خُتمت بنجاته من المؤامرة التي دبّرها المنحرفون.

أما الشَّطر الآخر من حياته فقد تكفّلت هذه القصّة برسمها من خلال الحادثة التالية: ﴿وقال إنّي ذاهبٌ إلىٰ ربّي: سيهدين﴾.

وتقول النصوص المفسّرة أنّه عليه السلام هاجر مع سارة ولوطٍ إلىٰ الشام... والمهمّ أنَّ هذه المهاجرة تنطوي على جملة دلالات منها: ترك ديار الكفر ومواصلة العمل العبادي حيث أنّ السِّمة التي خلعها النصُّ علىٰ إبراهيم أو السِّمة التي خلعها إبراهيم على ذاته وهي ﴿سيَهدين﴾ تكشفُ عن دلالة هذه (المهاجرة) إلى الأرض الجديدة... وقبل أن نتحدَّث عن هذه المرحلة الجديدة من حياة إبراهيم عليه السلام ينبغي ألاّ نغفل عن المبنىٰ الهندسي لهذا القسم من القصة من حيث صلته بالمقاطع السابقة من السورة: حيث لحظنا أنّ قصة نوح السابقة على قصة إبراهيم ركّزت علىٰ جملةٍ من الدلالات منها: نجاة نوح من الطوفان، وها هي قصة إبراهيم تحدّثنا أيضاً عن نجاة إبراهيم من حادثة النار ﴿فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾، هذا فضلاً عن التجانس الذي سنلحظه بين هذه القصة وبين ما سبقها وما تلحقها من الأقاصيص، مما تفصح جميعاً عن جمالية الإحكام العماري لهذا المقطع من القصة وصلته بالمقاطع الأخرىٰ.

* * *

قال تعالى: ﴿ربِّ هَبْ لي من الصالحين فبشرناه بغُلامٍ حليم فلمَّا بلغَ معهُ السعيَ قال: يا بني إنّي أرىٰ في المنامِ أنّي أذبحُك، فانْظُرْ ماذا ترىٰ، قالَ: يا أبَتِ افعلْ ما تُؤْمَرُ ستجدني إن شاء الله من الصّابرينَ فلمّا أسلَمَا وتلَّهُ للجبين وناديناه أنْ يا إبراهيمُ قد صدَّقْتَ الرؤيا إنّا كذلك نَجْزي المحسنين إنّ هٰذا لَهُو

البلاءُ المبين وفَديناهُ بِذبحٍ عَظيم وتركْنا عليهِ في الآخرين سلامٌ على إبراهيم كذٰلك نَجْزي المحسنين إنَّهُ من عبادِنا المؤمنين. . .﴾.

هذا هو القسمُ الثاني من قصةِ إبراهيم، حيث كان القسم الأولُ من القصّة يتحدَّثُ عن موقف إبراهيمَ من المجتمع الوثني الذي انتهىٰ المطافُ من خلالهِ إلىٰ إنقاذه من مؤامرةِ الوثنيّين. . . وجاءَ القِسم الثاني ليتحدَّث عن هجرة إبراهيم، ثم بما واكبت هذه الهجرة ظواهر عبادية ركّزت القصة عليها، منها: طلبُ إبراهيم من الله تعالى ولَداً صالحاً حيثُ استُجيب له، فوُلدَ «اسماعيل»، ثم بُشّر عليه السلام بولدٍ آخرَ وهو «إسحاق». . وقد واكبت هذا الجانب حادثة لها خطورتها في حقل التجربة العبادية وهي: قضية الأمر بذبح اسماعيل. . .

ولْنقف عندَ هاتين الحادثتين: حادثة الذريّة، أي طلب الولد، وحادثة الأمر بالذبح. . .

لقد طلب إبراهيم ولداً صالحاً **﴿ربّ هب لي من الصّالحين﴾**، وجاء الجواب **﴿فبشَّرناهُ بغلامٍ حَليم﴾**. . . أي: إنّ إبراهيمَ طلبَ ولداً تطبعهُ سمةُ (الصلاح)، فجاءَ الجوابُ بتبشيره فعلاً بمجيء الولد: لكنْ من خلال إكسابه صفة (الحلم) **﴿فبشَّرناهُ بغلامٍ حليم﴾**. . .

إنَّ كلاً من سمتي (الصلاح) و(الحلم) لا بدَّ أن تنطوي علىٰ دلالةٍ خاصةٍ ذات بُعدٍ فنيّ يستهدف النصُّ توصيلها إلىٰ المتلقّي. . . فالصّلاحُ سمةٌ عامةٌ يطلبها إبراهيم لذرّيته حتىٰ تمارس الوظيفة العبادية التي خلق الله الإنسان من أجلها، وأمّا (الحِلم) فسمة خاصة خلعها النص علىٰ الوليدِ: تأكيداً لأهميّة هذه السّمة لأنّها ترتبط بأهمّ مقوّمات الشخصية المتماسكة أو الناضجة انفعالياً: حسب اللغة النفسية. . . مضافاً لذلك فإنّ سمة (الحِلْم) ترتبط عضويّاً أو بنائياً بسلوك الوليد في حادثة الذبح التي يتعرضُ لها حيث استجاب الوليدُ لهذه الحادثة وفقَ سمةِ (الحلم) التي خلعها النصُّ عليه. . . وهذا يعني (من زاوية

عمارة النصّ) أنّ هناك تلاحُماً وتنامياً فنياً بين الصفة التي خلعها النص علىٰ الوليد وبين سلوكه في حادثة الذبح، وهذا واحد من الأسرار الفنية لهذا الرسم القصصي.

وأمّا حادثة (الذبح) نفسه فتتمثّل في رواية إبراهيم أوّلاً لقصة الذبح: ﴿**يا بُنيّ إنّي أرىٰ في المنام أنّي أذبحك، فانظُرْ ماذا ترىٰ**﴾ فأجابه اسماعيل: ﴿**يا أبت افعلْ ما تُؤْمَر ستَجدُني إن شاء الله من الصّابرين**﴾، لكنْ: لما استسلما للأمرِ الواقع ﴿**فلما أسلما وتلّه للجبين**﴾، وإذا بالنداءِ ﴿**يا إبراهيم: قد صدَّقت الرُّؤيا**﴾ حيث توقَّفَتْ عملية الذَّبح، لكنْ عوّضَ عنها بعملية أخرىٰ ﴿**وفديناهُ بذبحٍ عظيم**﴾ . . .

إنّ هذه الحادثة تظلّ واحدةً من الظواهر الاختبارية أو الامتحانية التي طالما يتعرَّض المؤمنونَ لها وفقَ حكمةِ السماء. . . والمهم هو: اجتيازُ هذه التجربة العبادية بنجاحٍ، يتمثّلُ في استسلامهما لأوامرِ الله تعالى (مع ملاحظة أنَّ القضيّة تتّصل بعاطفتي الأبوّة والبنوّة، وهما من أشدّ الدَّوافع البشريّة إلحاحاً كما هو بيّن. . فلو اقتصر الأمرُ علىٰ دافعٍ أو عاطفةٍ واحدةٍ: كما لو افترضنا أنَّ الأب يُطالب بذبح الابن دونَ أنْ يستجيب الابنُ لذلك، أو كما افترضنا أنَّ الابن يستجيب لذلك إلاّ أنَّ الأب يتلكّأ في الأمر. . . أقول: لو اقتصر الأمر على أحد الدافعين لاستكشفنا حقيقةً عبادية تشير إلى تفاوت الأشخاص في وعْيهم العبادي مثل: قضية نوح مع ابنه أو قضية إبراهيم مع أبيه آزر حيث إنّ كلاً من نوح وإبراهيم صدر عن وعيٍ عباديٍّ يتناسب مع خطورة شخصيتهما، في حين صدر كلٌّ من ابن نوح وأب إبراهيم عن سلوكٍ مضادٍّ. . . لكنْ بالنسبة لإبراهيم وإسماعيل فإنَّ الأمر أخذ طابعاً خاصاً هو صدورهما عن الوعي العبادي الجادّ دون أن يسمحا لعاطفتي الأبوّة والبنوّة بأن تحتجزهما عن تنفيذ أوامر الله تعالى.

وأيّاً كان، فإنّ هذه الحادثة تظل منطويةً علىٰ تجربةٍ عباديّة يستهدف النص توصيلها إلى المتلقّي: بصفتها إحدىٰ الدلالات الفكرية التي تستقلّ كل قصة بطرح نموذج منها. . . إلاّ أنَّ كلّ قصة ـ في الآن ذاته ـ تظلّ مرتبطة بالهيكل الفكري العام للسورة، ومنها: فكرة الاستجابة لدعاء المصطفين أو مطلق المؤمنين حيث استجابت السماء لطلب إبراهيم ذريّة صالحة، وهي استجابة طبعت سائر الأبطال الذين رسمهم النصّ في العنصر القصصي من هذه السورة الكريمة. وسنرى أنّ القسم الثالث من قصة إبراهيم يختم بنفس السِّمات التي خلعها النصّ علىٰ الأنبياء وهي: السلامُ علىٰ الأنبياء، ومجازاتُهم. . . إلخ، مما يُفصح مثل هذا الختام عن مدىٰ إحكام النّص وتلاحم مقاطعه.

* * *

قال تعالى: ﴿**وتركْنا عليه في الآخرين سلامٌ علىٰ إبراهيم كذلك نَجْزى المُحسنين إنّهُ من عبادنا المؤمنين وبشَّرناه بإسحاق نبيّاً من الصَّالحين وباركْنا عليهِ وعلىٰ إسحاق ومن ذرّيتهما محسنٌ وظالم لنفسهِ مُبين**﴾.

بهذا القسم تنتهي قِصّة إبراهيم التي بدأ قِسمها الأوّل بالحديث عن مجاهدته للمجتمع الوثني وجاء قسمُها الثاني ليتحدَّث عن تجربة الذّبح لإسماعيل ولَدِهِ، وها هو القسمُ الثالث تتم به القصَّة لتنتقل بها إلى الحديثِ عن ولدَهِ إسحاقَ وذريّتهما. . .

لقد جاء ختام هذه القصّة متجانساً مع القصّة التي سبقتها وهي قصّة نوح حيثُ جاءت هذه العبارات الأربع متكرّرة بنفسِ الصياغة ﴿**وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ علىٰ إبراهيم**﴾، (أو نوح ـ كما هي عبارة القصّة السابقة)، ﴿**كذلك نجزي المحسنين إنّه من عبادنا المؤمنين**﴾.

إنّ الفقرة الأولىٰ وهي ﴿**وتركنا عليه في الآخرين**﴾ تعني أنَّ إبراهيم

عليه السلام قد جعله الله أنموذجاً أو مثلاً أو ذكرىٰ في خاطر أو في لسان المجتمعات اللآحقة إلىٰ يوم القيامة، كأن يُصلّىٰ عليه أو يُسلَّم عليه بسلامِ الله تعالى. . . وهي نفسُ السمةِ التي خلعها النصُّ علىٰ نوح عليه السلام أيضاً، وخلعها علىٰ أنبياء لاحقين كما سنرىٰ. والأهمية الفنيّة لمثل هذا الذكر أو السّلام تعكس المُعطىٰ الدنيوي الذي يُغدقه الله تعالى علىٰ الشخوص المصطفين، مُضافاً للمعطىٰ الأخروي، فضلاً عن أنَّ هذا المعطىٰ الدنيوي يتجانس أيضاً مع معطىً دنيوي آخر هو: إنقاذُ المؤمنين من المؤامرات التي ينسجُها المنحرفون عنهم أو مطلق العذاب مثل: إنقاذ نوح من الغَرق وإنقاذ إبراهيم من الحريق. . .

من هنا يتعيَّنُ علىٰ المتلقّي أن يدرك أهميّة مثل هذه الأفكار التي تطرحها قصص السورة، حيث تستهدف لفت النّظر إلى أنّ الله تعالى لا يقتصر دعمُهُ للمؤمن أو إثابتهُ أخروياً فحسب، بل حتى في نطاق الحياة الدنيا فإنّ دعاء المؤمن لَمُجابٌ، وأنّ إنقاذه من الشّدائد لمُؤكَّد. . .

أخيراً، طرحت القصَّة قضية الذريّة لإبراهيم، حيث طلبَ إبراهيم في بداية القصة ولداً صالحاً فوهبه اسماعيل عليه السلام. . وها هو في نهاية القصّة يهبهُ ولداً آخر هو اسحاق.

﴿**وبشّرناه بإسحاقَ نبيّاً من الصالحين**﴾. ويُلاحظ هنا، أن الله وصف (اسحاق) بأنّه (نبيٌّ) وأنّه (صالحٌ)، بينما وصف (إسماعيل) بأنّه (حليم). . . فما هي الدلالة الفنيّة لهذه السّمات المتميِّز بعضها عن الآخر مع أنَّ كليهما يجسّدُ ذريّة طيّبة وأنّ كليهما ينسبُ إلى النبوّة؟ . .

في حينه، أوضحنا أنَّ سرّ صفة (الحِلم) بالنسبة لاسماعيلَ إنّما يرتبط بحادثة (الذّبح). أما في قضية اسحاق فإنّ الأمر لمختلف كما هو واضح، ذلك: أنّ إبراهيم عندما طلب من الله ذريّة صالحة فإنَّ الله تعالى أجابَ دعاءَهُ

فوهَبَ له (إسماعيل) دون أن يذكر سِمة (الصّلاح) بل سِمة (الحِلم) لأنّ ما يستهدف النص التركيز عليه هو أحد مصاديق الصلاح وهو (الحلم) بحيث يمكن القول بأنّ الحلم عكس ضمناً سمة (الصلاح)... لكن بالنسبة إلى إسحاق فيما لم ترتبط شخصيته بحادثة الذبح حنيئذٍ فإنَّ سمة (الصلاح) تبعاً لطلب إبراهيم جاءت لتجسّد إجابة دعائه. ولذلك وسمهُ الله بسمة الصلاح **﴿ربّ هب لي من الصالحين﴾ ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾**.

وأما السر الفني وراء تأكيد سمة النبوة بالنسبة إلى إسحاق دون اسماعيل الذي تطبعه أيضاً سمة النبوة لكن دون أن تذكر هنا، فإنَّ سر ذلك أنَّ النص يتحدث عن ذرية إبراهيم وامتداداتها النبوية **﴿وباركنا عليه و على اسحاق ومن ذرّيتهـما محسن وظالم لنفسه مبين﴾** حيث أبرز النص بصورةٍ ضمنيةٍ مفهوم الامتداد النبوي من خلال الذرية من جانبٍ، كما أوضح إمكانية أن يخرج من ذريتهما من هو محسن أو من هو ظالم.

إذاً، تضمنت هذه القصة من جانب أفكاراً (مستقلة) تتصل بالجهاد، وتجربة الذبح، والذرية وامتداداتها. كما تضمنت من جانب آخر أفكاراً (مشتركة) تتصل بنصرة السماء للمؤمنين وبالسلام عليهم وبمجازاتهم وبالإشارة إلى كونهم مؤمنين حيث تتكرَّر هذه العبارات ﴿سلام على﴾ **﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ ﴿إنّه من عبادنا المؤمنين﴾** تكرر في جميع القصص لتكشف لنا تماسك وإحكام وجمالية الهيكل الهندسي للسورة من حيث تلاحم موضوعاتها بعضها مع الآخر بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى **﴿ولقد مننّا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى**

وهارون إنَّا كذلك نجزي المحسنين إنّهما من عبادنا المؤمنين﴾.

هذا المقطع القصصي يتحدث عن موسى وهارون مكرراً فيه نفس العبارات القصصية التي تحدثت عن نوح وإبراهيم مثل إنقاذهما من الكرب والسلام عليهما ومجازاتهما إلخ... حيث تكشف هذه العبارات القصصية عن خضوع القصص جميعاً لبناءٍ هندسيٍ في أتمّ أشكاله إحكاماً ينتظم الأفكار المطروحة فيها. وبما أنَّ لكل قصة عنصراً مشتركاً مع سائر القصص وعنصراً مستقلاً، حينئذٍ يجدر بنا أن نقف على ما هو مستقل في هذه القصة واستخلاص الدلالة الفكرية التي تنطوي عليها...

الملاحظ أولاً أنّ هذه القصة تتحدَّث عن بطلين هما موسى وهارون، في حين تتحدَّث القصص الأخرى عن بطلٍ واحدٍ مثل نوحٍ أو إبراهيم أو لوط أو إلياس أو يونس كما سنرى.

سر ذلك فنياً إنّ الرسالة التي اضطلع بها موسى قد اقترنت بأخيه أيضاً من حيث كونه عضداً لموسى. وما دام النص يستهدف تثمين مواقف الأنبياء الذين مارسوا أداء وظائفهم الاجتماعية حينئذٍ فإنّ (هارون) ـ بصفته قد مارس أو ساهم في أداء الوظيفة، لا بدَّ أن يقترن ـ قصصياً مع شخصية موسى... ثانياً: الملاحظ أنّ النص القصصي في رسمه لهاتين الشخصيتين قد استهل الحديث عنهما بقوله: ﴿**ولقد مننَّا على موسى وهارون**﴾، و (المنُّ) هنا قد خُصّ به هذان الشخصان دون غيرهما من أبطال القصص، فما هو السر الفني في ذلك؟ ويلاحظ أيضاً: أن النص القصصي ركز على نصرة السماء لهذين الشخصين ﴿**ونصرناهم فكانوا هم الغالبين**﴾ ويلاحظ ثالثاً أنّ هذين البطلين خصا بإتيانهما الكتاب ﴿**وآتيناهما الكتاب المستبين**﴾ كما خصّا أخيراً بهدايتهما الصراط المستقيم ﴿**وهديناهما الصراط المستقيم**﴾. إنّ هذه الخصوصيات تستوقف نظر المتلقي دون أدنى شكٍ. فما دامت رسالات السماء السابقة على الإسلام

تطبعها سمات مماثلة، أو ما دام الشخوص يتعرضون لشدائد متماثلةٍ عبر أدائهم لوظائفهم الاجتماعية، وما داموا موضع نصرة السماء جميعاً: فـلماذا يخص حينئذٍ ـ موسى وهارون بسماتٍ معينةٍ دون الأبطال الآخرين؟.

في تصورنا الفني إنَّ نهوض موسى وهارون برسالة السماء ترتبط (ليس بشخصهما) بقدر ما ترتبط بالظرون الاجتماعية التي أحاطت بهما، وبقدر ما ترتبط بنمط المجتمعات التي تحرّكا من خلالها، سواءً أكانت هذه المجتمعات قبطية (كمجتمع فرعون) أو مجتمعاتٍ إسرائيلية كمجتمع موسى(ع). واجه موسى وهارون شخصياتٍ بلغت أحط درجات الانحراف والطغيان، ففرعون وقومه لم يكتفوا بممارسة الانحراف الوثني فحسب بل ألَّهوا فرعون ذاته وهو نمط من التأليه الذي لم يألف مثله، أكثر من ذلك، لم ينحصر انحرافهم في الممارسات الوثينة: كما هو شأن مجتمعات نوحٍ أو إبراهيم بل تجاوزوا ذلك إلى ممارسات عدوانية بالغة الشدة فقتلوا أعدائهم واستبعدوهم وأذاقوهم أشد ألوان العذاب جسدياً ونفسياً...

هذا بالنسبة إلى مجتمع فرعون.

أما المجتمع الإسرائيلي نفسه، فقد فاق مجتمع فرعون في طغيانه وانحرافه، فما أن أنقذهم موسى من استعباد فرعون حتى تقدّموا إلى عبادة العجل، ثم واصلوا انحرافاتهم على ذلك النحو الذي يعرضه القرآن الكريم في قصص أخرى. حتى ليمكن القول بأنَّ المجتمع الإسرائيلي يعد أوسخ مجتمع عرفه تأريخ البشرية. وها هي امتداداته الوسخة تحط في رحال المجتمعات المعاصرة التي لا تزال تشاهد مدى عدوانيتهم وانحرافاتهم وشرورهم الذي لا حدود له..

إذاً، عندما يواجه موسى وهارون مجتمعاً مثل المجتمع الإسرائيلي، ومن قبل: المجتمع الفرعوني أو القبطي، حينئذٍ فإنّ التعامل مع أمثلة هذه

المجتمعات يستتبع جهداً خاصاً يتناسب مع نمط الخصوصية التي خلعتها القصة على هاتين الشخصيتين بما في ذلك الإشارة إلى مفهوماتٍ عبادية مثل ﴿**الكتاب المستبين**﴾ ﴿**الصراط المستقيم**﴾ فالتأكيد على استبانة المبادىء واستقامتها يتجانس فنياً مع السلوك المضاد الذي صدر عن هذه المجتمعات، بمعنى أنّ النص عندما يؤكد على هداية المبادىء وكبر حجمها: ثم نلحظ أنّ وضوح هذه المبادىء لم يترك أثراً في (رشاد هذه المجتمعات المنحرفة. حينئذٍ نستخلص مدى حجم الانحراف الذي يطبع مثل هذه المجتمعات الفرعونية الإسرائيلية. المهم، أنّ النص عندما أبرز هذه الخصوصية فلأنَّ طبيعة الشدائد التي واجهها موسى وهارون من قبل مجتمعاتهم المنحرفة: تنسجم مع هذا النمط من العرض والقصص...

والمهم أيضاً، أنّ النص أبرز في الآن ذاته: العناصر المشتركة بين قصة موسى وهارون السابقة (فضلاً عن القصص اللاحقة أيضاً) من خلال العبارات القصصية المشتركة (السلام) و(المجازاة)... إلخ، ﴿**سلام على موسى وهارون إنّا كذلك نجزي المحسنين إنّهما من عبادنا المؤمنين**﴾ حيث نلحظ من خلال هذا الوصل بين جميع القصص مدى إحكام النص القرآني وتلاحم موضوعاته، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى ﴿**وإنّ إلياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتَّقون أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين الله ربّكم وربَّ آبائكم الأولين فكذَّبوه فإنّهم لمحضرون إلّا عباد الله المخلصين وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على إل ياسين إنّا كذلك نجزي المحسنين إنَّه من عبادنا المؤمنين وانَّ لوطاً لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلاّ عجوزاً في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وإنّكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون**﴾.

هذا المقطع يتحدث عن كل من إلياس ولوط بصفتهما شخصيتين نبويتين: تجانسا مع سائر شخوص الأنبياء الذين انتظمتهم الأقاصيص السابقة، بينما تماثلت ـ من حيث عمارة النص ـ بداياتها ونهاياتها بعضاً مع الآخر. لكن يلاحظ أنَّ هاتين القصتين: قصتي إلياس ولوط تضاف إليهما قصة ثالثة يختم بها العنصر القصص في السورة وهي قصة يونس ـ يلاحظ أنّ هذه القصص يأخذ كل واحدٍ منها طابعاً يميزه عن الآخر...

فبالنسبة إلىٰ قصة إلياس طرحت القصة قضية تعامله مع مجتمعه الوثني بنحو يختلف عن تعامل كل نبي مع مجتمعه. فهنا ربطت القصة بين (البعل) الذي اتخذه الوثنيون دون الله تعالى وهو صنم من الذهب وبين الله تعالى فيما وصفته بأنَّه (أحسن الخالقين) ووصفته بأنَّه ربهم وربُّ آبائهم الأولين... وهنا نتساءل عن السر الفني لهذه المقارنة بين صنمٍ من ذهب وبين الأوصاف التي ذكرها النص عن الله تعالى... في تصورنا الفني أنّ اتخاذ هؤلاء القوم (صنماً) خاصاً من الذهب: حيث منحه النص اسماً خاصاً أيضاً وهو (البعل) دون الوثن، أو الصنم إنّما يستتبع فنياً أن تطرح المناقشة مع القوم بنحو يتناسب ونمط البعل الذي اتخذوه من حيث خصوصته الكاشفة عن ذهنيةٍ خاصةٍ تتجه إلى صياغته من الذهب مثلاً، لذلك ناقشهم النص من خلال خلع صفة (أحسن الخالقين) على الله تعالى، حيث كان بإمكان النص أن يكتفي بعبارة (الله) أو (الخالق)، لكنَّه عندما خلع صفة (أحسن) حينئذٍ نستخلص أنّ صفة (الأحسن) ترتبط بالموقف الذي صدر عند الوثنيون عبر صياغتهم الوثن من أفضل مواد الأرض. هذا بالنسبة إلى قصة إلياس عليه السلام...

أما بالنسبة إلى قصة لوط عليه السلام... فلم يعرض النص لانحراف مجتمعه، بل عرض للعقاب الدنيوي الذي لحق مجتمعه، كما عرض لنجاته وأهله إلاّ امرأته من العذاب، ثم وصل بين الجزاء الذي لحق قوم لوط وبين

المجتمع الذي عاصر رسالة الإسلام ﴿**وإنَّكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليلِ، أفلا تعقلون**﴾ . ترى ما هو السر الفني الكامن وراء هذا النمط من العرض القصصي الذي وصل من خلاله بين مجتمع لوط ومجتمع محمد (ص) دون سائر القصص التي لم تربط بين المجتمعات البائدة وبين مجتمع صدر الإسلام؟ .

لو كانت قصة لوط آخر القصص من سلسلة العنصر القصصي في السورة لقلنا إنَّ المسوغ الفني لهذا الربط بين قصة لوط وقصة مجتمع الإسلام هو: الهدف من العنصر القصصي هو: ربطه بالمجتمع الإسلامي، لكن بما أنّ هناك قصة لاحقة وهي قصة (يونس عليه السلام) حينئذٍ لا يمكننا أن نستخلص مثل هذا السر الفني. . . إذاً، للمرة الجديدة ما هو السر الفني لهذه الظاهرة؟ .

في تصوّرنا، إنّ قصة لوط بما أنّها من جانب: تعرض لانحرافٍ اجتماعي جنسي، مضافاً إلى الانحراف العقائدي: حينئذٍ تكتسب بعداً خاصاً من الرسم القصصي، كما إنّها من جانب ثان: من المحتمل أن يكون مرور المنحرفين في صدر الإسلام على آثارٍ مألوفة لديهم بحيث يشاهدون بوضوحٍ آثار الهلاك الذي أصاب مجتمع لوط. . . ومن جانب ثالث: نجد أنَّ هذه القصة تشكّل آخر سلسلة العنصر القصصي الذي يتحدث عن هلاك المجتمعات البائدة، لأنّ القصة الأخيرة التي سنتحدث عنها فيما بعد ـ وهي قصة يونس ـ لا تعرض لظاهرة الجزاء الذي لحق الأقوام البائدة بل تجعل نهاياتهم مفتوحة ﴿**فآمنوا فمتعناهم إلى حين**﴾ وهو أمر ينسجم مع مجتمع رسالة الإسلام الذي تتحدث هذه القصص إليه: كما سنرى لاحقاً. . . المهم، إنّ هذه المستويات من التجانس داخل القصة الواحدة ثم: التجانس بين القصص جميعاً ثم: التجانس بين العنصر القصصي في السورة وبين الأفكار العامة لها تكشف عن مدى جمالية وإحكام المبنى الهندسي للسورة، وهو أمر ستتضح مستوياته بنحوٍ

ملحوظٍ حينما نتابع الأجزاء الأخيرة من السورة الكريمة (وهو موضع حديثنا لاحقاً إن شاء الله تعالى).

* * *

قال تعالى: **﴿وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفُلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنَّه كان من المسبِّحين للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون﴾**.

بهذه القصة ـ قصة يونس ـ يختم العنصر القصصي في سورة الصافات ليعود النص فيتحدّث عن مشركي العرب زمن رسالة الإسلام رابطاً بين العنصر القصصي وبين فكرة السورة الحائمة على مفهوم التوحيد وما يضاده من مفهوم الشرك والانحراف، حيث وظف العنصر القصصي لهذا الهدف الفكري...

بيد أنّ السؤال هو، ما هي الدلالة الفنية لقصة يونس فيما تختلف تماماً عن سائر قصص السورة التي ركزت على أنَّ رسل الله مؤيدون بنصرة السماء وأنّ مجتمعاتهم المنحرفة لحقها الجزاء الدنيوي فأبادهم جميعاً إلاّ رسل الله وقلّةً من الذين آمنوا بهم حيث أنجاهم الله من ذلك. أمّا قصة يونس فلا نتحدّث عن نجاة يونس عليه السلام وإبادة مجتمعه بل تشير إلى حالةٍ أخرى هي: نجاة مجتمعه وتعرضه لتجربة الحوت، أي أنَّ الأحداث هنا تضاد الأحداث التي غلفت القصص السابقة، فما هو السر الفني في ذلك؟

في تصوّرنا الفني أنّ هدف العنصر القصصي هو إبراز نصرة السماء لعبادها المؤمنين والإشارة إلى هلاك المنحرفين. وهذان الهدفان ينسحبان على قصة يونس أيضاً. ولكن من خلال تجربة أخرى هي: موقف مجتمع يونس من رسالة السماء وموقفه من الجزاء الذي كان يتوقعه بالنسبة إلى مجتمعه، حيث نعرف جميعاً أن قوم يونس حينما أخبروا بنزول العذاب عليهم: اقترح أحدهم

أن يتضرّعوا إلى الله تعالى لرفع العذاب عنهم، وتم ذلك فعلاً، مما دفع يونس عليه السلام إلى اللجوء نحو البحر، ثم كانت قصة القرعة والتهام الحوت إياه وفقاً للتفصيل القصصي الذي عرضناه في دراساتٍ قصصيةٍ خاصة لا نعيد الحديث عنها. والمهم هو، تجربة يونس عليه السلام نفسه بالنسبة الى بيئة الحوت الذي ابتلعه وتجربة مجتمعه بالنسبة إلى رفع العذاب عنهم. فالتجربتان الفردية (يونس) والجماعية (قومه) تصبان في رافد موحدٍ هو: الدعاء واستجابته... فكما أنّ القصص السابقة لنوح وإبراهيم ولوط وسواهم ركزت على مفهوم (النجاة) لمن يتوجّه لله، فكذلك قصة يونس تحوم على نفس المفهوم. فبالنسبة إلى يونس (لولا أنّه كان من المسبّحين) في بطن الحوت (للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) وبالنسبة إلى قوم يونس حيث رفع عنهم العذاب حينما اتجهوا إلى الله، وكذلك بعد إرساله من جديدٍ إلى قومه رفع عنهم العذاب ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين**﴾.

إذاً، لما آمن قوم يونس رفع عنهم العذاب. وهذا هو الهدف الفكري للقصة التي تساوقت مع سائر القصص المتقدمة بالنسبة إلى رفع العذاب أو نزوله لكن (من حيث عمارة النص) نجد أنّ هذه القصة التي ختمت ـ خلافاً للقصص السابقة التي ختمت بنزول العذاب ـ نجد أنّ هذه القصة ختمت بزوال العذاب وهذه الخاتمة ـ من حيث البناء الهندسي ـ تنطوي على وظيفةٍ فنيةٍ في غاية الخطورة ألا وهي: الربط بين مجتمع يونس. وبين مجتمع محمد(ص) حيث وجهت القصص إليه... فما دام المجتمع المعاصر لرسالة الإسلام هو المستهدف، حينئذٍ فإنَّ ربطه بقصة تشير إلى رفع العذاب عن قوم آمنوا (في زمن يونس) إنّما ينطوي على عملية تذكير وتحفيز وتشجيع لهم بأن يؤمنوا برسالة الإسلام حتى تشملهم رحمة الله كما شملت قوم يونس، وإلاّ فسوف يشملهم العذاب كما شمل قوم نوحٍ ولوط وسواهما...

إذاً، كم كانت لهذه القصة (قصة يونس) من وظائف فنيةٍ ترتبط ـ من جانب ـ بمجموعة القصص الأخرى، وترتبط ـ من جانب آخر ـ بهيكل السورة الذي انتظمته فكرة التوحيد والإيمان وما يرتبط به من الجزاء الدنيوي أو رفعه، كل أولئك يكشف لنا عن مدى تلاحم وتواشح وتنامي وتجانس المقاطع فيما بينهما: بما يواكب هذا التجانس من جماليةٍ وإثارة فنيةٍ تفصح عن ذلك الإحكام الهندسي الجميل، بالنحو الذي تقدَّم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿**فاستفتِهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون...**﴾.

بهذا المقطع وما بعده تختم سورة الصافات.. إنَّه مقطع يتحدث عن الملائكة وموقف المنحرفين أو مشركي العرب زمن رسالة الإسلام من عنصر الملائكة، وذهابهم إلى وجهة نظر هزيلة تنسب الملائكة إلى الأنوثة، أو أنّها بنات الله.. إلى آخر ما ذكرته الآيات الختامية للسورة...

إنَّ ما يهمنا من هذا الختام هو: الهيكل العماري للسورة وارتباط مقدمها بالوسط وبالخاتمة، ثم بما ينطوي عليه هذا الهيكل من أفكار يستهدف النص توصيلها إلى المتلقي...

الملاحظ: إنّ سورة الصافات استهلّت بالحديث عن الملائكة ووظائفهم العبادية مقارنة بالوظيفة العبادية لعنصر البشر... لقد كان الاستهلال بهذا النحو: ﴿**والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذِكراً إنّ إلٰهكم لواحد**﴾. هذا الاستهلال الذي يشير إلى مفهوم التوحيد من جانب ﴿**إنّ إلٰهكم لواحد**﴾ وإلى الوظيفة العبادية لعنصر الملائكة من جانبٍ آخر ﴿**والصافات صفا...**﴾ حيث أوضحنا مدى صلته بالتجربة البشرية في حينه، أما الآن فنتحدّث عن صلته بخاتمة السورة التي تحدّثت عن الملائكة أيضاً: ولكن من خلال تصوّر

المنحرفين ﴿**ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً**﴾ إلخ. فالسورة التي استهلت الحديث عن عنصر الملائكة تختم حديثها الآن عن عنصر الملائكة أيضاً (إحكاماً للبناء الهندسي للسورة) ولكن في هذا الختام يقدم النص تصحيحاً لأي تصورٍ مخطىء بالنسبة للملائكة... فالقضية ليست قضية إناث أو بنات بقدر ما هي قضية إيمان وممارسة للوظيفة العبادية، ففضلاً عن أن جعل النسبة بين الله والملائكة بهذا النحو الهزيل الذي تصوّره قاصرو العقل، فضلاً عن أنَّ مثل هذه النسبة تشكل محض الكفر والجهل بالحقائق، فضلاً عن ذلك: لا بدّ من عملية تذكرٍ بالحقائق العبادية التي ينبغي تعرّفها بالنسبة إلى عنصر الملائكة وممارساتهم عبادياً...

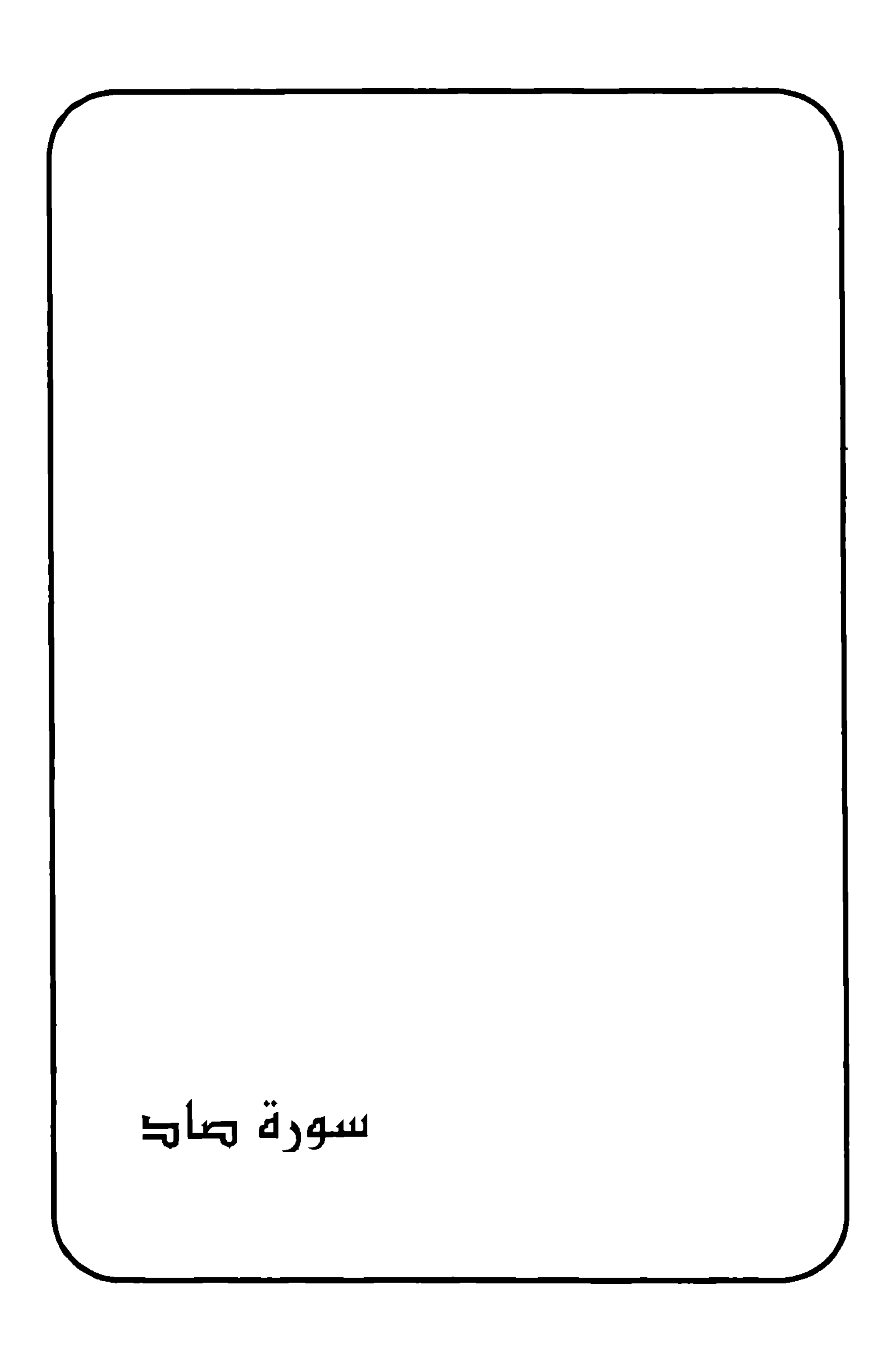
لذلك (من زاوية عمارة النص) لم يكتف النصّ بأنْ يردّ المنحرفين عن تصوّراتهم المريضة بالنسبة إلى الملائكة: من خلال منطق الرسول لله فحسب بل أردفه بحوار داخلي نهض به عنصر الملائكة ذاته، موضحاً من خلاله: الوظيفة العبادية لهم، يقول الحوار: ﴿**وما منا إلاّ له مقام معلوم وإنّا لنحن الصافّون وإنّا لنحن المسبّحون**﴾ . هذا الكلام أو الحوار هو للملائكة حيث يقولون أولاً إنّ لهم مقاماً محدداً في السماوات يمارسون من خلاله وظائفهم العبادية، ويقولون ثانياً: ﴿**وإنّا لنحن الصافون**﴾ أي: القائمون صفوفاً تنتظر أوامر السماء لتنفيذها، ويقولون ثالثاً: ﴿**وإنّا لنحن المسبّحون**﴾ أي المسبّحون لله تعالى.

هنا ينبغي أن نتذكر بأنَّ مستهلّ السورة بدأ بهذا النحو: ﴿**والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا**﴾ نفس هذا الاستهلال جسّده عنصر الملائكة عملياً في ختام السورة حيث ذكر الملائكة أنفسهم بأنهم: الصافون ﴿**وإنّا لنحن الصافون**﴾ أي إنَّهم رددوا كلام الله الذي وصفهم في مستهل السورة بصفة ﴿**الصافّات**﴾ وها هم يزجرون المنحرفين من خلال ردهم على المنحرفين بأنَّهم

الصافّون. . . وها هم يقولون أيضاً ﴿**وإنّا لنحن المسبّحون**﴾ مردّدين بذلك: كلام الله الذي وصفهم في مستهل السورة بصفة ﴿**فالتّاليات ذكرا**﴾. . إذاً، ينبغي أن نقف بدهشةٍ حيال هذا المنحىٰ الفني العظيم الذي سلكه النص في تقرير الحقائق المتصلة بعنصر الملائكة، وهي حقائق ممارساتهم العبادية التي أوكلها الله إليهم حتى يتعرف المتلقي هذه الحقائق ويفيد منها في تعديل سلوكه العبادي. . .

إنّ هذا المنحىٰ الفني لا يقف عند مجرد عرض الحقائق المذكورة، بل يربط بينها وبين عمارة النص بنحو مدهش كل الدهشة: حيث لحظنا كيف ارتبطت خاتمة السورة ﴿**وإنّا لنحن الصافّون**﴾ بمقدمة السورة ﴿**والصافّات صفّا**﴾، وكيف تمّ هذا الارتباط بحيث جاءت المقدّمة تتحدث عنهم من خلال السرد أي: عرض صفاتهم من قبل الله تعالى، وجاءت الخاتمة لتعرض صفاءهم من خلال لسان الملائكة أنفسهم: تأكيداً وتثبتاً نفسياً لإيصال الحقائق المشار إليها. . . كل أولئك قد تم من خلال هذا النمط من التواشج والتلاحم والتنامي بين مقدمة السورة ووسطها وخاتمتها وبين مقاطعها بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي فصلت الحديث عنه.

❊ ❊ ❊



سورة صاد

قال تعالى: ﴿**بسم الله الرحمٰن الرحيم صٓ والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن، فنادوا وَلات حين مناص وعجبوا أن جاءهم مُنذرٌ منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب أجعل الآلهة إلٰها واحداً، إنّ هذا لشيء عُجاب. . .**﴾.

بهذا المقطع تفتتح سورة صاد، وقد جاء موضوعها الأول مركزاً على سلوك المنحرفين: مع التأكيد على سمتين من سماتهم، وهما: العزة والشقاق ﴿**بل الذين كفروا في عزة وشقاق**﴾ أي: التكبر والعناد. . . وسنرى كيف أنّ هاتين السمتين تنسحبان على موضوعات السورة التي ستحوم حول هذا الجانب، ما دمنا نعرف بأنّ مقدمة السورة لا بد أن تكون ذات مهمة فنية تتمثل في كون المقدمة بمثابة دم يسري في عروق النص جميعاً: كما سنرى، وهو أمر يكشف ـ بطبيعة الحال ـ عن مدى الإحكام الهندسي للسورة الكريمة: من حيث ارتباط أجزائها بعضها مع الآخر. . .

وها هي مقدمة السورة، تعرض لنا مفردات من سلوك المنحرفين، حيث تكشف هذه المفردات عن الطابعين المذكورين في سلوكهم. . . يقول المقطع: ﴿**وعجبوا إن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون: هذا ساحر كذاب اجعل الآلهة إلٰها واحداً، إنّ هذا لشيء عجاب**﴾. هذا الكلام الذي نطق به المنحرفون، يكشف أولاً عن مدى عقم هزال الذهن الذي يصدر عنه المنحرفون، مثلما يكشف عن سمتي التكبّر والعناد. . . فاتهامهم صاحب الرسالة بالسحر والكذب، يكشف عن عدوانيّتهم: كما هو واضح، وتساؤلهم متعجّبين: كيف تجعل الآلهة إلٰها واحداً، يكشف عن هزالهم ذهنيّاً: كما هو واضح أيضاً. . . ولا شيء أدلّ علىٰ العقم والهزال والتخلف الذهني من كونهم

يتعجبون كل العجب من جعل الآلهة إلٰهاً واحداً.

ولنتابع ردود فعلهم الهزيلة في هذا الصعيد: ﴿**وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد**﴾. «إنّ هذا الحوار الجمعي» يكشف عن سمة المخاصمة والعناد: كما هو بيّن، فكل واحد منهم يتحدث مع الآخر، مصبراً إياه على مواجهة الرسالة الجديدة، والالتفاف حول الأصنام التي يعبدونها، زاعمين: أنّ هذه مؤامرة تصاغ للقضاء على آلهتهم المزعومة...

لنلاحظ من جديد، مدى هزال الذهن الذي يصدرون عنه، حينما يختل توازنهم بحيث يطالبون بالصبر على عبادة الأوثان، ويحذرون من المؤامرة التي تحبك من أجل القضاء على سلوكهم الوثني... ولنواصل الاستماع إلى محاوراتهم:

﴿**ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلاّ اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا؟...**﴾ إنّ هذا التقرير والتساؤل بأنّهم لم يسمعوا بمثل هذا الكلام الذي يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ونبذ الأصنام، وذهابهم إلى أنه اختلاق، وهل أنزل على محمد(ص) دون سواه مثل هذا الذكر... أمثلة هذا التقرير والتساؤل، تكشف بما لا لبس فيه عن قمة ما يمكن تصوّره من الهزال والعقم الذهني، حيث أنّ استهلالهم لا يرتكن إلى أية تأمّلات معقولة بقدر ما يتعلق على التقليد الصرف لما ألفوه من الحياة الاجتماعية القائمة على عبادة الأحجار، وبقدر ما يتعلّق على معايير ساذجة هي أنّ نزول الرسالة على رجل مثلهم أمر لا يمكن تقبله...

هنا يبدأ النص فيرد على المنحرفين، إكمالاً للحجة عليهم، فيتساءل: ﴿**أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما؟**﴾ ثم يخاطبهم: ﴿**فليرتقوا في الأسباب**﴾، أي: أنّ المقطع القرآني

الكريم ذكر بأنّ هؤلاء المعترضين لا يملكون خزائن الرحمة، ولا يملكون أسباب السماوات والأرض، حتى يسوغ لهم مثل هذا الكلام، وإذا كان ذلك بإمكانهم: فليرتقوا في الأسباب أي: فليصعدوا إلى السماء، وليصنعوا ما يشاؤون. . .

إنّ هذه العبارة ﴿**فليرتقوا في الأسباب**﴾ تجسّد واحدة من الصور الفنية التي تقوم على «الاستعارة» أو على «الصورة الفرضية» التي تفترض إمكان الصعود إلى السماء، وهو أمر لا يمكن تحقيقه. . . كما تنطوي الصورة الفنية المشار إليها على عنصر «السخرية» من هؤلاء المنحرفين الذين يعجزون عن تحقيق ما يعترضون عليه بالنسبة إلى انتخاب الرسول. . .

لكن، بغض النظر عن هذا الجانب، فإنّ نمط تفكير المنحرفين يظل قائماً على التكبر والعناد أو المخاصمة التي تتجانس مع سمة (العزّة والشقاق) التي طرحت في مقدمة السورة، مما يكشف ذلك عن الإحكام الهندسي لعمارة السورة الكريمة: من حيث صلة أجزائها بعضها مع الآخر، بالنحو الذي ذكرناه.

* * *

قال تعالى ﴿**جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب كذَّبت قبلهم قوم نوح وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتاد وثمودُ وقوم لوطٍ وأصحاب الأيكة أولئك الأحزابُ إن كلٌّ إلاّ كذَّب الرُّسل فحقّ عقاب وما ينظر هؤلاء إلاّ صيحة واحدة مالها من فواق**﴾.

يتناول هذا المقطع من سورة صاد عرضاً قصصياً سريعاً عن مصائر الأقوام البائدة دون الدخول في تفصيلات ذلك، كما أنّه يلوّح في بداية المقطع بهزيمة المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام، حيث أنّ العرض القصصي جاء تنويراً أو توظيفاً فنياً من أجل إلقاء الضوء على سلوك المشركين، حتى

يتجانس المصيران اللذان ينتهي المعاصرون والبائدون إليهما، وهو: الهزيمة دنيوياً... ويلاحظ، أنّ غالبية النصوص القرآنية تلوح بالعذاب الدنيوي بالنسبة إلى المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام، إلاّ أنّ هذا التلويح يظل حيناً بمثابة تخويف، حتى يتعدّل السلوك، وحيناً آخر يتحقق ذلك: كما هو الأمر بالنسبة إلى المقطع الذي نتحدّث عنه... طبيعياً، السياق هو الذي يفرض (فنياً) إنزال العذاب أو الهزيمة الدنيوية في بعض المواقف، أو تأجيله أخروياً في مواقف أخرى... وبما أنّ نهاية هذا المقطع يتضمن مطالبة المنحرفين إنزال العقاب عليهم قبل اليوم الآخر ﴿**وقالوا ربنا عجل لنا قطّنا قبل يوم الحساب**﴾، حينئذٍ نحتمل (فنياً) أن يكون هذا الطلب منهم لأن يعاقبوا قبل يوم الحساب، مرتبط عضوياً بنزول العقاب أو الهزيمة دنيوياً... أي، أنّ السياق الفني استتلى أن تعجل العقوبة الدنيوية ما داموا قد سخروا من ذلك وطالبوا ـ على نحو الهزء ـ أن يعجّل لهم الحساب...

والآن، إذا أدركنا السر الفني الكامن وراء تعجل العقاب دنيوياً، مقابل عدم تحقيقه في مواقع أخرى من نصوص القرآن الكريم، حينئذٍ نتساءل: ما هو السّر الفني وراء التلويح بنزول العقاب على المنحرفين قبل أن يعرض المقطع القرآني الكريم مطالبتهم بنزول العقاب؟ أي: أنّ المقطع ذكر أولاً هزيمتهم حيث قال في بداية المقطع ﴿**جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب**﴾ ثم ذكر بعد ذلك: مطالبتهم بتعجيل الجزاء حيث يتوقع القارىء أو السامع أن تعرض أولاً سخريتهم من العقاب، ثم تعرض هزيمتهم؟... في تصوّرنا، أنّ هناك اسراراً فنية متنوعة وراء هذا النحو من العرض القصصي... فهناك أولاً تفاوت بين الهزيمة التي لحقتهم (وهي معركة بدر: كما يقول المفسرون)، وبين مطالبتهم بالجزاء، حيث تذكر النصوص المفسرة أنّ هؤلاء المنحرفين قد طالبوا بإبراز الكتب التي يشير إليها الكتاب والسنّة من إنّها تنشر أمام الخلق في عرصات القيامة، أي أنّهم طالبوا بصحيفة أعمالهم وليس نزول العقاب، لكن بما أنّ

المطالبة تنطوي على السخرية، حنئذٍ فإنّ الإجابة لا بد أن تقترن بنزول عقاب يهزمهم فكرياً واجتماعياً، ولذلك كانت الهزيمة (في معركة بدر) تجسيداً للهزيمة الفكرية والاجتماعية المشار إليها... بيد أنّ المهمّ هو أنّ النص ـ كما نحتمل ـ يستهدف غرضاً مزدوجاً من وراء عرضه أولاً للهزيمة، ثم عرضه لأقوال المنحرفين بعد ذلك، وهو: تحديد المهمة التبليغية للرسول(ص) حيث طالبه النص بالصبر على سخريتهم، ﴿**اصبر على ما يقولون...**﴾.

ثم عرض بعد ذلك ـ كما سنرى ـ قصة دواد ثم سليمان إلخ بالنحو الذي سنتحدث عنه لاحقاً (إن شاء الله تعالى) لذلك، فإنّ عرض سخريتهم في سياق الصبر عليها يظل أمراً مفسّراً لهذا الجانب، مضافاً إلى كون مطالبتهم بمشاهدة صحائف أعمالهم، غير متوافقة مع العقاب، وإنّما جاء العقاب بمثابة إجابة متوافقة مع سخريتهم، مما يفسّر لنا عدم الضرورة الفنية لتسلسل الزمن وترتيب الآثار على ذلك، بيد أنّ الأهم من ذلك كله: أنّ النص قد ذكر في بداية السورة أنّه تعالى قد أهلك من قبلهم أمماً بائدة ﴿**كم أهلكنا من قبلهم من قرن، فنادوا ولات حين مناص**﴾... هذه المقدمة ألقت الضوء على مستقبل الأحداث التي تنتظر هؤلاء المكذّبين، لذلك بعد أن عرض النص جوانب مختلفة من سلوكهم، أردفها بالتلويح بهزيمة ﴿**جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب**﴾، فجاءت الهزيمة تجسيداً فنياً لتلكم المقدمة التي لوحت بمصائر الأقوام البائدة... ولذلك أيضاً، جاء المقطع الذي نتحدث عنه يعرض لنا مرة ثانية: مصائر الأقوام البائدة ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح... إلخ**﴾ حيث نستكشف أنّ التذكير بالأقوام البائدة في مقدمة السورة يحمل سراً فنياً يختلف عن السر الفني الذي يحمله: التذكير بهم فيما بعد... وبهذا نتبيّن مدى الإحكام الهندسي في صياغة الموضوعات المتقدّمة من حيث علاقات التنامي والترابط بينهما، بالنحو الذي أوضحناه.

قال تعالى ﴿**اصبر على ما يقولون، واذكر عبدنا داود ذا الأيد، إنّه أوّاب إنّا سخّرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورةً، كل له أوّاب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب وهل أتاك نبأ الخصم إذا تسوروا المحراب. . .**﴾.

نواجه ـ في هذا المقطع وما بعده ـ عنصراً قصصياً يتصل برسم شخصيات داود وسليمان وأيوب وسواهم من الأنبياء عليهم السلام، وإذا كنا ندرك جميعاً بأنّ القصص في السورة توظف ـ في الغالب ـ من أجل إنارة (الأفكار) المطروحة في السورة، حينئذٍ نتوقع أن تكون قصص داود وسليمان وأيوب وسواهم، موظفة لإنارة فكرة السورة التي نتحدّث عنها (سورة صاد). . . لكن ينبغي أن ندرك أيضاً بأنّ القصص ذاتها قد تجسّد (فكرةً) ضمن السورة فتكون مستكملةً لها (مثل القصص التي نتحدث عنها الآن)، وقد تستقلّ في تجسيدها لفكرةٍ خاصة: كما هو طابع السور التي تتضمن قصة واحدة أو أكثر تستغرق السورة (مثل قصص يوسف عليه السلام ونوح عليه السلام ـ في سورة نوح ـ وسواهما. . .).

وحين نمعن النظر (في سورة صاد) نجد أنّ بدايتها كانت تتحدث عن المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام حيث وصفهم النص بأنّهم (في عزّة وشقاق)، وحيث اعترضوا على رسالة محمد(ص) بأنّها نازلة على واحدٍ منهم، وحيث أجابهم النص على ذلك قائلاً (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب). . . هذا يعني أنّ النص قد طرح هنا (فكرة) خاصة هي: خزائن الرحمة التي يمتلكها الله تعالى، وأنّ العبد لا يمكنه أن يحقق شيئاً من ذلك. . . هذه (الفكرة)، سوف تأخذ بالتبلور حينما نجد أنفسنا أمام مجموعة من القصص

التي تتحدث عن (خزائن الرحمة) التي أنكرها المنحرفون، وأنكروا أن يخص الله تعالى بها محمداً(ص) في وظائفه لتحمل الرسالة... لكن ـ في الوقت ذاته ـ تجيء هذه القصص لتطرح أفكاراً جديدة من خلال مفهوم (الرحمة) ذاتها، حيث تضمّنت هذه القصص الثلاث (داود، سليمان، أيوب) «فكرةً» خاصة هي إخضاع هذه الشخصيات النبوية لنوع من (الابتلاء) أو (الامتحان)، ثم الخروج من هذا الامتحان أو الابتلاء بنتيجة هي: إضفاء المزيد من (خزائن الرحمة) عليهم، بحيث جعل داود عليه السلام (خليفة في الأرض)، ومنح سليمان عليه السلام ملكاً لم يمنح لغيره، وأحيا أهل أيوب عليه السلام بعد أن ماتوا: كما سنوضح ذلك في حينه.

إذن، نحن الآن أمام أكثر من (فكرةٍ) مستهدفةٍ في هذا العنصر القصصي... والمهم هو: أن نتابع العرض القصصي واستخلاص التفصيلات المرتبطة بفكرتها...

القصة الأولى هي: قصة داود عليه السلام... حيث استهل الحديث عنها بمجموعة من السمات التي تطبع شخصيته، وفي مقدمتها: سمة (الأيد) أو القوة، فيما وصفها النص بقوله تعالى ﴿**واذكر عبدنا داود ذا الأيد**﴾ أي: ذا القوة...

ونتساءل، ما هو السر الفني في هذا الاستهلال القصصي الذي ركز على صفة (الأيد أو القوة)؟. هنا، ينبغي أن نتذكّر بأنّ سورة صاد سبق أن عرضت ـ في سياق تذكيرها للمنحرفين ـ مصائر الأقوام البائدة التي كذبت رسلها ثم لحقهم العقاب الدنيوي، ومنهم (فرعون) الذي وصفه النص بقول: ﴿**وفرعون ذو الأوتاد**﴾. لقد خص (فرعون) دون سواه بهذه الصفة التي تعني بأنّه كان متمكناً في سلطانه الدنيوي، سواء أكانت (الأوتاد) تعني: وسائل التعذيب التي كان يمارسها، أو الجنود الذين كانوا يحيطون به، أو مطلق القوى التي تمكنه

من الفساد في الأرض. . . ولكنه (مع قوته المشار إليها) فقد طاله العقاب الدنيوي. . .

في تصوّرنا (من زاوية الاستخلاص الفني الذي نحتمله) أنّ النص عرض في مقابل القوى التي يمتلكها المنحرفون، عرض القوى التي منحها الله تعالى للأنبياء عليهم السلام، حتى يضع القارىء أمام موازنةٍ بين الفريقين: الفريق المنحرف الذي يخسر دنياه وأخرته في نهاية المطاف، والفريق الذي يربحهما جميعاً، حيث تبلور مفهوم (خزائن الرحمة) التي ذكر تعالى بها أولئك المنحرفين المعترضين على إكرام محمد(ص) بالرسالة. . .

إذن، (من حيث البناء الهندسي للنص) أمكننا أن نلحظ واحداً من أسرار الفن الذي يربط بين مقدمة السورة وبين عنصرها القصصي، فيما يكشف مثل هذا الربط عن مدى الإحكام العضوي للنص: من حيث علاقة أجزائه: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

لقد أوضحنا صلة هذه الأقصوصة بفكرة السورة الكريمة. . . أمّا الآن فنتحدّث عن المبنى الفني للأقصوصة من خلال موضوعاتها المطروحة. . . لقد رسمت القصة شخصية داود عليه السلام بجملة من السمات الخارجة والداخلية، وهي: أنّه ذو أيد أي قوة: سواء أكانت هذه القوة جسمية أو عسكرية أو موقعاً اجتماعياً أو سوى ذلك، ورسمته (أوّاباً): أي تواباً راجعاً عن كلّ ما لم يرتضه الله تعالى أو مسبحاً، ثم رسمته ـ من خلال هذه السمة ـ وقد شاركته الطير والجبال في التسبيح، ترجع تسبيحه: تقديراً من الله تعالى لشخصيته العبادية، ثم رسمته بسمتين داخليتين هما (الحكمة وفصل الخطاب) حيث جاء رسم هاتين السمتين من خلال سمة ثالثة (ذات طابع اجتماعي) هي: الملك ﴿**وشددنا ملكه، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب**﴾. أما الحكمة فتعني:

إمّا الاستبصار في الأمور أو النبوّة، بينما يعني (فصل الخطاب): العلم بالقضاء أي ممارسة الفصل بين الخصومات ونحوها . . .

إذن، نحن الآن أمام شخصية قصصية تمتلك مجموعة من السمات الفردية والاجتماعية والعبادية المميزة، حيث انشطرت سماتها إلى ظواهر ذات طابع (إعجازي) من جانب، وذات طابع متفرد أو خاص من جانب آخر . . . أما الطابع الإعجازي فيتمثّل في تسخير الجبال معه يسبحّن بالعشي والإشراق، وفي حشر الطير معه (كل له أوّاب). هذه الطوابع الإعجازية، ينبغي ألاّ نمرّ عليها عابراً بل نتبين دلالتها العبادية وصلة ذلك بشخصية داود عليه السلام أو صلة ذلك بمعطيات الله تعالى وانعكاسها على الشخصيات التي اصطفاها الله تعالى . . . فهناك أولاً: كشف لبعض الأسرار الكونية المتمثلة في: أنّ ما يسمّى بـ (عنصر الجماد) ـ في التصوّر العلمي إنّما هو يمارس عملية تسبيح ﴿**ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾: كما هو صريح الآية الكريمة في سورة الإسراء، كما أنّ (العضوية الحيوانية، ومنها: الطير) تمارس عملاً مماثلاً أيضاً . . . وهناك ـ ثانياً ـ معطيات متميّزة يهبها الله تعالى بعض عباده المصطفين دون سواهم من الآدميين، ومنهم: داود عليه السلام حيث منحه تعالى معطىً إعجازياً هو: مشاركة الجبال والطير في تسبيحه . . . مضافاً إلى الدعم الخاص لسلطانه أو حكومته، ثم مضافاً إلى إيتائه الحكمة وفصل الخطاب . . .

خارجاً عن هذه المعطيات ذات الطابع الإعجازي والمتميز، ينبغي أن نقف عند البناء العماري والهندسي للأقصوصة: من حيث صلة أجزائها: بعضها مع الآخر، فضلاً عن صلتها ببناء السورة الكريمة (سورة صاد) . . .

أمّا صلة أجزائها، بعضها مع الآخر، فيلاحظ أنّ النص بعد أن ينتهي من عرض القسم الأول من الأقصوصة (وهو: العرض القصصي الذي تناول رسم شخصية داود عليه السلام)، يبدأ القسم الثاني منه، بعرض قضية خاصة ترتبط

بالقضاء ـ كما سنرى ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب. . . إلخ)... لكن، قبل أن نبدأ بالحديث عن هذا القسم من الأقصوصة، ينبغي أن نذكر القارىء أو المستمع بأنّ النص القرآني الكريم قد ختم القسم الأول من الأقصوصة بقوله تعالى: ﴿وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ مع ملاحظة أنّ ﴿فصل الخطاب﴾ جاءت عبارته هي العبارة الأخيرة من الآية، أو لنقل: جاءت السمة الأخيرة التي رسمها النص في سياق عرضه لمجموعة السمات الداخلية والخارجية. . . و﴿فصل الخطاب﴾ يعني ـ كما أشرنا ـ العلم بالقضاء أو الفصل بين الخصومات. . .

ويلاحظ أيضاً، أنّ القسم الثاني من الأقصوصة (كما سنفصل الحديث عنه لاحقاً) قد تناول قضية ترتبط بالقضاء: حيث تسور رجلانِ خصمانِ محراب داود عليه السلام ذات ليلة من أجل القضاء بينهما في قضية خاصة. . . هذا يعني (من حيث العمارة الهندسية للقصة)، أنّ القسم الأول من القصة: حيث ختم بعبارة ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ قد شكل تمهيداً عضوياً تنعكس دلالاته على القسم الثاني من الأقصوصة، وهو القسم الخاص بقضية مرتبطة بفصل الخطاب. . . وهذا النمط من الربط الفني بين قسمي القصّة يُعد (من حيث البناء الهندسي) قمة في الإمتاع القصصي، مفصحاً عن مدى الإحكام العضوي للنص: من حيث تلاحم وتنامي موضوعاته، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى ﴿وهل أتاك نبأُ الخصْم إذْ تسوَّروا المحراب إذ دخلُوا على داود ففزِع منهم، قالوا لا تخف، خصمانِ بغى بعضنا على بعض فٱحكم بيننا بالحقّ، ولا تُشطِط، وٱهدنا إلى سواء الصراط إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجةً ولي نعجة واحدة، فقال: أكفلنِيها وعزَّني في الخطاب. . .﴾.

بهذا المقطع وما بعده، يبدأ القسم الثاني من قصة داود عليه السلام. . . وكان القسم الأول من القصة يتحدّث عن شخصية داود، والمعطيات الإعجازية وغيرها مما منحها الله تعالى للشخصية المذكورة: من مشاركة الجبال والطير لتسبيحه، ومن شدّ ملكه، ومن إيتائه الحكمة وفصل الخطاب. . . وها هو النص يعرض لنا جانباً من ممارسة (القضاء) لداود عليه السلام، حيث منحه الله تعالى **﴿فصل الخطاب﴾** الذي يعني ممارسة القضاء والفصل بين الخصومات. . . وقد سبق أن قلنا أنَّ قصة داود وسواها من القصص التي تضمّنتها سورة صاد «تتناول جانبين من الرسم القصصي لشخوص الأنبياء عليهم السلام، أحدهما: المعطيات المتميّزة التي يهبها الله تعالى للمصطفين من عباده، والأخرى: تعرضهم لبعض الاختبارات أو الامتحان. . . وبالنسبة لداود عليه السلام تعرّض ـ في هذا القسم من القصة ـ لتجربة القضاء بين خصمين. . . وكانت النتيجة هي: أن ينتبه داود على سر التجربة أو الامتحان الذي تعرض له، حيث استغفر سريعاً من ممارسته الحكم لأحد الخصمين بنحو كان المطلوب هو: أن يتحفظ في الحكم لأحدهما: كما تقول النصوص المفسرة. والمهم أنّ النص القصصي عقب على ذلك بقوله تعالى **﴿فغفرنا له ذلك، وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾**. . .

هذا التعقيب ينطوي على أهمية كبيرة بالنسبة إلى (فكرة) القصة التي تحوم على عمليةٍ (الامتحان العبادية) من حيث انتباه الشخصية القصصية على سر (الامتحان) المذكور، مما يترتب عليه أن يغفر الله تعالى للشخصية التي استغفرت من ممارستها فيما أخضعت للامتحان من أجلها. . . ليس هذا فحسب، بل إنّ ما ترتب على إدراك السر هو: أنْ تكون للشخصية المذكورة قربى وحسن مآبٍ في الآخرة. . .

أيضاً، ليس هذا فحسب، بل جاءت العبارات الآتية لتكشف لنا عن أنَّ

الله تعالى منح داود عليه السلام موقعاً اجتماعياً خطيراً كل الخطورة، هو: ﴿**يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض، فأحكم بين الناس بالحق**...﴾. إنَّ الاختبار أو الامتحان يفضي إلى أنْ تنتبه الشخصية على أبسط ما يمكن أن يتنافى مع متطلّبات الممارسة القضائية، بحيث يترتب على الانتباه المذكور: ممارسة القضاء ـ في المستقبل ـ في أفضل شروطه المطلوبة، وهذا ما تقرَّر فعلاً حينما عقّب النص القصصي قائلاً ﴿**يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض، فأحكم بين الناس بالحق**...﴾.

بعد ذلك تأتي قصة جديدة تتحدّث عن شخصية سليمان بن داود عليهما السلام: ﴿**و وهبنا لداود سليمان، نعم العبدُ إنّه أوّاب**﴾ لنلاحظ و نحن نعنى بالبناء الهندسي للنص إنَّ قصة داود قد رسمت شخصيته (كما لحظنا) من خلال مجموعةٍ من السمات: وفي مقدمتها سمة ﴿**أوّاب**﴾ ﴿**وأذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّه أوّاب**﴾. صحيح إنّ القصة رسمته أولاً بأنّه ذو (أيد) أي قوّةٍ، إلاّ أنّ رسم هذه السمة (وهي القوّة) إنّما جاءت في سياق كونه (أواباً) كما هو واضح...

والآن حينما نواجه القصة الجديدة (قصة سليمان) نلحظ أنَّ صفة ﴿**أوّاب**﴾ قد رسمها النص بالنسبة إلى سليمان عليه السلام أيضاً... ولنقرأ من جديدٍ ﴿**ووهبنا لداود سليمان، نعم العبد، إنَّه أوّاب**﴾...

إذن، ثمة عنصر مشترك بين القصتين قد طرحه النص القرآني الكريم في رسمه لشخصيتي داود وسليمان، العنصر أو السمة هو ﴿**أوّاب**﴾... كما أنَّ الشخصيتين تخضعان لطابعٍ آخر يشتركان فيه هو: الطابع النسبي (أب وابن)، وهذا يعني أنَّ التجانس بين الشخصيتين قد تكثّف في أكثر من طابع، مما يفضي على الهيكل الهندسي للنص: جمالية فائقة دون أدنى شك... وسنرى عند متابعتنا لقصة سليمان، أنَّ تجانس القصتين يأخذ طوابع أخرى: ترتبط ـ

من جانب بهيكل القصتين، كما ترتبط ـ من جانب آخر ـ بهيكل السورة الكريمة (سورة صاد)، وذلك جميعاً، يفصح عن أسرار فنية بالغة الدهشة بالنسبة إلى عمارة النص القرآني الكريم: من حيث تجانس وتلاحم وتنامي أقسامه وموضوعاته وعناصره بعض مع الآخر.

* * *

قال تعالى **﴿ووهبنا لداود سليمان نِعم العبدُ إنّه أوّاب إذ عُرض عليه بالعشي الصَّافِنات الجِياد فقال: إني أحببت حبَّ الخير عن ذكر ربِّي حتى توارت بالحجاب، ردُّوها عليّ، فطفق مسحاً بالسُّوق والأعناق﴾**.

هذا القسم الأول من قصة سليمان عليه السلام، حيث يتضمن هذا القسم (مقدمة) تتحدث عن سليمان من خلال رسم شخصيته العبادية، فيما وصف بكونه (نعم العبد) وبأنّه (أواب)... ثم جاء الرسم لشخصيته التي تعرضت لامتحان أو اختبار إلهيّ هو: قضية الاستعراض العسكري لخيوله... وقد سبق أن قلنا: أنّ العنصر القصصي الذي تخلل سورة صاد قد تضمن ثلاث قصص (داود، سليمان، أيوب): طبعها عنصر مشترك هو: تعرض هذه الشخصيات للامتحان أو الاختبار من جانب، ثم: مضاعفة المعطيات التي وهبها الله تعالى لهذه الشخصيات من جانب آخر تقديراً لانتباههم على سرّ التجربة، والخروج منها بسلوك جديد، حيث لحظنا أنّ داود عليه السلام قد استغفر ربه تعالى من ممارسته للقضاء بين خصمين، وحيث نلحظ الآن تعرض سليمان لأكثر من تجربة: ثم انتباهه على السّر الكامن وراء ذلك...

التجربة الأولى هي أنّ سليمان قد استعرض ذات يوم (من أجل هدف عسكري) خيوله **﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾** أي: الخيل التي تقف على ثلاث قوائم، السريعة الجري... وتقول النصوص المفسرة أنّ هذا الاستعراض قد شغله عن الصلاة في وقتها حتى غابت الشمس... وإزاء

ذلك، علق سليمان قائلاً ﴿**إنّي أحببت حب الخير عن ذكر ربي، حتى توارت بالحجاب**﴾ هذا الحوار الداخلي لسليمان، ينطوي على هدف فني مزدوج، فهو ـ من جانب ـ قد كشف عن (تطور) الحدث في القصة: حيث عرفنا من خلال الحوار أنّ الشمس قد غابت خلال استعراضه للخيل، كما أنّ الحوار ـ من جانب آخر ـ كشف عن (انتباه) سليمان عليه السلام على هذه الظاهرة، وهي أنّ حبّه للخيل قد شغله عن ذكر الله تعالى... ومن الطبيعي أن يترتب على هذا الانتباه رد فعل حاد يتناسب مع وعي سليمان عبادياً، لذلك هتف قائلاً: ﴿**ردّوها علي**﴾ أي: طلب إحضار الخيل... وعند ذلك ـ يقول النص ـ ﴿**فطفق مسحاً بالسوق والأعناق**﴾ أي: أخذ يمسح سيقانها وأعناقها... وبهذا ينتهي هذا القسم من القصة... بيد أنّ أكثر من سؤال فني يثار حيال هذه الصياغة القصصية، من ذلك مثلاً، أنّ القصة لم تشر إلى «الصلاة» التي فات وقتها بل اكتفت بالقول على لسان سليمان بأنّ الشمس توارت، وأنّ حبّ الخيل حجزه عن ذكر الله تعالى... ومن ذلك، أنّ القصة لم تشر إلى دلالة المسح لأعناق الخيل وسيقانها، حيث يظل القارىء متطلعاً إلى معرفة التفصيلات المرتبطة بعملية المسح... طبيعياً قد تكفلت النصوص المفسرة بتوضيح كل التفصيلات، ولكن السر الفني وراء هذا الصمت عن التفصيلات المذكورة، يتمثل ـ كما نحتمل ـ في أنّ هدف القصة هو التأكيد على أنّ حبّ الخيل قد شغل سليمان عليه السلام عن ذكر الله تعالى، سواء أكان الذكر صلاة أم غيرها من الأعمال العبادية، لذلك لا ضرورة فنية لتحديد الصلاة أو سواها: بل يترك للقارىء أن يستوحي ويستخلص ذلك تحقيقاً لعنصر المساهمة في الكشف عن دلالات القصة... كذلك، حينما يسكت النص عن تحديد دلالة المسح لسيقان الخيل وأعناقها، فإنّما يترك ذلك للقارىء حتى يستخلص ويستنتج أكثر من تفسير، لأنّ المهم هو أنّ سليمان عليه السلام قد انتبه على هذا الجانب وأدرك بأنّ حبّ الخيل ينبغي (وإن كان لهدف عبادي) ألاّ يشغله

عن ذكر الله تعالى، ومن ثم لا بد أن يتم التكفير عن ذلك بعملٍ ما بحيث يتناسب هذا العمل عكسياً مع حبّ الخيل. ولذلك مسح سيقانها وأعناقها.

أمّا ما هي تفصيلات هذا المسح، فأمر يمكن للقارىء أن يستنتج أكثر من دلالة من ذلك... وأمّا النصوص المفسّرة فتحدد ذلك في أكثر من تفسير حيث ذهب بعضها إلى أنّه عليه السلام قد جعلها في سبيل الله تعالى، وذهب بعضها إلى نفي هذه الحادثة، وأنّ سليمان عليه السلام قد طلب ردّ الشمس وليس رد الخيول، وإنّه تعالى قد استجاب لطلبه... والمهم هو، إبراز الفكرة الذاهبة إلى سليمان عليه السلام قد انتبه على موقفه من حب الخيل وأنّه رتب أثراً على ذلك... وهذا هو الهدف الرئيسي... والمهم أيضاف أن ندرك (من الزاوية الفنية) أنّ هذه الحادثة تظل مرتبطة بقصة سابقة (قصة داود) وبقصة لاحقة (قصة أيوب): حيث تصب هذه القصص في هدف واحد هو تعرض هذه الشخصيات لتجربة عبادية ترتبت عليها آثار متنوعة، فيما يفصح مثل هذا التجانس بين القصص عن مدى الإحكام الهندسي للنص، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**ولقد فتنّا سُليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب، قال: ربِّ اغفر لي وهب لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنَّك أنت الوهاب فسخرنا له الرِّيح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب والشياطين كلَّ بنَّاءٍ وغواصٍ وآخرين مُقرنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فأْمنن أو أمسِك بغير حساب وإنّ له عندنا لزُلفى وحُسن مآب**﴾.

هذا هو القسم الأخير من قصة سليمان عليه السلام، حيث كان القسم الأول يتضمن حادثة استعراضه للخيل وما ترتب عليها من نتائج تتصل بالاختبار الإلهي لعباده المصطفين، وهذا هو القسم الآخر من القصة يتضمن

حادثة اختبار أخرى هي ﴿**وألقينا على كرسيه جسداً، ثم أناب**﴾ لقد صرحت القصة بوضوح: إنّها قد اخضعت سليمان عليه السلام للفتنة ﴿**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً**﴾، كما أنّها صرحت بوضوحٍ أيضاً عندما قالت عن داود (في القصة السابقة) (وظن داود إنّما فتناه)... فإذن، نحن الآن أمام شخصيتين قصصيتين: إحداهما تمثل الأب، والأخرى تمثل الابن، وهذا هو التجانس الأول بين الشخصيتين... والبعد الثاني من التجانس بينهما أنّ داود وسليمان من الشخصيات النبوية، والبعد الثالث من التجانس إنّهما قد وصفا بصفة (العبد) ﴿**واذكر عبدنا داود**﴾ ﴿**ووهبنا لداود سليمان نعم العبد**﴾، والبعد الرابع من التجانس بينهما هو صفة (الأواب) لكليهما، ﴿**واذكر عبدنا داود ذا الأيد انّه أواب**﴾ ﴿**ووهبنا لداود سليمان، نعم العبد، إنّه أواب**﴾... والبعد الخامس من التجانس بينهما إنّهما تعرضا للفتنة ﴿**وظن داود انّما فتنّاه**﴾ ﴿**ولقد فتنا سليمان**﴾، والبعد السادس من التجانس بينهما، أنّ كلاً منهما قد (أناب) لله تعالى بعد وقوع الفتنة حيث ذكرت القصة عن داود عليه السلام بأنّه استغفر وأناب، وذكرت عن سليمان عليه السلام بأنّه ثم (أناب)، والبعد السابع من التجانس بينهما أنّ كلاً منها قد أشير إلى أنّ له زلفى وحسن مأب، حيث قالت القصة بعد حادثة الفتنة لداود ﴿**وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب**﴾. والبعد الثامن من التجانس بينهما، أنّ كلاً منهما قد منحه الله تعالى معطىً دنيوياً (فضلاً عن المعطى الأخروي)، حيث عقبت القصة على داود بعد الفتنة ﴿**يا داود إنّا جعلناك خليفة**﴾، وحيث عقبت القصة على سليمان بعد الفتنة فقالت ﴿**فسخرنا له الريح... إلخ**﴾. إذن، نحن الآن أمام ثمانية أبعاد من التجانس الفني بين شخصيتي داود وسليمان، وهذا الرقم الكبير من التجانس يكشف عن أسرار فنية بالغة الإثارة والدهشة في صعيد البناء الهندسي للقصص.

لكن، بغض النظر عن هذه الأبعاد الثمانية من التجانس بين القصتين، ينبغي أن نقف عند (حادثة) الفتنة التي تعرض لها سليمان عليه السلام،

والنتائج المترتبة عليها. . . أما الحادثة تقول النصوص المفسرة أنّ الجسد الذي أُلقي على كرسي سليمان عليه السلام (وألقينا على كرسيه جسداً) هو جسد ابنه الميت، حيث ورد أنّ الجن لما رأوا وليد سليمان، أشفقوا من أن يسبب لهم متاعب جديدة مثلما سبب لهم سليمان ذلك حيث وظفوا لخدمته، لذلك استرضع سليمان ولده في السحاب: خوفاً من الجن، وكانت النتيجة أن الولد قد توفي وألقي جسده على كرسي سليمان. . . وهذه هي الفتنة التي تعرض لها سليمان. . . أي أنّ سليمان الذي أشفق على ولده من الجن فاسترضعه في السحاب، قد واجه ولده ميتاً أمامه، مما يعني أنّ الأسباب بيد الله تعالى من جانب (حيث لا ينفع الهروب من قوة مخلوقة ـ مثل الجن، إلى قوة مخلوقة أخرى ـ مثل السحاب)، وحيث يترتب على ذلك ردّ فعل خاص من قبل سليمان من حيث ملاحظة كونه قد واجه مصيراً لابنه خلاف ما توقعه: من جانب آخر. . . ولكن سليمان عليه السلام قد نجح في هذه التجربة ـ كما نجح داود من قبل ـ بحيث انتبه على السر الكامن وراء هذه الفتنة، لذلك (أناب) إلى الله تعالى، حيث عقبت القصة على هذه الحادثة بعبارة ﴿**ثم أناب**﴾ ﴿**ولقد فتنا سليمان، وألقينا على كرسيه جسداً، ثم أناب**﴾. . .

إذن، للمرة الجديدة، أمكننا ملاحظة نجاح سليمان عليه السلام في هذه التجربة وما ترتب عليها من نتائج سنعرض لتفصيلاتها لاحقاً، مما يكشف مثل هذا الموقف عن تجانس هذه القصة مع سابقتها (قصة داود) كما قلنا، فضلاً عن تجانسه مع سائر موضوعات السورة الكريمة: من حيث علاقة بعضها مع الآخر، بالنحو الذي سنوضحه لاحقاً إنشاءالله تعالى).

* * *

قال تعالى ﴿**واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه اني مسَّنيَ الشيطان بنُصبٍ وعذابٍ أركُض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم**

رحمةً منّاً وذكرى لأولي الألباب وخذ بيدك ضِغْثاً فاضرِب به ولا تحنث، إنّا وجدناه صابراً، نِعم العبدُ، إنّه أوّاب﴾.

هذه هي القصة الثالثة من قصص سورة صاد، حيث انصبت القصص الثلاث في فكرة واحدة هي: إخضاع الشخصيات القصصية (وهم ثلاثة أنبياء) لتجربة صعبة، خرجوا من خلالها بنجاح، حيث ترتب على ذلك أن يمنحهم الله تعالى مزيداً من المعطيات ذات الطابع الإعجازي... والآن، لنقف عند قصة أيوب عليه السلام لملاحظة موقعها الهندسي من القصص من جانب، وملاحظة أحداثها وأفكارها الأخرى من جانب آخر... أمّا أحداثها فتتمثل في الشدة التي تعرض لها أيوب، وهي شدة جسمية ونفسيه لا يتحملها إلاّ من أصطفاه الله تعالى... حيث هجره الناس لمرضه، وذهب أهله.. وحيث ساقه ذلك إلى يهتف منادياً: يا رب **﴿اني مسَّنيَ الشيطان بنُصبٍ وعذاب﴾**. وقد خرج أيوب من هذه المحنة بنجاح، بحيث صبر على بلائه صبراً لا مماثل له، مما نلحظ ذلك في السمة التي خلعها الله تعالى عليه وهي الصبر... قال تعالى: **﴿إنّا وجدناه صابراً، نعم العبد، إنّه أواب﴾**. هذه السمات الثلاث سنتحدث عنها بعد قليل، لكن ما ينبغي أن نلحظه الآن هو أنّ الله تعالى رفع عنه الشدة حينما أمره أن يضرب برجله الأرض، حيث نبعت من الضرب عينان، أحداهما للشرب وأخرى للاغتسال، فبرىء من مرضه، كما رد إليه أهله ومثلهم معهم (أي أهله الذين ماتوا قبل شدته وأثناء شدته)، **﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم، رحمة منّا﴾**.
ويلاحظ أنّ النص عقب على هذه الحوادث بقوله تعالى **﴿إنّا وجدناه صابراً، نعم العبد، إنّه أواب﴾** هذا التعقيب ينبغي أن نقف عنده بشيء من التفصيل... نظراً لارتباطه عضوياً بسائر القصص التي تضمنتها سورة صاد... لقد وصف النص (أيوب) بسمة الصبر أولاً، نظراً لارتباط الامتحان الذي تعرض له بسمة الصبر ـ كما قلنا. ثم وسمه بصفتين، احداهما: العبودية

(نعم العبد) والأخرى: سمة «الأواب» ﴿إنّه أواب﴾. وهاتان الصفتان قد خلعهما النص على شخصيتي داود وسليمان أيضاً، حيث قال النص عن داود عليه السلام ﴿**واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب**﴾ فقوله تعالى: ﴿**عبدنا**﴾ و﴿**إنّه أواب**﴾ هو نفس قوله تعالى عن أيّوب ﴿**نعم العبد إنّه أواب**﴾، كما أنّ قوله تعالى عن سليمان ﴿**ووهبنا لداود سليمان: نعم العبد إنّه أواب**﴾ يحمل نفس الصفتين اللتين خلعهما على أيوب...

إذن، ثمة تجانسات قصصية في رسم الأشخاص الثلاثة، جاءت مشتركة بين الأبطال المشار إليهم... وهذا التجانس بين سمات الأبطال: له أهميته الفنية من حيث (وحدة العنصر القصصي) بحيث يمكن القول إنّنا أمام قصص متداخلة فيما بينها أو أمام قصة واحدة ينتظمها أبطال ثلاثة من الأنبياء، يحملون سمات مشتركة بينهم... ليس هذ فحسب، بل أنّ الحوادث التي تعرضوا لها، ثم النتائج التي رتبها الله تعالى على الحوادث المشار إليها: تتجانس أيضاً فيما بينها، فكما جعل الله تعالى داود (خليفة) بعد تجربته في القضاء، وكما منح لسليمان الريح والشياطين والملك: بعد تجربته في مواجهته الجسد الميت (وهو ابنه)... كذلك: منح أيوب عليه السلام: المغتسل البارد والشراب ورجوع الأهل: بعد تجربته في مكابدة المرض وسواه. إذن، للمرة الجديدة، نحن الآن أمام عمارة تعبيرية بالغة الإحكام والامتاع: من حيث تجانس الصفات المخلوعة على شخصيات القصص الثلاث، ومن حيث تجانس الحوادث التي تعرضوا لها، ومن حيث النتائج التي ترتبت على ذلك، مما يكشف مثل هذا التجانس بين الأبطال والحوادث والنتائج، عن مدى الإحكام الهندسي للنص، من حيث علاقة موضوعاته: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **واذكُر عِبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنّا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدّار وإنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار، واذكُر إسماعيل واليسَع وذا الكِفل وكلٌّ مِن الأخيار، هذا ذكرٌ، وإنّ للمتقين لحُسنَ مآب...** ﴾.

هذا القسم من سورة «صاد» يمكن أن نجعله امتداداً للعنصر القصصي الذي تحدث عن داود وسليمان وأيوب عليهم السلام، حيث تم عرض شخصياتهم بشيء من التفصيل... أما القسم الذي نتحدث عنه الآن، فلا يعرض للشخصيات إلاّ عابراً بحيث يكتفي بسرد أسمائهم وإكسابهم صفة مشتركة، مثل صفة ﴿**أولى الأيدي والأبصار**﴾ بالنسبة إلىٰ كلٍ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكونهم مخلصين وأخياراً... ومثل صفة (الأخيار) لكل من إسماعيل واليسع وذا الكفل... طبيعياً لا بد أن يكون لانتخاب هذه الأسماء من جانب، ثم شطرها إلى مجموعتين من جانب آخر (أي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب مقابل إسماعيل واليسع وذي الكفل)، لا بد أن يكون لهذا العرض والتقسيم والصفات للشخصيات المذكورة أكثر من سرٍ فنيٍّ فيما يتطلب كشف هذه الأسرار متابعة خاصة لحياة كل منهم مما لا يسمح حديثنا بذلك... من هنا، نتجاوز هذا الجانب لنتحدث عن السمات التي خُلعت عليهم وصلتها بالعنصر القصصي في السورة وبهيكل السورة أساساً... لقد رُسم هؤلاء من خلال سمات (القوة، والاستبصار، والخيرية، والإخلاص): مع ملاحظة أنّ عرض هذه السمات ينطوي ـ بداهة ـ على هدف تركز السورة عليه، يماثل الأهداف التي أبرزها العنصر القصصي في شخصيات داود وسليمان وأيوب. وإذا كانت الشخصيات الثلاث الأخيرة قد عرضت في سياق تعرضهم إلى تجربة (امتحان)، وما ترتب عليه من المزيد من معطيات الله تعالى بحيث سخر لهم مختلف القوى من جبال وطير وجن وريح (بالنسبة إلى

داود وسليمان) ، بحيث تم الإبراء من المرض وإعادة الحياة إلى الموتى (بالنسبة إلى أيوب).

نقول: إذا كانت هذه الشخصيات قد عرض لها في سياقٍ خاص من الامتحان والمعطيات الدنيوية، فإنّ التلويح بالجزاء الأخروي لهم، وبالمعطيات هناك أيضاً، يظلل عنصراً مشتركاً بينهم وبين الشخصيات النبوية التي عرضها هذا القسم من السورة، وبينهم جميعاً وبين مطلق المؤمنين الذين تطبعهم (التقوى) من جانب آخر، وهذا ما نلحظه في التعقيب القصصي القائل **﴿هذا ذكر، وإنّ للمتقين لحسنَ مآب﴾** والتعقيب القائل **﴿إنّ هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾**. إن قوله تعالى: **﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾** ينبغي ألا نفصله من سياق العنصر القصصي الذي ركز على سمة مشتركة من داود وسليمان عليهما السلام حينما قال عنهما ـ في صدد الجزاء الأخروي: **﴿وإنّ له عندنا لزلفىٰ وحسن مآب﴾**، فعبارة **﴿حسن مآب﴾** جاءت الآن ـ في المقطع الذي نتحدث عنه ـ بنفس الصيغة التي وردت فيها بالنسبة إلى شخصيتي داود وسليمان... وهذا يعني (من حيث الهيكل الهندسي لعمارة القصص، والسورة أيضاً) أنّ النص القرآني الكريم قد وصل بين أقسام السورة الكريمة، وأخضعها لبناء فني متجانس متلاحم، وتتنامىٰ فيه الموضوعات والفكر: بعضها مع الآخر، من حيث انصبابها في (فكرة) تقول: أنّ لعباد الله الأخيار **﴿حسن مآب﴾** سواء كانوا أنبياء أو عاديين: مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ للأنبياء تميزهم الخاص في الجزاء المذكور...

كذلك، يمكننا ملاحظة بعد آخر من التجانس، وهو قوله تعالى في هذا القسم الذي نتحدث عنه: **﴿إنّ هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾** حيث وردت هذه الآية في سياق الحديث عن الجزاء الأخروي: الجنة، لكن ينبغي أن نتداعى بأذهاننا إلى قصة سليمان عليه السلام حيث عقب النص عليها بقوله تعالى:

﴿**هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**﴾. فبالرغم من أن العطاء المذكور ورد في صعيد الجزاء الدنيوي: حيث وهب الله تعالى له ملكاً متفرداً، وسخر له الريح والجن... فإنّه لمجانس للجزاء الأخروي الذي يقول ﴿**انّ هذا لرزقنا ما له من نفاد**﴾ فعدم نفاد الرزق يتجانس مع العطاء بغير حساب، بصفة أنّ كلاً منها لا حدود له بالنسبة إلى معطيات الله تعالى...

إذن، ثمة تجانس وتلاحم بين الموضوعات يتم من خلال (الوحدة) بينهما، مقابل «تجانس وتلاحم» يتم من خلال (التضاد) بين المعطيين دنيوياً وأخروياً، إلاّ أن (التجانسين) كليهما، يخضعان لطابع مشترك هو عطاء الله تعالى في الحالات جميعاً، وهذا النمط من التجانس، يكشف عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص القرآني الكريم، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**هذا، وإن للطَّاغين لشر مآب جهنم يصلونها، فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميمٌ وغساقٌ وآخر من شكلِه أزواج هذا فوج مُقتحم معكم، لا مرحَباً بهم إنَّهم صالوا النّار قالوا بل أنتم لا مرحَباً بكم أنتم قدّمتمُوه لنا فبئس القرار قالوا: ربَّنا من قدَّم لنا هذا فزِده عذاباً ضِعفاً في النَّار وقالوا: ما لنا لا نرى رجالاً كُنا نعُدُّهُم من الأشرارِ اتَّخذناهم سِخرِيّاً أم زاغت عنهم الأبصارُ إنّ ذلك لحقٌ تخاصُمُ أهل النَّار...**﴾.

هذا المقطع من السورة الكريمة امتداد لما سبق من المقطع الذي تحدث عن مصائر المؤمنين في الجنة ووصفها بعبارة ﴿**وإنّ للمتقين لحسن مآب**﴾. هنا ـ في المقطع الذي نتحدث عنه ـ يقابل النص بين أولئك المؤمنين وبين الفاسقين، حيث وصف مصائرهم في النار بصفة ﴿**وإنّ للطاغين لشرّ مآب**﴾.

هذا التقابل بين المؤمنين والمنحرفين قد خضع ـ هندسياً ـ لنوع من التجانس الفني الذي يفصح عن الإحكام العضوي لبناء النص، أي: نحن الآن أمام

ظاهرة فنية هي: «التماثل من خلال التضاد» أو «التضاد من خلال التماثل»، فالتضاد هو: الجنة والنار، الشر والخير: الشر بالنسبة إلى مصائر المنحرفين، والخير بالنسبة إلىٰ مصائر المؤمنين، وأما التماثل فهو (المآب) أو المصائر، فقول الله ﴿**حسن مآب**﴾ بالنسبة إلى المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿**شر مآب**﴾ بالنسبة إلى المنحرفين، يعد (تضاداً) من خلال (التماثل) في المآب، إنّ لكلٍ منهما مآباً (وهذا هو التماثل)، لكن مآب المؤمن إلى الجنة، ومآب الكافر إلى النار، وهذا هو التضاد. . . علماً بأنّ هذا المقطع وسابقه، يظلان مرتبطين عضوياً بالعنصر القصصي في السورة الكريمة، حيث تحدثت السورة عن شخصيات داود وسليمان وأيوب وسائر الأنبياء، وأشارت في حينه إلى مواقعهم أخروياً، وربطت بين تلكم المواقع أو المصائر، وبين مصائر مطلق المؤمنين. . . لكن، خارجاً عن هذا المبنى الهندسي الذي يربط بين أجزاء السورة أو مقاطعها: بعضها مع الآخر، يعنينا أن نتابع العرض الفني الذي قدّمه المقطع بالنسبة إلى بيئة النار التي يحياها المنحرفون، وما يواكبها من رسم المواقف المثيرة في هذا الصعيد.

وأول ما يلفت النظر هنا، أنّ المقطع عرض ردود الفعل التي تصدر عن الرؤساء والمرؤوسين أو قادة الضلال وأتباعهم، حيث يتناول الفريقان: إلقاء اللوم فيما بينهما، فالرؤساء أو الشياطين عندما يقول لهم: ﴿**هذا فوج مقتحم معكم**﴾ في دخول النار، حينئذٍ يقول الرؤساء لاتباعهم الذين اقتحموا النار: ﴿**لا مرحباً بهم**﴾، ولكن الاتباع يردّون عليهم بنفس العبارة ﴿**بل أنتم لا مرحباً بكم**﴾ ثم يضيف هؤلاء الأتباع قائلين ﴿**أنتم قدّمتموه لنا**﴾ أي: أنتم أيها الرؤساء أو الشياطين قدمتم لنا هذا المصير البائس. . . ليس هذا فحسب، بل يتكرر هذا الكلام للمرة الجديدة عندما يتجه الأتباع إلى الله تعالى قائلين ﴿**ربنا من قدم لنا هذا، فزده عذاباً ضعفاً في النار**﴾. وهذا التكرار ينطوي على أكثر من سر فني، منه: أنّ توجه الاتباع إلى الله بمضاعفة العذاب على رؤسائهم،

جاء بعد دخولهم النار واستقرارهم فيها، حيث كان الموقف الأول هو أثناء دخولهم النار فيما قالوا لرؤسائهم: ﴿**لا مرحباً بكم أنتم**﴾. ومن الممكن أن يكون هذا الكلام قد قالوه مباشرةً بعد كلامهم السابق، حيث تعني هذه العبارة «فزده عذاباً ضعفاً من النار» إنهم قالوا: إنّ الرؤساء ما داموا قد تسبّبوا في دخولنا النار، فعليه: زدهم ـ يا رب ـ عذاباً مضاعفاً... ثم ينقل المقطع لنا موقفاً آخر لأصحاب النار، حيث يتحاور هؤلاء قائلين: ﴿**ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخريا، أم زاغت عنهم الأبصار**﴾.

إنّ هذه المحاورة الداخلية أو الجمعية تنطوي أيضاً على أكثر من سر فني، منها: أنّ الاحساس بالندم يتنوع لدى المنحرفين، حيث أنّهم حينا يتلاومون رؤساء واتباعاً: بعضهم مع الآخر، وحيناً آخر يلتفتون إلى ماضيهم الدنيوي فيتذكرون أشخاصاً كانوا يعدونهم أشراراً ـ في المقايس الدنيوية، ولكن لا وجود لهم في النار، بل هم في الجنة، مما يعني أنّ إحساسهم بخطأ مقاييسهم قد جرّ عليهم عذاباً نفسياً آخر، حيث يتداعى الذهن تلقائياً إلى المقارنة بين مقاييسهم الدنيوية وبين ما يشاهدونه الآن في الآخرة، كل ذلك في نطاق الضلالة الفكرية التي قادتهم إلى عدم الإيمان برسالة الإسلام أو في نطاق تصوّراتهم عن المؤمنين الذي خيل إليهم أنّهم أشرار في الدنيا. ومن الواضح، أنّ هذا المنحى من صياغة ردود الفعل التي يصدر عنها المنحرفون يظل على صلة عضوية بمقدمة السورة التي وصفتهم بأنّهم في (عزة وشقاق) حيث أن تصوراتهم المخطئة التي بدأوا يحسونها ما هي إلا انعكاسات لصفة العزة والشقاق: كما هو واضح، وهو أمر يكشف لنا عن مدى الإحكام العضوي للنص، من حيث علاقة موضوعاته: بعضها مع الآخر: بالنحو الذي أوضحناه.

❊ ❊ ❊

قال: ﴿قل هو نبأ عظيمٌ أنتم عنه مُعرِضُون ما كان ليَ مِن عِلم بالملإِ الأعلى إذ يختصمُون، إنْ يُوحىٰ إليّ، إلاّ انّما أنا نذير مُبين، إذ قال ربُّك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طينٍ فإذا سوّيتُه ونفختُ فيه من روحي، فقَعُوا له ساجدين. . . إلخ﴾.

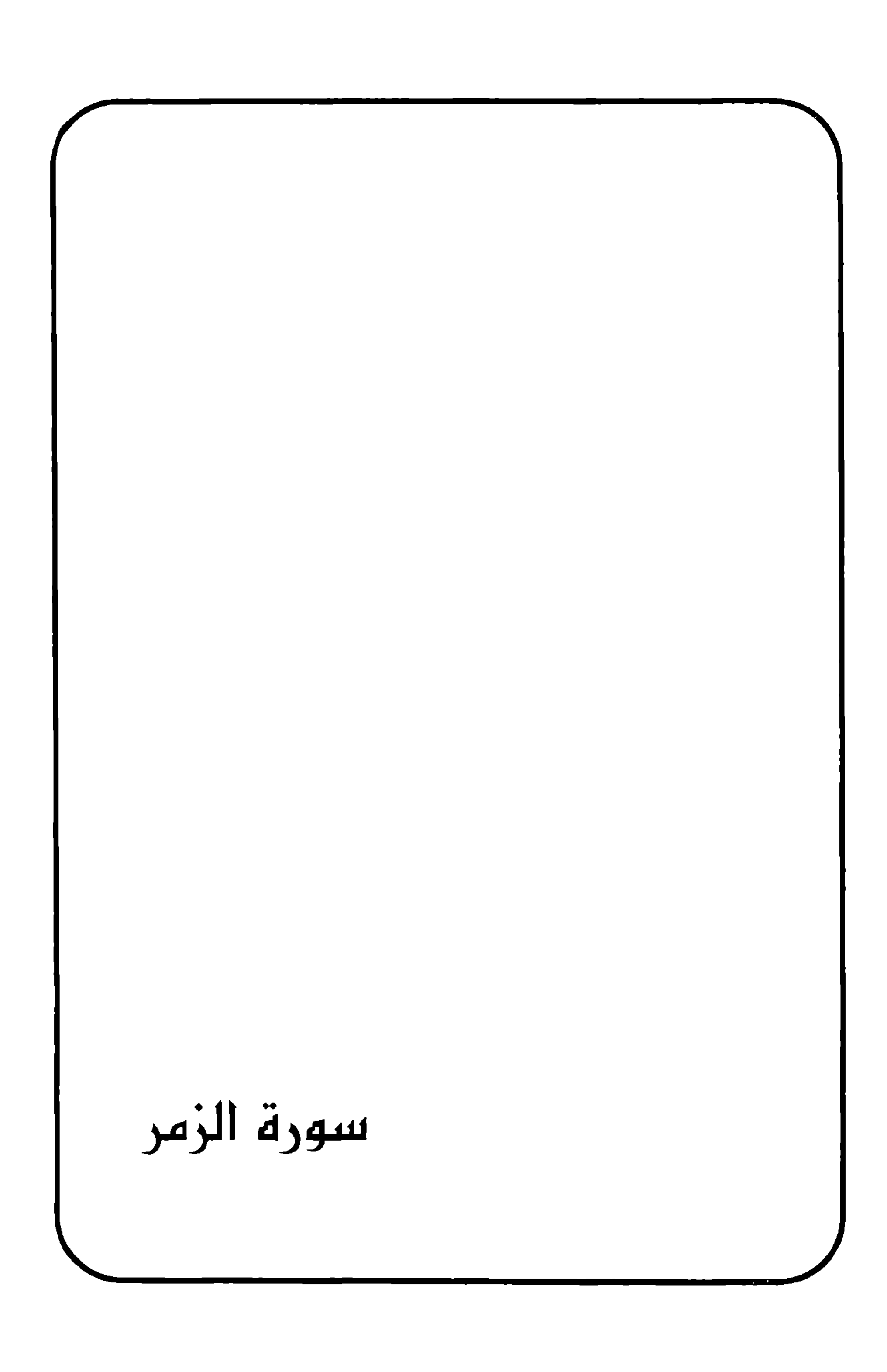
بهذا المقطع تختم سورة صاد التي بدأت بقوله تعالى: ﴿صٓ والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ حيث ختمت بالإشارة إلى القرآن الكريم وموقف المنحرفين منه، فيما وصفهم بسمات العزة والشقاق. . . وها هو الآن يعرض لنا نفس موقفهم بعبارة إنّه ﴿نبأ عظيم أنتم عنه معرضون﴾. طبيعياً، أنّ إعراضهم هنا جاء متجانساً مع المقطع السابق الذي عرض فيه مصير المنحرفين الذين غفلوا عن الآخرة، ونعني به: جهنم التي بدأوا يتحسسون من خلالها مدى العزة والشقاق اللذين دفعا بهم إلى أمثلة هذا المصير البائس. . . بيد أنّ الملاحظ، أنّ النص أو المقطع الختامي للسورة، طُرِح فيها موضوع جديد هو: موقف إبليس من آدم عليه السلام، حيث يدفعنا ذلك إلى التساؤل عن السر الفني لعرض هذه القصة في ختام السورة. . . في تصوّرنا، أنّ قصة إبليس وموقفه من عدم السجود لآدم(ع)، قد ركز فيها على ظاهرة (التكبر) من جانب، وظاهرة (جهنم) من جانب آخر، وبالرغم من أن هاتين الظاهرتين تتكرران في قصص آدم، إلاّ أنّ التركيز هنا جاء ملحوظاً بحيث نستكشف وجود علاقة عضوية بين أفكار السورة وبين هذه القصة. . . أمّا سمة (التكبر) فتتضح علاقتها بسمتي (العزة والشقاق) اللّذين طبعا المنحرفين، وأمّا التركيز على (جهنم) فإنّه يتناسب مع سمة العزة والشقاق اللذين يقودان المنحرف إلى جهنم: مع ملاحظة أنّ هذه القصة جاءت بعد مقطع تناول بالتفصيل: مخاصمات المنحرفين ـ وهم في جهنم ـ حيث كانوا يتبادلون التهم فيما بينهم، بخاصة أنّ الاتباع كانوا يشيرون بنحو متكرر إلى أنّ

الشياطين أو الرؤساء هم الذين قادوهم إلى الانحراف... لذلك، عندما يركز النص على (جهنم)، نستكشف وجود علاقة بين هذه القصة وبين المقطع السابق الذي القى المنحرفون فيه تبعة سلوكهم علىٰ الشيطان... لنستمع إلى المحاورة الآتية: ﴿**قال فبعزتك لأغوينّهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين قال فالحق ـ والحق أقول ـ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين**﴾... لنلاحظ، أنّ المقطع قد أشار بعبارة ﴿**ممن تبعك**﴾ إلى نفس المضمون الذي لحظناه في المقطع الأسبق الذي ألقى الاتباع اللوم فيه على الشيطان...

إذن، من حيث المبنى الهندسي للنص، نجد أنّ هناك خيطاً عضوياً يربط بين القصة التي ختمت بها السورة، وبين موضوعات السورة: سواءاً كان ذلك في بداياتها أو في وسطها... فالبداية تضمنت الإشارة إلى سمتي (العزة والشقاق)، والوسط تضمن الإشارة إلى أتباع الشيطان... وكل منهما ـ أي بداية السورة ووسطها ـ مرتبط بختام السورة التي تحدثت عن إغواء الشيطان للمنحرفين، ثم عن التلويح بالمصير الذي ينتهي إليه المنحرفون وهو جهنم... مضافاً لما تقدم، ينبغي ألا نغفل عن ملاحظة بُعد فني آخر في هذا المقطع الختامي، حيث لحظنا أنّ بداية المقطع قد أشار إلى أنّ القرآن أو تعاليمه هو ﴿**نبأ عظيم أنتم عنه معرضون**﴾ أي أشار إلى اعراض المنحرفين عن الحق، ورمز للحق بعبارة (نبأ)، ثم ختم السورة بآية تقول ﴿**ولتعلمنّ نبأه بعد حين**﴾. هذا التجانس بين (النبأ) وبين العلم به بعد حين، يشكل بُعداً جديداً من أبعاد التجانس أو الترابط العضوي في النص، فهو أشار إلى أنّ المنحرفين (معرضون عن النبأ العظيم) ﴿**قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون**﴾. وها هو في آخر آية من السورة الكريمة، يعرض لنا المقطع نتائج الأمراض المذكورة، بقوله: ﴿**ولتعلمنّ نبأه بعد حين**﴾، أي: في اليوم الآخر.

إذن، أمكننا ملاحظة مختلف الأبعاد الفنية التي ربطت بين ختام السورة وبين موضوعاتها في البداية والوسط، مما يكشف مثل هذا الترابط بين أقسام السورة الكريمة، عن مدى الإحكام الهندسي فيها، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *



سورة الزمر

لقد استهلّت هذه السورة الكريمة بهذا النحو:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق، فاعبُدِ الله مُخلصاً له الدين﴾.

إن عبارة **﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾** تظل هي المحور الفكري الذي سيربط بين أجزاء السورة الكريمة، أنه (التمهيد) الذي يرهص بموضوعات النص ومدىٰ التركيز عليها... إنه (أي التمهيد) ما دام قد أشار إلى نزول الكتاب بالحق ـ وهي إشارة عامة تتكرر في النصوص القرآنية كثيراً ـ حينئذٍ فإنّ التركيز على أحد وجوه «الحق» هو الذي سوف يجعل «خصوصيةً» لهذا المفهوم، متمثلة في عبارة أو مفهوم «اعبد الله مخلصاً له الدين»، إذن، لنتجه إلى وسط السورة لنرىٰ مدىٰ علاقتها بـ (البداية) المذكورة...

ونقف مع:

القسم الأول: القسم الأول من السورة، جاء ليفصّل الإجمال الذي طرحه «التمهيد» وها هو يطرح هذا المفهوم ذاته، بادئاً بهذا النحو:

﴿ألا لله الدِّين الخالص، والذين اتَّخذوا من دونه أولياء ما نعبُدُهُم إلاّ ليقربونا إلى الله زُلفى، إنَّ الله يحكُم بينهُم في ما هم فيه يختلِفُون، إنَّ الله لا يهدي مَن هو كاذبٌ كفّارٌ، لو أراد الله أن يتّخذ ولداً لاصطفىٰ مما يخلقُ ما يشاء سُبحانه هو الله الواحد القهّار﴾.

لقد طرح النصُ مفهوم «الدين الخالص» هنا، ليربطه بما يضاده من سلوك المشركين الذي يخلط بين ما هو (دين) ـ وهو وجود الله تعالى وبين ما هو غير دين ـ وهو الشرك المتمثل في العبارة التي أجراها النص على لسان

المنحرفين ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء، ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفىٰ**﴾. فالملاحظ هنا، أنّ النص قد طرح ما يضاد الدين الخالص حينما نقل لنا تصورات الذين يتخذون من دون الله أولياء قائلين بأنهم يتقربون إلى الله تعالى زلفى بعبادتهم الأوثان أو مطلق السلوك المشرك... إذن، جاء القسم الأول من السورة مفصّلاً لمفهوم (فاعبد الله مخلصاً له الدين) حيث أوضح أولاً بأن الدين الخالص لله تعالى، وأوضح ثانياً بأن هناك نماذج يضادّون هذه المقولة وهم الذين لم يجعلوا الدين الخالص لله تعالى بل شابوا سلوكهم باتخاذ غير الله تعالى ولياً لهم ليقربوهم إلى الله تعالى... ويلاحظ أيضاً، أن النص قدّم هنا أحد النماذج المشركة وهم الذين زعموا بأنّ لله تعالى أولاداً، حيث ردّهم الله تعالى بقوله تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولداً... إلخ).

كما يلاحظ أن النص لوّح بالجزاء الأخروي لأولئك الذين اتخذوا من دونه أولياء... حيث أن مفهومات، الدين الخالص وما يضاده «الشرك» ثم ما يترتب علىٰ ذلك من الجزاء، ستظل موضوعات تلقي بانعكاساتها على الأقسام اللاحقة من السورة: حسب سياقات جديدة ترد فيها الموضوعات السابقة كما سنرىٰ.

القسم(٢): لقد جاء القسم الأول من السورة (مُنمياً) عضوياً لمفهوم (فاعبد الله مخلصاً له الدين) كما لحظنا... وأما القسم الجديد من السورة فيتناول ظاهرة الإبداع الكوني (السماء، الأرض، الليل، النهار، الشمس، القمر، الإنسان، الأنعام) مع ملاحظة أن النص ركز على بعض الحقائق العلمية المتصلة بخلق (الجنين) (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً بعد خلق في ظلمات ثلاث) معقباً على هذه الظواهر التي تشمل الإنسان والحيوان والجماد بقوله تعالى: ﴿**ذلكم الله ربكم له الملك لا اله إلاّ هو فأنّى تصرفون**﴾. ومن الواضح أن هذا التعقيب هو ردّ علىٰ ظاهرة من يتخذون من دون الله ولياً، و بذلك يكون

النص ـ من حيث العمارة الفنية ـ قد أحكم بناؤه وفق هذا الترابط العضوي بين مقدمته ووسطه. . . ونتابع الوسط، فنجد أن النص يطرح موضوعات جديدة متنوعة مثل: الكفران أو الشكر لنعم الله تعالى، عدم تحمل الإنسان وزر غيره، توجّه الإنسان إلى الله تعالى عند الشدائد ثم إشراكه غيره عند انقشاعها، عدم المساواة بين من هو قانت آناء الليل. . . الخ. مضافاً إلىٰ كون هذه الموضوعات تتخللها الإشارة إلى اليوم الآخر وجزاءاته، فيما قلنا أنها انعكاسات لما طرحته مقدمة السورة وقسمها الأول. . . ولسنا بحاجة إلى التذكير بأنّ جمالية النص الأدبي تتمثل ـ في جملة ما تتمثل به من حيث العمارة الفنية لموضوعاته ـ في طرح الموضوعات المتنوعة التي تستهدف توصيلها: مع ربطها بطبيعة الحال بهيكل النص العام، حيث نجد أن هذه الموضوعات طرحت في سياق نعم الله تعالى وكونها تعبيراً عن مفهوم ﴿**لا إله إلاّ الله**﴾ مقابل مفهوم (الشرك)، مفهوم ﴿**اعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ مقابل من اتخذوا أولياء من دون الله تعالى.

القسم (٣): ونواجه القسم الجديد من النص وقد استهل بقوله تعالى: ﴿**قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم، للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قل إني أُمِرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأُمرت لأن أكون أول المسلمين. . . إلخ**﴾. واضح، أن هذا القسم قد ارتبط عضوياً بمقدمة السورة ﴿**فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ حيث أجرىٰ النص هذا المفهوم بنفس العبارة علىٰ لسان النبيّ(ص) مطالباً إياه بأنّ يقول ﴿**أُمِرتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ حيث أن استقلال هذا القسم من جانب يتمثل في كونه قد تميّز عمارياً بصياغة (قل) فيما ورد أولاً بقوله تعالى:

﴿**قل: يا عباد. . . .** ﴾ ثانياً، بقوله تعالى:

(**قل: إني امرتُ. . . .** ﴾ثالثاً، بقوله تعالى:

﴿**قل: إني أخاف. . .**﴾ رابعاً، قوله تعالى:

﴿**قل: الله أعبد مخلصاً له ديني**﴾ خامساً، قوله تعالى:

﴿**قل: إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. . .**﴾.

ثم ارتبط ـ من جانبٍ آخر ـ بعمارة السورة الكريمة، حيث أن مفهوم ﴿**فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ قد تكرر هنا مرتين، إحداهما قوله تعالى ﴿**قل إني أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين**﴾، والأخرىٰ قوله تعالى ﴿**قل: الله أعبد مخلصاً له ديني**﴾. . . ويعنينا من هذا التكرار لمفهوم العبادة المخلصة، أنه يظل تعبيراً واضحاً عن الإحكام الهندسي للسورة من حيث تواشج جزئياتها بعضها مع الآخر، أنه يطرح عبارة ﴿**اعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ ليربطها بصياغة مماثلة هي عبارة (أُمرت) حيث كررها مرتين، احداهما: بعبادة الله مخلصاً له الدين، والأخرىٰ بأن يكون أول المسلمين. . . ثم جاء التكرار لعبادة الله مخلصاً له الدين في سياق آخر هو: عبادة المشركين، فيما قابل بين عبادة المسلم الذي يعبد الله مخلصاً له الدين، وبين عبادة من يعبدون من دون الله ﴿**فاعبدوا ما شئتم. . .**﴾ لنقرأ العبارة من جديد:

﴿**قل: الله اعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه**﴾.

إذنْ أمكننا أن نلحظ هذه الخطوط الهندسية التي وشحت عمارة هذا القسم من السورة، حيث أن عبارة:

﴿**اعبد الله مخلصاً له الدين**﴾.

تكررت:

﴿**اعبد الله مخلصاً له الدين**﴾.

وحيث أن عبارة:

﴿**اعبد الله مخلصاً له الدين**﴾.

تكررت:

﴿أمرت لأن أكون﴾.

وحيث أن عبارة:

﴿قل: يا عباد...﴾

﴿قل: إني أمرت أن أعبد...﴾

﴿قل: إني أخاف...﴾

﴿قل: الله أعبد...﴾

﴿قل: إن الخاسرين...﴾.

هذه العبارة الأخيرة التي شكلت واحداً من الخطوط الهندسية المكونة لعمارة هذا القسم من السورة من جانب، ورابطةً إياه بالأقسام السابقة من السورة من جانب ثان، تظل ـ من جانبٍ ثالث ـ رابطاً عضوياً بين هذا القسم من السورة، وبين القسم اللاحق لها، إلاّ وهو:

القسم (٤): حيث تمحض هذا القسم لموضوع خاص هو: رسم الجزاءات الأخروية: إيجاباً وسلباً، حيث يظل هذا الموضوع (الجزاءات الأخروية) واحداً من محاور السورة التي تشكّل بناءها الهندسي ـ كما كررنا ـ مضافاً إلى أن الربط العضوي الذي تم بينه وبين القسم الثالث يتمثل أولاً في عبارة (قل) كما أشرنا، ويتمثل ثانياً في عملية الربط بين من يعبد الله مخلصاً له الدين وبين من يعبدون من دون الله، حيث أوضح النص بأنهم خسروا أنفسهم بمثل هذا السلوك، متجهاً من خلال ذلك إلى رسم الخسائر التي تلحق هؤلاء مقابل الفوز الذي يظفر به المؤمنون... وبهذا النمط من الربط العضوي يستقل هذا القسم ـ كما قلنا ـ بطرح الجزاءات الأخروية، على هذا النحو:

﴿قل: إن الخاسرين الذين خسِروا أنفُسَهم وأهليهِم يوم القيامة... لكن الذين اتَّقوا ربَّهم لهم غرفٌ، من فوقِها غُرفٌ مبنيةٌ تجري من تحتها الأنهار، وعد الله، لا يُخلفُ الله الميعاد﴾.

القسم (٥): لحظنا مدىٰ الترابط العضوي بين الأقسام الأربعة من السورة الكريمة، . . .

ونتجه إلى القسم الجديد من السورة، فنجده يبدأ بقوله تعالى: **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيعَ في الأرض، ثم يُخرج به زرْعاً مختلفاً ألوانُه، ثم يَهيجُ فتراه مصفراً، ثم يجعله حُطاماً، إن في ذلك لذكرىٰ لأولي الألباب أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربِّه. فويل للقاسية قلوبهُم من ذِكر الله أولئك في ضلالٍ مُبين. . . . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمُون﴾**.

هذا القسم من السورة يتسم بالإشارة إلى الجزاء الأخروي الذي شكل أحد محاور السورة من جانب، واستقل به القسم الرابع من السورة من جانب آخر. . . وسنرىٰ (من زاوية البناء الهندسي للنص) أن الأقسام اللاحقة من السورة، بما في ذلك ختام السورة سوف ترسم هندسياً من خلال جعل الجزاءات الأخروية (محطة توقف) لكل مقطع أو قسم من السورة. . .

أما الموضوعات الجديدة المطروحة هنا فتتمثل في الإشارة إلى: أن الله تعالى أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج ثم يصفر ثم يتلاشىٰ، مشيراً إلى أن في ذلك لذكرىٰ لأولى الألباب. . .

واضح، أن النص ذكر هنا ظاهرة إبداعية جديدة (بعد أن ذكر جملة من الظواهر الإبداعية في قسم سابق من السورة). . . إلاّ أن الطرح هنا جاء في سياق الذكرىٰ لأولي الألباب، وهناك جاء في سياق الشكر لنعم الله وتوحيده. . . ومما طرح في هذا القسم: الإشارة إلى أنّ من شرح الله صدره للإسلام ليس كالقاسية قلوبهم، وأن الله تعالى نزّل الكتاب متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون الله، وأن قلوبهم وجلودهم تلين إلىٰ ذكر الله

تعالى... ثم ربط بين هذه الموضوعات وبين الجزاء الأخروي الذي ختم به القسم ﴿**أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب...**﴾، حيث نلحظ ـ مضافاً إلى عملية الربط بين الموضوعات وبين المحطة التي تقف عندها ختام القسم ـ تجانساً بين طرحه للموضوعات وللجزاءات، فالموضوع الذي طرحه في أول القسم هو ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام...**﴾ حيث وازن بين نمطين: المؤمن والفاسق... وحيث اعتمد عنصراً فنياً هو (حذف) «المشبه به» ﴿**أفمن شرح الله صدرهُ للإسلام فهو علىٰ نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم**﴾ فالذي يتوقعه المتلقّي هنا أن يجد (المشبه به) وهو ما يقابل مَن شرح الله صدره للإسلام مذكوراً، إلاّ أن النص حذفه تاركاً للمتلقي أن يستلخص ذلك بنفسه تحقيقاً للمتعة الجمالية، كذلك نجده عند الجزاء قد سلك نفس المنحىٰ فقال تعالى: ﴿**أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة، وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون**﴾ حيث حذف (المشبه به) وهو مثلاً (كمن هو لا يتقي بوجهه إلخ)، إذن، أمكننا ملاحظة جملة من أبعاد التجانس والترابط العضوي بين أجزاء المقطع من جانب وبينه وبين هيكل السورة من جانب آخر:

القسم (٦): ونتجه إلىٰ القسم الجديد من السورة، فنجده يبدأ بقوله تعالى:

﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مَثل لعلّهم يتذكرون... ليكفّرالله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون**﴾... وقد ختم هذا القسم ـ كما هو طابع الأقسام السابقة ـ من النص بعنصر صوري وُظف لإنارة هدف النص... وأما الموضوعات المطروحة فيه، فتتمثل في الإشارة إلى قوله تعالى (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون و رجلاً سلماً لرجل، هل يستويان...؟).

هذا المثل يظل متجانساً عضوياً مع المقطع السابق الذي عرض النص فيه

تشبيهاً بين المؤمن والكافر من حيث انشراح الصدر ومن حيث قساوة القلب، ومن حيث الاتقاء لسوء العذاب ومن حيث عدم ذلك، فهنا يقدم النص أيضاً تشبيهاً بينهما من حيث الرجل الذي يخدم واحداً والرجل الذي يخدم جماعة مختلفة الأهواء حيث تستتبع الخدمة الأخيرة مخاصمة ومشاكسة فيما بينهم... وهذا المثل يظل مرتبطاً بمفهوم التوحيد والشرك كما هو واضح، وبذلك يمثّل امتداداً عضوياً لمقدمة السورة التي طرحت مفهومي، العبادة الخالصة والشرك. ونتجه إلى قسم جديد من السورة، يبدأ بقوله تعالى:

﴿أليس الله بكافٍ عبده، ويخوفونك بالذين من دونه، ... من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾.

وهكذا يُختتم هذا القسم أيضاً بالإشارة إلىٰ المصير الأخروي الذي يشكّل محطة توقف بين أجزاء السورة في رحلتها التي طرحت من خلالها في هذا القسم الجديد من السورة مفهوماً هو (إن الله كافٍ عبده) مقابل من يخوفون الآخرين بالأوثان **﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾**. وهكذا نجد في هذا القسم (مقارنة) أيضاً بين الموحدين والمشركين، فيما يظل هيكل السورة الكريمة يحوم حوله في الأقسام جميعاً كما لحظنا... وقد فصّل النص حديثه عن هذا الجانب حينما تساءل قائلاً: **﴿أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر - هل هنّ كاشفات ضره، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾**، لا نغفل أن عنصر «التقابل» هنا بين (الضر) والرحمة، والتقابل بين (كاشفات) و(ممسكات)، يظل عنصراً (يتجانس) مع عناصر (التقابل) بين التوحيد والشرك، بين انشراح الصدر والقساوة، بين اتقاء العذاب وعدمه، بين رجل سلم لرجل ورجل فيه شركاء متشاكسون... إلخ.

إذن لا نزال نواجه في كل قسم من أقسام السورة، ترابطاً عضوياً بين أجزاء القسم نفسه وبينه وبين الأقسام الأخرى، علىٰ نحو ما أوضحناه.

ونتجه إلى قسم جديد من السورة:

﴿إنّا أنزلنا عليك الكتاب للنّاس بالحق، فمن اهتدىٰ فلنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها وما أنت عليهم بوكيل... وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ هذا المقطع الذي خُتم ـ كما هو طابع جميع الأقسام التي وقفنا عندها ـ بالإشارة إلى الجزاء الأخروي الذي يشكل رابطاً بين أجزاء السورة الكريمة، طرح جملة موضوعات، منها: ظاهرة النوم والموت، الشفاعة، نفور المشركين من ذكر الله تعالى وسرورهم بذكر الأوثان، ثم اختتامه بالإشارة إلىٰ الجزاء الأخروي، حيث تتم الإشارة في كل مقطع وفق سياق خاص، وحيث جاء السياق هذا من خلال عدم جدوى ما يفتدي به المنحرفون من سوء العذاب الذي ينتظرهم **﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب . . .﴾**.

ونتجه إلى المقطع الجديد:

﴿فإذا مسّ الإنسان ضرّ دعانا، ثم إذا خوّلناهُ نعمة منا، قال: إنما اوتيته علىٰ علم بل هي فتنة. . . وينجّي الله الذين اتّقوا بمفازتهم لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون﴾.

الملاحظ هنا، أن النص طرح مفهوم «أن الإنسان يدعو ربه إذا مسّه الضر، ولكنه يتناسىٰ الله تعالى بعد كشفه، هذا المفهوم قد طرحه النص في القسم الثاني من السورة، وطرحه هنا في القسم الحالي الذي نتحدث عنه. . . لكن ينبغي أن نشير ـ ونحن نتحدث عن عمارة السورة القرآنية ـ أن ما طرح في القسم السابق إنما جاء في سياق الحديث عن أن المشركين يدعون الله تعالى إذا مسّهم الضر، ويشركون به إذا انقشع عنهم. . . أما هنا، فإنّ الطرح جاء في سياق آخر هو: أن المنحرف يدعو الله تعالى إذا مسّه الضر، فإذا انقشع عنه قال أنه بتدبيري أو استحقاقي. . . وهذا يعني أن الطرح المتكرر جاء في سياق

مختلف، مما يضفي مثل هذا النمط من التكرار المختلف: مزيداً من التماسك العضوي بين أجزاء النص. . .

وإذا تركنا (بداية) القسم واتجهنا إلى (نهايته) وجدناه يُختتم كما هو طابع جميع أقسام السورة ـ بالحديث عن الجزاء، الأخروي، ولكن أيضاً في سياق جديد يختلف عن السياقات التي وردت به خواتيم الأقسام السابقة من السورة، فالسياق هنا يتمثل في قول المنحرف يوم القيامة (يا حسرتى علىٰ ما فرطت. . .) وقوله: ﴿**لو أن الله هداني. . .**﴾، فضلاً عن السياق الجديد الذي يرتبط بالجزاء الإيجابي للمؤمنين حيث تحدث عن نجاتهم وعدم امساسهم السوء وعدم الحزن، وهي سياقات جديدة كما هو واضح.

القسم الأخير: ونواجه مقطعاً جديداً هو:

﴿**الله خالق كل شيء، وهو علىٰ كل شيء وكيل له مقاليد، السماوات والأرض، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون و لقد أُوحِيَ إليك و إلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبُد وكن من الشاكرين**﴾.

هذا المقطع يشكل نقطة لقاءٍ بين مقدمة السورة ووسطها ونهايتها، فنهاية السورة ـ كما سنرى ـ تمحض للحديث عن الجزاء الأخروي: ولكن في سياق جديد ومفصّل. . . وأما (المقدمة) فقد طرحت مفهوم (العبادة المخلصة للدين)، وأما الوسط «فقد فصّل الحديث عن هذا الجانب وربطه بما يضاده وهو السلوك المشرك مقابل السلوك الخالص أو الموحد، وجاء الحديث عن اليوم الآخر وجزاءاته محطات توقف تربط بين نتائج كلٍ من السلوكين: الموحّد والمشرك. . . وفي ضوء هذه الحقائق المتصلة ببناء وعمارة السورة الكريمة من حيث ترابط موضوعاتها، نجد أن مقدمة القسم الذي نتحدث عنه قد طرحت هذين السلوكين: العبادة لله تعالى وما يقابلها من الشرك. انظر إلى

عبارة ﴿**أفغير الله تأمروني أعبد؟**﴾ وانظر عبارة ﴿**لئن اشركت ليحبطن عملك**﴾ وانظر عبارة ﴿**بل الله: فاعبد**﴾ ثم قارن بين هذه العبارات وبين ما تضمنته مقدمة السورة ووسطها من العبارات المطالبة بعبادة الله مخلصاً له الدين، والعبارات المشيرة إلى من يعبدون من دون الله تعالى، تجد إن ختام السورة يلخص أو يقدم نتائج ما طُرح في الأقسام السابقة، ومن ثم يُختم بالحديث عن الجزاء الأخروي الذي يشكل محطة توقف تربط بين أقسام السورة الكريمة لكن في تفصيل جديد مُهد له بأنّ هؤلاء المنحرفين ﴿**ما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالىٰ عما يشركون**﴾ فهنا ربط النص بين سلوك المشركين الذي يمثل أحد المحاور الفكرية للسورة كما هو واضح، وبين كونهم ما قدروا الله حق قدره: مع أن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة... وهكذا وصل النصُ بين المشركين وبين القيامة أو اليوم الآخر. ثم يحدّثنا بعد ذلك عن اليوم الآخر ﴿**ونفخ في الصور... وسيق الذين كفروا إلىٰ جهنم زمراً... وسيق الذين اتَّقوا ربَّهم إلى الجنة زمراً... وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾.

هنا، ينبغي أن نكرر الإشارة إلى (عنصر التقابل) الذي لحظناه محتشداً في الأقسام السابقة من السورة قد اعتمده النص في ختام السورة ليجانس بين أجزائها، حتىٰ أنك لتجد أبعاداً متعددة من التقابل بين العبارات تصل إلىٰ (١٤) عبارة علىٰ هذا النحو الذي بدأه أولاً بالحديث عن الكافرين، ثم بالحديث عن المتّقين.

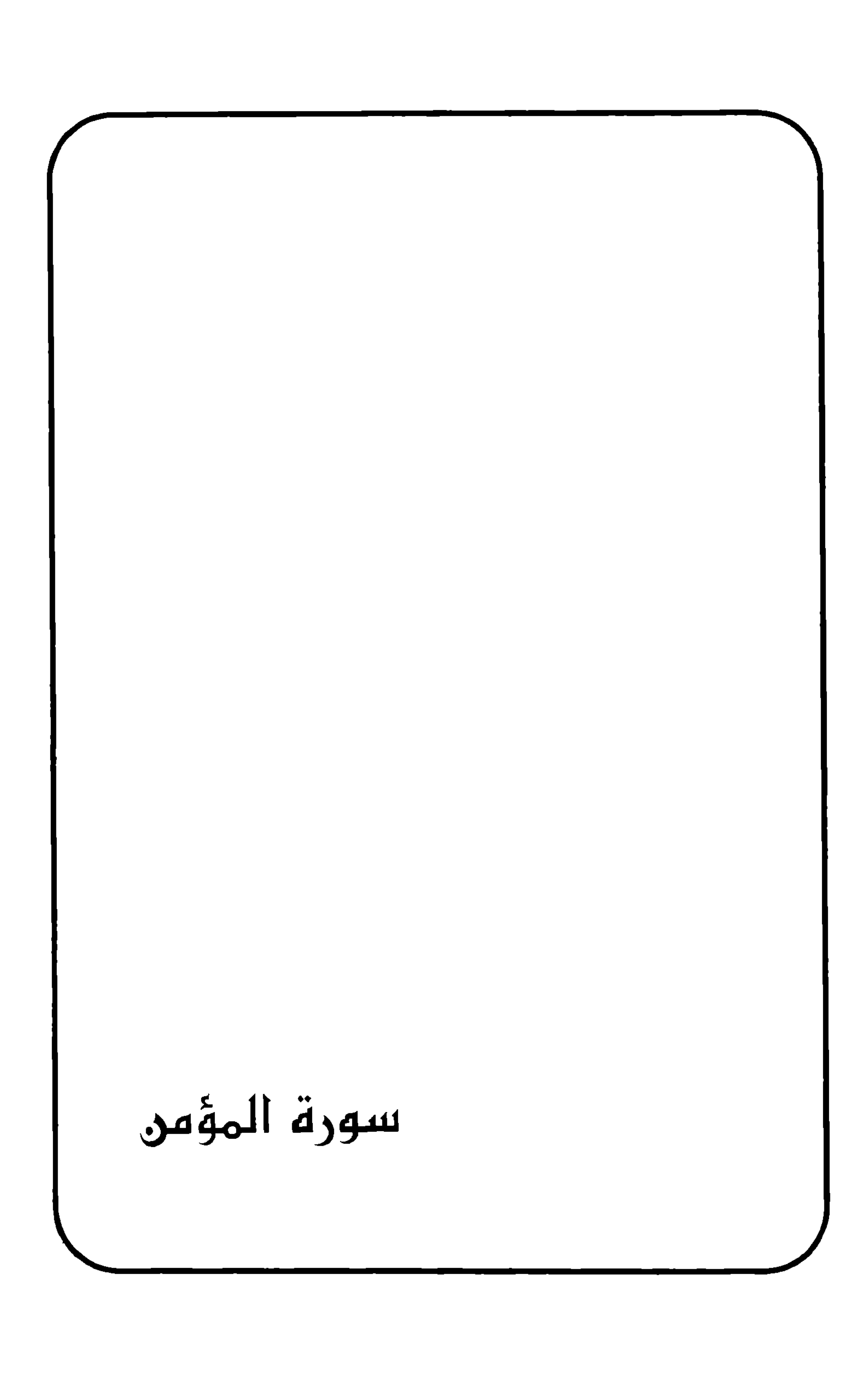
وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتىٰ إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها...

وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتىٰ إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها...

فإذا استبدلنا عبارتي «الكافرين» و (جهنم) مقابل (المتّقين) و (الجنة) وجدنا أن هناك (١٢) عبارة كتبت بصياغة واحدة وهي عبارات (وسيق) (الذين) (كفروا)(الى)(جهنم)(زمراً)(حتىٰ)(إذا)(فتحت)(أبوابها)(وقال)(لهم)(خزنتها)...

أي هذا النوع من (التقابل) من جانب بين الجنة والنار، بين الكافرين والمتقين)، ثم هذا النوع من (التجانس) بين العبارات البالغة (١٢) كلمة، من جانب آخر، مضافاً إلىٰ ما لحظناه من (التجانسات) الأخرىٰ في الأقسام السابقة، فضلاً عما لحظناه من ترابط الجزئيات في كل قسم، ثم الترابط بين الأقسام جميعاً، كل أولئك يشكل بناءً عمارياً مدهشاً سواء أكان ذلك من زاوية العنصر اللفظي الذي أسهم في جمالية البناء، أوالعنصر الفكري أو الموضوعي الذي انتظم السورة الكريمة، بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.





سورة المؤمن

قال تعالى: ﴿**بسم‌الله الرحمٰن الرحيم حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلاّ هو إليه المصير ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد كذّبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمّت كل أمةٍ برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فأخذتُهم فكيف كان عقاب وكذلك حقّت كلمة ربّك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار**﴾.

بهذا المقطع تبدأ سورة «المؤمن» من حيث تتضمن أولاً التأكيد علىٰ أن الله تعالى رحيم شديد في الآن ذاته، وتتضمّن ثانياً طرحاً لسلوك المنحرفين فيما وصفهم بالمجادلة والمخاصمة. . . و تتضمّن ثالثاً التذكير بالأقوام البائدة التي حاربت رسُلها فعاقبهم الله تعالى دنيوياً، ثم التلويح بالعذاب الآخروي بالنسبة إلى المنحرفين. . .

هذه هي الموضوعات المطروحة في بداية السورة، وسنرىٰ انعكاس تلكم الموضوعات علىٰ وسط السورة وخاتمتها. . . وهذا ما ينبغي الآن متابعته من خلال (وسط) السورة الذي يبدأ بقوله تعالى: ﴿**الذين يحملون العرش ومَن حوله، يسبّحون بحمد ربِّهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا: ربّنا وسعت كلّ شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقِهم عذاب الجحيم. . .**﴾ هذه الآية وما بعدها تظل انعكاساً ـ كما قلنا ـ لبداية السورة التي أكّدت أن الله تعالى: ﴿**غافر الذنب وقابل التوب**﴾. وها هو مفهوم الغفران وقبول التوبة يتردد الآن على لسان الملائكة الذين يستغفرون للذين آمنوا ويهتفون داعين (ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً، فاغفر للذين تابوا). . . لنقارن بين عبارة ﴿**فاغفر للذين تابوا**﴾ حيث تضمنت «الغفران» و«التوبة»،

وبين العبارة التي وردت في مقدمة السورة ﴿**غافر الذنب وقابل التوب**﴾ حيث تضمنت الغفران والتوبة» أيضاً. . . وهكذا تتلاحم (بداية) السورة مع (وسطها) من حيث توحّد الموضوع (الغفران والتوبة) بهذا النمط من النماء العضوي للمفهوم المذكور. . . حيث تحول مفهوم الغفران وقبول التوبة» ـ وهما من صفات الله تعالى ـ إلىٰ مطالبة الملائكة أو إلىٰ دعاء للملائكة الذين «يستغفرون للمؤمنين» ويدعون الله تعالى إلى أن «يغفر» للذين «تابوا» واتبعوا سبيل الله تعالى. . . والأمر نفسه بالنسبة إلى قوله تعالى ﴿ **حقّت كلمت ربك علىٰ الذين كفروا أنهم أصحاب النار**﴾، إلىٰ دعاء الملائكة الذين طالبوا بأنّ يقي الله تعالى المؤمنين عذاب النار «وقهم عذاب الجحيم». . . وهذا النماء العضوي قد تم من خلال طرحٍ لقضية جديدة أبرزها المقطع الذي نتحدث عنه، وهي: أن إحدىٰ وظائف الملائكة الذين يحملون العرش ويسبّحون بحمدالله تعالى. هي: إنهم «يستغفرون» للمؤمنين أيضاً. . . أي: أنّ النص قدّم لنا حقيقةً ترتبط بمهمّة الملائكة من حيث كونهم يمارسون وظائف متنوعة بالشكل الذي لحظناه.

وهذا كله بالنسبة إلى صلة الملائكة بالمؤمنين. . . أما العلاقة أو الصلة بالكافرين، فقد أوضحها المقطع أيضاً، حينما نَقَل لنا المقطعُ: الحوار الآتي بين الملائكة والمنحرفين في يوم القيامة «أن الذين كفروا ينادون: لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم، إذ تُدعون إلىٰ الإيمان فتكفرون». . . أي أنّ الملائكة عندما يشاهدون الكافرين ـ وقد دخلوا النار ـ يقولون لهم «لمقتُ الله أكبر من مقتكم أنفسكم» أي: أن بغض الله لأعمالكم في الدنيا أكبر من بغضكم أنفسكم اليوم ـ اليوم الآخر، وهذا التشبيه الذي نطلق عليه «التشبيه المتفاوت» أي التشبيه الذي يكون أحد طرفيه متفاوتاً بالنسبة إلىٰ الطرف الآخر وهو: كون البغض من قبل الله «أشدّ» من بغض الإنسان لنفسه. هذا التشبيه قد جسد أيضاً نماءً عضوياً للموضوع الذي طُرح في «مقدمة» السورة التي لوحت بالعذاب

للكافرين، ثم جاء الوسط» ـ وسطُ السورة، ليبلور لنا هذا الموضوع من خلال نقله لما يحدث في اليوم الآخر من مواقف: تتمثل في مخاطبة الملائكة للمنحرفين بالكلام المذكور. . . ويُلاحظ ـ مضافاً لما تقدم ـ أن هذا التشبيه الفنيّ قد تضمن جملة من أسرار الفن، فهو بالإضافة إلى كونه قد حدّد لنا وظيفة الملائكة في الدنيا، قد حدّدها في الآخرة أيضاً، كما أن الحوار ـ من جانب آخر ـ قد اختزل لنا المواقف من خلال كشفه لمايحدث في اليوم الآخر، فبدلاً من أن يقول لنا النص مباشرة أنّ الكافرين سوف يمقتون أنفسهم في اليوم الآخر، ذكر لنا أن الملائكة يقولون لهم: «لمقتالله أكبر من مقتكم أنفسكم»، وبهذا استكشفنا بأن المنحرفين سوف يمقتون أنفسهم في اليوم الآخر. . .

وبهذا النمط من الصياغة الفنية ندرك مدىٰ جمالية النص، فضلاً عن إدراكنا لمدىٰ إحكامه الهندسي: من حيث ترابط وتلاحم وتنامي موضوعات النص وعلاقة بعضها بالآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿قالوا ربَّنا أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذُنُوبنا، فهل إلى خروجٍ من سبيل، ذلكم بأنّه إذا دُعي الله وحده كفرتُم، وإن يُشرك به تؤمنُوا، فالحكم لله العلي الكبير، هو الذي يُريكُم آياته وينزِّل لكم من السماء رزقاً، وما يتذكر إلاّ من يُنيب فادعوا الله مُخلصين له الدين ولو كرِه الكافرون، رفيع الدرجات ذو العرش، يلقي الرُّوح من أمره على من يشاء من عِباده ليُنذر يوم التَّلاقِ، يوم هم بارزون لا يَخفى على الله مِنهُم شيءٌ، لمن المُلكُ اليوم؟ لله الواحد القهّار. . .﴾**.

هذا المقطع وما بعده من سورة المؤمن امتداد لمقطع سابق يتحدث عن بيئة اليوم الآخر وما ينتظر الكافرين فيه من جزاء، وما يكتنفهم من مواقف وأهوال، حيث تضمنت مقدمة السورة تلويحاً بالعذاب الذي ينتظرهم، وحيث

جاء وسط السورة ليفصل الإجمال الذي طبع التلويح المذكور... وها هو المقطع الذي نتحدث عنه يقدم تفصيلات جديدة من مواقف اليوم الآخر...

الموقف الجديد هو قول الكافرين يومئذٍ: ﴿**ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين، فاعترفنا بذنوبنا، فهل إلى خروج من سبيل؟**﴾ النص يعتمد عنصر «الحوار» في عرض الموقف حتى يكسبه حيوية أشد ما دمنا ندرك بأنّ السماح للشخصية بأن تتحدث بلسانها يظل أكثر تعبيراً عن الحقيقة، بخاصة أنّه يتضمن اعترافات تدين الكافر بلسانه، فالكفار يومئذٍ يتجهون بالكلام إلى الله تعالى قائلين ﴿**ربنا أمتنا اثنتين**﴾ إنّ مجرد مخاطبتهم الله تعالى ينطوي على سر فني هو اعترافهم بحقيقة الله تعالى فيما أنكروها في دنياهم وفيما كانوا يجادلون في آيات الله تعالى حيث ذكرت المقدمة مجادلة القوم في هذا الميدان ﴿**ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا**﴾. وها هم يقرون الآن بحقيقة الله تعالى ويخاطبونه ﴿**ربنا أمتنا اثنتين**﴾. ترى: ما هو المقصود من هذه العبارة؟ قد تكون الإماتة الأولى في الدنيا، والإماتة الثانية في القبر... كذلك قولهم ﴿**وأحييتنا اثنتين**﴾ حيث يكون الاحياء الأول: محاسبتهم في القبر، والاحياء الآخر محاسبتهم في الحشر، وقد تكون الإماتة الأولى مرحلة ما قبل الميلاد، والأخرى: الموت، والاحياء الأول: الحياة، والاحياء الآخر: الانبعاث... وقد يكون المقصود شيئاً آخر... إلاّ أنّه في الحالات جميعاً: ثمة حقائق تتصل بالحياة والموت، نرجّح أن تكون هذه الحالات مقرونة بشدائد تحمل الكافرين على مثل هذا التساؤل المرير ﴿**فاعترفنا بذنوبنا، فهل إلى خروج من سبيل؟**﴾. لذلك، نحتمل أن يكون المقصود من عبارة الإماتة والاحياء مرتين هو التفسير الأول الذي يقترن بمواجهة الشدائد، بصفة أنّ الموت في الدنيا من الممكن أن يكون عقاباً قد استأصل الكافرين مثل الصيحة والريح وسواهما مما تعرضت له الأمم البائدة: بخاصة أنّ مقدمة السورة ذكّرت الكافرين بعذاب الاستئصال في الأمم السابقة... كذلك الموت الآخر في القبر حيث يتعقبه

عذاب البرزخ ـ كما هو واضح، كذلك: فإنّ الاحياء مرتين تقترن بالعذاب ضرورة لأنّه تمهيد للموت الذي يتعقبه العذاب، أي أنّ كلاً من الموت والحياة يتسبّب في مواجهتهم للعذاب حيث أنّ أحدهما لا ينفصل عن الآخر: كما هو بيّن.

والمهم، أنّ تقرير الكفار للحقيقة المذكورة قد واكبه أولاً: اعتراف بذنوبهم ﴿**فاعترفنا بذنوبنا**﴾ ثم واكبه تساؤل ﴿**فهل إلى خروج من سبيل؟**﴾ هذا التساؤل المشفوع بمرارة: يعني أنّ أولئك المجادلين في آيات الله قد رسمهم النص الآن (معترفين) بعد أن كانوا (مجادلين). لذلك، ينبغي ألا نغفل عن هذا الملمح الفني في صياغة الموقف، حيث جاء عنصر (التقابل) بين الموقفين: موقف (المجادلة) في الدنيا وموقف (التسليم) الذي هو ضد (المجادلة) تماماً في الآخر، جاء هذا (التقابل) بينهما: معبراً عن حقيقة فنية هي: ربط الموضوعات بعضها مع الآخر، ربط مقدمة السورة (وهي تتحدث عن مجادلة القوم) في الدنيا ربطها بوسط السورة التي تنقل لنا موقف الكافر (وهو يعترف بذنوبه) في اليوم الآخر. لكن: خارجاً عن هذه الحقيقة الفنية المرتبطة بعمارة السورة الكريمة، نجد أنّ المقطع يقوم بعملية ربط أخرى بين بيئة الدنيا والآخرة حينما يجيبهم على تساؤلهم السابق، قائلاً: ﴿**ذلكم بأنّه إذا دُعي الله وحده كفرتم، وإن يشرك به تؤمنوا**﴾. هذا الربط بين قولهم ﴿**ربنا أمتّنا اثنتين إلخ...**﴾ ثم الجواب القائل: بأنّه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به آمنتم، يظل تعبيراً فنياً مدهشاً عن مدى: العلاقة العضوية بين مقدمة السورة ووسطها، فالمشركون الذين جادلوا في آيات الله تعالى في الدنيا: كانوا قد اشركوا مع الله تعالى قوى أخرى، ولكنهم الآن يخاطبون الله تعالى وحده ويعترفون بذنبهم... وقد ذكرهم الله تعالى بهذه الحقيقة وأجابهم بأنّه لا سبيل إلى العودة ثانية: ما دمتم قد أشركتم بالله تعالى في الدنيا.

إذن، جاء هذا الجواب وصلاً فنياً بين بيئة الدنيا والآخرة من جانب، فضلاً عن كونه وصلاً فنياً بين مقدمة السورة ووسطها، مما يكشف ذلك عن مدىٰ الأحكام الهندسي للنص.

* * *

قال تعالى: **﴿يوم هم بارزون لا يخفىٰ على الله منهم شيء، لِمَن المُلك اليوم؟ لله الواحد القهّار اليوم تُجزىٰ كل نفسٍ بما كسبت، لا ظلم اليوم، إنّ الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدىٰ الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحقّ، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء، إنّ الله هو السميع البصير﴾**.

لا تزال المقاطع ـ في سورة المؤمن ـ تتوالىٰ واحداً بعد الآخر لتحدّثنا عن أهوال اليوم الآخر وما ينتظر المشركين من الجزاء... وفي هذا المقطع الذي نتحدث عنه الآن، يُبرز النصّ جملة من الحقائق والمواقف، منها: بروز الناس علىٰ حقائقهم بحيث لا يخفىٰ منها شيء، ومنها، أنّ الظالمين لا سبيل إلىٰ إنقاذهم حيث لا حميم ولا شفيع يطاع، ومنها، إنّ الأهوال تتكثّف بحيث تبلغ القلوبُ الحناجر... ومنها لفت النظر إلى ظاهرة تملأ القلوب رهبةً ألا وهي هذا التساؤل الرهيب القائل: لمن الملك اليوم؟ ثم الجواب عنه: لله الواحد القهّار... إلاّ أنّ هذا التساؤل قد تمّ من خلال ما نسمّيه بـ «الحوار الفرضي» أي: أنّ الموقف الرهيب الذي يواجهه الإنسان في عرصات القيامة حيث تبرز الخلائق جميعاً، يفرض عليهم أن يتساءلوا: لمن الملك اليوم؟ حيث كانوا يحيون بمعزل عن الله تعالى، هؤلاء يكتشفون الآن حقيقة الكون، يكتشفون بألاّ حقيقة إلاّ الله.. يكتشفون بأنّ الملك هو لله تعالى وليس لأيّة قوةٍ كونية.. وهذا ما تجسّده عبارة **﴿لله الواحد القهّار﴾**، وعبارة «القهّار» تتجانس

هنا مع الحقيقة التي تساءلوا عنها «لمن الملك اليوم؟» حيث أنّ الله تعالى «يقهر» الناس علىٰ الانصياع لحقيقته تعالى. . .

ثم لنتّجه إلى الصورة الفنية التي تنتسب إلى «الاستعارة» أو «الرمز» وهي الصورة التي تقول ﴿**إذ القلوب لدى الحناجر، كاظمين**﴾. . .

هذه الصورة الرمزية أو الاستعارية تتجانس بدورها مع عنصر «الحوار الفرضيّ» الذي أشار إلى أنّ الملك لله الواحد القهّار. . وها هي حقيقة الله تعالى «تقهر» المنحرفين ـ ليس في صعيد التسليم بحقيقة الله تعالى فحسب ـ بل تقتادهم إلى أن يحيوا الأهوال بكل شدائدها، حيث رسمها النص من خلال الرمز والاستعارة المشار إليها، أي عبارة «إذ القلوب لدىٰ الحناجر، كاظمين». . . إنّ الهول أو الخوف عندما يبلغ درجته القصوىٰ، حينئذٍ فإنّ القلب يكاد ينخلع من مكانه ليصعد إلىٰ آخر نقطة من البدن، إلا وهي الحنجرة لأنّ ما بعدها ـ وهو فضاء الفم ـ يشكّل بوّابة الخروج، لذلك لا صورة فنية أشدّ واقعية من هذه الصورة التي تقول «إذ القلوب لدىٰ الحناجر». . . ثم ماذا؟ لنتأمل التعقيب علىٰ أنّ هؤلاء المنحرفين ـ وقد بلغت قلوبهم الحناجر ـ قد أمسكوا علىٰ ما في قلوبهم وهو معنى (الكظم) أي: بلغوا قمة الشدة من حيث الهموم أو الكروب التي يتحسّسونها فيما لا يملكون أيّ خيارٍ حيالها.

❊ ❊ ❊

قال تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا موسىٰ بآياتنا وسلطان مبين إلىٰ فرعون وهامان وقارون، فقالوا ساحر كذّاب فلما جاءهم بالحقّ من عندنا قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيُوا نساءهم، وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال وقال فرعون: ذروني أقتل موسىٰ وليدع ربَّه إنّي أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرضِ الفساد وقال موسىٰ: إنّي عذتُ بربّي وربكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب. . .**﴾.

بهذا المقطع يبدأ العنصر القصصي في سورة المؤمن التي تضمنت مقدمتها جملة من الموضوعات، منها: ﴿**ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا فلا يغررك تقلّبهم في البلاد**﴾... وها هو العنصر القصصي يجسّد هذه الحقيقة المتمثلة في كون الكفار يجادلون في آيات الله، وأنّ تقلّبهم في البلاد ينبغي ألاّ نغرّر به حيث ينتظرهم العقاب في نهاية الأمر، هذا يعني أنّ العنصر القصصي جاء توظيفاً فنياً لبلورة الفكرة المذكورة مما يكشف ذلك عن مدىٰ متانة الهيكل العماري للسورة الكريمة... إذن، لِنتابع العنصر القصصي وملاحظة هذا الجانب الهندسي من النص...

نحن الآن أمام قصتين متداخلتين أو أمام قصة ذات فصلين، الفصل الأول منها يتحدث عن موسىٰ عليه السلام وعلاقته بفرعون وهامان وقارون، وأما الفصل الآخر منها فيتحدث عن شخصية أخرىٰ هي «مؤمن آل فرعون» حيث تكمّل هذه الشخصية الدور التبليغي الذي اضطلع به موسىٰ واختفىٰ من القصة ليسمح لمؤمن آل فرعون بالتحرّك...

أمّا موسىٰ عليه السلام، فإنّ دوره في القصة جاء مختزلاً يقتصر علىٰ كونه قد أُرسِل إلى فرعون وهامان وقارون، وأنّ هؤلاء الثلاثة قد اتّهموه بالسحر والكذب، واقترحوا بأن يقتلوا أبناء الّذين كانوا معه وأن يستحيوا نساءَهم، ثمّ اقترح فرعون بأن يقتل موسىٰ، زاعماً أنّه يخاف منه أن يبدّل دِينهم المنحرف، حيث أجابهم قائلاً: «انّي عذتُ بربّي وربّكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب»... هذا هو ملخص القصة الأولىٰ أو القصة في فصلها الأول المتعلّق بشخصية موسىٰ عليه‌السلام...

أما الفصل الآخر من القصة فيبدأ ـ كما قلنا ـ مع شخصية جديدة هي مؤمن آل فرعون، حيث عرضَها النصّ علىٰ هذا الشكل.

﴿**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلاً أن يقول**

ربّي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم، وان يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يكُ صادقاً يُصبكم بعض الذي يعِدُكم، انّ الله لا يهدي مَن هو مسرف كذاب. . . إلخ﴾.

ثم تستمر القصة في عرض المواقف لكل من «مؤمن آل فرعون» وفرعون نفسه: علىٰ النحو الذي سنتحدّث عنه لاحقاً «إن شاء الله. .» بيد أنّ الأهم في القصة هو: دور هذه الشخصية الجديدة من حيث علاقتها بشخصية موسىٰ عليه السلام أو لِنَقُلْ من حيث كونها مكملة للدور الذي قام به موسىٰ في عملية التبليغ لرسالة السماء: مادامت هذه النقطة ترتبط بعمارة النص التي تتكفّل هذه الدراسات بتناولها. . . لكن قبل ذلك ينبغي أن نشير أيضاً إلىٰ جانب آخر من عمارة النص حيث قلنا بأنّ مقدّمة السورة ركّزت علىٰ ظاهرة (الجدل) الذي يطبع الكافرين. . وهذا ما نلحظه بوضوح في قسمَي، أو فصلَي القصة، ففي فصلها الأول نجد نوعاً من «المجادلة» المضحكة التي صدرت عن فرعون حينما زعم للتخلّص من الشدّة. . . بأنّه يخاف من موسىٰ أن يبدّل دين قومه المنحرفين. . قوم فرعون، وزعم أيضاً أنه يخاف من موسىٰ أن يُظهر في الأرض الفساد. . ولا شيء بطبيعة الحال ـ ادّعىٰ إلى السخرية من هذا الكلام الصادر من فرعون فيما يتهم موسىٰ بالفساد في الأرض مع أنّ فرعون هو أكبر مفسد في الأرض كما هو معلوم، أنه يقوم بعملية «إسقاط» لعيوبه، فيخلعها على الآخرين حتىٰ يسدّ النقص الذي يجده، في داخله. . . والمهم، أن عملية «الإسقاط» المذكورة تفصح عن عنصر «المجادلة» التي قلنا أنّ مقدمة السورة قد خلعتها على الكفار المعاصرين لرسالة الإسلام، وجاءت بهذه القصة لتُنميَ وتبلور مفهوم «المجادلة» عند الكفار البائدين من أمثال فرعون وهامان وقارون.

بيد أننا ـ كما سنرىٰ لاحقاً ـ أنّ عنصر «المجادلة» عند فرعون يبلغ قمّته

في الفصل الثاني من القصة حيث هَذِيَ بعبارات واقتراحات تمثّل الذروة من السخرية والاشفاق علىٰ شخصيته المجادلة بالباطل... لذلك نجد أنّ موسىٰ عليه السلام - في القسم الأول من القصة يعقّب علىٰ مجادلات فرعون بقوله «إنّي عذتُ بربّي وربّكم من كلّ متكبّر... » حيث أن «التكبّر» يعني: المكابرة في القول - في إحدىٰ دلالاته، وهذا التأكيد من قِبَل موسىٰ عليه السلام علىٰ تكبّر فرعون: حيث حُكِمَ به الفصلُ أو القسمُ الأول من القصة، يكشف لنا عن مدىٰ ترابط النص: من حيث صلة مقدمته بالعنصر القصصي، ومن ثمَّ يكشف عن إحكام عمارة السورة الكريمة، بالنحو الذي أوضحناه.

قال تعالى: ﴿**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم، وان يكُ كاذباً... إلخ**﴾.

هذا هو القسم الثاني أو القصة الثانية التي تداخلت مع قصة موسىٰ عليه السلام، حيث انتهت قصة موسىٰ بتهديد فرعون إيّاه بالقتل... وبتهديد فرعونُ موسىٰ بالقتل، يختفي موسىٰ من القصة ليسمح لبطل جديد هو: «مؤمن آل فرعون» بالدخول إلى القصة.. وما دمنا نعنىٰ بعمارة النص القرآني الكريم من حيث صلة أقسامه بعضها مع الآخر، حينئذٍ يجدرُ بنا أن نتبيّن هيكل الأحداث في هذه القصة، حيث جاء البطل الجديد ليربط بين القسم الأول من القصة وبين قسمها الثاني... القسم الأول منها - كما قلنا - انتهىٰ بتهديد فرعون لموسىٰ بالقتل... البطل الجديد جاء ليقول لهؤلاء الذين همّوا بقتل موسىٰ: ﴿**أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله..**؟ إلخ﴾ ومعنى هذا أن دخول البطل إلى القصة جاء مكمّلاً للقصة الأولىٰ، أنه جاء لينقذ موسىٰ(ع) من القتل... أنّ القتل ليس بالأمر الهيّن... وإذا كانت «التقيّة» تفرض في بعض الظروف أن يكتم الشخصُ إيمانه، فإن تطوّر الأحداث إلى مرحلة محاولة القتل، تفرض علىٰ الآخرين المتكتمين في إيمانهم أن يبرزوا إلىٰ الميدان، وهذا ما صنعه «مؤمن آل فرعون»، حيث وصفه النص بقوله: «وقال رجل

مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه»... هذا الوصف القائل بأنّه «يكتم إيمانه» ليس وصفاً عادياً بل إنّه يرتبط بعمارة القصة ارتباطاً فنياً وثيقاً... أن كون الرجل «يكتم إيمانه» يعني «من وجهة النظر الفنية» أنّ القصة تريد أن تقول لنا: إنّ حكم فرعون قد اقترن بالإرهاب الشديد بحيث أنّ المؤمن يضطر أن يكتم إيمانه وإلاّ تعرض للفتك به... طبيعياً لا مانع من أن يستشهد المؤمن بل انّ الجهاد هو الفريضة عليه، بيد أن ملاحظة الظرف المناسب ينبغي أن يأخذ بنظر الاعتبار حتى لا يمضي الاستشهاد هدراً... لذلك عندما حانت الفرصة المناسبة وهي أن موسىٰ عليه السلام قد هُدِّدَ بالقتل: حينئذٍ فإنّ إظهار الإيمان أو بالأحرىٰ: حينئذٍ فإنّ تدخّل المؤمنين للحيلولة دون القتل يؤخذ مشروعيته تماماً، وهذا ما صنعه مؤمن آل فرعون حينما تدخل في هذا الموقف وجاء لينقذ موسىٰ من القتل... لكن، ما هي الوسيلة أو الأسلوب الذي اتّبعه هذا البطل للحيلولة من قتل موسىٰ... أنّ البطل الجديد ـ كما تقول النصوص المفسّرة ـ كان أحد كبار موظفي الدولة ومن أقارب فرعون بالذات... وبحكم موقعه النَسَبي والسياسي كان بمقدوره أن يتدخّل في الموقف، ولكنه تدخّل خاص لا يقترن بالعنف أو بإبراز الهوية الفكرية بنحوها السافر، بل أن البطل سلك منحىً سياسياً خاصاً هو: اصطناعه الموقف المحايد حيث قال لهم: كيف تقتلون رجلاً يقول ربّي الله؛ وقال لهم: إن كان كاذباً فهو يتحمّل مسؤولية كذبه، وإن كان صادقاً يُصبْكم ما يعدُكم، وقال لهم أيضاً: ﴿**يا قوم لكم المُلك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟**﴾ أي أنّ البطل راعىٰ عقليّة الفراعنة و تشبّثهم بالحكم فخوّفهم من زوال مُلكهم في حالة عدم إيمانهم برسالة موسىٰ... وهذا النمط من التعامل يجسّد قمة الإدراك السياسي للموقف... لقد جاءهم بلغة الناصح الحريص علىٰ بقاء ملكهم حتى لكأنه واحد منهم.

وهذا الأسلوب ادعىٰ إلى «الاقناع» كما هو واضح، كما أنّه لا يستدعي

ردود فعلٍ انتقامية من قبل فرعون وبطانته بقدر ما يفضي إلىٰ تصعيد العناد والمخاصمة منهم، وبالفعل، نجد أنّ مؤمن آل فرعون ما أن ينتهي من كلامه المذكور حتى يتصدّىٰ فرعون قائلاً: (قال فرعون: ما أريكم إلاّ ما أرىٰ، وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد) أي أنّ فرعون أصرّ على رأيه الضالّ السابق وهو أنّه علىٰ حق وأنّ موسىٰ جاء ليبدّل دينهم... لكنّ البطل لم يسكت حيال هذا الموقف بل صعّد لغته وهدّدهم بنزول العقاب عليهم علىٰ نحو ما نَزَل بالأمم السابقة.. لكن قبل أن نتابع أسلوبه الجديد هذا ينبغي أن نُذكّر بأنّ كلام كل من مؤمن آل فرعون وفرعون ذاته قد تمّ من خلال عرض قصصي يختلف عن العرض القصصي الذي نلحظه في نصوص أخرىٰ، أنّه عرض، يتم من خلال مناخ «مسرحي» يفترض وجود قاعة رسمية للاجتماع يحضرها كبار المسؤولين، بحيث يتناسب هذا العرض المسرحي مع طبيعة الموقف المتصل بأخذ «قرار» في قتل موسىٰ،.. وهذا النمط من العرض، يكشف عن مدىٰ الأحكام الهندسي للنص: من حيث تجانس مواقفه.

* * *

قال تعالى: ﴿**وقال الذي آمن: يا قوم إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلماً للعباد ويا قوم: إنّي أخاف عليكم يوم التّناد يوم تُولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد ولقد جاءكم يوسف من قبلُ بالبيّنات فما زلتم في شكٍّ مما جاءكم به، حتىٰ إذا هلك، قلتم: لن يبعث الله من بعده رسولاً، كذلك يُضلّ الله مَن هو مُسرف مرتاب، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كَبُر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله علىٰ كل قلب متكبّر جبار...**﴾.

هذا هو القسم الثاني من وقائع الجلسة التي عقدها فرعون مع كبار

المسؤولين عندما همّ بقتل موسىٰ وعندما جاء «مؤمن آل فرعون» ليتدخّل في الموقف. . . لقد كان القسم الأول من الجلسة يتضمن تساؤل مؤمن آل فرعون عن كيفية محاولة قتل موسىٰ مع أنّه لم يصنع شيئاً سوىٰ قوله: «ربّي الله»، حيث ذكرهم موسىٰ بأنّ ملك آل فرعون مهدّد بالزوال في حالة رفضهم لدعوة موسىٰ. . . ولكن فرعون تجاهل كلام البطل، فأصرّ على رأيه. . . ثم استأنف البطل كلامه مخاطباً أعضاء الجلسة: بأنّه يخاف عليهم مصيراً يشبه الأقوام البائدة حيث نزل العقاب الدنيوي عليهم، مثلما ذكّرهم بأنّه يخاف عليهم مصيراً أخروياً لا عاصم لهم فيه من الله تعالى، كما ذكّرهم بتجربة سابقة تتصل بيوسف عليه السلام حيث بعثه الله تعالى إلى الأقباط (مجتمع الفراعنة) حيث شكّكوا به، منهياً كلامه بالقول ﴿**الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله علىٰ كل قلب متكبّر جبار**﴾. . . هذه الآية الأخيرة التي خُتِمَ بها كلام البطل، تحتلّ موقعاً هندسياً له خطورته في عمارة القصة من جانب وعمارة السورة الكريمة من جانب آخر.

فمن حيث علاقتها بهيكل القصة، سبق أن لحظنا أنّ موسىٰ عليه السلام (في القسم الأول من القصة) علّق علىٰ كلام فرعون وجماعته قائلاً: ﴿**انّي عذتُ بربّي وربكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب**﴾. وها هو البطل الجديد «مؤمن آل فرعن» يقدّم مثل هذا التعليق أيضاً (كذلك يطبع الله علىٰ كل قلبِ متكبر جبّار». . . وسواء أكان هذا الكلام تعليقاً من البطل أو كان تعليقاً من النص القرآني، ففي الحالين، نجد تجانساً بين التعليق علىٰ موقف فرعون من موسىٰ حينما زعم بأنّه يخاف من موسىٰ «أن يبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد»، وحيث علّق موسىٰ على موقفه بأنّه «متكبّر»، وبين التعليق علىٰ موقف فرعون من البطل الجديد «مؤمن آل فرعون» حيث أصرّ على موقفه السابق قائلاً: «ما أريكم إلاّ ما أرىٰ وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد»، وحيث جاء الرد بأنّ الله تعالى «يطبع علىٰ كل قلب متكبّر جبار) حيث جاءت سمة «المتكبر»

طابعاً مشتركاً قد تكرّر في الموقفين المختلفين ـ كما لحظنا، ومثل هذا التجانس بين الموقفين يفصح عن متانة الإحكام الهندسي للقصة بقسميها الأول والثاني (قصة موسىٰ وقصة مؤمن آل فرعون)...

وهذا ما يتصل بعمارة العنصر القصصي.

وأمّا ما يتصل بعمارة السورة الكريمة، فإنّ مقدّمتها قد ذكرت: «ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا» وهو أمر يرتبط بموقف الكفار المعاصرين لرسالة الإسلام، كما ذكرت المقدمة بأنّ هؤلاء المنحرفين ﴿**كذّبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم... إلخ**﴾. هذان الموضوعان المذكوران في مقدمة السورة بالنسبة إلى الكفار المعاصرين لرسالة الإسلام، قد تكرّرا الآن بالنسبة إلى فرعون وقومه... فمؤمن آل فرعون ذكّر جماعته قائلاً: ﴿**انّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح... إلخ**﴾ ومقدّمة السورة ذكرت نفس هذا المضمون «كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب»... فالتذكير بالأحزاب وبقوم نوح جاء عنصراً مشتركاً يتكرّر بالنسبة إلىٰ مجتمع محمد(ص) ومجتمع موسىٰ عليه السلام... كذلك، نجد أن العنصر المشترك المرتبط بسمة «الجدال» التي تطبع سلوك المنحرفين، قد تكرّر بالنسبة إلىٰ قوم محمد(ص) وموسىٰ عليه السلام، فمقدّمة السورة ذكرت بأنّه ﴿**ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا**﴾ وكذلك جاءت هذه السمة ذاتها لتطبع سلوك فرعون وقومه حيث تقول قصة مؤمن آل فرعون ﴿**الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان... إلخ**﴾ فالمجادلة في آيات الله تعالى هي: العنصر الفنّي المشترك بين المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام وبين المنحرفين المعاصرين لموسىٰ...

إذن، أمكننا أن نلحظ جوانب متنوّعة من التجانس بين مقدّمة السورة أو مجتمع الانحراف زمن نزول الرسالة وبين وسط السورة أو عنصرها القصصي الذي عرض لنا مجتمع الانحراف زمن فرعون، مما تكشف مثل هذه الجوانب

المتنوّعة من التجانس: عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص، من حيث علاقة أجزائه: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**وقال فرعون: يا هامان ابنِ لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب، أسباب السماوات فاطّلعَ إلى إلٰه موسىٰ، وإنّي لأظنّه كاذباً، وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله، وصُدّ عن السبيل، وما كيدُ فرعون إلاّ في تَباب وقال الذي آمن: يا قوم اتّبعونِ أهدِكُم سبيل الرشاد... إلخ**﴾.

هذا المقطع من قصة آل فرعون امتدادٌ لمقاطع سابقة تنقل لنا وقائع الجلسة التي عقدها فرعون وكبار المسؤولين للنظر في قضية موسىٰ عليه السلام ومحاولة قتله، حيث كان «مؤمن آل فرعون» إحدىٰ الشخصيات التي تدخّلت لإنقاذ موسىٰ، وقدّمت نصائح للقوم حتىٰ يؤمنوا بموسىٰ... ويبدو أنّ متكلّمي الجلسة الذين أبرزهم النصّ ينحصرون في مؤمن آل فرعون وفرعون... وقد تحدّث كلٌّ واحدٍ منهما بكلام يتناسب وهويّته الفكرية.. فمؤمن آل فرعون يحث الحاضرين علىٰ أن يؤمنوا بموسىٰ... وفرعون يركب رأسه فيصرّ علىٰ قتل موسىٰ، وها هو فرعون ـ بعد أن يُحذّر «المؤمن» قومه من العقاب الذي نزل بالأمم السابقة ـ نجده يُقاطع كلام «المؤمن» ليقدّم اقتراحاً سخيفاً هو: طلبه من هامان وزيره أن يبني له صرحاً يطلع من خلاله إلى إلٰه موسىٰ... هذا الاقتراح يكشف عن أنّ فرعون يستهدف السخرية من موسىٰ بطبيعة الحال، كما أنّه ـ من حيث الموقع الهندسي للقصة ـ يدلّنا علىٰ أنّ فرعون يريد أن يتجاهل كلام «المؤمن»، فبدلاً من أن يرفض كلام المؤمن، يلجأ إلىٰ السخرية ليردّ بها علىٰ كلامه.

طبيعياً، أنّ القصة لم تقل لنا أنّ كلاً من «فرعون» و«المؤمن» قد دخلا في مناقشة مباشرة بينهما، بل تركتنا ـ نحن القرّاء ـ نستنتج ذلك، يدلنا علىٰ

ذلك، انّ كلام أحدهما لا علاقة له بكلام الآخر، فبينما يتحدّث المؤمن عن الأمم البائدة ويذكّر قومه بمصائرهم، نجد فرعون يقترح علىٰ هامان بناء الصرح، حيث لا علاقة لهذا الاقتراح بكلام المؤمن، كما أنّ المؤمن ـ بعد أن ينهي فرعون كلامه السخيف ـ يواصل تحذيره فيقول ﴿**يا قوم: اتّبعون أهدِكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع.. إلخ**﴾، حيث لا علاقة لهذا الكلام باقتراح فرعون السخيف... وهذا يعني (من الزاوية الفنيّة) أننا أمام نص «مسرحي» وليس أمام نصٍ (قصصي) لأنّ القصة تنقل ـ في الغالب ـ المحاولات التي يتبادلها الطرفان، أما «المسرحية» فإنّها تنقل «الوقائع» كما حدثت بالفعل، والذي حدث ـ كما نحتمل فنياً لأنّ منطق الحوار المذكور يفرض مثل هذا الاحتمال ـ أنّ الجلسة التي عقدها فرعون والمسؤولون لم يكن ينتظمها منهج محدّد في الكلام، وإنّما سُمِح للمؤمن بأن يتحدّث في هذه الجلسة، ولكن فرعون ـ وهو المتكبّر المعاند ـ لم يَرقه كلام المؤمن، لذلك لم يردّ عليه منطقياً بل أراد التعريض به أو بالأحرىٰ أراد مقاطعته أولاً والسخرية منه ثانياً، لذلك قاطعه بذلك الاقتراح السخيف بأن... كذلك المؤمن، لم يأبه بكلام فرعون ولم يردّه مباشرة، بل واصل كلامه قائلاً: (يا قوم: اتّبعون أهدِكم سبيل الرشاد... إلخ).

إذن، من هذا النمط من الحوار، نستكشف بأنّ النّص يستهدف (مسرحيّة) الموقف، ونَقْلَه بواقعيّته، لذلك لم يُصَغِ الحوار بنحوه المنطقي القائم علىٰ تناول الكلام المرتبط بعضه بالآخر، بل نقله وكأن كل كلام لا علاقة له بالآخر، وهذا يعني أنّ كلاً من المؤمن وفرعون قد تجاهل الآخر وأراد أن يحقق هدفه الخاص، كلّ ما في الأمر أنّ كلام فرعون كان مضطرباً وسخيفاً وهازلاً يتناسب مع شخصيته المضطربة، بينما كان كلام المؤمن جادّاً منطقياً حريصاً علىٰ إنقاذ قومه من الضلال...

والآن، إذا أدركنا هذه الأسرار الفنية المرتبطة بمسرحة القصة، يجدر بنا أن نتابع وقائعها الأخيرة التي خُتِمت بكلام «مؤمن آل فرعون»: حيث أنهى نصائحه قائلاً: ﴿**فستذكرون ما أقول لكم، وأفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد**﴾ ثم عقّب النص علىٰ هذا الكلام ﴿**فوقاه الله سيّئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب**﴾. هذا يعني أنّ القصة أو المسرحية قد خُتمت بالإشارة إلى أن قوم فرعون لم يهتدوا، وأنّ العقاب قد نزل بهم في النهاية، وأنّ الله تعالى قد أنقذ مؤمن آل فرعون منهم... لكن ما يعنينا من ذلك كلّه هو: ارتباط هذا التعليق ـ مضافاً إلى كلام المؤمن «فستذكرون ما أقول لكم» ـ بعمارة القصة، حيث سنرىٰ لاحقاً أنّ قول المؤمن «فستذكرون ما أقول لكم» سوف ينعكس علىٰ مستقبل فرعون وقومه، حيث سيتذكّرون فعلاً ما قال لهم المؤمن...

وهذا النمط من الانعكاس يكشف عن تقنية خاصة في صياغة القصة، حيث (يتنامىٰ) هذا الموضوع «كلامُ المؤمن» ليتحوّل إلىٰ حقيقة تُستكشف فيما بعد ـ كما سنرىٰ، مما يُفصح مثل هذا «النّمو» عن مدىٰ الإحكام الهندسي لعمارة القصة، من حيث تلاحم أجزائها، ومن حيث علاقتها بالسورة أيضاً، ومن حيث علاقة الموضوعات جميعاً: بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿**النار يُعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب وإذ يتحاجّون في النار، فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنّا كنّا لكم تبعاً فهل أنتم مُغنون عنّا نصيباً من النار قال الذين استكبروا: إنّا كلّ فيها، إنّ الله قد حَكَم بين العباد وقال الّذين في النار لخزنة جهنّم: إدعوا ربكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب قالوا: أوَلَم تكُ تأتيكم رُسُلكم بالبيّنات؟ قالوا: بلىٰ، قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال...**﴾.

هذا المقطع من سورة المؤمن امتداد لما سبقه من المقاطع التي تضمّنت عنصراً قصصياً هو: قصة «مؤمن آل فرعون»، حيث جاء في نهاية القصة أنّ بطلها حذّر قومه المنحرفين (وهم آل فرعون) قائلاً: ﴿**فستذكرون ما أقول لكم**﴾ كما أنّ القصة نفسها عقّبت علىٰ هؤلاء القوم الذين أصرّوا علىٰ سلوكهم المنحرف قائلةً ﴿**وحاق بآل فرعون سوء العذاب**﴾... وها هو المقطع الذي نتحدّث عنه، تنعكس عليه هاتان العبارتان الواردتان في نهاية القصة، وهما عبارتا ﴿**فستذكرون ما أقول لكم**﴾ و﴿**حاق بآل فرعون سوءُ العذاب**﴾، حيث يتكفّل المقطع بإنماء وتطوير المحتوىٰ لتلك العبارتين، فيما حدّثنا المقطع أولاً عن (سوء العذاب) الذي ينتظرهم في بيئة البرزخ وفي بيئة اليوم الآخر... ففي صعيد العذاب الدنيوي لحقهم عقاب الغرق في البحر، وفي صعيد العذاب الأخروي لحقهم عقابا البرزخ والنار... أما البرزخ فقد أوضحته العبارة الآتية: (النار يُعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً) وأمّا النار فتوضحه العبارة التي أعقبتها ﴿**ويوم تقوم الساعة: ادخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾.. إنّ عبارة ﴿**العذاب**﴾ تتكرّر هنا لتشكّل رابطاً عضوياً بين ختام القصة التي قالت: ﴿**وحاق بآل فرعون سوء العذاب**﴾ وبين هذا المقطع الجديد الذي يقول: ﴿**ويوم تقوم الساعة: ادخلوا آل فرعون أشدّ العذاب**﴾.

وفي سياق هذا الربط بين المقطع السابق والجديد، ينقل لنا المقطع جانباً من مواقف المنحرفين في اليوم الآخر، وهي: المحاجحات التي تصدر عنهم ـ وهم في النار. فهناك الضعفاء الذين انصاعوا لضلالات أسيادهم في الدنيا، وهناك الأسياد أو المستكبرون الذين خدعوا أتباعهم، حيث تجرى في النار مناقشات ومعاتبات فيما بينهم، فالضعفاء يخاطبون المستكبرين ﴿**إنّا كنّا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنّا نصيباً من النار؟**﴾ ويجيبهم المستكبرون: ﴿**إنّا كلّ فيها، إنّ الله قد حكم بين العباد**﴾. ومن الواضح، أنّ هذه المناقشة أو

التلاوم بين الأسياد والاتباع: لها صلتها بقصة مؤمن آل فرعون الذي نصح قومه وحذّرهم من عاقبة النار التي تنتظرهم، كما أنّ لها صلتها بمستكبري آل فرعون وبضعفائهم الذين انصاعوا لهم. وأخيراً: لها صلتها بعبارة مؤمن آل فرعون القائلة ﴿**فستذكرون ما أقول لكم**﴾ حيث جاء في نهاية المقطع هذا الحوار بين خزنة جهنم وبين الكافرين.

﴿**وقال الذين في النار لخزنة جهنّم: ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب**﴾... ولكن خزنة جهنّم يُذكّرونهم قائلين: ﴿**أوَلم تَكُ تأتيكم رسلكم بالبيّنات، قالوا: بلىٰ، قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال**﴾...

وهكذا نجد، أنّ المقطع ربَطَ بين سلوك المنحرفين في الدنيا وبين موقفهم في النار، حيث طلب المنحرفون من خزنة جهنّم أن يخفّف الله عنهم يوماً من العذاب، وحيث أجابهم الخزنة: ألم تأتكم رسلكم بالبيّنات؟ فيقرّ المنحرفون بذلك ويقولون: بلىٰ، وعندئذٍ تسخر منهم الخزنة ويقولون لهم هازئين (ادعوا) أيها المنحرفون، ثم يعقّب المقطع علىٰ ذلك قائلاً: ﴿**وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال**﴾. ومن الواضح، أنّ عنصر (السخرية) هنا يذكّرنا بسخرية فرعون من مؤمن آل فرعون الذي دعاه إلىٰ الإيمان، ولكن فرعون سخر منه وقال لوزيره هامان: ابنِ لي صرحاً لعلّي اطّلع إلى إلٰه موسىٰ... فهذه السخرية من فرعون قابلتها سخرية من خزنة جهنّم حينما قالوا لهم: ادعوا ربّكم ليخفّف عنكم يوماً من العذاب، فيما جاء التعقيب بعد ذلك: بأنه ﴿**وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال**﴾...

إذن، نحن الآن أمام أكثر من عنصر فنّي من أبعاد التجانس بين المقاطع السابقة واللاحقة من السورة، حيث لحظنا مدىٰ الارتباط فيما بينها في أكثر من جانب، فيما يكشف منك هذا الارتباط عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص: من حيث علاقة أجزائه: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

قال تعالى: ﴿**إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة، ولهم سوء الدار ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدىً وذكرى لأولي الألباب فاصبر إنّ وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربّك بالعشي والإبكار**﴾.

هذا المقطع من سورة المؤمن يطرح موضوعاً جديداً في سباق حديثه عن الجزاء الأخروي الذي ينتظر المنحرفين، حيث كان المقطع الأسبق يتحدّث عن مصائر آل فرعون في النار حيث حذرهم كل من موسى ومؤمن آل فرعون من المصير المذكور... لذلك نجد أنّ هذا المقطع يربط بين مصير المنحرفين من جانب وبين وظيفة التبليغ لرسالات الله ووظيفة موسى عليه السلام ومن ثم وظيفة النبي(ص) من جانب آخر، وبهذا الربط يتم إحكام العمارة الهندسية للسورة من حيث علاقة أجزائها: بعضها مع الآخر... المقطع يقول: بأنّ الله تعالى ينصر رسله والذين آمنوا، كما يطالب المبلغين لرسالات الله بالصبر وبالاستغفار والتسبيح بحمد الله تعالى... كما يذكر بموسى عليه السلام حيث كانت قصته مع آل فرعون تشير إلى هزيمة المنحرفين دنيوياً فضلاً عن العقاب الآخروي، وحيث يعود المقطع الآن ليذكر القارىء بأنّ المنحرفين ينتظرهم سوء الدار ﴿**يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة، ولهم سوء الدار**﴾ إنّ عبارة ﴿**سوء الدار**﴾ تتكرر هنا لتنسجم مع عبارات مماثلة جاءت في مواقع سابقة من قصة فرعون مثل قوله: ﴿**وحاق بآل فرعون سوء العذاب**﴾ وسواها من العبارات المشددة على درجة العذاب مثل ﴿**ادخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾. وهذا التشدد في تحديد درجة العذاب يظلّ منسجماً مع (فكرة السورة) التي لحظنا مقدمتها تقول ﴿**ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا**﴾ حيث أنّ (عنصر المجادلة) في آيات الله، يشكل أحد أعصبة السورة التي تدور

الموضوعات عليها... وبالفعل، نجد أنّ هذا المقطع الذي نتحدث عنه، سرعان ما يربط بين (فكرة المجادلة) وبين الموضوع الجديد الذي يقول ﴿**إنّ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، إن في صورهم إلاّ كبر...**﴾ لنلاحظ كيف أنّ فرعون قد وسمه موسى عليه السلام بسمة (التكبر).

وهنا نلحظ أنّ هذا المقطع يشير إلى سمة (الكبر) من خلال ربطها بفكرة السورة التي تحوم على مفهوم (المجادلة) في آيات الله، حيث يتسم المجادلون في آيات الله تعالى بسمة الكبر، سواء أكانوا من أمثال فرعون (من الأمم السالفة) أو من أمثال المعاصرين لرسالة الإسلام فيما تحدث النص عنهم في أول السورة ﴿**ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا**﴾ وتحدث عنهم الآن ﴿**إنّ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، إن في صدورهم إلاّ كبر...**﴾... وهكذا نجد أنّ التكرار لمفهوم (المجادلة) جاء الآن في سياق جديد هو (الكبر)، بينما كان في أول السورة وارداً في سياق الكفر... لكن بما أنّ فرعون قد تميز بكل من سمتي الكفر والتكبر، حينئذٍ جاء الحديث عن الكبر ـ في هذا المقطع ـ متناسباً مع الموقف، حيث جاء نتيجة طبيعية لموضوعات السورة التي تحدّثت عن مطلق الكافرين، ثم عن كافر متميز مثل فرعون، ثم: نتائج الكفر والتكبر: بالشكل الذي لحظناه، مما يكشف ذلك كله عن مدى تشابك وتلاحم الخطوط المختلفة فيما بينها، وحيث يجمع بينها خط فكري مشترك هو (المجادلة في آيات الله تعالى)... ولنتابع المقطع: ﴿**لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون وما يستوي الأعمى والبصير، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون**﴾ هنا، يطرح المقطع خلق السماوات والأرض، ويقدم تشبيهاً بينه وبين خلق الإنسان، مشيراً إلى أنّ إبداع الكون أكبر من إبداع الإنسان متوسلاً في هذا التشبيه، بتشبيهين آخرين هما: التشبيه بين الأعمى والبصير، والتشبيه بين الصالح والمسيء، وبما أنّ هذه التشبيهات الثلاثة تنطوي على أسرار فنية

ضخمة ترتبط بهيكل السورة الكريمة، حينئذٍ يجدر بنا أن نقف عندها، لملاحظتها فنياً وعمارياً. . .

هذه التشبيهات الثلاثة تنتسب أولها إلى ما نسميه بـ (التشبيه المتفاوت) أي التشبيه القائم على طرفين أحدهما متفاوت عن الآخر، حيث يتفاوت خلق الكون عن خلق الإنسان. . . كما ينتسب التشبيهان الآخران منها إلى ما نسميه ـ (التشبيه المضاد) أي: التشبيه القائم على طرفين: أحدهما يقف مضاداً للآخر كالأعمى الذي يضاد البصير، والصالح الذي يضاد المسيء، إنّ أمثلة هذه التشبيهات المتمايزة تنطوي على مهمات فنية تتناسب مع طبيعة الموضوع الذي يطرحه المقطع القرآني الكريم، كما تتناسب مع طبيعة الفكرة العامة للسورة: من حيث علاقة أجزائها بعضها الآخر.

❊ ❊ ❊

نواجه ـ في هذا المقطع ـ ثلاثة تشبيهات «واقعية» مقابل «التشبيهات المجازية» التي تستند إلى «الواقع» أيضاً. إنّ ما يميز التشبيهات في القرآن والحديث أنّ ما هو «مجازي» منها يستند إلى واقع حسي أو نفسي أو غيبي بعكس التشبيهات التي تصدر عن البشر العادي حيث تطبع تشبيهات البشر العادي مبالغة أو وهم أو إحالة أو أسطورة ونحو ذلك.

وأما التشبيه غير المجازي، فإنّ القرآن الكريم والحديث يتوفر عليه بنحوه الواقعي الذي يحمل فاعلية خاصة من نحو التشبيهات الثلاثة التي نتحدّث عنها الآن. . . فالتشبيه الأول هو «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» فعبارة أكبر هي أداة التشبيه هنا، وهي أداة التشبيه المتفاوت الذي يعني أنّ الطرف الأول (وهو المشبه) لا يلحظ فيه «التماثل» بينه وبين الطرف الآخر (وهو المشبه به) بل يلحظ التفاوت بينهما، فيكون أحد الطرفين أكثر بروزاً من الآخر: كما لو قلنا: «هذا الرجل أكثر سماحة من البحر»، فتكون

«السماحة» هي وجه الشبه ولكنه في الرجل أكثر منه في البحر، وهكذا بالنسبة للآية الكريمة التي شبهت خلق السماوات والأرض بخلق الناس، ولكنها أبرزت التفاوت في وجه الشبه بينهما فقالت بأنّ خلق السماء والأرض «أكبر» خلق الناس... وأهمية مثل هذا التشبيه الواقعي تتمثل في كون التشبيه، يستهدف إبراز حقيقة ملموسة قد تغيب عن الأذهان، حيث يتكفّل التشبيه بإبراز ذلك، لذلك عقب النص على هذا التشبيه الغائب عن غالبية البشر، فقال: ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ أي: لا يعون بأنّ خلق السماوات والأرض هو أكبر من خلق الناس...

بعد ذلك، يقدم النص تشبيهين اخرين هما: أنّه لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي المؤمن الذي يعمل صالحاً مع المسيء... طبيعياً، أنّ التشبيه بين «الأعمى» و«البصير» ليس تشبيهاً (حقيقياً) بل هو تشبيه: مجازي أو رمزي، حيث يرمز «الأعمى» إلى الرجل الجاهل أو المغفل، ويرمز «البصير» إلى الرجل العالم أو الواعي، وهذا بعكس التشبيه الآخر الذي قارن بين «المؤمن» وبين «المسيء» حيث ينتسب هذا التشبيه إلى ما هو «واقعي»، بصفة أنّ «المؤمن» ـ وهو الطرف الأول من التشبيه: حقيقة واقعية، كذلك، فإنّ الطرف الآخر «وهو المسيء» حقيقة واقعية كما هو واضح... إلاّ أنّ التشبيهين كليهما ينتسبان إلى نمط من التركيب الذي نسميه بـ (التشبيه المضاد)، أي: أنّ طرفي التشبيه لا يقومان على وجه (التماثل) بينهما بل يقومان على التضاد بينهما: كما لو شبهنا بين الطرفين المضادين: البياض والسواد مثلاً... وأهمية «التشبيه المضاد» تتمثل في أنّ الأشياء ـ في كثير من الحالات ـ تعرف بأضدادها، حيث تعرف قيمة البياض من خلال مقارنته بالسواد، وهكذا تعرف قيمة «البصير» من خلال مقارنته بالأعمى، وتعرف قيمة «المؤمن» من خلال مقارنته بالمسيء... وهكذا... والآن، إذا عرفنا هذه المستويات من التشبيهات: التشبيه المتفاوت من جانب ﴿**خلق السماوات والأرض**

أكبر . . .﴾، والتشبيه المضاد من جانب آخر ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء**﴾ ثم: التشبيه المجازي ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير**﴾ ثم التشبيه الواقعي: من جانب ثالث: أمكننا حينئذٍ أن نتبين الأسرار الفنية للتشبيهات الثلاثة بمختلف أقسامها التي أشرنا إليها.

لقد جاءت هذه التشبيهات في سياق (الفكرة) التي تحوم عليها السورة الكريمة، حيث استهلت السورة بالحديث عن الكافرين المعاصرين لرسالة الإسلام، ووصفتهم بسمة خاصة هي «المجادلة في آيات الله»، وها هو المقطع الذي نتحدث عنه: طرح مفهوم «المجادلة في آيات الله» من جديد: بعد أن حدثنا سابقاً عن شخصيات منحرفة مثل فرعون وهامان وقارون، وصفهم أيضاً بسمة «المجادلة في آيات الله» حتى يربط بين أول السورة ووسطها (من حيث العمارة الفنية للنص»، ثم جاء بعنصر «التشبيه» ليوظفه في إنارة مفهوم «المجادلة في آيات الله» فجاءت التشبيهات الثلاثة لتقرر لنا بأنّ المجادلين في آيـات الله هم مثل الأعمى، وأنّهم «مسيئون»، وأنّهم «مغفلون» لا يعون بأنّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، لذلك قارن بينهم وبين البصير «الذي يعي هذه الحقيقة» وقارن بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين «المسيء» الذي يجسد هؤلاء المنحرفين. . .

إذن، أدركنا الآن، جانباً من الأسرار الفنية لهذه التشبيهات (العنصر الصوري) مضافاً إلى «العنصر القصصي» الذي تحدث عن موسى ومؤمن آل فرعون، وتوظيف هذين العنصرين من أجل فكرة النص، ثم علاقة ذلك بسائر الموضوعات التي تحوم على فكرة «المجادلة في آيات الله» حيث تكشف ذلك عن مدىٰ إحكام العمارة القرآنية الكريمة بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**ادعوني أستجب لكم، إنّ الذين يستكبِرون عن عبادتي**

سيدخلون جهنم داخرين الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مُبصراً، إنّ الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون. . .﴾.

هذا المقطع وما بعده، يتناول مجموعة من الظواهر الكونية التي سخرها الله تعالى للإنسان. . . لكن، ينبغي أن نتذكر بأنّ السورة الكريمة (سورة المؤمن) إنّما تحوم فكرتها على «المجادلين في آيات الله تعالى» وأنّ ما ورد فيها من عناصر قصصية وصورية وغيرها إنّما وظفت لأجل الفكرة المشار إليها،. . . إنّ كل طرح جديد للموضوعات إنّما يتم في هذا السياق الفكري. . . وأول ما يلفت النظر في هذا المقطع الذي نتحدث عنه هو: إيراده لموضوع جديد هو: «الدعاء» حيث ركز عليه بقوله تعالى: **﴿ادعوني استجب لكم﴾** ثم تحدث بعد ذلك عن خلق الظواهر الكونية، وعاد فأكد الدعاء من جديد قائلاً: **﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾** كما أنّه في مقدمة السورة ذكر هذا الجانب فقال تعالى بالصياغة ذاتها **﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾** إنّ هذا التكرار للدعاء في سياقات مختلفة يعني: أنّ النص يستهدف توصيل هذه الحقيقة العبادية إلي الدعاء «والإخلاص» العبادي. . . أمّا «الدعاء» فلأنّه الوسيلة المحدّدة للعلاقة المباشرة بين الله تعالى والعبد، وأما «الإخلاص» العبادي فلأنّه التجسيد الفعلي للالتزام بمبادىء الله تعالى.

وهذه الحقائق تعرض هنا مقابل الفكرة التي تحوم علهيا السورة ونعني بها «المجادلة في آيات الله تعالى»، وهذا يعني أنّ النص يوازن بين سلوك المنحرفين وبين ما ينبغي أن يسلكه المؤمن. . . وخلال ذلك، يعرض ـ كما أشرنا مجموعة من الموضوعات التي تنبّه العاملين أو المجادلين في آيات الله تعالى، حيث تشكل هذه الفكرة محور السورة الكريمة ـ كما قلنا. . . وقد سبق للنص أن أشار ـ في مقطع متقدم إلى خلق السماوات والأرض وأنّه أكبر من خلق الناس، وعلق عن ذلك بأنّ أكثر الناس لا يعلمون بهذه الحقيقة. . .

وها هو الآن ـ في المقطع الذي نتحدث عنه الآن ـ يشير إلي ظاهرة كونية أخرى هي **﴿جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾** ثم علق قائلاً **﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾**. . .

إذن، لقد تكرر الحديث عن الابداع الكوني، ولكن ذلك يجيء في سياقات مختلفة، ففي عرضه لخلق السماء والأرض جاء ذلك في سياق التذكر بأنّ أكثر الناس لا يعلمون، وأما في عرضه لظاهرة الليل والنهار، فقد جاء ذلك في سياق التذكر بأنّ أكثر الناس لا يشكرون. . . وكل من السياقين يرتبط بالحديث عن «المجادلين في آيات الله تعالى»، حيث وصفهم من جانب بعدم الوعي **﴿أكثر الناس لا يعلمون﴾** ووصفهم من جانب آخر بعدم الشكر **﴿أكثر الناس لا يشكرون﴾**، وكل من هذين السياقين جاء متناسباً مع الظاهرة الكونية، حيث قرن عدم الوعي لدى المجادلين بجهلهم أنّ خلق السماء والأرض هو أكبر من خلق الناس، وقرن عدم شكرهم بعدم تقديرهم لفضل الله تعالى حيث جعل الليل سكناً والنهار مبصراً. . . وهذا يعني أنّ الحديث عن الظواهر الكونية يجيء حيناً للتدليل على قدرة الله تعالى، وأخرى للتدليل على نعمه. . . لذلك، نجد النص يتابع الجانب الأخير (وهو صلة الظواهر الكونية بنعم الله تعالى) فيقول: **﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً، وصوركم فأحسن صوركم، ورزقكم من الطيبات. . .﴾** يعرض لنا ـ للمرة الثالثة ـ قضية الإبداع الكوني في سياق جديد على هذا النحو: **﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة، ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ثم لتكونوا شيوخاً، ومنكم من يتوفى من قبل، ولتبلغوا أجلاً مسمّى، ولعلّكم تعقلون هو الذي يحيى ويميت، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنّىٰ يصرفون. . .﴾**.

لنلحظ بدقة، كيف أنّ النص ربط بين حديثه عن الظواهر الكونية وبين

فكرة السورة الكريمة التي جاء في مقدمتها قوله تعالى ﴿**ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا**﴾، وجاء في وسطها قوله تعالى أيضاً ﴿**إنّ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان**﴾، وجاء في هذا المقطع الذي نتحدث عنه ﴿**ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله، أنّىٰ يصرفون**﴾ وللمرة الجديدة، ينبغي أن ننتبه على هذا المحور الفكري الذي يربط بين أجزاء السورة (أي: فكرة المجادلة في آيات الله تعالى) حيث يجيء الحديث عنها في كل مقطع متناسباً مع الموضوع الجديد المطروح... ففي المقطع الأخير الذي نتحدث عنه جاء الحديث عن «المجادلة في آيات الله تعالى» من خلال التذكير بنعم الله تعالى ﴿**إنّ الله لذو فضل على الناس**﴾، ومن خلال التذكر يتعقل المغزى العبادي لخلق الإنسان بمختلف أطواره (التراب، النطفة، العلقة، الطفولة، الشيخوخة... إلخ) حيث علق قائلاً ﴿**ولعلكم تعقلون**﴾ ثم ربط ذلك بالمجادلين في آيات الله تعالى قائلاً: ﴿**ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله، أنّىٰ يصرفون**﴾ أي: كيف ينحرفون عن إدراك هذه الظواهر ودلالاتها العبادية؟...

إذن أمكننا ملاحظة مدى الإحكام الهندسي لعمارة السورة الكريمة، من حيث التحام موضوعاتها: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسلنا، فسوف يعلمون، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون، في الحميم، ثم في النار يسجرون...**﴾.

هذا المقطع من سورة المؤمن ينقل لنا مرأى من بيئة العذاب الأخروي الذي ينتظر المجادلين في آيات الله تعالى ... وفي كل مرة تعرض فيها بيئة العذاب يحاول النص من خلالها أن يربط بين العذاب وبين سلوك المنحرفين، ولكن في كل مقطع يأتي بجديد من بيئة العذاب وبجديد من السلوك الذي

يصدر عنه المنحرفون. . . ففي مقطع أسبق عرضت فيه بيئة العذاب النفسي والجسدي: مع التركيز على معاتبة المنحرفين بعضهم للآخر حيث يتبادل الرؤساء والأتباع فيما بينهم: إلقاء اللوم على الآخر في إضلاله. . . أما في البيئة التي يتحدث عنها هذا المقطع الجديد، فإنّ النص يبرز فيها طبيعة العذاب الجسدي الذي يتعرض له المنحرفون، حيث يقول النص ﴿**إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون**﴾ فهذا الوصف الحسي لبيئة النار، بالرغم من كونه وصفاً واقعياً لما يحدث، ولكنه ينتقي من الأوصاف ما يحقق الإثارة الفنية المطلوبة. . . فهناك الأغلال وهي الطوق الذي يلتف حول العنق، وهناك السلاسل التي يسحبون بها، حيث أنّ كلاً من السلسلة والطوق ينطوي على مرأىً مثير: من حيث شكله أولاً ومن حيث آثاره ثانياً، أن عملية تطويق العنق بالأغلال، ثم ربط الجسد بالسلسلة ثم عملية سحب الشخص وهو في شكله المقيد (بالأوصاف السابقة) إلى (الحميم) وهو الماء الحار، ثم الالقاء في النار، حيث يسجر فيها. . . والسجر هو إلقاء الحطب في النار، وحيث يصوغ المقطع من هذه الظاهرة «استعارة فنية»، أي خلع صفة السجر في التنور، على الشخص المنحرف، حينئذٍ تبلغ الإثارة الفنية قمتها: من حيث جعل المنحرف بمثابة (حطب) لاشتعال النار. . . إذن، عملية التطويق عملية ربط العنق بالأغلال، ثم عملية السحب (وهما عمليتان جسديتان) مرتبطتان بالعذاب الجسدي الصرف: بغض النظر عما يتبعهما من العذاب، ثم الإلقاء في الماء الحار ثم الإلقاء بمثابة حطب لها (وهما عمليتان مرتبطتان بالاحتراق). . . هذه العمليات الأربع التي يتجانس فيها نمطان من العذاب: جسدياً وناريّاً، تبعث الإثارة الفنية لدى المتلقي الذي يمعن النظر في الأوصاف المشار إليها، بعد ذلك: يربط النص بين هذا العذاب وبين سلوك المنحرفين من الدنيا، حيث يشير إلى «الشرك» الذي طبع سلوكهم، ثم إلى فرحهم ومرحهم في الدنيا ﴿**ذلك بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق، وبما**

كنتم تمرحون﴾. . . إن عمليتي (الفرح) و(المرح) تظلان ـ من حيث العمارة الهندسية ـ للسورة مرتبطتين بمقدمة السورة التي تحوم على فكرة «المجادلة في آيات الله تعالى»، حيث وصفت المجادلين «بما يلي» **﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾** ومعنى (تقلّبهم) هو: تحرّكاتهم المصحوبة بالحرية باتباع شهواتهم بالنحو غير المشروع، لذلك عندما قال المقطع الذي نتحدث عنه بأن «الفرح» و«المرح» هو سمة المنحرفين في الدنيا، إنّما ربط بين ظاهرة (التقلّب في البلاد) وبين الفرح والمرح المجسَّدين للظاهرة المذكورة. . . فالفرح هو البطر الذي يميت الإحساس بالمسؤولية عند الشخص بحيث لا يعني إلاّ بما هو زائد عن الحاجة في الإشباع، كما أنّ «المرح» هو شدة الاشباع، ومعنى هذا أنّ المنحرف لا شغل له إلاّ الاشباع المتخم لشهواته، ولا شيء سوى ذلك. . . ومن الطبيعي، حينئذٍ أن يترتب على مثل هذا السلوك المتحلل من كل قيدٍ أخلاقي وعبادي: جزاء يتوافق مع الانحراف المذكور، من هنا ندرك السر الفني الكامن وراء الوصف المذهل لعمليات العذاب: جسدياً وناريا ً لأنّه عذاب أو جزاء يتجانس تضخمه وتنوعه واستغراقه لكل مستويات العذاب مع تضخم وتنوع واستغراق الشهوات التي صدر عنه المنحرفون، فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ هذه الأوصاف قد ربطها المقطع ببداية السورة التي تحدثت عن المجادلين في أيات الله تعالى، وتقلبهم في البلاد»، أمكننا أن نكتشف مدى الإحكام الهندسي لعمارة السورة الكريمة: من حيث علاقة أقسامها بعضها مع الآخر، بالنحو الذي فصلنا الحديث عنه.

❊ ❊ ❊

قال تعالى: **﴿فاصبر إنّ وعد الله حق، فامّا نُرينَّك بعض الذي نعدهم أو نتوفّينَّك فإلينا يُرجعون ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك، وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله، فإذا**

جاء أمرُ الله قُضي بالحق وخسر هنالك المبطلون الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلُغوا عليها حاجة في صدروكم وعليها وعلى الفلك تُحملون ويريكم آياته، فأي آيات الله تُنكرون...﴾.

بهذا المقطع وما بعده تختم سورة المؤمن التي تحوم فكرتها على «المجادلين في آيات الله تعالى» حيث قطعت السورة رحلة طويلة في الموضوعات التي تفاوتت فيما بينها ولكنها تلاقت عند موضوع محدد هو المجادلة كما قلنا... وقد كان الحديث عن «إبداع الظواهر الكونية» واحداً من الموضوعات التي عرضها النص في سياق رصده لسمات «المجادلين» الذين لم يعتبروا بهذه الظواهر الكونية مثل خلق السماوات والأرض، ومثل الأمطار، والليل والنهار... إلخ. أما الآن فيعرض المقطع لنا معطىً إبداعياً هو «الأنعام» فيما أشار المقطع إلى جملة من معطياتها أو فوائدها مثل: الركوب عليها، ومثل الأكل من لحومها وألبانها، ومثل الانتفاع بجلودها من حيث الملبس وسواه... إلخ، ثم عقب قائلاً: **﴿فأيّ آيات الله تنكرون﴾**. ومن الواضح، أنّ التساؤل عن إنكارهم للآيات المذكورة جاء متناسباً مع الخاتمة التي ينتهي عندها الحديث عن ظواهر الكون، حيث يذكرهم بكل الظواهر الكونية (السماء، الأرض، خلق الإنسان، الليل والنهار، المطر، الأنعام...).

أما الموضوع الآخر الذي طرحه المقطع في خاتمة السورة، فهو تذكير «المجادلين» بمصائر الأمم السابقة... وهذا الموضوع بدوره يتكرّر في الخاتمة بعد أن لحظناه في مقدمة السورة ووسطها، ولكنه في كل موقع يطرح في سياق جديد، والجديد في المقطع الذي نتحدّث عنه هو أنّ النص يذكر «المجادلين» بموقف خاص لدى الأمم السابقة هو **﴿فلما رأوا بأسنا قالو آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يكن ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا،**

سنّة الله التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون﴾. وبهذه الآية تختم السورة الكريمة التي جاء ختامها متجانساً مع ختام المصير الذي ينتهي إليها المنحرفون... فالمنحرفون المنتسبون إلى الأمم السابقة قد انتهوا إلى مصير بائس في الدنيا قبل الآخرة، وذلك حينما رأوا العذاب قد أحاط بهم، وعندها قالوا: **﴿آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾** أي: أنّ النص أبرز لنا موقفاً مثيراً كل الإثارة هو إقرار المنحرفين بخطأ سلوكهم وهم في الدنيا بعد قبل الآخرة، حيث أنّ إبراز هذا الموقف يترك تأثيره على المتلقي (من حيث عنصر الإقناع الفني، فما دامت الدنيا تجسد تجربة حسية يحياها الناس (بخلاف الإيمان بالآخرة) حينئذٍ فإنّ الاستشهاد بتجاربها: يحقق «عملية الإقناع» بالنسبة للمتلقي ...

وهذا الإقناع «يتحقق من خلال كونه أولاً يستشهد بآثار الأمم البائدة، فيما لا تزال موجودة يراها المنحرفون في بعض الأماكن التي نزل فيها العذاب على الأمم السابقة، ثم ثانياً بردود الفعل الصادرة عن أولئك المنحرفين ألا وهي: إقرارهم بخطأ سلوكهم المشترك... طبيعياً، إنّ «الإقرار» لا سبيل إلى لمسه حسياً بخلاف الآثار الباقية من حيث مساكن الذين ظلموا، فيما هي ملحوظة للعيان... لكن عندما يقتنع المتلقي بوجود الآثار الحسية، حينئذٍ سوف يقتنع بما واكبها من مواقف لا سبيل إلى معرفتها حسياً وهي: الإقرار أو الندم على خطأ سلوكهم المشرك... وكذلك، إذا تحقق «الإقناع» دنيوياً حينئذٍ عندما ينقل النص ما يحدث في الآخرة، سوف يترك أثره على المتلقي ما دام قد سبقه إقناع بما حدث في الدنيا... بخاصة، أنّ المقطع يؤكد بأنّ إقرار المنحرفين بخطأ سلوكهم عند مواجهة العقاب سوف لا ينفعهم أبداً، لأنّهم آمنوا عندما رأوا البأس... وهذا التأكيد على جانب عدم انتفاعهم بهذا الإقرار، سوف يتداعى بذهن المتلقي إلى أنّ المنحرف سوف لا ينفعه الإقرار بالحقائق عند مواجهته عذاب اليوم الآخر... وبهذا المنحىٰ من التدرج بما هو

حسي إلى ما هو غير حسّي من العذاب الدنيوي والإقرار بخطأ السلوك، ومن التدرج بما يحصل دنيوياً إلى ما سوف يحصل أخروياً من العقاب، يحقق النص عنصر «الإقناع الفني» بما يستهدفه من الدلالات، كاشفاً بذلك عن مدى الإحكام الهندسي في عمارة السورة الكريمة، من حيث ترابط وتنامي موضوعاتها بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

سورة فصّلت

تبدأ السورة على هذا النحو: ﴿**بسم الله الرحمٰن الرحيم: حمٓ تنزيل من الرحمٰن الرحيم كتابٌ فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهُم فهم لا يسمعون...**﴾.

من هذا التمهيد، يمكننا أن نلم بالخيط الفكري الذي ستحوم عليه السورة وتصاغ عمارتها وفق الخيط الفكري المذكور... إنّه يتحدث عن الكتاب الكريم (أي مبادىء السماء أو الإسلام) وكونه من الرحمان الرحيم، أي: أنّ يتسم بصفتي الرحمة بكل مستوياتها التي تغمر الخلائق، ثم كون الكتاب (مفصلاً) لا إجمال في مبادئه المنزلة إلى الناس، وكونه (عربياً) يفقهونه لا غموض فيه.

هذا التشدد على صفة الرحمة من جانب، ثم كون المبادىء من التفصيل والوضوح من جانبٍ آخر: يعني إحكام الحجة على الآخرين وسدَّ جميع الاحتمالات التي يتوسل بها المنحرفون في تسويغ عدم إيمانهم بمبادىء الله...

وأخيراً، كون هذا القرآن (بشيراً ونذيراً) يشكل نتيجة منطقية تترتب على مصائر الآدميين الذين خبروا دلالة (الرحمة) في مبادىء الله واتضحت لهم بجلاء لا سبيل إلى التشكيك فيه، مما يستتلي (بشارة) لمن آمن بالله والتزم بمبادئه، و(نذيراً) لمن ركب رأسه وتمرّد عليه بلا مسوغ إلاّ اتّباع حاجاته الدنيوية العابرة.

لكن، ما هي الاستجابة التي صدرت عن الناس حيال هذا كله؟ يقول النص ﴿**فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون**﴾.

ولعل أول المقاطع التي تواجهنا، نجدها قد تكفلت بتفصيل ما أجمله التمهيد، حيث يبدأ المقطع بهذا النحو: ﴿**وقالوا قلوبنا في أكنةٍ مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب**. . . ﴾.

إنّ هذه الآية ـ كما هو واضح ـ تفصيل لما أجمله التمهيد عندما قال لنا ﴿**فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون**﴾، فأغلبية الناس لا يستجيبون لنداء الخير (وهي ظاهرة اجتماعية لا تحتاج إلى التعقيب)، إنّهم ـ كما يقول ـ (لا يسمعون) وها هو النص يوضح لنا كيف أن أكثرية الناس (لا يسمعون)، يوضح ذلك بقوله عن لسانهم ﴿**قالوا قلوبنا في أكنةٍ مما تدعونا إليه، وفي أذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب**﴾ إننا كررنا هذا الكلام الذي قدّمه النص: نظراً لأهميته الفنية والفكرية، فالنص يستهدف أن يوضح لنا كيف أنّ الناس (لا يسمعون)، ولا بد حينئذٍ من أن يقدم لنا مفردات من المواقف التي تصدر عنهم بحيث تجسّد هذه المواقف مفهوم (لا يسمعون) في أدق دلالاته. . .

وفعلاً، نجد صياغة فنية لثلاثة من الأجوبة المعبرة عن (عدم السمع). . . كان من الممكن أن يقول هؤلاء: إننا لا نؤمن مثلاً ويحسم الأمر. . . أو إننا لا نرغب في الاستماع لنداء السماء. . . ويحسم الأمر أيضاً، لكن عندما يقولون أولاً ﴿**قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه**﴾ ويقولون ثانياً ﴿**في أذاننا وقر**﴾ ويقولون ثالثاً ﴿**من بيننا وبينك حجاب**﴾ أقول حينما نواجه ثلاثة أجوبه تصاغ على النحو المتقدم، حينئذٍ سوف يدرك الملاحظ العابر (لا نقول: الخبير المختص بشؤون النفس البشرية) أنّ هؤلاء بلغوا من الانغلاق النفسي والفكري ما لا حدود له من التصور. . . أما الانغلاق النفسي فيتمثل في تلك الدرجة من الاضطراب بحيث يهتفون قائلين قلوبنا في أغطية مما تدعونا إليه وهذا لا يختلف عن هذيان المصابين بالهستيريا أبداً بحيث يقولون بانفعال و تشنج إنّ قلوبنا محاطة بأغطية مما تطالبنا به ـ يا محمد ـ من إيمان

بـالله ، ولم يكتفوا بذلك بل تابعوا قولهم المذكور بمزيد من الانفعال والتشنج حينما هتفوا أيضاً **﴿وفي أذاننا وقر﴾** أي: أنّ في آذاننا ثقلاً وصمماً مما تدعونا إليها يا محمد... إنّه لأمر عجيب حينما يبلغ الاضطراب النفسي عند هؤلاء إلى الدرجة التي لا يكتفون من خلالها بتوضيح أن قلوبهم ذاتُ أغطية، بل أنّ آذانهم ذات صمم أيضاً... إلاّ أنّ العجيب كله أنّهم لا يكتفون حتى تكون قلوبهم ذات أغطية، وأسماعهم ذات صمم، بل أضافوا إلى ذلك أنّ هناك (حاجزاً) شاملاً، عاماً بيننا وبينك يا محمد **﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾**. إنّهم يشبهون تماماً تلكم الأقوام المتخلفة في عصر نوح عليه السلام عندما **﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم﴾**، وها هم بعض المعاصرين لرسالة محمد(ص) (بما فيهم نماذج المعاصرين لأزمتنا الحاضرة) يمارسون نفس السلوك المضطرب الشاذ، وقد ذكرت النصوص المفسرة أنّ بعض الجاهلين وضع بالفعل ثوباً بينه وبين النبي(ص) حتى لا يواجهه، وهذا ـ كما قلنا ـ يجسد قمة ما يمكن تصوره من حالات الانفعال والتشنج والاضطراب الذي لا يصدر إلاّ من كبار المرضى الذين لا أمل البتة في علاجهم...

وأياً كان، فإنّ عنصر (الصورة الفنية) الذي استخدمه النص القرآني الكريم بالنحو الذي لحظناه ونعني به: الصور الثلاث: الاغطية على القلب، الصمم في الآذان، الحجاب بين أوجه المنحرفين يفسر لنا جانباً من البناء العضوي للنص حيث تجانس مفهوم (المقدمة للسورة) التي ذكرت بأنّ أكثر الناس **﴿لايسمعون﴾** تجانس مفهوم **﴿عدم السمع﴾** مع الصور الثلاث التي تجسد عدم السمع بكل أشكاله: من غطاء للقلب، وصمم في الآذان، وحجاب يمنع حتى المواجهة بينهم وبين النبي(ص) على النحو الذي تقدم.

* * *

قال تعالى: **﴿قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ انّما إلٰهكم إله واحد**

فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ . . .

في هذا المقطع من السورة، طرح لموضوع جديد إلاّ أنّه امتداد فني لما سبقه. . . الطرح الجديد هو: أنّ عملية التعديل للسلوك أمر لا سبيل إلى التشكيك به، حيث يطالب النص بالاستقامة إلى الله أي الالتزام بمبادئه، والاستغفار عن السلوك المنحرف عن مبادىء الله. . .

صحيح أنّ بعض المنحرفين الذين بلغوا قمة الشذوذ في السلوك من نحو أولئك الذين وصفهم النص في مقطعٍ سابق بأنّهم قالوا بأنّ قلوبهم في أكنّة مما يدعوهم النبي(ص)، وأنّ في آذانهم وقراً، وأنّ بينهم وبينه حجاباً. . . صحيح أنّ أمثلة أولئك لا سبيل إلى تعديل سلوكهم نظراً لبلوغهم قمة الاضطراب، إلاّ أنّ النص القرآني الكريم حينما يعرض لنا أمثلة السلوك المتقدم إنّما يستهدف حمل المتلقي على تعديل سلوكه، وهو ما توفر المقطع المذكور عليه حينما طالب بالتعديل للسلوك قائلاً: **﴿فاستقيموا إليه وَاستغفروه﴾**، وأما بالنسبة إلىٰ من بلغ قمة الانحراف فقد توجه المقطع إليه قائلاً **﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾**، حيث ردم بينهم وبين إمكانية التعديل حينما مهّد لذلك بقوله: **﴿وويل﴾**، وعلى العكس من ذلك توجه النص إلى الأصحاء نفسياً وفكرياً ممن آمن مباشرة أو عدل من سلوكه قائلاً عنهم **﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾** . . .

لا نغفل أنّ مقدمة السورة أوضحت بأنّ القرآن الكريم جاء **﴿بشيراً ونذيراً﴾**، وأن هذا المقطع الذي تحدثنا الآن عنه قد جسد مفهوم البشارة والإنذار من خلال تلويحه بالجزاء الّذي ينتظر كلاً من المنحرفين والمؤمنين كما لحظنا، لكن خارجاً عن المبنى الهندسي المذكور للسورة، نجد أنّ المقطع الذي تحدثنا عنه قد طرح ضمناً: أي: بطريقة غير مباشرة مفهومين عن الزكاة

والإيمان باليوم الآخر، أما الطرح لمفهوم الزكاة أو الانفاق فأمر يفصح عن كون هذه الممارسة ذات أهمية كبيرة في السلوك العبادي وإلى أنّه واحد من الوجوه المجسدة للإيمان، وأما طرحه لمفهوم الإيمان باليوم الآخر فلكونه أيضاً واحداً من الوجوه المجسدة للإيمان ليس في نطاق الحياة الدنيوية التي نزلت رسالة الإسلام فيها بالرحمة (كما أشارت مقدمة السورة إلى ذلك) فحسب، بل في النطاق الأخروي الذي تطبعه سمة الجزاء على السلوك الدنيوي... لذلك ـ من زاوية البناء الفني ـ ختم المقطع حديثه عن الظاهرة المذكورة بالتلويح الأخروي للمؤمنين بقوله **﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾**...

والآن، نواجه مقطعاً جديداً من السورة، يقدم لنا من خلاله تفصيلاً جديداً لما أجملته (مقدمة) السورة التي قالت فيها **﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾**...

أي، أن النص في صدد بيان تفصيلات عن الموقف المذكور، موقف المنحرفين الذي أعرضوا عن مبادىء السماء التي جاءت بها رسالة الإسلام... ولنستمع إلى ذلك: **﴿قل أئنكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾**. إنّ هذا التلويح بالإبداع الكوني للأرض وتحديده بسته أيام، ينطوي أولاً على حقائق علمية يستهدف النص توصيلها إلى المتلقي، وينطوي ثانياً على ردم الموقف الذي يصدر عنه المنحرفون في موقفهم من رسالة الإسلام...

بعد ذلك يتابع المقطع عرضه للإبداع الكوني للسماء بعد أن انتهى من عرضه لإبداع الأرض، فقال: **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سمواتٍ في يومين**

وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، ذلك تقدير العزيز العليم﴾. هذه الشريحة المتصلة بإبداع السماء ينطوي على نفس الهدفين الفكريين الذين أشرنا إلى أنّ النص قد شدد عليهما، ونعني بهما: توصيل الحقائق العلمية من جانب، وردم الموقف الذي يصدر عنه المنحرفون من جانب آخر. . .

بيد أنّ الملاحظ أنّ النص قد استخدم عنصر (الصورة الفنية) في رسمه لظاهرة الإبداع الكوني حينما قال: **﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين﴾**. إنّ هذه الصورة الفنية لا تحمل مجرد الجمال الذهني الذي يستمتع به المتلقي، بل تحمل دلالة فكرية في غاية الخطورة تتصل بعملية الإيمان بالله وعدمه حيث أنّ المتلقي يستخلص من ذلك أنّ السماء والأرض حينما خيرهما الله بين أن يستويا طائعين أو مكرهين، قد اختارا أن يستويا طائعين، وهو أمر لا بدّ أن يحمل المتلقي على الاتعاظ بهذا الموقف فيختار الإيمان بالله طوعاً: طالما لا يترك عدم الإيمان أيّما أثر على فاعلية الله تعالى في تقدير الأحداث وصياغتها. . .

إذن ـ من الزاوية الفنية ـ جاءت هذه الصورة متجانسة مع الهيكل الفكري للمقطع، مفصحة عن تجانسها مع الهيكل الفكري للسورة بكاملها وهو ما سنلحظه بوضوح في المقطع اللاحق من السورة أيضاً.

❊ ❊ ❊

قال تعالى: **﴿فإن اعرضوا فقل: أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عاد وثمود إذ جاءتْهُمُ الرسُلُ من بين أيديهم ومن خَلفِهم ألاَّ تعْبدُوا إلاّ الله، قالوا لو شاء ربّنا لأنزل ملائكةً فإنَّا بما أرسلتُم به كافرون فأمَّا عادٌ فٱستكبروا في الأرض بغير الحقِ و قالوا: من أشدُّ مِنَّا قُوةً، أوَلم يرَوا أنَّ الله الذي خلقهمْ هُوَ أشدُّ مِنهُم قوةً وكانوا بآياتنا يجحدُون فأرْسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحِساتٍ لنُذيقَهُم**

عذابَ الخزيِ في الحياة الدنيا ولعذابُ الآخرةِ أخزىٰ وهُم لا يُنصرون وأمّا ثمودُ فهديناهُم فٱسْتحبُّوا العمى علىٰ الهُدىٰ فأَخذتْهم صاعقةُ العذابِ الهونِ بما كانوا يكْسبُونَ ونجينا الذين آمنُوا وكانُوا يتَّقُون﴾ . . .

هذا المقطع من السورة يتحدَّثُ عن مجتمعي عاد وثمود اللذين أعرضا عن رسالات السماء، وعمَّا ترتّب على ذلك من جزاء دنيوي هو إبادةُ المجتمعين المذكورين. . .

وما يهمنا من هاتين الأقصوصتين هو: موقعهما الهندسي من السورة بما تنطويان عليه من أهداف فكرية، حيث لحظنا في مقدمة السورة أنّ النص أشار إلى موقف المعاصرين لرسالة الإسلام: فمع أن هذه الرسالة نزلت بطابع (الرحمة)، وبلغةٍ واضحة، وببشارة وإنذار **﴿تنزيل من الرحمان الرحيم كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً﴾**. لكن مع ذلك ـ كما قالت المقدمة المذكورة (فأعرض أكثرهم). . .

وها هو المقطع الحالي من السورة يفصّل لنا ما أجمله قائلاً (فإنّ أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة. . . إلخ).

إذن، ينبغي أن نقف مليّاً عند هذا التلاحم الفني بين قوله تعالى في مقدمة السورة (فأعرض أكثرهم) وبين المقطع الجديد من السورة (فإن أعرضوا)، ثم ينبغي أن نقف مليّاً عند مقدمة السورة التي تقول (بشيراً ونذيراً) وبين قوله في المقطع الجديد **﴿فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. . .﴾**.

إن أمثلة هذا التلاحم العضوي حتىٰ في نطاق العبارات (أعرض) (أنذر). . . إلخ. بين مقدمة السورة وبين وسطها الذي يتكفل بتنمية المواقف والأحداث التي تتضمنها المقدمة، يُعدّ من الأسرار الفنية التي ينبغي أن نقف حيالها بانبهار ودهشة، إذ من الممكن أن يمرّ عليها غالبية المتلقين دون أن

يدركوا أمثلة هذه الأسرار الفنية التي يتحسسونها بنحو مجمل دون أن يستكنهوا دقائقها وتفصيلاتها . . .

والآن إذا انتقلنا إلىٰ مقطع آخر من السورة نواجه أسراراً فنية أخرىٰ في هذا المقطع من حيث تلاحم الموضوعات فيما بينها، حيث لحظنا أن المقطع السابق يلوّح بأنّ عذاب الآخرة أشد من العذاب الدنيوي الذي لحق البائدين، وها هو المقطع الجديد من السورة يتقدم لعرض العذاب، الأشد حزناً حينما يقول:

﴿ويَوْمَ يُحْشرُ أعداءُ الله إلى النار فهم يُوزعُون﴾ وها هو المقطع الجديد يعرض أيضاً: المواقف التي سوف يصدر عنها أعداء الله في اليوم الآخر عند مواجهتهم العذاب، وهي مواقف ذات صلة بمقدمة السورة أيضاً حيث أشارت المقدمة إلىٰ وضوح الرسالة، في أذهان الناس، وإلىٰ كونهم صدروا ـ مع ذلك ـ عن تجاهل للرسالة المذكورة. وها هو المقطع الجديد يتقدم بإبراز المواقف المذكورة علىٰ هذا النحو.

﴿حتىٰ إذا ما جَاءوها شهد عليهم سمْعُهم وأبصارُهم وجُلُودُهم بما كانوا يعملون وقالوا لجُلُودهم: لم شهِدْتُم علينا؟ قالوا: أنْطقنا الله الذي أنطقَ كُلَّ شيءٍ وهو خلقكم أولَ مرّةٍ وإليه تُرْجعُون وما كنْتُم تَسْتَتِرُونَ أن يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم. ولكنْ ظننتم أنَّ الله لا يعلمُ كثيراً مِمّا تعْملُون وذلكُمْ ظنُكُم الذي ظننتم بربكُم أرداكُم فأصْبحْتُمْ مِن الخاسِرينَ فإنْ يصبروا فالنار مثوىً لهم وإن يسْتعتِبُوا فما هُم من المُعتَبين وقيَّضنا لهم قُرناء فزيَّنُوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القولُ في أممٍ قَدْ خلت مِنْ قبلهِم مِنَ الجِنِّ والإنْسِ إنهم كانوا خاسرين﴾ . . .

الملاحظ أن خاتمة هذا المقطع ربط بين الجزاء الأخروي وبين الموقف الدنيوي الذي صدر عنه المنحرفون، من حيث سدّ النوافذ الخيرة أمامهم، أنهم

عندما أعرضوا عن مبادىء الله: مع وضوحها في أذهانهم، فإنّ الله قد (قيض لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم)، وهذا الربط بين الجزاء والموقف الدنيوي يطرح ـ فضلاً عما تقدم ـ دلالة جديدة يستهدف النصُ توصيلها إلى المتلقي، متمثلة في أن الابتعاد عن الله تعالى يستجرّ الشخصية إلى أن تمارس مزيداً من الأفعال المنحرفة بتوجيه من قرناء، أي: وساوس ترسم لهم مزيداً من السلوك المنحرف بحيث لا طريق لها إلى تعديل سلوكها. . . ونحن سوف نلحظ في المقطع اللاحق من السورة صدىٰ هذه الوساوس أو القرناء أو الأفكار الشريرة التي تلاحق شخصيات المنحرفين، بحيث تصدر عنهم ردود فعل بالغة الشدّة حيال القُرناء الذين أمدّوهم بالأفكار المنحرفة التي أفضت بهم إلى مواجهة العذاب الأخروي الذي حدّثنا المقطع المتقدم عنه.

قال تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وٱلغَوْا فيه لَعَلَّكم تغلبون فلَنُذيقنَّ الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجْزينَّهُم أسوأ الذي كانوا يعملون ذلك جزاءُ أعداء الله النارُ لهُمْ فيها دارُ الخُلْدِ جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدُون وقال الذين كفروا ربّنا أرنـا ٱلَّذَيْنِ أضلاّنا مِنَ الجِنِّ والإنس نَجْعلهُما تَحْتَ أقْدَامِنا لِيكونا من الأسْفَلين. . .﴾**.

هذا المقطع من السورة، ينتظمه بناء هندسي جميل قائم، علىٰ التقابل أو التوازن بين موقفين للمنحرفين أوالكفار: الموقف الدنيوي الذي صدروا عنه وهم يواجهون رسالة الإسلام. حيث كان موقفهم منه على هذا النحو **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وٱلْغَوْا فيه لعلكم تغلبون﴾** ثم الموقف الأخروي حيث **﴿قال الذين كفروا: ربّنا أرنـا ٱلَّذَيْنِ اضلاّنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾**.

إن هذا التقابل الهندسي بين الموقفين الدنيوي والأخروي ينطوي على

جملة من الأسرار الفنية المتصلة بعمارة السورة، فأولاً نواجه موقفهم الدنيوي القائل: ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن**﴾ فيما ينبغي أن نتذكر أن مقدمة السورة قالت عن المعاصرين لرسالة الإسلام بما يلي ﴿**فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون**﴾، وها هو المقطع الجديد يجسّد واحداً من أنماط السلوك المتصل بمفهوم ﴿**فهم لا يسمعون**﴾ حيث يقول المنحرفون عن رسالة القرآن ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن**﴾...

إذن، واصل النصُ القرآني بين مقدمة السورة وبين وسطها بالنسبة، للفكرة التي حامت السورة عليها وهي: عدم استماع الأكثرية لرسالة الإسلام...

إلاّ أن الوصل الفنّي بين موضوعات السورة يأخذ جماليته بشكل أشدّ حينما نجد أن المقطع الذي نتحدث عنه يوازن (بطريقة فنية ممتعة) بين الموقف الدنيوي للمنحرفين: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن**﴾ وبين الموقف الأخروي لهم:

﴿**وقال الذين كفروا: ربّنا أرنـا ٱلَّذَيْنِ أضلانا... إلخ**﴾ أن الموازنة الهندسية هنا تتمثل في ذلك الصلف أو الغرور أو الاعتداء الذي صدر الكافرون عنه حينما خُيّل إليهم أنهم سوف ينتصرون ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾... خيّل إليهم أنّهم (يغلبون)، ولكن ما هي نتيجة هذا التخيّل؟.

لقد واجهوا نتيجة معاكسة تماماً، حيث هتفوا بمرارة في اليوم الآخر قائلين: (ربنا أرنا الَّذَيْنِ أضلانا من الجن والإنس، نجعلهما تحت أقدامنا... إلخ).

إن هذا الرد من الفعل أو الاستجابة المريرة، توضح لنا جانباً من الأسرار الفنية في هذه الموازنة بين الموقفين: موقفهم من رسالة الإسلام دنيوياً، وردّ

فعلهم أخروياً حيال الموقف السابق. إنه موقف يقطر بمرارة إلى الدرجة التي يفقد المنحرفون من خلالها أية سيطرة على ذواتهم بحيث يهتفون بما لا فائدة فيه، يهتفون قائلين: ربنا أرنا الأشخاص الذين أضلونا لكي نجعلهم تحت أقدامنا. . . ترىٰ: ما فائدة أن يجعلوهم تحت أقدامهم: مع أن الضالّ والمضلّ مسوقان لمصير واحد هو (النار) ـ أعاذنا الله منها؟.

مضافاً لذلك، ينبغي أن نتذكر أيضاً أنّ مقطعاً أسبق من السورة حدّثنا عن هؤلاء المنحرفين قائلاً عنهم بأنّ الله قيض لهم قرناء يزيّنون لهم أفعالهم، وها هو المقطع الذي نتحدث عنه الآن، يجعلنا ـ نتداعىٰ ذهنياً ـ إلى الربط بين أولئك القرناء الذين زينوا للمنحرفين أعمالهم، وبين هذا الرد من الفعل حيال أولئك القرناء حيث هتف المنحرفون قائلين: ربنا أرنا أولئك لكي نجعلهم تحت أقدامنا. . .

إذن، ينبغي للمرة الجديدة أن ننبه علىٰ هذا السر الفنّي المتصل بعمارة السورة وجماليتها من حيث تلاحم وتجانس وتواشج موضوعاتها التي تبدو بوضوحٍ حيناً من خلال الموازنة المباشرة بين الموقفين الدنيوي والأخروي، وتبدو حيناً آخر بخفاء حينما يتأمل الملاحظ بدقة: التداعيات الذهنيّة التي يفرضها النصُ عليه عند مواجهته لهذا النمط من بناء السورة.

وأياً كان، فإنّ المهم هو أن نتابع الآن: المقاطع الجديدة من السورة لملاحظة البناء الهندسي المذكور فيها حيث نواجه المقطع الجديد متحدثاً عن الجزاء الأخروي للمؤمنين، بعد أن كان المقطع الذي تحدّثنا عنه يتناول الجزاء الأخروي للمنحرفين، وهو نمط آخر من التقابل الهندسي بين الأشخاص بعد أن كان المقطع السابق يوازن بين الموقفين الدنيوي والأخروي.

* * *

قال تعالى: ﴿**إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ**

تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسُكم ولكم فيها ما تدَّعُون نُزُلاً من غفور رحيم﴾ .

هذا المقطع من السورة يتناول عرض البيئة الأخروية للمؤمنين من حيث المنبّه الذي يواجهونه. . . لقد كان المقطع الأسبق من السورة يتناول عرض المنبّه الذي يواجهه الكافرون، وهو منبّه قد استجابوا له بمرارة حينما طلبوا أن يجعلوا من أضلوهم تحت أقدامهم، بينا نجد المؤمنين على عكس ذلك تماماً، فهناك تقابل على نحو التضاد بين من يتمزق مرارةً وبين من يواجه سلسلة من المنبهات السارّة حيث يبدأ أولها بأن تنزّل عليهم الملائكة قائلين **﴿ألّا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾**، ثم بعد هذه البشارة التي تلتحم عضوياً مع مقدمة السورة التي قالت عن القرآن بأنّه (بشير): حيث تجسدت في البشارة الملائكية، يأتي تأكيد آخر عليها ليضاعف السرور في قلوب المؤمنين حينما تقول لهم الملائكة: **﴿نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**. لا نغفل هنا، أن النص القرآني الكريم ربط في مقطع أسبق بين السلوك الدنيوي للكافرين وبين استجابتهم الأخروية: حينما ذكر لنا بأنّه قيّض لهم قرناء يزيّنون لهم أعمالهم، بينا نجد هنا ـ عند الحديث عن المؤمنين ـ نفس الربط بين السلوك الدنيوي والاستجابة الأخروية: حينما يُهيِّئ للمؤمنين ملائكة يشكلون أنصاراً لهم، ويوصلون الخيرات إليهم: حيث يتحسس المتلقّي بوضوح كيف أن الموازنة بين الفريقين دنيوياً وأخروياً تأخذ جمالية فائقة من الرسم حيث أن الكافر يُقيض له قرين السوء من الشياطين، والمؤمن يهيّأ له عنصر ملائكي يرشده إلى طريق الخير.

بعد هذه الموازنة بين الموقفين دنيويّاً وأخروياً بين فريقي المؤمنين والمنحرفين، يتجه النص إلى السلوك الدنيوي للمؤمنين مفصلاً الحديث عن

بعض جوانبه بعد أن أجمله في الآيات السابقة بقوله: ﴿**الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا**﴾ وببشارته ﴿**نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا**﴾ . . .

ترىٰ، ما هي أصداء أو انعكاسات هذه الاستقامة والبشرىٰ بها في اليوم الآخر؟.

إن انعكاساتها تتمثل في المفردات التالية من السلوك: ﴿**ومَن أحْسنُ قوْلاً ممن دَعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنَّني من المُسلمين ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينك وبينهُ عداوة كأنَّهُ وليّ حميم وما يُلقَّاها إلاّ الذين صبرُوا وما يُلقَّاها إلاّ ذو حظٍ عظيم وإمَّا ينْزغنَك من الشيطان نزْغٌ فاْستعذ بالله إنَّهُ هُو السميع العليم**﴾.

في هذا المقطع، يطرح النص جملة من أنماط السلوك الذي ينبغي أن يختطه الشخص حتى تنسحب عليه تلكم السمة المبشّرة له بالجنّة، والسمة المساعدة له في الحياة الدنيا أيضاً . . .

منها، أن يدعو إلىٰ مبادىء الله تعالىٰ ممارساً وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . ومنها (وهذا هو الأهم الذي يشدّد عليه النص) أن يتم ذلك من خلال الخلق الحسن: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن**﴾ نظراً إلى أن الممارسة الحسنة في أداء وتوصيل رسالة الإسلام إلى الآخرين سوف تفضي إلىٰ نتائج إيجابية بحيث ﴿**فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم**﴾.

إن هذه التوصية الإسلامية بممارسة الأساليب الحسنة في عملية التبليغ لا تستتبع مجرّد النتائج الإيجابية على الآخرين، بل تعد أيضاً أسلوباً عبادياً في التدريب أو في التعليم للسلوك السوي بالنسبة إلىٰ المبلّغ نفسه . . . لذلك عقب النص على مثل هذا السلوك المُتعلم، أي: التدريب على تعلم السلوك الحسن في التبليغ عقب عليه النص بقوله ﴿**وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم**﴾ بصفة أن الصبر على ممارسة السلوك الحسن حيال الآخرين الذين لم يخبروا الإسلام

بعد لا يتأتىٰ إلاّ لمن بلغ درجة عالية من السوية في سلوكه . . .

أخيراً، طرح النص ظاهرة سلوكية طالما تعترض ممارسات الإنسان (وهو يقع تحت تأثير لحظات الضعف) حيث يوسوس له الشيطان ببعض الخواطر، التي تحجزه عن الوصول إلى مرتبة السلوك الحسن: فحينئذٍ يرسم له النصُ طريقة العلاج والوقاية من المرض، من الشيطان. . . من الوسوسة. . . من الهمّ بعمل السيئة. . . قائلاً له ﴿**وإمّا ينزغنّك من الشيطانِ نزغ ، فأسْتعِذْ بالله إنّهُ هو السميعُ العليم**﴾. . .

إذن، رسم هذا المقطع جانباً من السمات التي ينبغي أن تتوفر عليها الشخصية الإسلامية وطريقة التخلص من لحظات الضعف التي قد تغلّف الشخص: لكي يندرج ضمن تلكم البشارة التي تنتظره في اليوم الآخر، بل حتّى في الحياة الدنيا حيث تخاطبه الملائكة: ﴿**نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ علىٰ نحو ما فصلنا الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿**ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ لا تسجُدُوا للشمسِ ولا للقمرِ وأسجُدُوا لله الذي خلقَهُنّ إن كنتم إيّاهُ تعبُدون فإن استكبروا، فالذين عند ربك يُسبِّحُونَ لهُ بالليلِ والنهارِ وهم لا يسْأمُون**﴾.

في هذا المقطع والآية طرح لظواهر إبداعية هي الشمس والقمر والليل والنهار. . . وقد سبق أن طرح النص أيضاً بعض الظواهر الإبداعية بالنسبة إلىٰ خلق الأرض و السماء إلاّ أن السياق هناك كان في صدد الربط بين مطلق الإيمان وبين المنحرفين الذين لم يتعظوا بهذه الظواهر، أما الطرح الجديد في هذه الآية التي نتحدث عنها، فيأتي في سياق آخر هو أن المستكبرين عن عبادة الله لا يتركون أثراً في الحياة العبادية التي استهدفها الله في إبداعه للوجود: حيث أن الملائكة يتوفرون علىٰ الممارسة العبادية بنحو لا سأم منه ولا ملل:

﴿فالذين عند ربك يسبّحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ . . .

إذن، فالسياقان اللذان ورد من خلالهما طرح الظواهر الإبداعية مختلفان. . .

والأمر نفسه عندما نواجه للمرة الثالثة طرحاً جديداً للظواهر الكونية في مقطع آخر.

﴿ومن آياته أنَّك ترى الأرض خاشعةً، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، إنَّ الذي أحياها لمُحْي الموتى إنه على كل شيء قدير. . .﴾.

وهكذا نجد، أن النص عندما يطرح للمرة الثالثة ظاهرة إبداعية: إنما يصوغها في سياق جديد يتطلبه الموقف، وهو: الربط بين ظاهرة إحياء النبات وظاهرة إحياء الموتى عند اليوم الآخر. . . ولا نغفل أن النص يتحدّث عن جملة من الظواهر المتصلة بالإيمان وعدمه مطلقاً، ومنها: الإيمان باليوم الآخر، ومنها الجزاء المترتب على ذلك، ومنها: مفردات متنوعة من السلوك الذي ينبغي أن يختطه الشخص في ممارساته الدنيوية. . . لذلك جاء الربط بين اليوم الآخر وبين ظاهرة إحياء النبات: أمراً يتجانس تماماً مع البناء الهندسي للسورة الكريمة.

وأياً كان فإنّ النص بعد أن يصل بين ظاهرتين إحياء النبات وإحياء الموتى، يعقب علىٰ المنحرفين الذين سبق لهم أن استكبروا: فردّهم بأنّ الملائكة لا يستكبرون عن عبادته، وعلىٰ المنحرفين الذين يلحدون من آياته التي عرضها قبل قليل: عقب على ذلك بقوله: **﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا، أفمنْ يُلقى في النار خير أمَّنْ يأتي آمناً يوم القيامة﴾**، حيث يرد علىٰ هؤلاء بأنّ إلحادهم لا يضر الله تعالى شيئاً بقدر ما يضرّ بأنفسهم، كما رد المستكبرين سابقاً بأنّ عدم عبادتهم لا يحتجز العمل العبادي الذي تتوفر الملائكة عليه بلا سأم. . . بعد ذلك، يتقدم النص إلى تفصيلات جديدة عن

الموقف المنحرف الذي يصدر عنه الكافرون برسالة الإسلام، إلاّ أن ذلك يتم في سياق خاص، فقد سبق لمقدمة السورة أن أشارت إلى أن القرآن الكريم نزل بلسان عربيّ، كما أشارت إلى أن أكثر الناس يعرضون عن ذلك **﴿كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾**... نتحدث عنه الآن بتفصيل إجماله: بعد أن كانت المقاطع السابقة قد تكفلت بتفصيل الإجمال المرتبط بالبشارة والأنذار وغيرهما مما وقفنا عليه سابقاً... أماالجديد الذي يطرحه المقطع فهو:

﴿ما يُقال لك إلاّ ما قَدْ قيلَ للرُسل منْ قبْلك، إنّ ربّك لذُو مغفرةٍ وذو عقابٍ أليم ولو جعلناهُ قرآناً أعجمياً لقالُوا لولا فُصلتْ آياتُه، أعجمي، وعربي قل هو للّذين آمنوا هدىً وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر، وهو عليهم عمًى، أولئك يُنادون من مكان بعيد﴾.

إذن، نحن الآن أمام سياق جديد من الأفكار المطروحة في مقدمة السورة والمفصَّلة في مقاطعها المختلفة... السياق الجديد هو: ان القرآن الكريم نزل بلغة عربية يخبرها المعاصرون لرسالة الإسلام: وهذا ما نطقت مقدّمة السورة به: كما أشرنا، وها هو المقطع الجديد يطرح ظاهرة اللغة التي نزل بها القرآن فيوضح بأنّ المنحرفين كان من الممكن أن يعترضوا علىٰ لغة القرآن فيما لو كانت لغته أعجمية: **﴿أعجمي وعربي﴾** مما يعني أنهم ـ كما أوحىٰ النص بذلك ـ لن يؤمنوا برسالة الإسلام في الحالين: بدليل أنهم ـ مع مواجهتم لغته العربية ـ لم يؤمنوا به أيضاً...

إذن في الحالات جميعاً، نواجه المنحرفين وقد صدروا عن مواقف شتى لا سبيل إلى تعديلها البتة، ففي آذانهم وقر وهو عليهم عمىً وهي نفس السمة التي اعترف بها المنحرفون في مقطع أسبق من السورة: حيث خاطبوا النبي(ص) **﴿ قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك**

حجاب﴾ . . .

هنا ينبغي ـ بطبيعة الحال ـ تذكير المتلقي بجمالية البناء الهندسي للسورة من حيث التلاحم الفني الذي يلحظه بين هذا المقطع ومقاطع سابقة من السورة، تدعنا نقف أمام عمارة فنيّة يرتبط كل قسم منها بالقسم الآخر، بالنحو الذي لحظناه في هذا المقطع وسائر مقاطع السورة الكريمة.

* * *

قال تعالى: **﴿ولقد آتينا موسىٰ الكتاب فاخْتُلف فيه، ولولا كلمة سبقت من ربك، لقُضي بينهم، وانهم لفي شكٍ منه مريب﴾**.

الملاحظ أن هذه الآية التي تحدثت عن موسىٰ عليه السلام وموقف مجتمعه من بين مؤمن برسالته وغير مؤمن بها: وهذا التذكير بموسىٰ دون باقي الأنبياء من جانب مجيء هذه الأقصوصة أو الحكاية مستقلة من حيث كونها لم تجيء في سياق عرْض قصصٍ سابقة عرضها النص في موقع آخر: لا بد أن ينطوي علىٰ سرّ فنّي يتصل بعمارة السورة. . .

إن ادنىٰ تأمل لهذه الحكاية عن موسىٰ عليه السلام، تقتادنا إلى القول بأنّ حكاية موسىٰ وردت في سياق خاص يتصل بتأجيل الجزاء الدنيوي عن مجتمع محمد(ص). . . بينا وردت قصتا عاد وثمود في سياق التهديد بالعقاب. . . هناك في قصتي عاد وثمود مجرّد إنذار، مجرد تلويح بإمكانية أن يلحق مجتمع محمد نفس الجزاء الذي لحق مجتمعي عاد وثمود، أما هنا في مجتمع موسىٰ فإنّ الحكاية ترسم الموقف بحسم حيث تذكر لنا أن الجزاء الدنيوي قد رفع عن مجتمع محمد(ص) كرامة له. . . (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم).

وهذا من حيث الجزاء المقارن بين مجتمع سابق ومجتمع حاضر. . .

أما من حيث كون النص قد اعتمد حكاية مجتمع موسىٰ دون غيره، فنحتمل ـ فنياً ـ أن ذلك عائد إلى توافق مجتمعي موسىٰ ومحمد(ص) حيث ذكر النص ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه**﴾ أي: «شطر» المجتمع إلى مؤمن برسالة السماء آنذاك وبين متمرّد عليها، وهو نفس الموقف الذي طبع مجتمع رسالة الإسلام. . .

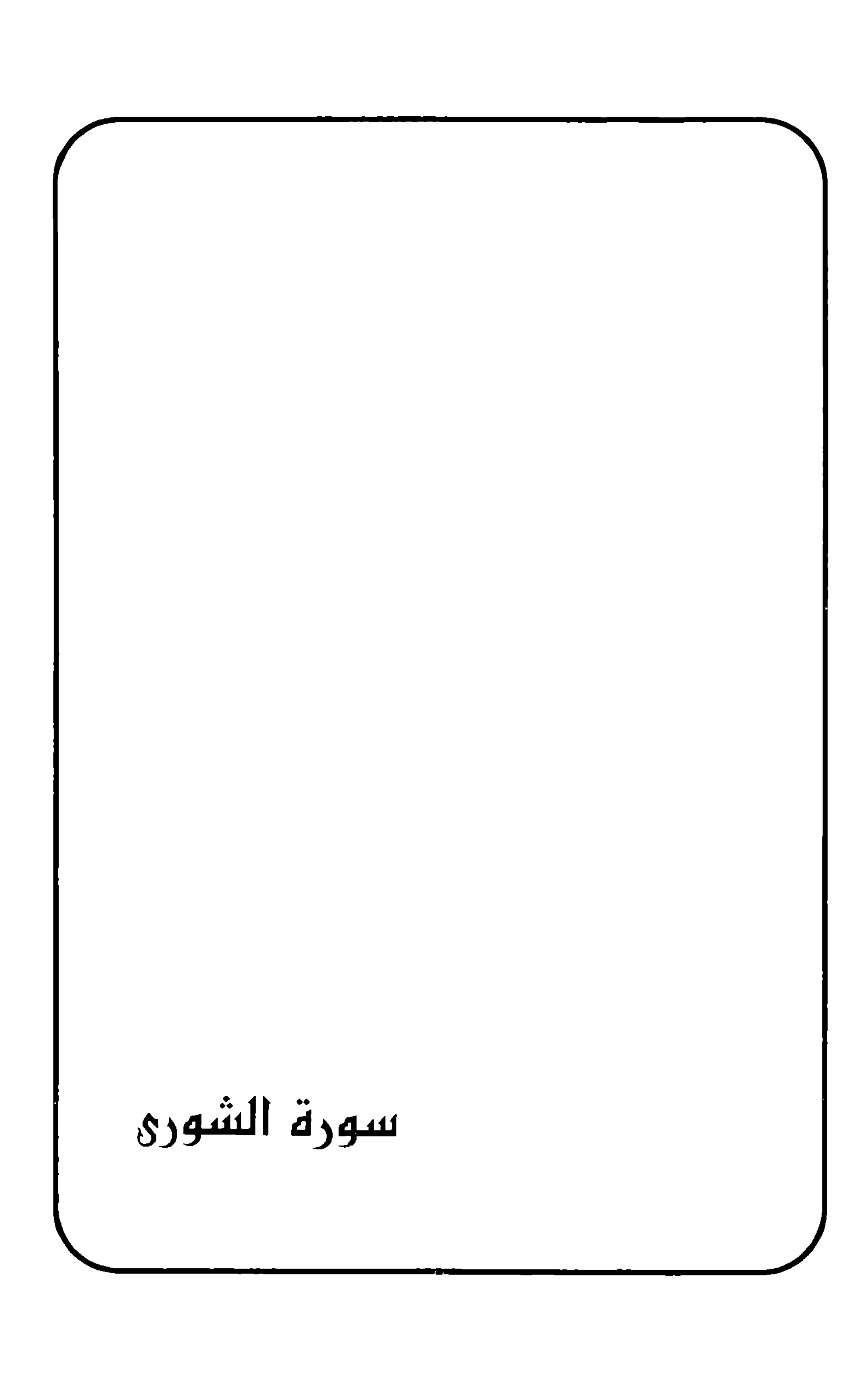
المهم، أن المقطع المذكور تحدث عن الجزاء الدنيوي خاتماً بذلك: الحديث عنه من حيث مستوياته المترتبة علىٰ الإيمان والكفر. . .

والآن، لو تابعنا القسم المتبقي من السورة لوجدنا أن مقاطعها تتحدث عن مفردات من السلوك الذي تطبعه سمة (الريب) حيال الرسالة أو اليوم الآخر» وهي سمة تفصح عن الاضطراب النفسي الشديد الذي يطبع المنحرفين عن مبادىء السماء حيث ينسحب شكّهم علىٰ الموقف العقائدي أيضاً. . .

من زاوية البناء الهندسي للنص، نجد أن المقطع الذي تحدّثنا عنه قد ختمه النص بقوله: ﴿**وانهم لفى شك منه مريب**﴾. ولذلك فإنّ المقاطع المتبقية من السورة تحوم علىٰ فكرة (الشك) أو الريب الذي ختم به النص حكاية موسىٰ. . . بل أن السورة تُختم أيضاً بآية تشير إلى السمة المذكورة بقولها ﴿**ألا انّهم في مرْيةٍ من لقاءِ ربِّهم، ألا إنَّه بكل شيء محيط**﴾. ويمكننا ملاحظة هذه السمة في مقاطع السورة مثل محاورة المنحرف القائلة: ﴿**وما أظن الساعة قائمةً ولئن رجعت إلىٰ ربِّي إنَّ لي عنْدهُ للْحُسنىٰ. . .**﴾ فهو لا يظن قيام الساعة، لكنه مع ذلك يقول ﴿**لئن رُجعت. . . إلخ**﴾ وهذا يجسّد قمة (الشك) كما هو واضح. . . ويمكننا ملاحظة ذلك أيضاً في هذا المقطع الذي ينقله النص عن المنحرف: ﴿**لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وان مسّه الشّر فيؤوس قنوط**﴾ فهو يسأل الله الخير، لكنه ييأس في حالة الإحباط، وهذا بدوره يجسد الشك في أبرز خطوطه. . . ويمكننا ملاحظة نموذج ثالثٍ توضحه

هذه الآية ﴿**وإذا انعمنا علىٰ الإنسان أعرض ونأىٰ بجانبه، وإذا مسَّهُ الشَّر فذُو دُعاءٍ عريض**﴾ فهو يستكبر عن الاعتراف بالله في حالة الخير، ولكنه يتجه إلى الدعاء الكثير في حالة الشر، وهذا بدوره يفصح عن حالة الشك، وهكذا. . . خلال هذه العرض لشرائح السلوك، المتصل بسمة (الشك) عند المنحرفين، يقدّم النص مجموعة من الحجج أو الأدلة الإبداعية لردم الشك المذكور، حيث يذكر ذلك ضمناً حيناً مثل ﴿**إليه يُرد علم الساعة، وما تخرج من ثمرات من اكمامها، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه**﴾ مع ملاحظة التنوع لهذه الظواهر التي يتصل بعضها بظواهر النبات، وبعضها بظواهر التكوين البشري، كما يذكر ذلك صراحة حيناً آخر مثل قوله تعالى ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ أي: حتىٰ يزول (الشك) الذي أشرنا إلى صدور المنحرفين عنه. . .

وأياً كان، فقد لحظنا أن هذه السورة التي تحدّثنا عن مقاطعها جميعاً: قد شددت علىٰ إبراز سلوك الكافرين في مختلف أنماطه التي لا حاجة إلى إعادة الكلام فيها. . . إلاّ أن ما ينبغي لفت الانتباه عليه هو أن السورة تستهدف في الآن ذاته إبراز الجوانب السلبية في سلوك الإنسان مطلقاً بما في ذلك سلوك بعض الإسلاميين الذين لا يحملون وعياً عبادياً حاداً أو ممن تنتابهم لحظات الضعف، بخاصة ما لحظناه من الآيات التي تشير إلى أن الإنسان لا يسأم من دعاء الخير ولكنه يؤوس عند مواجهة للشر أو أن الإنسان إذا أنعم الله عليه أعرض عنه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض. . . أن مجرد إطلاق كلمة (الإنسان) في هذه الآيات بدلاً من لفظه (الكافر) يعني إمكانية انسحاب هذه الأنماط من السلوك على الإسلاميين أيضاً، وهو ما يمكننا ملاحظته في السلوك اليومي لمجتمعاتنا، والمهم بعد ذلك هو إن ندرك بأنّ الآية القرآنية الكريمة تستهدف حمل المتلقي على الإيمان أو علىٰ تعديل سلوكه، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.



سورة الشورى

قال تعالى: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم عسق كذلك يُوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض، وهو العليُّ العظيم تكاد السماوات يتفطّرن من فوقهن، والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون لمن في الأرض، ألا إن الله هو الغفور الرحيم والذين اتَّخذوا من دُونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنتَ عليهم بوكيل﴾**.

بهذا المقطع تُفتح سورة الشورىٰ، حيث أشارت إلى أنّ لله ما في السماوات والأرض، وأن السماوات تكاد تنفطر، وأن الملائكة يسبّحون، ويستغفرون لِمَن في الأرض، وأنّ الذين اتخذوا من دون الله أولياء، سوف يحاسبهم الله، وإنك يا محمد ـ لست عليهم بوكيل... لا شك، أن هذه الموضوعات متفاوتة، وكل واحد منها مستقلّ في دلالته، ولكنها سوف تسحب آثارها علىٰ عمارة السورة الكريمة، بحيث تشكّل مقدمةً مجملةً، تتكفّل مقاطعُ السورة اللاحقة بتفصيل الحديث فيها... وأمّا انتخاب هذه الموضوعات (في مقدمة السورة) دون غيرها، فيعني أن النص يستهدف التركيز على هذه الموضوعات، حيث تتكفّل كلُّ سورةٍ من سور القرآن الكريم بطرح موضوع واحدٍ أو أكثر: حسب الهدف الذي يرسمها الله تعالى في هذا النص أو ذاك... والمهمّ هو: أنّ عمارة السورة القرآنية تأخذ أشكالاً مختلفةً من البناء، حيث أنّ قسماً منها يتناول موضوعاً واحداً، وقسماً واحداً يتناول موضوعات متنوعة ولكنها تخضع لوحدة فكرية تجمع بين خيوط الموضوعات جميعاً، وقسماً ثالثاً منها يتناول عدة موضوعات مستقلة ولكن الانتقال من أحدها إلى الآخر يتّم وفق مبنى هندسي خاضع لطبيعة العمليات الذهنيّة لدىٰ الإنسان حيث يتمّ الربط بين موضوع وآخر: أما من خلال (التداعي الذهني) أو

«التدرج» في مشاعر الإنسان بحيث ينتقل الذهن من موضوع إلى آخر على نحو تدريجي. . . والمقطع أو المقدمة التي استُهلت بها سورة الشورىٰ تنتسب إلى النمط الثالث من البناء، أي النمط الذي يتضمن موضوعات متنوعة يتم الانتقال من أحدها إلى الآخر وفق مبنى هندسي، نعرض له الآن:

الموضوع الأول هو «الوحي» والموضوع الذي يليه هو ملكية الله تعالى لما في السماوات والأرض. . . أما الوحي فلأنه وسيلة توصيل المبادىء إلى الناس، وأمّا ملكية الله تعالى، فهي أوّل موضوع يستهدف النصُ أن يوصله إلى الناس. . لكن حينما نواجه الموضوع الثالث نجده يقول: ﴿**تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن**﴾. . . والسؤال هو، ما هي الصلة بين الموضوع الذي سبقه و هو ملك السماوات و الأرض و الموضوع الذي نتحدث عنه الآن ﴿**تكاد السماوات يتفطّرن من فوقهنّ**﴾. . . إن الصلة الفنية بينهما هي إن النص عندما تحدث عن ملكية السماوات والأرض، بدأ بالحديث عن أحد شطري الملكية والسماوات، وبعدها تحدث عن كليهما عندما قال تعالى ﴿**والملائكة يسبّحون بحمد ربهم، ويستغفرون. . . الخ**).

والمهم أن نتحدث أولاً عن كل موضوع من موضوعات المقدّمة التي استُهلت بها سورة الشورىٰ، وأن نتحدث بعد ذلك عن سائر مقاطع السورة (من حيث صلتها الفنية) بالمقدمة المشار إليها. . . أما الموضوع الذي نعرض له الآن فهو: الصورة الفنية التي تنتسب إلى ما نسميه (في اللغة الأدبية) بـ (الصورة التقريبية)، وهي ما تتركب من ظاهرتين، أو طرفين يقوم أحدهما علىٰ اكساب الآخر صفة خاصة على نحو المقاربة للشيء دون أن يكون ذلك منطوياً على (واقع خارجي)، وهذا ما تمثّله عبارة (تكاد) في قوله تعالى: ﴿**تكاد السماوات يتفطّرن من فوقهنّ**﴾، فالسماوات لا تتفطّر بالفعل، ولكنها توشك أو تقارب أن تتفطر: نظراً لخطورة الظاهرة التي يستهدف النص أن

يوصلها إلينا... وقد يتساءل القارىء أو السامع: هل المقصود من كون السماوات تكاد تتفطّر: من أجل كونها مخلوقات أشدّ وعياً من مخلوقات الأرض بحقيقة الله تعالى؟ أم أن المقصود من ذلك أن السماوات تكاد تتفطّر من مواقف المنحرفين في الأرض ممن اتّخذ من دون الله تعالى أولياء لهم كما هو مفاد الموضوع الأخير من موضوعات المقدمة التي خُتمت بقوله تعالى ﴿**والذين اتّخذوا من دونه أولياء... إلخ**﴾. إن كلاً من هذين الاحتمالين من الممكن أن يكون صحيحاً، فالاحتمال الأول يُشير إلى أن مخلوقات السماء تكاد تتفطّر لشدّة وعيها بحقيقة الله تعالى، وفي هذا تعريض بمواقف البشر الذين ينحرفون عن مبادىء الله تعالى، والاحتمال الثاني يُشير إلى مدى المفارقة الضخمة التي تطبع البشر حينما يتّخذ شريكاً لله تعالى... ومع الاحتمال الأخير، يمكننا أن نتبيّن واحداً من أسرار البناء الهندسي للسورة، حيث تشكّل هذه الإشارة إلى أنّ السماوات تكاد تتفطر انعكاساً لما سوف يطرحه النص من موضوع الشرك، وهذا ما يفصح عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص: من حيث علاقة الموضوعات بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرىٰ ومن حولها وتُنذر يوم الجمع لا ريب فيه، فريق في الجنّة وفريق في السعير ولو شاء الله لجعلَهُم أمّةً واحدةً ولكن يُدخل من يشاء في رحمته، والظالمون ما لهم من وليّ ولا نصير أم اتَّخذوا من دونه أولياء، فالله هو الوليّ وهو يحيي الموتىٰ، وهو على كل شيءٍ قدير وما اختلفتم فيه من شيءٍ فحُكْمُهُ إلى الله، ذلكم الله ربّي عليه توكلتُ وإليه أُنيب...**﴾.

هذا المقطع يتضمن جملةً من الموضوعات، إلاّ أنّها تظل مرتبطةً عضوياً

بمقدمة السورة التي قلنا أنها مهدت بجملة من الموضوعات على نحو الإجمال، ليجيء وسطُ السورة فيفصّل الكلام فيها... وأول موضوع طرحته المقدمة هو «الوحي» (حم عسق كذلك يُوحي إليك... إلخ). وها هو المقطع الذي نتحدث عنه، يفصّل جانباً من «الوحي» ومهمته، فيقول **﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً، لتنذر أمَّ القرىٰ ومن حولها، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه، فريق من الجنّة وفريق في السعير﴾**...

إذن، بدأ مفهوم «الوحي» يفصّل لما ما يتضمنه الوحي: من تقديم لحقائق يستهدف النصُ توصيلها إلينا، وهي أولاً: إنّ القرآن نزل بلغة عربية لينذر أمّ القرىٰ (وهي مكة) وما حولها، ونتساءل: ما هو السر الفني الكامن وراء قوله تعالى بأنّ القرآن عربي؟... الجملة التي تلي ذلك تفسّر لنا السر وهو (لتنذر أمّ القرىٰ) فبما أن البيئة التي نزل فيها الوحي عربية اللغة، حينئذٍ جاءت العبارة **﴿قرآناً عربياً﴾** تفسّر السر، وإلاّ نجد أن ذكر القرآن في مواقع كثيرة لا يجيء مقروناً بكونه عربياً، وهذا هو أحد أسرار البناء الفني للموضوعات من حيث تجانس أجزائها: بعضها مع الآخر، مضافاً إلى تجانس المقدمة للسورة، حيث تضمنت طرحاً إجمالياً لـ **﴿الوحي﴾** ثم **﴿فصّلت﴾** الكلام بعد ذلك في مقاطع لاحقة من السورة... والمهم، أن الموضوع الأول الذي طرحه المقطع من حيث مفهوم «الوحي» هو: نزوله بلغة خاصة، ثم إنذاره للناس (أهل مكة وما حولها) في البداية، ثم إنذاره يوم الجمع، والمقصود بـ (يوم الجمع) هو يوم القيامة، وهذا يعني أن النص يستهدف التركيز علىٰ «اليوم الآخر» وليس مجرد الإيمان بمبادىء السماء منفصلاً عن أهم مبادئه المتمثلة في الإيمان باليوم الآخر، ثم: ذكر حقيقة من حقائق اليوم الآخر، ألا وهي: أن الناس فريقان، فريق في الجنّة وفريق في السعير... طبيعياً ينبغي أن ندرك بأنّ المقطع حينما يقول بأنّ الناس فريقان، أحدهما في الجنة والآخر في السعير، فهذا يعني (من حيث المبنىٰ الهندسي للسورة

الكريمة) أن النص سوف يتحدث لاحقاً عن الأسباب التي تجعل الناس فريقين، لذلك يُجمل الكلام هنا أولاً، ثم يفصل ذلك، حيث تحدث عن أحد الفريقين أولاً، وهو (يدخل من يشاء في رحمته)... وهذا هو الفريق الداخل في الجنة، وأمّا الفريق الآخر فيقول عنه المقطع (والظالمون مالهم من وليّ ولا نصير أم اتخذوا من دونه أولياء...؟) إذن، بدأ السبب يتّضح من حيث الفريق الآخر الداخل في السعير... إنه الفريق الذي اتخذ من دون الله تعالى أولياء...

إذن، بدأنا نلحظ أسرار الفن في صياغة هذه الموضوعات التي (أُجملت) ثم (فُصلت)... فأولاً نلحظ وجود علاقة فنية بين هذا المقطع وبين مقطع سابق جاء في نهايته ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل**﴾ أي: أن النبيّ(ص) وسائر المبلغين ليسوا مسؤولين عن سلوك المنحرفين بل الله تعالى هو الذي يتولى محاسبتهم... هذا الكلام الذي ورد في مقطع سابق، جاء الآن ليأخذ تفصيلاته في المقطع الذي نتحدث عنه، فالذين اتخذوا من دون الله أولياء... ها هم الآن يجسدون ذلك الفريق الداخل في السعير حيث أوضحنا كيف أن المقطع قد أشار إلى أن الظالمين الذين اتخذوا من دون الله أولياء ليس لهم من وليّ ولا نصير في يوم القيامة... وأما قوله في المقطع الأسبق بأنّ المبلّغ ليس بوكيل على هؤلاء، فإنّ المقطع الذي نتحدّث عنه الآن، شرح ذلك بقوله تعالى ﴿**ولو شاء الله لجعلهم أمةً واحدة**﴾ أي: أن الله تعالى بمقدوره أن يجعل الناس أمةً واحدة وليس فريقاً في الجنّة وفريقاً في السعير، لذلك لست ـ أيها المبلّغ ـ مسؤولاً عن انحرافهم، بل الله تعالى هو الذي سيحاسبهم في اليوم الآخر...

إذن، أمكننا أن ندرك هذه المستويات المختلفة من طرح الموضوعات المجملة تم تفصيلها فيما بعد، حيث نستكشف منها مدىٰ احكام المبنىٰ

الهندسي للسورة: من حيث علاقة موضوعاتها بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكْمُهُ إلى الله، ذٰلكم الله ربّي، عليه توكلت وإليه أُنيب فاطرُ السماوات والأرض، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً، ومن الأنعام أزواجاً، يذرؤكم فيه، ليس كمثلِهِ شيءٌ وهو السميع البصير له مقاليد السماوات والأرض يَبسطُ الرزق لمن يشاء ويقدِرُ إنّه بكل شيء عليم شرَعَ لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه، كبُرَ علىٰ المشركين ما تدعُوهُم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من يُنيب...**﴾.

هذا المقطع من سورة الشورىٰ امتداد لما سبقه من المقاطع التي تتحدث عن موضوعات شتّى تضمّنتها المقدمةُ للسورة، منها: مهمّة «الوحي» بمبادىء الله تعالى وإنذار المشركين، وعدم الإكراه في الدين، وملكيته السماوات والأرض لله تعالى.

هذه الموضوعات التي طرحتها المقدمة: لا تزال منعكسة علىٰ مقاطع السورة حيث يتكفل كل مقطع بطرحٍ جديدٍ لها... فمن حيث ملكيته تعالى للسماء والأرض، يشير المقطع إلى كونه تعالى مُبدعاً لهما ﴿**فاطر السماوات والأرض**﴾ كما يشير إلى أن (مقاليدهما) بيده تعالى ﴿**له مقاليد السماوات والأرض**﴾...

هنا ينبغي ألاّ نغفل عن هذه الصورة الفنية أي «الاستعارة» التي تتمثل في عبارة (له مقاليد...) فالمقاليد هي المفاتيح، ومعنى هذا أنّ المقطع خلع صفة «الفتح» للأبواب (وهي المقاليد) علىٰ ظاهرة (الهيمنة) أو (السيطرة) من قبل الله تعالى لما في السماوات والأرض، وهذه الاستعارة تتميز بوضوحها وألفتها، ولكنها ملأىً بالدلالة العميقة، فالأبواب لا تُفتحُ إلاّ بالمقاليد، وكل

من المقاليد بيد الله تعالى فضلاً عن أنّ السماوات والأرض له تعالى أيضاً، لا أنّ أحدهما بيده والآخر بيد سواه، مما يعني أن كل شيء لله تعالى لا يشاركه أحد في ذلك، وهذه الدلالة سوف تنعكس على ما يطرح المقطع بعد ذلك من سلوك المشركين الذين يُشركون مع الله تعالى قوىً أخرى، حيث أشار المقطع بعد ذلك إلى أنه «كبر على المشركين ما تدعو إليه . . .».

والآن إذا تركنا هذا الموضوع الذي لحظنا مدىٰ ارتباطه عضوياً بعمارة السورة الكريمة، واتجهنا إلى الموضوعات الأخرىٰ، وجدنا أن النص يتجه إلى جملة من الموضوعات، منها قضية بسط الرزق لمن يشاء الله تعالى وعدم بسطه الآخرين حسب متطلبات الحكمة، ومنها: قضية جعل الإنسان والأنعام «أزواجاً» مع ملاحظة أن أمثلة هذا الطرح تجيء «ثانوية» في سياق الموضوعات الرئيسة التي تضمنتها المقدمة، حتىٰ يُلفت النظر إلىٰ اهميتها. . .

ويُلاحظ، أن المقطع طرح موضوعاً ثالثاً هو قوله تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصّىٰ به نوحاً، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا**. . .﴾ هذا الموضوع هو أهم ما يتضمنه المقطع من طرح، حيث جاء متناسباً أولاً مع مقدمة السورة التي قالت (حم عسق كذلك يوحي إليك وإلىٰ الذين من قبلك). . . وها هو المقطع يشير إلىٰ ما أوحى إلى النبيّ(ص) وإلى من قبله نوح، إبراهيم، موسىٰ، عيسىٰ. . . ثم جاء متناسباً ثانياً مع عملية الإنذار أوتوصيل مبادىء الله تعالى إلى الناس، حيث أشارت المقدمة إلى ذلك (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً، لتنذر. . . إلخ).

لكن، إذا غضضنا النظر عن صلة (مقدمة السورة) بهذا المقطع (من حيث العمارة الفنية) واتجهنا إلى مضمون المقطع، لحظنا أن النص أشار إلى خمسة أنبياء هم: نوح، إبراهيم، موسىٰ، عيسىٰ، محمد(ص). . .

وهذا ما يدعونا إلى التساؤل عن السر الفنّي لذكر هؤلاء دون سواهم. . .؟ أن الأنبياء المذكورين قد طبعتهم سمة «أولي العزم» أي: أولي القوة، وهذا يعني أنَّ لهم تميّزهم من هذا الجانب، مضافاً إلى ذلك فإنّ الأنبياء المذكورين جاءت رسالاتهم لعامة البشر بالقياس إلى رسالات أخرىٰ تخص زماناً ومكاناً معيّنين، هذا فضلاً عن أن لكل واحدٍ منهم خصوصيات ينفرد بها، فمحمد(ص) يجسّد خصوصية الرسالة الناسخة للأديان السابقة وجعلها خاتمة الرسالات، وأما نوح عليه السلام فيجسد خصوصية التجربة البشرية الجديدة بعد حادثة الطوفان، حيث سلم من الطوفان عدد ضئيل بحيث شكّل التجربة البشرية جديداً، أمّا موسىٰ وعيسىٰ فقد استمرت رسالتهما إلى حين ظهور الأخيرة، فهما (أي رسالة عيسى عليه السلام) واستمرار الأخيرة إلى ظهور الإسلام. . . وأمّا إبراهيم عليه السلام، فإنّ (حنيفيته) تميزت من بين جميع الأديان باستمراريتها إلى حين ظهور الإسلام، بل أن مبادىء الحنفية قد تداخلت مع رسالة الإسلام أو لنقل أنّ الإسلام، احتفظ ببعض مبادئها التي لم تنسخ. . .

إذن، أمكننا الآن أن ندرك جانباً من الأسرار الفنية الكامنة وراء ذكر المقطع لهؤلاء الأنبياء دون سواهم في غمرة حديثه عن رسالة الإسلام وموقف المشركين منها، ثم موقف الكتابيين منها أيضاً، فيما ستنعكس هذه المواقف على الأقسام اللاحقة من السورة، فضلاً عن أن طرح الرسالات السابقة قد ارتبط بمقدمة السورة التي أشارت إلى ظاهرة الوحي لأصحاب هذه الرسالات (كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك) حيث يكشف مثل هذا الارتباط عن مدىٰ الإحكام الهندسي للسورة: من حيث علاقة أجزائها بعضها مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**وما تفرَّقوا إلاّ منْ بعدِ ما جاءهُمُ العلمُ بغياً بينهُمْ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجلٍ مُسمىً لقُضي بينهُمْ، وإنَّ الذين أُورثُوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مُريبٍ فلذلك، فأدْعُ وأستقم كما أُمِرت ولا تتّبعْ أهواءهُمْ، وقُلْ آمنتُ بما أنزَل الله من كتاب، وأُمرتُ لأعدلَ بينكم الله ربُّنا وربُّكم، لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكُمْ، لا حُجّة بيننا وبينكُم، الله يجمعُ بيننا، وإليه المصير**﴾.

هذا المقطع من سورة الشورىٰ، امتداد لمقاطع سابقة تتحدث عن رسالة القرآن وكيفية التعامل مع الطوائف الاجتماعية التي لم تستجب للرسالة المذكورة، لقد سبق أن طالب النص بالالتزام بالدين، وبوحدة الكلمة ﴿**أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾. أمّا الآن، فيبيّن الأسباب الكامنة وراء التفرّق الذي طبع الأمم السابقة: بالرغم من أن الأديان جميعاً قد خضعت لهدفٍ واحدٍ هو الإيمان بالله تعالى وبمبادئه... يقول المقطع عن تفرّق هذه المجتمعات ﴿**وما تفرّقوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم...**﴾ أي: أن هؤلاء تفرقوا عن كلمة التوحيد بسبب نزعة (البغي) أوالعدوان بينهم.

ومن الواضح، أن كلاً من «العدوان» و«الذاتية» هما اللذان يطبعان غالبية الأفراد والمجتمعات، وهما اللذان يقفان سبباً وراء تمزّق الفرد وتفكك المجتمعات، حيث يشير جميع علماء النفس والاجتماع إلى أن هاتين الظاهرتين هما السبب وراء الانحرافات الفردية والاجتماعية... ومن الواضح أيضاً أن العدوانية والذاتية ليستا مفروضتين على الفرد والمجتمعات، بل أن الإنسان بسبب من بحثه لإشباع شهواته يمارس هاتين الرذيلتين، ولذلك قال النص ـ في مقطع أسبق: ﴿**ولو شاء الله لجعلهم أمّة واحدة**﴾ أي: كان بمقدور الله تعالى أن يجعل الناس أسوياء لا انحراف فيهم، ولكن الحكمة تتطلّب أن

يُترك الإنسان ليمارس حرّيته بملء اختياره، ثم يتحمّل مسؤولية سلوكه في اليوم الآخر، والمهم (من الزاوية الفنية) أن هذا المقطع الذي نتحدث عنه وهو ﴿**وما تفرقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلمُ بغياً بينهم**﴾ يظل مرتبطاً فنياً بالمقطع السابق الذي يقول: ﴿**لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة**﴾ أي: أن النص يقدم الآن جواباً لتفسير الظاهرة الاجتماعية القائلة: « لماذا لم يصبح الناسُ أمةً واحدة؟ » حيث يجيء الجواب (أن البغي ـ وهو يشمل العدوان والذاتية ـ هو السبب وراء ذلك. . .

والآن، إذا تركنا هذه الظاهرة الاجتماعية المتصلة بمطلق الناس، واتجهنا إلى ظاهرة محدّدة تخصّ أهل الكتاب، وهم المسيحيون واليهود، لوجدنا أن المقطع القرآني الكريم، يقدّم أيضاً جواباً لتفسير الظاهرة المذكورة: في ضوء علاقتها أيضاً بمقطع أسبق أشار إلى الرسالات السابقة ﴿**كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك**﴾ حيث أشار إلى أن انحراف أهل الكتاب (وهم الذين اوحي إلى أنبيائهم بمثل ما اوحي إلى محمد(ص)) يتمثل في تشكيكهم بالرسالة الجديدة.

وهذا يعني (من زاوية البناء الهندسي للسورة) أن النص فصّل الحديث عن المجتمعات الثلاثة (مجتمع محمد(ص): في بداية ظهور الرسالة، ثم مجتمع الكتابيين، ثم المجتمع العالمي المنحرف مطلقاً، وقدّم إجابات واضحة للسؤالات المطروحة في مقدّمة السورة، وكان من جملتها تقرير الحقيقة القائلة بأنّ الله تعالى هو الذي يتكفّل بمحاكمة المنحرفين، وأن المبلغ ليس مسؤولاً عنهم. . . لنتذكر أن مقدمة السورة جاء فيها ﴿**وما أنت عليهم بوكيل**﴾ أي: لست يا محمد بوكيل على الناس، بل الله تعالى هو المحاسب على ذلك ﴿**الله حفيظ عليهم**﴾...

هذه الحقيقة التي وردت في مقدمة السورة، يبدأ الآن المقطعُ الذي

نتحدث عنه، بإلقاء الضوء عليها من خلال الإشارة إلى أنّ الناس تفرّقوا بسبب (البغي): العدوان والذاتية، حيث يخاطب النبيَّ(ص)، **﴿فلذلك فٱدْعُ وٱستقمْ كما أمرت ولا تتّبعْ أهواءهُمْ، وقُلْ آمنتُ بما أنزل الله من كتاب، وأُمرتُ لأعدل بينكُم، الله ربُنا وربُكم، لنا أعمالُنا ولكُمْ أعمالُكُمْ، لا حجة بيننا وبينكُم، الله يجمعُ بيننا﴾**. لنلاحظ بدقة: العبارات الثلاث الأخيرة **﴿لنا أعمالنا، ولكم أعمالكم﴾ ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ ﴿الله يجمع بيننا﴾**، فبغض النظر عن جمالية هذه العبارات من حيث الإيقاع الصوتي الذي يوازن بين الجمل الثلاث، وبغضّ النظر عن جماليّتها (من حيث التقابل الفنّي بينها) أي: التقابل بيْن (أعمالنا) و(أعمالكم) وبين (بيننا) و(بينكم)، بغض النظر عن الأسرار الفنية لهذه العبارات: إيقاعياً وصورياً، يعنينا منها ارتباطها بالهيكل الهندسي للسورة، حيث جاءت الإشارة إلى أنّه **﴿لنا أعمالنا﴾**، **﴿لكم أعمالكم﴾** ثم عبارة **﴿الله يجمع بيننا وبينكم﴾**، جاءت هذه العبارات تفصيلاً لما أجملته مقدمة السورة التي قالت: أن الله تعالى هو الذي يحاسب المنحرفين وأن المبلّغ ليس وكيلاً عليهم، حيث لحظنا الآن أن النص يطالب النبيّ(ص) بأن يقول للمنحرفين لستُ وكيلاً عليكم، فلكم أعمالكم ولنا أعمالنا وأن يقول لهم: الله تعالى هو الذي يحاسبكم **﴿الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾**. إذن، أمكننا ملاحظة مدىٰ الإحكام الهندسي للنص، من حيث علاقة موضوعاته بعضها مع الآخر، ومدىٰ الارتباط العضوي فيما بين مقدّمة السورة ووسطها، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿الله الذي أنزل الكتابَ بالحقِ والميزانَ، وما يُدريك لعلَّ الساعةَ قريبٌ يستعجلُ بها الذين لا يُؤمنون بها، والذين آمنوا مُشفقون منها، ويعلمون أنّها الحقُ، ألا إنَّ الذين يُمارُون في الساعة لفي ضلالٍ بعيد﴾**.

هذا المقطع من سورة «الشورىٰ» يختص بالحديث عن «قيام الساعة»،

حيث كانت المقاطع التي سبقتها، تتحدث عن مفهومات الشرك والتشكيك برسالة الإسلام، وهذا المقطع ينقل لنا جانباً آخر من سلوك المنحرفين، ألا وهو التشكيك بقيام الساعة. . .

ويعنينا من هذا الموضوع أسلوبه الفنّي من جانب، وعلاقته بعمارة السورة الكريمة من جانب آخر. . . أمّا علاقته بعمارة السورة، فتتضح من خلال إشارة المقطع إلى أنّه تعالى: **﴿أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾** حيث استُهلّت السورة بموضوع نزول «الوحي» وما يتضمّنه من مبادىء، وها هو المقطع يتحدّث عن الكتاب أو القرآن الكريم الذي نزل بالحق والميزان، رابطاً بين مقدمة السورة عن نزول الكتاب، وبين نزوله بالميزان والحق. . . وأمّا فنيّاً فيُلاحظ أن المقطع قد اعتمد الصورة الرمزية والصورة الحقيقية في رسمه أو طرحه لقضية نزول الكتاب بالحق والميزان. . . فالميزان، هو «رمز فنّي» يشير إلى مفهوم «العدل»، وهذا المفهوم ستكون له انعكاساته علىٰ الموضوع اللاحق ألا وهو: قيام الساعة، حيث أنّ أحد مصاديق «العدل» أو «الميزان» هو: محاسبة الناس في اليوم الآخر وفق الميزان الذي يفرز أعمال الناس: خيرها وشرّها. . . لذلك نجد أن الآية الكريمة، قالت مباشرةً بعد إشارتها إلى نزول الكتاب بالحقّ والميزان، قالت **﴿وما يدريك لعلّ الساعة قريب﴾** فالقارىء قد يتساءل: ما هو السر الفني الذي يكمن وراء هذا الكلام الذي كان يتحدث عن نزول الكتاب بالحق والميزان وبين انتقاله مباشرة إلى الكلام عن قيام الساعة، لكن ـ في ضوء ما شرحناه ـ يمكن أن نفسّر سرّ ذلك، حيث أن هناك علاقة بين الحق والعدل وبين انعكاسهما في اليوم الآخر علىٰ محاسبة الناس لأعمالهم. . .

بعد ذلك يتحدّث المقطع عن قيام الساعة نفسه وموقف المنحرفين والمؤمنين منه. . . حيث أشار أولاً إلىٰ أنّه: «لعلّ الساعة قريب» أي من

الممكن أن تكون قريبة الوقوع، ثم أشار ثانياً إلى أنّ غير المؤمنين يستعجل وقوعها، وأنّ المؤمنين يشفقون منها ويعلمون أنها «الحق». . . هنا ينبغي أن نطرح جملة من الحقائق الفنية في هذا الصدد، فأوّلاً: يُلاحظ أنَّ النص ذكر بأنّه: «لعلّ الساعة قريب»، وطبيعياً، أن نتساءل عن السرّ الفني وراء صياغة العبارة بهذه الصيغة (صيغة: لعلّ) ثم صيغة (قريب)، فلعل هي أداة تقريب للشيء، وهذا يعني أن النص لم يحدّد زمناً خاصاً لها، لكن بما أن عبارة (قريب) نشير إلى وقوع الساعة قريباً، حينئذٍ نستكشف بأنّ قرب الساعة أو بُعدها أمر غير محدّد: مع ترجيح قُربها بطبيعة الحال. . . لكن بما أنّ عنصر «الزمن» في حساب الله تعالى (وفي حساب اليوم الآخر الذي يُضاعف زمن الدنيا)، حينئذٍ نستكشف بأن «القرب» لا يتحدد بمعاييرنا الدنيوية للزمان، بل يتحدد بمعايير اليوم الآخر نفسه. . .

ثانياً: نلحظ أن الآية الكريمة، قالت عن المنحرفين بأنهم: يستعجلون بقيام الساعة: والاستعجال أيضاً هو معيار دنيوي، لذلك فإنّ النص ذكر سلفاً بأنّ وقوعها «قريب» حتى يتجانس مفهوم «الاستعجال» مع مفهوم «القرب». . . ثم نلحظ أن النص قال عن ردود الفعل حيال قيام الساعة بالنسبة إلى المؤمنين بأنهم ﴿**مشفقون منها، ويعلمون أنها الحق**﴾. هنا ينبغي أن نتذكر بأنّ المقطع القرآني ذكر في الآية الأولى بأنّ الكتاب قد نزل بالميزان والحق، أما الميزان فقد ذكرنا علاقته بقيام الساعة، وأما «الحق» فإنّ الآية الأخيرة التي نتحدث عنها، ذكرت عبارة «الحق». وقالت بأنّ المؤمن يعلم بأنّ قيام الساعة «حق»، حيث ربطت بينهما وبين نزول الكتاب بالحق. . .

وهكذا نجد مدىٰ الترابط والتلاحم بين أجزاء المقطع الذي نتحدث عنه: من حيث علاقة نزول الكتاب بالحق والميزان، بالميزان والحق المرتبطين بقيام الساعة، وهذا ما يُفصح عن أشدّ مستويات الإحكام الهندسي للنص القرآني

الكريم: من حيث علاقة موضوعاته بعضها مع الآخر بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القويّ العزيز من كان يريدُ حرث الآخرة نزِد له في حرثِهِ، و من كان يُريد حرث الدنيا نُؤتِه منها، وما له في الآخرة من نصيبٍ أم لهم شركاءُ شرَعوا لهم من الدين ما لم يأذن بِهِ الله، ولولا كلمةُ الفصل لقُضي بينهم، وإنَّ الظالمين لهم عذاب أليم ترىٰ الظالمين مُشفقِين مما كسبوا وهو واقع بهم، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنَّاتِ لهم. ما يشاءُون عند ربّهم ذلك هو الفضل الكبير. . .**﴾.

هذا المقطع يوازن بين الدنيا والآخرة، بين الظالمين والصالحين، بين النار وبين الجنّة. . . إنه يُستهلُّ بظاهرة (الرزق) ـ وهي تشمل العطاء الدنيوي والأخروي ـ حيث أنّ (التقابل) الفنّي في هذا المقطع بين الدنيا والآخرة، والنار والجنّة، والمؤمن والمنحرف، يفرض (من الزاوية البنائية لعمارة المقطع) أن يشمل الرزق كلاً من أبناء الدنيا والآخرة، كما يركّز على ظاهرة (الرزق) الأخروي بصفته يحقق اشباعاً خالداً لحاجات الإنسان ﴿**من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه**﴾ وأمّا في الدنيا، فكذلك يرزق الله من يشاء ذلك.

إن الله تعالى يرزق من يريد الحياة الدنيا، ويرزق من يريد الحياة الأخرىٰ، لكن: من يريد الدنيا ماله في الآخرة من نصيب، وأمّا من يريد الآخرة، فلا يُعطاها فحسب بل يُزاد في رزقه منها أيضاً.

للمرة الثانية ينبغي أن نلتفت لعمارة المقطع التي بدأت بالحديث عن أن الله لطيف بعباده ورازق لمن يشاء، حيث يتجسّد رزقه للمؤمن والفاسق عل حدٍّ سواء، كل ما في الأمر أن الفاسق لاحظ له من رزق الآخرة، وهذا ما يستهدفه المقطع. . .

هنا، ينبغي أيضاً أن نلتفت للاستعارة الحيّة التي رمزت للرزق بعبارة (الحرث) حيث خلعت طابع (الزرع ـ وهو الحرث) علىٰ المعطيات أو المكاسب أو الإشباعات التي يبحث عنها الإنسان. فبالرغم من أن الصورة الفنية (الحرث أو الزرع) تعدّ من الظواهر المألوفة جداً، إلاّ أنها تكتنز بدلالات عميقة كلّ العمق، حيث أن عملية الحرث ترمز إلى الجهد الـذي يبذله الإنسان من جانب، فضلاً عن الثمر الذي يجنيه منه من جانب آخر، حيث يستوحي المتلقّي منها (ليس مجرد الرزق) بل (العمل) الذي يصدر عنه الإنسان وهو يمارس عملية الحرث، فالمؤمن (يعمل) و(يُرزق)، والفاسق يعمل ويُرزق أيضاً، إلاّ أن عمل الأول يقترن بالعمل من أجل الله تعالى فيترتب عليه الرزق المضاعف في الآخرة، بينا عمل الآخر (أي الدنيوي) يستتبع أيضاً الرزق ولكنه رزق عابر ينتهي مع نهاية العمر فيترتب عليه العذاب في اليوم الآخر...

إذن، جاءت (الاستعارة) أو (الرمز) هنا متجانسة مع دلالة (الرزق) الذي طرحه المقطع من خلال تركيزه على العمل من أجل الآخرة...

بعد ذلك، يتحدث النص عن كلّ من العاملين لحرث الدنيا والعاملين لحرث الآخرة، فيشير إلى مواقعهم الأخروية ﴿**وإن الظالمين لهم عذاب أليم**﴾ ﴿**ترىٰ الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم**﴾ وأما المؤمنون فهم ﴿**في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم**﴾. هذا التقابل بين المؤمنين والمنحرفين (من حيث مواقعهم الأخروية) يظل بمثابة نموٍّ فنّي لفكرة (الرزق) التي تنامت وانتهت إلى تحديد الموقع الأخروي لكل من المرزوقين من أبناء الدنيا وأبناء الآخرة.

هنا يستثمر المقطعُ عبْر حديثه عن الموقع الأخروي للمؤمنين، ليلفت النظر إلى (موقع أهل البيت عليهم‌السلام) حيث يتميزون عن سائر المؤمنين بالعصمة وبتصاعد أعمالهم الأخروية، فيقرر حقيقة هي قوله تعالى: ﴿**قل: لا أسألكم**

عليه أجرا إلاّ المودة في القربىٰ﴾ مطالباً الآخرين بمودّتهم، بصفتها واحداً من أبرز الأعمال الصالحة المرتبطة بحرث الآخرة، ولذلك عقّب على العبارة المذكورة مباشرة، بقوله تعالى: **﴿ومن يقترف حسنة: نزد له فيها حسناً﴾**. إن هذه العبارة لها موقع هندسي ضخم في عمارة المقطع، حيث لحظنا أنّ النص قال في أول المقطع: **﴿من كان يريد حرث الآخرة: نزد له في حرثه﴾**. والآن يكرّر نفس العبارة بالنسبة إلى مودة أهل البيت عليهم السلام فيقول: **﴿ومن يقترف حسنة: نزد له فيها﴾**. إذن: عبارة **﴿نزد له فيها﴾** تظل رابطة عضوية بين أول المقطع وآخره، ملفتة النظر إلى الأهمية العبادية بالنسبة إلى مودّة أهل البيت عليهمالسلام... وهذا النمط من الربط العضوي بين أجزاء المقطع، يكشف عن مدىٰ إحكام النص.

* * *

قال تعالى: **﴿وهو الذي يقبل التَّوبة عن عِباده ويعفو عن السَّيِّئات ويعلمُ ما تفعلون ويستجيبُ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات ويزيدهم من فضله، والكافرون لهم عذاب شديد ولو بسط الله الرِّزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن ينزِّلُ بقدَرٍ ما يشاء إنّه بعباده خبير بصير وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنَطوا وينشُرُ رحمتَهُ وهو الولي الحميد﴾**.

هذا المقطع من سورة الشورىٰ، يرتبط عضوياً بمقطع سابق يتحدث عن ظاهرة (الرزق)، حيث كان الحديث فيه عن (الرزق) الأخروي وإيثاره على ما هو دنيوي... أما الآن، فإنّ المقطع يتحدث عن الرزق الدنيوي: من حيث تقسيمه من قبل الله تعالى وفقاً لمتطلبات الحكمة، حيث أشار إلى أنّ بسط الرزق في حالات خاصة يفضي إلى طغيان الشخص وانحرافه، كما أشار إلى عطائه الذي يعمّ الناس جميعاً، ألا وهو: المطر»... وخلال ذلك: كان المقطع يتحدث عن ظاهرة (التوبة)، وظاهرة (الدعاء)... والسؤال هو: ما

هي الروابط الفنية التي تجمع بين الرزق والتوبة والدعاء ؟ للإجابة عن ذلك ينبغي أن نعود إلى (مقدمة) السورة الكريمة التي جاء فيها:

﴿والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون لمن في الأرض. . .﴾ أي: يطلبون المغفرة من الله تعالى لعباده. . . ومن الواضح، أن طلب المغفرة يرتبط بممارسة الذنب من جانب، كما يرتبط بمفهوم (التوبة) من جانب آخر. . . لذلك، نجد الربط الفنّي بين مقدمة السورة التي تتحدث عن الملائكة الذين يستغفرون لمن في الأرض، وبين هذا المقطع الذي يتحدث عن تقبّل الله تعالى لتوبة عباده، حيث يصبّان في مجرى واحد هو: توبة الإنسان ومغفرته تعالى للتائبين. . . وأمّا ظاهرة الدعاء عبر قوله تعالى **﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾** فإنّ ارتباطها بمفهوم التوبة من الوضوح بمكان، حيث إنّ إجابة الله تعالى لمطلق المؤمنين (في حاجاتهم المتنوعة) تظل ـ في أحد مصاديقها ـ متجانسة مع (التوبة) التي يستجيب لها الله تعالى: كما هو واضح. . . أمّا صلة هذه بـ(الرزق)، فينبغي أن نعود إلى المقطع الأسبق الذي كان يتحدث عن (الرزق) الأخروي وأنه تعالى يزيد الإنسان في رزقه لمن طلب الآخرة. . . وها هو الآن يكرّر هذا المعنى بقوله تعالى: **﴿ويزيدهم من فضله﴾**. . . هناك (في المقطع الأسبق) كان النص يتحدث عن زيارة الرزق الأخروي. . . هنا (في المقطع الحالي) فيتحدث النص عن زيادة الرزق الدنيوي. . . إذن: ثمة (تقابل) بين الزيادتين في الرزق (رزق الدنيا والآخرة)، حيث ربط المقطع بين الدعاء الذي يستجيب له الله تعالى: **﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾** وبين الرزق أو الفضل الذي يزيده الله تعالى لمن يدعو. . .

إذن، اتضحت العلاقةُ الفنية بين ظواهر الرزق والدعاء والتوبة. . . لكن، لنتابع المقطع الجديد بعد ذلك، حيث يقول:

﴿ومن آياته: خلق السماوات والأرض، وما بثّ فيهما من دابّة، وهو على جمعهم ـ إذا يشاء ـ قدير وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم، ويعفوا عن كثير﴾ ثم يتحدث بعد ذلك عن ظاهرة أخرىٰ هي: **﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يُسكن الريح فيظللن رواكِد على ظهره، إنّ في ذلك لآيات لكل صبّار شكور أو يُوبِقهُنّ بما كسبوا، ويعفُ عن كثير ويعلم الذين يُجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾**.

هذا المقطع يتضمن سمات فنيّة متنوعة، منها: ما يرتبط بعنصر (الصورة) من تشبيهٍ واستعارة، ومنها ما يرتبط بعمارة السورة الكريمة، حيث قدّم المقطع بعض الظواهر الإبداعية مثل: خلق السماوات والأرض ومطلق الدواب وتسخير البحر لركوب السفن، ولكنه علق على بعض هذه المعطيات الإبداعية بأنّه تعالى بمقدوره أن يُسكن الرياح مثلاً فيتعذر تسخير البحر: وذلك بسبب الذنوب، كما أشار إلى أنّ المصائب التي تصيب الإنسان: بسبب الذنوب أيضاً، ثم كرر العبارة الآتية **﴿ويعفوا عن كثير﴾** كررها مرتين في هذا المقطع، حيث يدلّنا ذلك: على أن المقطع يستهدف الربط بين مفهومات الرزق والدعاء والتوبة وبين مفهوم (العفو) الذي يعني: التجاوز عن الذنب.

إذن، للمرة الجديدة، أمكننا ملاحظة مدىٰ الربط الفنّي بين هذه الموضوعات المختلفة التي تصبّ في حقول العطاء والعفو مقابل التوبة والعمل الصالح، فيما يكشف ذلك عن مدىٰ الإحكام الهندسي للسورة الكريمة، من حيث علاقة موضوعاتها: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

❊ ❊ ❊

قال تعالى: **﴿ومن آياته: الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يُسكن الريح فيظللن رواكد علىٰ ظهره، إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور أو**

يوبقهنّ بما كسبوا ويعفُ عن كثير ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ .

يتضمن هذا المقطع عرضاً لظواهر الإبداع الكوني وتسخيره للإنسان، حيث جاء في سياق الحديث عن جملة من الظواهر التي تحدّثنا عنها وأوضحنا مدىٰ صلتها بهيكل السورة الكريمة، أما الآن فنتحدّث عن العنصر (الصّوري) منها، حيث يتمثل في التشبيه القائل **﴿ومن آياته: الجوار في البحر كالأعلام﴾** وحيث يتمثل في الاستعارة أو الرمز القائل **﴿إن يشأ يُسكن الريح فيظللن رواكد علىٰ ظهره﴾** .

أما «التشبيه» فإنه يتناول تشبيه (السفن) في البرّ بالجبال في البحر. . . طبيعياً، إن السفن هي صنع الإنسان الذي وهبه الله تعالى قابليةً علىٰ الصنع، لذلك فإنّ تشبيه «السفن» ـ وهي من صنع الإنسان (أو صنع الله تعالى بنحو غير مباشر) أو (بالواسطة) ـ بما هي صنع مباشر (الجبال)، يظلّ نمطاً من التشبيه الفنّي الذي يستجرنا إلى التساؤل عن سرّه، أي: لو أنّ البحر مثلاً (وهو صنع الله تعالى مباشرة) شُبّه أو استُعِير له أو رُمِزَ له أو مُثّل له بالجبال أو غيرها من الظواهر التي تنشأ فيما بينها علاقات تشابه لغرض خاص، حينئذٍ يمكن أن نفسّر ذلك بوضوح، لكن عندما يُشبَّه ما هو «صنع غير مباشر» مثل (السفن) بما هو مباشر مثل (الجبال)، حينئذٍ لا بدّ من وجود سرّ فنّي يستهدفه النص في هذا التشبيه. . .

في تصوّرنا أنّ هناك أكثر من سرّ فنّي في مثل هذا التشبيه، فهناك أوّلاً مؤشّر إلى أن (ما هو صنع الله تعالى مباشرة) هو السبب وراء هذا التشبيه، حيث ذكر المقطع في الآية الثانية التي تتضمّن (استعارة) هي: **﴿إن يشأ يُسكن الريح فيظللن رواكد علىٰ ظهره﴾**، أي (تحرّك) الرياح، هو السبب في جري السفن، والله تعالى هو المبدع لها مباشرةً. . . يترتّب علىٰ ذلك ثانياً: أنّ النص

يستهدف الإشارة إلىٰ أنّ ما يصنعه الإنسان لتيسير مصالحه يظل مرتبطاً بقوىٰ الله تعالى وحده، مما يعني أنّ الإنسان لا يمتلك قوىً ذاتية منعزلة عن قوىٰ الله تعالى... وهذه دلالة ذات مغزىً كبير يستهدف النص لفت النظر إليه حتى يُدرك الإنسان أن كلّ ما يدور حوله إنما هو من عطاء الله تعالى ـ كما هو واضح... أما «التشبيه» نفسه، فينطوي ـ فضلاً عن إشارته إلى عطاء الله تعالى ـ علىٰ ظاهرة (جمالية) تتصل بحاجته إلى ما هو (جميل) من المرائي، فهو عندما يشبّه (السفن) «بالجبال» إنما يلفت الحاسة الجمالية إلىٰ (المرأىٰ) الجميل لكل من الجبال في البر، والسفن في البحر. ومع أنّ الجبال تبدو (وكأنها ثابتة من حيث البصر)، و(السفن) تبدو متحرّكة، إلاّ أنّ أوجه الشبه تتمثّل (ليس في الحركة أو الثبات) بالرغم من أنّ الحركة غير المرئية مُتحققة في الطرف الآخر، بيد أن المهم في أي تشبيه ليس هو تطابق الطرفين، بل انتخاب ظاهرة (مشتركة) ذات إثارة، وهذا ما يتمثّل في: (تجسيم السفن والجبال: من حيث ارتفاعهما عن سطح البحر والبرّ) حيث يمثّلان مرأىً جمالياً ملحوظاً: كما هو واضح... مضافاً لذلك، فإن كلاً منهما (أي السفن والجبال) ينطويان علىٰ فائدة مسخّرة لصالح الإنسان، أما «السفن» ففائدتها من الوضوح بمكان، وأمّا الجبال فلأنها تمسك الأرض، بحيث تترتّب علىٰ هذه الفائدة حريّة التحرّك في البر، مقابل فائدة السفن التي تجسّد حرية التحرّك في البحر...

إذن، ثمة أسرار فنية متنوّعة واكبت «التشبيه» المتقدّم... وأما الاستعارة ـ وهي الآية التي تشير إلى أن الله تعالى لو شاء لأسكن الريح بحيث تظل السفن رواكد على ظهر البحر، فتتضمّن بدورها: أسراراً فنية متنوّعة، منها: نفس العلاقة الاستعارية التي تتمثّل في «إعارة» الظهر ـ وهو ظاهرة جسمية، فيما خلعها على البحر، هذه العلاقة أو الإعارة تنطوي على سرّ فنّي مثير وطريف وممتع، حيث أنّ «الظهر» هو العضو الجسمي الذي يحمل الشيء

أو يُحمل عليه الشيء من أجل نقله إلى الجهة التي يستهدفها الحامل، فإذا فُقِدَت القوىٰ المحرّكة: انتفىٰ النقلُ وتعطّلت الفائدة من الحمل، وحينئذٍ لا قيمة البتّة لصنع الإنسان السفن: ما دام لم يمتلك القوىٰ المحرّكة للسفن، وهذا ما تستهدفه «الاستعارة» المذكورة التي جاءت توظيفاً فنياً لإنارة الفكرة القائلة بأنّ الله تعالى هو الذي سخّر الظواهر الكونية لصالح الإنسان...

ويلاحظ أيضاً أنّ النص: عرض بعد ذلك هذه الصورة الثالثة: ﴿**أو يوبقهنّ بما كسبوا**﴾ أي: أو يدمّرهنّ: ويعني بذلك: تدمير السفن، حيث نستخلص من هذه العبارة (وهذا واحد من أسرار الفن القائم علىٰ الاقتصاد اللغوي) أنّ الله تعالى إذا شاء أن يجعل الرّيح عاصفة ـ مقابل جعله إيّاها ساكنة ـ حينئذٍ فإنّ السفن تتحطّم في البحر، فبسكون الريح تتعطّل عملية النقل، وبهبوبها قوية: تتحطّم عملية النقل... وهذا التقابل بين المُعطَيَين: عدم إسكان الريح مقابل عدم جعلها عاصفة، يُضفي بُعداً جمالياً جديداً علىٰ الصور الفنية الثلاث: (السفن وتشبيهها بالجبال، وعدم ركودها علىٰ ظهر البحر، وعدم تحطيمها)... وقد ربط هذا المقطع بين تدمير السفن وبين الذنوب التي يمارسها الإنسان، حيث كان مفهوم الذنب والتوبة والدعاء: موضوعات تناولتها المقاطع السابقة من السورة الكريمة، مما يكشف مثل هذا الربط الفني: عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص من حيث علاقة موضوعاته بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

﴿قال تعالى: ﴿**فما أوتيتم من شيءٍ فمتاعُ الحياة الدنيا، وما عند الله خيرٌ وأبقىٰ للّذين آمنوا وعلىٰ ربّهم يتوكّلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضِبُوا هم يغفرُون والذين استجابوا لربّهم، وأقاموا الصّلاة، وأمرُهُم شُورىٰ بينهم، ومما رزقناهم يُنفقون والذين إذا أصابهم البغيُ هم ينتصرون**

وجزاءُ سيّئةٍ سيئةٌ مثلها، فمن عفىٰ وأصلح فأجرُهُ على الله، إنّه لا يحبّ الظالمين ولمن انتصر بعد ظُلمه، فأولئك ما عليهِم من سبيلٍ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس، ويبْغُون في الأرض بغير الحق: أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبرَ وغفر: إنّ ذلك لمن عزمِ الأمور﴾.

هذا المقطع من سورة الشورىٰ، يتمحّض للحديث عن سمات نفسية واجتماعية للشخصية المؤمنة.. طبيعياً هناك قوائم بسمات السلوك التي تستقطب الشخصية، بيد أنّ النص القرآني الكريم لا يحصر هذه القوائم في نصٍّ محدّد بل يوزّعها في سور متنوّعة... يجيء كل مجموعة منها في سياق خاص يتناسب مع الهيكل الفكري للسورة الكريمة... والسورة التي ورد فيها هذا المقطع: كانت تتحدث ـ في مقطع أسبق ـ عن ظواهر الإبداع الكوني، ومنها: تسخير البحر لحركة السفن، حيث عقّب عليها النصُّ بقوله: ﴿**إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور**﴾. وهذا يعني أنّ (الصبر) و(الشكر) قد استهدف النصُّ: التأكيد عليهما في هذه السورة، فما يمكن أن نفسّر في ضوء ذلك: هذه الموضوعات التي تضمنها المقطع الحاليّ الذي نتحدث عنه، حيث جاءت ظاهرة (الصبر) هي المحور الفكري الذي تقوم عليه سمات الشخصية المؤمنة التي عدَّدها أولاً بهذا النحو، وهي: التوكّل على الله تعالى، اجتناب كبائر الإثم والفواحش، التجاوز عن الآخرين عند الغضب، الاستجابة إلىٰ الله تعالى، إقامة الصلاة، التشاور مع الآخرين، مساعدة الآخرين ماليّاً، العفو، الصبر علىٰ أذىٰ الآخرين... فالملاحظ هنا، أنّ الصبر على الأذىٰ، والعفو، والتجاوز عن الآخرين، هي: أكثر الصفات المذكورة عدداً، فيما نستشف منها: التأكيد علىٰ ظاهرة (الصبر) حيث ختم المقطع بقوله تعالى عن الصبر: ﴿**إنّ ذلك لمِن عزم الأمور**﴾ أي: أعلىٰ ما يمكن تصوّره من السلوك المطلوب، حيث لا يتوفّر ذلك إلاّ للأفذاذ والمتميّزين من البشر... والسر في ذلك: من الوضوح بمكان، لبداهة أن «الصبر» هو: أن يؤجّل الإنسان شهواته: ماديّة

كانت أم معنويّة، بحيث يسيطر عليها ولا يسمح لها بالبروز إلى خارج النفس. . .

بعد ذلك، يتحدّث النص عن اليوم الآخر، رابطاً بين الشخصية المؤمنة التي تطبعها السمات المذكورة وبين الشخصية المنحرفة التي تتساءل (عندما يحين الحساب) قائلة: **﴿هل إلىٰ مردّ من سبيل﴾** أي: هل إلى الرجوع إلىٰ الدنيا من سبيل، حتى يُتاح لها أن تلتزم بمبادىء الله تعالى. .؟ ثم يصف المقطع أمثال هؤلاء المنحرفين بقوله تعالى: **﴿وتراهم يُعرضون عليها، خاشِعين من الذّل، ينظرون من طرف خفيّ، وقال الذين آمنوا: إنّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. .﴾**.

هنا يتعيّن علينا أن نقف عند السّمات الفنية لهذا المقطع الذي يعرض لنا بيئة اليوم الآخر: بالنسبة إلىٰ ردود الفعل التي يصدر المنحرفون عنها، والحوارات التي تنقل لنا كلام المنحرفين، والتعليق الذي يسوقه المؤمنون حيال المنحرفين، حيث نواجه خلال هذه الحوارات وعرض المواقف: مجموعة من الصور (الاستعارية)، و(الرمزية) من نحو «خاشعين من الذلّ» و«ينظرون من طرف خفيّ» فيما تنطوي على أسرار فنيّة ذات إثارة: دون أدنىٰ شك. . .

أما «الاستعارة» وهي (خاشعين من الذّل) فتعني: الخضوع والانكسار من الذل، حيث تعبّر عن أشدّ حالات اليأس، وأما الرمز وهو (ينظرون من طرف خفيّ) فهو تجسيد لقمة اليأس والانكسار والتردّي، فالنظر من طرف خفيّ، يرمز إلى حالة داخلية تنعكس علىٰ المظهر الخارجي وهو: النظر الذي يتحرّك بخفاء: من حيث امتداد البصر إلىٰ رؤية النار من جانب، والإحساس بالذلّ والهوان أمام الآخرين: من جانب آخر، فينكسر النظر بالضرورة، حيث يتجانس مظهر (خفاء النظر) مع خفاء الأعماق والأحاسيس التي لا تجد لها

منفذاً إلاّ من خلال الانكسار المذكور. . .

إذن، جاءت الصور الفنية (الاستعارة والرمز) عنصراً يتجانس مع الحالة الداخلية للمنحرفين من جانب، وجاءت متجانسة مع الهيكل الفكري للنص القرآني من جانب آخر، حيث كان النص يتحدّث عن متاع الدنيا مقابل العطاء الأخروي، وها هو يعكس الآن: نتائج المتاع الدنيوي علىٰ المصير الأخروي للمنحرفين، حيث جعل المؤمنين (وهم ممن نبذ متاع الدنيا) يعلّقون علىٰ مصير المنحرفين بقولهم ﴿**إنّ الخاسرين: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة**﴾ حيث يجيء هذا التعليق (علىٰ لسان المؤمنين) تجسيداً أشدّ حيويّة للتعبير عن انعكاسات السلوك الدنيوي علىٰ الآخرة، فيما يفصح مثل هذا الانعكاس بين الدنيا والآخرة، عن مدىٰ إحكام لنص من حيث علاقة أجزائه: بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

﴿قال تعالى: ﴿**استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ما لكم من ملجأٍ يومئذٍ وما لكم من نكير فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إنْ عليك إلاّ البلاغ، وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة فرح بها، وإن تُصِبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم، فإنّ الإنسان كفور. . .**﴾.

بهذا المقطع وما بعده تنتهي سورة الشورىٰ التي طرحت جملة من الموضوعات في المقدّمة، حيث جاء وسط السورة وآخرها: مفصّلاً ما أجملته المقدّمة. . .

ومن جملة ما طرحته المقدّمة هو: أنّ المبلّغ الإسلامي ليس مسؤولاً عن هداية المنحرفين بل الله تعالى هو المتكفّل بذلك، قالت المقدّمة: ﴿**الله حفيظ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل**﴾. . . وها هي نهاية السورة، تقول أيضاً: ﴿**فما أرسلناك عليهم حفيظاً، إنْ عليك إلاّ البلاغ**﴾ وهذا يعني أنّ النص القرآني

الكريم قد ارتبط أوّله بآخره من حيث البناء الفنّي للموضوعات. . . وهذا ما نستهدف التأكيد عليه ـ بطبيعة الحال. . . بيد أن المهمّ هو أن نوضّح مستويات هذا البناء الفنّي، وفي مقدمة ذلك: ملاحظة السياق الذي ورد فيه كلّ من الموضوعين المتكرّرين المشار إليهما.

مقدمة السورة كانت تتحدّث عن المشركين. . . أمّا خاتمتها فتتحدّث عن مطلق المنحرفين الذين أنْذَرَتْهُمْ بالقول: ﴿**استجيبوا لربكم مِن قبل أن يأتي يوم لا مردّ له. . .**﴾، حيث كانت المقاطع التي سَبقتها تتحدّث عن أهوال اليوم الآخر. . .

وهذا يعني أنّ قوله تعالى في المقدمة ﴿**وما أنت عليهم بوكيل**﴾ جاء في سياق يختلف كل الاختلاف عن السياق الجديد الذي نتحدّث عنه. . . حيث تنامىٰ الموضوع الأول (مفهوم الشرك)، وتطوّر إلى مختلف أشكال الانحراف، وترتّب عليه الجزاءُ الأخروي، ثم جاء المقطع لينبّه المنحرفين أو مطلق الناس إلىٰ اليوم الآخر الذي تحدّث المقطع الأسبق عنه. . .

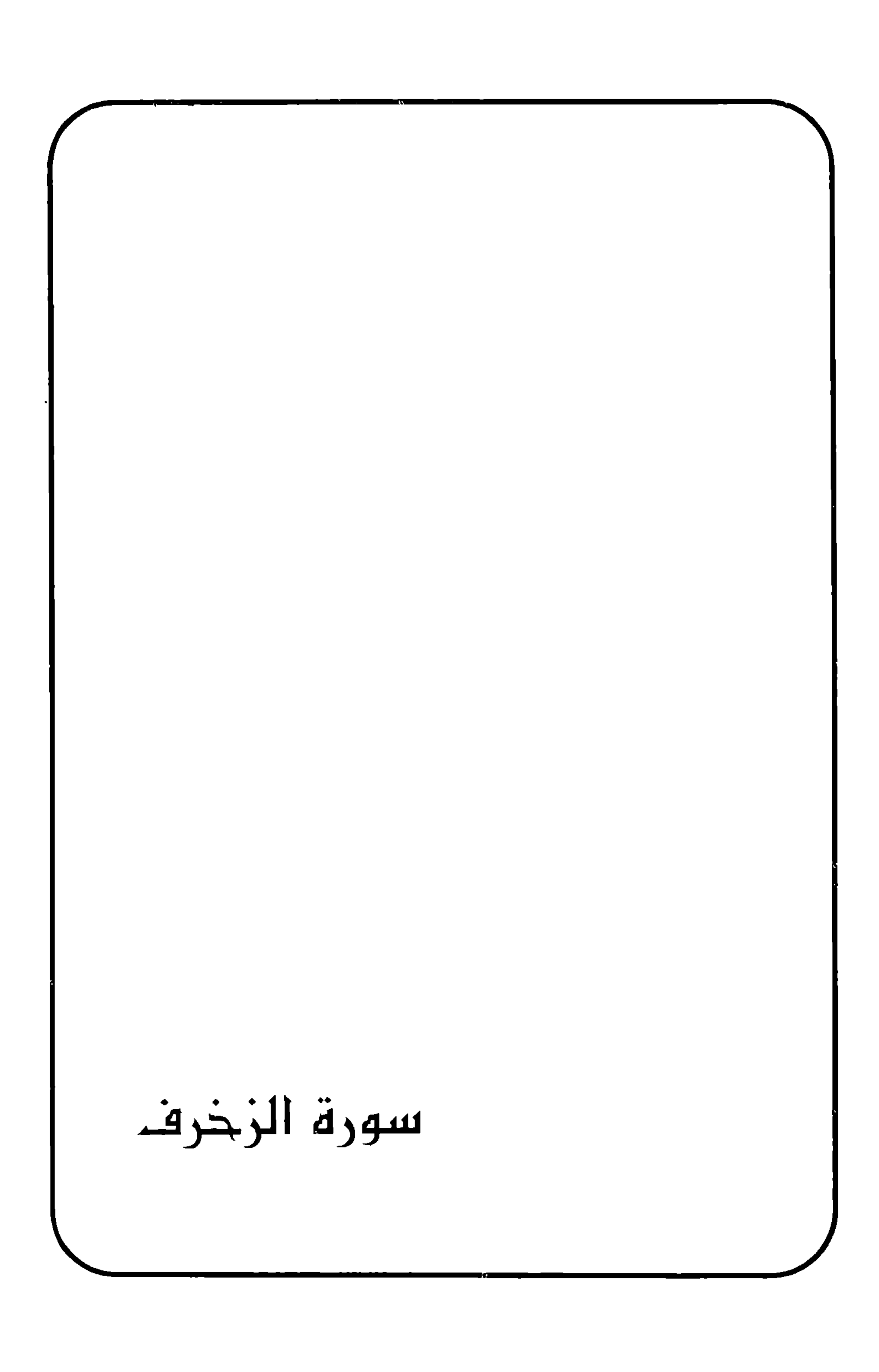
خلال ذلك، نواجه موضوعات أخرىٰ طرحتها السورة الكريمة، مثل قوله تعالى: ﴿**وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمةً فرح بها، وأن تُصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم، فإنّ الإنسان كفور**﴾، هذا الموضوع، مرتبط أيضاً بموضوع أسبق يقول ـ وهو يعدّد نِعَمَ الله تعالى: «ومنها» تسخير البحر للسفن، ـ أو يوبقهنّ ـ أي يدمّر السفن ـ بما كسبوا، ويعفوا عن كثير)، حيث أشار إلى أنّ بمقدور الله تعالى أن يجعل الرياح عاتيةً بحيث تتحطّم السفن بسبب ذلك، وهذا في حالة المعصية، ومعنىٰ هذا: أنّ السيّئات التي تصيب الإنسان إنما هي بسبب من معصيته، وهذا ما بَلْوَرَتْه وأوضحته خاتمة السورة حينما فصّلت الحديث عن ردود الفعل التي يصدر عنها الإنسان حينما تصيب السيّئة والحسنة، أمّا السيّئة فإنّها تقتاده إلىٰ أن يكفر بِنعَم الله تعالى، وأمّا الحسنة

فتقتاده إلى البطر والمرح وسائر أشكال السلوك المترف الذي يجعل صاحبه: (غافلاً) عن المهمة العبادية للإنسان. . .

كذلك، نلحظ موضوعاً ثالثاً جاء في نهاية السورة، هو: ﴿**وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو مِن وراء حِجاب أو يرسل رسولاً فيوحِيَ بإذنه**﴾. هذا الموضوع (أي: الوحي) قد استُهِلّت به السورة الكريمة ﴿**كذلك يوحي إليكَ وإلىٰ الذين من قبلك**﴾ فالوحي له ولِمَن قبله ـ حَيث أجملته البداية بهذا النحو، جاءت الآن: الخاتمة للسورة، لتفصّل طريقة التعامل حيث أشارت إلى أشكاله الثلاثة (الكلام وحياً، من وراء حجاب، إرسال رسول). . .

طبيعيّاً، أنّ النص القرآني الكريم، يستهدف بالنسبة إلىٰ المتلقّي توصيل حقائق عبادية وعلمية أيضاً، أي: تقديم ما هو مطالب بالتزامه، وتقديم ما ينفعه علمياً من حقائق الوجود. . . كل ما في الأمر أنّ تقديم هذه الحقائق: بنمطها، يتمّ وفق طريقة فنيّة تتلاحم من خلالها الموضوعاتُ: بعضُها مع الآخر، من حيث التفصيل لما هو «مُجمَل»، ومن حيث تطوير وإنماء الفكرة التي تبدأ في مقدمة السورة بشكل بسيط، ثم تتعقّد وتتطوّر إلىٰ ما هو مكتمل الصورة، مما يكشف مثل هذا البناء للموضوعات: عن مدىٰ الإحكام الفنّي للنص، بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

* * *



سورة الزخرف

قال تعالى: ﴿حمَ والكتاب المبين إنّا جعَلْناهُ قرآناً عربياً لعلّكم تَعقلُون وإنّه في أُمّ الكِتابِ لَدينا لعليٌّ حكيم أفنضربُ عنكمُ الذكر صفحاً أنْ كُنتم قوماً مُسرِفين وكَم أَرْسَلْنا من نبيٍّ في الأَوَّلين وما يأتيهِم مِنْ نبيٍّ إلّا كانُوا به يستهزءون فأهلكنا أشدَّ منهم بَطْشاً ومَضَىٰ مَثَلُ الأوّلين﴾.

هذا هو المقطع الأول الذي افتُتِحت به سورة «الزخرف»... وقد طُرِحت في هذا المقطع: ظاهرة عبادية هي قوله في ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ان كنتم قوماً مسرفين﴾... هذه الظاهرة ستكون هي المحور الذي تلتقي عنده أفكار السورة الكريمة، ما دامت قد استُهلّت السورة بها أو ما دامت قد انتظمتها (المقدّمة) التي تشكّل في كل سورة (محوراً) لأفكارها...

وإذا تركنا هذا الجانب المتّصل بعمارة السورة وهيكلها الهندسي الذي تقوم عليه حينئذٍ ينبغي أن نقف عند نفس الظاهرة المشار إليها: لنتبيّن دلالاتها... تقول هذه الفكرة: إنّ الانحراف الذي يطبع الناس لا يستتلي التوقّف عن إرسال الحجة عليهم وهي نزول القرآن وتبيين مبادىء الله تعالى... بمعنىٰ أنّ هناك مهمة عبادية موكولة إلىٰ الناس: بغضّ النظر عن التزامهم بالمهمة المذكورة أو عدم التزامهم بذلك...

طبيعياً، إنّ هذه الفكرة هي الأساس الذي تقوم عليها تجربة الحياة البشرية، ومن ثمّ فإنّ أهميتها تظل من الوضوح بمكان كبير فيما ينبغي أن نقف عند مفردات هذا الجانب وكيفية معالجة النص القرآني الكريم للموضوعات المرتبطة بها.

لكن قبل ذلك ينبغي أن نقف عند العنصر (الصوري) الذي تضمّنته الآية

المذكورة ﴿**أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ان كنتم قوماً مسرفين**﴾ لقد تضمّنت هذه الآية صورة فنّيّة هي ﴿**أفنضرب عنكم الذكر صفحاً**﴾ أي هي (رمز) أو (كناية) عن التخلّي عن الأمر أو الإعراض عنه... وهذا ما يتّصل بالقول ﴿**أفنضرب عنكم الذكر صفحاً**﴾... بيد أنّ الآية الكريمة أوردت عبارة (الذكر) ﴿**أفنضرب عنكم الذكر صفحاً**﴾... فما هو المقصود من (الذِّكر) هنا؟؟

النصوص المفسّرة تتراوح بين الذهاب إلىٰ أنّ المقصود منه هو «القرآن الكريم» أو ما يتّصل بمطلق المبادىء التي صاغها الله تعالى وبين الذهاب إلى أن المقصود منه هو (العذاب)، فيكون التساؤل هو: هل يُخيّل إليكم أنّ الله تعالى سوف لن يعذّبكم على إسرافكم؟... أنّ كلاً من التفسيرين محتمل، فنيّاً... فالتفسير الأول يساعد عليه سياق المقطع. حيث أردف النصُّ عبارته المذكورة بقوله تعالى: ﴿**وكم أرسلنا من نبيّ في الأوّلين**﴾ حيث أنّ إرسال الأنبياء يتناسق مع ذهاب الآية إلىٰ أنّه لن يُترك الناس لمجرّد إسرافهم بل لا بدّ من نزول الرسالات، كما أنّ التفسير الآخر: يساعد عليه سياق المقطع أيضاً حيث يقول النصُّ بعد ذلك ﴿**فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً**﴾، فالإهلاك هو العقاب الدنيوي مما يتناسق مع التساؤل: ﴿ **أفنضرب عنكم الذكر صفحاً** ﴾. لكن، تظل الدلالة الأولىٰ (وهي: القرآن أو مبادىء الله تعالى بعامة) أقرب إلى سياق السورة الكريمة كما سنلحظ ذلك لاحقاً...

المهم، أنّ السورة الكريمة تخاطب المجتمع المعاصر لمحمّد(ص) وتصفه بالإسراف أو الكفر... لكن بما أنّ الإسراف يعني: بلوغ الظلم أكثر من الحدّ: فحينئذٍ نستخلص بأنّ هذا المجتمع المنحرف لم يكتف بمجرّد الرفض لرسالة الإسلام بل (أسرف) في موقفه المنحرف... أمّا ما هو نوع هذا الإسراف، فأمر لم يذكره النص تصريحاً بل سلك منحىً فنيّاً جعلنا ـ نحن القرّاء ـ نستخلص بأنّ هؤلاء المنحرفين قد استهزأوا بالرسالة: بدليل قوله

تعالىٰ بعد ذلك: ﴿**وكم أرسلنا من نبيّ في الأوّلين وما يأتيهم من نبيّ إلاّ كانوا به يستهزءون**﴾ إنّ هذا المنحىٰ الفني في التعبير يعتمد علىٰ (الاقتصاد اللغوي)، فبدلاً من أن يكرّر القول بأنّ المعاصرين لرسالة الإسلام قد استهزأوا بذلك: اكتفىٰ بأن يذكر المجتمعات البائدة وموقفهم من رسالات السماء حينئذٍ، حتىٰ يستخلص القارىء بنفسه أنّ معاصري رسالة الإسلام قد طبعهم نفس السلوك المنحرف.. والمهم ـ بعد ذلك ـ أنّ النص القرآني الكريم: طرح في هذا المقطع فكرة رئيسة هي أنّ إصرار الفاسق علىٰ فسقه لا يستدعي إيقاف الرسالة بل لا بدّ من تمرير التجربة العبادية علىٰ الإنسان، كما أوضح المقطع جانباً من سلوك المنحرفين وما يترتّب عليه من العقاب: رابطاً بين هذه الجانب وبين فكرة السورة، بنحو يفصح عن تلاحم الموضوعات بعضها مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالىٰ: ﴿**ولَئِنْ سَألتَهم: مَن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ؟ ليقولُنّ: خلَقهُن العزيزُ العليم. الذي جعَلَ لكم الأرض مهداً وجعَلَ لكم فيها سُبُلاً لعلّكم تهتدون والذي نزَّل من السماءِ ماءً بقَدَرٍ، فأَنْشَرْنا بِهِ بلدةً ميتاً، كذٰلكَ تُخْرَجُون والذي خَلَقَ الأزواجَ كلّها وجعَلَ لكم من الفُلكِ والأنعامِ ما تَرْكبون لِتَستوُوا علىٰ ظُهوره ثم تَذْكُروا نِعمةَ ربكم إذا ٱستويتُم عليه وتقولوا: سُبحانَ الّذي سخّرَ لنا هذا، وما كُنّا لَهُ مُقرِنين وإنّا إلىٰ ربِّنا لمُنقلبون**﴾.

هذا المقطع من سورة الزخرف يتناول معطيات الله الإبداعية في غمرة حديثه عن المنحرفين الذين أسرفوا في انحرافاتهم... إلاّ أنّ المُلاحَظ، أنّ هذا المقطع ـ وهو يتحدّث عن الظواهر الإبداعية ـ لم يوجّه الخطاب إلىٰ المنحرفين فحسب بل اتّجه بالخطاب إلىٰ مطلق الناس: كافرِهم ومؤمنهم، مستهدفاً من ذلك إمكانية أن يعدّل الكافر من سلوكه وإمكانية أن يزداد المؤمن

في يقينه بالله تعالى. . .

وأول ما يطرحه النص في هذا الصدد هو: إجراء حوار بين محمد(ص) وبين المنحرفين **﴿ولئنْ سألتَهم: من خلقَ السماواتِ والأرضَ؟ ليقولُنَّ: خَلَقَهُنَّ العزيزُ العليم﴾**. . . وأهمية هذا الحوار تتمثّل في تقرير حقيقة عامة هي: أنّ المنحرف يقرّ بأنّ الله تعالى هو المبدع للسماوات والأرض، . . وهذا يعني أنّ التركيبة البشرية قائمة علىٰ فطرة (توحيد الله تعالى)، وأنّ الانحراف عن هذه الحقيقة إن هي إلاّ مكابرة من الكافرين لا غير.

وأما الأهمية (الفنيّة) للحوار المذكور فتتمثّل في أن النص القرآني الكريم قد جعل تقرير هذه الحقيقة (وهي حقيقة التوحيد) قائماً على لسان الكافرين أنفسهم: حتى يحقق عنصر الإقناع الفني لدىٰ القارىء، وإلّا كان بمقدور النص أن يقرّر هذه الحقيقة بدون أن يُجريَ ذلك علىٰ ألسنة الكافرين. . .

إذن، أمكننا أن ندرك جانباً من الأسرار الفكرية والفنية لعنصر الحوار المذكور.

بعد ذلك، تحدّث النص عن الظواهر الابداعية الأخرىٰ، إلاّ أنّه قرن ذلك بما تنطوي عليه هذه الظواهر من معطيات قد سخّرها الله تعالى للإنسان ذاته. . . وقد قرّر النصُّ هذه الحقيقة من خلال عنصر (الحوار) أيضا حيث قال: **﴿ثم تَذْكروا نعمةَ ربكم إذا استويتُم عليهِ وتَقُولوا: سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنا هذا﴾**. فالمُلاحَظ هنا، أنّ النص أوحىٰ إلىٰ الإنسان أن يذكر نعمة الله وأن يتحاور مع نفسه قائلاً: **﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا﴾**. وهذا الحوار يختلف عن سابقه بأنّه يجري أوّلاً على لسان المؤمن، وبكونه ـ ثانياً ـ (حواراً داخليّاً) وليس حواراً خارجياً يجري بين طرفين (محمد (ص) والكافرين). . .

طبيعيّاً، ثمة مسوّغ فنّي لمثل هذا (الحوار الداخلي) بالقياس إلى الحوار السابق، فالحوار الخارجي فرضه موقف المناقشة والاحتجاج، ولا بدّ حينئذٍ

من وجود طرفين يتناقشان ويتحاجان. . . أما التذكّر لنعمة الله تعالى فأمر يحياه الإنسان مع نفسه حيث أنّ المؤمن وهو يلحظ كيفية جعل الأرض مهداً، وجعل السُبُل فيها، ونزول المطر عليها، وتسخير الفلك والأنعام من خلالها. . . كل أولئك عندما يلحظه المؤمن، حينئذٍ لا بدّ أن يشكر لله تعالى معطياته المشار إليها، وأن يهتف في قرارة نفسه قائلاً: ﴿**سبحان الذي سخّر لنا هذا**﴾. .

إذن، المسوغات الفنية للحوار الداخلي الذي أجراه النص على لسان المؤمنين مقابل الحوار الخارجي الذي أُجريَ على لسان الكافرين: قد اتّضح جانب من أسرارهما الفنية. . . لكن: ينبغي أن نقف بعد هذا علىٰ البناء الفنّي لهذا المقطع من حيث صلته بفكرة السورة الكريمة التي تحدّثت عن الكافرين. . . فماذا نجد؟ نجد أوّلاً أنّ المقطع القرآني الكريم حينما تحدّث عن نعمة المطر ﴿**والّذي نَزَّل من السماء ماءً بقدَرٍ فأَنْشَرنا به بلدةً ميتاً**﴾ قد عقب علىٰ ذلك بفقرة تقول ﴿**كذلك تُخْرَجون**﴾ أي: ربط النص بين إحياء الأرض بواسطة المطر، وبين إحياء الموتىٰ في اليوم الآخر. . . وبهذا يكون النص قد وصل فنيّاً بين سلوك الكافرين المشكك باليوم الآخر وبين هذه المعطيات التي سرَدَها. . . ثم نجد ثانياً أنّ المقطع قد علّق علىٰ قوله تعالى: ﴿**وتقولوا: سبحانَ الذي سخّر لنا هذا**﴾ علّق على ذلك بقوله تعالى: ﴿**وما كنّا له مُقْرِنين وإنّا إلىٰ رَبّنا لَمُنقلبون**﴾ حيث وصل أيضاً بين معطيات الله تعالى وبين كون الإنسان ينقلب أخيراً إلى الله تعالى، أي: يرجع إلى الله تعالى في اليوم الآخر. . . وهكذا يكون المقطع بهذا الوصل الفنّي بين معطيات الله تعالى وبين الإيمان باليوم الآخر: قد ربط بين موضوعات السورة والفكرة التي تحوم عليها، مفصحاً بذلك عن مدىٰ إحكام النص وتلاحم موضوعاته بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**وجَعلُوا لهُ من عباده جُزْءاً، إنّ الإنسانَ لكفُورٌ مبين أم اتّخذَ مما يَخْلُقُ بناتٍ وأصفاكم بالبنين وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بما ضَرَب للرَّحمَان مثَلاً ظلَّ وَجْهُهُ مسوَدّاً وهو كظيم أوَمَنْ يُنشَّأُ في الحِلْيَةِ وهو في الخِصام غَيرُ مُبين وجعَلُوا الملائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحمان إناثاً، أَشهِدُوا خَلْقَهُم، سَتُكْتَبُ شهادَتُهُم ويُسْألون. . .**﴾.

في هذا المقطع من سورة الزخرف: يتناول النصّ القرآني الكريم جانباً آخر من سلوك المنحرفين وهو: تصوّرهم الهزيل عن الملائكة والإناث وصلتهما بالله تعالى. . . بيد أنّ النص طرح خلال ذلك أكثر من ظاهرة عبادية، منها قوله تعالى:

﴿**وإذا بُشّرَ أَحَدُهُم بِما ضَرَبَ للرحمان مثلاً: ظَلَّ وجْههُ مسوداً وهو كظيم أوَمَنْ يُنَشَّأُ في الحليةِ وهو في الخِصَامِ غيرُ مُبين**﴾. ففي هذا الطرح ظواهر فنيّة وفكرية ينبغي الوقوف عندها. . .

الظاهرة الأولىٰ هي ظاهرة فكرية تتّصل بالتعامل مع الانثىٰ. . . فقد استثمر النصّ: هزالَ الفكر الذي يصدر عنه الجاهليون بالنسبة للانوثة، فعرض واحدة من الأعراف والعادات الجاهلية التي ترتبط برد الفعل الذي تحدثه ولادة البنت عند المنحرفين، فقال: ﴿**وإذا بُشِّر أحدُهُم بما ضرب للرحمٰن مثلاً ظل وجهُه مسوداً وهو كظيم**﴾. ففي هذه الآية (رمز) و(استعارة) أي: أنّها تتضمن صورتين فنّيّتين هما: الرمز والاستعارة، أما (الرمز) فيتمثّل في عبارة ﴿**وإذا بُشّرَ أحَدُهم بما ضَربَ للرحمانِ مثلاً**﴾ حيث تجسّد فقرة ﴿**بما ضَرَب للرحمانِ مثلاً**﴾ ما يُصطلح عليه (في اللغة البلاغية القديمة): «الكناية» أو ما نطلق عليه مصطلح (الرمز) حيث ترمز الفقرة إلى (ولادة البنت) كما هو واضح: وأما الاستعارة فتتمثّل في فقرة ﴿**ظلّ وجههُ مسوداً**﴾. . . حيث أكسبَ الوجهَ صفةَ شيء آخر وهو (السواد): تعبيراً عن الهم والتوتّر والتمزّق الذي يصيب

الشخص حينما يُبشر بولادة ابنةٍ له. . .

طبيعيّاً، لا تعليق علىٰ أمثلة هذا الردّ من الفعل بالنسبة لولادتها، إذ يفصح ذلك عن مدىٰ انغلاق الذهن لدى الجاهليين حيال الانثىٰ، بحيث يغيب عن ذهنهم أنّ استمرارية النسل البشري تتوقّف علىٰ طرفين: ذكر وانثىٰ، ولا يمكن أن يستغنىٰ عن أحدهما البتّة، وحينئذٍ هل هناك مسكة من العقل يمتلكها أمثال هؤلاء الجاهليين حينما يتعاملون مع ولادة الابنة بهذا النحو من التعامل الذي ـ لو رُتّب أثرٌ عليه ـ لا تقطع النسل البشري. . .

إذن، حينما قدّم النصُّ هذه الصورةَ الاستعارية والرمزية إنّما سلك منحىً فنيّاً غير مباشر ليدلل علىٰ مدىٰ انغلاق الفكر لدىٰ المنحرفين عن مبادىء السماء. . .

وهناك صورة فنية ثالثة تنتسب إلى (الرمز) قد قدّمها النص ليدلل بها علىٰ الهزال الفكري وانغلاقه لدىٰ الجاهليين، ألا وهي صورة ﴿**أَوَمَنْ يُنَشَّأُ في الحلية وهو في الخصام غير مُبين**﴾ حيث تجسّد هذه الصورة (رمزاً) أو (كناية) عن المرأة التي لا تملك مقدرة تعبيرية في الخصام والمناقشة، فبدلاً من أن يشير إلىٰ (المرأة) مباشرة، (رمَزَ) لها بـ(النشأة في الحلية) بصفة أنّ الاهتمام بالزينة وبالحلية هو من سمات المرأة: كما هو واضح، وذلك قبالة السمة الفكرية التي تفتقر إليها المرأة وهي: التمكّن من المناقشة والمجادلة، وهذا يعني أنّ النص قد أضاف عنصراً صوريّاً آخر هو (الصورة الاستدلالية، مضافاً إلىٰ الصورة (الرمزية) أو (الكنائية)، حيث استدلّ بهذه الصورة علىٰ عدم إمكانية من ينشأ في الحلية: علىٰ أن يمارس عمليات فكرية. . .

بعد ذلك، يتّجه النصّ القرآني الكريم إلىٰ عرض الحجج التي يقدّمها هؤلاء المنحرفون: لتسويغ سلوكهم المشار إليه، ومنها: أنّهم مقلّدون لآبائهم، ثم يربط النص بين هذا التسويغ وبين الامم البائدة التي تصدر عن

نفس هذا السلوك، ملوّحاً بالجزاء الذي لحق البائدين، رابطاً بذلك بين بداية السورة التي تحوم علىٰ إبراز السلوك المنحرف لدىٰ هؤلاء، وبين جوانب جديدة من انحرافاتهم، فيما يكشف مثل هذا الربط عن الإحكام الهندسي للنص من حيث صلة موضوعاته بعضاً بالآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿وإذ قالَ إبراهيمُ لأَبيهِ وقومهِ: إنَّني بَرَاءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ إلاّ الَّذِي فَطَرَنِي فإِنَّهُ سَيَهدين وجعَلَها كلِمَةً باقيةً في عقبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجعُون بَلْ مَتَّعْتُ هؤلاءِ وآباءَهُم حتّى جاءَهُم الحقُّ ورسولٌ مُبين ولَمَّا جاءَهُم الحقُّ قالوا: هذا سِحْرٌ وإنّا بِهِ كافِرون﴾**.

في هذا المقطع من سورة الزخرف (حكاية) أو اقصوصة عن إبراهيم عليه السلام لم تتجاوز عَرْضَ جانب من سلوكه حيال أبيه ومجتمعه المنحرف، حيث أبرز المقطع حوار إبراهيم **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه: إنَّني براء مما تعبدون إلاّ الّذي فَطَرني فإنَّهُ سيَهدين﴾**.

ثم علّق المقطع علىٰ هذا الحوار قائلاً: **﴿وجَعَلَها كَلِمةً باقيةً في عِقبهِ لعَلَّهُم يَرْجِعون﴾**. ثم رَبَط بين هذه الحكاية أو الاقصوصة وبين المشركين المعاصرين لرسالة الإسلام، موضحاً بأنّ هؤلاء قد متّعهم الله في الدنيا حتى جاءهم محمد(ص) فاتّهموه بالسّحر، وكفروا بالرسالة...

والسؤال هو: ما هو الموقع الفنّي لهذه الاقصوصة من عمارة السورة الكريمة؟

لقد طرحت السورة منذ مقدّمتها، موضوعات تتصل بسخرية المنحرفين من رسالات السماء، وبكونهم جعلوا لله تعالى شركاء، وبكونهم مقتدين بآبائهم في هذا السلوك، ثم ـ برغم ذلك كلّه ـ كانوا إذا سُئِلوا: **﴿مَن خلق السماوات والأرض؟ ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليمُ﴾**...

إنّ تسليمهم بحقيقة أنّ الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، يظل علىٰ صلة بهذه الاقصوصة التي تبرز مفهوم الخلق للإنسان. . .

لنستمع من جديد إلى قول إبراهيم: ﴿**إلاّ الذي فطرني فإنّه سيهدين**﴾ فالقوم ما داموا يقرّون بأنّ الله خَلَق السماوات والأرض، حينئذٍ فإنّ اقصوصة إبراهيم تستدل بعملية (الخلق) التي يقرونها، تستدلّ بذلك علىٰ (توحيد الله تعالى) والبراءة مما يعبد هؤلاء القوم، وحينئذٍ يكون الاستدلال علىٰ بطلان الشرك من خلال تسليمهم بخلق الله تعالى متجانساً ـ فنيّاً ـ مع طبيعة الموضوعات المطروحة في السورة الكريمة: حيث تُشكّل الاقصوصة ردّاً فنيّاً غير مباشر علىٰ ادّعاءات المنحرفين، وهذا ما يفسّر لنا جانباً من الأسرار الفنية لهذه الاقصوصة وصلتها بعمارة السورة الكريمة. . .

والواقع أنّ هناك وظيفة فنيّة لاقصوصة إبراهيم ـ مضافاً لما أشرنا إليه من الوظائف ـ هي قضية التقليد للآباء، فهؤلاء المشككون برسالة الإسلام أصرّوا علىٰ أنّهم مقلّدون لآبائهم (إنّا وجدنا آباءنا على اُمّةٍ وإنّا على آثارهم لمهتدون)، لذلك عندما يستشهد النص باقصوصة إبراهيم دون غيره من الأنبياء: فلأنّ إبراهيم عليه السلام انفرد من بينهم بكونه كان وحده (امّة) قبالة مجتمعه الكافر، ويكون (أبيه) واحداً من كبار الوثنيّين، ومع ذلك لم يقلّد أباه بل سار وفق الفطرة التوحيدية التي فطر الله الخلق عليها. . . حينئذٍ يمكننا أن نفسّر السرّ الفني من وراء إبراز الاقصوصة لحواره مع أبيه وقومه ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه**﴾ حيث أن إبراز الحوار مع الأب ينطوي على ردّ غير مباشر علىٰ هؤلاء المقلّدين لآبائهم. . .

إذن، أمكننا أن ندرك جملة من الأسرار الفنية وراء صياغة هذه الاقصوصة: من حيث موقعها العضوي من عمارة السورة الكريمة، مضافاً لكون النص نفسه قد وصَلَ بينها وبين موضوعات السورة حينما قال بعدها:

﴿بل متّعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءَهُم الحقُّ ورسولٌ مبين ولما جاءَهُم الحقُّ قالوا: هذا سِحْرٌ وإنَّا بهِ كافِرون﴾، ويكون النصُّ بهذا الوصل بين الاقصوصة وبين المشككين برسالة الإسلام، قد أحكم عمارة السورة الكريمة من حيث تلاحم و تواشج موضوعاتها بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

بعد هذه القصة يواصل النص رسمه لسلوك المشككين برسالة الاسلام، فينقل لنا شريحة جديدة من العقليات المتخلفة لديهم، حيث: **﴿قالوا: لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** و حيث عقّب المرض: **﴿أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فيالحياة الدنيا، و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخرياً... الخ﴾**... في هذه الشريحة و ما بعدها، نلاحظ ان النص طرح خلال ذلك مجموعة من الأفكار، منها: الكشف اولاً عن عقلية المنحرفين حيث خيّل إليهم ان النبوة ينبغي أن توكل الى شخصية اجتماعية متميزة، فيما اجابهم النص بأن الموقع الاجتماعي و الاقتصادي و نحوهما ليس معياراً في انتخاب النبوة، و ان الله تعالى فضّل البعض على البعض الآخر لتحقيق التوازن الاجتماعي حيث يحتاج أحدهم الآخر: طبقاً لمتطلبات الحكمة كما طرح النص بعد ذلك: مبدأً اجتماعياً هو: ان الله تعالى لو كان يقيم للمنحرفين وزناً **﴿لبيوتهم سُقُفاً من فضّة و معارج عليها يظهرون. و لبيوتهم أبواباً و سرراً عليها يتكئون و زخرفاً...﴾** و لكن **﴿ان كلّ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا، و الآخرة عند ربك للمتقين﴾**...، بهذا الرسم يكون النص قد ربط بين رسمه لمواقف المنحرفين و بين ابراز حقائق عبادية و اجتماعية تتصل بموقف الله تعالى من المنحرفين دنيوياً، و بتوازن المجتمعات من حيث مستوياتهم الاجتماعية و الاقتصادية... الخ.

بعد ذلك يتقدم النص بمجموعة من المواقف المتصلة بتعامل النبي (ص) مع المنحرفين، حاثّاً إياه على ان يستمسك بالذي اوحى إليه، بالرغم من مواجهته لإسراف المشككين، و بهذا يربط النص بين المحور الفكري الذي رسمته المقدمة من ان الانحراف لا يستتلي التوقف عن ارسال الحجة اليهم، و هي الفقرة

القائلة في مقدمة السورة ﴿**افنضرب عنكم الذكر صفحاً ان كنتم قوماً مسرفين**﴾، وبين الموقف الذي يواجهه النبيّ (ص) مع قومه...

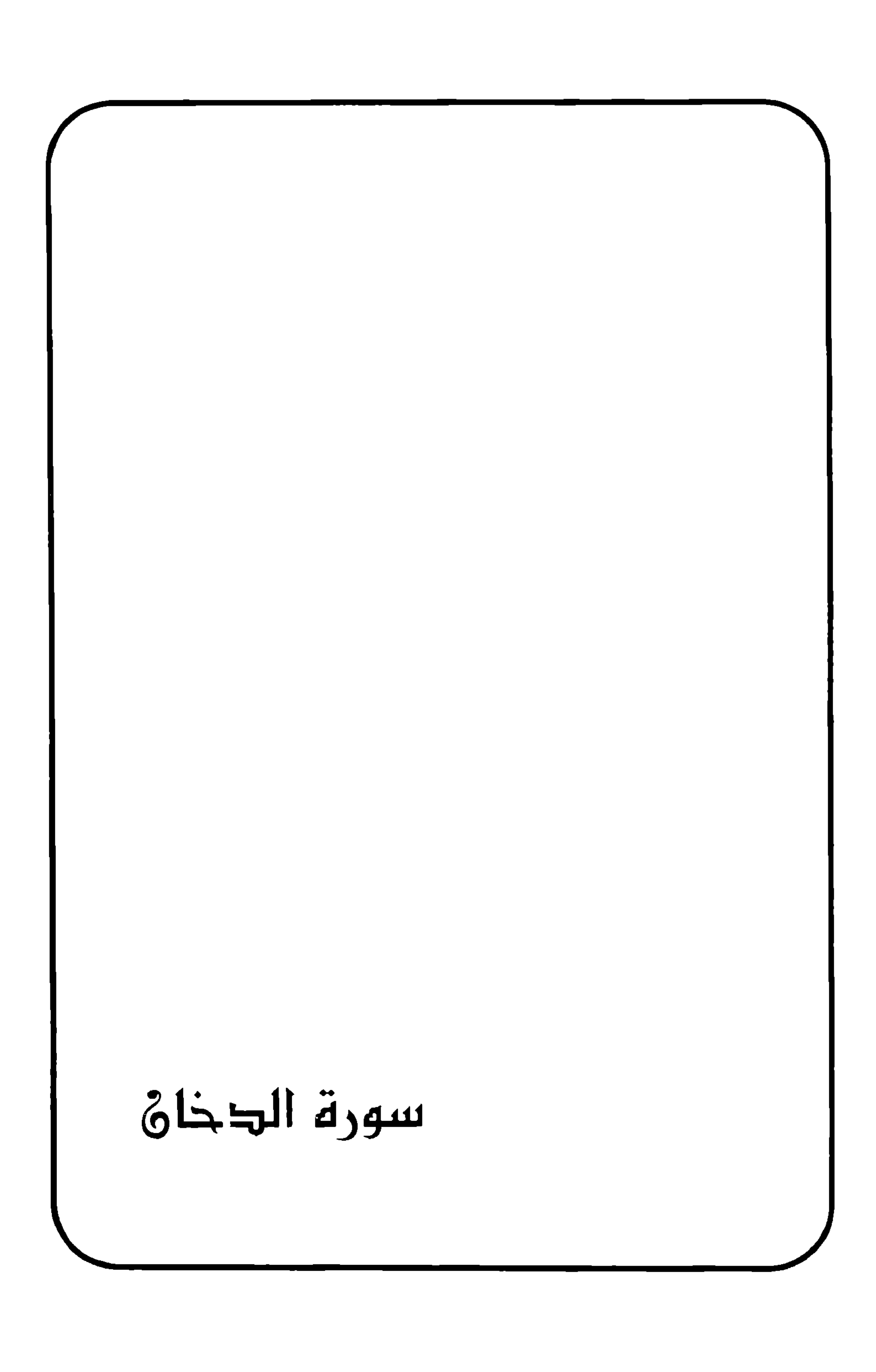
خلال ذلك يطرح النص مبدأ في غاية الأهمية و هو ﴿**و من يعشُ عن ذكرِ الرحمٰنِ نقيّض له شيطاناً فهو له قرين**﴾... هذا المبدأ العام ينسحب ـ بطبيعة الحال ـ على البشرية جميعاً ممن يعزف عن مبادئ الله تعالى...

ايضاً: يتقدم النص بحكايته أو اقصوصته عن فرعون و قومه ليربط بين المنحرفين المعاصرين لرسالة الاسلام و بين المنحرفين الغابرين من حيث تماثلهم في العقلية المتخلفة و في التمرد على الرسل... يقول النص ﴿**و لقد ارسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون و ملأه**﴾ ﴿**فإذا هم منها يضحكون**﴾ ﴿**و قالوا يا أيّها الساحر...**﴾ ﴿**و نادى فرعون في قومه**﴾ ﴿**ام انا خير من هذا الّذي هو مهين و لا يكاد يبين فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب...**﴾

هنا يتعين علينا ملاحظة هذه الأُقصوصة و موقعها العضوي من عمارة السورة الكريمة، حيث تكشف لنا عن التجانس بين عقليات المنحرفين، فكما ان قوم محمد (ص) اعترضوا عليه بأن النبوة لم تنزل ﴿**على رجل من القريتين عظيم**﴾ كذلك مجتمع فرعون اعترض على موسى بأنه (مهين) اجتماعياً و ليست عليه اسورة الذهب الخ،... و لا نغفل التجانس ايضاً بين هذه الاشارة الى الذهب ومطلق الزخرف و بين الاشارة إليها في مقطع اسبق حيث اوضح النص بأن الله تعالى لو أقام للمنحرفين وزناً لزخرف بيوتهم و سقفهم و ابوابها و سررها الخ... بعد ذلك يتقدم النص بحكاية أو اقصوصة جديدة تتصل بعيسى (ع)، و موقفه من قومه و اختلافهم حياله، و ردّ الفعل الصادر عن المنحرفين المعاصرين لرسالة الاسلام حياله أيضاً ﴿**و لما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون و قالوا: ءآلهتنا خير أم هو**﴾... الخ. و في هذا السياق يسرد لنا النص عقلية المنحرفين حيال آلهتهم، و حيال عيسى (ع) من حيث اتخاذهما (معبوداً) عند المشركين والنصارى، أو كونه (ع) كمثل آدم (ع) من غير أب، أو قوله (ص) لعلي (ع) بأن

مثله كمثل عيسى (ع) من حيث احبه قوم و أبغضه قوم الى حد الافراط... الخ،...
اولئك جميعاً تكشف لنا جانباً من سلوك المنحرفين و انحطاطهم الذهني...

اخيراً: تختتم السورة بجملة من الموضوعات المتصلة بالجزاءات الاخروية للمؤمنين و المنحرفين، و بالرسم لمواقف المنحرفين، و هو رسم جديد يتصل باتخاذهم للرحمن ولداً، و خوضهم و لعبهم في الحياة الدنيا، و اعترافهم بالله تعالى و جحدهم إياه، حيث ختم النصّ ذلك بمخاطبة النبيّ (ص) بأن يصفح عنهم حتى يلاقوا يومهم الذي ينتظرهم ﴿**فاصفح عنهم و قل سلام فسوف يعلمون...**﴾ و بهذا امكننا ان نتبين عمارة السورة الكريمة من حيث الصلة بين مقدمتها و وسطها و ختامها، حيث بدأت الحديث عن تعامل محمد (ص) مع قومه، و مخاطبتهم بأن الانحراف لا يستتلي التوقف عن ارسال الحجة على الناس،... ثم بدأ (وَسَطُ) النص ليقدم اقاصيص و حوادث عن استمرارية إرسال الرسل في المجتمعات المنحرفة، و اسراف بعضها و هداية بعضها الآخر كما خُتم النص بالموضوعات المرتبطة بتلكم المجتمعات و مواقفها، حيث كان البعض منها يجسد (تنامياً) لما ورد في وسط النص مثل ﴿**و لئن سألتهم من خلق السماوات و الارض ليقولنّ خلقهن العزيز العليمُ**﴾ و ما ورد في ختام النص ﴿**و لئن سألتهم من خلقهم، ليقولن الله**﴾ ثم تعقيب النص عليهم ﴿**فأنى يؤفكون**﴾ حيث ان مقولتهم التعقيب يشكلان انحاء عضوياً لموقفهم في البدء عندما أثروا بان العزيز الحكيم هو الخالق للكون، ثمّ هو الخالق إياهم، و لكن مع ذلك فلا يزالون منحرفين، مما يستتبع ذلك أن يعقب النص عليهم بـ: ﴿**أنى يؤفكون...**﴾ والأمر كذلك بالنسبة إلى التقابل بين المقدمة الملوّحة بالجزاء الدنيوي ﴿**فاهلكنا اَشدّ منهم بطشاً**﴾ و بالختام الملوّح بالجزاء الأُخروي ﴿**فسوف يعلمون...**﴾ مضافاً إلى ما لاحظناه مفصلاً في الوسط الذي تناول علاقة المنحرفين برسلهم قديماً ولرسالة الإسلام، و تواشج الخطوط التي ربطت بين اجزاء النص، بالنحو الذي أوضحناه.



سورة الدخان

قال تعالى : **﴿بسم‌الله الرحمن الرحيم حم و الكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة اناكنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا اناكنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم ربّ السماوات و الارض و ما بينهما إن كنتم موقنين لا إله إلّا هو يحيي و يميت ربّكم و ربّ آبائكم الأوّلين بل هم في شكّ يلعبون...﴾**

هذه هي مقدمة سورة الدخان. و قد طُرح فيها جملة ظواهر تتصل بالقرآن الكريم و ليلة نزوله (مع ملاحظة ان النصّ قد قرن نزوله بعبارة **﴿اناكنا منذرين﴾** حيث ستنعكس هذه العبارة على محتويات السورة كما سنرى) و ورد فيها أيضاً: الاستدراك القائل بالنسبة إلى المنحرفين من خلال عبارة **﴿بل هم في شك يلعبون﴾** حيث سنرى انعكاسها على النص بدورها.

بعد ذلك نتجه إلى وسط النص، فتواجهنا الحكاية الاولى أو الاقصوصة القائلة: **﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشىٰ الناس هذا عذاب اليم ربّنا اكشف عنّا العذاب إنا مؤمنون انّى لهم الذكرىٰ و قد جاءهم رسول مبين ثم تولّوا عنه و قالوا معلَّم مجنون اِنّا كاشفوا العذاب قليلاً اِنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون...﴾**

هذه الأقصوصة أو الحكاية، تحتل موقعاً هندسياً مهماً من عمارة النصّ، فهي تبدأ بالخطاب القائل [**فارتقب**] حيث تتكرر في القسم الأخير من النص حينما يهدد المنحرفين بالعقاب الاخروي في الفقرة القائلة **﴿فارتقب انهم مرتقبون﴾** و بها يختم النص...

كما أنها تجيء جواباً فنيّاً مباشراً للمقدمة التي ختمت بعبارة **﴿بل هم في شك يلعبون﴾** حيث تواجههم (و هم الشكاك و اللاعبون) بالجزاء المترتب على انحرافهم، متمثلاً في حادثة (الدخان) (يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشىٰ الناس هذا عذاب... الخ)... و بالرغم من ان النصوص التفسيرية تأرجحت بين الذهاب إلى ان المقصود من هذا العذاب (الدخان) الجزاء الدنيوي الذي طال معاصري

الرسالة الإسلامية (أي مجتمع محمد (ص)) حيث دعا النبيّ (ص) على قريش فأصابتها المجاعة إلى درجة ان الناس كانوا ـ كما تقول النصوص المفسرة ـ يرون ما بينهم و بين السماء كأنّه الدخان... و هناك من يذهب إلى ان المقصود بـ(الدخان) هو: احدى آيات العذاب عند اشراط الساعة... بيد ان التفسير الأول هو المنسجم مع وقائع النص لجملة أسباب، منها: ان العذاب المرتقب لا معنىً له إذا كان يطال مجتمعاً غير مجتمع قريش لأنهم هم المخاطبون، فلا معنى لو تدعه عند اشراط الساعة، مضافاً إلى ما قررته الاقصوصة من ان الله تعالى سوف يكشف العذاب عنهم، و لكنهم عائدون الى انحرافهم، و اتهامهم محمداً (ص) بأنّه معلّم مجنون... و هذا كله ينسحب على مجتمع صدر الاسلام بخاصة ان النص يسرد لنا بعد هذه الاقصوصة، أقصوصة قوم فرعون بقوله تعالى: ﴿**و لقد فتنا قبلهم قوم فرعون...**﴾ و موقفهم من موسى (ع)، مما يكشف ذلك عن تماثل الموقفين: قوم محمد (ص) و قوم فرعون..

بعد ذلك يتجه النصّ إلى رسم حكاية أو أقصوصة عن مجتمع غابر هو مجتمع فرعون ﴿**و لقد فتنا قبلهم قوم فرعون...** الخ﴾ كما قلنا. و يرسم مصيرهم السلبي... و بذلك يكون النص قد قدّم اقصوصتين: معاصرة و غابرة لتعميق القناعة بمصائر المشككين اللاعبين...

بعد ذلك، يتجه النصّ إلى رسم أقصوصة متفرقة من اقصوصة قوم فرعون، ليقدم نموذجاً آخر من الجزاءات الدنيوية، و هي: الجزاءات الإيجابية مقابل الجزاءات السلبية، ليوازن هندسياً بين من يستجيب إلى الرسالة و بين من يتمرد عليها...

و لنقرأ:

قال تعالى: **﴿ولقد نجّينا بني إسرائيل من العذاب المُهين منْ فرعون إنَّه كان عالياً من المسرفين ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين وآتيناهُمْ من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾**.

هذا المقطع هو الاقصوصة الثالثة من قصص سورة الدخان التي وُظفت لإنارة الأفكار الرئيسة فيها وهي أنّ كثيراً من المنحرفين (هـم في شك يلعـبون) كما ذكرت مقدمة السورة... وقد جاءت هذه الاقصوصة لتدلل على المعطيات الدنيوية المترتبة على الإيمان برسالات السماء مقابل الاقصوصتين اللتين سبق الحديث عنهما فيما جاء بهما النص ليدلل على الجزاءات السلبية التي تلحق عديمي الإيمان...

إذن ـ من زاوية البناء الهندسي للسورة ـ جاءت هذه الاقصوصة بمثابة خطٍ إيجابي مقابل خطٍ سلبي، أي: رسم المصائر الدنيوية للمؤمنين، وهو النجاة، مقابل المصائر الدنيوية للمنحرفين وهو: الهلاك... من هنا قال النص عن الشخوص الذين استجابوا لرسالة موسىٰ **﴿ولقد نجّينا بني إسرائيل من العذاب المهين... إلخ﴾**.

ومن الواضح أنّ بني إسرائيل يشكّلون أشدّ الخطوط انحرافاً في التاريخ: قديمه وحديثه، وهو ما تكفلت بتوضيحه مفصلاً قصص اخرى في نصوص قرآنية متنوعة، لكن: بما أن هذه السورة ـ سورة الدخان ـ في صدد تحديد الاستجابات الصادرة عن الناس حيال رسالات السماء، وإلى أنّ البعض منهم يستجيب للرسالات المذكورة: حينئذٍ انتقى النص من مواقف وحوادث الإسرائيليين ما شكّل ـ في البدء ـ موقفاً إيجابياً وهم الشخوص القليلون الذين

آمنوا بموسىٰ عليه السلام، وأمّا مواقف الإسرائيليين ـ بعد ذلك فأمر ليس النص في صدد تحديده الآن، بل ـ كما قلنا ـ تتكفل نصوص اخرى بتوضيح ذلك. . . ولا نستبعد ـ من الزاوية الفنية ـ أن نفسّر صمت النص عن متابعة سلوك الاسرائيليين فيما بعد، بأنّ انتقال النص مباشرة ـ بعد عرضه للإسرائيليين ـ إلى الحديث عن المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام، بأنّه إيحاء فنّي يدع المتلقي مستوحياً من خلال التداعي الذهني بأنّ الإسرائيليين لم يتعظوا بالماضي أو لم يقدروا معطيات السماء التي انقذتهم من فرعون بالنحو الذي لم يقدر معاصروا رسالة الإسلام أيضاً: معطيات النجاة من (المجاعة) التي أصابتهم، وهي ما تكلفت القصة الاولى برسمه: كما لحظنا. . .

وأياً كان، فإنّ النص بعد أن عرض لنا ثلاث قصص موظفة لإنارة الأفكار الرئيسة في السورة، وهي كون أن الناس (في شك يلعبون). . . بعد أن عرض ذلك: عاد إلى الفكرة الرئيسة المذكورة ليحدثنا عن نماذج (الشك) و(اللعب) الذي يصدر عنه المنحرفون الذين عاصروا رسالة الإسلام قائلاً عنهم:

﴿إنَّ هؤلاء ليقولونَ: إنْ هي إلا موتتنا الأُولى وما نحْنُ بمنشرين فأتُوا بآبائنَا إنْ كُنْتُم صادقين أهُمْ خير أم قومُ تُبعٍ والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مُجرمين﴾.

في هذا المقطع يشدّد النص على ظاهرة الانبعاث في اليوم الآخر حيث اختار من سلوك المنحرفين هذه الظاهرة المعبرة عن أحد وجوه (الشك) و(اللعب) (بل هم في شك يلعبون) حيث شكّكوا في ذلك، وحيث ذكّرهم النصُ سريعاً بمصائر الماضين ممن شكّكوا أيضاً. . .

وهنا ينبغي أن نلفت النظر إلى أن انتخاب هذه المفردة من سلوك المنحرفين (التشكيك) باليوم الآخر: سوف ينعكس فنيّاً على المقاطع اللاحقة

من السورة حيث تتحدث عن اليوم الآخر والجزاءات المترتبة عليه بعد أن كانت القصص التي تقدم الحديث عنها تتحدث عن الجزاءات الدنيوية. . .

لكن، قبل أن يتحدّث النص عن اليوم الآخر: طرح الحقيقة العبادية التي تحمل معنى وجودنا في هذه الأرض وهي قوله ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهُما إلاَّ بالحقّ ولكن أكثرهُمْ لا يعلمون إنَّ يوم الفصل ميقاتهم أجمعين**﴾.

وهكذا من خلال هذه الطريقة الفنية التي ربط النصُ خلالها بين تقرير الحقيقة الكونية المفسرة لمعنى وجودنا في الأرض وبين يوم الفصل، من خلال ذلك: اتجه النص إلى رسم الجزاءات الاخروية بعد أن لحظنا ـ أنه مهد بذلك بالحديث عن المنحرفين المشككين بهذا اليوم ﴿**انَّ هؤلاء ليقولونَ إنْ هي إلاّ موْتتُنا الأولى. . . إلخ**﴾ مع الملاحظ أن رسم الجزاء الأخروي بنمطيه الإيجابي والسلبي قد عقب عليه النص قائلاً: ﴿**فإنّما يسَّرْناهُ بلسانك لعلَّهم يتذكَّرون فأرتقبْ إنَّهم مُرتقبُون**﴾. وبهذه العبارة التي خُتمت بها السورة ﴿**فارتقب انهم مُرتقبون**﴾يربط النصّ بينها وبين عبارة سابقة جاءت من أوائل السورة ﴿**فارتقب يوم تأْتي السماءُ بدُخانٍ مبين**﴾ حيث كانت العبارة الأخيرة تهديداً بجزاءٍ دنيوي قد حصل فعلاً وهو (المجاعة) بينا تفصح العبارة التي ختمت بها السورة عن تهديد أخروي سوف يحصل لاحقاً. . . وبهذا النمط من الوصل بين الجزاءين الدنيوي والاخروي وما يعكسانه من آثار نفسية في تعميق القناعة، ندرك أهمية ذلك ومساهمته في حمل المتلقي على الإيمان بالله أو على تعميق إيمانه بالله تعالى، على النحو الذي تقدم الحديث عنه.

❊ ❊ ❊

سورة الجاثية

قال تعالى: **﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم انّ في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبثّ من دابةٍ آياتٌ لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون تلك آيات اللهِ نتلوها عليك بالحق، فبأي حديث بعد الله و آياته يؤمنون﴾**.

بهذا المقطع تبدأ سورة الجاثية، بحيث نستطيع أن نتبين عمارة السورة الكريمة من خلال هذه المقدمة أو الافتتاحية للسورة، وهي، مقدّمة تركز علىٰ **﴿آيات الله تعالى﴾** أو براهينة أو دلائله التي تظهر للعيان بوضوح، ألا وهي: إبداع السماء، والأرض والإنسان والدواب، والليل، والنهار، والمطر، وإحياء الأرض، وتصريف الرياح، هذه الظواهر الإبداعية للكون ساقها النص بمثابة دلائل على وجود الله تعالى وقدراته وتسخيرها لصالح الإنسان، حيث عقّب عليها قائلاً **﴿فبأيّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾**. ومن هذا التعليق نستكشف أن السورة الكريمة تحوم موضوعاتها على فكرة محدّدة هي: ان هناك من البشر من يشكّك بالله وقدراته ورسالة الإسلام، بحيث لا يفقه هذه الدلائل أو الآيات الكونية... لذلك، جاء القسم الثاني من السورة الكريمة، يتحدث عن هؤلاء المنحرفين المشككين بآيات الله تعالى، حيث يقول:

ويلٌ لكلّ أفّاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يُصرّ مستكبراً، كأن لم يسمعها، فبشره بعذاب أليم وإذا عَلِمَ من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُواً، أولئك لهم عذاب مهين...﴾ لنلاحظ مدىٰ تماسك ومتانة البناء الفنّي لهذا النص، حيث أنّ آيات الله تعالى تظل عبارةً تتكرر وكأنها الدم الذي يمدّ جسم السورة بالحياة، ففي المقدمة نقرأ عبارات من أمثال **﴿لآيات للمؤمنين﴾ ﴿آيات لقوم**

يوقنون﴾ ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ وفي القسم الثاني نقرأ عبارات مماثلة مثل ﴿فبأيّ حديث بعد الله وآياته﴾ و﴿يسمع آيات الله تتلى﴾ و﴿إذا علم من آياتنا شيئاً﴾. . .

إذن، عبارة (آيات) تكررت ستّ مرات في مقطعي السورة الكريمة، حيث يكشف هذا التكرار عن أن هناك (فكرة) تمتد بشرايينها في جسم السورة بنحوٍ ملحوظ. . .

بيد أن المهم هو، أن النص يستهدف من وراء ذلك، إبراز حقيقة هي: سلوك المنحرفين الذين يشكّكون بهذه (الآيات) أو الدلائل. . . وقد استخدم النص جملةً من العناصر الفنية لبلورة هذا الموضوع، وفي مقدمتها عنصر «الصورة» متمثلة في «التشبيه» الذي يقول عن هؤلاء المشكّكين المعاندين: ﴿يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يصرّ مستكبراً، كأن لم يسمعها، فبشّره بعذاب أليم﴾. . .

هذه الفقرة تتضمّن «تشبيهاً» مألوفاً، إلاّ أنّه يكتنز بدلالات فنّية ضخمة. . . فقد استخدم أداة التشبيه (كأن). . . وهذه الاداة بالقياس إلى أدوات التشبيه الأخرى مثل (الكاف) و غيرها، تتميّز بكونها ترصّد «العلاقة» بين الشيئين (المشبه والمشبه به) بدرجة أقلّ من المتوسط، لأن الأداة المتوسطة، هي (الكاف) حيث يتكافأ فيها طرفا التشبيه، أمّا (كأن) فهي: لا تنقل درجة الشبه إلاّ بأقل من المتوسط، لذلك فإنّ السر الفنّي الكامن وراء تشبيه الكافر بأنّه يشبه من لم يسمع بآيات الله تعالى ﴿كأن لم يسمعها﴾ إنما هو تشبيه حيّ ينقل «الواقع» بكل دقائقه التي يتطلبها الموقف، فالكافر، «ليسمع» آيات الله ﴿يسمع آيات الله تتلى عليه﴾ ولكنه يصرّ مستكبراً على عدم الإقرار بحقيقتها، لذلك شبهه بقوله ﴿كأن لم يسمعها﴾ أي: كأنه يماثل من لم يسمع الآيات، مع أنه قد (سمعها) بالفعل، ومعنى هذا، أنّ التشبيه بعدم استماعه

للآيات، يظل ناقلاً لحقيقة هي: إنه في الواقع ليس مشابهاً لمن لم يسمع بآيات الله، بل إنه يحاول أن يكون مثل من لم يسمع بها، وهذا ما يتسق وأداة التشبيه (كأن) ما دامت تنقل درجة الشبه بأقل من المتوسط أو المألوف. . .

والأهم من ذلك، أن هذا التشبيه جاء متناسقاً مع (فكرة) السورة التي تستهدف توضيح أنّ المنحرف الذي يواجه آيات الله تعالى ودلائله، يظل موسوماً بطابع الاستكبار والعناد، حيث يفصح مثل هذا التناسق بين عناصر السورة وفكرتها، عن مدىٰ الأحكام الهندسي للنص، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى **﴿الله الذي سخّر لَكُمُ البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون وسخرّ لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، انّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾**.

هذا المقطع من سورة الجاثية امتداد لمقطع سابق يتحدث عن ظواهر الإبداع الكوني (السماوات والأرض والليل والنهار والمطر. . . إلخ). هنا يتحدث عن هذه الظواهر ولكن من خلال تسخيرها للإنسان، حيث أشار المقطع إلى تسخير البحر وعلاقته بالسفن التي تجري فيه، وإلى تسخير جميع القوى الكونية من أجل الإنسان، حيث عقب على ذلك بقوله تعالى **﴿ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**. . . وهذا التعليق هو الرابط الفني بين أقسام السورة التي لحظنا مقدمتها تؤكّد بأنّ إبداع القوىٰ الكونية هي (آيات) للناس، ينبغي أن يتعقلوها، حيث جاءت عبارات من نحو **﴿آيات لقوم يوقنون﴾** **﴿لآيات للمؤمنين﴾**، بمثابة محطة (توقف) في الرحلة التي تقطعها موضوعات السورة المختلفة، حيث يكشف ذلك عن مدى الإحكام الهندسي للسورة: من حيث تلاحم أجزائها التي لحظناها. . .

ونتابع السورة الكريمة، فنجدها تنتقل إلى حكاية أو اقصوصة عن بني إسرائيل، فتقول: ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيّبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بيناتٍ من الأمر، فما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، إنّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. . .**﴾.

هذه الحكاية عن الإسرائيليين من الممكن أن تثير التساؤل بالنسبة إلى موقعها الهندسي من السورة، حيث تتحدث السورة عن موقف معاصري الإسلام من رسالته التي يشكك بها هؤلاء المنحرفون: بالرغم من ملاحظتهم الظواهر الإبداعية التي تكشف عن عظمة الله تعالى وصدق الرسالة التي بشّر بها محمد(ص). . .

إن الإسرائيليين يتميّزون ـ كما كرّرنا ـ عن سواهم من الامم بكثرة انحرافاتهم وشدّتها، لذلك فإنّ الاستشهاد بقصصهم يحمل دلالة فنية هي: إضاءة الموقف بسلوكهم، أي: أن قصصهم عبرة لمعاصري رسالة الإسلام، حيث آتاهم الله تعالى الكتاب والحكم والنبوة، ثم فضلهم ـ عصرئذٍ ـ على غيرهم، ولكن مع ذلك: انحرفوا واستكبروا فسبّبوا المتاعب لأنبيائهم من جانب ووقفوا موقفاً مضاداً من رسالة الإسلام من جانبٍ آخر. . . لذلك، فإنّ الاستشهاد بسلوكهم المنحرف في هذا الموقع من السورة، يعني: الاتعاظ بمصائرهم التي لوّح بها المقطع القرآني بالنسبة إلى ما ينتظرهم من الجزاء في اليوم الآخر. . .

بعد ذلك، ينتقل النص إلى ربط هذه الحكاية، بموقف المنحرفين المعاصرين لرسالة الإسلام، فيطالب بعدم اتباع أهوائهم، مقارناً بينهم وبين المؤمنين: من خلال (التشبيه) الفنّي الآتي:

﴿**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا**

الصالحات. . .﴾.

هذه الصورة تتضمن (استعارة) هي **﴿اجترحوا السيئات﴾** وتتضمن تشبيهاً هو ما نسميه بالتشبيه المضاد حيث قارن بين المنحرفين **﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم﴾** وبين المؤمنين **﴿كالّذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾**. . .

أمّا الاستعارة وهي (اجتراح السيئة) فتتمثل في خلع طابع (الجرح) على العمل السيّئ،، حيث أن العلاقة بين (الجرح) ـ وهو إيذاء للبدن ـ وبين العمل السيّئ ـ وهو ايذاء للنفس أو الروح، تظلّ من الطرافة والعمق من الوضوح بمكان كبير. . . وأما (التشبيه المضاد) الذي اعتمد عنصر التساؤل وهو **﴿أم حسب. . . إلخ؟﴾** فهو تشبيه عمليّ حيّ قد اعتمد الوضوح والبساطة، إلاّ أنه اكتنز بدلالات عميقة وطريفة في الآن ذاته، تشير إلى الفارقية الكبيرة بينهما: من حيث انعكاس ذلك على المصائر الاخروية التي تنتظر الفريقين. . . ويُلاحظ، أن هذه الصورة الفنية (الاستعارة والتشبيه) قد وظفها النص لإنارة الموضوع الذي طرحه سابقاً وهو: المصائر الاخروية للمنحرفين، وبهذا التوظيف للصورة الفنية، نتبيّن مدى الإحكام الهندسي للنص: من حيث تجانس عناصره وموضوعاته بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

❊ ❊ ❊

قال تعالى: **﴿أفرأيت من اتَّخذ إلهه هواه، وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون﴾**. . .

هذا المقطع أو الآية من سورة الجاثية، تشكّل قسماً مستقلاً من السورة التي تحوم (فكرتها) على نفرٍ من المنحرفين الذين لم يتعظوا بآيات الله تعالى أو الظواهر الكونية التي أبدعها تعالى وسخّرها للإنسان، حتى يتعظ بها ويمارس

مهمّته العبادية. . . لقد وصف النصُ في هذه الآية أو المقطع هذا النفر من المنحرفين، بسماتٍ ملفتة للنظر: من حيث الرصد لأدقِّ الصفات التي طبع الله تعالى بها سلوك المنحرفين، معتمداً العنصر «الصوريّ» المدهش في هذا الصدد، حيث جاءت الاستعارات والرموز، محتشدة بشكل ملحوظ في رسم سلوك المنحرفين. . .

فأوّلاً، لقد رسم سلوك المنحرف: من خلال «الصورة الاستعارية» ﴿**أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه**﴾، ولا حاجة إلى إلقاء الضوء على هذه الاستعارة المدهشة التي خلعت سمة (المعبود) على أهواء المنحرف، حيث أن «المعبود» هو: القوّة الوحيدة التي يتجه إليها الإنسان، وحين يخلع صفة «المعبود» على (هوى) الإنسان، حينئذٍ يكون قد ألغى العنصر الإنساني من شخصية المنحرف، وجعله حيواناً لا يُعنى إلاّ باتباع هواه وعبادته إيّاه، ولا يمكننا حينئذٍ أن نتصور إمكانية أن تُرسَم صورة مجازية مستقطبة لسلوك المنحرف، أبلغ من الصورة التي تجعل من هواه وانحرافه «معبوداً يتخذه الشخص المذكور. . .

ليس هذا فحسب، بل نجد بعد ذلك مجموعة: من صور استعارية أو رمزية ترتبط بالصورة السابقة، حيث جاءت الصور على هذا النحو من التركيب) ﴿**وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة. . .**﴾.

إن هذه الصورة الاستعارية أو الرمزية، تشكّل أيضاً عملية استقطاب لسلوك المنحرف الذي لا أمل في إصلاحه البتة، فصورة ﴿**ختم على سمعه وقلبه**﴾ إلى جانب صورة ﴿**وجعل على بصره غشاوة**﴾ ينطويان على دلالات مثيرة وطريفة، فالختمُ هو «الطبع» أو وضع علامة فارقة على الشيء، والغشاوة «هي» الغطاء حيث يتجانس كلّ من «الختم» و«الطبع» من حيث كونهما تعبيراً عن الانغلاق أو الانسداد للشيء بحيث لا توجد فتحة للخير لدى

المنحرف. . . ويُلاحظ أن الصورة الأولى، وهي «الختم» قد رسمها النص بالنسبة إلى سمع المنحرف و«قلبه»، والصورة الثانية وهي «الغشاوة» جعلها على «بصره»، والسر الفنّي في ذلك، أن «الطبع» أو «الختم» بالنسبة إلى السمع والقلب، يتجانس مع وظيفة السمع التي تعني: أن المنحرف لا يفقه الخير من خلال عملية «الغلق» للأولين، ويتجانس مع وظيفة القلب التي تعني: إنه لا يفقه الخير من خلال «الغلق» للقلب، حيث أن استخدام الغلق ـ كما ورد في سورة اخرى «أم على قلوب اقفالها»، يتجانس مع عدم انفتاحه للخير. . .

وأمّا «الغشاوة» أو«الغطاء» بالنسبة إلى «البصر»، فلأن البصر بطبيعته تجسيد لعملية الإبصار أو النظر للشيء، وحينئذٍ لا يتجانس معه إلاّ ما هو «حاجز» يحتجزه عن النظر، وهذا ما يتمثل في «الغطاء» وليس «الختم» أو«الطبع»، أي ما يتمثل في صورة «الغشاوة». . .

إذن، جاءت الصورتان **﴿وخَتَم على سمعه وقلبِهِ﴾** ثم **﴿جعل على بصرهِ غشاوة﴾**، متماثلتين من جانب، ومتخالفتين من جانب آخر، تماثلهما (من حيث خضوعهما لسمة مشتركة هي وضع علامةٍ أوحاجز). . . وتخالفهما من حيث أن «العلامة» أو«الحاجز» يختلف نمط أحدهما عن الآخر، لأن «الختم» يختلف عن «الغطاء»، بالرغم من خضوعهما لصفة مشتركة. . . وهذا النمط من الصورة» يتجسّد في ما يطلق عليه مصطلح «التماثل من خلال التضاد» أو«التضاد من خلال التماثل»، حيث يعني أن هناك سمات مشتركة مع أنها خاضعة لطابع واحد، وأن هناك سمات مختلفة: مع أنها خاضعة لطابع مشترك. . . وهذا التجانس يكشف عن أحد أشكال البناء الفنّي الكاشف عن مدىٰ الإحكام العضوي والهندسي للنص.

❊ ❊ ❊

قال تعالى: **﴿وقالوا: ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا**

إلاّ الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات، ما كان حجّتهم إلاّ أن قالوا: ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين قل: الله يُحييكم ثم يُميتكم ثم يجمعكم إلىٰ يوم القيامة لا ريب فيه، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾.

هذا المقطع وما بعده، يتناول موقف المنحرفين من اليوم الآخر. وما يهمّنا فنيّاً هو: موقعه من عمارة السورة الكريمة التي تدور فكرتها عن حتمية اليوم الآخر الذي يشكّك به المنحرفون...

لقد سبق ـ في مقدّمة السورة ـ وصف هؤلاء المنحرفين بأنّ الشخص منهم **﴿يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يصرّ مستكبراً، كأن لم يسمعها﴾**... هذا الوصف للمنحرفين، يُلقي بظلاله على هذا المقطع الذي نتحدّث عنه، حيث يفصّل ما أجملته المقدمةُ من استماع المنحرفين لآيات الله تعالى وعنادهم حيال ذلك، والتفصيل هو: **﴿وإذا تتلىٰ عليهم آياتنا بينات، ما كان حجتهم إلاّ أن قالوا: ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين﴾**، أي: أنهم يسخرون من قضية الانبعاث في اليوم الآخر، إنّ طلبهم بالاحياء في الدنيا، نموذج واضح للعناد، ولمفهوم العبارة التي وصفتهم **﴿ثم يصرّ مستكبراً﴾**، فالإصرار والاستكبار هما نموذجان للعناد ـ كما هو واضح، كما أن طلب إحياء الموتى في الدنيا: نموذج للعناد أيضاً...

ونتابع المقطع، فنجد تفصيلات اخرى لاستماع المنحرفين آيات الله تعالى وعنادهم حيالها، ومنها: **﴿وإذا قيل: إنّ وعد الله حق والساعة لا ريب فيها، قلتم: ما ندري ما الساعة، ان نظنّ إلاّ ظناً...﴾**. هذا الموقف من المنحرفين، يشكّل جواباً فنيّاً لموقفهم السابق الذي شكّكوا من خلاله بقضية الإحياء في اليوم الآخر، حيث قالوا: بأنهم يظنون ذلك ولا يتيقنون منه... وهو أيضاً جواب فنيّ لما وصفهم الله تعالى قبل ذلك حينما نقل حواراتهم

وتعليقه عليها: ﴿**وقالوا: ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلاّ الدهر، وما لهم بذلك من علم، ان هم إلاّ يظنون**﴾. لقد وصفهُم النص بأنهم لا علم لهم بل يظنون ظناً... وها هو ينقل اعترافاتهم بأنهم يظنون أو يشككون باليوم الآخر ﴿**إن نظن إلّا ظناً و ما نحن بمستيقنين**﴾... واضح، أن النص هنا يربط (من حيث البناء الهندسي لموضوعات السورة) بين عدم معرفتهم بالامور على نحو اليقين حينما وصفهم بأنهم يظنون ظناً في ادعائهم بأنهم لا يُهلكُهم إلاّ الدهر، وبين زعمهم بأنهم لا يملكون غير الدهر إلاّ أنّ النصُ قد ألغى كل اعتبار بظنونهم المذكورة، أي: الشك باليوم الآخر...

والمهم ـ بعد ذلك ـ أن النص بدأ يقدّم إجاباتٍ تتركّز على حتمية ما أنكروه (وهو اليوم الآخر) حيث أومأ إلى أن الله تعالى هو الذي يحيي ويميت ويبعثهم ويحاسبهم: فيما يخسر هؤلاء المنحرفون عند المحاسبة. ومن جملة ما ينقله من مواقف اليوم الآخر، هو:

﴿**وترى كلّ أمّةٍ جاثيةً، كُل أمّةٍ تُدعى إلى كتابها، اليوم تجزون ما كنتم تعملون**﴾. هذا الموقف قد رسمه النصُ وفق صياغةٍ فنية تعتمد عنصرا الصورة الاستعارية أو الرمزية، كما تعتمد عنصرا التقابل و «التكرار» و غيرهما من أدوات الفن... أما الصورة الاستعارية أو الرمزية، فتتمثل في صورة ﴿**وترى كل أمةٍ جاثية**﴾. فالامّة هي طائفة اجتماعية كبيرة، أي أنّ مفهومها يقوم على شخصية معنوية هي مجموع الناس وليس شخصاً محدداً، لذلك، حينما وصف الأمّة بأنها (جاثية)، أي: جالسة على رُكبها أو قائمة على أطراف أصابعها، يكون بذلك قد استعار لها أو رمز لها بحركة أو بهيئة جسمية خاصة، يستكشف منها: الخضوع والانقياد والخوف من أهوال الموقف، لأنّ (الجثوّ) هو: جلوس العبد أو المُتهم أو أيّ شخص يتملكه الخوف ويفقد كل قدراته الذاتية، ويستسلم لمن يُحاكمه استسلاماً كاملاً، بحيث يجلس على ركبتيه أو يقوم على

أطراف أصابعه منتظراً النتيجة النهائية التي تحكم عليه. . . لذلك، فإنّ الاستعارة أوالرمز (من خلال صورة الجثو) يُعدّ تعبيراً فنّياً مُدهشاً للموقف المذكور. . . وهو موقف يتجانس مع طبيعة السلوك المنحرف الذي رسمه النصُ لأولئك المشككين باليوم الآخر، حيث أن «عنادهم» دنيوياً قابله «اخروياً»: موقف مضاد هو الاستسلام الكامل المرموز له بصورة «الجثو»، وهذا التجانس بين الموقفين: دنيوياً واخروياً، يكشف عن مدى الإحكام الهندسي للنص، من حيث علاقة عناصره وموضوعاته مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**وبدا لهم سيئات ما عملوا، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون وقيل: اليوم ننساكم، كما نسيتم لقاء يومكم هذا، ومأواكم النار، ومالكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آياتالله هُزواً، وَ غرّتكم الحياة الدنيا، فاليوم لا يُخرجون منها ولا هم يُسْتَعْتَبُونَ...**﴾.

بهذا المقطع تُختم سورة «الجاثية» التي جاء في مقدمتها التي تتحدث عن الكافر: ﴿**وإذا علم من آياتنا شيئاً، اتخذّها هزواً، أولئك لهم عذاب مهين**﴾. . . لقد كانت مقدمة السورة، تتحدّث عمّن اتّخذ آيات الله تعالى هزواً، وبأنّ له العذاب المهين الذي ينتظره. . .

وها هي خاتمة السورة تتحدث عن نفس الموضوع، أي: تقدم جواباً لاولئك الذين وعدتهم بالعذاب، ممن اتخذ آيات الله تعالى هزواً، حيث تجيبهم: ﴿**ومأواكم النار، وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً**﴾.

إذن، العلاقة الفنية بين فاتحة السورة وخاتمتها من الإحكام والإتقان والوثاقة بمكان ملحوظ. (من زاوية النظر إلى عمارة السورة الكريمة). . .

وأمّا من زاوية التعبير الفني لهذا الجانب، فإنّ الملاحظ، أن النص قد استخدم أدوات «الصورة» و«التقابل» و«التكرار» وغيرها من أدوات الفنّ التي تساهم في إضفاء الجمالية على هيكل السورة المباركة... ويمكن ملاحظة هذا الجانب بوضوح، في العبارة الآتية: ﴿**وقيل: اليوم ننساكم، كما نسيتم لقاء يومكم هذا**﴾. هذه العبارة، بالرغم من بساطة ووضوح دلالتها في تصوّر القارىء، إلاّ أنها تحتشد بسمات فنيّة متنوعة تبعث الإثارة والدهشة والإمتاع، أنها تتضمن «استعارة» أولاً، وهي ﴿**ننساكم، ونسيتم**﴾، كما تتضمّن «تشبيهاً» هو ﴿**كما نسيتم لقاء يومكم هذا**﴾. وتتضمّن (تقابلاً) وهو: نسيان السماء للمنحرف مقابل نسيانه السماء في حياته الدنيا... وتتضمّن «حواراً» هو «وقيل: اليوم ننساكم... إذن، نحن الآن أمام «أدوات» فنية متنوعة، من «صورة» ، «وتكرار » و «تقابل» و «محاورة»... إلخ.

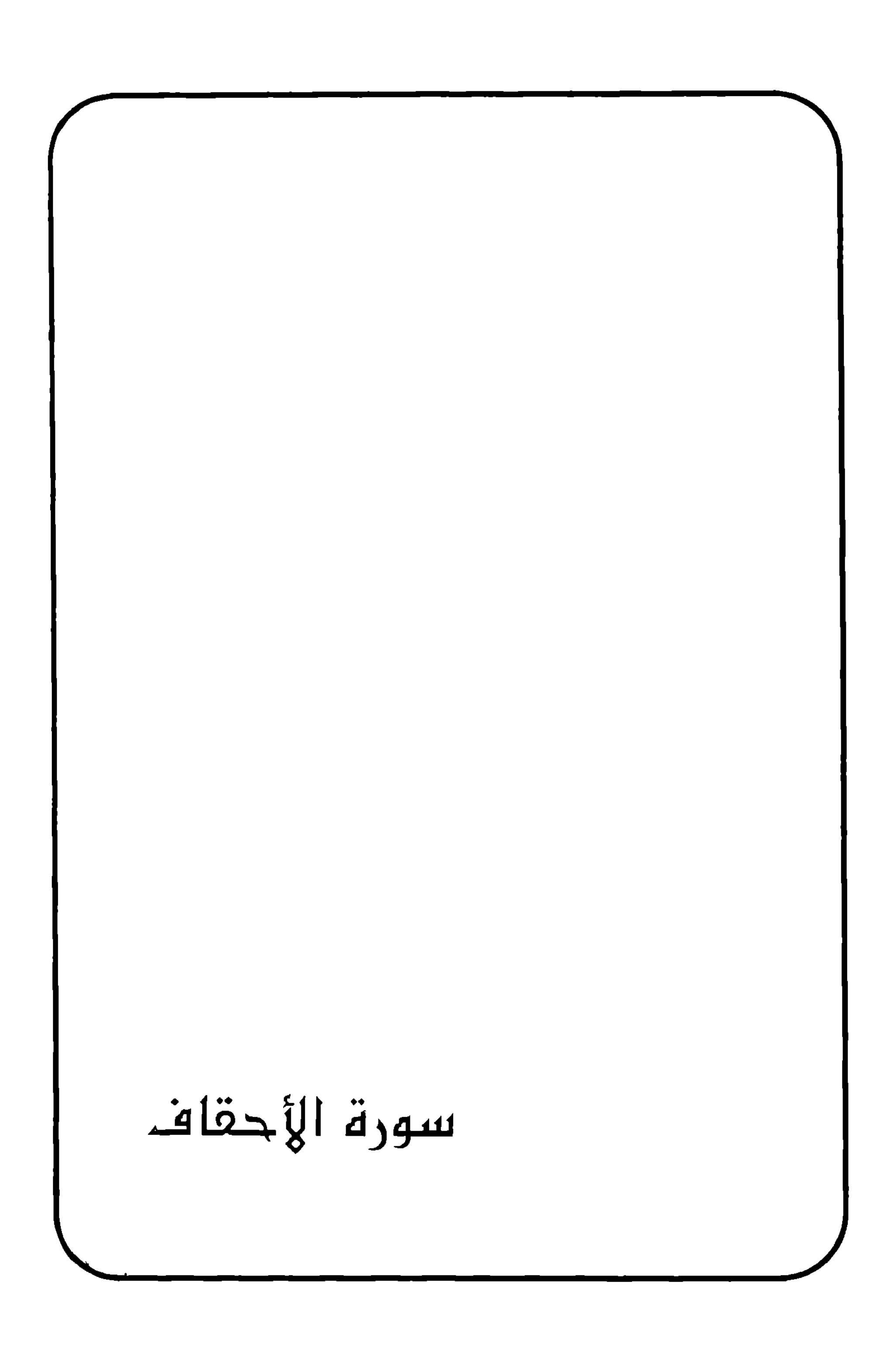
والمهم هو، إن هذه «الأدوات» تُوظَّف فنيّاً من أجل إنارة الهيكل الفكري العام للسورة الكريمة...

أما عنصر «الصورة» وهي: الاستعارة القائلة: ﴿**اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا**﴾، فتتمثل جماليتها وتوظيفها الفنّي في: كونها تتضمّن استعارتين وتشبيهاً، حيث ربطت بين موقف المنحرفين في دنياهم وهو (نسيانهم) لليوم الآخر، أي: عدم إيمانهم بحتمية اليوم الآخر، وبين (النسيان) لهم، أي: عدم النظر إليهم من قبل الله تعالى في اليوم الآخر، ما داموا قد نسوا هذا اليوم... والمهم هو، إن النص قد استعار «النسيان» وجعلهُ رمزاً لموقف خاص هو: (عدم الإيمان)، وأهمية هذه الاستعارة أو الرمز هي أنه خلع طابع «النسيان» ـ وهو سمة ترتبط بالجهاز العقلي للشخصية ـ خلعه على موقف الكافر من رسالة الإسلام ومنها: التشكيك باليوم الآخر، كما أنه خلع نفس الطابع (وهو النسيان) على موقف السماء من هذا الكافر: عند المحاكمة في

اليوم الآخر، حيث جعل عدم الالتفات إلى مطالب الكافر وعدم تحقيق امنياته التي لخصها في عبارة ﴿**فاليوم لا يُخرجون منها ولا هم يُستعتبون**﴾ أي: لا يخرجون من النار، ولا يُسمح لهم بالعذر، جعل هذا كله نسياناً، أي: خلع طابع عدم النظر إلى مطالب الكفار، (نسياناً) لها، فالنسيان هنا (رمز) أو (استعارة) لعدم الالتفات إليهم وليس (نسياناً) بالمعنى الحقيقي ـ كما هو واضح... وجمالية مثل هذه الاستعارة أو الرمز هي المقابلة بين (نسيان الكافر) الذي هو عدم الالتزام، وبين (نسيان السماء) الذي هو عدم تحقيق مطالبهم، فما داموا لم يتقيدوا بالعمل لله تعالى، فإنّ السماء أيضاً لم تلتزم: بالعمل من أجلهم... وهذا (التقابل) بين الموقفين أو (النسيانين) واكبه (التشبيه) بينهما، أي: شُبّه نسيان السماء، بنسيان الكافر، مع ملاحظة الفارق بينهما، حيث أن نسيان الكافر سمة سلبية ونسيان السماء سمة إيجابية، الاولى: موقف العصيان، والثانية: موقف الجزاء عليه...

إذن، أمكننا أن نتبين مدىٰ جمالية هذه الصور الاستعارية والتشبيهية، بما واكبها من عناصر التكرار والتقابل والمحاورة: حيثُ وظفت جميعاً من أجل إنارة فكرة السورة الكريمة التي ربطت بين موقف المنحرفين وبين انعكاساته اخروياً، حيث علاقة موضوعاته وعناصره: بعضها مع الآخر بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

* * *



سورة الأحقاف

تبدأ سورة الأحقاف بهذا النحو: ﴿**بسم الله الرحمٰن الرحيم: حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجلٍ مُسمّى والذين كفروا عما أُنذِروا مُعرضون قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شِرك في السماوات ائتوني بكتابٍ من قَبْل هذا أو أثارةٍ من عِلمٍ إن كنتم صادقين**. . . ﴾.

من هذا التمهيد نفهم بأنّ السورة الكريمة تطرح (فكرة) العمل العبادي الهادف في تجربة الإنسان على الأرض، فالسماء والأرض وما بينهما لم تصغ إلاّ بالحق وأجل مسمى أي: فترة اختبارية محددة، لكن بما أنّ هناك من يغفل عن هذا الهدف العبادي ويتجه إلى من هو دون الله، حينئذٍ يتساءل النص قائلاً: ﴿**أرأيتم ما تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات؟**﴾.

إذن، عندما يطرح النص فكرة الهدف العبادي من نشأة الكون ويقرر بأنّ نشأة السماء والأرض هي من قبل الله تعالى حينئذٍ يظل من المنطقي جداً أن يتساءل هل أنّ ما يعدون من دونه تعالى بمقدورهم أن يخلقوا الأرض أو هل لهم مساهمة في خلق السماء؟ من الزاوية الفنية: يظل الطرح والسؤال مرتبطين بعضهما مع الآخر كما لحظنا، لكن ينبغي أن نتابع الاستدلال الفني في كل من الطرح والتساؤل لنقف على الدلالة الفكرية الشاملة التي يستهدفها النص من وراء ذلك. . .

إنّ أول ما يقرره النص في هذا الصدد هو: الرد الفني على من يدعو من دون الله، قائلاً: ﴿**ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**. . . ﴾.

إذن: ما يدعى من دون الله لا فاعلية له في الإجابة، بعد أن تساءل النص في المقدمة بأنّ ما يدعى من دون الله لا فاعلية له في خلق الأرض ولا مساهمة له في خلق السماوات...

لكن، ذلك كله في تجربة الحياة الدنيا... وماذا عن الآخرة؟.

يقول النص **﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين﴾**... ففي الحياة الدنيا لا فاعلية للقوى التي يتجه إليها المنحرفون، وفي الآخرة: سوف تهزأ القوى المذكورة بعبادة المنحرفين وتقف مضادة لهم.

في الحصيلة، هناك طرح فكري يستهدفه النص في هذه المقاطع التي استهلت بها السورة الكريمة متمثلة في كون الوجود ذا هدف عبادي وإن المنحرفين عن الهدف المذكور يتجهون إلى قوى لا فاعلية لها في نشأة الوجود، وإلى أنّ هذه القوى سوف تكفر بعباده المنحرفين...

والآن، حين نتجه إلى الوسط بعد أن لحظنا الفكرة التي طرحتها مقدمة السورة نجد أنّ الوسط سوف يتكفل فنياً بإنارة الفكرة المتقدمة وإلقاء الأضواء عليها من خلال السلوك البشري قديماً وحديثاً (أي بالنسبة إلى المعاصرين لزمن رسالة الإسلام) حيث يعرض لنا النص أولاً جانباً من سلوك المنحرفين في زمن الرسالة:

يقول النص فيهم **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين أم يقولون افتراه قل إن افتريتُه فلا تملكون لي من الله شيئاً، هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم، قل ما كنتُ بدعاً من الرُّسُلِ وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم إنْ أتَّبع إلاّ ما يُوحى إليّ وما أنا إلاّ نذير مبين﴾**. إنّ هذا العرض لسلوك المنحرفين حيث اتهموا الرسالة بالسحر ثم الرد عليهم من خلال الاستدلال الفني بالرسالات السابقة،

هذا العرض والرد يجسّد امتداداً للمقدمة التي استدلت أيضاً باللغة التي تردم أي ادعاء يصدر المنحرفون عنه، فهناك ـ في المقدمة ـ إتجاه إلى قوىً غير فاعلة: كان الرد عليها بأنّها لم تساهم في عملية خلق الكون وهنا ـ في الوسط ـ ادعاء بأنّ القرآن سحر، والرد عليه بأنّه وحي على نسق رسالات السماء السابقة. . .

أكثر من ذلك، يقدم النص دليلاً آخر لتعميق القناعة بتفاهة الادعاء المنحرف المذكور حيث يقول: ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن، واستكبرتم**. . .﴾.

وبهذا الدليل الحسي، أي الاستشهاد بأشخاص لهم ثقلهم العلمي أقروا بصحة ومشروعية رسالة الإسلام أو برسالة سابقة عليها، ثم يستكبر الأخرون ممن يوازنهم أو ممن هو دونهم. . مثل هذا الاستكبار يشكل سلوكاً لا قيمة له البتة كما هو واضح ما دام المتميزون علمياً قد أقروا بحقيقة الرسالة، هذا ما أكده النص للمرة الجديدة حينما عرض لنا رد فعل المنحرفين على هذا الدليل: ﴿**وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة**. . .﴾. ففي هذا المقطع إبراز لمزيد من الاستكبار لدى المنحرفين الذين عقبوا على إيمان البعض بأهمية الرسالة بأنّها لو كانت خيراً ما آمن بها النفر المذكور، وقد جاء الرد بأنّ رسالة موسى عليه السلام قد سبقت ذلك، وهذا يعني أنّ النص قد ردم أيضاً أية حجة يمكن أن يتوصل بها المنحرفون في تعزيز ادّعاءاتهم المذكورة. . . المهم: أنّ النص بهذا النمط من الاستدلال الفني وصل عضوياً بين مقدمة السورة ووسطها، على النحو الذي تقدم الحديث عنه.

❊ ❊ ❊

قال تعالى: ﴿**إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم**

يحزنون، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءاً بما كانوا يعملون، ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده و بلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون، والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إنَّ وعد الله حق فيقول ما هذا إلاّ أساطير الأولين، أولئك الذين حق عليهم القول، في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾.

في هذا المقطع من سورة (الأحقاف)، عرض لسلوك المؤمنين بعد أن كان المقطع الأسبق يتحدث عن سلوك الكافرين المشككين برسالة الإسلام. . . إنّ أي نص فني قائم على عمارة خاصة من الموضوعات الفكرية المختلفة إنّما تتجسد جماليته في ربط الموضوعات بعضها بالآخر، مع ملاحظة إدخال أفكار جديدة في النص تأخذ موضعها الهندسي وفق نحو خاص. . . والمقطع الذي نتحدث عنه يستهدف الموازنة بين سلوك المنحرفين (وهم فئة وقفت مناهضة لرسالة الإسلام بعامة) وبين سلوك المؤمنين الذين آمنوا برسالة الإسلام، إلاّ أنّ النص يستهدف في الآن ذاته أن يعرض شرائح خاصة من مبادىء الإسلام، ليقدم أكثر من (فكرة) مستهدفة في السورة، لذلك طرح واحداً من المبادىء المهمة في هذا الصدد ونعني به: سلوك الشخصية حيال أبويها. . . فالأبوان يحملان دلالة إنسانية خاصة ـ بغض النظر عن موقفهما الفلسفي من الكون ـ مما يتعين على الشخص أن يسلك حيالهما سلوكاً نابعاً من الدلالة الإنسانية التي أشرنا إليها. من هنا أكد النص على الشدائد التي

واجهها أحدهما ـ وهو الام مثلاً ـ من حيث حملها الإنسان كرهاً، ووضعه كرهاً، وإرضاعه... إلخ. إلاّ أنّه ـ وهو يشدد على إبراز هذه الدلالة الإنسانية: من حيث خدمات الأبوين للشخص ومن حيث المطالبة بالإحسان إليهما: جزاء للخدمات المذكورة ـ يربط المقطع (في الآن ذاته) بين ظاهرة الإيمان وظاهرة الكفر التي طرحها في مقطع سابق، لتحقق بذلك تلاحماً عضوياً بين موضوعات السورة... لذلك ربط النص بعد ذلك بين الأشخاص الذين لا يحسنون إلى الأبوين وبين الأشخاص الذين لم يؤمنوا برسالة الله قائلاً: **﴿والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن﴾** بمعنى أنّ المقطع هنا أبرز ظاهرة محددة من سلوك الشخص حيال أبويه وهو (الإيمان بالله) لتجانس موضوعات السورة فيما بينها، وبما أنّ السورة تتحدث عن الإيمان بالله والموقف المضاد له وهو: الكفر، حينئذٍ تبرز من السلوك المختص بالشخص وأبويه: ما يتعلق بظاهرة الإيمان والكفر اللذين تحوم عليهما السورة بكاملها.

إذن، جاء طرح السورة لقضية الأبوين وموقف الإنسان منهما مطبوعاً بسمة فنية مزدوجة هي: أولاً طرح موضوع جديد يستهدف النص توصيله إلى المتلقين بعامّة كي يفيدوا منه تعديل سلوكهم وهو: التعامل الحسن مع الأبوين. ثانياً: طرح هذا الموضوع من خلال سياق خاص يتجانس مع (فكرة) السورة بكاملها، وهي: الإيمان والكفر بعامة...

من هنا نجد أنّ النص ما أن انتهى من هذا الطرح الفني حتى عاد من جديد إلى الفكرة الرئيسية التي تحوم عليها السورة، متجهاً إلى عرض سلوك المنحرفين الذين شككوا برسالة الإسلام، فعرض لجانبٍ جديدٍ من سلوكهم هو: الحافز أو الدافع الكامن وراء اختيارهم للمواقف المنحرفة متمثلاً في حرصهم على إشباع حاجاتهم الدنيوية، ملوحاً بالجزاء الأخروي الذي

ينتظرهم: ﴿**ويوم يعرض الـذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض. . .**﴾.

إذن، طرح المقطع الآن جانباً جديداً من المواقف التي يصدر عنها المنحرفون، وربطه بالاستكبار الذي يغلف سلوكهم العام حيال رسالة الله حيث أوضح بطريقة فنية غير مباشرة أنّ سبب انحرافهم عائد إلى أنّهم آثروا طيبات الحياة الدنيا وحرصوا على الاستمتاع بها دون أن يذعنوا لنداء الحق.

لنلاحظ أنّ النص أبرز ظاهرة (الهون) أي العذاب المقرون بالهوان والذل وهو عذاب يتجانس مع ما يقابله من (الاستكبار) في الحياة الدنيا، بمعنى أنّ النص قابل ووازن بين نمط العذاب الأخروي وهو (الذل) ونمط السلوك الدنيوي وهو (الاستكبار) محققاً بهذا التجانس جمالية فائقة من حيث البناء الهندسي للموضوعات. . .

والمهم، أنّ النص بعد أن عرض لهذا الجانب وفق الطريقة الفنية المشار إليها، اتجه إلى العنصر القصصي المتصل بحكاية بعض الأقوام البائدة التي مارست سلوكاً منحرفاً بدورها، ولحقها الجزاء الدنيوي المترتب على ذلك، مستهدفاً من هذا العرض إلقاء مزيد في الإنارة على سلوك المشككين برسالة الإسلام، بغية الإفادة منه في حمل المتلقي على الإيمان أو على تعديله.

* * *

قال تعالى: ﴿**واذكر أخا عادٍ إذْ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلاّ الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا: أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأْتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، قال إنّما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون، فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها**

عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فاصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين﴾.

هذا المقطع من سورة الأحقاف يتضمن أقصوصة تتحدث عن مجتمع هود عليه السلام في بقعة يقال لها (الأحقاف)، ولا بدّ أن تكون هذه القصة (موظفة) لإنارة الفكرة الرئيسية في السورة... وقد سبق أن لحظنا أنّ مقدمة السورة ووسطها قد عرضا لمجتمع الانحراف الذي عاصر رسالة الإسلام ووقف منها موقف المناهض والمشكك بها... وها هي القصة تعرض لنا موقفاً مماثلاً لمجتمع بائد هو مجتمع هود حيث أنذرهم عليه السلام بالجزاء الدنيوي، إلاّ أنّهم أصروا على موقفهم المنحرف، حتى أنّهم حينما رأوا عارضاً من السماء وهو سحاب أظلهم بعد جدب خيل إليهم أنّه ممطر إمعاناً في سخريتهم من رسالة السماء حينئذٍ، ولكن هوداً عليه السلام أوضح لهم خطأ تصورهم قائلاً أنّه (ريح فيها عذاب اليم) وفعلاً: عصفت الريح بهم فأبادتهم من الأرض بحيث أصبحوا لا يرى إلا مساكنهم...

إذن، هذه الأقصوصة جاءت بمثابة إنارة تنطوي على عظة ذات صلة بمصائر المكذبين السابقين على مجتمع الإسلام، وعنصر التماثل بين الموقفين لا ينحصر في مجرد التكذيب بل في تماثل العقلية والاستجابة لدى المجتمعين أيضاً، فالمجتمع المشكك برسالة الإسلام اختلط عليه عقله فخيل إليه أنّ القرآن سحر، ومجتمع هود خيل إليه أنّ الريح عارض ممطر، المجتمع الأول قد اتجه إلى قوى لا فاعلية لها في خلق الكون، والمجتمع الثاني اتجه إلى قوى مماثلة أيضاً **﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾**.

ويلاحظ، أنّ النص القرآني الكريم بعد أن انتهى من عرض الأقصوصة المذكورة تقدم بعرض أقصوصة أخرى تتصل بعنصر غير بشري هو عنصر (الجن) حيث نقل لنا قصة إيمان هذا العنصر برسالة الإسلام...

ومن الواضح أنّ النص عندما يستشهد حيناً بقصة غابرة تجسد الموقف السلبي للمجتمعات، ثم حينما يستشهد تارة أخرى بقصة معاصرة لرسالة الإسلام من خلال الموقف الإيجابي، فضلاً عن كونها تتصل بعنصر غير بشري حينئذٍ يمكننا أن ندرك بوضوح مدى جمالية هذا البناء الهندسي للسورة من حيث توازن وتقابل القصص فيما بينها، فهناك خط تتقابل من خلاله قصة غابرة وقصة حاضرة، وهناك خط تتقابل من خلاله عناصر بشرية عناصر غير بشرية، وهناك خط تتقابل فيه مواقف إيجابية ومواقف سلبية، وهكذا...

المهم، قبل أن نتحدث عن الأقصوصة الجديدة ينبغي أن نقف على مقطع يسبق هذه الأقصوصة لنلاحظ الإنارة التي وظفتها هاتان الأقصوصتان بالنسبة لفكرة السورة...

يقول المقطع معقباً على قصة (الأحقاف)، رابطاً بينهما وبين سلوك المعاصرين لرسالة الإسلام...

﴿ولقد مكنّاهم فيما إن مكّناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا بِهِ يستهزؤون، ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى و صرّفنا الآيات لعلهم يرجعون، فلولا نصرهم الذين اتَّخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾... فالمقطع يذكّر مجتمع رسالة الإسلام بمجتمع عادٍ الذي تميز بضخامة الأجسام وغيرها مما لا يمتلكه مجتمع رسالة الإسلام ومع ذلك لم تغنهم القوة المذكورة من المصير الكسيح الذي انتهوا إليه، كما أنّه يذكرهم بالقوى المعنوية ـ مقابل القوى المادية التي تقدم الحديث عنها ـ من أنّها لم تكن لتغنيهم أيضاً **﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾**.

هنا ينبغي أن ينتبه المتلقي على هذا التذكير بالقوى المعنوية (السمع

والأبصار والأفئدة) من حيث كونها ستعكس إضاءاتها على القصة اللاحقة المتصلة بعنصر (الجن) الذين آمنوا برسالة الإسلام حيث استخدموا قواهم المعنوية المذكورة (مع أنّهم غير العنصر البشري وأنّ محمّداً (ص) ليس من عنصرهم)، بينما لم يستخدم العنصر البشري المنحرف: قواه المعنوية، وهو ما يكشف عن مدى التخلف الذهني والفني الذي يطبع سلوك المنحرفين قديماً وحديثاً بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجركم من عذاب أليم﴾**.

هذا المقطع من سورة الأحقاف يعرض لنا أقصوصة عن عنصر (الجن) الذين استجابوا لرسالة الإسلام... وأهمية هذه الأقصوصة ـ من الزاوية الفنية أو البناء الهندسي للسورة ـ أنّها تنطوي على وظيفة فنية مزدوجة، الأولى أنّها تعرض إحدى حقائق الحياة وهي كون الإسلام لم ينحصر في العنصر البشري بل أنّ رسالته تمتد لتشمل عنصر (الجن) أيضاً... وهذه الحقيقة لم يذكرها النص لنا مباشرة بل تدع المتلقي يستوحي بنفسه هذه الدلالة... وأمّا الوظيفة الفنية الأخرى لهذه القصة فهي كونها تتضمن عنصر (إنارة) لفكرة السورة الرئيسية، وهي قضية المنحرفين في صدر رسالة الإسلام حيث وقفوا منه موقف المناهض، بخاصة أنّ المقطع الذي سبق هذه القصة ذكر أنّ المنحرفين قد جعل لهم الله **﴿سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾**. وهذا يعني أنّ الأقصوصة

تريد أن تلفت النظر ـ بطريقة فنية غير مباشرة ـ إلى أنّ المنحرفين بالرغم من تملكهم للسمع والابصار والأفئدة فلم تغنهم عن شيء بل جحدوا بآيات الله بينما نجد أنّ عنصر الجن قد أفادوا من السمع اوالأبصار والأفئدة التي يملكونها فأرشدتهم إلى رسالة الإسلام. . .

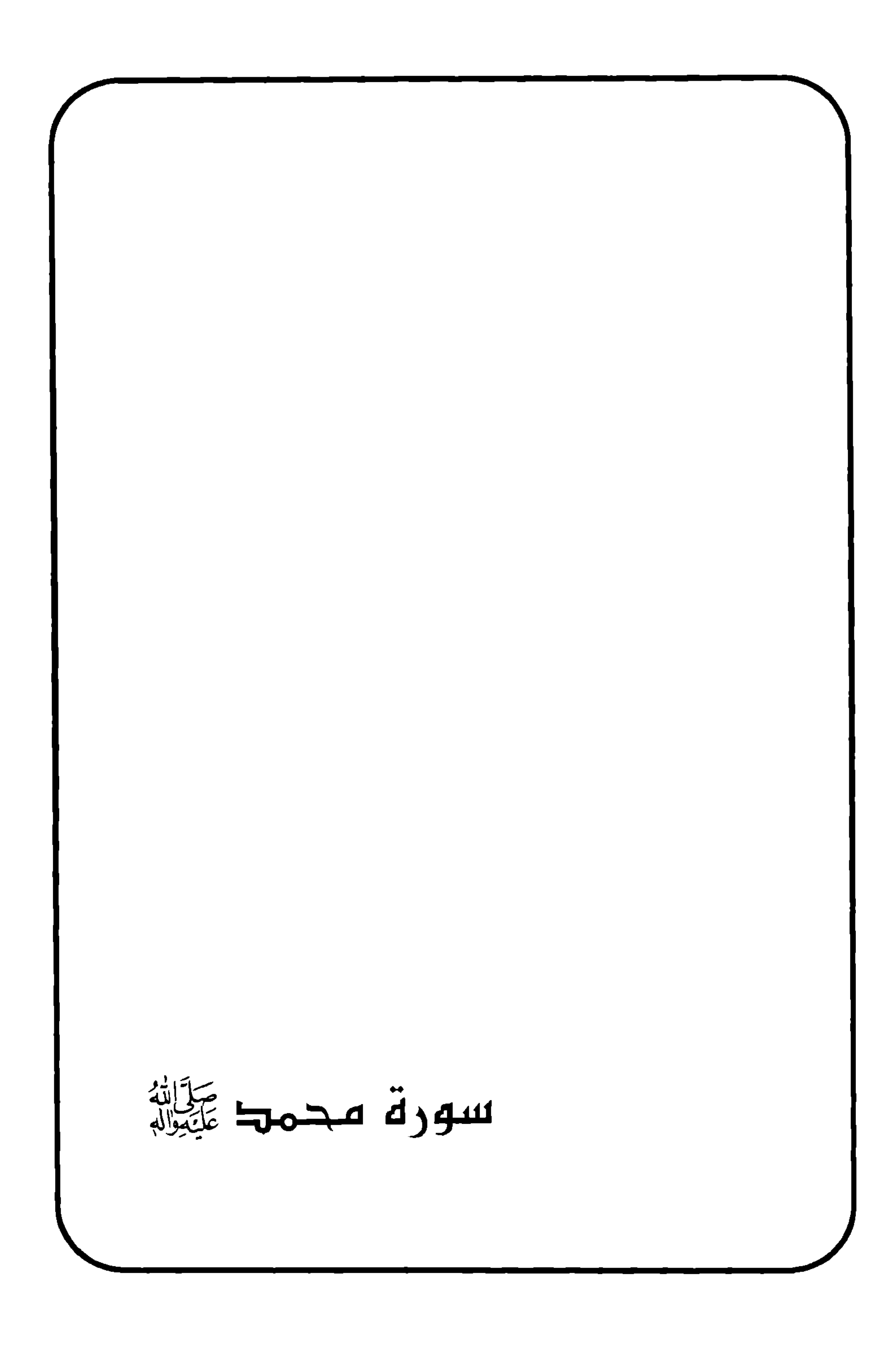
وها هو النص يعرض لنا هذه الحقائق من خلال القصة الفنية بما تتضمنها من سرد وحوار يوظفان للكشف عن ذلك. . . فأولاً يقدم النص لنا (حواراً) جمعياً بين شخوص الجن يكشف عن كونهم قد استخدموا عقولهم بعمق عندما واجهوا رسالة الإسلام ﴿**فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين**﴾ فهم قد أنصتوا أولاً، وبعد معرفتهم بحقيقة الأمر وجدوا أنّ من وظيفتهم أن ينذروا قومهم الجن. . . وفعلاً بدأوا بعملية الإنذار ﴿**قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً إلخ. . .**﴾ ثم استخدموا عنصر (التأكيد) عندما قالوا: ﴿**يا قومنا أجيبوا داعي الله، وآمنوا به، يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب إليم. . .**﴾.

الملاحظ ـ في هذه الأقصوصة ـ أنها تنطوي على سمات فنية بالغة الدلالة بالنسبة إلى وظيفتها المرسومة في النص، فهي تطرح نفس مستويات السلوك الذي اختطه النبي(ص) في الرسالة وتبليغها، أنّها تحدثت عن الإيمان بالله، وإلى أنّه يغفر الذنوب السالفة، وإلى أنّه يجيرهم من الجزاء وهي نفس الدلالات التي انتشرت في تضاعيف السورة عبر معالجتها لسلوك المنحرفين. . . مضافاً لذلك، فإنّ الطرائق الفنية التي انطوت القصة عليها ساهمت بشكل ملحوظ في بلورة الدلالات المذكورة. . . فعنصر (الحوار) نفسه قد فرض ضرورته حينما جعل المتلقي يواجه نفس كلام الجن ومستويات تفكيرهم بدلاً من السرد الذي يصف لنا السلوك، إذ أنّ الإفصاح عن السلوك بلسان الشخوص أشد تأثيراً من وصف السلوك، كما أنّ طرائق التبليغ التي

سلكها شخوص الجن ساهمت بنحو ملحوظ في تعميق ما يستهدفه النص من أفكاره، من حيث تلقيهم أولاً خبر الرسالة، ثم إنصاتهم، ثم ذهابهم إلى قومهم ونقل النبأ لهم، ثم التعقيب على ذلك بأنّها تهدي إلى الحق، ثم تأكيدهم بضرورة إجابة الرسالة، لما يستتبع ذلك من غفران الذنب والإجارة من العذاب الأليم...

أخيراً، بعد أن أنهى النص هذه الأقصوصة التي وظفت لإنارة السلوك الذي صدر المنحرفون عنه في صدر رسالة الإسلام، عاد النص إلى التعقيب على السلوك المذكور، مكرراً التذكير بما سبق أنّ طرحه في مقدمة السورة ووسطها ونعني به: التفكير في خلق السماوات والأرض، ثم ترتيب الجزاء على ذلك، مع طرحه في الختام ظاهرة (الصبر) وهي ظاهرة تتصل بسلوك المبلغين، ما دام المنحرفون مصرّين على مواقفهم مما يستتبع ممارسة المبلغ بعملية (الصبر) على ذلك، وبهذا يكون النص قد طرح قضية الرسالة وطريقة تبليغها ضمن الفكرة الرئيسية للسورة، بحيث يفيد منها المتلقي في تعديل سلوكه: سواء أكان التعديل متّصلاً بإيمانه أو بطريقة توصيل مبادىء الله إلى الآخرين (بالنحو الذي تقدم الحديث عنه).

* * *



سورة محمد صلى الله عليه وآله

تتناول سورة (محمد)(ص) مثل كثير من السور القرآنية ـ ظاهرة (الجهاد في سبيل الله): حيث تتخللها موضوعات أُخرىٰ تصب في نهاية المطاف في الظاهرة المذكورة. . .

تبتدئ سورة محمد (ص) بهذا النحو: **﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد ـ وهو الحق من ربهم ـ كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ذلك بأنَّ الذين كفروا اتَّبعوا الباطل وأنَّ الذين آمنوا اتّبعوا الحق من ربهم، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾**.

في هذا المقطع الذي استهلت السورة به نلحظ هيكلاً فنياً قائماً على التقابل بين (الكافرين) و(المؤمنين)، وموضوع التقابل هو الباطل والحق **﴿الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ ﴿الذين آمنوا اتبعوا الحق﴾**. ترتب على ذلك أنّ الله أضلّ أعمال الكافرين وكفّر السيئات عن المؤمنين وأصلح بالهم. . . وعندما نوازن بين الفريقين نجد أنّ الكافرين قد تاهت أعمالهم حتى لو كانت ذات دلالة مقبولة في تصورهم بينما يعكس الأمر بالنسبة إلى المؤمنين الذين قد صدروا عن بعض السيئات: حيث تكفر عنهم سيئاتهم مضافاً إلى أنّ أمورهم ؛ دنيوياً أو أخروياً أو كليهما ـ قد شملتها عناية الله تعالى . . .

هذا يعني أن المؤمنين في الحالات جميعاً مشمولون بالرعاية، وأنّ الكافرين في الحالات جميعاً محكومون بالنبذ. . .

من هنا يتقدم النص في مقطع جديد من السورة بعد التمهيد المتقدم إلى ظاهرة الجهاد في سبيل الله منطلقاً من المقدمة التي مهّد لها بأنّ الكافرين اتبعوا

الباطل وإلى أنّهم محكومون بالنبذ دنيوياً وأخروياً... أما دنيوياً، فتعيّن مقاتلتهم والقضاء عليهم، لنستمع إلى المقطع الجديد: **﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها، ذلك: ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم﴾**.

هذا المقطع الذي يتلاحم مع المقدمة في إشارته إلى أنّ الجهاد في سبيل الله يفضي إلى عدم إضلال أعمال المقاتلين، وإلى اصلاح بالهم، وإلى ادخالهم الجنة (وهي الأفكار التي تضمنتها مقدمة السورة)... هذا المقطع فضلاً عن تلاحمه العضوي مع المقدمة بالنحو الذي أشرنا إليه، يتضمن جملة من الدلالات المتصلة بمفهوم (الجهاد): من حيث المبادىء التي تحكمه ومن حيث فلسفته في غمرة الوظيفة العبادية التي أوكلها الله إلى خلقه... أما من حيث مبادىء الجهاد، فقد ذكر النص جملة منها هي:

١ ـ المطالبة بالقضاء على الكافرين ـ ٢ بعد الإمعان في قتلهم: يجيء دور الأسر ٣ ـ في حالة الأسر: إمّا المن أو الفداء على النحو الذي تفصّله الأحكام الفقهية في هذا الصدد من حيث التفريق بين الأسر حالة القتال وبين الانتهاء منه... المهم أنّ النص يشدد على قتال الكافرين، مطالباً بالإمعان في قتلهم، ومن ثم أسر ما أتيح من ذلك بعد ضعفهم...

أما من حيث الفلسفة أو الفكرة التي ينطوي عليها مفهوم الجهاد فقد أوضحها النص بقوله عن الكافرين **﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض﴾**...

الواقع، أن هذا المفهوم ينبغي الوقوف عنده طويلاً، لأنّه يضع تفسيراً لا غموض فيه بالنسبة إلى حالات عدم النصر الدنيوي، فالله تعالى يؤكد بأنّه لو

شاء: لنصر الإسلاميين عسكرياً على الكافرين، إلاّ أنّه تعالى يريد أن يختبر الإسلاميين ﴿ليبلوا بعضهم ببعض﴾، وعملية الاختبار تتمثل في جملة من السلوك منها: مكابدة الشدة، فالشخصية المؤمنة: تظل الحياة الدنيا سجناً لها كما هو واضح مما لا مناص من تحمل ذلك، وفي مقدمته: الشدائد التي تواكب النشاط العسكري... فالمهم ليس هو إزاحة الكفر أساساً بالرغم من مطالبة النص بالتشدد في قتل أربابه بل هو: الالتزام بالتوصية المطالبة بممارسة الجهاد، أي: أنّ المهم هو: ممارسة النشاط المقرون بالشدة (شدائد الحياة العسكرية) وليس تحقيق النصر العسكري بالضرورة لأنّ إبادة الكافرين من الممكن أن تتم بسهولة عندما يريد الله ذلك، إلاّ أنّه تعالى أوكل الأمر إلى نمط من النشاط البشري يختبر من خلاله أيّنا أحسن عملاً أيّنا يمارس الطاعة فيتقدم إلى ساحة الجهاد، وأيّنا يتخاذل أو يتردد أو يتخوف من ذلك... وأمّا النصر أو عدمه فمن الممكن أن يتم أحدهما وفقاً لسياقات خاصة: يتوقف بعضها على مماسة المزيد من الإخلاص العبادي، وبعضها يتطلب مجرد الصبر، وعرضها يظل مجرد محكٍ لفرز درجات الإيمان لدى الإسلاميين...

وأياً كان، فإنّ النص بعد أن يقرر بأنّ الله لو شاء لهزم الكافرين، يبدأ فيطالب بمقاتلتهم، ويعلق النصر من الله على مدى الالتزام بمبادىء الله دون أن يعني ذلك أنّ الالتزام يفضي بالضرورة إلى النصر العاجل: ما دام الاختبار هو الميزان في الموقف، كل ما في الأمر أنّ الالتزام (حسب التجارب اليومية) لم يأخذ تكامله في السلوك بحيث يترتب عليه النصر إلاّ في مواقف محددة ترتب عليها فعلاً أكثر من نصر، وفي مقدمة ذلك: «فتح مكة» وغيرها مما لا يدخل في نطاق تناولنا للسورة الكريمة...

* * *

قال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّتْ أقدامكمْ

والذين كفرُوا فتعْساً لهم وأضَلَّ أعمالهم ذلك بأنَّهُم كَرِهُوا ما أنزلَ الله فأحبطَ أعمالَهُمْ﴾. . .

هذا المقطع امتداد لمقطع سابق أوضح بأنّ الله لو شاء لهزم الكافرين في ساحات القتال إلاّ أنّ الاختبار لمعرفة المؤمن عن غيره يستتبع مكابدة الشدة. . . أما في المقطع الجديد فيوضح المقطع أنّ المؤمنين: إن ينصروا الله فإن الله تعالى ينصرهم أيضاً. . . من البيّن لا منافاة بين نوع من الملازمة بين تدخّل السماء لنصرة الإسلاميين في حالة نصرتهم الله وبين تحديد النصر أو الهزيمة العسكرية تبعاً لمتطلّبات الاختبار. . . بمعنىٰ أنّ العمل لله يستتبع نصراً للعامل دون أن يعني ذلك تحديداً لنمط النصر: فقد يتحدد النصر عسكرياً وقد يتحدّد أخروياً. . . لذلك ترك النص ظاهرة (النصر) مجملة دون أن يحدّدها عسكرياً أو غيره دون أن يحدّدها دنيوياً وأخروياً بل اكتفىٰ بالقول بأنّه: **﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾**. . .

سرّ ذلك: أنّ الهدف العبادي مادام منحصراً في الالتزام بمبادىء الله (ومنه: الجهاد في سبيل الله)، حينئذٍ فإنّ الإثابة عليه لا تتحدد دنيوياً فحسب بل من الممكن أن تتحدد أخروياً فحسب ومن الممكن أيضاً أن يتحدد على صعيد الحياة الدنيا. . .

وأياً كان: فإنّ النص بعد أن تحدث عن قضية التلازم بين نصرة المؤمنين لمبادىء الله تعالى ونصرته إيّاهم: يتجه إلى مقارنتهم بالكافرين فيمسح عنهم الإثابة نهائياً بل يُضل أعمالهم: بسبب كراهتهم لمبادىء الله تعالى. . .

وبعد أن يوضح النص مصائر كل من المؤمنين والكافرين من خلال المقارنة دنيوياً وأخروياً: نواجه التعقيب الآتي:

﴿إن الله يدخل الّذين آمنوا وعملُوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، والذين كفرُوا يتمتعون ويأكُلُون كما تأكُلُ الأنعام والنارُ مثوى لهم﴾،

أهمية هذا التعقيب تتمثل في طرح النص: مفهوماً له خطورته في النشاط العبادي فيه عن السلوك غير العبادي...

فالنص يتحدث عن الجنة بالنسبة إلى المؤمنين دون أن يشير إلى موقعهم الدنيوي، بينما يتحدث عن الكافرين مع أنه في صدد المقارنة الأخروية بين الكافرين و المؤمنين يتحدث عن الكافرين في صعيد دنياهم، ويشير إلى أنهم يحققون أشباعاً لحاجاتهم... لنقرأ من جديد:

﴿**الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم**﴾. إنّ ما ينبغي أن نقف عنده هو: أنّ قضية (الإشباع) للحاجات البشرية ليست هدفاً عبادياً، بل ممارسة مبادىء الله هو الهدف عند الإسلاميين، أما الآخرون، فإنّ قضية إشباع حاجاتهم تظلّ هي الهدف لديهم، لذلك يصف النص هذا الإشباع أو السعي إليه بأنه إشباع بهيمي ﴿**يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام**﴾. هذا التقرير للحقيقة المتقدّمة من الممكن أن يجهلها بعض القاصرين عبادياً بحيث يأسون لعدم تحقق الإشباع لحاجاتهم المتصلة بالحياة، والأمن، والصحة، والتملّك، والسيطرة، دون أن يدركوا بأن إشباع هذه الحاجات لا يطمح إليها إلاّ (الأنعام) التي يعنيها أن تتمتع «وتأكل»: كما وسم النص الكافرين بذلك...

ولعلّه ـ من زاوية البناء الهندسي للنص ـ علينا أن نقرّر بأنّ صياغة هذه الحقيقة المتصلة بالإشباع وعدمه تظل إجابة فنية لمقطع أسبق أوضح بأن الله لو يشاء لهزم الكافرين في ساحات القتال ولكنه يستهدف اختبار المؤمنين المقاتلين، حيث جاء المقطع الجديد الذي يقرّر بأنّ الكافرين يُعنون بدنياهم فحسب. بمثابة تقابل بين الإسلاميين والكافرين من خلال تقرير الحقائق التي أشرنا إليها.

بعد ذلك يتّجه إلىٰ مخاطبة النبيّ(ص).

﴿وكأيّن من قريةٍ هي أشدُّ قوّةً من قريتك التي أخْرجتك، أهلكناهُمْ فلا ناصر لهم﴾. الملاحظ هنا أنّ النص بعد أن يصوغ لنا حقيقة الفارق بين الاشباع الذي يميّز الكافرين من المؤمنين، يتّجه إلى تذكير الإسلاميين بأنّ الاشباع الدنيوي من الممكن الاّ يتمّ لدىٰ الكافرين (بالرغم من أنّهم يسعون إلىٰ ذلك) وإلىٰ أنّه بالرغم من عدم سعي الإسلاميين إلىٰ الاشباع فإنّ الله يحققه لهم. هذه الحقيقة لم يقرّرها النص مباشرة بل استخلصناها من خلال الطريقة الفنية غير المباشرة التي سلكها النص في هذا الصدد، فالنص يشير إلىٰ أنّ الله أهلك أمماً سالفة كانت أشدّ قوةً من المكيّين الذين أخرجوا محمداً(ص) من مكة، وإلىٰ أنّه لا ناصر لهم، وهذا يعني أنّ قضية النصر العسكري (بصفته واحداً من أشكال البحث عن الاشباع) لا يتحدد تبعاً لمعيار ثابت بل لمعيار اختباري كما كرّرنا. والمهم هو أنّ النص يحوم علىٰ إبراز هذه الدلالات وفق صياغته وتكراره لجملة من الوقائع: حيث لحظنا كيف أنّ كل مقطع أو جزءٍ منه يتحدّث عن واقعه أو موقف علىٰ ظاهرة الاختبار وموقع المؤمنين والكافرين منه، وفي مقدّمته: قضية النصر والهزيمة في ساحات القتال، بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿أفمنْ كان علىٰ بيّنةٍ من ربّهِ كمن زُيّن له سوءُ عمله، واتّبعوا أهواءَهم مَثَلُ الجنةِ التي وُعِدَ المتّقون، فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّرْ طعمهُ وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفّى، ولهم فيها من كُلِّ الثمراتِ، ومغفرةٌ من ربِّهم: كمن هو خالدٌ في النار وسُقوا ماءً حميماً فَقَطَّع أمعاءهم﴾**.

هذا المقطع المؤلّف من آيتين يتضمّن مبنى هندسياً خاصاً من حيث تداخل جزئياته بنحو يتجاوز التركيب العادي للغة إلى التركيب الزمني لها: بغية

افراز بعض الدلالات التي تصل بين المصير الدنيوي والأخروي بكل من المؤمنين والكافرين... فقد بدأ المقطع بالتساؤل عمّن هو علىٰ بيّنةٍ من ربّه وبين من زُيّن له سوء عمله واتّبع هواه... هنا اتّجه النّص بعد ذلك إلى الحديث عن الجنة قائلاً ﴿**مثل الجنة التي وعِدَ المتّقون**﴾ ـ إلخ ثم ختمها بقوله ـ ﴿**كمن هو خالدٌ في النار و سقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم**﴾ فالملاحظ: أنّ المقطع تحدّث عن الجنة كما أنه يتحدّث عمن هو علىٰ بيّنة من ربّه وبين من زُيّن له سوء عمله، كما أنّه عندما تحدّث عن الجنة: إذا به يقدّم تمثيلاً لمن هو خالد في النار ﴿**كمن هو خالد في النار**﴾ مع أنّ هذا التمثيل ـ من حيث اللغة ـ امتداد للآية السابقة، والحديث عن الجنة يبدو وكأنّه مستقل عن الآية المذكورة أيضاً، فما هو السّر الفنّي وراء ذلك؟

الواقع أنّ هذا النمط من الصياغة القرآنية له تميّزه الذي ينبغي الوقوف عند أسراره الفنيّة... فالمقطع يستهدف الوصل بين مَن هو علىٰ بيّنة من ربّه (وهو: السلوك الدنيوي) وبين الجنة التي رسمها النص في أربعة أشكال من السوائل ﴿**ماء غير آسن**﴾ ﴿**لبن لم يتغيّر طعمه**﴾ ﴿**خمر لذة للشاربين**﴾ ﴿**عسل مصفّى**﴾ مضافاً إلىٰ ﴿**الثمرات**﴾ ثم مضافاً إلى ﴿**مغفرة من الله**﴾ ـ وهي نتائج السلوك في الحياة الأخروية... فالملاحظ أنّ هذا التفصيل عن الجنة من حيث تنوّع نعيمها لم يجىء لمجرّد العرض بل لمهمة مزدوجة هي: عرض الحقائق المتصلة بالنعيم من جانب وللربط بين من هو علىٰ بيّنة من أمر ربّه وبين وضوح المظاهر وتفصيلاتها التي رسمها النص عن الجنّة من جانب آخر...

والأمر ذاته بالنسبة لمن زُيّن له سوء عمله في الدنيا، وانعكاسه أخروياً: علىٰ من سُقي ماء حميماً فقطّع أمعاءه: إذ أنّ هناك تجانساً بين مَن زيّن له سوء عمله (وهو وهمٌ دون أدنىٰ شك) وبين انعكاساته التي يقابلها ماءٌ حميم يقطّع أمعاء الكافرين: فيما هو علىٰ خلاف أهوائهم التي أوهموا فيها أيضاً...

وأيّاً كان، فإنّ المقطع المذكور يظل في الواقع امتداداً لمقاطع سابقة تحوم علىٰ فكرة الجهاد (في سبيل الله) وتحديد الفئات الملتزمة بمبادىء الله وما يقابلهم من الفئات المنحرفة... لذلك يبدأ النص بمواصلة حديثه عن الفئة المقابلة (أي: الكافرة) في ضوء المقارنة بينها وبين الإسلاميين وهي مقارنة تطبع جميع أجزاء السورة، عارضاً جانباً آخر من المواقف التي يصدر عنها الكافرون، بعضها يتصل بسلوكهم حيال النبيّ(ص)، وبعضها يتّصل بموقفهم من القتال في سبيل الله...

الجانب الأول، يقول النص عنه ﴿**ومنهم مَن يستمعُ إليك، حتى إذا خرجوا من عندك، قالوا للذين أُوتوا العِلْمَ ماذا قال آنفاً أولئك الذي طَبَعَ الله علىٰ قلوبِهم واتّبعوا أهواءهم**﴾.

وقال عن الجانب الآخر: ﴿**فإذا أُنزِلَتْ سورةٌ محكمةٌ وذُكِر فيها القِتالُ رأيتَ الذين في قلوبِهم مرضٌ ينظرونَ إليك نظَرَ المَغْشيِّ عليهِ مِنَ الموت...**﴾.

هذان الجانبان يرتبط أحدهما بالآخر دون أدنىٰ شك... فمن الزاوية الفنية نجد أنّ النص يعقب علىٰ الجانب الأول من السلوك بقوله عن أصحابه: ﴿**أولئك الذين طبع الله على قلوبهم**﴾. وأما في الموقف الآخر أي: الموقف من القتال فيقول النصّ عنهم (رأيتَ الذين في قلوبهم مرض) إن من الواضح أنّ (الطبع علىٰ القلب) يعني: انغلاق الخير في أعماق الشخص وهي سمة (المنافق) الذي طالما وسمه النص بالطبع علىٰ قلبه، كما أنّ الآية الأخيرة التي وسمت الأشخاص الذين إذا ذُكِر الجهاد في سبيل الله أمامهم: يكاد يغشىٰ عليهم خوفاً من الموت، وسَمَهم النص بأنّهم (في قلوب مرض)، ومرض القلب هو أيضاً سمة (النفاق) التي طالما وصف النصّ القرآني الكريم ﴿**المنافقين**﴾ بها في مواقع متنوّعة من السور...

إذن، من حيث المبنىٰ الهندسي للمقطع، نجد أنّ النص قد مهّد بسمة (الطبع علىٰ فؤاد) المنحرفين في موقفهم من الرسول(ص)، ليدلل علىٰ كونهم (مرضىٰ) في الموقف الآخر المتمثّل في غشيتهم: خوفاً من الموت في حالة سماعهم آية تطالب بالقتال...

أما من حيث الدلالة الفكرية، فإنّ الموقفين اللذين صدر المنحرفون عنهما لا يحتاجان إلىٰ التعقيب نظراً لوضوح ذلك... أما الموقف الأول فهو: سخريتهم من النبي(ص) حيث يهزأون قائلين عنه (ماذا قال آنفاً؟): حيث يعبّر هذا الموقف عن سمة الانحطاط الذي بلغته أعماقهم، لذلك عقب النص عليهم قائلاً: ﴿**أولئك الذين طبع الله علىٰ قلوبهم واتّبعوا أهواءهم**﴾ ولا نغفل أنّ النص كان قد رسم مصيراً أخروياً هو: أنّ الذين اتّبعوا أهواءهم سُقوا ماءً حميماً يقطع أمعاءهم: مما يعني أنّ النص قرّر سلفاً مصائر هؤلاء الذين طبع الله علىٰ قلوبهم... وأما موقفهم من الجهاد في سبيل الله فسيتضح بما يلي:

* * *

قال تعالى: ﴿**ويقول الذينَ آمنوا لولا نُزّلَتْ سورةٌ، فإذا أُنْزِلَت سورةٌ محكمةٌ وذُكِرَ فيها القتالُ رأيتَ الَّذينَ في قلوبِهم مَرضٌ يَنْظُرون إليكَ نَظَر المغشيِّ عليه مِن الموت فأوْلىٰ لهم**﴾.

هذا النص يتحدّث عن المنافقين (الّذين في قلوبهم مرض) بخاصة فيما يتصل بالقتال في سبيل الله... طبيعياً، من الممكن ألاّ يُعنى هؤلاء بالقتال وتبعاته، إلاّ أنّهم بصفتهم ﴿**منافقين**﴾ يلهثون وراء إشباع رغباتهم: يضطرون إلىٰ مصانعة الإسلاميين والتظاهر بالإيمان، لذلك ما أن يواجهوا موقفاً جديّاً يعرض دنياهم للإحباط مثل ﴿**القتال**﴾: حتىٰ يكاد يغشىٰ عليهم، حيث يتعرّضون لصراع مديد بين الاحتفاظ بمواقعهم الاجتماعية التي ﴿**نافقوا**﴾ من أجلها، وبين ممارسة ﴿**القتال**﴾ وهو ما يتعارض أساساً مع دنياهم التي يلهثون

وراء إشباعها. . . إزاء مثل هذا الصراع نجد أنّ النص القرآني الكريم لا يترك هؤلاء دون تعقيب علىٰ سلوكهم: بغية أن يفيد الآخرون منه عند مواجهتهم لأمثلة هذا الصراع، لذلك يعقب قائلاً: ﴿**فأولىٰ لهم طاعةٌ وقولٌ معروف**﴾، فبدلاً من معاناة أمثلة هذا الصراع كان من الأولىٰ أن يطيعوا أوامر الله ويجيبوا الرسول(ص) بالقول المعروف، ويبدو أنّ المنافق من الممكن أن يصدر عنه مثل هذا القول أو الطاعة: علىٰ نحو (النفاق) أيضاً: لذلك عقب النص علىٰ ذلك قائلاً: ﴿**فإذا عَزَمَ الأمر: فلَو صَدَقُوا الله لكانَ خيراً لهم**﴾ بمعنىٰ أن الطاعة والقول المعروف لو كانا صادقين فعلاً ـ لا نفاقاً ـ لكان خيراً لهم من النفاق. . .

هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن من طُبِع علىٰ قلبه من الصعب أن ينفتح لعمل الخير إلاّ في حالات نادرة، لذلك نحتمل أن تظل أمثلة هذا الخطاب موجهة إلى الضعاف نفسياً ممن يحيون ظاهرة الصراع بين الخير والشر، بين الآخرة والدنيا، بين الجهاد والقعود. . . المهم، أنّ النص يتابع تعقيبه علىٰ هؤلاء المتصارعين في داخلهم، قائلاً:

﴿**فهَل عسَيتُم إنْ تولَّيْتُم أَن تُفْسِدوا في الأرضِ وتقطِّعوا أَرْحامكم أولئكَ الذينَّ لعَنَهُم الله فَأَصمَّهُم وأَعْمىٰ أبْصارَهم أفلا يتدبَّرونَ القرآنَ أَمْ على قلوبٍ أَقْفالُها ؟**﴾.

من هذا النص الذي يشير إلىٰ أنّه تعالى أصمّهم وأعماهم أبصاراً، نستخلص صعوبة تعديلهم للسلوك، بخاصة أنّه قدم صورة فنية حينما قال عنهم ﴿**أم علىٰ قلوب: أقفالها**﴾ فهذا الرمز أو الصورة الملأىٰ بالدلالات العميقة: (الأقفال) علىٰ القلب تعنى: أنّ الخير مغلق في نفوس هؤلاء تماماً وهو نفس الظاهرة التي تنطوي عليها فقرة سابقة ﴿**طبع الله علىٰ قلوبهم**﴾. . . حيث تتآزر كلّ هذه المستويات الرمزية (الطبع علىٰ القلب) (الأقفال على القلب) (أصمَّهم

وأعْمَىٰ أبصارَهم) تتآزر جميعاً لتقول لنا: أنّ هؤلاء من المستبعد أن يوفقوا لعملية تعديل في السلوك... كل ما في الأمر، أنّ النص يستهدف ـ كما كرّرنا ـ لفت النظر للضعاف نفسياً ممن يعانون الصراع دون أن يصلوا إلى مرحلة الطبع علىٰ أفئدتهم...

هنا ينبغي ألاّ يغيب عن أذهاننا بأنّ ظاهرة الطبع علىٰ الأفئدة إنّما تأخذ فاعليتها بعد أن تكون الشخصية على وعي بمبادىء الحق إلاّ أنها تصرّ علىٰ الانسلاخ عنها إيثاراً لمتاع الدنيا، لذلك نجد أنّ النص القرآني الكريم يشير إلى هذا الجانب حينما يتابع أو يعقب علىٰ الفئة المذكورة قائلاً:

﴿إنَّ الَّذينَ ارتدُّوا علىٰ أدْبارِهم: من بَعدِ ما تبيَّنَ لَهُم الْهُدَى الشيطانُ سوَّلَ لهم وأَمْلَىٰ لهم﴾ بمعنى أنّهم وعوا (الهدى) ولكنّهم آثروا شهواتهم متمثلة في تسويل الشيطان و إملائه، كما يقرّر النص... ثم ذكر موقفاً من مواقفهم في هذا الميدان: **﴿ذلك بأنَّهم قالُوا للَّذينَ كَرِهوا ما نَزَّلَ الله، سنُطيعُكم في بَعْضِ الأمْر، والله يعلَمُ إسرارَهم﴾** حيث تشير هذه الآية إلى أنّ هؤلاء «المنافقين» تعاونوا مع الكفار الذين يُظهرون انحرافهم، قائلين لهم **﴿سنطيعُكم في بَعْضِ الأمر﴾**،... قالوا ذلك سراً بطبيعة الحال وهو المظهر الواضح للنفاق حيث يسرّون الكفر من خلال موقفهم المتقدّم، ويظهرون الإيمان من خلال ادّعائهم الطاعة والقول المعروف...

وأيّاً كان، فالنّص القرآني الكريم، عقّب علىٰ السلوك المتقدّم قائلاً: **﴿والله يعلم إسرارَهم﴾**: حيث لا ينفعهم مثل هذا الإسرار: مادام الله علىٰ إحاطة بكل شيء، بل لا ينفعهم دنيوياً أيضاً حيث هدّدهم النص:

﴿أم حسبَ الَّذينَ في قُلوبهم مرض أَن لَن يُخرجَ الله أَضْغانَهم ولو نشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرفْتَهُمْ بسيماهم ولَتَعرفنَّهُم في لَحنِ القولِ، والله يعلمُ ...﴾ والواقع أنّ هذا التهديد للمنافقين، ينفذ إلى الصميم من أعماقهم: لأنّه كشف عن واقع

عانوا صراعاً شديداً من خلال محاولة ستره، وإذا بهم يُهدّدون بكشفه: الكشف عن كونهم يحملون حقداً علىٰ الإسلاميين وكونهم أشخاصاً معروفين بأعيانهم **﴿فلعرفتهم بسيماهم﴾** وكونهم معروفين في لغتهم **﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾**: وحينئذٍ مع أمثلة هذا الكشف لواقعهم: تنتفي فاعلية السلوك المنافق الذي دأبوا علىٰ ستره وعانوا من خلاله أشدّ الصراعات.

* * *

قال تعالى: **﴿ولنبلونّكم حتىٰ نعلم المجاهدينَ منكم والصابرين ونبلُوا أخبارَكم إنّ الَّذينَ كفَرُوا وصدُّوا عن سبيل الله وشاقُّوا الرَّسولَ من بعدِ ما تبيَّن لَهُم الهُدى لَن يضُرّوا الله شيئاً وسيحبطُ أعمالَهم يا أيُّها الذينَ آمنُوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ولا تبطلُوا أعمالَكُم إنَّ الَّذين كفرُوا وصدُّوا عن سبيلِ الله ثم ماتُوا وهم كفّار فلَن يغفر الله لهم فلا تَهنُوا وتدعوا إلى السلْم وأنتُم الأَعْلونَ والله معكُم ولَن يَتركُم أعْمالَكم﴾**.

في هذا المقطع جملة من الظواهر المتصلة بفكرة (الجهاد في سبيل الله) وهي فكرة تركّز علىٰ المقارنة بين المؤمنين أو المجاهدين وبين الكفار أو المتخلّفين من حيث الممارسات المتّصلة بعملية (الجهاد)...

وأوّل ما يطالعنا منها هو: الاختبار أو الامتحان الذي تفرضه عملية الجهاد، حيث أوضح النص بصراحة أن الله يبتلي المؤمنين حتىٰ يعلم المجاهدين منهم والصابرين ويختبر أعماقهم، بصفة أنّ الجهاد بما تواكبه من شدائد ترتبط بأهم دوافع الشخص وهو الدافع إلى الحياة والأمن، سوف يكشف عن مدىٰ استعداد الشخص للتنازل عن الدافع المذكور والاتجاه بدلاً منه إلىٰ الله والالتزام بمبادئه...

بعد ذلك: يتّجه النص إلى المقارنة بين الإسلاميين والكفار، موضحاً أنّ الكفار لن يضرّوا الله شيئاً بمواقفهم المنحرفة وإلى أنهم لن يُغفَر لهم، مطالباً ـ

قبالة ذلك ـ الإسلاميين بإطاعة الله والرسول: حيث أنّ الموازنة بين كون الكفار لن يضرّوا الله شيئاً وبين مطالبة المؤمنين بالطاعة، تُفصح عن سمة فنية تتصل بعمارة النص متمثّلة في عملية الامتحان الذي أشارت إليه مقدّمة المقطع، وهي عملية مادامت تشدّد علىٰ مفهوم «الامتحان» وليس علىٰ مجرّد النصر أو الهزيمة الدنيوية، فحينئذٍ لا بدّ أن يتجسّد الامتحان في إطاعة الله والرسول دون أن يترك العصيانُ الذي يصدر عنه الكافر أو المتخلّف عن ساحة الجهاد، أي أثر علىٰ إرادة السماء التي تُعنىٰ باختبار العبد وليس بمجرّد الكسب أو الخسائر الدنيوية. . .

والآن، بعد هذه المقارنة المشار إليها، يطرح المقطع جانباً جديداً من مفهومات الجهاد هو: الجانب العسكري المتمثّل في المطالبة بعدم المصالحة مع العدوّ: **﴿فلا تَهنُوا وتدعوا إلىٰ السلْم وأنتم الأعلون﴾** أي: ينبغي علىٰ الإسلاميين ألاّ يكفّوا عن قتال الكفّار وألاّ يدعوهم إلىٰ الصلح ما داموا الأعلين أو الغالبين بإذن الله تعالى. . . وأهمية هذا المبدأ العسكري تظل من الوضوح بمكان، ما دمنا نعرف بأنّ مقاتلة الكفار تستهدف إعلاء كلمة الإسلام ونشرها في الأرض، فإذا وهن المسلمون وطالبوا بالصلح مع العدو فهذا يعني أولاً: كونهم متخاذلين وهو ما يضاد سمة الشخصية الإسلامية التي ينبغي أن تطبعها سمة «المثابرة» و«الجدية» ومواصلة الجهاد بكل متطلباته، كما أنّ المطالبة بالسلم أو الصلح تستتبع ثانياً: احتفاظ الكافر بموقعه الاجتماعي وهو ما يضاد أيضاً فلسفة الجهاد التي تستهدف عزل الكافر عن نشاطه الاجتماعي المنحرف.

أخيراً، تُختم سورة محمد(ص) بالمقطع الآتي:

﴿إنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ، وإن تُؤمِنُوا وتتّقوا يُؤْتِكم أجورَكم ولا يسألكم أموالكم ان يسألكموها فيُحفِكُمْ تَبْخَلُوا ويُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ هَا أَنتُمْ هؤلَآءِ تُدْعَوْنَ لتُنفِقُوا في سبيل ٱللهِ فَمِنكم مَن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فإنَّما يبخل عن نفسه،

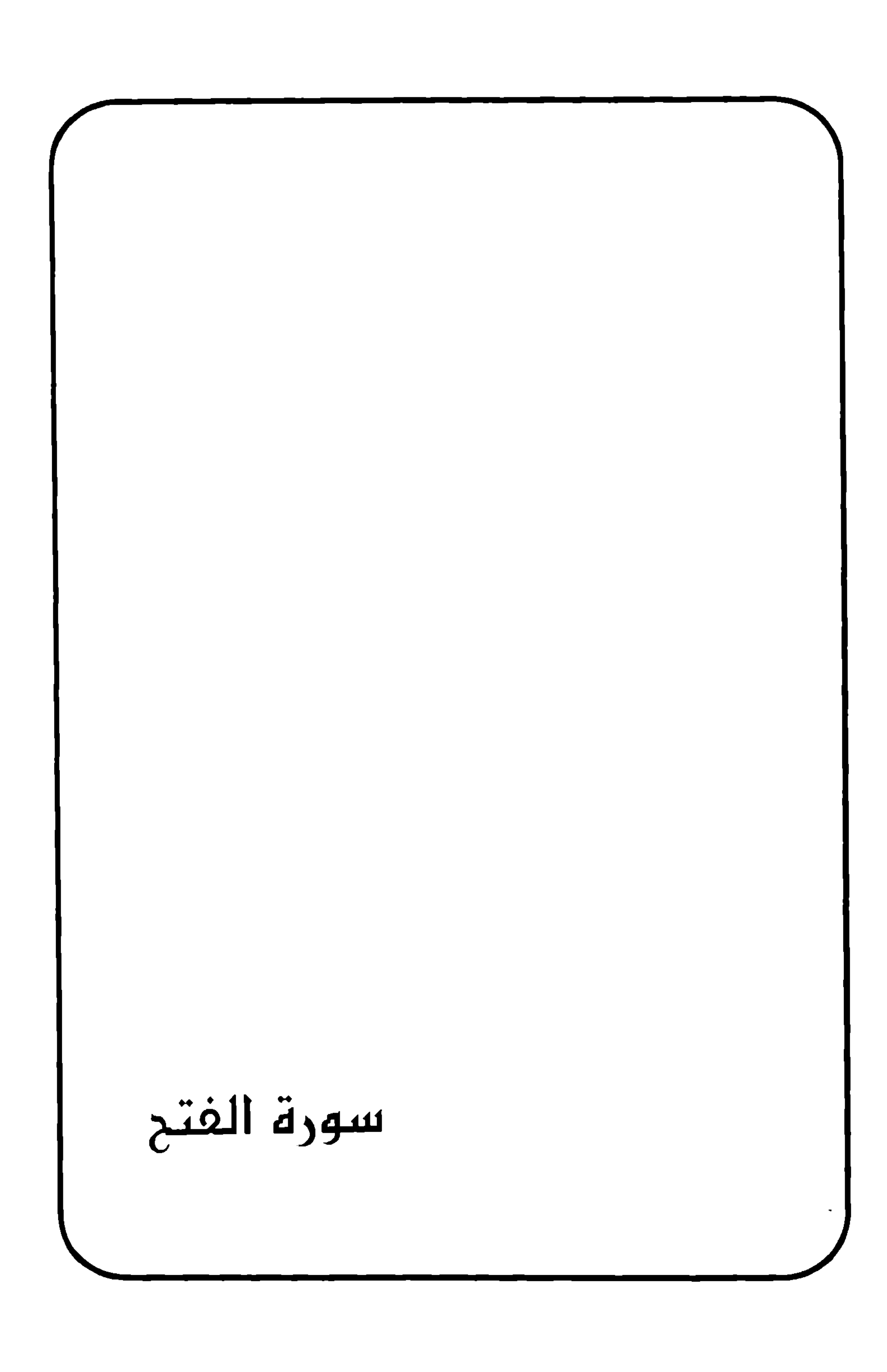
والله الغنيُّ وأنتُم الفقراءُ، وإن تتولّوا يستبدلْ قوماً غيرَكم ثم لا يكونُوا أمثالَكُم﴾.

هذا المقطع يتّصل بظاهرة اقتصادية هي (الانفاق) وما يقابله من «البخل»... وبالرغم من أن السورة الكريمة تحوم علىٰ فكرة (الجهاد العسكري) كما لحظنا إلاّ أنّ إنهاءَها بمقطع اقتصادي يطالب بالانفاق في سبيل الله من جانب وبأنّ الانفاق المطالب به نسبيّ ومحدود في نطاق الزكاة من جانب آخر: ثمّ بأنّ هذه النسبية تحتجز الشخص من إبراز لحظات الضعف لديه: حيث أنّ المطالبة بمزيد من الانفاق من الممكن أن يفضي إلىٰ إفراز النزعات العدائية عند الشخص: حينئذٍ فإنّ الانفاق في الحدود النسبية، المذكورة: يظل متناسباً مع إمكانات الشخص دون أن يحمّله ما لا طاقة له...

وأيّاً كان، يعنينا الآن أن نوضّح بأنّ إنهاء السورة الكريمة بظاهرة (الإنفاق في سبيل الله) تنطوي على جملة من الأسرار الفنية المتصلة بعمارة النص. فأولاً تأتي عملية «الإنفاق» مقترنة بعملية الجهاد البدني بصفة أنها تنازل عن ممتلكات (الذات) مقابلاً للتنازل عن (الذات) في نطاق الدافع إلى الحياة والأمن، أي أنه يجيء في المرتبة التالية للجهاد بالنفس، مضافاً لذلك، فإن عملية (الاختبار) التي شكلت واحداًمن الروافد الفكرية التي تتصل «بالجهاد» تجيء الآن محكاً بدوره لفرز المؤمن عن غيره ممن لا يلتزم بإطاعة الله، بمعنى أن فكرة (الانفاق في سبيل الله) جاءت في سياق (الاختبار الإلهي) الذي تكفّل المقطع ما قبل الأخير بتوضيحه حينما قال النص: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين وَنَبْلُوَا أخباركم﴾... إذن، من حيث عمارة السورة ثمة تلاحم بين الأفكار الجزئية المطروحة فيها، كما أنه من حيث الدلالة، ثمة تأكيد على عملية (الإنفاق في سبيل الله) مقترناً مع الأهمية التي تنطوي عليها عملية الجهاد العسكري في ساحات القتال... وفي الحالتين،

فإن هناك فكرة تخللت السورة الكريمة أشرنا إلى أنها تمثل في عملية الاختبار وإلى أنه في النطاق العسكري لا تنحصر القضية في النصر أو الهزيمة، كما أنه في النطاق الاقتصادي فإن القضية لا تنحصر في مجرد الانفاق بمكتسباته الدنيوية بل إنه يتصل بعملية «الاختبار» ذاتها، ولذلك ختم النص هذا الجانب بالتهديد المتمثل في: أن الله هو الغني، وليس ثمة حاجة الى الإنفاق في سبيله بل هو وسيلة لعملية الاختبار، ولذلك، فبمقدور الله أن يستبدل قوماً آخرين يملكون استعداداً للالتزام بمبادئه، مما يعني أن المهم هو، معرفة الملتزم عن غيره، وليس مجرد الانفاق المادي، أو النصر والهزيمة العسكرية، بنحو ما تقدم الحديث عنه.





سورة الفتح

تظل سورة «الفتح» واحدة من السور الحائمة علىٰ موضوع (الجهاد) في سبيل الله. . . وتظل سائر الموضوعات مصوغة أو منصبّة علىٰ الفكرة المذكورة بحيث تتناول جوانب مختلفة ذات صلة بها. . .

وقد بدأت السورة بهذا النحو ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً لِيَغفرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبكَ وما تأخَّرَ ويُتِمّ نعمَته عليكَ ويهديكَ صراطاً مستقيماً وينصرَكَ الله نصراً عزيزاً**﴾.

لقد استهلّ النصُّ حديثه عن الفتح أو النصر العسكري للإسلاميين، وبالرغم من أنّ «الفتح» المُشار إليه مردد بين كونه فتحاً لمكة أو صُلْحَ الحديبية وفقاً للتفاسير المأثورة في هذا الصدد، إلاّ أنّه في الحالتين مؤشّر إلى كونه نصراً يبشّر الله به محمداً(ص) والإسلاميين مقروناً بغفران الذنب لأمّته(ص)، وبإتمام النعمة، والهدي إلى الصراط المستقيم. . .

بعد هذا التمهيد يتّجه النص إلى تفصيل الحديث عن المعطيات المذكورة، ملمّحاً إلىٰ المعطيين: الدنيوي والأخروي، قائلاً عن الأول: ﴿**هو الذي أنزلَ السكينةَ في قلوبِ المؤمنين ليزدادوا إيماناً مَع إيمانِهم، ولله جنودُ السموات والأرضِ، وكان الله عليماً حكيماً**﴾ كما قال عن الآخر: ﴿**لِيُدخِلَ المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدِين فيها ويُكفِّر عنهم سيّئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً**﴾ أمّا الإشارة إلى المُعطىٰ الدنيوي فتتمثّل في ظاهرتين هما: إشاعة الأمن في قلوب الإسلاميين وازدياد درجة إيمانهم. . .

واضح، أنّ (الحاجة إلى الأمن) تظل في مقدمة الدوافع البشرية التي لا

يتردّد أحدٌ في السعي لإشباعها، كما أن زيادة الإيمان التي تترتّب علىٰ إشباع الحاجة المذكورة تظل الهدف الرئيس للشخصية الإسلامية التي تحرص علىٰ ممارسة وظيفتها العبادية بالنحو الأفضل. . .

وأمّا الإشارة إلى المعطىٰ الأخروي فتتمثّل في ظاهرتين أيضاً هما: التبشير بالجنة والتكفير عن السيّئات. . .

من حيث عمارة أو هيكل المقطع فنيّاً: لا بدّ من الإشارة إلى جملة من الخطوط التي تحكم البناء المذكور. . . فهناك أولاً: التواشج العضوي بين مقدّمة السورة التي أشارت إلى غفران الله لما تقدّم من ذنب أمّة محمّد(ص) وما تأخّر وبين التكفير عن السيّئات التي ألمح المقطع الأول من السورة إليها عند حديثه عن المعطىٰ الأخروي: مع ملاحظة جانب هندسي آخر هو: إشراك (المؤمنات) في هذا المعطىٰ مع (المؤمنين) في حين قد اقتصر النص في حديثه عن المعطىٰ الدنيوي علىٰ عنصر (المؤمنين). . . سرّ ذلك فنيّاً: أنّ النص ما دام يتحدّث عن غفران الذنب للإسلاميين، حينئذٍ فإنّ التبشير بالجنة يظل عاماً يشمل الجنسين، بينما يظل (الأمن النفسي) منحصراً في (المؤمنين) بصفتهم الممارسين لعملية الجهاد العسكري. . .

ويلاحظ أيضاً أنّ المقطع المذكور عندما تحدّث عن المعطىٰ الدنيوي (الأمن وازدياد درجة الإيمان) وصَلهُ بقوله تعالى: **﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾**. . . هذه الفقرة لها أهميّتها الفنية في هيكل السورة التي ستعرض لاحقاً لجند الله **﴿السماوات والأرض﴾**، بصفة أنّ الفتح أو النصر مرتبط بالله فحسب: كما هو واضح. . .

والآن لنتقدّم إلىٰ مقطع لاحق:

﴿ويُعَذِّب المنافقين والمنافقاتِ والمشركين والمشركاتِ الظّانّين بالله ظنَّ السَّوْءِ، عليهِمْ دائرةُ السَّوْءِ، وغضبَ الله عليهم ولَعَنهُمْ وأعدَّ لهم جهنَّمَ وساءَت

مصيراً ولله جنودُ السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾. فالملاحَظ هنا أنّ المقطع الجديد تكرّر فيه تأكيدُ الحقيقة المذكورة ﴿ولله جنود السماوات والأرض. . .﴾، مع أنّه يتحدّث عن الطرف الآخر، من الآدميين، أي: الطرف المعادي للإسلاميين، وهم المنافقون والمشركون ذكوراً وإناثاً، ففضلاً عن هذا التقابل الهندسي بين الإسلاميين والمنحرفين من حيث تبشير الأول بالجنة وتعذيب الآخر: نجد أنّ التلميح إلىٰ كون السماوات والأرض (جنوداً) لله قد تقابل بين الحديث عن الإسلاميين وبين الحديث عن المنحرفين أيضاً: بُغية أن نستخلص دلالة عامة هي أنّ خذلان المنحرفين مرتبط بالله فحسب أيضاً قبالة كون النصر للإسلاميين مرتبطاً بالله: كما أشرنا في مقطع أسبق. . .

وأيّاً كان، فالملاحظ ـ مضافاً لما تقدّم ـ أنّ المقطع الجديد من السورة: عرض لفئتين معاديتين هما: أهل الشرك وأهل النفاق، كما عرض لهم ذكوراً وإناثاً. . . ترىٰ: ما هي الدلالة الفكرية لهذا العرض؟

إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ غفران الذنب للإسلاميين شمل كلاً من الذكور والإناث: تثميناً لشخصية محمد(ص) ورسالته، حينئذٍ فإن ما يقابلهم ـ من الفئات المنحرفة ـ سوف يشمل الجنسين أيضاً: جزاءاً لكفرانهم بالإسلام. . .

أما بالنسبة إلىٰ شطر المنحرفين إلى منافقين ومشركين، فإنّ دلالة ذلك فنياً سوف تتضح حينما نتابع المقاطع اللاحقة من السورة: حيث سنجد أنّ ظاهرة (الفتح) أو (النصر) الذي استُهلّت به السورةُ الكريمة قد ارتبطت بوقائع عسكرية: كان طرفاها السلبيان كلاً من المنافقين والمشركين، أي: منافقي المدينة ومشركي مكّة، ومن ذلك نستخلص دلالة فنية أخرىٰ كان المفسّرون كما أشرنا ـ قد تردّدوا في تحديد ما يقصد بالفتح المبين من السورة، وهو أمرٌ قلنا أنّه ينسحب علىٰ مطلق الفتح: مكة أو الحديبية ما دام الأمر مرتبطاً بوقائع ومواقف تخصّ محمداً(ص) وأمّته الإسلامية من حيث التبشير بمصير هذه الامة

دنيوياً (وهو النصر في نهاية المكان) وأخروياً وهو (الظفر بالجنّة) بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿إنّا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنُوا بالله ورسوله وتُعزّروه وتوقروه وتسبّحوه بُكرةً وأصيلاً إنّ الذين يبايعونَك إنَّما يُبايعون الله، يدُ الله فوق أيديهم فمن نكث فإنَّما ينكُثُ على نفسه ومنْ أوْفى بما عاهد عليه الله فسيؤْتيهِ أجراً عظيماً﴾**.

يتحدث هذا المقطع من سورة الفتح عن بيعة الرضوان أو الحديبية فيما بايع الإسلاميون النبي(ص) على الموت في سبيل الله...

(وقد سبق الحديث عن البيعة) التلميح إلى أن الله أرسل محمداً(ص) شاهداً على أمته، مبشراً بالجنة، نذيراً من النار، مطالباً الإسلاميين بالإيمان بالله ورسوله وبممارسة النصرة والتعظيم والتسبيح...

هذه المفردات من السلوك المطالب به ومن ثم الإشارة إلى بيعة الرضوان تظل على صلة بمقدمة السورة التي تحدثت عن الفتح المبين وزيادة حجم الإيمان لدى الإسلاميين... المهمّ أن هذه البيعة تشكّل نموذجاً واعداً من السلوك الإسلامي في صعيد الجهاد في سبيل الله، لذلك: ترتّب عليها الفتح أو النصر العسكري الذي استُهلت به السورة... والملاحظ من زاوية المبنى الهندسي للنص أن السورة بدأت بعرض الأحداث من خاتمتها وهي حادثة الفتح **﴿أنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾** ثم ارتدت إلى بداياتها وهي بيعة الرضوان: من حيث ترتب آثار الفتح على هذه البيعة: سواء أكان الفتح هو فتح مكة أو كان صلح الحديبية الذي مهّد لفتح مكة...

والسؤال، ما هو السر الفنّي لهذا العرض للأحداث التي صيغت من خاتمتها وارتدّت إلى بدايتها؟.

في تصورنا: إن الفتح بصفته حصيلة ما يطمح إليه الإسلاميون من جانب وبصفته الحصيلة العامة للسلوك المطالب به عبادياً: حينئذٍ فإن استهلال العرض به يكسب أهمية هذه الحصيلة المشار إليها... صحيح أن الفتح يرتّب زمنياًعلى استقامة السلوك متمثلاً في بيعة الإسلاميين للنبي(ص)، إلاّ أن التبشير به بصفته حصيلة للسلوك المتقدم، مضافاً إلى أنه مقدمة لازدياد حجم الإيمان لديهم ﴿**ليزدادوا إيماناً مَعَ إيمانهم**﴾ يمكن أن يفسّر لنا السببية الفنيّة للاستهلال بالفتح قبل مقدمته... يضاف إلى ذلك أن النص وهو يتجه إلى مقابلة الإسلاميين باعدائهم، يستتبع الحديث عن البيعة وغيرها في سياق الحديث عن المؤمنين والناكثين لذلك، المهم، أن النص حذّر ـ بعد أن بارك بيعة الإسلاميين ـ من نكثها قائلاً، ﴿**فمن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤْتيه أجراً عظيماً**﴾..

هنا نتوقع ـ من الزاوية الفنية ـ أن يتحدث النص عن السلوك السلبي الذي حذّر منه، كما نتوقع الحديث عن السلوك الإيجابي الذي باركه الله تعالى...

بالفعل، بدأ النص يتحدث عن السلوك السلبي، أولاً:

﴿**سيقُولُ لك المُخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وَاَهْلُونَا فاستغفر لنا، يقولُون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، قل فمن يملكُ لكُمْ من الله شيئاً إنْ أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً**﴾.

هنا ينبغي أن نتذكر أن النص كرّر في مقاطع سابقة قوله: ﴿**ولله جنود السماوات والأرض...**﴾ هذه الفقرة تلقي بظلها من جديد في هذا المقطع الذي يتحدث عن المتخلّفين عن صحبة رسول الله إلى مكة، مبيّنة بأنّه لا يملك لهؤلاء المتخلّفين أحد شيئاً ان أراد الله بهم ضراً أو نفعاً ما دامت السماوات والأرض جنوداً لله تعالى... ويجب أن نتذكر أيضاً أن النص ذكر لنا في مقطع

سابق نمطين من الأعداء، منافقين ومشركين وها هو النص يتحدث عن المنافقين أولاً، راسماً لنا جانباً من سلوكهم الكاشف عن النفاق حيث قالوا للنبي(ص) **﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا﴾** وحيث فضحهم النص بقوله **﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾**.

إذن، أوضح النص بطريقة فنية سمة (النفاق) التي طبعت هؤلاء المتخلفين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ثم واصل الكشف عن أعماقهم قائلاً **﴿بل ظننتُم أن لن ينقلب الرّسولُ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزُيّن ذلك في قلوبكم وظننتُم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً﴾**... لقد أوضح حقيقة أعماقهم التي خالفت ألسنتهم بأنها ظنت بأنّ النبي(ص) والإسلاميين سوف لن يعودوا إلى المدينة لأن المشركين في مكة سوف يبيدونهم... هذا الظن الذي فضحه النص بالنسبة إلى المتخلفين نعت أصحابه بأنهم قوم هلكىٰ تأكيداً للحقيقة السابقة التي أشارت إلى أنه لا يملك أحداً غير الله ضراً ونفعاً للآدميين وأكده النصُ جديداً حينما تابع قوله **﴿ولله ملك السماوات والأرض...﴾**.

إذن، للمرة الجديدة ينبغي ألاّ نغفل هذه الدلالات التي كررها النص في مقاطع السورة وأكدها مرتين في هذا المقطع الذي نتحدث عنه من أنه لا أحد سوى الله يمتلك فاعلية في صياغة الأحداث والمصائر: حيث تتوفر لدى المتلقّي قناعة كاملة بأنّ كل من يهرب من ساحة المعركة: فسوف لن يجديه الهربُ شيئاً، كما أن كل من يتجه إليها سوف تدعمه السماء بأسباب النصر.

* * *

قال تعالى: **﴿سيقولُ المُخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذُوها ذرُونا نتبعكُم، يُريدون أنْ يبدّلوا كلام الله، قُلْ: لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبلُ، فسيقولون: بل تحسدُوننا، بل كانوا لا يفقهون إلاّ قليلاً قل للمُخلفين من**

الأعراب ستُدعون إلى قوم أولي بأس شديدٍ تُقاتلونهم أو يُسلمون، فإن تُطيعُوا يؤتكم اللهُ أجراً حسناً، وإنْ تتولَّوا كما تولّيتُمْ منْ قبلُ يُعذّبكُمْ عذاباً أليماً﴾.

هذا المقطع من سورة الفتح امتداد لمقطع سابق يتحدث عن نمط من المنافقين أسماهم النص بـ(المخلفين)، وهذه التسمية واضحة كل الوضوح من حيث صلتها بسلوك خاص من المنافقين هو: التخلف العسكري عن الجهاد، وإلاّ فإن سمات النفاق الأخرى لديهم سوف تستتبع تسميتهم بـ (المنافقين) وليس المخلفين. . .

وأياً كان، فالنص بعد أن بيّن في مقطع سابق بأنّ هؤلاء يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، بدأ الآن برسمهم في موقفين عسكريين للكشف عن مزيد من سمة (النفاق) التي تطبع هؤلاء المخلّفين من الاعراب، أحدهما: الجانب الاقتصادي المعبّر عن (نفعيتهم) في السلوك، الآخر: الجانب العسكري: طبيعياً: الجانب الاقتصادي مرتبط بالجانب العسكري ونعني به: غنائم الحرب، فهؤلاء المخلّفون عندما شاهدوا الإسلاميين الذين صالحوا المشركين عام الحديبية، أنهم خُصوا بغنائم (خيبر) بعد ذلك، حينئذٍ قالوا لهم: «ذرونا نتبعكم». . . ومن البين أن هذه المطالبة من المخلّفين تفصح بوضوح عن (البعد النفعي) لشخصيتهم المنافقة. . . إلاّ أن النص تكفّل بالردّ على مطالبتهم مبيّناً أن غنائم خيبر تخصّ من حضر الحديبية تبعاً لوعد الله تعالى. . . لكن مع ذلك لم يدع النصُ هؤلاء المخلّفين يغلّفهم اليأس عن تعديل السلوك: إذا قُدّر للبعض أن يخلص فعلاً في سلوكه، لذلك اقترح النصُ ما يلي: **﴿قُلْ للمخلّفين من الأعراب ستُدعون إلى قوم أولي بأس شديدٍ تُقاتلونهم أو يُسلمون فإن تُطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وأن تتولّوا ـ كما توليتُم من قبلُ يُعذِبكُمْ عذاباً أليماً﴾** . . .

الواقع أن هذا الاقتراح ينطوي على هدف مزدوج هو: إفساح المجال لأيّ ادّعاء من الممكن أن يصحّ من بعضهم من حيث رغبتهم في ممارسة

الجهاد حقّاً، ثم كشفهم ـ في الآن ذاته ـ أمام الآخرين: في حالة عدم موافقتهم على الاقتراح... والاقتراح هو: المساهمة في قتال قومٍ أشدّاء سوف يُدعون إليه... مع ملاحظة أن النص وسم أصحاب المعركة المذكورة بأنهم أولوا بأسٍ شديد... وأهمية هذه الصفة التي قدّمها النص أمام المخلّفين تتمثل في كونها محكاً حقيقياً لصدق المشاعر التي يصدر المخلّفون عنها أو كذبها، فمن الممكن مثلاً أن يتجه هؤلاء المخلفون إلى مقاتلة بعض الأقوام غير المتسمة بالبأس الشديد، إلاّ أن مقاتلة أولي البأس الشديد سوف لا تسمح للمخلّفين بالمساهمة في الجهاد: إذا لم يكونوا مخلصين فعلاً...

هنا يتقدم النص إلى رسم الفئات التي يحق لها أن تتخلّف عن الجهاد... مقابلاً: لرسمه الفئات التي تخلفت بغير عذر بالنحو الذي لحظناه عند المخلّفين من الاعراب... يقول النص ﴿**ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج، ومن يطع الله ورسوله، يُدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ومن يتولّ يُعذّبهُ عذاباً أليماً...**﴾.

من الزاوية العمارية أو الهندسية للنص نجد أن هذا المقطع ينطوي على وظيفة فنيّة تصل بينه وبين المقطع السابق، فأوّلاً جاء الحديثُ عن المعذّرين مقابلاً للحديث عن غير المعذّرين... ثانياً: عندما رسم النص فئات المعذرين مثل: الأعمى والأعرج والمريض، عقب على ذلك بقوله تعالى ﴿**ومن يتولّ يعذبه عذاباً**﴾ بمعنى أن المتلقّي سوف يستخلص بأنّ غير الأعمى والأعرج والمريض: إذا أعرض عن المساهمة في ساحات القتال سوف يقابل المخلّفين من الأعراب الذين هددهم النص أيضاً بنفس العبارة حينما قال عنهم في المقطع الأسبق ﴿**وان تتولوا كما تولّيتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً**﴾...

إذن، نحن الآن أمام تقابل وتواصل بين مقاطع السورة التي تتحدث في جانب من موضوعاتها عن قضية التخلّف عن الجهاد بعذر أو غير عذر...

والمهم هو: أن هذا التلاحم الفنّي بين جزئيات الموضوع لا يكشف عن إحكام البناء العماري للنص فحسب بل أن ما يطرح من دلالات فكرية تظل في الصميم من ظاهرة الجهاد في سبيل الله من حيث فرزه للمشاعر الصادقة أو الكاذبة أو المتردّدة، والمهم أيضاً أن النص عندما عرض للمخلّفين من الأعراب في سياق حديثه عن الفتح المبين وتبشيره الإسلاميين بأضخم المعطيات الدنيوية والأخروية: إنّما كان ذلك من خلال المقارنة بين أسوياء الإسلاميين وبين ضعافهم أو المنافقين، لذلك يتجه النص بعد المقارنة المذكورة إلى الحديث عن الإسلاميين متابعاً رسم السمات التي بدأها في مستهل السورة عنهم.

قال تعالى: **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يُبايعونك تحت الشجرة فعلِمَ ما في قلوبهم فأنزَل السكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرةً يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً وعدَكُم الله مغانم كثيرةً تأخذونَها فعجل لكم هذه وكفَّ أيدي النّاس عنكم ولتكون آيةً للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيءٍ قديراً ولو قاتلكُم الذين كفروا لولَّوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾**.

هذا المقطع تتحدث بدايته عن بيعة الرضوان... وقد سبق أن لحظنا في موقع سابق من هذه السورة عرضاً للواقعة المذكورة، إلاّ أن العرض المذكور كان في سياق الالتزام بالبيعة ونكثها، أما الآن، فإن عرض الحادثة المذكورة يجيء في سياق آخر هو: ترتيب الآثار العسكرية على الموقف الإيجابي الذي صدر الإسلاميون عنه في بيعتهم للنبي(ص) وهذه الآثار المترتبة هي حصيلة ما ألمحت المقاطع السابقة من السورة إليه، أي من حيث عمارة النص؛ جاء العرض القصصي لهذه الحادثة مطبوعاً بالتسلسل الزمني لها، بينا كان العرض الأول موسوماً بالزمن النفسي فهناك جاءت خاتمة الحادثة (وهي الفتح) بداية

قصصية ارتدّت بعد ذلك إلى التسلسل الزمني، بدايةً قصصية ارتدّت بعد ذلك إلى التسلسل الزمني، أما هنا فقد جاء عرضُ الحادثة خاضعاً للتسلسل الزمني فيما تمثل في:

١ ـ بيعة الرضوان ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**﴾ ومغانم كثيرة وفي كونها صادرة عن أعماق مخلصة ﴿**فعلم ما في قلوبهم**﴾ ثم في ترتيب الآثار النفسية والعسكرية عليها ﴿**فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً**﴾... ثم واصل النص عرض الأحداث اللاحقة وفقاً للتسلسل الزمني الذي أشرنا إليه...

والسؤال هو، لماذا خضع النص في هذا المقطع للتسلسل الزمني بعد أن لحظنا أن بيعة الرضوان في بداية السورة قد خضع عرضُها للزمن النفسي لا الزمن الموضوعي؟.

في تصوّرنا، أن النص بعد أن قارن بين الأقوياء أو المخلصين الإسلاميين وبين المخلّفين من الأعراب، واتجه إلى رسم سماتهم: حينئذٍ فإنّ طبيعة الحديث عنهم تستتبع ربط النتائج بأسبابها وفقاً لمنطق الأحداث نفسها، والمهم ـ خارجاً عن المبنى الهندسي المذكور ـ يعنينا أن نتابع الآن سلسلة العرض لسائر الجزئيات التي رتّبها النص على بيعة الرضوان، وهي جزئيات ألمح النص عابراً إليها في مواقع متقدمة من السورة ذكرنا سياقها في حينه، أمّا الآن: فيعرض النص تفصيلاً كما يعرض للجديد منها... لقد أشار النص إلى (الغنائم) ووسمها بأنها (مغانم كثيرة) وهي معطى دنيوي؛ كما هو واضح، ومع أن النص لم يشجع المقاتل على التفكير «بالغنيمة» كما لحظنا سابقاً، إلاّ أنه عندما يبشر الإسلاميين بها إنما يهبها قيمة خاصة في سياق الإخلاص الذي صدر الإسلاميون عنه في مواقفهم من البيعة والمعركة (وهي معركة خيبر) التي اقترنت بالغنائم الكثيرة، وقد تكون معركة أخرى قد اقترنت بكثرة الغنائم

أيضاً: كما احتمل ذلك بعض المفسرين، إلا أنّه في الحالين ليس المهم هو تحديد هذه المعركة أو تلك بل الدلالة الفكرية التي يستهدفها النص من المعركة، متمثلة في: إثابة الله الإسلاميين الفتح، وإنزال السكينة عليهم، وأخذهم الغنائم الكثيرة: تبعاً للوعد الذي منحته السماء للإسلاميين بالنسبة إلى الغنائم التي سيحصلون عليها. . .

وأياً كان، فإنّ هذه الدلالة الفكرية المتمثلة في إثابة الله الإسلاميين: معطيات متنوعة تثميناً لإخلاصهم، قد جسّدها النص في إشارته لقضية الفتح والسكينة، و«الغنائم»: ثم في قضايا غيرها مثل **﴿وكفّ أيدي الناس﴾** وهي إشارة إلى إلقاء الله الرعب في قلوب بعض القبائل التي همّت بالهجوم على المدينة المنورة عندما غادرها الإسلاميون «لخيبر»: كما تقول النصوص المفسّرة. . . مضافاً لذلك، فهناك معطيات أخرى تتصل بالفتوحات العسكرية أيضاً، أشار النص إليها بقوله **﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾** حيث نستخلص منها أن هذه الفتوحات لو أخضعناها لحساب ماديّ لم يُتح للإسلاميين التوفّر عليها لولا أن الله تعالى خذل الأعداء ونصر الإسلاميين. . . قائلاً: **﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون وليّاً ولا نصيراً﴾**. . . وقد ألمح المفسرون إلى أن المقصود من ذلك هو الإغارة التي اقترفها بعض القبائل على المدينة كما أشرنا أو القتال الذي اعتزمه المشركون في الحديبية فحجزهم الله عن ذلك. . . والمهم هو ـ كما كررنا ـ ليس تحديد المعركة بل دلالتها الفكرية المتمثلة في أن الله تعالى يُلقي الرعب في قلوب الأعداء ويحجزهم عن النصر مقابل نصرته تعالى للإسلاميين: في حالة التزامهم بمبادىء الله. . .

صحيح أن تحديد المعركة ينطوي على الأهمية: حينما تضع في الاعتبار أن النص وهو يعتزم سرد سلسلة من المعطيات التي يستهدف تذكير الإسلاميين

بها: لغرض حملهم على تعميق الطاعة وحفزهم على المزيد منها: إنما يتجسّد في فرز هذه المعركة عن تلك لكي يبيّن لهم بوضوح نمط النعمة ودرجتها، إلاّ أنّ ذلك لا يتم إلا من خلال التحديد الذي يميّز بين سلسلة النعم بحيث يحجزهم عن ممارسة القتال، وهي نعم بعضها يتمثل في القاء الرعب في قلوب الكافرين بحيث يحجزهم عن ممارسة القتال، أو يخذلهم خلال المعركة في حالة حدوث القتال...

وأيّاً كان، فإنّ النص يبدأ بتفصيل الحديث عن المعطيات العسكرية المختلفة التي أفاضها الله على الإسلاميين، مشدّداً على الوقائع المتصلة بمكة المكرمة قبل الفتح وبعده على نحو ما نفصل الحديث عنه.

***

قال تعالى: ﴿**وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكُمْ عنهم ببطنِ مكة من بعد أنْ أظفركُمْ عليهم وكان الله بما تعملُون بصيراً هُم الذين كفرُوا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدي معكُوفاً أن يبلغ محلَّهُ ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات لم تعلموهُمْ أن تَطَؤوهم فتُصيبكُم منهم معرَّة بغير علم لِيُدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيّلوا لعذَّبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً**﴾.

في هذا المقطع يتحدث النص عن المعطيات التي أفاضها الله على الإسلاميين: تتميماً لالتزامهم بمبادىء البيعة لرسول الله، حيث كان المقطع الأسبق يتحدث عن المعطيات أيضاً إلاّ أنها كانت في سياق (الغنائم) التي مكنهم منها... وأمّا في هذا المقطع فيتحدث النص عن الأمن أو السكينة أو الاستقرار، حيث أوضح بأنّ الله تعالى كف أيدي المشركين عن الإسلاميين ومنع الإسلاميين أيضاً من التورط في مقاتلتهم: من خلال واقعة الحديبية التي أفضت في نهاية المطاف إلى فتح مكة... كما أوضح المعطى المتصل بالمكيين أيضاً: حيث يوجد بينهم مستضعفون مؤمنون: كان القتل من نصيبهم

لو قُدّر للإسلاميّين أن يقاتلوا مشركي مكة، وهذا ما يحقق هدفاً مزدوجاً هو: الحفاظ على أرواح المستضعفين من جانب وعدم تحمل الوزر عن قتلهم من جانب آخر... مضافاً إلى معطى ثالث هو: رفع العذاب عن المكيّين بسبب وجود المؤمنين بينهم... هذه المعطيات لها خطورتها الكبيرة دون أدنى شك، حيث عرض النص لها في سياق تثمينه للإسلاميين الذين أخلصوا لمبادئهم في بيعة الرضوان، وهو أمر يكشف عن أهمية الإلتزام بمبادىء الله وانعكاسه على المعطيات الدنيوية فضلاً عن الأخروية...

وقد تابع النص عرض المعطيات الأخرى، قائلاً:

﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التَّقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً﴾.

ففي هذه الآية معطى آخر من الأمن والسكينة أو الاستقرار النفسي يتمثل في عملية الكفّ عن مقاتلة أولئك الذين تغلّفهم حميّة الجاهلية وهي الأنفة أو الرفض الأحمق لما هو خير، حيث ترتب على الكف المذكور تحقيق السكينة أو الأمن في نفوس الإسلاميين...

أخيراً، ختم النص عرضه للمعطيات المذكورة بالإشارة إلى أشدها خطورة في الحقل النفسي وانعكاسه من ثم على كلمة الإسلام ونشره ونعني به دخول الإسلاميين(مكة) بعد واقعة الحديبية التي أفضت إلى الدخول المذكور، ثم ما ترتب على ما بعد الدخول من الفتح اللاحق... يقول النص **﴿لقد صدق الله رسولهُ الرّؤيا بالحق: لتدخُلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مُحلِّقين رؤوسكُم ومُقصِّرين لا تخافون، فعلِم ما لم تعلمُوا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾**...

لنلاحظ ـ من زاوية البناء الهندسي للنص ـ أن هذه الآية أشارت إلى

دخول الإسلاميين مكة (آمنين) كما أشارت إلى تحليق رؤوسهم وتقصيرها بغير خوف (محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون)... إن عبارة (آمنين) و (لا تخافون) تظل العصب الفكري الذي يتحرك في جزئيات هذا المقطع الذي تحدثنا عنه، بينما كان المقطع السابق عليه يتحدث عن معطى مادي هو الغنائم وحيث أردفه بعد ذلك معطىً نفس هو الأمن...

هنا، ختم النص القرآني الكريم سورة الفتح بالآيتين الآتيتين: الأولى: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾** فهذه الآية تُعد تتويجاً لكل محتويات السورة التي بدأت بالحديث عن الفتح الإسلامي **﴿انا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾** ووُظّفت جزئياتها جميعاً ـ كما لحظنا ـ للحديث عن الفتح المذكور من حيث نتائجه التي أفضت إلى المعطيات التي تقدم الحديث عنها مفصلاً... ولكنها ـ في الواقع ـ تظل معطيات يلحقها ما هو أكثر شمولاً أو فاعلية في ميدان النشر لرسالة الإسلام، فالأشدّ أهمية هو: نشر الرسالة الإسلامية، وهو ما أوضحه النص بقوله **﴿ليظهره على الدين كله﴾** أي: إعلاء كلمة الإسلام وغلبته على سائر الاتجاهات الأرضية...

إذن، من حيث البناء العماري العام لسورة الفتح لحظنا كيف أن النص القرآني المذكور قد بدأ بالإشارة إلى الفتح وانتهى إلى إظهار الإسلام على جميع التيارات: من حيث تجانس كل من (الفتح) و(إظهار الإسلام على الدين كله)، كما أن الموضوعات التي تخلّلت البداية والنهاية: جاءت منصبّة في روافد متشعبة أفضت في نهاية المطاف إلى صياغة النتيجة النهائية وهي الفتح أو إعلاء كلمة الإسلام على سواه...

بيد أن الملاحظ أن هذه السورة التي أوضحنا خطوط عمارتها الفنية، لم تتم بعد، بل هناك آية قد اختُتمت السورةُ بها تختص بالحديث عن أصحاب

محمد(ص) وترسمهم بسمات خاصة: من خلال صور فنيّة لا بدّ أن نقف عندها، لملاحظة الجانب الفني مضافاً إلى الجانب الفكري: فضلاً عن الجانب الهندسي الذي يربط بين هذه الخاتمة التي تخصّ شخوص الإسلاميين وبين الفكرة العامة التي حامت السورة عليها ما دام هدفنا أساساً هو: دراسة السورة من حيث بناؤها وصلة أجزائها بعضاً بالآخر.

* * *

قال تعالى: **﴿محمد رسولُ الله والذين معه أشدّاء على الكفار رُحَمَاءُ بينهم تراهُم رُكّعاً سُجّداً يبتغُون فضلاً من الله ورضواناً سيماهُمْ في وجُوههم من أثر السجود ذلك مثلهُم في التوراة ومَثلهُمْ في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأهُ فآزرهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقه يُعجب الزُّراع ليغيظ بهم الكفّار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾**.

هذه الآية خُتمت بها سورة الفتح التي كانت تتحدث عن النصر الذي حققه الله للإسلاميين: نتيجة لإخلاصهم لمبادىء الله من خلال الموقف الذي صدروا عنه في بيعة الرضوان... وها هو النص الآن: يختم السورة المذكورة برسم سمات الإسلاميين الملتزمين بمبادىء الله: بصفتهم النموذج المتميّز الذي يفرزهم عن غيرهم، وهو نموذج يمكننا أن نستخلصه ـ وفقاً للطريقة الفنية غير المباشرة التي سلكها النص ـ من مجمل الموقف الذي بايعوا من خلاله رسول الله على الموت حينما ثمّنت السماءُ الموقف المذكور ورتبت عليه آثار الفتح...

هذا من حيث صلة الآية بهيكل السورة وموقعها الهندسي من ذلك...

أما من حيث صلة دلالتها الفكرية فإنّها تقرّر بأنّ محمداً(ص) وأصحابه أشداء على الكفار رحماء فيما بينهم، طالما تراهم ركعاً سجّداً بحيث تلحظ آثار السجود في جباههم... أنهم كزرع أخرج شطأه وقواها حتى كبر الزرع

وقام على أصوله بنحو يعجب الزارعين وهو ما يغيظ الكفار دون أدنى شك. . .

هذه الدلالة الفكرية صاغها النصُ بلغةٍ فنية تعتمد عنصر (الصورة) بنمطيها: المباشر وغير المباشر، أي: الصورة الواقعية والصورة الرمزية. . . فالصورة الواقعية هي ظواهر أو مشاهد الركوع والسجود وآثار ذلك في وجوه المؤمنين وهي مشاهد حسيّة حركية تمثل ما يسمّىٰ بالملمح الخارجي للشخصية، وإلى جانبها ملمح داخلي للشخصية هو: كون الإسلاميين رحماء فيما بينهم أشداء على الكفار. . . ونحن لا نحتاج إلى التعقيب على هذا الرسم للصورة الخارجية والداخلية للإسلاميين ما دامت تعبّر بوضوح عن المظهر العبادي الذي تطلبه السماء من الآدميين، فالصلاة هي المظهر المباشر لتحديد العلاقة بين الله تعالى والعبد، كما أن سيماء السجود على الجبهات مظهر عن عمق العلاقة المذكورة بصفتها تكشف عن طول السجود وليس عن مجرد السجود العابر. . .

إذن، الملمح الخارجي المتصل بالركوع والسجود وأثر ذلك علىٰ الوجه يفصح عن علاقة عميقة بين العبد وإدراكه لوظيفته العبادية فيّ تعامله مع الله تعالى. . .

أما الملمح الداخلي يعبّر عن تحديد العلاقة الاجتماعية بعد أن كان الملمح الخارجي معبراً عن العلاقة الذاتية بين الله والعبد. . . هذه العلاقة الاجتماعية تفصح عن أشد مستوياتها لدى الإسلاميين: فهم (رحماء) بينهم، فلا نتصور إمكانية أية علاقة مفصحة عن عمق دلالة الإنسان وصلته بأخيه الإنسان أكثر من عنصر (الرحمة) المتبادلة بين الأطراف الاجتماعية ما دمنا نعرف أن (الحب) أساساً هو جوهر التركيبة البشرية، وها هم المؤمنون يعبّرون عن أشد مستوياتها عمقاً متمثلة في (الرحمة) المتبادلة بينهم. . . وبالمقابل،

فإنّ (الكفار) ما داموا أساساً منعزلين عن الله تعالى فيتعين حينئذٍ أن ينعكس هذا على سلوك الإسلاميين من حيث علاقتهم بالكفار: حيث وسمهم بأنهم (أشداء) على الكفار، وهو ما ينبغي أن يكونوا عليه فعلاً ما دامت علاقة الإسلاميين بالآخرين مرتبطة، بموقف الآخرين من الله تعالى، وما دام الآخرون منعزلين عن الله فحينئذٍ يتعين على الإسلاميين أن ينعزلوا عنهم وأن يكونوا (أشداء) عليهم . . .

هذا كله من حيث الرسم للصورة الواقعية التي صاغها النص للإسلاميين.

أما من حيث الرسم للصورة الرمزية أو الفنية فتتمثل في تلك الصورة التي جعلها كالزرع الذي يخرج شطأوه فيشتد ويكبر الزرع ويستوي على سوقه: ليعجب الزرّاع من جانبٍ ويغيظ الكفار من جانب آخر . . .

وأهمية هذه الصورة أو التشبيه تمثل في كونها معبّرة عن تنامي كلمة الإسلام التي عبّرت عنها سورة الفتح بصورة عامة، وجاءت هذه التركيبة الصورية مفصحة عن ذلك، مضافاً إلى كونها مفصحة عن تحديد العلاقة الاجتماعية بين الإسلاميين والكفار: حيث يمكن ملاحظة ذلك في كون (الزرع) يعجب الزراع ويغيظ الكافرين: فإعجاب الزرّاع به يرتبط بكون الإسلاميين (رحماء) بينهم، وإغاظته للكفار يرتبط بكون الإسلاميين (أشداء) على الكفار . . .

إذن، جاء هذا (الرمز) أو (الصورة الفنية) متجانساً مع الدلالة الفكرية التي انطوت عليها موضوعات سورة الفتح من جانب، وما انطوت عليها الصورة التي رسمت الملامح الداخلية الإسلاميين من جانب آخر . . .

وبهذا يمكننا أن ندرك خطورة وأهمية العبارة القرآنية الكريمة التي ختمت

بها السورة من حيث صلتها بالهيكل العام للسورة، وصلتها بجزئيات الهيكل الخاص بالمقطع: ثم صلة ذلك جميعاً بتلاحم الأجزاء بعضها مع الآخر، مما يفصح عن خطورة وأهمية البناء المذكور.

* * *

سورة الحجرات

قال تعالى: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، واتقوا الله إن الله سميع عليم يا أيها الذين آمنوا: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون إنَّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنّهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم**﴾.

هذا المقطع من سورة الحجرات: يتعلق بقضية خاصة ترتبط بنمط السلوك الذي ينبغي أن تختطه الشخصية في تعاملها مع رسول الله(ص)... متمثلاً في عدم رفع الصوت أمامه وعدم مناداته بمثل ما ينادي به الرجل العادي... وبالرغم من أنّ هذه القضية (ذات طابع خاص)، وبالرغم من كونها ترتبط بأحد الوفود الذين جاءوا إلى النبي(ص) بعد الفتح (فتح مكة) من أجل المفاخرة... إلاّ أنّ الأهمية الفنية لمثل هذا النمط من السلوك هي: إمكان انسحابها على مطلق التعامل مع الشخصيات المصطفاة أو التي تحتل موقعاً عبادياً، ذلك أنّ جهر الصوت يتنافى حتى في المواقف العادية: مع رصانة الشخصية الإسلامية التي ينبغي أن تتعامل وفق معايير النصح الانفعالي: فتتحدث بهدوء، وتخاطب الآخرين بالتُؤَدَة والإناة، ولا تتعجل اللقاء، ولا تسبب حرجاً لهم...

من هنا يمكن القول بأنّ أهمية هذا الطرح لسلوك الناس حيال النبي(ص) تنسحب على مطلق السلوك الذي تستهدفه توصيات الإسلام: تبعاً لدرجة الشخصية التي تحتلها لدى الله من حيث موقعها العبادي، حيث يكون رسول

الله(ص) هو التجسيد الأرفع في هذا الميدان.

بعد ذلك يتجه النص القرآني الكريم إلى طرح ظواهر مختلفة من سلوك الإنسان (بخاصة في ميدان العلاقات الاجتماعية وما تواكبها من أشكال التفاعل المفضية إلى تحقيق المجتمع المتوازن)... لذلك، يستطيع الملاحظ الاجتماعي أن يستخلص من هذه السورة الكريمة (سورة الحجرات) دلالات اجتماعية يتركز الحديث حيالها، بحيث تكون هذه السورة (بحثاً) اجتماعياً يتعلق بتحديد أفضل أشكال التعامل بين الآدميين، حيث مهد للحديث عن هذا الجانب الاجتماعي: بعرض قضية اجتماعية خاصة بتعامل الناس مع النبي(ص) بصفته الطرف الاجتماعي المجسّد لرسالة السماء، مقابل الأطراف الاجتماعية الأخرى... مستثمراً هذا الجانب: لكي ينطلق منه إلى رسم سائر العلاقات الاجتماعية، وهي علاقات ستقوم ـ أساساً ـ على معيار محدد هو: الاحترام والتقدير المتبادل بين الأطراف الإنسانية.

إنّ من الحقائق المعروفة (في ميادين الاجتماع البشري)، هو: محاولة صياغة المجتمعات وفق علاقات (التعاون) بدلاً من (الصراع)، وهو أمر من الصعب تحقيقه في المجتمعات المنعزلة عن مبادىء السماء: نظراً لعدم توفّرها على وعيٍ عبادي يسمح لها بتحقيق علاقات التعاون المشار إليها...

من هنا تتجه هذه السورة الكريمة لعرض مبادىء الاجتماع البشري وفق علاقات التعاون، وذلك: من خلال طرح ظواهر يتصل بعضها بتركيبة الإنسان فطرياً مثل قوله تعالى (في المقطع الجديد من هذه السورة): **﴿واعلموا أنّ فيكم رسول الله: لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم، ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم، وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾**...

إنّ هذه الظاهرة تتصل بالتركيب الوراثي للإنسان (من حيث جهازه الفكري ـ كما سنشير إلى ذلك لاحقاً)، ولكنها تشكل أرضية للدخول إلى

ميدان التعامل الاجتماعي الذي ستوضحه السورة الكريمة عندما تتحدث عن الحرب والسلم، والصراع والتعاون، ونزعات الحقد و الحب... إلخ مما يتصل بعلاقات الإنسان مع أخيه . . .

المهم هو، أن نشير ـ قبل أن نتحدث عن التفصيلات التي تنطوي عليها موضوعات هذه السورة الكريمة ـ إلى أنّ هذه السورة بدأت بطرح موضوع اجتماعي خاص، ثم انطلقت منه إلى الحديث عن موضوعات اجتماعية عامة، تجمع بينها فكرة مشتركة تنصب عليها موضوعات السورة المختلفة، مما يفصح ذلك عن إحكام السورة وتلاحم جزئياتها بالنحو الذي سنوضحه لاحقاً إن شاء الله تعالى.

* * *

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسق بنبأ، فتبينوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين واعلموا أن فيكم رسُول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعَنِتُّم ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قُلوبكم، وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون﴾**.

في هذا المقطع (من سورة الحجرات) طرحت ظاهرتان، إحداهما تتصل بخبر الفاسق، والأخرى تتصل بتركيبة الإنسان فطرياً من حيث نزوعه إلى الإيمان وكراهيته للكفر والفسوق والعصيان. . .

والسؤال أولاً، ما هي العلاقة بين هاتين الظاهرتين: مجيء الفاسق بنبأ ثم تزيين الإيمان في القلوب؟

لنتحدث أولاً عن هاتين الظاهرتين، ثم نتبين صلة أحدهما بالأخرى، ثم صلتهما بفكرة السورة الكريمة. . .

الظاهرة الأولى هي: أنّ الفاسق إذا جاء بخبر فينبغي ألاّ يصدقه السامع

إلاّ بعد أن يتبين الحقيقة. . . ويلاحظ أنّ النص القرآني الكريم علل ذلك بإمكان أن يترتب على تصديق الفاسق: ضرر على الناس ﴿**فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة**﴾. . . وهذا يعني أنّ النص ركز على قضية اجتماعية (وليست فردية فحسب) هي: عدم إلحاق الضرر بالقوم. . . وهذه الدلالة (أي: عدم إلحاق الضرر بالناس) سنجد انعكاساتها في موضوعات السورة التي سنقف عندها لاحقاً. . .

وأما الظاهرة الثانية وهي تزيين أو تحبيب الإيمان في القلب وتنفيره من الكفر و الفسوق والعصيان، فأمر ينبغي أن نقف عنده. . .

إنّ هذه الظاهرة تشكل أهم ملاحظة نفسية ترتبط بالإنسان وبمعرفة تركيبته. . . فمن الواضح أنّ الإنسان يولد ـ وهو مزود بجهاز عقلي (هو آلية التفكير من استجابة ونسيان وتذكر... إلخ)، كما أنّه مزوّد بجهاز نفسي (هو آلية الاستجابة للأشياء بشكل طبيعي لا خلل فيه)، ثم أنه مزوّد أيضاً (وهذا ما ينبغي التشدد فيه) بجهاز فكري أو عبادي هو: نزوعه الفطري إلى الإيمان بالله تعالى، ونفوره الفطري من الكفر والفسوق والعصيان. . . لذلك فإنّ بعض الاتجاهات النفسية التي تزعم عدم فطرية الجهاز الفكري، تظل بمنأى عن الحقيقة التي أكّدها القرآن الكريم، وحينئذٍ إذا أتيح للبعض أو للكثير من الناس بأن يلحدوا أو يفسقوا، فإنّما يكشف هذا السلوك عن (الشذوذ): تماماً كما لو كان الإنسان يرث جهازاً عقلياً مضطرباً أو جهازاً نفسياً مضطرباً (كما هي حال الأمراض العقلية والنفسية ذات الأصل الوراثي فطرياً). . .

ولكن خارجاً عن هذه التركيبة البشرية، يثار سؤال آخر هو: ما هي الفوارق بين المصطلحات الثلاثة التي وردت من هذه الآية الكريمة: ﴿**وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان**﴾.

إنّ الكفر هو (عدم الإيمان بالله تعالى)، وأما العصيان فهو: عدم الالتزام

بمبادىء الله تعالى، وأما الفسوق: فقد تفاوتت النصوص المفسرة في تحديده حيث ذهب بعضها إلى أنّه هو: الخروج من الطاعة إلى المعصية، وذهب الآخر إلى أن المقصود منه (الكذب)، وهذا الرأي الأخير هو الصائب: لاعتبارين، أولهما ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسيره بأنّ المقصود من ذلك هو الكذب... أما الاعتبار الآخر فهو اعتبار فني محض، وذلك أنّ الآية ذكرت (العصيان) إلى جانب (الفسوق) ﴿**وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان**﴾، وحينئذٍ لا معنى لأن يكون (الفسوق) معصية، لأنّ المعصية قد ذكرها النص تحت مصطلح (العصيان)، وحينئذٍ يتعين أن يكون المقصود من (الفسوق) هو (الكذب) كما فسّره الإمام الباقر عليه السلام... ويدلنا على ذلك أيضاً (من ناحية فنية) أنّ الظاهرة الأولى من الآية وهي: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ**﴾ قد تضمنت مفهوم (الكذب) من سلوك الفاسق، وحينئذٍ (من حيث التجانس الفني بين العبارتين) نستكشف بأنّ المقصود من (الفسوق) هو الكذب في سياق هذه السورة فحسب، وإلاّ فإنّ مصطلح (الفسق) يظل مرتبطاً بمفهوم (المعصية) دون أدنى شك...

وبهذا نكون قد لحظنا علاقة الظاهرتين (مجيء الفاسق بنبأ) ثمّ (تركيبة الإنسان الفكرية: من حيث تحبيب الإيمان وتكريه المعصية، وهو أمر يفصح دون أدنى شك عن إحكام السورة عمارياً من حيث علاقة أجزائها بعض مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه، فضلاً عن صلة ذلك بمجموع السورة الكريمة بالنحو الذي سنوضحه لاحقاً (إن شاء الله تعالى).

* * *

قال تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلِحُوا بينهما، فإنْ بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإنْ فاءتْ فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسِطوا إن الله يحبُّ المُقسطين إنّما المؤمنون**

إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتّقوا الله لعلكم تُرحمون﴾.

هذا المقطع من سورة الحجرات امتداد لمقاطع سابقة تتناول ظاهرة (العلاقات الاجتماعية في الإسلام) وهي الموضوع أو الفكر التي تحوم عليها هذه السورة بخاصة. وما دمنا نعنى ـ في هذه الدراسات ـ ببناء السور القرآنية الكريمة، فحينئذٍ ينبغي أن نلفت الانتباه إلى أنّ هذه السورة تتمحض لدراسة العلاقات الاجتماعية: كل ما في الأمر أنّها تتناول جوانب معيّنة من هذه العلاقات بحيث يتم التركيز عليها نظراً لأهميتها الخاصة: من وجهة النظر الإسلامية. . . المهم، أنّ الجديد في هذا المقطع هو صياغة مبدأ اجتماعي (لا يزال علماء الاجتماع الأرضي يحومون على صياغة مماثلة دون أن يفلحوا في ذلك)، المبدأ الاجتماعي الذي قدمته السورة هو قوله تعالى: ﴿**المؤمنون اخوة**﴾. . . ونحن إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ علماء الاجتماع يشطرون العلاقات الاجتماعية إلى شطرين (علاقات التعاون) و(علاقات التنافر) أمكننا حينئذٍ أن ندرك أهمية هذا المبدأ الاجتماعي الذي طرحته السورة الكريمة، وهو يركز على (علاقات التعاون)، لكن: بين المؤمنين بطبيعة الحال، وإذا كان (علم الاجتماع الأرضي) ـ في بعض اتجاهاته ـ يقرّر بأنّ (علاقات التنافر) لها فاعليتها الإيجابية أيضاً، فإنّ الإسلام ـ وفق المبدأ الاجتماعي ﴿**المؤمنون اخوة**﴾ لا يقر علاقات التنافر بين المؤمنين بقدر ما يقرها بينهم وبين العدو. . . وهناك فارق بين من يذهب إلى أن (التنافر) يشكل محفّزاً لتنمية المجتمعات، وبين الاتجاه الإسلامي الذاهب إلى أن «التعاون» هو الصياغة الوحيدة لتحقيق توازنها عدا حالات خاصة من (التنافس) من أجل عمل الخير. لذلك، فإنّ المبدأ الاجتماعي القائل: ﴿**المؤمنون اخوة**﴾ يظل هو الصياغة الوحيدة ـ كما كررنا لتحقيق التوازن، وهو أمر لا يمكن تصوره إلاّ من خلال (علاقات التعاون) وليس (التنافر) كما هو واضح.

طبيعياً، من الممكن أن تدخل علاقات (التنافر) في صياغة بعض الأحداث، وهذا من نحو ما طرحه المقطع من بدايته الذاهبة إلى أنه لو تنافرت جماعتان من المؤمنين (وهو أمر أوضحته النصوص المفسرة من أنّ الآية نزلت في جماعتين من الأوس والخزرج أو غيرهما) بيد أنّ مثل هذا التنافر يظل مبدأ سلبياً وليس إيجابياً: بدليل أنّ المبدأ القائل: ﴿**المؤمنون اخوة**﴾ هو الذي أمر باتباعه في حسم التنافر، عدا شيء واحد أشارت الآية إليه الا وهو: بغي إحدى الجماعتين، وحينئذٍ فإنّ محاربة البغاة يظل أمراً ضرورياً لتحصين علاقات التعاون): نظراً لأنّ الباغي أو المعتدي يظل عاملاً كبيراً في حجز أية إمكانية للتوازن الاجتماعي... ومن هنا فإنّ محاربته هو قضاء على (التنافر)، ومن ثم: تتمحض العلاقات في نطاق (التعاون) بعد أن يمنع الباغي من ممارسة عدوانه...

وأياً كان الأمر، يعنينا ـ من هذا المقطع الذي نتحدث عنه ـ جانبان، أولهما: طرحه لأهم مبدأ اجتماعي يتحقق من خلاله: توازن المجتمعات التي لا تزال (منذ أن نشأ المجتمع البشري) تعاني من انشطاراتها وانحرافاتها، وذلك لغيابها تماماً عن المبدأ القائل: ﴿**المؤمنون اخوة**﴾... والآخر هو: صلة هذا المبدأ الاجتماعي بموضوعات السورة الكريمة وأفكارها، وهي موضوعات وأفكار تحوم على جملة من مبادىء الاجتماع الإسلامي أو البشري بعامة (كما سنرى في مقاطع لاحقة من هذه السورة الكريمة)، حيث يترتب على مبدأ ﴿**المؤمنون اخوة**﴾ أكثر من تجسيد أو أكثر من مبدأ اجتماعي تصب بمجموعها في هدف واحد هو: تحقيق المجتمع المتوازن. والمهم بعد ذلك أنّ السورة الكريمة ـ في طرحها لأمثلة هذه المبادىء الاجتماعية، تفصح عن إحكام هندسي بالغ الأهمية والجمال: من حيث تلاحم هذه الموضوعات

بعضها مع الآخر، كما لحظنا، وكما سنرى ذلك في المقاطع اللاحقة من النص القرآني الكريم.

* * *

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخر قومٌ منْ قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهم، ولا نساءٌ منْ نساءٍ عسى أنْ يَكُنَّ خيراً منهنَّ، ولاَ تَلْمِزوا أنفسَكُم، ولاَ تنَابزُوا بالالْقابِ، بئسَ الاسمُ الفسوقُ بَعْدَ الإيمان، ومَنْ لم يَتُبْ فأُولئكَ هُم الظالِمونَ﴾**.

هذه الآية من سورة الحجرات: تشكل مقطعاً من مقاطع السورة الكريمة التي يقوم هيكلها الهندسي على فكرة (العلاقات الاجتماعية) وتحديدها وفق تصوّر إسلامي خاص قائم على مفهوم (التعاون) بدلاً من العلاقات الاجتماعية القائمة على مفهوم(التنافر)..

وفي ضوء هذه الفكرة التي لحظنا ـ في مقاطع سابقة ـ تجسيداتٍ متنوعة لها: يتقدم النص القرآني في هذا المقطع الذي نتحدث عنه الآن، بعرض نموذج آخر من (العلاقات الاجتماعية) التي يطالب المجتمع الإسلامي بها: مقابل العلاقات التي يطالب النص: مجتمع الإسلام بالتخلي عنها وفق هذا الخطاب: **﴿يا أيها الذين آمنوا: لا يَسخرْ قومٌ مِنْ قوم عسى أنْ يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم، ولا تنابزوا بالألقاب...﴾**.

نواجه هنا ثلاث ظواهر سلبية يحذر المقطع القرآني منها، وهي: السخرية، اللمز، التنابز بالألقاب، وهذه الظواهر ـ بالرغم من تفاوت أشكالها ـ إلاّ أنّها جميعاً تصب في سلوك اجتماعي واحد هو: (العلاقات القائمة على التنافر) أو لنقل: العلاقات التي تفرزها نزعات (العدوان) بدلاً من (المسالمة)، فالنزعة العدوانية لا تأخذ مظهراً واحداً من السلوك، بل تأخذ مظاهر متنوعة:

قد تكون حركية (كما هو الحال في العدوان باليد) وقد تكون (لفظية) ـ كما لو تم ذلك من خلال اللسان... وهذا الأخير أيضاً (أي: العدوان اللفظي) يتخذ مظاهر مختلفة مثل: الشتم صريحاً، (والسخرية، أو الفخر، أو المزاح، أو الغيبة... إلخ).

والمهم، أنّ النص القرآني الكريم طرح أكثر من مظهر عدواني لفظي: حذّر منه، وعقّب عليه وعلى نتائجه بالنحو الذي نعرض له الآن...

وأول مظهر عدواني لفظي أبرزه المقطع، هو: عنصر السخرية... أو الاستهزاء... والسخرية تعني: أنّ يقلّل الإنسان من قيمة إنسان آخر من خلال الازدراء لشخصيته: كما لو كان فقيراً أو مهملاً من حيث الموقع أو النسب أو سوى ذلك...

وأما المظهر الآخر الذي ورد النهي عنه، هو: اللمز، ويعني: الانتقاص من الإنسان من خلال ذكر عيوبه...

والمظهر الثالث هو: التنابز بالألقاب، ويعني: الانتقاص منه من خلال إطلاق اسم عليه يؤذي صاحبه... هذه المظاهر الثلاثة تشكل ممارسات عدوانية لفظية، تضاد تماماً مفهوم ﴿**المؤمنون اخوة**﴾ فيما طرحته السورة الكريمة في مقطع سابق، حيث قدّم النص تجسيدات واضحة لكل ممارسة تتنافى مع الحب والمسالمة ونحوهما من النّزعات التي تساهم في إحكام البنيان الاجتماعي...

هنا ينبغي أن نقف عند المظهر الأول (ونعني به عنصر السخرية) لنلاحظ السرّ الفني الكامن وراء جَعْل الرجال على حدة، وجعل النساء على حدة: موضعاً للمطالبة ﴿**لا يسخر قوم من قوم... ولا نساء من نساء**﴾ حيث فرز الرجلان كما فرز النساء ـ مع أنّ الجميع خاضع لنزعة مشتركة لا يفترق فيها الرجل عن المرأة، فما هو السر في هذا الفرز؟.

في تصورنا، أنّ عنصر «السخرية» ـ بما أنّ المرأة ذات نصيب ملحوظ فيها من حيث كونها تعني بالزخرف والشكل والمظهر الخارجي ـ حينئذٍ لا بد أن يتضخم لديها مثل هذه الممارسة، فضلاً عن أنّ سبب نزول الآية الكريمة ـ حسب النصوص المفسر يرتبط ببعض النسوة اللواتي مارسن هذه النزعة العدوانية . . .

وأياً كان الأمر، يعنينا ـ في النهاية ـ أن نلفت الانتباه إلى عمارة السورة القرآنية الكريمة وصلة هذا المقطع بها، حيث أشرنا إلى أنّ النص طرح موضوع أو مبدأ ﴿**المؤمنون اخوة**﴾ في مقطع سابق مشدداً في قضية الإصلاح بين المؤمنين، وحينئذٍ قدّم النص ـ مقابل الإصلاح ـ مفهومات عن الضد أيضاً حتى يتبلور هذا المفهوم الذي يستهدف توصيله، مفصحاً بذلك عن جمالية البناء الفني للسورة التي تتلاحم موضوعاتها بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن، إنَّ بعض الظن إثم، ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا الله إنَّ الله توابٌ رحيم**﴾.

هذه الآية من سورة الحجرات: تشكل مقطعاً جديداً من مقاطع السورة الكريمة التي تحوم فكرتها على (العلاقات الاجتماعية في الإسلام) بخاصة على المبدأ المعروف الذي طرحته السورة في مقطع أسبق وهو مبادىء ﴿**المؤمنون اخوة**﴾.

وها هو النص يقدم نماذج من السلوك المضاد للمبدأ المذكور ـ وهي: إساءة الظن، التجسس، الغيبة. . . وقد سبق للسورة أن قدمت نماذج أخرى من السلوك المضاد لمبدأ «الأخوة» في الإيمان، مثل السخرية، واللمز،

والنبذ... وإذا كانت السخرية واللمز والنبذ تجسّد سلوكاً عدوانياً (لفظياً) من خلال المواجهة المباشرة، فإنّ الظن، والتجسس والغيبة، تشكل سلوكاً لفظياً من خلال المواجهة غير المباشرة، وهذا ما يسوّغ جمع المفردات المتجانسة من السلوك في مقطع خاص مقابل مفردات أخرى من السلوك ينتظمها مقطع خاص أيضاً، وهو أمرٌ يجعل عمارة السورة الكريمة خاضعة لبناء محكم كما هو واضح.

المهم، أنّ المقطع طرح ثلاثة أنماط من السلوك: إساءة الظن: بصفتها تعبيراً عن نزعة عدائية حيال الشخص الآخر، ثم «التجسس» بصفته تعبيراً صارخاً عن النزعة العدائية لأنّ تتبع العيوب هو: تعبير حاد عن نزعة العدوان كما هو واضح... ثم: «الغيبة» وهي قمة النزعة العدوانية، بحيث خصص لها المقطع كلاماً مفصلاً يعتمد عنصر الصورة الفنية التالية: **﴿أيحبُّ أحدكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً فكرهتموه﴾**... هذه الصورة التي يطلق عليها البلاغيّون مصطلح (التشبيه) ونسميها نحن بالصورة «الاستدلالية» تظل من الصور المدهشة، المثيرة، الغنية الطريفة: في القرآن الكريم... والواقع أنّ بشاعة الغيبة من حيث كونها من أشد المعاصي: فرضت صياغتها في صورةٍ مدهشةٍ كل الدهشة... أنّ لحم الميت يقترن بثلاثة مظاهر منفرة تختص كل منها بحاسة من حواس الإنسان: حاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة الذوق، أي: الحواس المرتبطة باللون، والرائحة، والطعم، فاللحم الميت من حيث (المنظر) يقرن بالبشاعة، كما أنّه من حيث الرائحة يقترن بما هو نتن، ومن حيث الطعم يقترن بما لا يمكن تذوقه بأي شكل من الأشكال...

وعندما يتساءل النص أو يقول مستدلاً: **﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾** حينئذٍ يستحضر في ذهن السامع أبشع الصورة المنفرة بخاصة أنّه يستفهم إمكانية أن يأكل الإنسان لحم أخيه، وإلاّ لو قدم تشبيهاً فقال: «إنّ من

اغتاب أخاه كما أكل لحمه ميتاً» لا تتحقق الإثارة الفنية بمثل تحققها: لو تساءل عن إمكانية ذلك، والسرّ في هذا أن كل لحم الميت لم يخبر علمياً أي لم يكن ممارسة تجريبية، لذلك ينبغي أن تنتخب للموضع صورة أخرى غير التشبيه وهي «الاستدلال» كما قلنا، متمثلة في التساؤل عما إذا كان يحب الإنسان أن يأكل لحم أخيه ميتاً. . .

إذن، عندما انتخب المقطع القرآني الكريم صورة «استدلالية»: إنّما رعى بذلك سياق الموضوع الذي يتطلب مثل هذا الاستدلال، وعندما قدّم صورة ذات أطراف متنوعة ترتبط بحاسة الشم والذوق والبصر: إنّما رعى أيضاً طبيعة الموضوع الذي تطلّب مثل هذه الصورة المكثفة: نظراً لكون الغيبة من أشد مفارقات السلوك كما أشرنا. . والأهم من ذلك كله، أنّ المقطع القرآني الكريم بهذا الطرح لمفهوم (الغيبة) فضلاً عن مفهوم «أساءة الظن» ومفهوم «التجسس» قد راعى أيضاً: الفكرة الرئيسية التي تحوم عليها السورة الكريمة، أي فكرة (العلاقات الاجتماعية) المنطلقة من مبدأ ﴿**المؤمنون اخوة**﴾ فيما أوجبت (التعاون) بدلاً من المنازعة والعدوان. وهو بهذا الطرح: يكون قد أحكم بناء النص من حيث تلاحم موضوعاته بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفُوا، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إنّ الله عليم خبير**﴾.

هذه الآية الكريمة: تشكل مقطعاً جديداً من سورة الحجرات التي تحوم فكرتها على «العلاقات الاجتماعية في الإسلام»، وهي علاقات «التعاون» بين الأطراف الاجتماعية. . .

والسؤال هو، ما هي الدلالة الاجتماعية الجديدة التي يتضمنها هذا المقطع؟

هناك دلالتان يتضمنهما هذا المقطع وهما: «التعارف» بين الأسرة الإنسانية، ثم تحديد المعيار الذي يميز كائناً أو أمةً عن الأخرى، وهو معيار «التقوى»...

إنّ البحوث الاجتماعية (قديماً وحديثاً) طالما تطرح سؤالاً عن نشأة المجتمعات وعن إمكانية تحققها والمبادىء التي تحكمها بحيث تجعلها قائمة: بالرغم من تصادم المصالح التي تحكم أفرادها وجماعاتها... وهذه البحوث تقدم إجابات مختلفة في هذا الصدد، كما أنّها تتفاوت في تحديد ما ينبغي أن يختط لها من المبادىء التي تتكفل باستمرارية قيامها وتحقيق التوازن فيها، إلاّ أنّ هذه البحوث أو المجتمعات نفسها فشلت في تحديد الإجابة الحاسمة، مثلما فشلت في تحقيق التوازن الاجتماعي الذي تتطلع إليه الأفراد والجماعات: وذلك لسبب واضح هو: عزلتها عن مبادىء السماء التي رسمت مبادىء خاصة في تحقيق التوازن، وفي مقدمتها (أي: المبادىء الاجتماعية) هو: (التعارف) بين الأفراد والجماعات، أي: أنّ المبدأ الاجتماعي الذي ينبغي أن يحكم المجتمعات ويضمن استمراريتها وتوازنها هو التعارف بين الأفراد والجماعات في ضوء المبدأ الرئيسي الذي تضمنه مقطع أسبق وهو «مبدأ» ﴿**المؤمنون اخوة**﴾...

وفي صعيد نظرية (التعارف الاجتماعي) يقدم النص: تعليلاً لجعل الناس شعوباً وقبائل بدلاً من صهرهم في رابطة مبهمة لا تحديد فيها لهوية الشخص أو الجماعة: حيث أنّ ضياع الهوية أو النسب أو الرابطة يجعل استمرارية التعامل أمراً متعذراً كما هو واضح... والمهم بعد ذلك ـ هو أنّ النص يشير إلى أن التمييز النسبي يستهدف حقيقة إيجابية هي (التعارف) وليس حقيقة سلبية هي: التفاخر بالأنساب وسواها...

هنا ينبغي أن نتذكر بأنّ مقطعاً سابقاً من السورة قد حذّر من السخرية،

واللمز، والتنابز بالألقاب ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم... إلخ**﴾ حيث ربط النص فنياً بين المقطع السابق والحالي حتى يحكم البناء الهندسي للسورة الكريمة...

والآن، حينما يحدّد النص هدف جعل الناس شعوباً وقبائل بأنّه من أجل (التعارف) وليس من أجل التفاخر: نجده يقدم معياراً عبادياً هو «التقوى» بحيث تصبح إطاعة الله تعالى هي المعيار الفاصل بين الناس من حيث موقعهم من الله تعالى... إنّ البحوث الأرضية طالما تشير إلى معاييرِ اقتصادية أو سلالية أو سواهما مما تفرز طبقة اجتماعية عن أخرى وتكسبها قيمة اجتماعية خاصة تشكل ما هو (أعلى) أو (أدنى) من الطبقة الأخرى... بيد أنّ النص القرآني الكريم ألغى هذه المعايير البشرية في التمييز وحصر الموضوع في العمل الصالح فحسب أي مدى الالتزام بمبادىء الله تعالى... ومن الواضح أنّ حصر التمييز في «التقوى» يعني: أنّ كل أشكال الصراع أو التنافر الاجتماعي سوف تختفي بالضرورة بحيث ينحصر السلوك الاجتماعي في التسابق إلى الخيرات وهو قمّة ما يتطلع الجنس البشري إليه: كما هو واضح... لأنّ التسابق إلى عمل الخير يفضي إلى تحقيق مبدأ «التعاون» بين الأسرة الإنسانية على العكس من التسابق إلى الحصول على الإنجازات المادية أو الذاتية التي تطبع سلوك المجتمعات البشرية المنعزلة عن مبادىء الله تعالى...

المهم، أنّ المقطع القرآني الكريم الذي حدّد ظاهرة «التقوى» و «التعارف» مقابل التصارع أو التفاخر: إنّما ربط ـ كما قلنا ـ بين مقاطع سابقة حذّرت من التفاخر والذاتية، كما ربط بين مبدأ «التعارف» و «التقوى» وبين مبدأ ﴿**المؤمنون اخوة**﴾ مفصحاً: عن إحكام السورة الكريمة من حيث تلاحم موضوعاته بعضاً مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.

قال تعالى: **﴿قالت الأعراب آمنّا، قل لم تُؤمنوا، ولكن قولوا: أسلمنا، ولمّا يدخُل الإيمان في قلوبكم، وإن تُطيعوا الله ورسولَه، لا يلتكُم من أعمالكم شيئاً إنّ الله غفور رحيم إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لمْ يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون...﴾**.

بهذا المقطع تختم سورة الحجرات التي بدأت بالحديث عن بعض الأعراب الذين جهلوا كيفية التعامل مع النبي(ص)، وانتهت بالحديث عن الأعراب الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم... وخلال هذه البداية المرتبطة بالأعراب، والنهاية المرتبطة بهم: طرحت السورة مفهوماً عن (العلاقات الاجتماعية في الإسلام) في ضوء المبدأ القائل **﴿المؤمنون إخوة﴾**: كما هو نص التعبير الذي طرحته هذه السورة الكريمة... لكن، بغض النظر عن هذا البناء العماري للنص، ينبغي أن نعرض لما طرحه المقطع الأخير من الموضوعات... لقد طرح المقطع قضية تتصل بالفارق بين الإسلام والإيمان، حين نزلت الآيات المرتبطة بهذا الموضوع: في طائفة أظهرت الإسلام من أجل مساعدتهم مادياً في إحدى السنوات المجدبة، لكن يظل النص القرآني الكريم ذا صفة (عامة) يتجاوز ما هو (الخاص) من الظواهر: ليطرح قضايا كليّة، منها: الفارق بين الإسلام والإيمان، فالإسلام هو الإنقياد أو الاستسلام للرسالة بسبب أو بآخر: كما لو كان من أجل الحفاظ على حياة الإنسان أو الخوف من السبي مثلاً أو الطمع بالمال... إلخ. وأما الإيمان فهو قناعة داخلية بالرسالة... لذلك من الممكن أن ينتفع الشخص دنيوياً حينما يظهر الشهادتين فيحقن دمه وماله إلخ... أما الإيمان فينتفع به دنيوياً وأخروياً: كما هو واضح...

بعد ذلك: طرح النص موضوعاً آخر هو قوله تعالى: **﴿يمنون عليك أن أسلموا، قل: لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان،**

إنْ كنتم صادقين﴾.

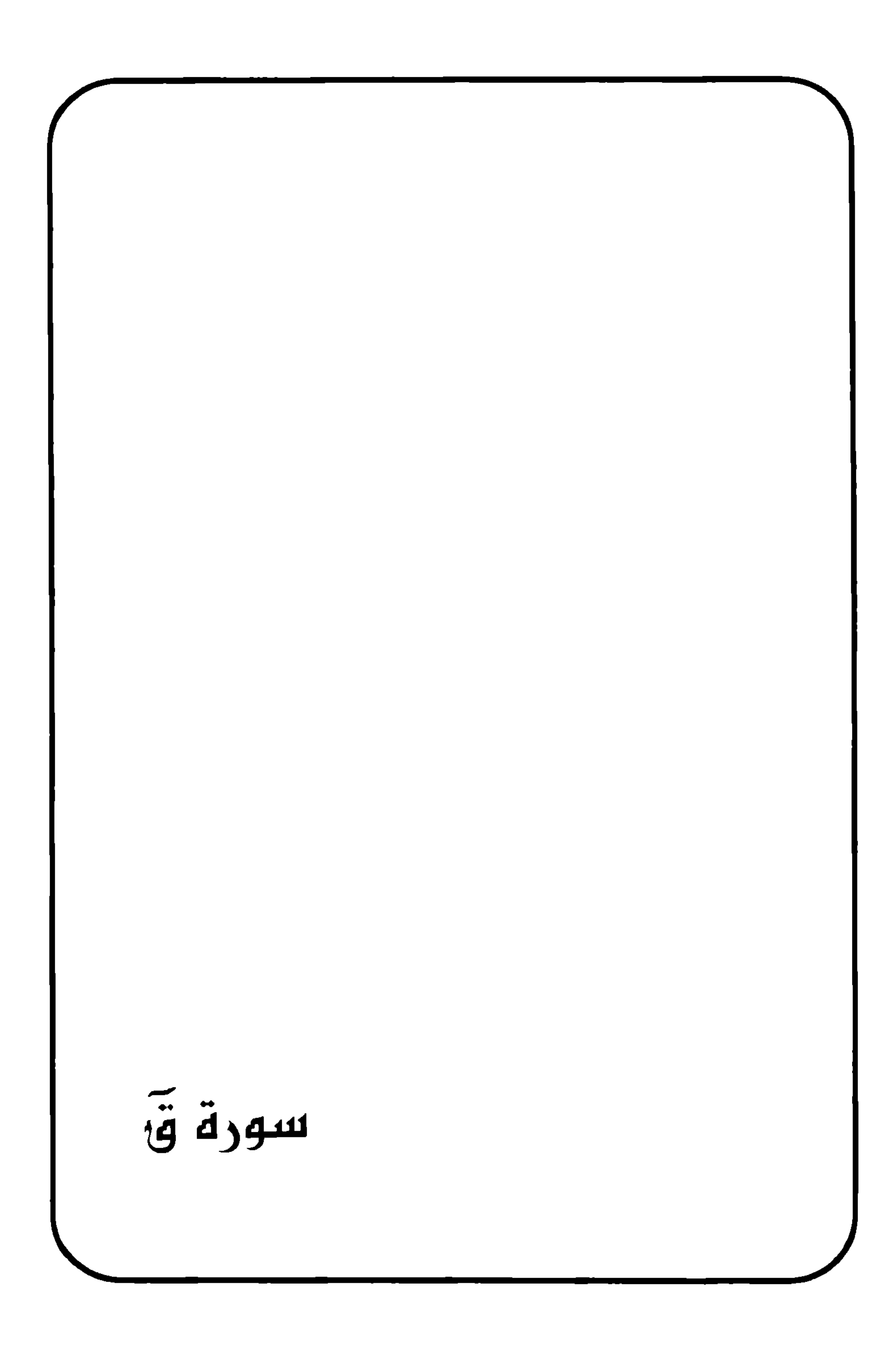
هذه الآية تتضمن طرحاً له أهميته الكبيرة، سواءاً كان ذلك من حيث «القيمة الفكرية» أو «القيمة الفنية» أي: من حيث علاقة ذلك بالمبنى الهندسي للنص...

أما من حيث القيمة الفكرية فيلاحظ أنّ هؤلاء النفعيين يمنون على النبي(ص) بأنّهم أسلموا... وهذا النوع من الإسلام أو الانقياد لا قيمة له حتى يمن به هؤلاء على النبي(ص)، فالانقياد للشيء من أجل الرغبة أو الرهبة الدنيويتين لا فائدة فيه ما دامت الرسالة الإسلامية لم تستهدف التحكم أو السيطرة على الناس حتى يمنّ أحد عليها بذلك... والمنّ إنّما يحتفظ بفاعليته في حالة واحدة هي: السيطرة الدنيوية للناس، فحيث يبحث الدنيويون عن متاع عابر هو التحكم والسيطرة، حينئذٍ سوف يهتزون طرباً لكل من يمنّ عليهم بالانقياد لهم... أما رسالة السماء فليست بحاجة إلى الآخرين بقدر ما يحتاج الآخرون إليها... ولذلك قالت الآية تعقيباً على هؤلاء الّذين يمنّون على النبي(ص) بإسلامهم، **﴿لا تمنوا عليّ إسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان﴾**.

هنا نواجه خصيصة فنية في هذا الجواب... فالملاحظ أنّ الآية لم تقل للناس أنّ الله هداكم للإسلام بل قالت أنّ الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان، في حين أنّ القوم قد منّوا على النبي(ص) بالإسلام... لنقرأ من جديد **﴿لا تمنوا عليَّ إسلامكم، بل الله يمنُّ عليكم أنْ هداكم للإيمان﴾**، فسياق الآية هو المنّ بالإسلام، والقارىء يتوقع أن يقول النص **﴿بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإسلام﴾** مقابل منّهم بالإسلام.. إلاّ أنّ النص أجابهم بأنّ الله يمن عليهم بالإيمان: مع أنّ الإيمان لا يطبع سلوك هؤلاء القوم بل الإسلام بمنأىً عن الإيمان... فما هو السرّ الفني في ذلك؟ السرّ واضح في هذا الميدان...

وذلك، أنّ هدف «الرسالة» هو «الإيمان» وليس مجرد «الإسلام» أو «الانقياد»:
لذلك لا يمن الله على الشخص في صفة لا يرتضيها الله (وهي مجرد الانقياد)
بل يمن على صفة إيجابية يغدقها الله على الإنسان وهي «الإيمان»، وأما الصفة السلبية فمن هوى النفس أو الشيطان...

والآن، إذا أدركنا هذا الجانب الفني للآية، أمكننا أن نربط بينها وبين فكرة السورة الكريمة التي تحوم على مفهوم (العلاقات الاجتماعية) من خلال مبدأ ﴿**المؤمنون إخوة**﴾ حيث أنّ هذا المبدأ لا يأخذ فاعليته من خلال العلاقات الزائفة ـ أي الانقياد المجرد عن «الإيمان» بل في خلال العلاقات الإيجابية التي يفرضها «الإيمان» بالله تعالى... وبذلك، يكون النص قد أحكم الهيكل العماري: من حيث تلاحم موضوعاته بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.



سورة قٓ

قال تعالى: **﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾**.

هذه الفقرة الأخيرة التي جاءت في مقدمة السورة تقول عن المكذبين برسالة الإسلام **﴿فهم في أمر مريج﴾** أي: أنّ المكذبين برسالة الإسلام هم في موقف مضطرب، وقد اختلط عليهم الأمر... (فكرة الاضطراب الذهني الذي يواجهه المنعزلون عن مبادىء الله) سوف تتجسد محوراً تحوم عليه موضوعات السورة كما سنرى، فهُم ـ كما تقول المقدمة ـ **﴿عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾** قالوا عن اليوم الآخر بأنّه: **﴿ذلك رجع بعيد﴾**، فالعجب من رسالة الله التي أنذر بها محمد(ص)، والتساؤل عن اليوم الآخر بأنّه رجع بعيد يكشفان عن سمة الاضطراب أو اختلاط الأمر عليهم بحيث يصدق على ذلك وصفهم بأنهم **﴿في أمر مريج﴾** كما يقول النص... والآن: لنتابع مقاطع السورة المختلفة التي ستحوم ـ كما قلنا ـ على فكرة الاختلاط الذهني لديهم، ثم ما يواكب ذلك من موضوعات يطرحها النص في الردّ عليهم، وفي التذكير بتجارب المجتمعات المماثلة لهم من حيث المصائر الكسيحة، التي واجهتهم، فضلاً عن المصائر الاخروية التي ستواجه جميع المنحرفين قديماً وحديثاً...

إذن، لنستمع إلى المقطع الجديد من السورة، وهو يبدأ بالرد عليهم ملفتاً النظر إلى الظواهر الكونية التي ينبغي أن يتعظ بها المشككون أو المضطربون ذهنياً...

يقول الرد:

﴿أفلم ينظروا إلىٰ السماءِ فوقَهم كيفَ بَنَيْنَاها وزيَّناها وما لها من فُروج والأرضَ مددنَاها وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كلِّ زَوْجٍ بهيج تَبْصرةً وذِكْرى لكلِّ عبدٍ مُنيب ونزَّلنا من السَّماء ماءً مُباركاً فأنبتَنا به جنّاتٍ وحبَّ الحصِيد والنَّخلَ باسِقاتٍ لها طلْعٌ نضيدٌ رزقاً للعبَاد، وأحْيَيْنا به بلدة مَيْتاً، كذلك الخُروجُ﴾...

إننا إذا تأملنا هذا المقطع بدقة نجد جملة من السمات الفنية الخطيرة قد طبعته... فأولاً من حيث البناء الهندسي ـ نجد أنّ هذا المقطع قد نهض بمهمة فنية هي: الربط بين مقدمة السورة التي عرضت الموقف المضطرب والمشكك للمنحرفين وبين الرد عليهم من خلال لفت نظرهم إلى السماء وكيفية بنائها، والأرض وكيفية مدّها، والجبال وكيفية إسرائها، والزرع وكيفية إنباته، والمطر وكيفية إنزاله وسقيه للأرض وإنباته الجنات وحبّ الحصيد والنخل والباسقات ذات الطلع... كل أولئك عرضه النص وعقب عليه قائلاً بأنّ ذلك **﴿تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب﴾**...

إذن، الربط العضوي بين مقدمة السورة وهذا المقطع من الوضوح بمكان كبير..

مضافاً لجمالية العمارة الهندسية بالنحو المذكور. نواجه جمالية جديدة في عرض الحقائق الكونية المتقدمة، فالمقطع لم يكتف بالعرض. الكوني وما تنطوي عليه الظواهر من المعطيات المختلفة مثل المطر والنبات والرزق بل رسم هذه الظواهر الإبداعية بما تنطوي عليه من الجمال الطبيعي أيضاً، فالسماء رسمت من خلال (الزينة)، والأرض رسمت من خلال كونها أنبتت **﴿من كل زوج بهيج﴾**، والمطر رسم من خلال كونه قد أنبت **﴿جنّات وحب الحصيد﴾**، والنخل رسمت من خلال كونها **﴿باسقات لها طلع نضيد﴾**...

لننظر إلى عبارات من أمثال ﴿**زيناها**﴾ ﴿**بهيج**﴾ ﴿**جنات**﴾ ﴿**وحب الحصيد**﴾ ﴿**باسقات لها طلع نضيد**﴾... لننظر إلى أمثلة هذه العبارات حتى نكتشف سريعاً مدى جمالية الطبيعة الكونية التي رسمها النص بهذا الشكل.

أخيراً، لننظر أيضاً كيف ربط النص بين هذه الظواهر الكونية التي ختمها بقوله ﴿**وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج**﴾. أقول لننظر إلى هذا الربط العضوي المحكم الجميل بين إحياء الأرض الميتة وإحياء الأموات في اليوم الآخر الذي شكك به المنحرفون: كما لحظنا ذلك في مقدمة السورة...

وللمرة الجديدة، نلفت الانتباه إلى الإحكام العضوي وجماليته أيضاً في هذا المقطع من السورة على النحو الذي فصلنا الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرَّس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع: كلٌ كذب الرُّسُل فحق وعيد أفعيِينا بالخلق الأول بل هم في لَبْس من خلق جديد**﴾.

هذا المقطع من سورة ﴿**ق**﴾ يتناول عرضاً قصصياً سريعاً لمجتمعات نوح، ولوط، وفرعون... إلخ... وكيفية تكذيبهم لرسالات السماء وما يترتب على التكذيب المذكور من الجزاء... والمهم ـ من الزاوية الهندسية لهذا المقطع ـ هو موقعه العضوي من السورة: حيث وظف المقطع لإلقاء الإنارة على فكرة السورة، وهي (فكرة) تحوم على صياغة الاضطراب الذهني الذي يطبع المنحرفين، ومنه: الاضطراب الذي يصدر عنهم حيال اليوم الآخر... فالنص يعقب على المجتمعات البائدة التي كذبت برسالات السماء: بما ترتب على ذلك من الجزاءات التي خبرها الناس يعقب على ذلك قائلاً ﴿**أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد**﴾ بمعنى: هل يعجز الله الذي خلق البشر أولاً عن بعثهم من جديد، وهو ما شكك به المنحرفون كما

قالت مقدمة السورة عنهم ﴿**أإذا مِتْنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد**﴾. . . وها هو المقطع الجديد يقرر بأن هؤلاء ﴿**هم في لبس جديد**﴾ أي: في اضطراب ذهني يطبع سلوكهم. . . وقبل ذلك، قالت السورة عنهم في مقطع سابق بأنّهم ﴿**في أمر مريج**﴾. . .

إذن، في كل مقطع من السورة يعرض النص لنا موضوعاً جديداً ثم يعقب عليه بأنّ المنحرفين يعانون اضطراباً أو اختلاطاً أو تشكيكاً ذهنياً في سلوكهم حيال رسالة الإسلام وحيال اليوم الآخر، فهم حيناً ﴿**في أمر مريج**﴾ وهم حيناً ﴿**في لبس**﴾، هكذا. . . وهذا ممَّا يقتادنا إلى ضرورة ملاحظة هذا الإحكام العضوي في النص ما دمنا نعنى بدراسة السورة القرآنية من خلال بنائها الفني وتلاحم موضوعاتها بعضاً مع الآخر. . .

ولو ذهبنا نتابع المقاطع اللاحقة من السورة، لأمكننا ملاحظة هذا الجانب الفني بوضوح. . . ولنقرأ.

﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقَّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يَلفِظ من قولٍ إلاّ لديه رقيب عتيد وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد**﴾.

إنّ هذا المقطع ختم حديثه عن تركيبة الإنسان وسلوكه بحديث النفخ في الصورة ويوم الوعيد، أي اليوم الآخر الذي شكك به المكذبون برسالة الإسلام، وهو نفس (الفكرة) التي تحوم عليها السورة بكاملها: حيث تستهدف رسم الظواهر التي تفصح من جانب: عن الاضطراب الذهني عند المنحرفين، وعن تثبيت مفهوم اليوم الآخر من جانب أيضاً. . .

وإذا تجاوزنا هذا الجانب الهندسي من المقطع واتجهنا إلى الأفكار الأخرى المطروحة فيه نجد أنّ النص يتحدث عن جملة من حقائق التركيب

البشري وسلوكه أي أنّه يستهدف طرح حقائق مختلفة نتعرفها من خلال تأكيده فكرة الشك عند المنحرفين وتكذيبهم اليوم الآخر. . .

فمن هذه الحقائق: ظاهرة الوسوسة أو الأفكار الداخلية الخبيثة في أعماق الإنسان، وهذه الأفكار أو الخواطر بما تستتليه من الأفعال لا تترك للإنسان عبثاً بل وكّل الله ملائكةً يراقبونها في سلوك الشخص **﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾**...

إذن، طرح النص في هذا المقطع إحدى حقائق السلوك البشري المتصل بعنصر (المراقبة) لهذا السلوك، فأوضح لنا أنّ السلوك البشري مراقب دون أدنى شك، وأنَّ الشخص ما يلفظ من قول إلاّ يتحمل مسؤوليته في اليوم الآخر، وهذه الحقيقة ـ في الواقع ـ لا ترتبط بالمشككين برسالات السماء، بل تتجاوزهم إلى مطلق الناس: بما في ذلك المؤمن أو المسلم الذي يتحمل بدوره مسؤولية سلوكه من حيث انحرافه عن مبادىء السماء، مما يعني أنّ النص طرح في آنٍ واحد إحدى الحقائق التي ينبغي أن يفيد الإنسان منها في تعديل سلوكه سواء كان ذلك متصلاً بالإيمان بالله، أو متصلاً بمطلق سلوكنا ـ نحن الإسلاميين، بالنحو الذي فصلنا الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كُل نفسٍ معها سائقٌ وشهيد لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنكَ غطاءَك فبصركَ اليوم حديد وقال قرينهُ هذا ما لديّ عتيد ألقيا في جهنّم كلَّ كفارٍ عنيد منّاعٍ للخيرِ معتدٍ مريب الذي جعلَ مع الله إلهاً آخر فألقياهُ في العذابِ الشديد قال قرينهُ ربَّنا ما أطغيتهُ ولكن كان في ضلالٍ بعيد قال لا تختصموا لديّ وقد قدمتُ إليكم بالوعيد ما يبدّلُ القولُ لديّ وَمَا أنا بظلّامٍ للعبيد يومَ نقولُ لجهنَّم هل امتلأتِ وتقول هل مِنْ مزيد﴾**.

إنّ هذا المقطع يتضمن جملة من الحقائق الفنية التي ينبغي الوقوف عندها... فمن حيث البناء الهندسي له، نجده يحوم على (الفكرة الرئيسة) في السورة، وهي فكرة الاضطراب الذهني عند المنحرفين وموقفهم من اليوم الآخر، وها هو (كفار، عنيد، مناع للخير، معتد، مريب الذي جعل مع الله إلها آخر)... إنّ هذا (المريب) الذي أشرك بالله: يجسد أولئك الشخوص الذين وصفهم النص في مقاطع سابقة بأنّهم **﴿في لبس﴾** وأنّهم **﴿في أمر مريج﴾** وأنهم **﴿مريبون﴾** في هذا المقطع الذي نتحدث عنه...

لكن، خارجاً عن العمارة الهندسية للمقطع، يحسن بنا أن نعرض لسائر الأفكار المطروحة فيه، حيث طرح النص من خلال الفكرة الرئيسية له: أفكاراً أخرى لا بدّ من الوقوف عندها للإفادة منها في تعديل السلوك البشري.

لقد كشف النص عن جملةٍ من حقائق (الموقف) في اليوم الآخر، منها: أنّ كل شخص سوف تسوقه الملائكة يومئذٍ نحو (الحساب) وسوف تشهد على سلوكه الذي سبق أن عرضه نص أسبق بأنّه (مراقب) من قبل إثنين **﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾**. سوف يشهد عليه المتلقيان أو الملائكة في هذا الصدد... عندئذٍ: ماذا سيكون موقف الشخص من هذا السوق والشهادة؟ **﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك، فبصرك اليوم حديد﴾**. إنّه ـ في لحظة الموقف ـ يفيق تماماً من غفلته التي صدر عنها في حياته الدنيوية فإذا بالملك الموكل به يقول **﴿هذا ما لدي عنيد﴾**، هذه هي قائمة سلوكه بكل تفصيلاتها (لنتذكر: أنّ المقطع الأسبق من السورة ذكر في حينه أنّ الشخص (ما يلفظ ـ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾...

لكن، هناك (قرين) آخر ونعني به: الشيطان أو الخواطر الشريرة التي دفعته إلى ممارسة الانحراف، يتقدم في الموقف أيضاً حيث يتحاور قائلاً

﴿**ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد**﴾. لا نغفل، أنّ هذه المحاورة تكشف لنا عن مدى المرارة التي سيواجهها المنحرف عندما يتبرأ منه شيطانه أو خواطره حينما ترد على المنحرف قائلة: (ما أنا أضللته بل هو الذي اختار ذلك الضلال). ثم لا نغفل عن ملاحظة المزيد من المرارة الشديدة التي ستواجه هذا المنحرف عندما يردّ الله على كلٍّ من الإنسان المنحرف وشيطانه الذي تقدمت محاورته: يردّ عليهما الله تعالى قائلاً ﴿**لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد**﴾...

إنّ هذا الرد: يزيد ـ دون أدنى شك ـ من تمزقات الشخص وشيطانه أيضاً: عندما يواجهان: بأنّ كلاً منهما قد أهمل بهذا الشكل، وردّ بهذا النحو من الكلمة، الحاسمة، المهشمة لشخصيتها...

أخيراً، يختتم المقطع بهذه الصورة الفنية التي ينبغي ألاّ يغفلها المتلقي أيضاً وهو يواجه هذا الرسم للموقف لدى المنحرفين بما يستتبعه من الجزاء الذي سينتهون إليه، حيث يقول النص: ﴿**يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ؟ وتقول هل من مزيد؟**﴾ إنّ هذه الصورة الفنية تنطوي على أكثر من إثارة مدهشة... فهي باعتمادها عنصر التحاور بين الله تعالى وجهنم: (الله تعالى) حيث يقول لها: ﴿**هل امتلأت؟**﴾ وجهنم حيث تقول له: ﴿**هل من مزيد**﴾. هذا النمط من التحاور يقدم بطريقة غير مباشرة: (فكرة) أنّ (الانحراف) لا يضر الله تعالى شيئاً بقدر ما يضر المنحرفين أنفسهم، وإلى أنّ (جهنم) ـ أعاذنا الله منها ـ مستعدة لتلقي المزيد من المنحرفين بنفس الاستعداد الذي صدر عنه المنحرفون حينما أصروا على إشباع رغباتهم الشريرة في الحياة الدنيا... مضافاً لذلك، فإنّ المحاورة ذاتها بما تنطوي عليه من جمالية في الصياغة، تساهم بشكل ملحوظ في تعميق الدلالة التي استهدفها النص، بصفة أنّ (التحاور) بدلاً من مجرد (الرد) يفصح بشكل أشد عن دقائق الموقف

وتفصيلاته مما يفضي بالمتلقي إلى مواجهة المزيد من الإثارة التي يستهدفها النص من هذه الصياغة.

* * *

قال تعالى: ﴿**وأزلفت الجنّة للمتّقين غير بعيد هذا ما توعدون لكلِّ أوابٍ حفيظ من خشيَ الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلامٍ ذلك يوم الخُلُود لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد**﴾.

هذا المقطع يتحدث عن بيئة الجنة بعد أن كان المقطع الذي سبقه يتحدث عن بيئة جهنم... المهم ليس هو البيئة بقدر ما تتجسد الأهمية في السياق الفكري الذي ورد فيها هذا الرسم لبيئة الجنة... لقد قدم المقطع مجموعة من السمات التي يشدّد الإسلام عليها في مطالبة الإنسان بممارسة وظيفته العبادية في الأرض، فالجنة أزلفت ـ كما يقول المقطع ـ للمتقين الذين تطبعهم السمات التالية (الأواب) (الحفيظ) (الذي يخشى الرحمان بالغيب) (الذي يجيء بقلب منيب). وهذه السمات ـ كما هو بيّن ـ تتصل بالشخصية الإسلامية (مع أنّ فكرة السورة تحوم على عرض سمات الكافرين، المشككين، المتمردين على حقيقة اليوم الآخر) إلاّ أنّ النص يستهدف في الآن ذاته تقديم حقائق عبادية يفيد منها المؤمنون في غمرة وقوفهم على جانب من سلوك المنحرفين... إنّه لا يستهدف مجرد حمل الشخص على الإيمان بالله تعالى، بل الالتزام بأرفع مستويات العمل العبادي مثل الأواب إلى الله، والحافظ لمبادئه، والخائف منه، والمواظب على ذلك... ويلاحظ أنّ الجنة التي رسمها الله في هذا المقطع للأشخاص المذكورين قد عقب عليها بقوله: ﴿**لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد**﴾. إنّ تلويح المقطع بأنّ للمتقين (المزيد) لما يشاؤون، إنّما هو في الواقع موازنة فنية بين مقطع أسبق ختم حديثه عن المنحرفين بقوله: ﴿**يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد**﴾ بينما

يختم المقطع المتحدث عن الجنة بقوله **﴿ولدينا مزيد﴾ إذن: هناك مقابلة بين** طلب جهنم: المزيد من المنحرفين لاحتوائهم فيها، وبين طلب الجنة: المزيد من النعيم للمؤمنين... وهذا التقابل بينهما فضلاً عما ينطوي عليه من موازنة هندسية تربط بين أجزاء السورة ـ ينطوي أيضاً على دلالات مهمة ترسم الفارق بين جزاء الكافرين الذين لا تبالي جهنم باستقبالهم وبين جزاء المؤمنين الذين لا تبالي الجنة باستقبالهم أيضاً، مما يؤكد الحقيقة الذاهبة إلى أنّ المعصية لا تضر إلاّ صاحبها وأنّ الطاعة لا تنفع إلا صاحبها دون أن يؤثر ذلك على فاعلية الله تعالى...

بعد أن تحدثت المقاطع السابقة عن الجزاء الأخروي بنمطه: السلبي والإيجابي، عاد النص إلى عرض حقائق جديدة تتصل بسلوك المنحرفين، قائلاً: **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هم أشد منهم بطشاً فنقّبوا في البلاد هل من محيص إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾**.

إنّ هذه العودة التي رسم من خلالها سلوك المنحرفين، جاءت في سياق جديد، هو مواجهتهم الموت الذي لا تشكيك فيه، بينما كانت المقاطع السابقة تتحدث عن مواجهتهم العقاب الدنيوي. لذلك استثمر المقطع هذا الجانب ليؤكد على ضرورة التأمل الذهني لمواجهة الموت **﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾**...

بعد ذلك: عاد النص أيضاً إلى الاستشهاد بفاعلية الله في خلق السماوات والأرض، قائلاً: **﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب﴾** ... وقد سبق للنص أن استشهد بالظواهر الابداعية في هذا الصدد، إلاّ أنّ إشارته لخلق السماء والأرض هنا، جاءت في سياق جديد أيضاً هو الربط بين الإيجاد والأمانة، بينما كانت المقاطع السابقة تتناول الربط بين الإيجاد والإحياء من جديد...

المهم، أنّ النص عقب على ذلك كله بمخاطبة النبي(ص) **﴿فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوعِ الشمس وقبلَ الغُروب ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود﴾** فهذا المقطع ينطوي على جملة من الوظائف الفنية... إنّه أولاً يرسم للمبلغين الإسلاميين طبيعة الوظيفة التي ينبغي أن يمارسوها حيال الأشخاص الذين لم يتعظوا بما أمرهم الله به حينما قال لهم في مقطعٍ سابق **﴿انّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب... إلخ﴾**. والوظيفة هي: (الصبر) على أداء الرسالة بغض النظر عن تمرد المنحرفين... ثم: ممارسة الوظيفة الشخصية التي رسم المقطع هنا جانباً جديداً منها في غمرة المبادىء المتنوعة التي طرح النص في كل مقطع من السورة: قسماً منها... هنا، يطرح النص ظاهرة التسبيح بحمد الله في الأوقات الخمسة: عند صلاة الصبح، الظهر، العصر، المغرب، العشاء... بمعنى أنّ النص يستهدف رسم الأبعاد المختلفة للعمل العبادي، سواء أكان ذلك العمل: اجتماعياً يتصل بتبليغ رسالة الإسلام، أم عملاً فردياً يتصل بالصلاة، وسواء أكان ذلك عائداً إلى الإسلاميين أم إلى المنحرفين، ففي الحالات جميعاً ثمة (دلالات فكرية) تستهدف السورة طرحها من خلال (فكرة رئيسية) تحوم عليها، ثم تطرح في تضاعيفها جملة من المبادىء التي وقفنا على تفصيلاتها، بغية حمل المتلقي على تعديل سلوكه: إن كان منحرفاً وتصعيده: إن كان ملتزماً.

* * *

قال تعالى: **﴿واستمع يوم يُـنـادِ المُنـادِ من مكانٍ قريبٍ يوم يسمعون الصَّيحة بالحقِ ذلك يوم الخروج إنّا نحن نُحيي ونميت وإلينا المصير يومَ تشقَّقُ الأرض عنهم سِراعاً ذلك حشر علينا يسيرٌ نحن أعلمُ بما يقولون وما أنت عليهم بجبارٍ فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾**.

هذا المقطع الذي ختمت به السورة، يقدم خلاصة الأفكار المطروحة في

أقسام السورة جميعاً. . . فالسورة بدأت تتحدث عن المشككين الذين قالوا: **﴿أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾**. وها هي الآن في ختام السورة تقدم جواباً لأولئك الذين قالوا أولاً **﴿أإذا متنا وكنا تراباً﴾** فتجيبهم: **﴿واستمع يوم ينادِ المنادِ﴾**، ثم قالوا ثانياً: **﴿ذلك رجع بعيد﴾** فأجابتهم السورة الآن: **﴿يوم ينادِ المنادِ من مكان قريب﴾**...

لننظر إلى هذه الموازنة الهندسية الدقيقة بين السؤال المطروح في أول السورة والجواب عنه في آخر السورة، السؤال الذي يقول عن الانبعاث **﴿ذلك رجع بعيد﴾** والجواب الذي يقول عن الانبعاث أنه **﴿من مكان قريب﴾**. . .

السؤال الذي ينفي أو يشكك بإحياء النفوس بعد الموت، والجواب الذي يقول في ختام السورة **﴿يوم يسمعون﴾** الذي يؤكد قائلاً في في ختام السورة **﴿إنّا نحن نُحيي ونميت وإلينا المصير﴾** ثم **﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير﴾**. لننظر جديداً كيف أنّ النص يؤكد بأنّ انشقاق الأرض عن الناس يتميز بكونه (سريعاً) مقابل قول المنحرفين بأنّ ذلك (بعيد)، ثم كيف يؤكد لهم أنَّ ذلك **﴿حشر علينا يسير﴾** مقابل قولهم باستحالة ذلك. . .

أخيراً، تختم السورة بالعبارة الآتية التي تطرح من جديد وظيفة المبلغ الإسلامي مقابل الانحراف الذي يصر عليه المستكبرون. . . فقد طالبت السورة المبلغ في مقطع اسبق بضرورة ممارسة (الصبر) على السلوك الصادر عن المنحرفين، **أما الآن** ـ في هذا المقطع الأخير من السورة ـ فإنّ المقطع يطرح مبدءاً آخر للمبلغ حيال المنحرفين المذكورين. . . إنّه يقول للمبلغ: **﴿نحن أعلم بما يقولون، وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾** فهنا جانبان، جانب يتصل بوظيفة المبلغ، وجانب يتصل بسلوك الآخرين ممن يمكن أن يهتدي إلى الصواب. . .

أمّا الجانب المتصل بوظيفة المبلغ فإنّ الجديد فيه ينسحب على المنحرفين، وهذا المبدأ له خطورته دون أدنى شك في عملية التبليغ... صحيح أنّ الاهتداء إلى الحق يظل طموحاً كبيراً عند المبلغ من حيث حرصه على إشاعة الحق، إلاّ أنّ ذلك لا يعني مشروعية (القهر) أو (الإكراه) في الدين، نظراً لعدم إنسحاب الضرر أو النفع من ذلك على فاعلية الله وإرادته، فقد سبق أن لحظنا أنّ السورة حرصت على أن تبرز للمتلقي دلالة معينة هي: أنّ الطاعة أو المعصية لا تضر الله شيئاً ولا تنفعه بقدر ما تنسحب المنفعة أو الضرر على الشخص نفسه وحينئذٍ لا قيمة البتة لأي تمرّد يصدر عنه المنحرفون...

وهذا من حيث الزاوية المتصلة بالله تعالى.

وأما من الزاوية المتصلة بالمنحرف نفسه، فإنّ عملية (الإكراه) لا يمكن أن تعطي ثمارها البتة إلاّ في حالات تتصل بما يسمى ـ في لغة الاجتماع ـ بمبادىء الضبط الاجتماعي، أي تحقيق التوازن أو الأمن الاجتماعيين من خلال ضبط الانحراف في نطاق الحياة الدنيوية الصرف... وأمّا في نطاق الحياة الأخروية، فلا قيمة البتة لأية ممارسة انحرافية ما دام الأمر لا يعكس أي تأثير على بيئة الآخرة حيث يتلاشىٰ المنحرفون ويفقدون جميع فعاليّاتهم. ليس هذا فحسب، بقدر ما يواجهون عملية (العقاب) عليها...

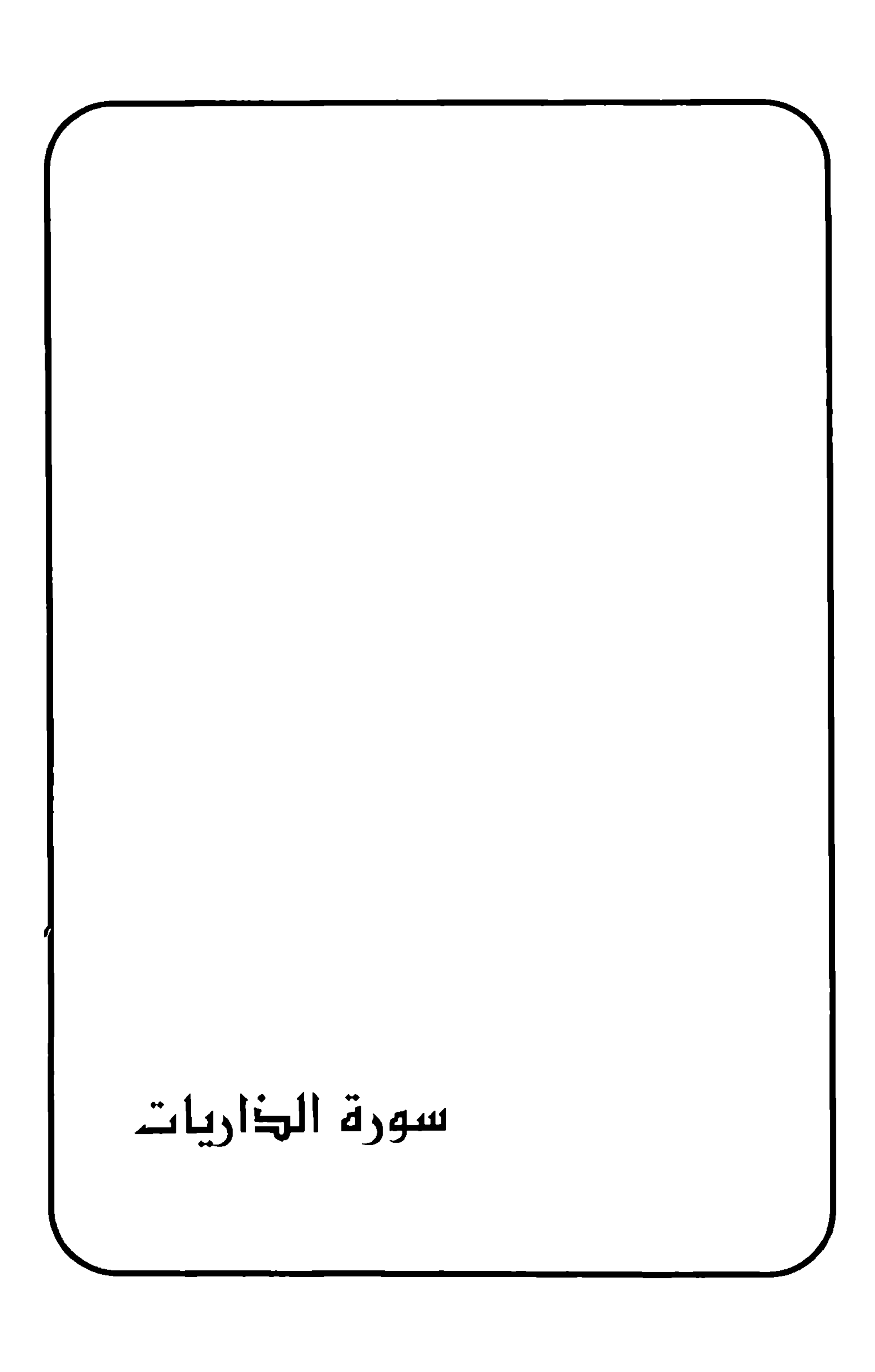
إذن، لا قيمة البتة لأي انحراف دنيوي: حتى يستتبع (إكراهاً) على تركه في نطاق الضبط الاجتماعي...

مضافاً لذلك، فإنّ (الإكراه) لا يفضي إلى معرفة الحق الذي يحرص المبلغون عليه، أي أنّه مضاد تماماً لما يحرض المبلغ عليه، وحينئذما جدوى الإكراه في الدين؟.

من هنا أشار نصّ القرآن الكريم إلى عدم مشروعية ذلك، وحصر الأمر

في الأشخاص المرشحين لتعليم السلوك الخير، حيث قال تعالى ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ أي: أنّ الأشخاص الذين يملكون استعداداً لتقبل السلوك الخير، ينبغي أن يذكروا بالقرآن، بمبادىء الإسلام، لأنّ المعيار هو (الاستعداد) أو عدمه، فمع حالة عدم الاستعداد لا فائدة من (الإكراه) في الدين، نظراً لعدم إمكانية تحقيق الهدف العبادي، وأمّا مع الاستعداد فإنّ إمكانية الإفادة من التبليغ، من التذكير بالقرآن، من التذكير بمبادىء الإسلام، تظل موضع مطالبة بالنسبة للمبلغ، وهو ما أكدته السورة في ختام حديثها عندما خاطبت محمداً(ص) قائله ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾.

* * *



سورة الذاريات

سورة الذاريات على هذا النحو:

﴿**بسم الله الرحمن الرحيم والذَّارياتِ ذرْواً فالحاملات وِقراً فالجاريات يُسراً فالمُقسِّمات أمراً إنما تُوعدُون لصادقٌ وإنَّ الدِّين لواقعٌ**﴾ يمكننا أن نقسّم هذه السورة (من حيث الهيكل الهندسي لها) إلى مقطعين أو قسمين، حيث يتناول كل مقطع منها موضوعاً خاصاً يتم الربط الفني بينهما بالنحو الذي نبدأ بتوضيحه لاحقاً... ولذلك نبدأ بالحديث عن المقطع الأول من السورة الكريمة، فنقول:

من الواضح أن الاستهلال بالشيء يكشف ـ كما عرفنا ذلك في غالبية النصوص القرآنية ـ عن كونه ذا أهمية يُستهدف توصيلها والتأكيد عليها... فإذا سبق هذا الاستهلال (قسم) ببعض الظواهر، حينئذٍ سنستكشف بأنّ الموضوع بالغ الأهمية وأنه سيكون موضع تأكيد النص، ومحوراً تحوم غالبية الموضوعات الأخرى عليه... وها هو النص يبدأ بالقسم بظواهر الرياح والسحاب والسفن والملائكة ليؤكد حقيقة هي:

﴿**إنما توعدون لصادق**﴾، ليس هذا فحسب، بل يؤكده ثانية من خلال التكرار لعبارة تحوم على المعنى ذاته لكن في تفاصيل أخرى منه، ففي الآية الأولى أكد النص على (صدق) الوعد باليوم الآخر، وفي الآية الأخرى أكّد النص على (مفروضية الواقع) لليوم المشار إليه، وبهذا التكرار من جانب، والتمهيد له بالقسم من جانب آخر، والتأكيد عليه بأدوات بلاغية مثل (أن) و(لام التأكيد) من جانب ثالث، واستهلال الموضوعات به من جانب رابع: يكشف عن أن الحديث عن اليوم الآخر سوف يحتل موقعاً مهمّاً من النص

القرآني الكريم.

فلنتابع موضوعات السورة...

إن أول ما يواجهنا من الموضوعات بعد القسم والإشارة إلى اليوم الآخر، هو قوله: **﴿والسماء ذات الحُبك إنّكم لفي قولٍ مختلفٍ يُؤفك عنه مَن أُفِك قُتل الخرّاصون الذين هم في غمرة ساهون يسألون أيّان يومُ الدِّين...﴾**.

الملاحظ، أن النص يعود إلى (القسم) من جديد **﴿والسماء ذات الحبك...﴾** وهذا يعني أن موضوعاً آخر أو أن الموضوع الذي طُرح سابقاً، ستكون له أهميته وتأكيده أيضاً... وبالفعل، نجد أن الموضوع نفسه مسبوقاً بموضوع آخر يرتبط به هو الذي أعقب ظاهرة القسم... الموضوع الجديد هو: اختلاف الناس في مواجهة رسالة محمد(ص)، وكونهم ساهين عن ممارسة مهمتهم العبادية، وأما الموضوع السابق (اليوم الآخر) فقد برز هنا، ليكون الطرح الوحيد الذي يعبّر عن غفلة وسهو المنحرفين، وهذا يعني (من زاوية العمارة الفنية للسورة) أن (اليوم الآخر) هو المستهدف أساساً... وهذا ما يتسق تماماً مع (استهلال) السورة الكريمة بموضوع **﴿إنما توعدون لصادق وان الدين لواقع﴾**.

إذن، أمكننا أن نتبيّن تماسك وجمالية البناء الهندسي للنص من حيث الخطوط التي طرحها النص وطريقة ذلك في صياغتها المفضية إلى تأكيد حقيقة (اليوم الآخر) وكونها (محوراً) يحوم النص عليه...

فلنتابع ـ إذن ـ موضوعات السورة...

﴿يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾.

وهكذا نجد أن النص ينتقل من الحديث عن (اليوم الآخر) ـ من حيث صدقه وواقعيته ـ إلى ما يتعيّن فيه من الجزاء الذي كان المنحرفون يسخرون منه قائلين (إيّان يوم الدين)، بعد ذلك يطرح النص الجزاء الإيجابي في اليوم

الآخر: ﴿**إن المتقين في جنّات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم**. . .﴾ لنلاحظ جمالية البناء الهندسي للنص من خلال هذا المنحى الفني الذي سلكه في طرح ظاهرة (اليوم الآخر) و(جزاءاته) وأسباب ذلك. . . إنه بدأ الحديث عن أن اليوم الآخر حقيقة لا شك فيها، وبدأ يطرح ظاهرة المشككين به، ثم بدأ يطرح الجزاء السلبي للمشككين به، ثم بدأ يطرح ما يقابل هؤلاء وهو الجزاء الإيجابي للموقنين به، ثم بدأ يطرح (الأسباب) التي جعلت المؤمنين يظفرون بمثل هذا الجزاء الإيجابي، ثم حددها في مفردتين من السلوك هما: ممارسة صلاة الليل، والانفاق. . . وهكذا ـ من خلال المنحى الفني الذي ربط الموضوعات بعضها مع الآخر ـ وصل بنا النص إلى طرح ظواهر عبادية تمثل أهمية كبيرة لدى الله. . . إنها ظاهرة قيام الليل وظاهرة الانفاق، لكن أيّ قيام وأيّ إنفاق؟ القيام هنا يعني صلاة الليل (حسب النصوص المفسرة). . . و«الإنفاق» هنا يعني الانفاق المندوب وليس «الواجب» «حسب النصوص المفسرة» أيضاً. . .

إذن، نحن أمام طرح لموضوعين (مندوبين) مما يكشف عن أهمية هذين الموضوعين وكونهما سمة للمتقين. . . فالصلاة الواجبة (كاليومية وغيرها) تظل أمراً يتطلبه أبسط مبادىء العبادة، وكذلك الانفاق الواجب: كالخمس والزكاة يظل أمراً لا مناص من ممارسته لما هو الأدنىٰ في من متطلبات العبادة، لذلك، فإنّ تجاوز ما هو (واجب) إلى ما هو مندوب يظل هو الهدف الذي يؤكّده النص متمثلاً في صلاة الليل والانفاق المندوب. . .

بعد ذلك يتجه النص إلى طرح ظواهر عبادية أخرى في سياق طرحه للظاهرتين المذكورتين، وهذا من نحو قوله تعالى متابعاً ﴿**وفي الأرض آياتٌ للموقنين وفي أنفسكم أفلا تُبصرون وفي السماء رِزقكُم وما تُوعدون فوَرَبِّ**

السماء والأرض إنه لحقٌ مثل ما أنَّكم تنطقون﴾ . . .

هنا نواجه جمالية فائقة (من حيث العمارة الفنية للنص) حيث نجد أن طرح الموضوعات الجديدة (إبداع الأرض) وكونه دليلاً واضحاً لحقيقة الله تعالى والإسلام، و(إبداع) الإنسان ثم (الرزق) أو (المطر)، كون أولئك جميعاً (أدلة) على الوحدانية، من جانب و(عطاءاً) من الله تعالى من جانب آخر، كل ذلك تم طرحه من خلال الربط بين (اليوم الآخر) وبين هذه الموضوعات التي يستهدف توصيلها إلى المتلقي. . . لكن مما يضفي مزيداً من الجمالية على مثل هذا البناء الهندسي للموضوعات هو: رسمها من خلال خطوط (التناسق) بينها وبين الخطوط العامة التي رسمها في مقدمة السورة. . . فالقسم تكرّر هنا للمرة الجديدة **﴿رب السماء والأرض﴾** ليتناسق مع (القسم) السابق **﴿والذاريات﴾** **﴿والسماء ذات الحبك﴾**. . . وصياغة العبارات جاءت هنا تتناسق مع العبارات التي وردت في مقدمة السورة، حيث نجد أن ما ورد في المقدمة **﴿إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾** قد تجانس مع ما ورد في هذا المقطع الذي نتحدث عنه الآن، متمثلاً في عبارة **﴿إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾** فجواب القسم من جانب، واقترانه بـ «أنّ» و«اللام» التوكيديّتين من جانبٍ ثان، ومجانسة عبارة (لحق) لعبارتي (لصادق) و(لواقع) من جانب ثالث: تكشف جميعاً عن مدىٰ جمالية النص الفائقة وما يواكبها من الإمتاع الفني الذي يتحسسه المتلقي عبر مواجهته لهذه الصياغة (البنائية) للموضوعات. . .

المقطع (٢): يتناول هذا المقطع من السورة واحدة من الشرائح الاجتماعية التي واكبت حياة الرسالة، حيث سلك النص من خلالها منحى فنياً خاصاً هو: توظيف (العنصر القصصي) لإنارة هذه الشريحة، وجعله (مقدّمة) للحديث عن الإسلام ومبادئه، عن الإيمان وظواهره، عن السلوك وانعكاساته

على (اليوم الآخر)، حيث قلنا بأن هذا الموضوع (أي: اليوم الآخر) سيظل هو المحور الفكري الذي يقوم عليه «هيكل» السورة الكريمة... ولذلك نلاحظ جملة من الطرائق الفنية التي سلكها النص في عملية الربط العضوي بين مقدمة السورة ونهايتها، بين المقطع الأول والثاني منها، بين موضوعاتها المختلفة التي (وصل) النص بينها جميعاً بنحو فائق وممتع...

لقد ختم النص موضوعاته بالآية الكريمة: ﴿**فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون**﴾... لننظر إلى هذا الختام الفنّي للسورة وصلته بـ (الاستهلال) لها، حيث لحظنا أن أول موضوعات السورة تمثل في الآية ﴿**إنما توعدون لصادق**﴾ وحيث نلحظ الآن آخر موضوعات السورة تمثل في الآية ﴿... **يومهم الذي يوعدون**﴾... لاحظ العبارة (توعدون) في مقدمة السورة، وعبارة (يوعدون) في نهاية السورة، تجد أن العلاقة بين بداية السورة ونهايتها قد بلغت قمة الإحكام والتماسك والتواشج والترابط في عملية البناء الهندسي للنص... أنها العلاقة المتمثلة في ما يطلق عليه مصطلح (النمو القصصي) ويُقصد به أن الموضوع الذي يُطرح في البداية يمرّ بمراحل من النمو أو الرشد ـ تماماً كما هو طابع الكائن الحيّ الذي يبدأ من مرحلة الطفولة فالرشد إلخ ـ... فالموضوع الذي طُرح في مقدمة يقول ﴿**إن ما توعدون لصادق**﴾، إنه يخبر بأنّ اليوم الآخر وجزاءاته: حيث توعدون بمجيئه لصادق... وها هو ـ في نهاية السورة ـ يقول ﴿**فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون**﴾، هذا (الوعد) بدأ في السورة مجرد تلويح بأنّه (سيقع)... ثم جاء وسط السورة ليوضح بأنّ ما وُعِدوا به واقع فعلاً ﴿**يوم هم على النار يُفتنون**﴾ ثم جاءت نهاية السورة لتقول ﴿**ويل**﴾ مما ﴿**يوعدون به**﴾، حيث جاء ﴿**الويل**﴾ نتيجة للعذاب الذي يقع ، وحيث جاء العذاب نتيجة لما وُعدوا به، وحيث جاء ما (وعدوا) به: نتيجة لتكذيبهم به وسخريتهم منه (يسألون أيان يوم الدين)، والأهم من ذلك أن عبارة (توعدون) التي وردت في أول الموضوعات

وآخرها من السورة الكريمة تشكّل الرابط العضوي المُحكم بين قسمي السورة الكريمة. . .

وأمّا الموضوعات التي طرحت في القسم أو المقطع الثاني، فإنّ البناء الهندسي لخطوطها يتمثل في الإشارة إلى قصص الماضين و في مقدمتها قصة إبراهيم عليه السلام وتداخلها مع قصة لوط، حيث أوضحنا في دراساتنا لسور القرآن الكريم التي سبق الحديث عنها، طبيعة البناء الفنّي لقصص إبراهيم وتداخلها مع قصص لوط فيما لا حاجة إلى إعادة الحديث عنها، وما نعتزم ذكره الآن هو: الإشارة إلى المبنى الهندسي الذي سلكه النص في الربط بين قصص الماضين وبين قصة رسالة الإسلام ومن ثم: عملية الربط بين هذه الموضوعات وبين (ختام) السورة الذي ارتبط عضوياً بالنحو الذي أوضحناه. .

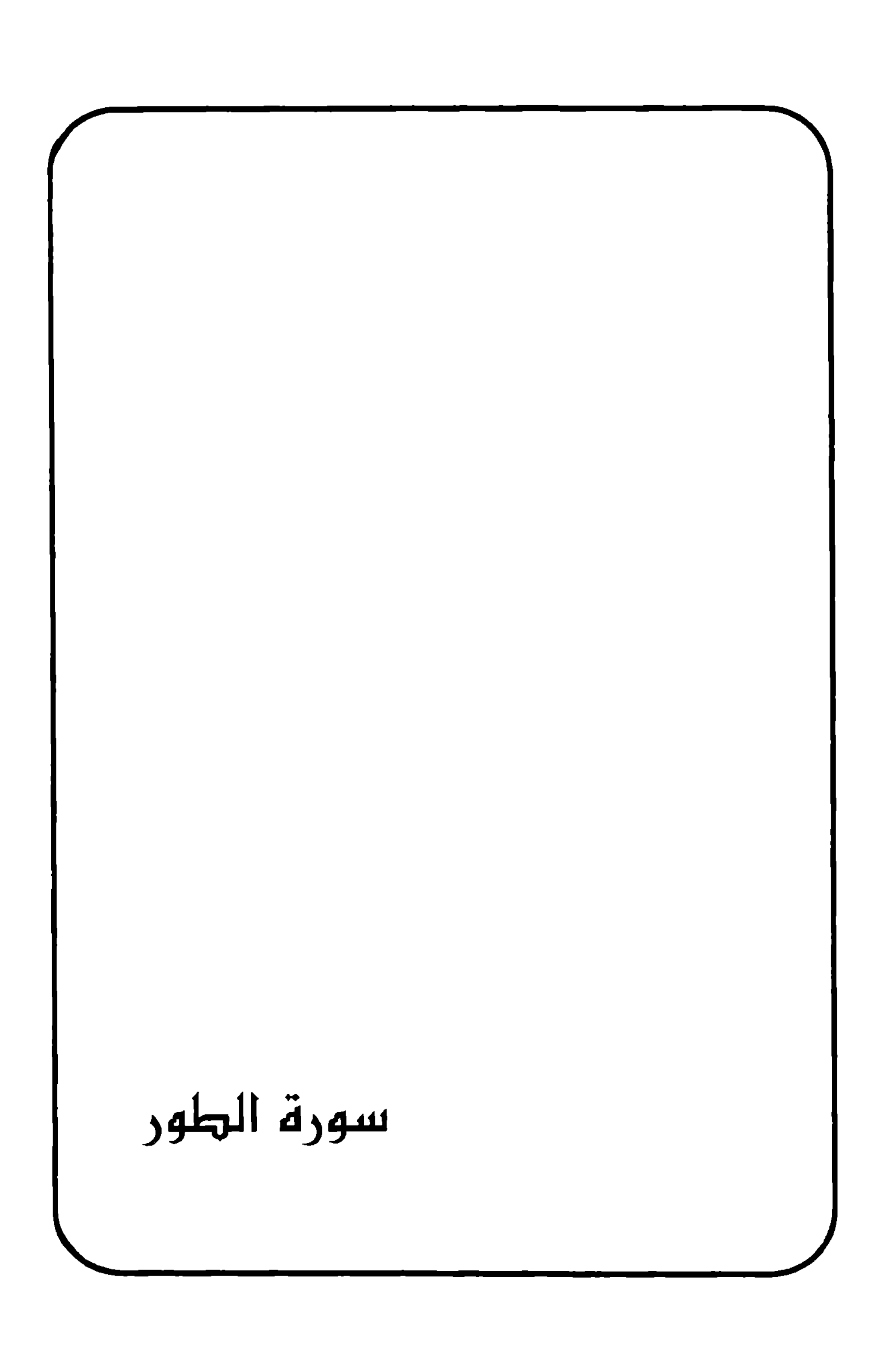
إن قصص الماضين تظل عنصر (إنارة)، لما لحق الأقوام البائدة من الجزاء الدنيوي، حيث يشكّل هذا الجزاء (مقدمة) للجزاء الأخروي الذي تلوّح به السورة الكريمة. . . وأما الموضوعات المطروحة في هذا المقطع فتظل (من حيث البناء الهندسي لها) موضوعات طارئة يستهدف توصيلها إلى المتلقي: مع إيجاد (علاقة عضوية) بينها وبين ختام السورة، لقد ذكر النص ظواهر إبداعية بالنسبة إلى السماء والأرض ونحوهما **﴿والسماء بنيناها. . . والأرض فرشناها. . . إلخ﴾**، وطرح مفهوم (عدم الشرك)، وطرح أهم قضية عبادية هي قضية المهمة الأساسية للإنسان متمثلة في ممارسته (الخلافة في الأرض) **﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾** حيث تلخص هذه الآية الكريمة جوهر التجربة البشرية والهدف من إيجادها هو: العبادة لله تعالى. . .

والمهم بعد ذلك، أن يربط النص بين القصص وبين هذه الموضوعات وبين المحور الذي تحوم السورة عليه (أي: اليوم الآخر)، ربط النص بين هذه الموضوعات الثلاثة من خلال إشارته إلى التماثل بين الماضين وبين

المعاصرين لرسالة الإسلام بالنسبة إلىٰ المكذبين، ﴿**ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحر أو مجنون**﴾. وكذلك بالنسبة إلى (الجزاء) الدنيوي الذي ربطه النص بالجزاء الأخروي في قوله تعالى ﴿**فإنّ للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم، فلا يستعجلون فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون**﴾. وهكذا نجد أن النص قد أوجد (علاقات عضوية) بين الماضين والمعاصرين لرسالة الإسلام من حيث تماثلهم في الذنوب و ما ينتظر المعاصرين من جزاء قد استعجلوه، لاحظ قوله تعالى ﴿**فلا يستعجلون**﴾ وعلاقتها بمقدمة السورة التي رُسم فيها العذاب بقوله تعالى: ﴿**ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون**﴾ فعبارة ﴿**تستعجلون**﴾ جاءت هنا رابطاً عضوياً بين قسمي السورة من جانب، وجاءت رابطاً عضوياً بين قصص الماضين ومعاصري الإسلام من جانب آخر، وجاءت رابطاً عضوياً بينها وبين ختام السورة الذي لوّح بالويل للكافرين ﴿**من يومهم الذي يوعدون**﴾ من جانب ثالث...

إذن، أمكننا ملاحظة التفصيلات التي طبعت عمارة السورة الكريمة: من حيث بدايتها ووسطها وختامها، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *



سورة الطور

قال تعالى: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم والطور وكتابٍ مسطورٍ في رَقٍّ منشورٍ والبيتِ المعمور والسقفِ المرفوع والبحر المسجور إنّ عذاب ربّك لواقع ما له من دافع يوم تمور السَّماء موراً وتسير الجبال سيراً فويل يومئذٍ للمكذبين الذين هم في خوضٍ يلعبون﴾**.

بهذا المقطع تفتتح سورة «الطور»، حيث وردت فيه مجموعة من الأقسام بظواهر كونية ذات إبداعٍ مادي أو ذات دلالة عبادية وهي: الجبل أو جبل سيناء، والكتاب الذي قد يكون قرآناً أو صحيفة ملائكية عن أعمال العباد، والبيت المعمور الذي قد يكون الكعبة أو البيت الذي هو في السماء الرابعة بحيال الكعبة، والسماء، والبحر... هذه الظواهر ـ حينما يقسم بها ـ تعني: أنّ لها أهمية خاصة يستهدف النصُ لفت النظر إليها... ويُلاحظ أن النص القرآني الكريم قد رسم هذه الظواهر، مشفوعةً: إمّا بعنصر صوري مثل (والسقف المرفوع) حيث يرمز به إلى السماء، أو بعنصر وصفي مثل **﴿والبحر المسجور﴾**. ومثل **﴿وكتاب مسطور في رقٍ منشور﴾**، أو بغموض فنّي ذي استيحاءات متنوعة: كما هو طابع الغالبية من الظواهر المشار إليها... ومما لا شك فيه، أن هذه الخصائص الفنية التي واكبت القسم بالظواهر المذكورة، تضفي مزيداً من الإمتاعات الجمالية لدى القارىء أوالسامع، فالصورة الاستعارية أو الرمزية القائلة (والسقف المرفوع)، سوف تحقق إمتاعاً كبيراً لدى المتلقي حينما يجد بأنّ السماء قد رُمز لها بسقفٍ مرفوع، حيث أن (السقف) يجسّد ظاهرةً مألوفةً يومياً يحياها الشخصُ في بيته أو محل عمله أو مطلق البناء الذي يواجهه هنا وهناك... فإذا رُسم ذلك (السقفُ)، بكونه (مرفوعاً) وليس عادياً: كما هو سائر السقوف، حينئذٍ يتحسّس السامع أو

القارىء بأنّه حيال سقفٍ: له تميُّزه وجماليتُه ودهشتُه أيضاً، لأنّه يواجه سقفاً غير محدود بحيث يغطي جميع الأرض لا أنّه يغطي قسماً منها، كما يواجه سقفاً لا تناله غير حاسة البصر، فلا يمكن أن يلمسه أو يصل إليه أحد، إنه سقف يبعث الإثارة والدهشة والإمتاع الذي لا حدّ له: ليس من حيث ارتفاعه المعجز فحسب بل من حيث جمالية المرأى أيضاً، حيث يقترن بلونٍ خاص، وبهندسة خاصة، وبتزيينٍ خاصٍ بالشمس وبالقمر وبالنجوم وسواها. . .

إذن، كم تبدو مثلُ هذه الصورة الاستعارية أو الرمزية، مشحونة بدلالات ذات إثارة فائقة (من حيث الإمتاع الجمالي)، فضلاً عما تنطوي عليه من الدلالات الفكرية التي يستهدف منها النصُ توصيلها إلى المتلقّي. . .

المهم، أن النص أقسم بهذه الظواهر، ليُلفت النظر إلى أهميتها أولاً، وإلى دلالاتها العبادية ثانياً حيث يتداعى الذهنُ من خلالها إلى وجود الله تعالى وإبداعه، ثم ـ ثالثاً ـ يظلّ القسمُ بها (مقدّمةً) إلى هدف آخر هو: لفت النظر إلى العذاب الذي ينتظر المنحرفين عن مبادىء الله تعالى في اليوم الآخر، حيث قال النصُ ـ بعد قسمه بالظواهر المذكورة ـ **﴿ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع﴾**، أي: نستكشف من هذه العبارة وممّا سبقها من القسم، أن هدف ذلك هو: الإشارة إلى أن المنحرفين، ينتظرهم عذاب، واقع بهم في اليوم الآخر، لا محالة. . . ولا يمكن أن يُدفع عنهم العذابُ المذكور أبداً. . . وهذا هو تهديد بالغ الدلالة، يقترن، بما هو مرعب ومهول دون أدنىٰ شك. . . إذن (من حيث البناء الهندسي للنص) نستكشف أن سورة الطور سوف تُركّز على (العذاب) الذي ينتظر المنحرفين، وأنها سوف تركّز على سلوك المنحرفين في حياتهم الدنيا، ما دامت (مقدمةُ) السورة قد طرحت هذا المفهوم **العذاب الأخروي** ، وما دام (العذابُ) المذكور مرتبطاً بسلوك دنيوي: كما هو واضح، وبالفعل، سنرى في المقاطع اللاحقة من السورة، رسماً لمواقف

المنحرفين، ورسماً لنمط (العذاب) الذي ينتظرهم، حيث يكشف مثلُ هذا الربط بين (مقدمة) السورة وبين وسطها ونهايتها، عن مدى الإحكام الهندسي لعمارة السورة الكريمة.

* * *

قال تعالى: **﴿يوم تمُور السماء موراً وتسير الجبال سيراً فويلٌ يومئذٍ للمكذّبين الذين هم في خوضٍ يلعبون يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعّاً هذه النار التي كُنتم بها تكذّبون أفسِحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون اُصلوها، فاصبروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم إنما تُجزَون ما كنتُم تعملون﴾**.

هذا هو المقطع الثاني من سورة «الطور»، وكان المقطع الأول منها يتحدث عن العذاب الذي ينتظر المنحرفين **﴿إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع﴾**، حيث أجمل المقطعُ الأول، هذا العذاب، وحيث بدأ يفصّل ـ في المقطع الثاني الذي نتحدّث عنه الآن ـ نمط هذا العذاب وأسبابه ومقدماته...

أما مقدماته فتتمثل في عبارتي **﴿يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا﴾** أي: عند قيام الساعة، حيث نقل النص حادثتين كونيتين من الحوادث التي تقترن بقيام الساعة، وهما مورُ السماء وسير الجبال...

ونتساءل عن السر الفنّي من انتخاب هاتين الظاهرتين دون غيرهما من الظواهر التي تقترن بقيام الساعة، ونجيب، بأنّه من المحتمل أن يكون ذلك لأسباب، منها: ورود هاتين الظاهرتين في جملة الظواهر التي أقسم بها النصُ في مقدمة السورة حيث أقسم بالطور، والكتاب المنشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور، ثم انتخب منها ظاهرتي السماء والجبال بصفتهما أشدّ الظواهر الحسيّة بروزاً بالنسبة لأدوات البشر، فضلاً عما تتّسمان به من ضخامة وسعةٍ: مادةً ومرأىً، حيث أن السماءَ هي أوسع المرائي حجماً، وحيث أن «الجبال» أضخمها مادةً بالقياس إلى غيرها من

العيّنات الكونية التي يدركها البشر بحواسّه. . .

ويُلاحظ أن النص قد رسم زوال السماء والجبال من خلال طابعي المور والسير **﴿يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا﴾**. ومن الممكن أن يقترن هذا الرسمُ بما هو مجازي من الصور، كما يمكن أن يكون ذلك حقيقياً. . . حيث أنّ تصدّع السماء والجبال ورد رسمُه مقروناً ـ في كثير من الموارد ـ بصور مجازية مثل **﴿إذا السماء كُشطت﴾** تشبيهاً لها بالجلد الذي يُزال عن الجزور، ومثل **﴿فكانت وردة كالدهان﴾**، تشبيهاً لها بالدهان من جانب آخر. . . والمهم، أن مور السماء وسير الجبال، يمكن أن ينتسب إلى هذا النمط من الصورة التي تخلع طابع «المور» على السماء، وهو تردّد الشيء بين الذهاب والمجيء أواضطرابه بعامة، وطابع «السير» على الجبال، ولكن في الحالين ـ مجازاً وحقيقةً ـ فإنّ الرسم المذكور، يكشف عن تصدعهما وتلاشيهما في نهاية الأمر، إيذاناً وإشارة إلى قيام الساعة التي يعتزم النصُ من خلالها، التأكيد على العذاب الذي ينتظر المكذّبين بهذا اليوم ـ اليوم الآخر ـ لذلك، سرعان ما يردف النص ذلك بقوله تعالى **﴿فويل يومئذٍ للمكذّبين الذين هم في خوضٍ يلعبون﴾**. . .

إذن، بدأ الآن يتضح أمام المتلقي: الخيطَ الذي يربط بين (العذاب الواقع) الذي (ماله من دافع)، وبين أسبابه التي تتمثل في تكذيب المنحرفين بهذا اليوم، ثم كونهم **﴿في خوضٍ يلعبون﴾**. . . هذه العبارة الأخيرة **﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾** تتجسّد في كونها: صورةً فنيّة هي الاستعارة أوالرمز، فالخوض هو الدخول إلى الماء، و«اللعبُ» هو ممارسة الحركات العابثة. . . وقد خلعهما النصُ القرآني الكريم على سلوك المنحرفين، رامزاً بذلك إلى أنهم كانوا يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ويفكرون في الأمور العبادية على نحو اللهو والعبث، فكما يخوضُ الرجلُ في الماء، وكما يلعب لُعبَه التي يتلهى

بها: كذلك، يخوض في الأمور العبادية المرتبطة بحقائق القرآن، ورسالة الإسلام، واليوم الآخر، وسواها من الوظائف التي أوكلها الله تعالى إلى الإنسان، وأمره بأن يمارسها على الوجه المطلوب، بينما نجد أن المنحرفين قد مارسوا ذلك على وجه العبث واللعب... لذلك، ما أن انتهى المقطعُ القرآني الكريم من رسم هذه الحقيقة التي صدر عنها المنحرفون و هي ممارسة العبث واللعب، حتى أوضح نتائجها الأخروية بقوله تعالى **﴿يوم يُدعّون إلى نار جهنم دعّا... إلخ﴾** حيث قدّم رسْماً فنيّاً لطبيعة «العذاب» الذي ينتظر المنحرفين يومئذٍ، وهو أمر، سنتحدث عنه لاحقاً (إن شاء الله...)، إلاّ أننا هنا، نعتزم أن نشير إلى الهيكل الفنّي للنص من حيث علاقة هذه الموضوعات بمقدمة السورة التي أشارت إلى أن هناك عذاباً واقعاً لا مناص منه لأن عذاب ربك لواقع ماله من دافع، ثم ربطها (في المقطع الذي نتحدث عنه الآن) بخلفيات السلوك الدنيوي الذي يُفضي إلى ذلك (العذاب)، حيث يكشف مثل هذا النمط عن مدى الإحكام الهندسي للسورة الكريمة.

* * *

قال تعالى: **﴿يوم يُدعّون إلى نار جهنم دعّاً هذه النار التى كُنتم بها تكذّبون أفسِحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون أصلوها، فاصبروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم إنّما تُجزون ما كنتُم تعملون...﴾**.

هذا المقطع امتداد، لمقطع سابقٍ يتحدث عن (العذاب) الذي ينتظر المكذّبين برسالة الإسلام، وها هو يصف نمط «العذاب»، متمثلاً في: **﴿يوم يُدعّون إلى نار جهنم دعّا﴾**... والدعّ هو الدفع الشديد المصحوب بملامح عنيفة، وكان يمكن أن تُستخدم عبارة (الدفع) مثلاً، إلاّ أن (الدعّ) ما دام يمثّل شدّة الدفع مضافاً إلى إيقاعه الداخلي المتجانس مع شدّة الدفع، حينئذٍ يكون انتخاب هذه المفردة: سمة فنيّة لها إثارتها وجماليتها: بخاصة ما تنطوي عليه

من الأصوات الفخمة المتجانسة ـ كما قلنا ـ مع دلالاتها المعبّرة عن مدى الشدّة التي يواجهها المنحرف عند دخوله النار، وهي شدّة تتجانس أيضاً مع مقدّمة السورة التي أقسمت بالطور، والكتاب المسطور، والبيت المعمور والسقف المرفوع، والبحر المسجور، أقسمت بهذه لتقول بعدها: ﴿**إنَّ عذاب ربك لواقع ما له من دافع**﴾ فهذا التأكيد على العذاب الذي ماله من دافع، ينبغي ـ فنياً ـ أن يعقبه فعلاً: رسم للعذاب المتجانس مع التأكيد المذكور. . .

وندع هذا الجانب، لنلاحظ نمط «المحاورات» التي تصحب هذا العذاب الشديد، حيث يقول النص:

﴿**هذه النار التي كنتم بها تكذّبون أفسِحر هذا، أم أنتم لا تبصرون**﴾.

أن هاتين «المحاورتين»، تنطويان على أسرار فنية متنوعة، منها: الاقتصاد الفني في التعبير، ومنها: الاستيحاء الفني المتروك للقارىء فيما لم يملك معلومات مفصلة عن سبب «العذاب» الذي ينتظر المكذّبين، ولكن النص ـ من خلال المحاورة ـ جعله يستنتج بأنّ المنحرفين كانوا يكذبون بوقوع العذاب في اليوم الآخر، فالملائكة عندما يقولون للمنحرفين ساعة دخولهم النار ﴿**هذه النار التي كنتم بها تكذّبون**﴾، حينئذٍ نستنتج بأنّ المنحرفين كانوا يكذّبون بهذه النار، حيث لم تذكر السورة في المقاطع السابقة أيّ شيء عن هذا الجانب، لذلك، فإنّ جمالية مثل هذا الأسلوب الذي اضطلع بها عنصرُ «المحاورة»، تتمثل في الاقتصاد اللغوي أولاً، وفي الاعتماد على استيحاءات القارىء ثانياً. . . والأمر نفسه بالنسبة إلى «المحاورة» الثانية وهي قول الملائكة للمنحرفين: ﴿**أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون**﴾.

فمن خلال هذا (التحاور) نستكشف أن المنحرفين كانوا يتّهمون النبيّ(ص) بأنّه ساحر، وبأنّ القرآن النازل عليه هو كلام سحري، نستنتج ذلك من خلال تساؤل الملائكة ﴿**افسحر هذا**. . .﴾، وهذا التساؤل مصحوب،

بسمة فنية أخرى هي: عنصر «السخرية»، حيث أنهم عندما يقولون لهم: وهم يدخلون النار افسحر هذا...؟، يعني أنهم «يسخرون» من المنحرفين، لأنّ مواجهتهم للنّار تجعل الذهن يتداعى إلى أنهم كانوا يقولون بأنّ كلام النبيّ(ص) هو «سحر» ومن جملته: التلويح بعذاب اليوم الآخر:

وهكذا نجد، من خلال هذه «المحاورة» المحتشدة بعناصر شتّى من الأسرار الفنيّة، أن النص قدم لنا معلومات متنوعة مصحوبة بما هو ممتع وطريف من التعبير، حيث أن ترك القارىء بأن يساهم بنفسه في عملية «الاكتشاف» لدلالات النص، يُعدّ قمة في تحقيق الامتاع الفني: كما هو واضح. والأهم من ذلك (ما دمنا نُعنى ـ في هذه الدراسات ـ بتوضيح عمارة السورة الكريمة: من حيث علاقة أجزائها بالبعض الآخر) أن عنصر «المحاورة المشار إليه قد وُظّف ـ فنياً ـ من أجل إنارة «الفكرة» التي تستبطنها السورةُ الكريمة، ألا وهي: تفصيل ما أجملته «مقدمة» السورة التي أشارت إلى: ﴿**إنَّ عذاب ربك لواقع ما له من دافع**﴾، حيث اضطلع عنصر «المحاورة» بالكشف عن نمط العذاب الذي لوّحت به «المقدّمة»، بتوضيح أسبابه المتمثلة في تكذيب المنحرفين باليوم الآخر، وفي اتهامهم «محمداً»(ص) بالسحر، وحيث يُفصح مثل هذا الكشف عن مدى الإحكام الهندسي للسورة الكريمة.

* * *

قال تعالى: ﴿**إنَّ المتَّقين في جنّاتٍ ونعيم فاكهين بما آتاهم ربّهم، ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتُم تعملون متّكئين على سُررٍ مصفوفة وزوّجناهم بحور عِين والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمان، ألحقنا بهم، ذريَّتَهم، وما ألتناهم من عملِهِم مِن شيءٍ، كل امرىءٍ بما كسَبَ رهين...**﴾.

هذا المقطع وما بعده، يتحدث عن (النعيم) الذي ينتظر المؤمنين في

اليوم الآخر، وقد كان المقطع الذي سبقه يتحدث عن (العذاب) الذي ينتظر المنحرفين في اليوم الآخر: علماً بأنّ «فكرة» السورة الكريمة تحوم على «العذاب» المشار إليه، لكن، بما أنّ النص يطرح ضمن «فكرته العامة» أفكاراً أخرى، حينئذٍ فإنّ مقابلة أصحاب الجحيم بأصحاب الجنّة يأخذ مسوغه الفنّي دون أدنىٰ شك، بصفة أن مقابلة الشيء بما يضاده، يساهم في بلورة الشيء وتعميقه وتجلية دلالته: كما هو واضح... والمهم، أن النص يربط عضوياً بين رسمه للعذاب الذي ينتظر المنحرفين، وبين رسمه للنعيم الذي ينتظر المؤمنين، حيث نجد في نهاية المقطع، هذا الربط، متمثلاً في هذا الحوار الذي أجراه على لسان المؤمنين (وهم في الجنّة).

﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا: إنّا كنّا قبل في أهلنا مُشفقين فمنَّ الله علينا، ووقّانا عذاب السموم...﴾.

لنلاحظ، كيف أن النص ربط عضوياً بين مصائر المنحرفين والمؤمنين، حينما لوّح في بداية السورة بأنّ ﴿**عذاب ربك لواقع**﴾ بالنسبة إلى المنحرفين، وحينما قال في نهاية هذا المقطع ﴿**فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم**﴾ حيث نفى «العذاب» عنهم ـ واثبته بالنسبة للمنحرفين، وحيث جاءت عبارة (العذاب) هي العنصر الرابط من خلال نفي العذاب وإثباته بين الموضوعين اللذين قابل بينهما...

وبغض النظر عن هذا الجانب البنائي للمقطع، يحسن بنا أن نبيّن السمات الفنية التي واكبت رسم البيئة التي يحياها المؤمنون في الجنة، حيث جاء عنصر «الحوار» و«الصورة» يساهمان في إضفاء المزيد من «الجمالية» على الرسم المذكور. أما عنصر «الصورة» فقد حفل بها المقطع في جملة من الموارد، مثل ﴿**يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون**﴾، فهنا صورتان: صورة تنازع الكأس، وصورة اللؤلؤ

المكنون الذي شُبه الولدان بهم. . . أمّا الصورة الأولى فقد وصفها المقطع بأنه لا لغو في تعاطي الكأس بينهم ولا تأثيم، حيث أن انتفاء كل من اللغو والإثم في تعاطي الكأس، يتداعى بالذهن إلى السلوك الدنيوي الذي يواكبه اللغو والإثم في سلوك المنحرفين، حيث زاوج النص عبر هذا المنحى من الصياغة غير المباشرة ـ بين ذكره لحقائق النِعم في الجنة من جانبٍ، وبين ما هو منهيّ عنه من السلوك دنيوياً: من جانب آخر. . .

وأما عنصر «الحوار» فقد ساهم بنحوٍ ملحوظ في إضفاء «الجمالية» على المقطع: من خلال ربطه ـ كما قلنا ـ بين مقدمة السورة ووسطها، بين «العذاب» الذي ينتظر المنحرفين، وبين نفي العذاب عن المؤمنين. . . لقد جعل النصُ أصحاب الجنة، يتحدثون بأنفسهم عن أسباب هذا النعيم الذي يحيونه: ﴿**وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا: إنا كنّا قبل في أهلنا مشفقين. . . إلخ**﴾ هذه المحاورة تنطوي على أكثر من مهمّة فنيّة، منها: المقارنة بين موقفهم من اليوم الآخر، وبين موقف المكذّبين به. . . فأولئك كانوا (مشفقين) من العذاب ﴿**إنا كنّا قبلُ في أهلنا مشفقين**﴾، و هؤلاء كانوا ﴿**في خوضٍ يلعبون**﴾، أولئك (اشفقوا) من عذاب الله تعالى فأورثهم النعيم، وهؤلاء لم يأبهوا بذلك، فأورثهم الجحيم، إذن، ثمة (تقابل) بين الموقفين دنيوياً، وانعكاسهما أخروياً. . . وهذا التقابل بينهما، يظل واحداً من الخيوط التي تساهم في إحكام الربط بين موضوعات السورة الكريمة، فيما قلنا بأنّ مقدّمتها التي ركّزت على «العذاب» الذي نفاه المؤمنون حينما قالوا: ﴿**فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم**﴾، مُفصحاً بهذا التقابل بين الموقفين، عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص، بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

***

قال تعالى: ﴿**فذكّر، فما أنت بنعمتِ ربّك بكاهنٍ ولا مجنون ـ أم**

يقولون: شاعر نتربّص به ريب المنون قل: تربّصوا، فإنّي معكم من المُتربّصين﴾ .

هذا المقطعُ من سورة «الطور» يعرض لنا سلوك المنحرفين الذين أجمل النص في (مقدّمة) السورة سلوكهم بقوله تعالى: **﴿الّذين هم في خوض يلعبون﴾**، حيث يبدأ الآن بعرضٍ تفصيلي لسلوكهم المشار إليه. . .

ويُلاحظ، أنّ النص قد اعتمد عنصر «الحوار» في عرضه لهذا السلوك، مما يُضفي حيويّة وامتاعاً علىٰ هذا الجانب. . بخاصة أنّ عنصر «الحوار» لم ينحصر في ما هو «خارجي» بين طرفين، بل يتجاوزه إلىٰ أشكال أخرىٰ مثل «الحوار الذاتي» أو «الانفرادي»، ومثل الحوار «المتداخل» الذي يتم بين السماء والرسول(ص) من جانب، وبينه وبين المنحرفين من جانب آخر. . .

ويمكن ملاحظة هذه المستويات من الحوار: عند متابعتنا المقاطع التي عُرِضَ فيها سلوك المنحرفين، حيث بدأت علىٰ هذا النحو: **﴿فذكّر، فما أنت بنعمت ربّك بكاهنٍ ولا مجنون﴾**. هذه المحاورة بين السماء وبين الرسول(ص)، تكشف عن دلالات فنية متنوّعة، منها: أنّها تركت للقارىء (وهذا ما لحظناه في مقطع أسبق أيضاً)، بأن يستوحي بنفسه «من خلال المحاورة» سلوكَ المنحرفين، فعندما قال النص: **﴿فذكّر، فما أنت بنعمت ربّك بكاهنٍ ولا مجنون﴾**. لم يقل لنا أن الكافرين رسموه بأنه كاهن وبأنّه «مجنون»، النص لم يقل لنا: إنّ المنحرفين قد اتّهموا محمّداً(ص) بذلك، بل جعَلنا نستكشف ذلك: عندما نفىٰ عنه الكَهانة والجنون. . .

وهذا ـ كما سبق ـ من أشد الأساليب الفنية: إمتاعاً وإثارةً وحيويةً.

ولنتابع. . .

﴿أم يقولون: شاعر نتربّص به ريب المنون قل: تربّصوا، فإنّي معكم من المتربّصين﴾ . . .

هنا نواجه ـ محاورة «جديدة متداخلة»، أي: نواجه محاورة تنقل لنا ـ من جانب ـ ما يقوله المنحرفون، وتنقل لنا ـ من جانب آخر ـ ما تقوله السماء لمحمّد(ص)... أنّها تنقل لنا بأنّ المنحرفين يقولون بأنّ محمّداً(ص) ﴿**شاعر نتربّص به ريب المنون**﴾، أي: الموت أو حوادث الدهر بحيث يتخلّصون منه... ثم تنقل لنا، بأنّ السماء تخاطب محمّداً(ص) بأن يجيبهم قائلاً: ﴿**تربّصوا فإنّي معكم من المتربّصين**﴾، فالمنحرفون يقولون فيما بينهم بأنّ محمّداً(ص) «شاعر» ننتظر به أن يموت أو تأتي عليه حوادثُ الدهر فنتخلّص منه، والسماء تقول لمحمّد(ص): قل لهؤلاء المنحرفين: إنّي معكم أنتظر الموت أو حوادث الدهر...

والمثير فنيّاً في مثل هذه المحاورة المتداخلة، أنها تحفل بدلالات متنوّعة، منها: تقديم نمط آخر من الاتهامات بالنسبة إلى محمد(ص)، فقد كانت المحاورات السابقة تكشف ـ بأسلوب غير مباشر ـ عن اتّهامهم إيّاه بالسحر، وبالكهانة، وبالجنون...

وها هي المحاورة الجديدة، تكشف ـ بنفس الأسلوب غير المباشر ـ عن تهمة جديدة هي: الشعر، حيث يستكشف القارىء ـ من خلال المحاورة الجمعية فيما بين المنحرفين فيما نقلها المقطع بقوله: ﴿**أم يقولون: شاعر نتربّص به ريب المنون**﴾ يستكشف بأنّهم قد اتّهموه(ص) بكونه (شاعراً).. وهذا النمط ـ كما كرّرنا ـ يسلك نفس الأسلوب الذي يدع القارىء مستوحياً بنفسه، هذه التهمة للنبيّ(ص)، أي أنّ النص عندما تساءل قائلاً: ﴿**أم يقولون: شاعر**﴾ جعلنا من خلال هذا التساؤل من السماء، أن نستكشف ما قالوه في هذا الصدد... وهذا ما ينقلنا إلىٰ نمط ثالث من المحاورة القائمة علىٰ عنصر «التساؤل»، بصفة أنّ «التساؤل» حتىٰ لو لم يتقدّم به أحد إلى الآخرين بل اقتصر علىٰ توجيه السؤال أو الاستفهام أو التعجّب إلى «الذات»، يظل واحداً

من أشكال «المحاورة» التي تعني وجود طرف آخر يتّجه إليه السؤال: سواء أكان الطرفُ الآخرُ شخصاً يتّجه إليه السؤال، أو كان: «ذاته» التي يتّجه إليها بالسؤال. . .

والمهم، أنّ النص، بهذا النمط من «المحاورات»، كشف عن مستويات فنية أشرنا إليها، فضلاً عن مستويات فكرية تتمثّل في أنّ ما خُيّل للمنحرفين بأنّ الموت وحوادث الدهر كفيلة بأن تقضي علىٰ محمد(ص) ورسالته، قد ردّها النص على لسان محمد(ص) **﴿قل: تربّصوا فإنّي معكم من المتربّصين﴾**، أي أنّ الموت وحوادث الدهر، لا تشكّل خطراً عليه(ص)، وهذا رد يدمغ به النص أحلامِ المنحرفين ـ كما هو واضح. .

* * *

قال تعالى: **﴿أم تأمُرُهم أحلامُهم بهذا، أم هم قوم طاغون أم يقولون تقوّله، بل لا يؤمنون فليأتوا بحديثٍ مثلِهِ إن كانوا صادقين أم خُلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يُوقِنون أم عندهم خزائن ربّك، أم هم المصيطرون أم لهم سُلّم يستمعون فيه، فليأتِ مُستمعُهُم بسلطانٍ مبينٍ أم له البناتُ ولكم البنون أم تسألهم أجراً فهم من مغرمٍ مُثقلون أم عندَهُم الغيب فهم يكتبون أم يُريدُون كيداً، فالّذين كفروا هم المَكيدون أم لهم إلٰهٌ غيرُ الله، سبحان الله عمّا يُشركون﴾**.

هذا المقطع من سورة الطور، امتداد لسابقه من المقاطع التي تعرض سلوك المنحرفين. . . إلاّ أنّ هذا المقطع يحفل بدلالات فنية متنوّعة تجعله متميّزاً، مثيراً، ملفتاً للنظر: من حيث بناؤه الشكليُّ والموضوعي، أمّا بناؤه الشكليُّ فيقوم علىٰ صياغة فنية خاصة تعتمد بناءً لفظياً، وتكراراً، وتساؤلاً، وسخريةً وغيرها من أدوات الفن التي تضفي علىٰ النص جمالية مدهشة. . . فمن حيث البناء اللفظي نجد أنّ لفظة **﴿أم﴾** التساؤلية تتصدّر كل آية من

المقطع، البالغة ثلاث عشرة عبارة من نحو:

﴿أم تأمرهم...﴾ ﴿أم يقولون...﴾ ﴿أم خُلِقوا...﴾ ﴿أم هم الخالقون...﴾ ﴿أم خَلَقوا...﴾ ﴿أم عندهم...﴾ ﴿أم لهم...﴾ ﴿أم يريدون...﴾ إلخ.

وهذا «التكرار» الفنّي للعبارة المذكورة، قد اقترن بأداة فنية أخرىٰ ملازمة له هي: التساؤل أو الاستفهام، كما اقترنت بعنصر ثالث هو «السخرية» فضلاً عن اقتران هذا التساؤل الذي يجسّد «حواراً» مع «الذات»، بمحاورات أخرىٰ تنقل تقوّلات المنحرفين في بعض المواقف... أولئك جميعاً ـ كما قلنا ـ تشكّل أدوات إثارة فنية من حيث (الشكل الخارجي) للمقطع...

أما من حيث البناء الفكري أو الموضوعي، فإنّ كل «واحدة» من الآيات الكريمة التي تصدّرتها العبارة التساؤلية **﴿أم﴾** مرةً أو أكثر، تظلّ متضمنة لموقفٍ من سلوك المنحرفين، أو الردّ علىٰ الموقف المذكور، فمن مواقفهم المنحرفة: موقف الشرك بعامة، وتشريك البنت، والكيد للرسول(ص)، واتّهامه بالافتراء... إلخ. ومن نماذج الردّ عليهم والسخرية منهم: التساؤل عمّا لو خلقهم الله تعالى عبثاً، وعمّا لو كانوا خالقين، وعمّا لو كانت عندهم خزائن الله تعالى، وعمّا لو كانوا يعلمون الغيب... إلخ.

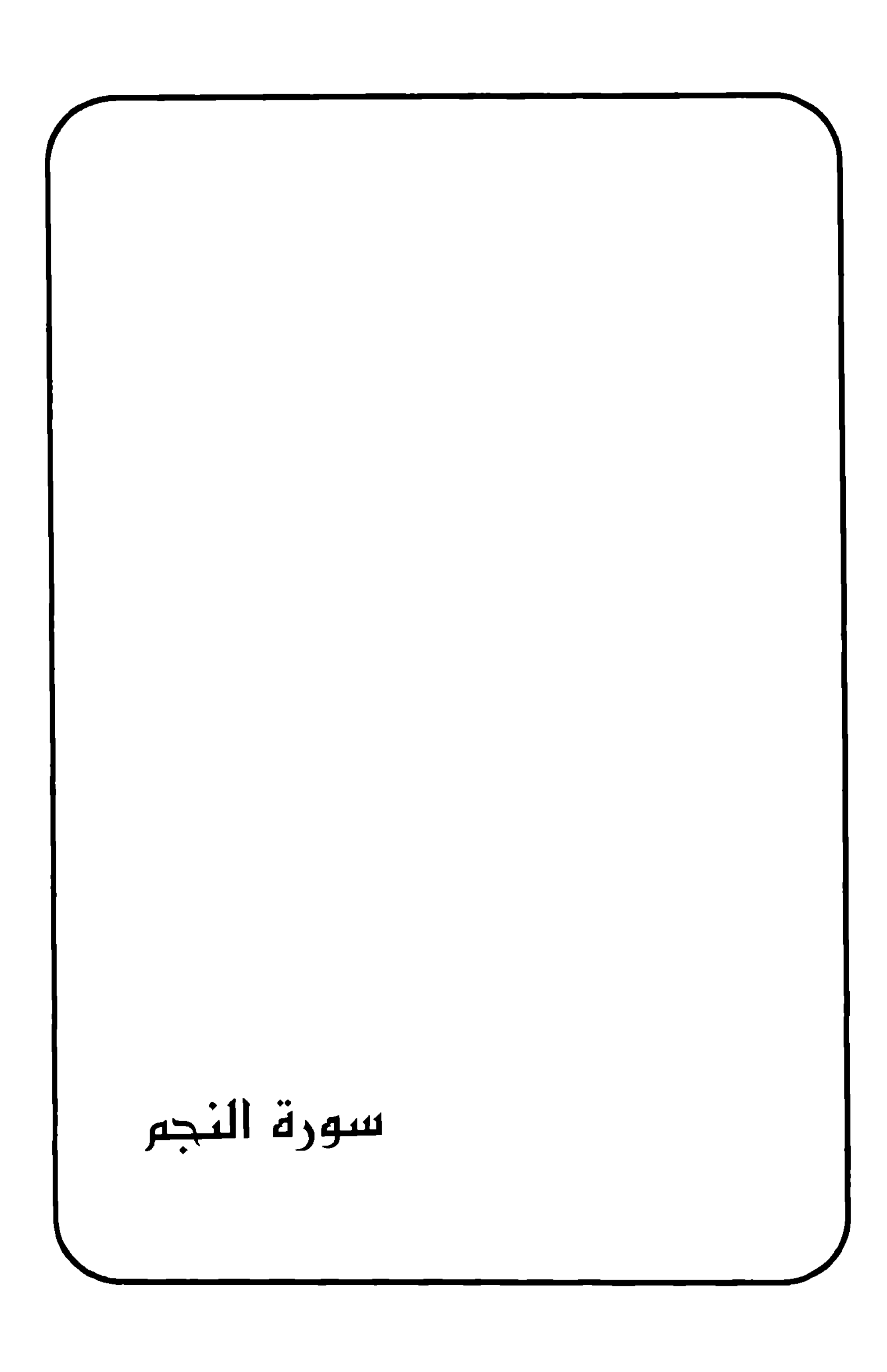
ويُلاحظ، أنّ عنصر «الصورة الفنية» الساخرة، قد أسهم بدوره في إضفاء قِيَم جمالية جديدة علىٰ المقطع، فمثلاً قوله تعالى: **﴿أم لهم سُلّمٌ يستمعون فيه، فليأت مستمعهم بسلطانٍ مبين﴾** تظل واحدةً من العناصر «الصورية» التي تعتمد الاستعارة أو «الرمز» في بلورة الموقف الذي يصدر المنحرفون عنه، حيث تساءل النص ساخراً: هل يمتلك المنحرفون (سلّماً) يصعدون بواسطته إلىٰ السماء ويستمعون إلى «الوحي»؟ وإذا كان الأمر كذلك، فليأت المستمع ببرهانٍ على ذلك؟. إنّ هذا النمط من «الصورة» ينتسب إلىٰ ما يمكن تسميته

بـ «الصورة الفرضية» التي تعتمد (إحالة) الشيء، إذ ليس من الممكن أن يكون للمنحرفين (سُلّم) يصعدون بواسطته إلى السماء، ويترتب على ذلك: إحالة أن يأتي مستمعُهم ببرهان علىٰ تحقق صعودهم... بيد أن عنصر «السخرية» منهم، يفسّر لنا سبب هذا النمط من «التركيب الصوري» الذي يستهدف دحض تقوّلاتهم: من خلال «السخرية» منها ـ كما هو واضح...

بعد ذلك، نواجه مقطعاً ختامياً للسورة الكريمة، يشير إلى أنّ هؤلاء المنحرفين لا سبيل إلى هدايتهم بحيث أنّهم لو رأوا آية من العذاب الذي ينزل عليهم من السماء لقالوا: بأنّه سحاب مركوم... وهذه أيضاً (صورة ساخرة) من عقليّاتهم التي لا تفقه حتىٰ قدرة التمييز بين الظواهر الطبيعية والإعجازية... لذلك، نجد أنّ المقطع يعقّب علىٰ سلوكهم المشار إليه عبر مخاطبته النبيّ(ص) بأن يتركهم ﴿**حتىٰ يلاقوا يومهم الذي فيه يُصعقون**﴾، كما يطالبه بالصبر، وبأنّه في رعاية الله تعالى، ويطالبه أخيراً بالتسبيح وبالصلاة.

واضح، أنّ ختم السورة بالمطالبة بالصبر، وبالصلاة ـ صلاة الليل (كما أوضحته النصوص المفسّرة) ـ وبالتسبيح، ثم بالصبر علىٰ ما يواجهه(ص) من سلوك المنحرفين، يظل من جانبٍ: إيذاناً بأهمية هذه الممارسات (الصلاة، الصبر، إلخ)، وربطاً بهيكل السورة الكريمة من جانبٍ آخر، حيث أنّ «مقدّمة» السورة طرحت موضوعاً هو: كون المنحرفين قد انغمسوا في اللعب واللهو﴿**الذين هم في خوضٍ يلعبون**﴾، وجاء وسطها وختامها، مفصّلاً للمواقف الكاشفة عن اللهو واللعب، حيث يُفصح مثلُ هذا التلاحم عن متانة الإحكام الهندسي للنص، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *



سورة النجم

قال تعالى: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم والنجم إذا هوىٰ ما ضلّ صاحبكم وما غوىٰ وما ينطِقُ عن الهوىٰ إن هو إلاّ وحي يُوحىٰ علّمه شديد القُوىٰ ذو مِرّةٍ فاستوى وهو بالأفق الأعلىٰ ثم دنا فتدلَّى فكان قاب قوسين أو أدنىٰ**﴾.

هذا هو المقطع الأول من سورة النجم... وهي سورة تتحدّث عن صلة محمد(ص) بالوحي وملابساته وانعكاسات ذلك علىٰ مجتمعه... بيد أنّ الملاحَظ أنّ هذه السورة قد تمّت صياغتها وفق سمات فنية خاصة تعتمد كلاًّ من الوصف القصصي، والعبارة الايقاعية المركّزة، المدهشة، من حيث تقطيعها الصوتي الجميل...

أما الوصف القصصي فيتمثّل في رسم شخصيتي محمد(ص) وجبرئيل عليه السلام من خلال عمليتي (الوحي) و(الإسراء)، وهو وصف مدهش فنيّاً: من حيث دقائق التعامل بين هاتين الشخصيتين...

لقد بدأ الوصف القصصي لشخصية محمد(ص) بقوله: ﴿**ما ضلّ صاحبكم وما غوىٰ**﴾. والقارىء يتساءل: لماذا رسم النصُّ شخصية محمد(ص) من خلال كونه (صاحباً)؟.. لماذا قال: (صاحبكم)؟.

مادام الوصف هنا قصصياً: حينئذٍ لا بدّ ـ من الزاوية الفنية ـ أن يعتمد النصُّ اللغةَ القصصية: حواراً وسرداً... إنّ السرد القصصي بضمير المتكلّم يظل واحداً من أشكال السرد الذي يتميّز بخصائص متنوّعة، منها: حيوية الكلام الصادر عن صاحب النص من حيث كونه طرفاً في القصة.. ثم بما يتطلّب الموقف من التحدّث مع الآخرين للسبب نفسه، أي كون صاحب النص طرفاً في الموضوع... وها هو النص يتحدّث عن النبيّ(ص) ويخاطب

الجمهور: ﴿**ما ضلَّ صاحبكم**﴾. ونتساءل من جديد: لماذا (الصاحب) دون سواه من السمات؟ في تصوّرنا: بما أنّ النبيّ(ص) قد رُسِمَ في هذه السورة: بطلاً للقصة، وهو يتعامل مع أحداث معجزة لا تتيسّر للناس العاديين، حينئذٍ فإنّ رسمه (صاحباً) للناس: يحسس القارىء بأنّ النبيّ(ص) هو (واحد) من الناس... أنّه صاحبهم... ولكنه متميّز عنهم، مفارَق لسلوكهم، ولذلك، فموقعه الاجتماعي والعبادي سيأخذ صفة «التمييز» أيضاً، وهذا ما حدث فعلاً، لأنّ النص في صدر الحديث عن (الوحي)، وهو أمر لا يتيسّر للناس، كما أنّه في صدد تعامله مع جبرئيل عليه السلام، وهو ـ أيضاً ـ أمرٌ لا يتيسّر للناس... فهو(ص) (صاحبهم) ـ من حيث كونه بشراً منهم يحيا في مجتمعهم، كل ما في الأمر أنّه(ص) متميّز عنهم... والآن، ماذا عن هذا الصاحب؟

﴿**ما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلاّ وحيٌ يوحىٰ**﴾. إذن، هذا أوّل وصف لهذا الصاحب لأنّه يتلقّى الوحي ولا يتحدّث عبثاً ...

وإذا كان الأمر كذلك: فما هي معالم هذا السلوك الذي يتعامل مع الوحي؟

﴿**علّمه شديد القوىٰ ذو مرّة فاستوىٰ وهو بالأفق الأعلىٰ ثم دنا فتدلّىٰ فكان قاب قوسين أو أدنىٰ**﴾.

لقد كانت شخصية محمد(ص) هي البطل الذي استهلّت به السورة... وها هو جبرئيل عليه السلام يدخل بطلاً جديداً في القصة... وأهمية دخول جبرئيل عليه السلام في كونه أحد طرفي التعامل ـ كما هو واضح، نظراً لكون (الوحي) لا يمكن تحققه إلاّ من خلال (الواسطة) وهي جبرئيل عليه السلام...

لكن بما أنّ عملية «الوحي» ذات بُعدٍ غيبي، فضلاً عن أنّ جبرئيل

شخصية «غيبية» أيضاً: أي ليست مرئية، حينئذٍ نتوقّع أن يتمّ رسمُ شخصية جبرئيل عليه السلام وطريقة تعامله مع النبيّ(ص): وفق وصف غير مألوف، وهذا ما حدث فعلاً: كما سنرىٰ...

لكن قبل ذلك، ينبغي ـ ونحن نُعنىٰ بعمارة السورة القرآنية قبل كلّ شيء ـ أن نتذكّر بأنّ جمالية هذه العمارة تتمثل في هذا الاستهلال بالحديث عن محمد(ص)، ثم بالحديث عن جبرئيل، ثم بالحديث عنهما: كما سنلحظ ذلك مفصلاً، فيما يفصح مثل هذا البناء عن إحكام النص: من حيث علاقة أجزائه بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي نلحظه لاحقاً...

***

قال تعالى: ﴿**علَّمه شديد القُوىٰ ذو مرةٍ فاستوىٰ وهو بالأفق الأعلىٰ ثم دنا فتدلّىٰ فكان قاب قوسين أو أدنىٰ فأوحىٰ إلى عبده ما أوحىٰ...**﴾.

يتضمن هذا المقطع من سورة النجم: وصفاً قصصياً لشخصيتي محمد(ص) وجبرئيل عليه السلام فيما يتصل بقضية الوحي. لقد تحدّث النص عن جبرئيل عليه السلام فوصفه أولاً بأنّه ﴿**شديد القوىٰ**﴾ وهذا الوصف لا بدّ أن يكون له موقع عضوي من السورة الكريمة، طالما نعرف بأنّ الأوصاف الخارجية أو الداخلية لأي بطلٍ قصصي تحمل دلالة ما. لقد وصفه بأنّه ﴿**شديد**﴾ أوّلاً وبأنّه ذو ﴿**قوىً**﴾ وليس (قوة واحدة)... وهذا الوصف له دلالته، فما دام قد أشار إلى ﴿**القوىٰ**﴾ ـ أي صيغة الجمع ـ حينئذٍ ندرك بأنّ هناك أكثر من قوة أودعها الله تعالى في جبرئيل لممارسة وظيفته الموكولة إليه، ومنها: تعامله مع النبيّ(ص) في قضية الوحي... والقارىء مدعوّ إلى أنّ يتأمّل هذه الصياغة لشخصية جبرئيل عليه السلام: فهو متعدّد القوىٰ من جانب، وهو شديد في هذه القوىٰ من جانب آخر... وهذا يعني أنّ جبرئيل قد مُنح الدرجة القصوىٰ من الإمكانات... لكن: هل اكتفىٰ النص بهذا القدر من

وصف الامكانات التي منحها الله تعالى لجبرئيل؟.. لقد أضاف وصفاً جديداً هو أنّه عليه السلام ﴿**ذو مرّة: فاستوىٰ**﴾، ﴿**المِرّة**﴾ هي ﴿**القوّة**﴾ أيضاً.. إلاّ أنّها مأخوذة من (شدة الفتل) مما يعني أنها إلى الإحكام أقرب منها إلى مجرّد القوّة، أو يمكن أن تكون مأخوذة من المرور: كما عن بعض النصوص المفسّرة، لكن في الحالين: ثمة وصف أعقب هذه السمة وهي أنه ﴿**استوىٰ**﴾، أي: استقرّ أو اعتدل في صورتِهِ التي التقىٰ من خلالها محمداً(ص)، وهذا يعني أنّه عليه السلام قد قَطَعَ رحلةً ثم استوىٰ أو توقّف عند مسافة معيّنة... لكن، نتساءل من جديد ما هو الموقع العضوي لهذه الرحلة، أي: ماذا نستخلص من دلالةٍ ترتبط بهذا الاستواء من قِبَل جبرئيل؟

لا بدّ أن نتابع الوصف القصصي لهذه الشخصية... لقد وصفه النص بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿**وهو بالأفق الأعلىٰ**﴾... هذا يعني أنّ جبرئيل لا يزال يتحرّك من موقع علوي، إنّه في الأفق الأعلىٰ... لم يتّجه بعد إلىٰ الأرض، إلى حيث الموقع الذي يتحرّك من خلاله محمّد(ص)...

هنا، يتجه الوصف إلىٰ نهاية الرحلة ليقول: ﴿**ثم دنا: فتدلّىٰ**﴾... أنّه اقترب أو نزل صوب الأرض ﴿**ثم دنا**﴾... لكن: ما هو المقصود مِن ﴿**فتدلّىٰ**﴾؟... لقد قرب من الأرض، وهذا هو الهبوط من الأفق من مرحلته الأولىٰ... ولكنه (تدلّىٰ)... فالتدلّي هنا: يتداعىٰ بالذهن إلى أيّ ثَمَر يتدلّىٰ بحيث يكون «قريباً» من اليد. ليس هذا فحسب... بل ان «القرب» من محمّد(ص)... قد تجسّد في صياغة ثالثة هي قوله تعالى: ﴿**فكان قاب قوسين أو أدنىٰ**﴾. وهذه هي المرحلة الآخرة من الوصول إلىٰ محمد(ص).. إنّ صورة ﴿**قاب قوسين أو أدنىٰ**﴾ تجسّد في المصطلح الفنّي ما يطلق عليه اسم (التمثيل)، وقد يكون «تشبيهاً» أو «رمزاً» أو حتىٰ تعبيراً حقيقياً يشير إلى أنّه عليه السلام قد اقترب بقدر ذراعين أو أقل... المهم هو: أنّ المرحلة

بدأت بوصف قصصي لإمكانات جبرئيل، ثم تحرّكه في الأفق، ثم هبوطه إلى الأرض، ثم **﴿فأوحىٰ إلى عبده ما أوحىٰ﴾**. . .

إذن: الفقرة الأخيرة **﴿فأوحىٰ إلى عبده ما أوحىٰ﴾** هي: حصيلة المطاف الذي انتهت به الرحلة. . . أو هي الهدف الفكري الذي وُظِّفَ عنصرُ الوصفِ القصصي من أجله، أي: أنّ الأوصاف المرتبطة بشخصية جبرئيل عليه السلام، والبيئة العلوية التي يحياها، وبالرحلة التي يقطعها: تظل بمثابة عنصر (إنارة) تستهدف لفت النظر إلىٰ عملية تلقّي (الوحي) وبلورة دلالته في الأذهان. . . علماً بأنّ السورة الكريمة بدأت بالحديث عن أنّ النبيّ(ص) **﴿ما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلاّ وحي يوحىٰ﴾**. وها هي الآن تربط بين كونه ينطق عن وحي يوحىٰ، وبين تفصيل الحديث عن كيفية الوحي، مفصحة بذلك عن الإحكام الهندسي للسورة الكريمة من حيث تلاحم أجزائها بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: **﴿ما كذب الفؤاد ما رأىٰ أفتمارونه على ما يرىٰ؟ ولقد رآه نزلةً أخرىٰ عند سدرة المنتهىٰ عندها جنّة المأوىٰ إذ يغشىٰ السدرة ما يغشىٰ ما زاغ البصر وما طغىٰ﴾**.

في هذا المقطع من سورة النجم: وصفٌ قصصيٌّ جديد يتعلَّق بما رآه محمّد(ص) عند الإسراء إلى السماء. . . وكان المقطع السابق من السورة يتضمّن وصفاً قصصياً يتعلّق بما رآه محمد(ص) من صورة جبرئيل وهو يتلقّى الوحي منه. . . أما في هذا المقطع الذي نتحدّث عنه الآن، فإنّ جبرئيل عليه السلام يَدْخُلُ أيضاً شخصيةً قصصيةً مع شخصية محمد(ص) في حادثة الإسراء. . . يقول المقطع عن هذه الحادثة **﴿ما كذب الفؤاد ما رأىٰ﴾**. . . الرؤية هنا تتصل بحادثةِ الإسراء، ولكنَّ النص حَذَفَ تفصيلات القصة واتّجه

مباشرةً إلى الحديث عن نتائج الإسراء وليس عن عملية الإسراء نفسها، حيث الإسراءُ قد ذُكر في سورة أخرىٰ. . أما هنا، فإنّ النص أبرز مشاهدات الإسراء لأنّه يستهدفها، ولذلك ذكرها وحَذَفَ ما سواها، وهذا واحدٌ من أسرار البناء الفني لهذه الأقصوصة. . . لكن بِغَضِّ النظر عن البناء الفنّي للنَّص، فإنّ السؤال هو:

ماذا رأىٰ النبيّ(ص) في هذه الحادثة، ثم ما هي الدلالة الفنيّة لقوله تعالى: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأىٰ**﴾. . أما ماذا رأىٰ النبيّ(ص) فإنّ النصوص المفسِّرة تتفاوت بين الذهاب إلى أنّه(ص) رأىٰ الله تعالى بقلبه لا ببصره: لعدم جواز الرؤية الحسيّة لِتَنَزُّهِهِ تعالى عن الحدوث، وبين الذهاب إلى أنّه رأىٰ ملكوت السماوات، وبين الذهاب إلى أنّه رأىٰ نوراً. . . ولعلّ السرَّ الفني لإبهام الرؤية أي قوله تعالى: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأىٰ**﴾ فرأىٰ هنا مُبهمةً لم يُذْكَرْ بعدَها ما إذا كان ذلك مرتبطاً برؤيةِ الفؤاد لله تعالى أو برؤيةِ البصر للملكوت، أو برؤيته للنور. لعلّ السرّ الفنّي يكمن في كون المرئيِّ الذي أبهمه النص، هو هذا التأرجح بين الإمكانات المشار إليها. . أو لعلّ السّر الفنّي وراء ذلك أنّ المرئيَّ شيء لا يمكن أن يخبره القارىء لأنّه رؤية لما وراء الحسِّ أو الإدراك البشري. . . والمهم، أن النص يتّجه بعد ذلك إلىٰ رسم شخصية جبرئيل عليه السلام فيذكر من أن النبيّ(ص) رأىٰ جبرئيل للمرة الأخرىٰ في عملية الإسراء ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾. . . فالنزلة هنا ترمز أو تشير إلىٰ أنّه عليه السلام (أي جبرئيل) قد تكفّل بمهمة اصطحاب محمد(ص) إلى السماء. . علماً بأنّ النزلة الأولىٰ كانت مرتبطةً بعملية الوحي. . . وها هي النزلةُ الأخرىٰ ترتبط بحادثة الإسراء. . .

وإذا كانت رحلة جبرئيل الأولىٰ تتجسد في كونه قد ظَهَر وهو في الأفق الأعلىٰ ثم دنا فتدلّى فكان قابَ قوسين أو أدنىٰ. . . فإنّ رحلة جبرئيل الأخرىٰ

تتجسّد ﴿عند سدرة المنتهىٰ عندها جنةُّ المأوىٰ إذ يغشى السدرة ما يغشىٰ﴾ والسؤال هو: ما هي الدلالات التي ينطوي عليها هذا الوصف القصصي لرحلة جبرئيل أو لاصطحاب محمد(ص) جبرئيل عليه السلام... أما سدرة المنتهىٰ، فإنّ النصوص المفسِّرة تتأرجح بين الذهاب إلىٰ أنّها شجرةٌ عن يمين العرش فوقَ السماء السابعة ينتهي إليها علمُ الملائكة أو ينتهي إليها عروجهم، أو تنتهي إليها الأرواح... إلخ. وأما جنّة المأوىٰ فإنّ النصوص التفسيرية تتفاوت في تحديدها أيضاً بين الذهاب إلىٰ أنّها الجنَّةُ التي تأوي الملائكة إليها، أو أنّها جنةُ الخَلْق، أو جنّة آدم عليه السلام، أو مطلقُ الجنة التي يصيرُ المؤمنون إليها... وفي الحالات جميعاً، فإنّ القارىء يستخلص من هذا الوصف أكثر من دلالة، منها: أنّ ملكوت السماء الذي شاهده محمد(ص) يتمثّل في جملة من الظواهر التي نتطلّع إلىٰ معرفتها مثل: سدرة المنتهىٰ، جنّة المأوىٰ، ثم ما يغشىٰ السدرة المذكورة ﴿إذ يغشىٰ السدرة ما يغشىٰ﴾، حيثُ تذكُرُ النصوص المفسّرة بأنَّ الملائكة تغشىٰ هذه الشجرة، وهو أمرٌ يحمل القارىء علىٰ أن يتعرّف عظمةَ العبودية لله تعالى من جانب وإبداعه الكوني من جانب آخر... ثم خُتم المقطع بقوله تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغىٰ﴾ أي: لم يلتفت محمد(ص) إلى أي جانب خارجَ الحدود التي رُسِمت له في هذه الرحلة، لأنّه(ص) مكلّفٌ بأداء ما هو مرسوم له فحسب... والمهم بعد ذلك، أن نلحظَ بأنَّ هذه الرحلة (أي الإسراء)، حيثُ كانت مشتركة بين محمد(ص) وجبرئيل، تظلّ مرتبطةً بالرحلة الأولىٰ، وهي نزلةُ جبرئيل من أجل الوحي. وأن كلتيهما تهدفان إلىٰ توضيح الأهمية التي اقترنت برسالة محمد(ص) فيما يفصح مثلُ هذا الوصل بين الرحلتين عن إحكام السورة الكريمة من حيث عمارتها فنيّاً بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿لقد رأىٰ من آيات ربّه الكبرىٰ أفرأيتم اللات والعزّىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ ألكم الذكَرُ ولَهُ الأنثىٰ تلك إذن قسمة ضِيزىٰ إنْ هي إلّا أسماءٌ سمّيتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سُلطان إن يتّبعون إلّا الظّن وَ ما تَهْوى الأنْفُس و لقد جاءهم من ربّهم الهدى﴾**.

هذا المقطع من سورة النجم، ٱمتداد لمقاطِعَ سابقة تضمّنت وصفاً قصصياً لشخصية محمد(ص) وجبرئيل عليه السلام في قضيتي (الوحي) و(الإسراء). . . هنا ـ في المقطع الجديد ـ ينتقل النصُّ من الحديثِ عن الوحي والإسراء بما يواكب ذلك من مشاهدة الظواهر الغيبية إلى الحديث عن سلوكِ المشركين في تعاملهم مع الأصنام أو في تصوّراتهم حيال الملائكة. . . ونتساءَلُ: ما هي الصّلةُ العضويةُ أو الفنّية بين هذين الموضوعين؟. لنقرأ أوّلاً محتويات هذا المقطع، (لقد رأىٰ من آيات ربّه الكبرىٰ): ما رآهُ(ص) قد أبهمه النصّ: نظراً لأنّ تجربة الرؤية (غيبية) أساساً. . . فإذا ٱستثنينا رؤيتَهُ(ص) جبرئيل عليه السلام في صورته ورحلته ثم سدرة المنتهىٰ حينئذٍ فإنَّ الآيات أو الظواهر الغيبية الأخرىٰ قد نَسَجَ المقطعُ صمتاً حيالها، تاركاً ذلك للقارىء بأن يستوحي ما يتناسب وخبراته عن عالم الغيب الذي لم يشاهده حسيّاً، ولكن يخبره ذهنياً. . . إلاّ أنَّ الملاحَظَ أنّ المقطع القرآني الكريم، ما إنْ ٱنتهى من قولِهِ **﴿لقد رأىٰ من آياتِ رَبِّه الكبرىٰ﴾** حتى قال: **﴿أفرأيتم اللّات والعزّىٰ﴾** ومناة الثالثة الأخرى؟، حتى لكأنّه يقارن بين رؤية محمد(ص) لآيات الله تعالى وبين رؤية المشركين للأصنام. بحيث ينطوي مثلُ هذا (النقل الفنّي) من رؤية الملكوت الأعلىٰ إلى رؤية الأصنام على عُنصرٍ (ساخرٍ) يتناسب مع الموقف الذي يصدر عنه المشركون. . . فآياتُ الله تعالى ظواهرُ إعجازيةٌ ذاتُ فاعلية ضخمة مثل فاعلية جبرئيل، وهو يتنقل في أرجاء الكون، وفاعلية سدرة المنتهىٰ التي يغشاها الملائكة. . . فأين رؤيةُ مثل هذه الظواهر الكونية ذات

الفاعلية الضخمة مقابل رؤية الأحجار الخالية من أية فاعلية؟ أليست المقارنة بينهما منطوية علىٰ سرٍّ فنيٍّ هو: جَعْلُ القارىء في موقفٍ ساخرٍ من تفاهة السلوك الذي يصدر عنه المشركون حيال الأصنام. . .

ولعلّ ذكره للأصنام الثلاثة ﴿**اللاّت، العزّى، مناة**﴾ جاء متجانساً فنياً مع عنصر (السخرية) منهم لأنَّ ذكر الشيء وتشخيصه بالاسم يظل مدعاةً للسخرية بنحو أشدّ كما هو واضح. . بل إن أسلوب الذكر لهذه الأصنام قد جاء متجانساً بشكلٍ أكثر مع السخرية منها ومن المشركين. . . حيث أنّه أفرد ﴿**مناة**﴾ في آية مستقلّة، وأضاف إليها وصفين هما: «الثالثة» و«الأخرىٰ» فقال ﴿**ومناة الثالثة الأخرىٰ**﴾ وهذا كمن يسخر من شيئين معروفين، ثم يضيف إليهما شيئاً ثالثاً منبِّهاً علىٰ مهزلة هذا الشيء الثالث حيث أنَّ الصَّنَمَ ﴿**مناة**﴾ كان في موقعٍ آخر بالنسبة إلىٰ الصنمين ﴿**اللاّت والعزّىٰ**﴾.

بعد ذلك: اتَّجه النَّصُّ إلى ذكر مهزلة أخرىٰ عن المشركين ألا وهي: زعمهم بأنّ الملائكة بنات الله تعالى، لذلك سَخِرَ النَّصُّ منهم قائلاً: ﴿**ألكم الذكر وله الأنثىٰ؟**﴾ ثم ضاعف السخرية بنحو أشد حينما قال النص ساخراً بشكلٍ فنيٍّ مدهشٍ قائلاً: ﴿**تلك. . . إذن قسمة ضيزىٰ**﴾ هذه الفقرة الساخرة بما يواكبها من ايقاعٍ مدهشٍ بخاصة في كلمة ﴿**ضيزىٰ**﴾ تجعل القارىء مبهوراً مندهشاً من هذه العبارة الماحقة التي تجسِّد عنصر السخرية بهذه النماذج البشرية الهزيلة التي تستدرُّ الإشفاق والرثاء.

أخيراً، طرح المقطعُ قضيةً عامةً هي قوله تعالى: ﴿**إنْ هي إلاّ أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ الله بها من سلطان أن يتبعون إلاّ الظن. . .**﴾. فهذه الفقرةُ الأخيرة ﴿**ان يتّبعون إلاّ الظن**﴾ تجسِّد مفهوماً له خطورته في ميدان السلوك ألا وهو «أنَّ الظن أو عدم العلم يقيناً» هو الطابع الذي يسم هؤلاء الحمقىٰ. وسنجد انعكاسات هذا المفهوم في الأجزاء اللاحقة من السورة،

فيما تُفصِحُ بذلك عن إحكام النص وتلاحم موضوعاته بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: **﴿فللّه الآخرة والأولىٰ وكم من ملكٍ في السماوات لا تُغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذَن الله لمن يشاء ويرضىٰ إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة ليُسَمُّون الملائكة تسمية الأنثى وما لَهُم به من علم، إن يتّبعون إلاّ الظن، وإن الظَّن لا يُغني من الحق شيئاً فأعرض عن مَن تولّى عن ذِكرنا، ولم يُرد إلاّ الحياة الدُّنيا ذلك مبلَغُهُم من العلم إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدىٰ﴾**.

هذا المقطع من سورة النجم يتحدّث عن مهزلة المشركين الذين يسمّون الملائكة تسمية الأنثىٰ... وقد كان المقطع الأسبق يتحدّث عن تصوّرات المشركين حيال الأصنام، كما تحدّث عن تصوّراتهم حيال الملائكة حيث قال ساخراً: **﴿ألكم الذكر ولهُ الأنثىٰ تلك إذاً قسمة ضيزىٰ﴾**... وها هو النصّ يفصِّل الحديث عن هذا الجانب الذي مهَّدَ له في المقطع الأسبق بقوله تعالى: **﴿إن يتّبعون إلاّ الظنّ﴾**، حيث أنّ (اتباع الظن) أو: (القول بدون علم) سيجسِّد في هذا المقطع موضوعاً فكرياً يركّز المقطعُ عليه لأنّه سلوكٌ عامٌّ ينسحب علىٰ البشرية، ولا يخصُّ سلوك المشركين وحدهم... لذلك طرح المقطعُ هذه القضية بنحوٍ مفصّل حينما عقَّب علىٰ المشركين الذين **﴿يسمّون الملائكة تسمية الأنثىٰ﴾** عقَّب علىٰ ذلك قائلاً: **﴿إن يتّبعون إلاّ الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾**. هذه المقولة ـ كما قلنا ذاتُ أهمية كبيرة في ميدان السلوك البشري حتى أن الفقهاء علىٰ سبيل المثال ـ رتّبوا عليها مبدأ (أصوليّاً) استخلصوا من خلالها عدم حجية الخبر أو الرواية غير المقطوع بها، بحيث ترتّب على ذلك: التوقّف أو العمل بهذا الخبر أو ذاك في ضوء الحقيقة المشار

إليها، بكل منعكساتها التي تنسحب ـ في نهاية الأمر ـ علىٰ صياغة الأحكام الشرعية. . .

إذن، أمكننا ملاحظةُ كيف أنّ المقطع القرآني الكريم أدرج ضمن تناوله لسلوك المشركين: حقيقة عقلية عامةً ترتبط بمفهوم (الظن) مقابل (القطع) أو (اليقين) ونحوهما مما تشكل قضايا (عامة) من خلال طرح القضايا (الخاصة) وهذا هو أحد أشكال الصياغة الفنية للنصوص.

لكن، لنتابع سائر الأفكار المطروحة في هذا المقطع. . . لقد طالب النصّ القراني الكريم النبيَّ(ص) بأن يُعرض عن هؤلاء الذين لم يتحرّكوا ذهنياً إلّا من خلال المتاع الدنيوي قائلاً: **﴿فأعرِضْ عن من تولّىٰ عن ذكرنا و لم يرد إلّا الحياة الدنيا﴾** ثم عقَّب النصُّ على ذلك بقوله تعالى: **﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾** هذه الفقرة: لها أهميتها الفكرية أيضاً، من حيث تقريرها لإحدىٰ حقائق السلوك البشري، ألا وهي إنَّ من يُعنىٰ بمتاع الحياة الدنيا بحيث يصُبُّ اهتماماته في هذا الميدان فحسب: لا بدّ أن تطبعه سمةُ التخلّف الفكري بحيث لا يمكنه أن يتجاوز بذهنه: الآفاق الأخرىٰ من تجربة الحياة، لذلك أرتكن النصُّ إلى صياغة هذه الحقيقة، وفْقَ (صورةٍ فنية) يمكن أن نُطلق عليها مصطلح (الصورة الاستدلالية) وهي قوله تعالى **﴿ذلك: مبلغُهُم من العلم﴾** وهذا كَمن يقول للآخر ساخراً (هذا: منتهى عِلمك) رامزاً بذلك إلى تخلّفه الفكري من خلال هذه الفقرة الساخرة.

أخيراً، ينبغي ألاّ نغفل عن العمارة الفنية لهذا المقطع من حيث صلته بموضوعات السورة الكريمة، حيث أنّه ربط بين سلوك هؤلاء الأشخاص الذين يُسمّون الملائكة تسمية الأنثىٰ، وبين مهمة الملائكة في اليوم الآخر حيث أوكلَت إليهم مهمة الشفاعة وعدمها: **﴿وكم من ملك في السماوات لا تُغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن الله﴾** فالرَّبط هنا بين الملائكة و بين من

يملك الشفاعة وبين من لم يملكها وبين تصوّرات المشركين حيال الملائكة. . . الربط بين مهمة الملائكة وتصوّرات المشركين. يظل واضحاً، بحيث يستخلص القارىء بأنَّ النص القرآني الكريم، هو في صدد الرد غير المباشر علىٰ المشركين في تصوّراتهم الهزيلة حيال الملائكة، وبهذا يكون النص قد أحكم بناءَ الموضوعات من حيث صلة بعضها على الآخر بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض، لِيَجزي الذين أساؤوا بما عمِلُوا ويَجزي الذين أحسنوا: بالحُسنى الذين يجتنبُون كبائر الإثم والفَواحِشَ إلاّ اللَّمم، إنّ ربّك واسعُ المغفرة هو أعلمُ بكُم إذ أنشأكُم من الأرض، وإذ أنتم أجنَّةً في بُطون أُمهاتِكُم، فلا تُزَكُّوا أنفُسَكم، هو أعلم بمن اتَّقى﴾**.

هذا المقطع من سورة النجم: يتناول أكثر من موضوع. . . منها موضوع (الذنوب) وتحديد حجمها، حيث قسّمها إلى ثلاثة: الكبائر، الفواحش، اللمم. . . فالكبائر من الذنوب ما شملها التوعد بالنار، والفواحش: ما يترتب عليها إقامة الحد، واللمم: هو مقارفة الذنب عابراً دون أن يقيم عليه الحدّ. . . وهناك تحديدات أخرى لهذه المصطلحات الثلاثة، إلاّ أنّها جميعاً تشير إلى حقائق ثابتة هي: أنّ هناك ذنوباً كبيرة مقابل ما هو صغير منها، أنّ هناك ذنوباً تستوجب الحد ـ في الحياة الدنيا ـ تبعاً لمتطلبات المصلحة الاجتماعية، مقابل الذنوب التي يترتب الجزاء عليها أخروياً، وأنّ هناك ذنوباً يلم بها الإنسان عابراً مقابل الذنوب التي يمارسها الإنسان: استمرارية: والمهم ـ بعد ذلك ـ هو: أنّ الشخصية الإسلامية التي تتلقى جزاءها الأخروي: إيجابياً، هي: الشخصية التي تتجنب كبائر الذنب والفواحش: إلاّ ما ألمت به عابراً وأقلعت عنه. . .

أما التفسير النفسي لمثل هذه الفوارق بين مستويات الذنوب فيتمثل في كون (الذنب): أساساً: سلوكاً مرضياً لا يعني صاحبه إلا بإشباع حاجاته دون أن يقيدها بضوابط ومبادىء... فإذا أخذ الذنب طابع الاستمرار: شكّل حينئذٍ سمة مرضية ثابتة. أما في حالة الإلمام بالذنب عابراً ثم الإقلاع عنه، فأمر يكشف عن استواء النفس واتسامها بالصحة العقلية: بصفة أنّ لحظات الضعف لا تكاد تفارق الشخصية، فإذا غلبته ذات مرة ثم صمم على عدم السماح لها بالغلبة: ثانياً: يكون بذاك قد سيطر على الموقف، كما هو واضح...

بعد ذلك: طرح المقطع القرآني الكريم موضوعاً آخر هو: أن الله تعالى: أنشأ الإنسان من الأرض، ثم جعله جنيناً في بطن الأم... هنا: علق النص القرآني على هذا الجانب، قائلاً: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى**﴾...
والآن ما دمنا نُعنى بدراسة السورة القرآنية الكريمة: من حيث عمارتها وصلة موضوعاتها بعضاً مع الآخر، حينئذٍ نتساءل: ما هو الموقع الفني لهذا التعليق؟ ثم ما هي الصلات الفنية بين موضوع الذنوب وتقسيماتها وبين موضوع خلق الإنسان من الأرض، وكونه جنيناً في بطن أمه؟.

إنّ مفهوم ﴿**لا تزكوا أنفسكم**﴾ يظلّ هو الحقيقة العبادية التي نستخلصها عن هذا المقطع: حيث ختم النص حديثه بهذا المفهوم كما لحظنا، ومهد له بالإشارة إلى أنّ الله تعالى (وهو خالق الإنسان من الأرض، وعالم بمصيره منذ أن خلق في بطن أمه). إنّ الله تعالى هو: أعلم بطبيعة الشخص من حيث استقامته أو انحرافه، وحينئذٍ لا يملك الشخص حق تزكية نفسه: إيجابياً...
أما السّر الفني الكامن وراء مطالبة الإنسان بعدم تزكية نفسه: فيتمثل في أنّ التزكية أساساً هي: إعجاب بالنفس (مع أن الله تعالى هو المصدر الذي يمد الشخص بما هو حسن من السلوك، وليس لتملك الإنسان قدرات مستقلة)

لذلك فإنّ التزكية للنفس تظل ـ من جانب ـ تبجحاً بسلوك لا يمتلكه ذاتياً بل هو من إفاضة الله تعالى، ويظل ـ من جانب آخر ـ حاجزاً عن مواصلة السلوك الإيجابي: بصفة أنّ الإحساس بالتقصير هو الذي يحفز الشخصية على تعديل سلوكها بعكس الإحساس بالعظمة فيما يوقف الشخصية من التصاعد بعملها نحو الأحسن... وفي ضوء هذا نفهم صلة (الذنوب) التي طالب المقطع باجتنابها: بتزكية النفس، حيث أنّ الاجتناب عنها ينبغي ألاّ يقترن بالإعجاب بالنفس للأسباب التي أوضحناها... كما نفهم ـ في ضوء هذا ـ صلة علم الله تعالى بطبيعة الإنسان (من حيث تركيبته) لكونه: مخلوقاً من الأرض، وجنيناً في بطن الأم: لأنّ الأرض تمثل مصدره الأول (خلق آدم)، والرحم: يمثل مصدره الثانوي (النطفة)، وفي الحالين، فإنّ الله تعالى هو العالم بطبيعة هذا التكوين (بنمطيه: الأولي والثانوي)، وحينئذٍ لا معنى لأن يزكي الإنسان نفسه، والله أعلم به منه منذ أن خلقه...

إذن، أمكننا أن نلحظ إحكام هذا البناء الفني للموضوعات، من حيث صلة بعض مع الآخر، بالنحو الذي أوضحنا...

* * *

قال تعالى: **﴿أفرأيتَ الذي تولّى وأعطى قليلاً وأكدىٰ أعندهُ علمُ الغيب فهو يرى أم لم يُنبأْ بما في صُحف موسى وإبراهيم الذي وفّى ألاّ تزرُ وازرةٌ وِزْر أخرى وأن ليس للإنسان إلاّ ما سَعى وأنّ سعيَهُ سوف يُرى ثم يُجزاه الجزاء الأوفى﴾**.

هذا المقطع من سورة النجم: يطرح جملة موضوعات من خلال حكاية أو أقصوصة: أبهم بطلها (و هي شخصية سلبية يقول المفسرون أنّها كانت تعمل الطاعات ثم تركتها بعد أن تكفل بعض الأشخاص بأن يحمل وزر تركه للطاعات)...

ولا تعنينا هوية هذا الشخص ما دامت الأقصوصة قد أبهمتها لأسباب فنية: قد تكون في مقدمتها أنّ المهم هو إبراز السلوك السلبي ومحاولة تعديله وليس المهم تحديد هوية الشخص... فما هي تفصيلات هذا السلوك؟.

إنّ السمة الأولى لهذا الشخص المبهم هي **﴿أفرأيت الذي تولى﴾** أي: تخلّى عن الحق، وهذه سمة (إجمالية) أو (عامة) أو لنقل أنّ النص رسم الموقف من نهايته: ثم فصّل ذلك، فالتخلي عن الحق هو: نهاية السلوك الذي صار إليه هذا الشخص. وأما بدايته فقد رسمها النص بعد ذلك قائلاً **﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾**. فهنا نواجه سلوكاً قائماً على إعطاء هذا الشخص أو إنفاقه: مالاً من أجل الله، إلاّ أنّه عطاء وقتي سرعان ما تخلى عنه... وهكذا تكون هذه السمة **﴿أعطى قليلاً وَأكدى﴾** تفصيلاً لما أجملته السمة الأولى **﴿أفرأيت الذي تولى﴾** أو تكون تفسيراً لها: التولي (وهو التخلي عن الحق) يمكن أن ينطبق على مفردات كثيرة من السلوك، فيكون النص قد ركز على مفردة من السلوك ذات أهمية كبيرة ألا وهي: الاعطاء الموقت ثم تركه... بيد أنّ القارىء لا بد أن يتساءل:

ما هو السر في الاعطاء الموقت ثم تركه؟ هل هو: الندم على الانفاق؟ هل هو البخل؟ هل هو تغير في الرأي؟... النصوص المفسرة توضح ذلك ـ كما أشرنا ـ إلى أن هذا الشخص قد تأثر بضلالة أشخاص آخرين قالوا له بأنّا نحمل وزرك فاعطنا بعض المال وتخلّ عن الإنفاق، أو عن مساندة النبي(ص)... إلخ. لكن القارىء يتوقع فنياً بأن تكون الأقصوصة هي التي تلقي ضوء على هذا الجانب، فتكشف عن الحقيقة من خلال المنطق الفني للأقصوصة... وهذا ما يمكن ملاحظته فعلاً حينما نتابع رسم النص لسلوك هذه الشخصية..

لقد تساءل النص القرآني الكريم: هل أنّ هذه الشخصية ذات علم

بالغيب؟. وهذا التساؤل لا يزال ملفعاً بالغموض الذي لم يكتشفه القارىء: إذ يتساءل القارىء ما هو هذا السلوك الذي يتطلب إثارة السؤال عن علم صاحبه بالغيب؟

ثم يتساءل النص أيضاً بأنّه ألم ينبأ هذا الرجل بصحف موسى وإبراهيم... ثم يطرح النص أخيراً: الجواب، أو لنقل أنّ الفقرات الأخيرة هي التي تتكفل ـ فنياً ـ بتقديم الجواب أو بكشف السر الفني الذي احتفظت الأقصوصه به: ثم كشفته في نهاية الأقصوصة: حتى يتحقق عنصر (التشويق الفني) لمتابعة الأحداث والمواقف...

أما الكشف فهو قوله تعالى: ﴿**ألا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ حيث يستخلص القارىء بأنّ القضية تتعلق بتحمل الذنوب، وأنّ صاحب الذنب هو الذي يتحمل مسؤولية سلوكه وليس الشخص الآخر الذي يزعم بأنّه بمقدوره أن يعقد مع صاحب الذنب عهداً بأن يتحمل هو مسؤولية ذنبه.

إذن، الأهمية الفنية لهذا الكشف (في ميدان الأقصوصة) هي: أنّ هناك حقيقة عبادية ينبغي أن يعيها البشر وهي أن صدور الشخص عن الذنب لا يستلزم تحمل تبعته من قبل آخرين بل أنّ المذنب يتحمل مسؤولية سلوكه وحده وليس، سلوك الآخرين... خلال ذلك: طرح المقطع أيضاً حقائق عبادية أخرى مرتبطة بالحقيقة المتقدمة، ألا وهي: أنّ عمل الإنسان هو الذي يحدد مصير صاحبه، وأنّه ـ أخروياً ـ يتسلم ثمن عمله وافياً لا نقصان فيه...

أخيراً، ينبغي ألاّ نغفل عن عمارة هذا المقطع من حيث صلة أجزائه وموضوعاته بعضاً مع الآخر، حيث لحظنا كيفية رسم الشخصية (من حيث الإجمال وتفصيله) أو (من حيث رسم الحدث)، فيما يفصح هذا الرسم، عن إحكام النص، وتلاحم أجزائه بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿وأنَّ إلى ربِّك المنتهى وأنّه هو أضحك وأبكى وأنّه هو أماتَ وأحيا وأنّه خلق الزوجين الذَّكر والأُنثى من نطفة إذا تُمنى وأنّ عليه النشأة الأخرى وأنّه هو أغنى وأقنى وأنّه هو ربُّ الشِّعرى وأنّه أهلك عاداً الأولى وثمودا فما أبقى وقومَ نوحٍ من قبل إنّهم كانوا هم أظلمَ وأطغىٰ والمؤتفِكَةَ أهوىٰ فغشَّاها ما غشَّىٰ فبأيِّ آلاء ربِّك تتَمارىٰ هذا نذيرٌ مِن النُّذر الأولى أزِفَت الآزِفَة...﴾**.

بهذا المقطع تختم سورة النجم... وهو مقطع يحتشد بعناصر إيقاعية وصورية ولفظية وبنائية: مدهشة، إلاّ أنّ ما يعنينا منه هو: عمارة المقطع وصلته بأفكار السورة الكريمة...

في هذا المقطع طرحت موضوعات متنوعة، إلاّ أنّها عرضت بنحو لماحٍ، موحٍ: تتتابع واحدة بعد الآخرى مثل تتابع الصورة المتسلسلة... فما هي هذه الموضوعات، وكيف تمت صياغتها من حيث الهيكل الهندسي لها؟...

الموضوع الأول هو: **﴿وأنّ إلى ربك المنتهى﴾** أي: عملية الحساب وما يترتب عليها من الجزاء الإيجابي والسلبي... الموضوع الآخر هو **﴿وأنّه هو أضحك وأبكى﴾**... ترى ما هو المقصود من الاضحاك والإبكاء؟ وما هي صلته بالموضوع السابق (عملية الحساب)؟... أدنى تأمل: يكشف لنا أنّ الضحك والبكاء عمليتان ترتبطان بالجزاء الأخروي، بصفة أنّ الضحك عمل سلبي يصدر عن الإنسان في غمرة انغماسه دنيوياً، أما في الآخرة فهو ممارسة إيجابية لكن في حالات خاصة، يدلنا على ذلك أنّ هناك نصوصاً قرآنية أخرى تطرح قضية الضحك دنيوياً وأخروياً مثل قوله تعالى: **﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾** حيث رمز لمتاع الدنيا بالضحك ومثل قوله: **﴿فاليوم الذين آمنوا من الذين كفروا يضحكون﴾** حيث يجيء الضحك هنا ـ أي أخروياً ـ

ممارسة خاصة هي: السخرية من الكافرين لذلك لا يصح أن يكون الضحك مطلقاً عملية إيجابية... ونحن نميل إلى القول بأنّ الضحك هنا (رمز) وليس عملية واقعية، إنّه رمز لما هو إيجابي مثل: الرضا، والسرور ونحوهما، لأنّ ممارسة الضحك محظورة في لسان النصوص الاسلامية... والمهم، أنّ الإضحاك والإبكاء من الممكن أن يجسدا رمزاً للفرح والحزن في اليوم الآخر: نظراً لمجيئهما في سياق الحديث عن الآخر ﴿**وأنّ إلى ربك المنتهى**﴾...

ويجيء الموضوع الثالث ﴿**وأنّه هو أمات وأحيا**﴾... وهذا الموضوع بدوره يرتبط باليوم الآخر لأنّ الموت أول منازل الآخرة، والإحياء هو حسم المصائر التي تنتهي البشرية إليه.

ويجيء الموضوع الرابع ﴿**وأنّه خلق الزوجين الذكر والأنثى**﴾ ثم الموضوع الخامس ﴿**وأنّ عليه النشأة الأخرى**﴾ الموضوع الأخير مرتبط باليوم الآخر أيضاً بيد أنّ خلقه تعالى للزوجين: يظل أمراً مرتبطاً بالحياة الدنيا... فما هي صلة أحدهما بالآخر؟.

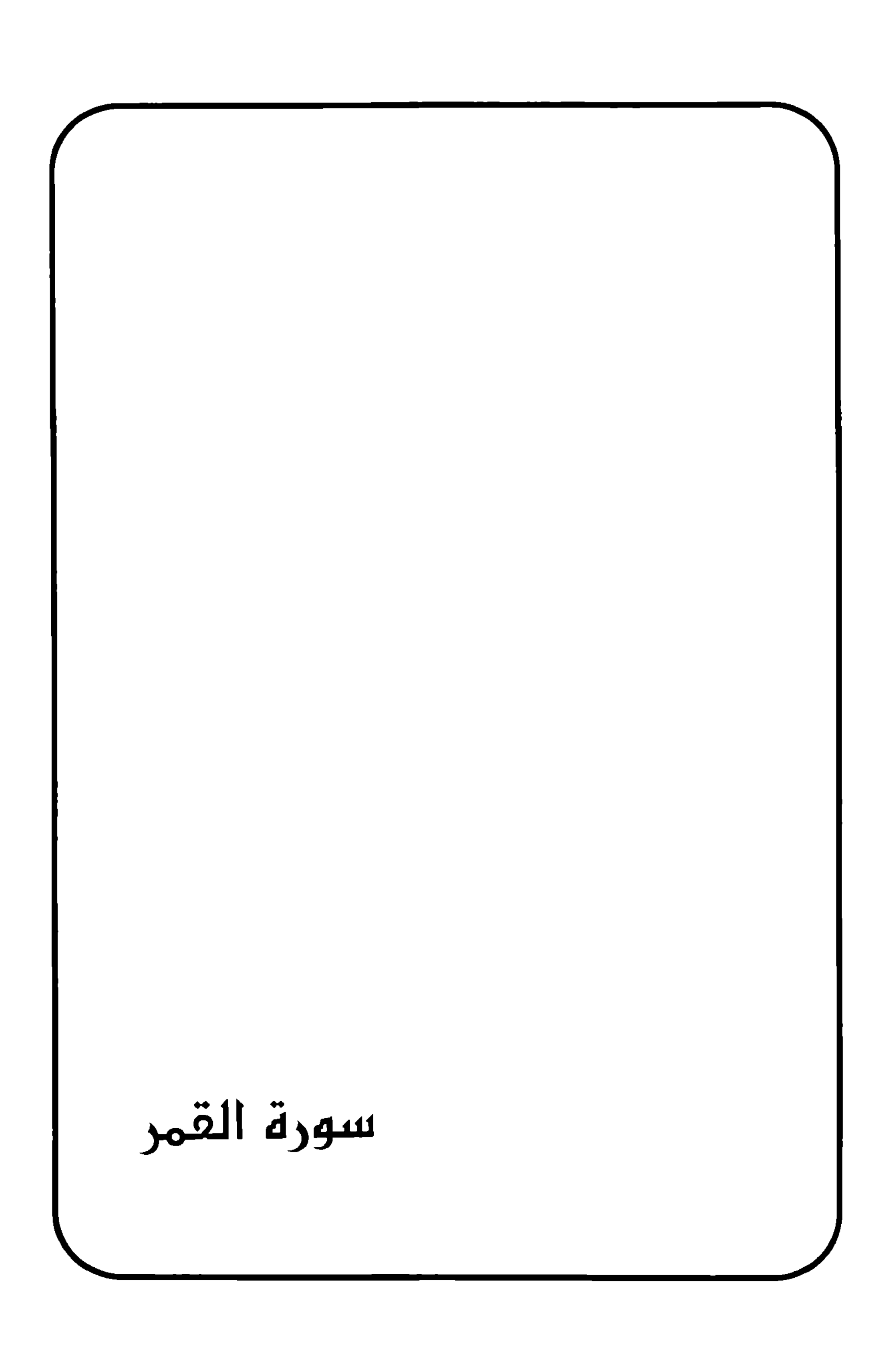
في تصورنا أن النص في صدد توضيح قدرات الله تعالى وإبداعه، فلكي يركز هذا المفهوم في الذهن، يطرحه حينئذٍ ضمن سياق حديثه عن اليوم الآخر لكن من خلال (وصل فني) يتمثل في التداعي بذهن القارىء إلى أنّ من خلق الزوجين في الدنيا، قادر على تحقيق النشأة الأخرى، وهكذا ربط بين القدرتين، تمهيداً لتركيز المفهوم الأخروي الذي يستهدفه في هذا المقطع...

بعد ذلك، طرح موضوعاً جديداً هو ﴿**وأنّه هُوَ أغنى وأقنى**﴾، ثم طرح موضوعاً آخر هو ﴿**وأنّه هو رب الشعرى**﴾: وبهذا يكون النص قد طرح موضوعات دنيوية، فالإغناء، والإقناء (وهو ما زاد على الغنى): مؤشر آخر إلى معطيات الله تعالى حيث يستهدف تركيز هذا المفهوم في الأذهان حتى تتداعى إلى إدراك أنّ الدنيا والآخرة بيد الله تعالى وأما موضوع (الشعرى) فهو

يرتبط بأحد الكواكب التي كان الجاهليون يعبدونه: علماً بأنّ السورة الكريمة أشارت في مقدمتها إلى أصنام اللات والعزى ومناة، وها هي الآن تشير إلى ممارسة وثنية أخرى حتى تتجانس الموضوعات، إلاّ أنّها هنا طرحت هذا الموضوع في سياق خاص هو: أنّ كل شيء هو: مرتبط بقدرة الله تعالى (ومنها هذا الكوكب الذي اتخذه المشركون معبوداً)...

ثم طرح المقطع بعد ذلك: موضوعات تتصل بمصائر المجتمعات البائدة: أقوام نوح وعاد وثمود: رابطاً بهذا الطرح بين المصير الدنيوي والمصير الأخروي الذي يستهدفه في هذا المقطع، حيث أشار إلى هذا الربط بقوله: ﴿**هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة**﴾ أي: قربت النهاية التي تنتظر هؤلاء المكذبين أو المشككين أو المنحرفين بعامة، وبهذا النمط من الربط بين الموضوعات يكون النص قد أحكم عمارة السورة الكريمة من حيث تلاحم جزئياتها بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *



سورة القمر

قال تعالى: **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر، وكذَّبوا واتَّبعُوا أهواءهم وكلُّ أمرٍ مستقرٌ، ولقد جاءهم من الأنباءِ ما فيه مُزدجر، حكمة بالغةٌ فما تُغنِ النُّذُر، فتولَّ عنهم، يوم يدعُ الدّاعِ إلى شيءٍ نُكُرٍ، خُشَّعاً أبصارُهم يخرجون من الأجداثِ كأنَّهم جرادٌ منتشرٌ، مهطِعِين إلى الدّاع يقول الكافرون هذا يوم عسِرٌ... ﴾**.

بهذا المقطع تبدأ سورة (القمر)، وهو مقطع يتحدث عن اليوم الآخر ومقدماته بشكل عام، كما أنّ هذه السورة تختتم بالحديث عن اليوم الآخر أيضاً، إلاّ أن الفارق بين مقدمة السورة وخاتمتها يكمن في كون المقدمة تتحدث عن الحشر والخاتمة تتحدث عن نتائج الحشر، وهذا واحد من أشكال الإحكام الهندسي للسورة حيث يبدأ الموقف فيها بأول زمن اليوم الآخر وينتهي بآخره...

وأما الوسط الذي يتخلل مقدمة السورة وخاتمتها فيتمثل في مجموعة من الوقائع القصصية عن الأقوام البائدة، تصب في الرافد الفكري الذي تضمنته مقدمة السورة...

إذن نحن الآن أمام نص قرآني يتميز ـ مثل سائر السور ـ ببناء فني محكم يبدأ من موقف ويتنامى ثم ينتهي إلى خاتمة الموقف المذكور...

والآن، لنبدأ بدراسة الهيكل الفني المذكور للسورة، ونقف عند بدايتها أولاً...

بدأت السورة الكريمة بالحديث عن اقتراب الساعة، أي: اليوم الآخر الذي يتقرر من خلاله المصير الأبدي للبشريّة... وقد قرن النص بين اقتراب

الساعة وانشقاق القمر بقوله: ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾، وحين نعود إلى النصوص المفسرة نجد أن قضية انشقاق القمر قد حدثت نتيجة لطلب المنحرفين من النبي(ص) أن يشق القمر ليكون دليلاً إعجازياً على رسالته...

من زاوية عمارة النص: فإنّ اقتران القمر بظاهرة اقتراب الساعة يظل مرتبطاً بالمضمون الذي ستطرحه السورة الكريمة في هذا النص، فالنص يتحدث عن تكذيب المنحرفين لرسالة الإسلام قائلاً عنهم بعد عرضه لظاهرة شق القمر ﴿**وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر مستمر**﴾ إذن، جاء (شق القمر) حدثاً عضوياً له مهمته الفنية في الربط بين اقتراب الساعة وبين موقف الكافرين من رسالة الإسلام، ثم النتائج المترتبة على هذا الموقف في اليوم الآخر...

إنّ موقف المنحرفين هو: التكذيب بالرغم من مشاهدتهم الآية الإعجازية (شق القمر) وسبب التكذيب هو كونهم ﴿**اتبعوا أهواءهم**﴾، مع أنّه قد ﴿**جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر**﴾ وهي الأنباء التي تخبرهم عن نتائج التكذيب في الأمم السالفة ونعني بها: الإبادة التي لحقت الأمم المذكورة نتيجة تكذيبهم للرسل... وأما نتيجة التكذيب لمعاصري رسالة الإسلام فمؤجلة إلى ﴿**يوم يدعُ الدّاع إلى شيء نُكر خُشّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ منتشر مهطِعِين إلى الداع**﴾ ويقولون: ﴿**هذا يوم عسر**﴾...

ما ينبغي أن نقف عنده هو ملاحظة الوسط القصصي الذي وظف لإنارة الأفكار المطروحة في البداية... لكن قبل ملاحظة العنصر القصصي لا بد من الوقوف على بعض السمات الفنية التي تضمنتها البداية، وفي مقدمتها ظاهرة الذل (خشوع البصر) فيما تطبع شخصيات المكذبين عند مواجهتهم الحشر أو لنقل: عند أول الزمن الجديد في اليوم الآخر، ونعني به: النفخة التي يترتب عليها الخروج من الأجداث وكأنه جراد منتشر...

إنّ أهمية التشبيه أو الصورة التي تربط بين خروج الناس من أجداثهم وبين الجراد المنتشر تكمن ـ ليس في مجرد عملية الانبعاث وملابساته ـ بل في ما تنطوي عليه عملية الانبعاث من مواقف تتجانس مع هول الحشر نفسه، فقد مهد النص لهذا التشبيه بأنّ الناس يواجهون عند الحشر شيئاً نكراً غير مألوف لديهم، كما مهد له بخشوع البصر وختم التشبيه بيوم الكافرين بأنّه يوم عسير، مما يعني أنّ التشبيه بالجراد المنتشر يكتنفه هول الموقف بخاصة فيما يتصل بالمكذبين...

أما التشبيه أو الصورة نفسها ﴿**كأنهم جراد منتشر**﴾ فتنطوي على أسرار فنية بالغة الدهشة لو أتيح أن تتأملها بدقة، فالجراد يتجمع حتى إذا طلعت الشمس يبدأ الانتشار (والخروج من الأجداث بعد إشراق النفخة عليها تأخذ نفس السمة)... وانتشار الجراد يتسم بالكثرة (والانبعاث يتسم بالكثرة أيضاً)، وانتشار الجراد يتسم بكونه عشوائياً دون تنظيم (والانبعاث يأخذ الطابع ذاته)، وانتشار الجراد يتسم بكون تراكماً (والانبعاث يأخذ نفس الصفة) وانتشار الجراد يتم بنحو مقرون بالانبهار (والخروج من الأجداث يأخذ نفس طابع الانبهار)... إذن، الأطراف التي اعتمدتها صورة (الجراد المنتشر) تتعدد حتى تصل إلى ستة أطراف تتماثل مع أطراف (الخروج من الأجداث) وهو قمة ما يمكن تصوره في تركيب الظاهرة الفنية (ونعني بها التشبيه)... والمهم بعد ذلك كله، أنّ عنصر (التفرد) الذي تستهدفه الصورة والتشبيه وهو (هول الموقف): يحقق عنصر الإثارة الفنية عند المتلقي بحيث ينقله إلى التجربة التي يحياها الذهن في تجسيد الهول المصاحب لعملية الانبعاث، وهو (هول) يستهدفه النص، بغية نقلنا إلى صعيد الممارسة العبادية التي أوكلتها السماء الى الآدميين، ومحاولة تعديل سلوكنا خلال عملية النقل المذكورة، بخاصة أنّ النص ـ كما أشرنا ـ مهد وألحق بالتشبيه المتقدم صوراً من هول الموقف من

حيث مواجهة الآدميين لشيء نكر غير مألوف، وكونهم (خشع الأبصار) (مهطعين) قائلين ـ والحديث عن الكفار ـ هذا يوم عسر. . . .

وأياً كان، يعنينا من ذلك كله أن نصل بين مقدمة السورة التي تحدثت عن تكذيب المنحرفين لرسالة محمد(ص) بالرغم من مواجهتم للآية الإعجازية (انشقاق القمر) وبالرغم من إحاطتهم بمصائر الأمم البائدة، وبين المصائر التي ستواجههم في الموقف، ثم انعكاسات ذلك على الأجزاء اللاحقة من السورة.

* * *

قال تعالى: **﴿كذبت قبلهُمْ قومُ نوحٍ فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وأزدجر، فدعا ربَّهُ أنِّي مغلوبٌ فانتصرْ، ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمرٍ، وفجّرنا الأرض عيوناً فألتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدر وحملناه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ، تجري بأعيُنِنا جزاءً لمنْ كان كُفِر، ولقد تركْناها آية فهلْ من مدَّكرٍ، فكيف كان عذابي ونُذرِ، ولقد يسّرنا القرآن للذِّكر فهل من مدَّكرٍ﴾** . . .

هذا المقطع من سورة القمر هو أول القصص التي وظفها النص القرآني لإنارة الأفكار المطروحة في بداية السورة، حيث لحظنا أن المقدمة تحدثت عن تكذيب المكيين لرسالة الإسلام بالرغم من مشاهدتهم دلائل إعجازية مثل شق القمر، وبالرغم من سماعهم **﴿من الانباء ما فيه مزدجر﴾** ومن أنباء الأمم الماضية ـ وهنا تقدم النص بعرض الأنباء فتحدث عن قوم نوح أولاً، ثم سائر الأقوام. . .

والملاحظ فنياً، أنّ عرض قصص الماضين جاء وفق عمارة هندسية بالغة الإحكام والجمال، فكل قصة يسبقها حديث عام ويلحقها حديث آخر يتكرران في بداية ونهاية كل قصة. . . البدايات تتحدث عن تكذيب القوم، والنهايات: تختم كل قصة بقولها: **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾** أو بفقرة تقول: **﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾**. كما أنّ القصص جميعاً تخضع

لإيقاع موحد (من حيث العنصر الصوتي) كما تخضع للعنصر الصوري بنمطيه المباشر (وهو عرض المرأى الحسي) وغير المباشر (وهوالعرض القائم على الرمز أو التشبيه ونحوه من أشكال التركيب للصورة. . . كل أولئك يتم وفق تجانس بين العنصر القصصي ومقدمة السورة التي وظفت القصص لها. . .

وحين نعود إلى قصة قوم نوح، نجد عنصر (الصورة) فيها قد ارتكن إلى نحوها المباشر إلاّ أنّه ينطوي على نفس الإثارة التي تتضمنها الصورة المركبة. . . فبالرغم من أنّ القصة تتحدث عن الجزاء وهو عقاب ـ يحمل الموت لكل المكذبين برسالة السماء من خلال عملية (الطوفان) المعروفة إلاّ أنَّ عرض عملية (الطوفان) نفسها تمت بلغةٍ صوريةٍ في غاية الإمتاع والإثارة والجمال فنحن نقرأ مثلاً: العرض الآتي لمرأى الطوفان على هذا النحو **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً﴾** كما نقرأ العرض المتصل بالسفينة وسط الطوفان على هذا النحو **﴿وحملنا على ذات ألواح ودُسُر﴾**.

إنّ عنصر(الصورة)المركبة والمباشرة بنحو يتجاوز المرأى الحسي المرعب إلى مرأىً يشيع عناصر الجمال فيه يظل من الملفت للنظر... فالسماء (تفتح) بماء منهمر. . . والأرض تفجر (عيوناً). . . والمتلقي بمقدوره أن يتحسس جمالية المرأى (مع أنّه مرعب) حينما يتاح له مشاهدة الأرض تتفجر بالينابيع، والجو ينهمر بالمياه... ففضلاً عن تلاقي كلٍّ من الماءين (ماء السماء) و (ماء الينابيع)، وهو تلاقٍ لا يمكننا تخيل مشاهدته إلاّ من حيث الذهن، نجد أنّ التقابل بين ماء (نازل) إلى الأرض، وماء (صاعد) من الأرض ينطوي ـ دون أدنى شك ـ على مرأى مثير كلّ الإثارة من حيث (جماليته) المتضمنة في الحين ذاته (عنصر الهول أو الخوف)، أي أنّنا أمام لغة فنية تحمل عنصرين (هما الجمال والرعب) في آن واحد لتفصح عن ظاهرة الإعجاز التي نطقت بها هذه القصة ذاتها، أي: أننا أمام تجانس ـ في غاية الإثارة الفنية ـ بين لغة العرض،

والعرض نفسه، أي صياغة اللغة وصياغة الواقعة (الطوفان)، ثم بين (صعود المياه) و(نزولها) ثم بين عملية (انفتاحها) من السماء، وعملية (تفجيرها) من الأرض، كل أولئك لا يمكن أن ننقلها بأمانة إلى المتلقي إلاّ إذا سمح هو لنفسه بإحكام عملياته الذهنية بدقة في تصوّر العرض القصصي المذكور. . .

وهذا كله فيما يتصل بعملية الطوفان.

أما ما يتصل بظاهرة (السفينة)، فالملاحظ أنّ النص القرآني الكريم لم يذكرها بالاسم ـ كما ذكرت في نصوص قرآنية أخرى ـ بل وصفها بأنّها **﴿ذات ألواح ودُسُر﴾**. وفي تصورنا أنّ المسوّغ الفني لمثل هذا العرض للبيئة القصصية هو: التجانس القائم بين عناصر النص حيث جاءت (الصورة) عنصراً رئيسياً في لغة القصة بدلاً من مجرد السرد وهذا ما لحظناه في مقدمة السورة التي تحدثت عن هول الموقف في اليوم الآخر من خلال (الصور) مثل **﴿خشعاً أبصارهم﴾** و**﴿كأنهم جراد منتشر﴾** و**﴿مهطعين﴾** حيث تمّ رسم المواقف من خلال الصورة المتقدمة وهي صورة حسّية معبرة عن طبيعة الاستجابات التي يصدر الناس عنها في الحشر، كما أنّها معبرة عن طبيعة الأحداث التي تصاحب أو تسبق الاستجابات المذكورة متمثلة في عملية (الانبعاث: الخروج من الأجداث). . . المهم: أنّ النص القرآني الكريم قد اعتمد عنصر (الصورة) في عرضه لسلوك المكذبين برسالة الإسلام، وفي وصل ذلك بعرض سلوك المكذبين برسالة السماء من الأمم الغابرة بينما نجد في نصوص قرآنية أخرى عرضاً من نمط آخر هو: الأسلوب المباشر. . . وفي الحالين نجد أنّ هدف النص هو توصيل الدلالات المختلفة إلى المتلقي بغية تعميقها في ذهنه، وحمله على تعديل السلوك العبادي، ومنه السلوك المتصل برسالة الإسلام وموقف المنحرفين منه بما واكبه من ترتيب آثار العقاب الدنيوي عليه فضلاً عن العقاب الأخروي، مما يتعين على المتلقي أن يفيد منه في تعديل سلوكه.

قال تعالى: ﴿**كذّبت عاد، فكيف كان عذابي وَ نُذُر إنّا اَرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يومِ نحسٍ مستمرٍ، تنزِعُ الناسَ كأنَّهم أعجازُ نخلٍ مُنقعرٍ، فكيف كان عذابي ونُذر، ولقد يسَّرْنا القرآنَ للذكرِ فهل من مدَّكِرٍ**﴾.

في هذا المقطع نواجه القصة الثانية من سورة القمر حيث اضطلع العنصر القصصي فيها بإنارة الأفكار التي طرحتها مقدمة السورة وهي عرض مواقف المكذبين لرسالة الإسلام وعدم اتعاظهم بالدلائل الإعجازية من جانب والجزاء الدنيوي الذي لحق الماضين من جانب آخر.

القصة هي قصة هود عليه السلام مع قومه حيث كذبوه فاستتبع ذلك إنزال العقاب عليهم متمثلاً في إرسال ريح شديدة الهبوب عليهم بحيث قلعتهم على رؤوسهم ودقت رقابهم...

ويعنينا (من الجزاء المذكور)، العرض الفنّي له، حيث قلنا أنّ القصص التي تضمنتها سورة (القمر) قد اعتمدت العنصر (الصوري) في رسم الوقائع، وها هي القصة التي نواجهها الآن قد اعتمدت العنصر الصوري المذكور في رسم العقاب... ويمكننا ملاحظة ذلك بوضوح في هاتين الآيتين اللتين تحدثت أولاهما عن نمط الأداة التي استخدم العقاب فيها ﴿**إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمر**﴾ وتحدثت أخراهما عن كيفيته ﴿**تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعرٍ**﴾...

أما نمط الأداة فهي «الريح» ذات الصوت نظراً لشدة هبوبها حيث تفصح الشدة المذكورة عن شدة الجزاء نفسه، كما هو واضح، كما أنّ هبوبها في زمن خاص يتجانس مع الشدة المذكورة...

فقد وصف النص ذلك بأنّ الهبوب كان (في يوم نحس مستمر)، واكتفى

بالإشارة إلى كونه يوماً (نحساً) و(مستمراً) دون التفصيل الذي ذكرته نصوص قرآنية أخرى من أنّها قد استمر سبع ليال وثمانية أيام، لأنّ الهدف هو تحديد الشدة وليس تفصيلها، ولذلك فإنّ كونه (نحساً) وكونه (مستمراً) كافٍ في التحديد المذكور، والمهم بعد ذلك هو: تحديد الكيفية التي تم إنزال العقاب من خلالها متمثلة في ذلك (التشبيه) أو (الرمز) أو «الصورة» التي وصفت (الريح) بأنّها (تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخلٍ منقعر﴾...

إنّ أهمية هذه الصورة الفنية، مماثلة للصورة الفنية التي واجهناها في مقدمة النص عن يوم الحشر ﴿**يخرجون من الأجداث كأنّهم جراد منتشر**﴾ من حيث تعدد مفردات التشابه بين طرفي الصورة، فنحن نواجه في الصورة الجديدة التي نتحدث عنها الآن طرفين: أحدهما عملية نزع الناس من خلال الريح، والأخرى: كون عملية «النزع» مثل ﴿**أعجاز نخل منقعر**﴾...

إنّ عملية اقتلاع الأصول مقرونة بصعوبةٍ ملحوظة عادةً، حيث لا تتم هذه العملية إلاّ بوسائل خارجة عن الجهد الحركي المعتاد، لذلك فإنّ الاقتلاع فضلاً عن كونه محفوفاً بالشدة المذكورة يشير بذاته إلى ظواهر متنوعة منها: فصل النخل عن أرضيته التي نبت فيها: طريقة إطراحه على الأرض من حيث العنف الذي يرافق ذلك، ومنها: تشتت الأصول وانفصال بعضها عن الآخر، ومنها التشويه الذي يلحق الأصول المذكورة... إلخ.

إنّ هذه المفردات من عملية اقتلاع الأصول لو قارناها بمفردات عملية النزع من خلال الريح تجسّد مفردات متنوعة من التماثل بين طرفي الصورة الفنية المركبة... فالريح التي أرسلتها السماء اقتلعت الناس من أرضهم بنحو مماثل لاقتلاع النخل من أصوله، كما أن سقوطهم، وفصل رؤوسهم عن الأبدان، أو دق الرؤوس ثم رميهم على الأرض: يماثل العمليات التي رافقت

قلع النخل من أصوله بما واكبه من سقوط، وتراكم، وتشتت، وتشويه. . . إلخ.

إذن، نحن الآن أمام صورة فنية متعددة الأطراف تماثل تلكم الصورة التي لحظناها عن عملية انبعاث الناس وكأنهم جراد منتشر فيما عرضتها مقدمة السورة لتتم عملية التجانس أو التماثل بين الخطوط الهندسية التي انتظمت عمارة السورة. وهذا واحد من أبعاد البناء المحكم الذي طبع هذا النص وسواه من النصوص القرآنية. . .

والإحكام الهندسي المذكور لا يقف ـ في الواقع ـ عند حدود جمالية البناء بما ينطوي عليه من تجانس بين الخطوط، أو بما يتضمنه من صور مركبة تشع بإيحاءات مختلفة، بل يتجاوز ذلك إلى الدلالة الفكرية التي يستهدفها النص حينما يصوغها بالنحو المتقدّم، حيث نستخلص من الدلالة المذكورة شدة الجزاء الدنيوي الذي يلحق المتمردين على أوامر السماء، فضلاً عن الجزاء الأخروي، وهي دلالة تحمل المتلقي على التفكير في ممارساته: بغية تعديل سلوكه في مختلف الممارسات.

* * *

قال تعالى: ﴿**كذَّبت ثمودُ بالنُّذرِ فقالوا أبشراً منّا واحداً نتَّبعُه إنّا إذاً لفي ضلالٍ وسُعرٍ، أأُلقِي الذِّكر عليه من بينِنا بل هو كذَّاب أشِرٌ سيعلمون غداً مَن الكذَّاب الأشِر، إنّا مرسلوا النَّاقةِ فتنةً لهم فٱرتقبْهُم وٱصطبر، ونبِّئْهُم أنّ الماء قسمةٌ بينهُم كلُّ شِربٍ مُحتضر، فنادوا صاحبَهُم فتعاطى فعقَر فكيف كان عذابي ونُذُر إنّا أرسلنا عليهم صيحةً واحدة فكانوا كهشيم المُحتظر**﴾.

هذا المقطع يتناول ثالث القصص التي تضمنتها سورة القمر، وهي قصة صالح عليه السلام مع قومه. . . أنّها مثل القصص السابقة في النص من حيث اعتمادها على عنصر (الصورة المركبة) في عملية العرض القصصي المتصل

برسم الجزاء الدنيوي الذي لحق القوم.. أما رسم الوقائع والمواقف التي تضمنها المقطع فيتمثل في عملية التكذيب بشكل عام، وفي كونه مرتكناً إلى استدلال هزيل هو أنّهم لن يتبعوا بشراً واحداً منهم، وفي أنّهم سيكونون في شدةٍ وضلال لو اتبعوه كما أنّهم اتهموه عليه السلام بالكذب والبطر... إلخ.

واضح أنّ هذه المواقف تفصح عن التخلف الذهني الذي يطبع المنحرفين عن السماء ورسالاتها، كما يفصح عن الاضطراب النفسي الذي يغلفهم بعامة... فكونه بشراً منهم، أو كونه واحداً وليس بجماعة، لا يستتبع تكذيباً للرسالة، ما دام الأمر لا ينحصر في بشرية الرسول أو جماعية الرسل، فلو كان الأمر ينبغي في تصورهم الهزيل أن يتجاوز العنصر البشري إلى عنصر آخر مثل الملائكة، لكان استدلالهم بجماعية الرسل قائماً على التناقض، فيما نستخلص منه مدى التخلف والاضطراب اللذين يصدرون عنهما في موقفهم المنحرف عن رسالة صالح عليه السلام..

وأياً كان، فإنّ حادثة (الناقة) التي تمثل عملية (اختبار) للقوم، تجيء لتعبّر عن نفس سمة التخلف الذهني والاضطراب النفسي اللتين تطبعهما... انّهم طلبوا بأنفسهم دليلاً إعجازياً لرسالته عليه السلام، وكان الأمر على النحو الذي طلبه القوم، إلاّ أنّهم عقروا الناقة وتآمروا على قتله عليه السلام، مما يكشف ذلك عن نزعتهم العدوانية من جانب وعن تخلفهم الذهني الذي كشفته طريقة التآمر والعقر من جانب آخر...

المهم، أنّ الواقعة المذكورة، استتبعت جزاءً دنيوياً هو إبادتهم، حيث تظل قضية الجزاء هي المحور الفكري الذي تحوم عليه قصص السورة التي وظفت لإنارة ما هو مطروح في مقدمتها من الأفكار، ومنها أنّه ﴿**جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر**﴾ أي: جاء العقاب الذي لحق البائدين ما فيه متعظ عن الكفر والتكذيب والتمرد الذي طبع المجتمع المكيَّ وغيره... والأهم من

ذلك، أن نقف عند عنصر (الصورة الفنية) التي اعتمدها النص في رسم الجزاء الدنيوي المشار إليه، حيث قلنا: أنّ من أهم معالم البناء الهندسي لسورة القمر هو: اعتمادها (الصورة في رسم الجزءات التي لحقت البائدين: اتساقاً مع عنصر (الصورة) التي تضمنتها مقدمة النص. . .

الصورة التي نواجهها تتمثل في الآية الآتية: ﴿**إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة، فكانوا كهشيم المحتظر**﴾. هذه الصورة مماثلة لصورة ﴿**الجراد المنتشر**﴾ و ﴿**أعجاز نخل منقعر**﴾ من حيث تعدد المفردات التي تتماثل بين طرفي الصورة: (الإبادة) و(هشيم المحتظر). . . فالهشيم هو حطام الشجر المتناثر، و (المحتظر) هو من يجمع الحطام المذكور ليفيد منه في الحظيرة التي يصنعها لحيواناته. . . فالصيحة النازلة من السماء أبادت القوم على نحو جعلتهم مثل الهشيم. . . أنّه حطام متناثر. . . مشوه. . . متراكم. . . إلخ، كما أنّ أجسادهم قد تناثرت وتكومت بنفس السمة المشوهة. . . والأهم من ذلك أنّ صاحب الحظيرة الذي يجمع الحطام المذكور في نطاق حيواناته لو قورن بالمصائر التي انتهى القوم إليها لتراءى لنا مدى التفاهة التي غلفت مصائرهم المذكورة، وهو أمرٌ يتطلب الوقوف عنده لاستخلاص العظة من أمثلة هذه المصائر. . .

إذن، جاء رسم الجزاء الذي لحق قوم صالح عليه السلام مقروناً بنفس الرسم الذي لحظناه عند قوم هود عليه السلام من حيث اعتماده عنصر الصورة وتعدد أطرافها، ومن حيث تجانس ذلك مع مقدمة السورة التي اعتمدت نفس العنصر في رسم عملية الانبعاث في اليوم الآخر، ومن ثم تجانس أولئك جميعاً في الدلالات الفكرية التي استهدفها النص في رسمه ليوم الحشر وفي رسمه للجزاءات الدنيوية على نحو ما تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: **﴿كذَّبت قومُ لوطٍ بالنُّذر إنّا أرسلنا عليهم حاصِباً إلاّ آل لوطٍ نجّيناهم بسَحَرٍ، نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكَر، ولقد أنذرَهُم بطشتَنا فتماروا بالنُّذُر، ولقد راودُوه عن ضيفِه فطمسْنا أعينَهُم فذوقُوا عذابي ونُذُرِ، ولقد صبّحهُم بُكرةً عذابٌ مستقرٌ، فذوقوا عذابي ونُذُر، ولقد يسّرنا القرآن للذِّكرِ فهل من مُدّكِر﴾**.

في هذا المقطع نواجه قصة لوط (عليه السلام) وهي رابع قصة تتضمنها سورة القمر... ويُلاحظ أن في هذه القصة ـ مضافاً إلى واقعة الجزاء الدنيوي الذي لحق قوم لوط، وهو المحور الفكري لجميع قصص السورة ـ ثمة أحداثاً ومواقف لا بدّ من الوقوف عندها لملاحظة موقعها الهندسي من عمارة النص...

فهناك أولاً ظاهرة (التكذيب) لرسالة لوط (عليه السلام) حيث تظل طابعاً مشتركاً لجميع القصص، وهناك إشارة إلى العقاب الجمعي إلاّ آل لوط حيث أنقذهم الله من العقاب المذكور جزاء إيمانهم، وهناك حادثة سلوكهم الشاذ (مراودة الضيوف)، ثم: حادثة الجزاء المتمثلة في طمس العيون...

وهنا ينبغي التنبيه إلى التجانس الفنّي بين حادثة سلوكهم الشاذ وحادثة الجزاء، حيث يمكن ملاحظة الصلة بين العيون (من حيث نشاطها الشاذ حيال الضيوف) وبين طمسها (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم...)، والمهم بعد ذلك أن نقف عند حادثة الجزاء (طمس الأعين) ما دامت السورة قائمة أساساً ـ كما كررنا ـ على العنصر (الصوري) في رسم الجزاءات الدنيوية التي لحقت أقوالهم نوح وهود وصالح، ثم قوم لوط... لقد تمت إبادة الأقوام السابقة أمّا من خلال الماء ـ مثل حادثة الطوفان ـ أو الريح مثل أقوام هود، أو الصيحة مثل أقوام صالح، ثم: الحصباء أو الحجر بالنسبة لمجتمع لوط... **﴿أنا أرسلنا عليهم حاصباً﴾**: حيث أرسل عليهم ريحاً تُمطِرُهم بالحجارة

والحصباء. . . إلاّ أن النص لم يرسم المصائر التي انتهوا إليها بالنسبة للعقاب المذكور، وإنما حدد رسم ذلك في سياق جزاء آخر وهو (طمس العيون) فيما قلنا أنه يظل عنصراً مشتركاً بين جميع القصص: من حيث كونه قائماً على (التركيب الصوري). . .

إن صورة طمس العيون ـ فضلاً عن كونها متجانسة مع حادثة مراودة الضيوف ـ تنطوي على أسرار فنية في تركيب الصورة، فسواء أكان المقصود منه هو مسحها من الوجه أو إزالة خطوط الوجه بعامة بحيث لا يرى من خلالها أثر العين كما تذكر ذلك النصوصُ المفسرة، ففي الحالين نواجه مرأىً حسيّاً مثل المرائي التي لحظناها في حادثة الطوفان حيث كانت البيئة القصصية تتناول هناك المكان، بينما تتناول الشخوص: في القصة التي نتحدّث عنها، والمهم هو طبيعة الإثارة الملحوظة التي يستتبعها مثل هذا المرآى أو المشهد. ان أدنىٰ تأمّل لوجهٍ مطموس العين أو وجهٍ مشوّه لا أثر للعين فيه كافٍ لإثارة المُشاهد أو المُتخيّل وجعله منبهراً كل الانبهار. إن التسوية للوجه أو الأعين تظل في واقعها متجانسة مع سائر عمليات التشويه التي لحقت المجتمعات السابقة مجتمع نوح، هود، صالح: كل ما في الأمر أن لكل مجتمع بيئته الخاصة ونمط الجزاء المتناسب مع البيئة المذكورة، فيما سبق أن تحدّثنا عنها في مواقع سابقة. . .

وأياً كان، فإنّ القصص الأربع التي وقفنا عليها: تمثّل عملية إنارة لأفكار السورة التي مهدت بالحديث عن تكذيب المشركين لرسالة محمد (ص). . . وكانت القصص جميعاً تعتمد عنصر (الصورة) الفنّية بنمطيها، المباشر والمركّب، إلاّ أن العنصر القصصي الذي لحظناه قد خُتم الآن بقصة خامسة هي قصة مجتمع فرعون حيث اكتفى النص بالإشارة إليه عابراً دون أن يرسم أية حادثة خاصة فيها، ودون أن يعتمد العنصر الصوري

فيها بل أشار إلى عملية التكذيب والجزاء المبهم له. . . ولعل سرّ ذلك يتمثل في عدم انحراف الجميع، حيث استجابت شرائح اجتماعية ملحوظة لرسالة السماء في ذلك العصر ولذلك خصص النص رسم الجزاء بآل فرعون فحسب قائلاً عنهم ﴿**ولقد جاء آل فرعون النُّذُرُ. . . إلخ**﴾.

خارجاً عن ذلك كله: يعنينا الآن أن نتقدّم إلى خاتمة السورة التي ربطت بين العنصر القصصي الذي تحدّثنا عنه وبين مقدمة السورة التي طرحت أفكاراً برسالة الإسلام وموقف المشركين منها.

* * *

قال تعالى: ﴿**أكفّارُكُم خيرٌ، من أولئكُمْ أمْ لكُم براءةٌ فى الزُّبُر، أم يقولون نحن جميعٌ منتصرٌ، سيُهزَمُ الجمعُ ويُولُّون الدُّبُر، بل السّاعةُ موعِدُهُم والسّاعةُ أدهى وأمرُّ، إنَّ المجرمين في ضلالٍ وسُعُرٍ، يوم يُسحبُون في النَّار على وجوهِهم ذوقُوا مسَّ سقَرَ، إنّا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بقدَرٍ، وما أمرنا إلاّ واحدةٌ كلمحٍ بالبصر، ولقد أهلكنا أشياعَكُم فهلْ مِن مُدَّكِر، وكُل شيءٍ فعلُوهُ في الزُّبر، وكُلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُستطر، إنَّ المُتَّقين في جنّاتٍ ونهرٍ، في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مُقتدر. . .**﴾.

بهذا المقطع تختم سورة القمر التي بدأت بالحديث عن اقتراب الساعة وصلتها بالمكذّبين لرسالة الإسلام، حيث جاء هذا الختامُ تجسّداً لوقائع الساعة التي طُرحت في مقدمة السورة، بعد أن توسّط البداية والنهاية عنصر قصصي وُظِّف لإنارةِ الأفكارِ المطروحة في البداية من حيث تذكير المنحرفين بمصائر الأمم المكذبة لرسالة السماء. . .

المهم هو، ملاحظة البناء الفني لهذا الختام وصلته بالبداية، وبالوسط القصصي. . . فأوّلاً قدّم المقطع عملية استدلال بأنّ المكذبين ليسوا بأشد قوّة من الأمم البائدة المكذبة التي لحقها الجزاء الدنيوي، كما أن المكذبين لا

يملكون براءة في الكتب السابقة من العذاب، كما أن اجتماعهم على كلمة الكفر لن ينتشلهم من الهزيمة حيث هزموا فعلاً في معركة بدر. . .

إنّ هذا الاستدلال له أهميته في ميدان التذكير بمصائر الأمم البائدة ما دام الهدف هو إلقاء الحجة عليهم ودحض المسوّغات المختلفة التي يرتكنون إليها في موقفهم المنحرف من رسالة الإسلام. . . بيد أن النص وهو يستهدف لفت أنظارهم إلى المصائر الدنيوية التي يمكن أن يفيدوا منها في تعديل السلوك، أرهص لهم بأن الهزيمة الدنيوية ستلحقهم (سيُهزم الجمع ويولّون الدبر) ثم وصل ذلك باليوم الآخر أو (الساعة) التي استهلت السورةُ الحديث عنها بقولها (اقتربت الساعة)، حيث أوضح بأنّ اليوم الآخر أدهىٰ وامرّ من الهزيمة الدنيوية. . .

هنا نواجه عملية تجانس بين (الساعة) التي ذكرها النص في المقدمة و(الساعة) التي ختم بها السورة، حيث جاء التلويح باقترابها مجسّداً لوقوعها فعلاً من حيث الهول الذي يكتنفها في اليوم الآخر. . .

ونلاحظ أيضاً عملية تجانس أخرى بين المصير الذي رسمه النص للمكذبين بقوله تعالى: ﴿**إن المجرمين في ضلال وسعر**﴾، وبين قولهم أنفسهم ـ وهم أحد الأقوام البائدة ـ ﴿**انا إذاً لفي ضلال وسعر**﴾. فقد هتف هؤلاء المنحرفون بأنهم لفي ضلال وسعر لو اتبعوا بشراً واحداً منهم في الإيمان برسالة السماء، وها هو النص يجيبهم في ختام السورة بأنهم (﴿**في ضلال وسعر**﴾ في اليوم الآخر وليس في اتباعهم بشراً أرسلته السماء. . .

وهناك ثالثاً عملية تجانس بين قوله تعالى في الختام ﴿**وما أمرنا إلاّ واحدة كلمحٍ بالبصر**﴾ وبين اقتراب الساعة المشار إليه في المقدمة. . . وهناك رابعاً تجانس بين الخاتمة القائلة: ﴿**ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر. . .**﴾ وبين البداية والوسط القصصي اللذين يركّزان على هذا الجانب مثل ﴿**ولقد**

تركناها آية فهل من مدّكر﴾ ومثل **﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾**. . .

إذاً، التواشج الفنّي أو العضوي بين خاتمة السورة ووسطها وبدايتها من الوضوح بمكان بحيث يفصح ذلك عن مدى الإحكام الهندسي بين خطوط النص في مختلف أقسامه. . .

هنا ينبغي لفت الانتباه أيضاً إلى العنصر (الصوري) الذي قلنا بأنّ سورة القمر قد اعتمدته في عرض الموضوع، حيث نواجه في الخاتمة أيضاً انسحاب هذا العنصر عليها متمثلاً في جملة من الرسم للبيئة الاخروية. . . منها مثلاً: **﴿يوم يُسحبون في النار على وجوههم، ذوقوا مسّ سقر﴾** ومنها: **﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾** ومنها: **﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾**. ففي هذه الآيات نلحظ عنصر (الصورة الفنية) بنمطيها المركّب كما هو ملحوظ في الآية الأخيرة (كلمح البصر) والمباشر مثل الآيتين السابقتين عليها. . . وأهمية هذا العنصر الصوري تتمثل في كون العنصر المذكور يجسد عملية تجانس في لغة النص التي اعتمدت هذا العنصر في البداية والوسط والنهاية، كما يمثل عملية تجانس بينه وبين العنصر الصوتي الذي يحتل موقعاً فنياً في غاية الأهمية في هذه السورة التي احتفظت نهاياتها بقرارٍ أو قافية واحدة يتحسس جمالية إيقاعها حتى من لم يمتلك خبرة صوتية ذات بال في هذا الميدان، حيث أن تجانس الصوت يضفي جمالية فائقة على النص كما هو واضح. . .

أخيراً، لا بد من الإشارة إلى أن الخاتمة أوردت الآية الآتية في سياق حديثها عن الساعة والعقاب الأخروية **﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾**. . . ترى: ما هو الموقع الهندسي لها؟.

في تصورّنا أن النص من الممكن أن يكون قد استهدف التأكيد على أن الجزاء الملوّح به (وهو لم يحدث بعد) سيكون حتمياً بنفس الحتمية الحسيّة التي يشاهدها الناس في الظواهر الكونية المختلفة من حيث خضوعها لتقديرات

السماء وفقاً لمتطلّبات الحكمة التي تستتلي ذلك، مما يفصح ذلك عن أبعاد أخرى من إحكام البناء الهندسي الذي يجانس بين خطوط في المقطع الواحد، فضلاً عن التجانس أو التلاحم بين مختلف المقاطع التي تنتظم النص.

* * *



سورة الرحمٰن

بدأت سورة الرحمٰن بمقطعين يتحدثان عن جملة من الظواهر **الإبداعية**، ثم تلاهما مقطعان قصصيان عن الجنتين العاليتين والدانيتين. . . ولذلك يمكن شطر هذه السورة إلىٰ قسمين، كل قسم ينشطر إلىٰ مقطعين. . . وهذا هو أحد الخطوط الجمالية التي تنتظم عمارة السورة المقسمة إلى ثنائيات. . .

المقطع الأول من السورة ختم بعبارة **﴿و يبقىٰ وجه ربك ذوالجلال والإكرام﴾** كما أن المقطع الرابع و الأخير، ختم بعبارة **﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال و الإكرام﴾** و لهذا الختام المتجانس و المتكرر في المقطع الأول و في المقطع الاخير: سرّه الفني المرتبط بعمارة السورة الكريمة... فالأوّل يتحدّث عن الظواهر الكونية في ميدان الثواب و الانارة الاجتماعية لها، و الأخير يتحدث عن الجزاء الأخروي الإيجابي، أي : أن كليهما يصبّ في رسم ما هو إيجابي من جانب، وأحدهما يتصل بالدنيا و الثاني بالآخرة من جانب آخر، فيما تفصح عن جمالية و إحكام مثل هذا التقابل بين خطوط البناء لهذه السورة...

ويلاحظ، أن المقطع الثاني عَرضَ للجزاء السلبي دنيوياً وأخروياً، بدءً من آية (سنفرغ لكم أيها الثقلان). . . وانتهاء بآية (يطوفون بينها وبين حميم آن). . . وفي تصورنا أن لهذا الرسم أهميته الهندسية من حيث كونه يعدّ استكمالاً للبيئات الثلاث (الجنتين العاليتين) (الدانيتين) (جهنم). . . ولذلك ما أن انتهىٰ النص من تحديد جهنم حتى اتجه إلى تحديد الجنتين العاليتين والدانيتين، وبذلك يكون النص قد ربط بين أقسام السورة، بالنحو الذي ذكرناه.

قصة الجنات الاربع:

في سورة الرحمٰن، سردٌ يصف أربع جنّاتٍ في بيئة الآخرة، على نحوٍ

مزدوج: أي جنتين لكل بطل، وكل جنتين ينتظمهما وصفٌ ـ فيما يتصل بتفصيلات البيئة ـ متميزٌ عن الآخر، مما يعني أنَّ هذا التميّز له دلالته الخاصة التي ينبغي أن نقف عندها.

ولنقرأ أولاً سرد القصة للجنّتين الأولتين:

﴿ولمن خاف مقام ربّه جنّتان فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان. ذواتا أفنان... إلخ﴾.

ولنقرأ سرد القصة للجنّتين الأخرتين:

﴿ومن دونهما جنّتان فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان مُدهامّتان... الخ﴾.

هذا يعني، أنّ هناك جنّتين ذواتي بيئةٍ واحدة في كلّ مفرداتهما: من زرعٍ وماء وفرشٍ وحور، بحيث تتماثل هاتان الجنتان في كلّ مستوياتهما.

وهناك جنّتان غيرهما، تتماثلان أيضاً في مستوياتهما المتصلة بالزرع، والماء، والفَرش والحور، لكنهما متميزتان عن الجنّتين الأولتين.

والسؤال هو: هل أن كلا من الجنّتين المزدوجتين، رُسِمَتَا لعنصرٍ بشريّ واحد من حيث موقعه العبادي؟ أم أنّهما تمثّلان عنصرين أو طبقتين أو موقعين يُفاضل أحدهما الآخر، على نحو التفاضل الذي سنلحظه في سورة (الواقعة) مثلاً، عندما نجدها ترسم لـ(السابقين) موقعاً يفضل على الموقع الذي ترسمه لأصحاب اليمين؟

وأهمية هذا السؤال تنعكس ـ دون أدنى شك ـ على أهمية الوظيفة الخلافية في الأرض، وانسحابها على الموقع الذي يحتلّه (المؤمنون) في بيئة الآخرة: تبعاً لحجم (الإيمان) الذي مارسوه في الحياة الدنيا.

هذا ما يستدعي التأمّل ـ كما قلنا ـ.

ولنقف ـ إذن ـ عند تفصيلات القصة.

إنّ بعض النصوص المفسرة، تذهب إلى أنّ الجنّات الأربعَ، تظل مكافأةً لعنصر بشري واحد يتنقل من خلالها حيث يشاء. كل ما في الأمر أنّ الجنّتين الأولتين تظلان وكأنّهما مقرٌ خاصٌ للشخصيّة، وأنّ الجنّتين الأخرتين تقعان على مقربةٍ من موقعه الخاص ينعم بهما حين يشاء.

بيد أنّ مثل هذا التفسير لا يمكن الركون إليه، لسببين:

أولهما: مخالفته لظاهر النص القصصي.

ثانيهما: مخالفته لنصوص مفسرة أخرى، موثوق بها.

فمن حيث البناء الفني للقصة، لا نتوقع ـ نحن القراء أو السامعين ـ أن تبني القصةَ هيكلها على أربع جنّاتٍ: كلّ اثنتين منهما، متميزٌ عن الآخر، دون أن ينسحب هذا التمييز، على (الأبطال) الذين ينعمون بهذه المقاعد، مما يعني ـ بالضرورة ـ أن يكون (الأبطال) أيضاً، لهم تميّزهم وخصوصيتهم.

إنّ الناقد القصصي أو المتذوق الفنّي بعامة، ممن يخبر أساليب رسم (البيئة) و(البطل)، والعلاقة العضوية بينهما، ودقائق التفصيلات المتصلة برسمهما: ثم مدى التلاحم بين دقائق هذه التفصيلات، بمقدوره ـ حتى بعيداً عن النصوص المفسرة ـ أن يستخلص أنّ الجنّتين الأولتين خُصصتا لطبقةٍ متميزةٍ عن الطبقة الأخرى التي لا بد أن تكون أقلّ درجةً من الطبقة الأولى، وإلا لانتفىٰ المسوّغُ الفني لهذا التقسيم، من حيث [الهيكل القصصي] العام للنص.

والأهم من ذلك، أنّ النصوص المفسرة، الموثوق بها، الصادرة عن أهل البيت(ع)، تُعزّز مثل هذا التفسير الفني الخالص، مما يُضاعف من خطورة السمة الفنيّة التي تطبع القصص القرآنية الكريمة.

ولسوف نلقي مزيداً من الإنارة على هذا الجانب، في تضاعيف دراستنا لهذه القصة الكريمة.

ولكن، يعنينا أن نبدأ بدراسة التفصيلات المتصلة ـ أولاً ـ بالجنتين الأولتين، وموقعهما من (الأبطال) الذين ينعمون بمعطياتهما، وصلة ذلك بالمهمة العبادية في الأرض: حيث يتوقّف نمط المصير الذي ترسمه القصة هنا، على نمط السلوك الدنيوي الذي تمارسه الشخصيّة: في زحمة الصراع بين الشهوة والعقل.

* * *

يبدأ رسمُ البيئة الأخروية، في هذه القصة، على النحو التالي:

﴿وَلمنْ خافَ مقامَ ربّه، جنتان﴾.

إنّ هذه البداية القصصية، لها أهميتُها الجماليّة المُمتعة من حيث (هيكل) القصة، وانعكاسه على دلالاتها الفكرية وما يُصاحبها من (الفارق) بين طبقتين من (الشخوص) تحتلان ـ تبعاً لذلك ـ موقعين متفارقين من بيئة (الجنة).

لقد قالت القصةُ: هناك جنتان لِمن خاف مقامَ ربّه. وببساطة، فإن الخوف من الله، أو التقوىٰ بعامة، يعنيان: إن الشخصية تلتزم بأوامر السماء ونواهيها بالنحو الذي يستاقها إلى الظفر بمكافأة تتناسب مع التزامها.

وهذا الالتزام بمبادىء السماء، يتسم بكونه عالياً، ورفيعاً، بالغاً درجته التي تفوق ما دونها من الدرجات التي تتراوح بين الالتزام واللاالتزام، بين الطاعة والمعصية، بين التصميم على الشيء وبين التردّد فيه... بين الخلوص في الممارسة وبين مزجها برائحة الذات...

والنصوص المفسرة، تُلقي إنارة واضحةً على هذا الجانب، حين يقول أحدُها عن الإمام الباقر(ع):

[إنّ الرجل يهجمُ على شهوةٍ من شهوات الدنيا وهي معصية، فيذكر مقام ربّه، فيدعها من مخافته. فهذه الآيةُ فيه. فهاتان جنتان للمؤمنين والسابقين].

ويقول ولدهُ الإمام الصادق(ع)، تعقيباً على الآية المتقدمة الكريمة:

[مَن عَلم أن الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير وشر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خافَ مقام ربّه].

هذان النصان المفسران، صريحان في أنّ الجنتين اللتين رسمتهما القصة، إنما تكون من نصيب أولئك الذين يتركون المعصية مخافةً من الله [فَيَدعْها من مخافته]، أولئك الذين تحجزهم مخافة الله عن ممارسة القبيح من الأعمال [فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال].

إذن، الالتزام بمبادىء السماء، دون أن يصحبها وقوعٌ في المعصية، هو الذي يسوّغ للأبطال أن يحتلوا موقعاً في الجنّة، لا يحتله آخرون صدرت المعصيةُ منهم بشكلٍ أو بآخر.

وهذا من حيث الدلالة الفكرية، لبداية القصة القائلة:

«ولمن خاف مقام ربّه، جنتان».

وأمّا من حيث الدلالة الفنية لهذه البداية القصصية، وصلتها بالأجزاء اللاحقة التي ستُلقي إنارة تامة على هذا الجانب، فيتطلب وقوفاً مفصلاً: نبدأ بتوضيحه.

* * *

قلنا، إنّ القصة بدأت بتعريف الجنتين، بهذا النحو:

«وَلِمَنْ خاف مقامَ ربّه، جنتان».

وقلنا أيضاً: إن هذه البداية القصصية، تكشف عن إنّ هاتين الجنتين، تجسّدان موقعاً عُلوياً، ما بعدَه من موقع: ما دام الخوف (التقوىٰ) يحجزان

الشخصية عن الوقوع في المعصية، مما يتطلّب مكافأة أعلىٰ وأرفعَ بالقياس لمن يمزج الطاعة بالمعصية، أو التردّد فيها.

وأمّا من الناحية الفنيّة الصرف، فإنّ هذه البداية القصصية تعلن بوضوح، بأنّ هاتين الجنتين خصصتا للسابقين وللمؤمنين المتقين بعامة، وليس لمطلق المؤمنين الذين خُصّصت لهم جنتان أخراوان أقل درجة من الجنتين الأولَيَيْن.

ويمكننا معرفة هذا الفارق، من خلال الربط الفنّي بين بداية القصة ونهايتها.

فبداية القصة تقول: «ولمن خاف مقام ربّه، جنتان» وأما نهاية القصة، فتقول: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان».

ومن الواضح، أنّ (الإحسان) لا يأخذ دلالته اللغوية إلا إذا اقترن بعدم صدور المعصية، وهو مقام السابقين إلى الإيمان قبل غيرهم، أو المؤمنين الذين تطبعهم سمة التقوىٰ، على نحو ما أوضحته النصوص المفسرة التي وقفنا عندها.

والمهم، أنّ المبنى الهندسي للقصة [من حيث البداية والنهاية] يكشف عن مثل هذا الترابط بين (مخافة الله) و(الإحسان)، مما يتواسق مع النصوص المفسرة في هذا الصدد.

والآن، حين نَدَعُ بداية القصة ونهايتها، ونتّجه إلى ما يُسمى في لغة الأدب القصصي بـ (الوسط)، وهو: المجال الذي تتطوّر من خلاله الأحداث إذا كانت القصة ذات طابع حادثي، أو الوصف إذا كانت القصة ذات طابع بيئي: كما هو شأن هذه القصة التي نتناولها بالدراسة، حينئذٍ يتطلب الأمرُ، وقوفاً مفصّلاً على أبعاد هذه (البيئة) التي عرفتنا القصة: من خلال بدايتها ونهايتها، ملامح (أبطالها) الذين ظفروا بمثل هاتين الجنتين العاليتين.

فما هي ملامحُ هذه البيئة، أو الجنتين؟؟

تقول القصة عن هذه البيئة، أو عن تينك الجنتين، أنهما:

١ ـ ذواتا أفنان.

٢ ـ فيهما عينان تجريان.

٣ ـ فيهما من كل فاكهة، زوجان.

٤ ـ متكئين على فُرُش، بطائنها من استبرق، وجنى الجنتين دان.

٥ ـ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جان. كأنهن الياقوت والمرجان.

هذه هي أبعاد أو مفردات الجنتين العاليتين اللتين تمثلان أعلى درجات الجنة بالقياس إلى درجةٍ دونهما.

ولكي، نتعرّف على طبيعة الفارق بين الدرجة الأولى والثانية ـ إذا صح استخدام مثل هذه اللغة ـ أقول: لكي نتعرف على الفارق بين الدرجتين، يحسن بنا أن نقرأ أيضاً مفردات الجنتين الأخرتين.

تقول القصة، عن الجنتين اللتين تمثلان درجةً أدنىٰ:

﴿ومن دونهما، جنتان﴾.

وتقول القصة عنهما،... أنهما:

١ ـ مُدْهَامَّتان.

٢ ـ فيهما عينان نضاختان.

٣ ـ فيهما فاكهةٌ و نخلٌ و رُمّان.

٤ ـ فيهن خيراتٌ حسان... حورٌ مقصورات في الخيام... لم يطمثهن إنسٌ قبلهم و لا جان.

٥ ـ مُتكئين على رفرف خضرٍ وعبقري حسان.

وقد يبدو من خلال هذه المقارنة أن عنصراً مشتركاً بين الجنات الأربع أو الجنتين العاليتين والأدنىٰ منهما. قد يبدو أنّ عنصراً مشتركاً يطبع كلاً من الجنتين.

بيد أنّ التدقيق في ذلك، يكشف عن وجود (فارق) بينهما، يُعزّز من وجهة النظر الذاهبة إلى أن كلاً من الجنتين، يمثلان (فارقاً) بين طبقات الشخوص، وليس إلى أنّ الجنات الأربع، اثنتان منهما مقرّ خاصٌ واثنتان على مقربةٍ منهما، وهذه سمةٌ جديدة من سمات الفن العظيم الذي قام عليه هيكلُ القصة، فيما قلنا: إنّ بناء القصة نفسه، يكشف عن هوية الجنتين وافتراقهما عن الجنتين الأخرتين، حتى لو كنّا بعيداً عن النصوص المفسرة.

وتلك سمة ـ كما قلنا ـ من سمات الفن القصصي في القرآن الكريم: حيث سبقتها سمة أخرىٰ تتصل بالترابط الفني بين البداية والنهاية، مما تكشف السمتان معاً عن هذه الدلالة التي أشرنا إليها.

هذا إلى أنّ هناك سمة فنيّة ثالثة بالعلاقة العضوية بين (الأبطال) المرسومين في القصة، وبين (بيئاتهم)، قد نتحدث عنها لاحقاً، والمهم، نحن الآن حيال (جنتين)، تفترقان عن (جنتين) أقل منهما درجةً، يتعين علينا توضيح الفارق بينهما، ما دام الأمر متصلاً بانعكاس ذلك على سلوكنا في الحياة الدنيا، في غمرة الصراع بين الشهوة والعقل.

* * *

إنّ العناصر المشتركة في الجنات الأربع هي: خمسة عناصر:

١ ـ النبات أو الزرع أو الشجر.

٢ ـ الماء أو العيون.

٣ ـ الفاكهة.

٤ ـ الفُرُش.

٥ ـ الحور.

غير أنّ كلاً من الشجرِ والماءِ والفاكهةِ والفرشِ والحور، يطبعها وصفٌ: قد يكون مشتركاً في بعض خطوطه، لكنه ـ في خطوطه الأخرى ـ متميزٌ عن الآخر.

ولنحاول: الوقوف عند كل من هذه العناصر الخمسة، مع ملاحظة أن هذه العناصر الخمسة، جاءت متسلسلةً في الوصفين، ما عدا الحور والفرُشُ: حيث جاءت السلسلة على هذا النحو:

أولاً: النبات. يليه: الماء. يليه: الفاكهة.

ولكن فيما يتصل بالفُرُش، جاء رقمها رابعاً من السلسلة التي تصف الجنتين العاليتين، وجاء الوصف المتصل بالحور، خامساً من السلسلة المذكورة، بينما جاء الأمر معكوساً فيما يتصل بالجنتين اللتين تمثلان درجة أدنىٰ.

ومما لا شك فيه، أنّ لكلٍ من التسلسل في وصف العناصر الخمسة، أهميّته الهندسية في هيكل القصة، الشجر، فالماء، فالفاكهة.

كما أن لكلٍ من تقديم الوصف المتصل (بالفُرُش) ـ العنصر الرابع من البيئة ـ على الوصف المتصل (بالحور) ـ العنصر الخامس من البيئة ـ... إن لهذا التقديم [من حيث التسلسل] أهميته الهندسية أيضاً في هيكل القصة، حينما يكون التقديم خاصاً بالأبطال الذين ظفروا بالجنتين العاليتين، بالقياس إلى الأبطال الذين ظفروا بدرجة أدنىٰ. حيث يتم طرح السؤال التالي:

لماذا جاء الوصف المتصل بفُرُش الجنة رقماً رابعاً للأبطال العُلْويين، مقدّماً على الحور، في حين جاء الأمر معكوساً فيما يتصل بالأبطال الأدنىٰ درجة؟؟

إنّ طرح مثل هذا السؤال، له أهميته الفنية دون أدنىٰ شك. كما أنّ طرح سائر الأسئلة المتصلة بالفارق بين الطبقتين من أبطال (الجنّة) له أهميته الكبيرة، ما دام الأمر متصلاً بسلوكنا في الحياة الدنيا، وانسحاب هذا السلوك ـ تبعاً لنوع اهتماماتنا الروحية والمادية، على المكافأة الأخروية التي تُهيّیء لنا بيئةً، تتناسق مع طبيعة اهتمامنا الروحي والمادي الذي نتطبّع عليه في الجنّة أيضاً.

* * *

قلنا، إنّ الجنات الأربع: العاليَتَيْن والدانيَتَيْن، تكتنفها خمسة عناصر أو خمس مفردات بيئية هي:

الزرع، الماء، الفاكهة، الفُرُش، الحور.

والآن، لِنقفْ على الفارق بين الجنتين العاليتين والجنتين الدانيتين، ونبدأ بأوّل العناصر الخمسة، وهو: الزرع أو الشجر.

قالت القصة عن الجنتين العاليتين، أنّهما:

«ذواتا أفنان».

وقالت القصة عن الجنتين الدانيتين، أنهما:

«مُدْهامتان».

من حيث البُعد الجمالي لكلٍ من الجنتين، فإنّ العاليتين منهما ذواتا أغصان، والدانيتين منهما مكثفتان بالزرع أو شديدتا الرواء والخُضرة.

وطبيعيٌ، فإن مرأى (الأغصان) وهي متدلية، ومرأى (كثافة) الشجر أو شدة خضرته، واضحٌ من حيث درجة الإمتاع الجمالي لكلٍ منهما.

ونحن يمكننا إدراك الفارق بينهما، من خلال خبراتنا الدنيوية لمشاهد الطبيعة الجميلة: فكثافة الأشجار أو شدة خضرتها أقل إمتاعاً ـ دون أدنىٰ

شك ـ من بروز (الأغصان) المتدلية بنحوٍ لافتٍ، ومنسّقٍ، . . . وبخاصة أنّ الفنَنَ أو الغصن يقترن بمشاهد حبّات الثمر قبل قطافه، أو بمشاهد الثمر أوان قطافه. مضافاً لذلك، إن بروز الأفنان بتفريعاتها المختلفة من الممكن أن يغطي مساحة الأرض بحيث يعوّض عن الكثافة الكمية أو النوعية التي تتميّز بها الجنتان الدانيتان، مما يعني أنّ الجنتين العاليتين تحملان خصيصة الجنتين الدانيتين، وزيادة.

وهذا وحده كافٍ، في تبيين الفارق بينهما.

* * *

العنصر الثاني من العناصر الخمسة التي تضمنتها بيئة الجنات الأربع هو: الماء.

قالت القصةُ عن الجنتين العاليتين، أنهما:

﴿فيهما عينان تجريان﴾.

وقالت عن الجنتين الأدنىٰ منهما:

﴿فيهما عينان نضّاختان﴾.

ففي الوصف الأول: العينان تجريان. وفي الوصف الثاني: العينان تفوران مثل النافورة.

وقد يبدو لأول وهلة أن الماء أو العين النضاخة أشدّ إمتاعاً من العين الجارية، وبخاصة إذا أخضعنا الظاهرة لخبراتنا التي يستثيرها مشهد النافورة أكثر من جريان العيون.

غير أنّ التأمل الدقيق يحملنا على الاستجابة المعاكسة لخبراتنا المألوفة في هذا الصدد. فالعيون الفوارة تستثيرنا عابراً، إذا قيست باستمرارية الإثارة التي ينطوي عليها جَرَيان الماء أو العين.

إن جريان العيون، على الأقل يأخذ أشكالاً متنوعة تطرد الرتابة التي يخلّفها شكلٌ واحدٌ من حركة المياه: تبعاً للمنعطفات المختلفة التي ينتظمها جريان العيون في جهاته الأربع أو الست أو الأكثر، وفي تفريعاته المختلفة التي لا تتأتىٰ في العيون الفوارة، حيث تأخذ هذه الأخيرة ـ أي الفوارة ـ شكلاً رتيباً، وإن كان من الممكن أن يخضع أيضاً لنفس طوابع العيون الجارية من تفريعٍ وانعطاف، لكنه أقلّ امتاعاً منه من حيث طبيعة (الجَريَان) ذاته بما يحمله من حركة تتجانس مع استواء الأرض، على العكس من (الفوران) الذي يأخذ حركة فوقية بالقياس إلى استواء الأرض.

فضلاً عن ذلك، فإن الإمكانات التي تصاحب العيون الجارية، لا تتوفر بالمستوىٰ ذاته في العيون الفوارة: من حيث يُسْرُ التناول للمياه الجارية: شرباً أو غسلاً أو ركوباً.

وبكلمة جديدة: فإن الظواهر (النفعية) التي يتيحها الماء الجاري، لا يتيحها الماءُ الفوّارُ عادة.

إذن، في الحالات جميعاً، تظل العيون الجارية أشدّ إمتاعاً، وأكثر نفعاً من العيون الفوارة، وهو ما يميّز الفارقية بين أبطال الجنة الذين ينعمون بمقاعد عالية، وبين الأبطال الذين ظفروا بمقاعد أدنىٰ: تبعاً للدرجة التي مارسوها في سلوكهم الدنيوي في الصراع بين الشهوة والعقل.

* * *

العنصر الثالث من العناصر الخمسة التي تضمنتها بيئة الجنّات الأربع، هو: (الفاكهة).

قالت القصةُ عن الجنتين العاليتين:

﴿فيهما من كل فاكهةٍ زوجان﴾.

وقالت عن الجنتين الدانيتين:

﴿**فيهما فاكهة، ونخلٌ، ورمّان**﴾.

أيضاً، لأول وهلة، يبدو وكأن الجنتين الدانيتين فيهما مضافاً إلى الفاكهة بعامة، نخلٌ ورمّان. بينما جاءت الإشارة إلى الجنتين العاليتين، بأنهما ذواتا زوجين من كل فاكهة.

لكنّ التأمل البسيط، يدلنا على الفارق الكبير بين الوصفين... إن النخل والرمان ـ كما تقول النصوص المفسرة التي تنقل النص إلى إطاره التأريخي ـ يشكلان أفضل الفواكه. والقصة حينما تقول عن الجنتين الدانيتين بأنّ فيهما [فاكهة ونخل ورمان] إنما تقصد من ذلك أنّ هاتين الجنتين تضمان كلّ أنواع الفواكه بما فيها أفضلها وهو: النخل والرمّان. وهذا يعني باختصار، إن القصة تريد أن تقول لنا: أنّ في الجنتين الدانيتين كل أنواع الفواكه.

لكننا حين نتجه إلى الجنتين العاليتين، نجد أنّهما تنطويان على ما في الجنتين الدانيتين، وزيادة.

ففي الجنتين العاليتين كل أنواع الفواكه ـ كما هو طابع الجنتين الدانيتين ـ لكن فيهما، زيادة على ذلك، أنّ الفواكه: زوجان في كل منها.. فالعنب مثلاً، يشكل فاكهة من الفواكه، وهو متوفرٌ في كلا الجنتين: العالية والدانية. لكنّه في الجنتين العاليتين، نوعان: العنب الرّطب والعنب اليابس، وكلاهما شهيّ، وله خصوصيته. بينما هو في الجنتين الدانيتين، نوعٌ واحدٌ فحسب.

إذن، الفارق كبير في درجة الإمتاع أو الإشباع الذي تحققه السماء لابطال الجنة: فالأبطال العُلويون يتناولون من كل فاكهةٍ، زوجين، نوعين...

أما الأبطال الأقل درجة، فإن سمة (الزوجين) أو النوعين من الفواكه قد اختفت في جنتيهما، واكتُفي من ذلك، بسمة أنّ فيهما فاكهةً، بضمنها أشهىٰ

الفواكه وهي: النخل والرمّان.

وللمرة الجديدة، فإن وجود مثل هذا الفارق بين أبطال الجنة، يُداعي أذهاننا إلى الفارق ـ في سلوكنا الدنيوي، بين شخصيات لا تصدر معصيةٌ منها في صراعها بين الشهوة والعقل، وبين شخصيات تقع فريسة التردّد بينهما، أو تضيع منها فُرصُ الطاعة التي لم تنتهزها في الحياة الدنيا بحيث تحيا بعض الحين، أو أحياناً كثيرة، (غافلةً) عن مجالات الطاعة، بما فيها (المندوبة)، منعكساً ذلك على المكافأة التي ستحصل عليها في اليوم الآخر.

* * *

لحظنا، كيف أن كلاً من العناصر الثلاثة: الشجر، الماء، الفاكهة: قد رُسمت في بيئة(الجنّة) بنحوٍ من التفاضل، بحيث كان الأبطال العُلويون ينعمون ـ من خلاله ـ بحجم أشد إمتاعاً من الأبطال الأدنىٰ درجةً منهم.

ويبقىٰ الآن، كلٌ من عنصري (الفُرُش) و(الحور)، فيما يتعيّن ملاحظة رسمهما في بيئة الجنّة، ومدىٰ افتراق الجنتين العاليتين عن الجنتين الدانيتين، في الاستمتاع بهما.

أما الفُرُش، فقد قالت القصةُ عنها، فيما يتصل بشخصيات الجنتين العاليتين، ما يلي:

﴿مُتكئين على فُرُشٍ، بطائنها من استبرقٍ، وجنى الجنتين دانٍ﴾.

وقالت القصة عن الشخصيات الأدنىٰ درجة، ما يلي:

﴿متكئين على رفرف خضرٍ وعبقريّ حِسان﴾.

إن أبطال الدرجة الأولى والثانية، ينعمون ـ من حيث الجلوس والمكان ـ بنحوٍ خاص هو: (الاتكاء) ـ وليس مجرد الجلوس.

غير أن الفارق بينهما، أي: الفارق بين الشخصيات التي كانت تخاف

مقام ربّها في الحياة الدنيا بحيث لم تصدر عنها معصيةٌ من المعاصي، وبين الشخصيات الأدنىٰ منها، هو: إنّ التَرَفَ الذي يُصاحب جلوس الشخصيات العُليا، بلَغ من التنوّع والإمتاع إلى الدرجة التي هُيّأت لهم (فرش) ذات بطانةٍ وظهارةٍ يتكئون عليها: البطانةُ من (استبرق)، من حرير... من ديباجٍ... وأمّا الظهارة، فقد سكت النصُ عنها، لأسباب فنيّة، تتمثل: في أنّ القارىء أو السامع بمقدوره أن يُساهم في عملية الكشف عن استخلاص نوع الظهائر التي ٱزْيَّنَتْ بها الفُرُش.

مضافاً لذلك، ثمة سمة فنيّة أخرى تطبع صورة [الفُرش المُتّكأ عليها] وصورة [البطائن وهي من استبرق] هي: إن الإسناد أو الاتكاء على فراش بطانتُه من استبرق، توحي للقارىء والسامع بمدىٰ ما ينعم الأبطال به من نعومةٍ، ورقةٍ، وتَرَفٍ، وإمتاع، وإشباع: حين تستند ظهورهُم على كتلةٍ من الديباج، ليس من حيث مظهره الخارجي، بل من حيث بطانته.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا حاجة حينئذٍ [من الزاوية الفنية] أن ترسم القصة معالم المظهر الخارجي للفرش، ما دام التشدّد على المظهر الداخلي يقود السامع والقارىء إلى استنتاج سريع: بأنّ الظهائر سيطبعها إمتاعٌ مُماثل، أو أشدّ، ما دام (الترف) في أعلىٰ مستوياته، هو: الطابع الذي يسم شخصيات الجنتين العاليتين.

* * *

وحين نتجه إلى الشخصيات الأدنىٰ درجةً، أو: الجنتين الأدنى إمتاعاً من الجنتين العاليتين، نجد أنّ (الاتكاء) هو:

«على رفرفٍ خضرٍ وعبقريّ حِسان».

والرفرف، قد يكون وسادة، أو قماشاً، أو رياض الجنة خاصة، أو أيّ شيء آخر، قد رسمت القصةُ طابع (الخُضرة) عليه، ما دام هذا اللون واضح

الإمتاع بالنسبة للمُشاهد.

وأما (العبقري)، فقد يكون بدوره بساطاً أو أيّ شيء آخر، خلعت القصة عليه طابع (الحُسن): زيادة في إمتاع المُشاهد.

والملاحظ [من وجهة النظر الفنية] أنّ هذه الأوصاف التي خُلعت على (بيئة) الشخصيات الأقل درجة من سابقتها، هذه الأوصاف يغلب عليها (الترف) أو (المُتعة) الخارجية المتصلة بحاسة (الإبصار). فالرفرف (خضر) الألوان، والعبقري (حسان) الأشكال. أي، إننا حيال أشكال حَسَنة، وألوان خضراء لا أننا حيال مادة هذه البُسط والوسائد والأقمشة وكونها حريراً أو شيئاً آخر مثلاً.

وهذا الفارق بين (مُتكأ) الشخصيات العالية، والشخصيات الأدنىٰ منها، ينبغي أن نقف عنده ملياً، حتى نستخلص معالم الجمال الفني للقصة، وانعكاسها على الدلالات التي ترسم الفارق بين شخصيات عالية، وشخصيات أدنىٰ منها درجة.

فالمُلاحَظ ـ ونحن نكرّر الإشارة إلى هذه السمة الفنية العظيمة في القصة ـ أن الشخصيات العُليا، قد انصبّ الاهتمامُ بها، على المادة الداخلية لفُرُشه التي تتكىء عليها.

أما الشخصيات الأدنىٰ، فقد انصبّ الاهتمامُ بها، على الشكل الخارجي، للفرش التي تتكىء عليها. والفارق كبير بين الصورتين: صورة المظهر الداخلي وصورة المظهر الخارجي.

فالمظهر الداخلي حينما يكون (استبرقاً) ـ بالنسبة إلى الشخصيات العليا ـ حينئذٍ فإن المظهر الخارجي يكشف بنفسه عن نفسه، ما دام الداخل من جانبٍ أشد أهميةً من المظهر الخارجي. وما دام الداخل من جانبٍ آخر، مفصحاً عن المظهر الخارجي.

وهذا على العكس من الصورة التي رُسمت للشخصيات الأدنىٰ درجة، حيث انصبّت الصورة على [المظهر الخارجي] فحسب، وهي [أشكالُ الفرش وألوانُها]: الخُضُر والحِسانُ. دون أن يصحبها وصف للمظهر الداخلي.

ومن الواضح [من حيث السمة الفنية] أن رسم المظهر الخارجي لا يكشف بالضرورة عن تماثله للمظهر الداخلي، وهذا على العكس من رسم المظهر الداخلي الذي يكشف ـ ضرورة ـ على المظهر الخارجي أيضاً.

إذن، في نهاية المطاف، أمكننا أن ندرك مدىٰ الفارق بين مُتكئات الأبطال العُلْويين في الجنة، وافتراقها عن مُتكئات وأبطال الأدنىٰ درجة: من خلال تينك الصورتين الفنيتين الجميلتين اللتين شُحنتا بإيحاءات غنيّة، ممتعة.

* * *

علىٰ أنّ الفارق بين الجنتين العاليتين، والجنتين الدانيتين، لم ينحصر في ما ذكرناه، بل هناك فارق كبير رسمته القصة بوضوح، حينما أضافت جديداً بالنسبة إلى الشخصيات العليا، لم تُشر إليه بالنسبة للشخصيات الأدنىٰ منها.

ولنقرأ ـ من جديد ـ كلاً من الوصفين:

قالت القصة عن أصحاب الجنتين العاليتين:

﴿متكئين على فرش بطائنها من استبرق. وجنا الجنتين دان﴾.

وقالت عن الجنتين الأدنىٰ منهما:

﴿متكئين على رفرف خضرٍ وعبقري حسان﴾.

فالمُلاحظ هنا، وجود زيادة في بيئة الشخصيات العليا، لا أثر لها في بيئة الشخصيات الأدنىٰ درجة.

هذه الزيادة هي:

﴿و جنا الجنتين دان﴾.

فقد اكتفي برسم الجلوس، والاتكاء، وأشكاله فيما يتصل بالطبقة الثانية من أصحاب الجنة، دون أن يقترن ذلك بعنصر (الفاكهة) التي ربطتها القصة بنمط الجلوس الذي أتيح للطبقة الأولى من أصحاب الجنّة.

إنّ (الفاكهة) تشكل عنصراً واحداً من خمسة عناصر في بيئة الجنة. وقد مضى الحديث عنها، وعن أنماطها، وعن الفارق بين الفاكهة التي يتناولها أبطال الجنتين العاليتين، وافتراقها عن الفاكهة التي يتناولها أبطال الدرجة الثانية.

والسؤال هو: لماذا جاءت الفاكهةُ ـ من جديدٍ ـ لِتشكل مادة لأصحاب الجنتين العاليتين؟ ثم: لماذا نسج النصُ القصصي صمتاً عن الفاكهة فيما يتصل بالطبقة الثانية من أصحاب الجنة؟ إن الإجابة على السؤالين، تتطلب وقوفاً ملياً عند جملة من الأسرار الفنية في القصة، نبدأ بتوضيحها:

* * *

لحظنا ـ فيما يتصل بعنصر الجلوس، والاتكاء على فُرُشِ الجنة ـ أنّ الطبقة الأولى تتمتع بامتيازات لا تملكها الطبقة الثانية من المؤمنين.

مضافاً لذلك، قد برز امتيازٌ جديد للشخصيات المذكورة، هو: أن هذه الشخصيات في حال اتكائها على فرش الجنة، تظل ثمار الجنة على مقربة من أفواهها: «متكئين على فرش بطائنها من استبرقٍ، وجنى الجنتين، دان». أما الشخصيات الأدنىٰ درجة في الإيمان، فلا وجود لمثل هذا الامتياز لها، بل تتكىء «علىٰ رفرف خضرٍ وعبقري حسان» فحسب.

طبيعيٌ، من الممكن أن تتمتع شخصياتُ الدرجة الثانية بمثل هذا الامتياز في تناولها للفواكه المخصصة لها، وبخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار، أنّه من الممكن أن تكون القصة قد اكتفت برسم شخصيات الدرجة الأولى مالكةً

للامتياز المذكور، مما توحي للقارىء أو السامع بإمكانية ذلك أيضاً لأصحاب الدرجة الثانية، ما دام القصص القرآنية تعتمد التركيز والاقتصاد في التعبير. بحيث يدع القارىء مستنتجاً ذلك، دون الحاجة إلى التكرار.

لكننا مع ذلك، نتوقّع أن يظل هذا الامتياز من نصيب شخوص الدرجة الأولىٰ، وبخاصة أنّ القصة في صدد التفاضل بين درجتين من درجات الإيمان، فلا نتوقع أنها تخصّ أصحاب الدرجة الأولى بامتياز. ثم تحذفه من بيئة الدرجة الثانية، اعتماداً على استنتاج القارىء بإمكانية تحقق امتيازٍ مماثل لهم.

نعم، لو انعكس الأمر، حينئذٍ، فإن السمة الفنية للقصص القرآنية، تدلّنا على إمكانية مثل هذا الاستخلاص، والاعتماد على القارىء في هذا الصدد.

وهذا ما لحظناه فعلاً، فيما يتصل بالوصف الذي خلعته القصةُ علىٰ فُرُش الطبقة الأولىٰ حينما لم تتعرض للأوصاف الخارجية لهذه الفرش: من حيث أشكالُها وألوانُها، بل تعرضت للأوصاف الداخلية، بقولها: «متكئين على فرش بطائنها من استبرق» في حين أن القصة شددت على الأوصاف الخارجية، فيما يتصل بأصحاب الدرجة الثانية، فقالت عنهم: «متكئين على رفرفٍ خضرٍ وعبقري حسان».

ففي مثل هذه الحالة، تركت القصةُ الوصف الخارجي من لون أخضر أو شكلٍ جميلٍ يسمُ تلك الفُرُش، معتمدة على القارىء استنتاج ذلك، لسببٍ بسيطٍ هو: أن اللون الجميل للفرش ما دام من نصيب الدرجة الثانية، فإنه ـ بطريق أولىٰ ـ أن يكون من نصيب الطبقة الأولىٰ.

وعلى أية حال، فإن الامتياز الذي وهبته السماء لأصحاب الجنتين العاليتين، ونعني به: أنّ ثمار الجنة تظلّ على مقربةٍ من الفم: «وجنا الجنتين ،

دان»، هذا الامتياز، يظل أمراً لا تردّد فيه، ما دام الأمر متصلاً بعملية التفاضل بين درجات المؤمنين.

* * *

هنا، يُثارُ سؤالٌ فني في غاية الأهمية، وهو:

إنّ القصة القرآنية الكريمة، تتميّز بالدقة التامة، وبالانتقاء، وبالتركيز في عمليات السرد، أو العرض للأحداث والأوصاف، وحينما تتحدث عن أحد العناصر في القصة، فإنها لا تقوم بعملية تكرار للعنصر المذكور، ومنه: العنصر المتصل بـ (الفاكهة).

فقد تحدثت القصة أولاً عن عنصر [الزرع أو الشجر] وقارنت بين درجات المؤمنين في هذا الصدد. ثم تحدّثت عن عنصر (الماء) وقارنت بين درجاتهم أيضاً. وبعد ذلك: تحدثت عن عنصر (الفاكهة) وقامت بعملية مقارنة بين درجات المؤمنين أيضاً... والمفروض أنه لو كان تمَّ تفاضلٌ بين درجات المؤمنين فيما يتصل بعنصر الفاكهة، ومنه: هذا الامتياز لأصحاب الجنتين العاليتين، ونعني به «وجنا الجنتين، دان» من أفواههم، المفروض فنيّاً، أن يُرسَمَ هذا الامتياز عند الحديث عن عنصر (الفاكهة) التي قالت القصة عنها: «فيهما من كل فاكهة زوجان»... فلماذا لم يتم هناك عرضُ هذا الامتياز المتصل بـ«جنا الجنتين»؟؟ في حين جاء عرضُه في سياق الحديث عن الفُرش وهو عنصر مستقل له حقله الخاص في القصة؟؟

إن أهمية الفن القصصي في القرآن الكريم، تتبدّىٰ بوضوح عبْر الإجابة على السؤال المتقدّم، ممّا يضاعف من حجم الإمتاع الذي نتحسّسه حيال هذا الفنّ العظيم.

إنّ القصة في صدد التفاضل بين الشخصيات العُليا، والشخصيات الأدنىٰ منها، فيما يتصل بعملية (الجلوس) و(الاتكاء) وما يصاحبهما من درجات

الترف وأشكالها المتنوعة. فما دام الأمر، إنّ (الترف) قد بلغ في حجمه إلى الدرجة التي تظلّ حتى بطائن الفرش من (الاستبرق)، بحيث لا تحسّس أصحابها أدنىٰ قدرٍ من الخشونة العادية، بل تظل النعومةُ، والرقةُ، في أعلىٰ مستوياتهما من نصيب هؤلاء المؤمنين، مما يعني أنّ أدنىٰ جهدٍ، أو حركةٍ جسمية تتعارض مع طابع النعومة والرقة، أمرٌ لا تُكَلِّفُ به السماء أولياءَها في الجنة: حتى تناول الثمر، حيث يتم تناوله من خلال الجلسة (المتكئة) المترفة، لا أنهم ينهضون بأنفسهم لاجتناء الثمر، ولا أنهم ينتظرون دور الخدم مثلاً في حالات يتطلّب فيها الترف بُعدَهم عن الجلسة، أو الاضطجاع أو التفرّد... بل أن الثمار تدنو من أفواههم ـ وهم يتكئون، بل [في بعض النصوص المفسرة] حتىٰ وهم يضطجعون: تدنو من أفواههم، لا يكلفون أنفسهم أدنىٰ حركة... وهذا منتهىٰ ما يمكن تصوّره من درجات الترف الذي لا ترفَ بعدَه.

* * *

(الحور) هو العنصر الخامس والأخير من العناصر الخمسة التي شكلت مفردات البيئة الأخروية: فيما يتصل بالجنتين العاليتين: وبالجنتين الأدنىٰ منهما درجة.

وخارجاً عن التفاضل الذي طبع الجنتين العاليتين، متمثلاً في الوصف الذي خلعته القصة على العنصر المذكور ونعني به: الصورة التالية: «كأنهن الياقوت والمرجان»، خارجاً عن هذا الامتياز الذي خُصص لأصحاب الجنتين العاليتين، فيما لم يرد في بيئة الجنتين الأدنىٰ درجة... أقول خارجاً عن هذا الامتياز الذي يشكل امتداداً لامتيازات متنوعة لحظناها مفصلاً عند حديثنا عن عناصر البيئة الأخروية... خارجاً عن هذا الامتياز، يعنينا من عنصر (الحور) تشدّدُ القصة على الطابع (الأخلاقي) للعنصر المذكور، وإمكان إفادتنا ـ نحن القرّاء ـ في تجاربنا الدنيوية، من الطابع الذي شددت القصةُ عليه.

فقد وردت أوصاف ثلاثة لأخلاقية هذا العنصر: واحدٌ منها جاء في سياق الحكاية عن الجنتين العاليتين، وهو: «فيهن قاصراتُ الطرف». واثنان منها، قد ورَدَا في سياق الحكاية عن الجنتين الأدنىٰ، وهما:

«فيهن خيراتٌ حسان» و«حور مقصوراتٌ في الخيام».

هـذه السمـات الثـلاث، ونعنـي بهـا(قـاصـرات) و(خيـرات) و(مقصورات)... تظل واضحة كل الوضوح في طابعها (الأخلاقي) الذي ينبغي أن نشدّد عليه بدورنا، في غمار الحديث عن السلوك الدنيوي وانسحابه على المكافأة الأخروية التي أوحت القصة ـ بطريقة فنية ـ من خلالها، مدىٰ الترابط من جانبٍ بين السلوكين الدنيوي والأخروي، ومدىٰ الإفادة ـ من جانب آخر ـ من تجارب الحياة الدنيا التي وظّفت من أجل هدفٍ واحدٍ هو: العبادة، أو الخلافة في الأرض، وانسحاب ذلك على حياة أبدية وظفت بدورها من أجل العبادة.

لقد شدّدت قصة الجنات الأربع على الطابع(الأخلاقي) للحور، فرسمت ـ مثلما أشرنا ـ ثلاثة أوصاف هي:

(قاصرات) (مقصورات) (خَيْرات).

إنّ ما ينبغي لفت الانتباه إليه، هو: أنّ الفارق بين بيئة الحياة الدنيا والبيئة الأخروية، هو انتفاء عنصر(الصراع) في التربية البشرية، بمعنىٰ: أن عملية الإشباع الحيوي والنفسي لا يسبقها صراع بين الخير والشر، بين الشهوة والعقل، بل تتم وفق نزوع أحادي الجانب، يتجه إلى تحقيق الإشباع للحاجات النفسية والحيوية، بشكله الخيّر أو العقلي الصرف.

فالعلاقات الاجتماعية مثلاً، يسودها ـ في بيئة الجنة ـ تفاهمٌ تام، غير مسبوق بعمليات التأجيل لشهوة الحقد، أو الكبر، أو السيطرة: كما هو شأن الشخصيات الخيّرة في الحياة الدنيا التي تؤجل شهوتها نحو الحقد أو الكبر أو

السيطرة، وتُحكم بدلاً منها: نزعة الحب والتواضع والزهد. . .

فعملية (التأجيل) التي تمارسه الشخصيات الخيّرة في الحياة الدنيا، تنتفي في الحياة الأخروية: إذ لا وجود للنزعة الشريرة، حتى تمارس حيالها تأجيلاً، أو حتىٰ تُحكِّم بدلاً منها: نزعة الخير. . .

والأمر نفسه فيما يتصل بالحاجات الحيوية، من طعامٍ، وجنسٍ ونحوهما: حيث يتم اشباع هذه الحاجات، دون أن يصاحبها نزوعٌ شرير.

وإذا كان الأمر كذلك: فلماذا نجد القصة القرآنية الكريمة، تخلع على (الحور) سمة: كونهن «قاصرات الطرف» وكونهن «مقصورات في الخيام» وكونهن «خيرات»؟؟

طبيعياً، إنّ خلع مثل هذه السمات، يظل من جانبٍ، (واقعاً): له محدداته التي تطبع سائر المعالم الخاصة في بيئة الآخرة.

لكنه ـ من جانب آخر ـ ينطوي على حقيقةٍ فنيّةٍ أيضاً. . . هدفُها لفت الانتباه إلى سلوكنا الدنيوي، فيما يتصل بهذا العنصر، والطريقة التي ينبغي أن يختطها العنصر المذكور في تعامله مع العنصر الآخر: الرجل.

* * *

إنّ أول صفةٍ خلعتها القصة عند حديثها عن العنصر الخامس من بيئة الجنتين العاليتين، هي: صفة «قاصرات الطرف» حيث بدأت بها، قبل أن تبدأ برسم الأوصاف الأخرىٰ.

كما أن أوّل صفةٍ بدأت بها القصةُ عند حديثها عن الجنتين الأدنىٰ درجة، هي: صفة «خيرات»، أتبعتها بصفة «مقصورات في الخيام». ثم تابعت بعد ذلك: خلع السمات الأخرىٰ، المتصلة بالجانب الحيوي من الشخصية.

ومما لا شك فيه [من حيث البُعد الفنّي الخالص] أن البدء برسم صفةٍ من

الصفات قبل غيرها، يعني: أن النص القصصي يستهدف التركيز والتشدّد على هذه السمة قبل غيرها، نظراً للأهمية التي تنطوي الصفةُ المذكورةُ عليها.

والقصة حينما بدأت في الحديث عن الجنتين العاليتين، وفي الحديث عن الجنتين الأدنىٰ درجة... حينما بدأت في كلا الموقعين، بالحديث عن سماتٍ مثل (قاصرات) (خيرات) (مقصورات)، فإنّ ذلك يعني: لفت انتباهنا إلى ضرورة توفّر مثل هذه السمات في السلوك الدنيوي.

ويمكننا إدراك هذه الحقائق، حينما نتابع مفردات الأوصاف المذكورة، ومنها: سمة «قاصِرات الطرف» التي بدأت القصةُ بها.

فهذه الصفة، تعني: أن العنصر المذكور، يقصر عينيه على الزوج فحسب.

كما أن الصفة الثانية (مقصورات) تعني: أنهن (مستورات) في الخيام، (محبوسات) فيها، لا أنهن يتنقلن هنا وهنا بمرأىً من الرجال.

وهذه السمات هي ذاتها التي يُشدّد المشرّعُ الإسلاميُّ عليها في الحياة الدنيا، حينما تطالب النصوصُ القرآنية الكريمة والنصوصُ الواردة عن أهل البيت(ع): تطالب المرأة، بأن لا يراها أحدٌ وأن لا ترىٰ أحداً، وألا تتحدث مع الآخرين إلا لضرورة قصوىٰ، وأن ينحصر لقاؤها ونظرتُها وحديثُها وتعاملها: ينحصر ذلك مع (زوجها) فحسب.

❊ ❊ ❊

إن إدراكَ مثل هذه الحقائق، يتبلور بوضوح، حينما نتعرّف على طبيعة التركيبة الآدمية في الحياة الأخرىٰ، ونعود بذاكرتنا إلى ما سبق أن قلناه: من أن الحياة الأخرىٰ ينتفي فيها عنصر(الشرّ) وما يستتبعه من (صراع).

فإذا كانت الحياة الأخروية، وهي خالية من [النزعة الشريرة] ومن

عمليات (الصراع) بين الخير والشرّ، قد شُدِّد فيها على(ستر) المرأة، وعلى أن (تحبس) نظراتها على زوجها فحسب، وعلى أن (تحصر) تحركاتها داخل مساحة (الخيمة) الخاصة بها، لا خارجها. . . إذا كان الأمر كذلك [وهي في بيئة الجنَّة، الخالية من النزعة الشريرة ومن عمليات الصراع]؟ فكيف ببيئة الحياة الدنيا [وهي بيئة تتجاذبها النزعة الشريرة وما يستتليها من عمليات الصراع]؟؟

للمرة الجديدة، القصة تستهدف ـ بطريقة فنيّة غير مباشرة ـ لفت الانتباه إلى أن تعدّل المرأةُ من سلوكها في الحياة الدنيا، وتقصر تعاملها ونظرتها على زوجها، وتحصر تحركاتها داخلَ النطاق المرسوم لها، ولعلّ التوصية الكريمة التي قدّمتها سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع) إلى المرأة، من انه خيرٌللمرأة أن لايراها أحدٌ و لا ترىٰ أحداً، تظلّ معياراً واضح المعالم فيما يتصل بعلاقتها مع الآخرين.

❊ ❊ ❊

مع رسْمِ القصة لعنصر (الحوار)، ينتهي العَرْضُ المتصل بالجنتين العاليتين اللتين خصصتا لِمن خاف مقام ربّه، ولم تصدر معصية منه، والجنتين الأدنىٰ درجةً منهما، فيما خصصتا لأصحاب الدرجة الثانية من الإيمان. . .

وقد تحدّد لنا ـ خلال دراستنا لهذه القصة ـ نمطُ الطرائق الفنية المُمتعة التي سلكتها القصة في إيصال الحقائق المتصلة ببيئة الجنات الأربع، مثلما وقفنا على طبيعة المبنىٰ الهندسي أو الهيكل الفني العام للقصة في فرزها لحقائق الجنتين العاليتين وافتراقهما عن الجنتين الأدنىٰ منهما درجة، فيما لا حاجة إلى التذكير بحقائق السمات الفنيّة التي لحظناها مفصّلاً في حينه.

بيد أن الحاجة تدعونا إلى التذكير ـ من جديد ـ بالدلالات الفكرية للقصة، ما دامت الدلالةُ الفنية موظفةً من أجل تعميق الدلالات الفكرية.

فكم حريٌ بنا، أن نفيد من هذه القصص المستقبلية التي ترسم لنا معالم الجنّات الأربع، والدرجات المتفاوتة فيها، بأن نحدد من خلالها سلوكنا الدنيوي. ما دام التلاحُم بين البيئتين: الدنيوية والأخروية، من الوثاقة إلى الدرجة التي يتوقّف مستقبلُ الشخصيّة فيها علىٰ ما نمارسه من النشاط العبادي الذي خُلِقنا من أجله. وألا تفلت الفرصة في استثمار [حتىٰ أقصر لحظة زمنية] وتوظيفها من أجل الحياة الأبدية في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.



سورة الواقعة

تتضمّن سورةُ (الواقعة) ثلاثةَ مَرَاء [مَشاهد، مَناظر] يُمكننا أن نطلق عليها ما يُسمّىٰ بـ [القصة البيئية]، أي: القصة التي يغلب عليها وصفُ (البيئة)، بالقياس إلى القصة التي يغلب عليها عنصرُ (الشخصية)، أو القصة التي يسيطر عليها عنصر (الحدث).

فالقصص التي تتصل بحياة الأنبياء(ع) مثلاً، يظل العنصر الغالب فيها هو: شخصية أحدِهم [آدم، نوح، ابراهيم... الخ]، حيث يُوظّف كل شيء في القصة من أجل التعريف ببطل القصة.

وهناك قصصُ [الحوادث، الوقائع...] بحيث يختفي فيها عنصر (الأبطال)، حتى يكاد لا يُذكر لها حتىٰ مجرّد (الإسم)، بل يُترك المجال لأن تتحرّك مجموعةٌ من أحداث ووقائع تستقطب انتباه القارىء أو السامع، تكون هي العنصر الغالبَ على القصة.

وهناك نمطٌ من القصص القرآنية الكريمة، يكون العنصر المسيطر فيها هو: وصف (البيئة) بما أنها (مكان) أو مساحةٌ جغرافية خاصة: قد تتصل ببيئة الحياة الدنيا، أو ببيئة الدار الآخرة.

وسورة (الواقعة) التي [نحن الآن في صددها]، تنتسب إلى قصص (البيئة) في الحياة الآخرة.

وقد قُسِّمت هذه البيئة إلى ثلاثة:

القسم الأول: بيئة (السابقين) وهم: النُخبة البشرية التي أُعِدَّ لها مكان خاص من [جنّات النعيم].

القسم الثاني: بيئة [أصحاب اليمين أو الميمنة] وهم: أقلّ امتيازاً من الطبقة المتقدّمة، فيما أُعِدَّ لها مكانٌ متميز عن المكان المُخصّص (للسابقين).

القسم الثالث: بيئة [أصحاب الشمال أو المشأمة]، وهم: أصحاب النار الذين أُعِدَّ لهم مكانٌ يتناسب مع مواقفهم في الحياة الاختبارية: الحياة الدنيا.

والآن: نقف مع الطبقة الأولى (السابقين)، لمُلاحظة المرأى البيئي الذي رُسِمَ لهم.

* * *

لنقرأ النص القصصي، أولاً:

﴿والسابقون السابقون، أُولئكَ المُقرّبون﴾.

﴿في جنّات النعيم. ثُلَةٌ من الأوّلين. وقليلٌ من الآخرين﴾.

وقبل أن نتقدّم إلىٰ وصف البيئة التي رُسمت لهذه الطبقة من الشخوص، ينبغي أن نقف على سماتهم التي حَكَتها القصةُ ذاتُها.

لقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم: (السابقون)، وبأنهم: (المقرّبون).

ومن حيث(العدد)، وُصِفوا بأنّهم جماعة كبيرة من الأوائل، وجماعة صغيرة من الأواخر.

والسؤال، هو كيف أُتيح لهذه الطبقة أو الصنف: الحصول على امتيازات خاصة [سنلاحظها بالتفصيل عن حديثنا عن (البيئة) التي أُعدت لهم]، بحيث وُصفوا بكونهم (سابقين) بالقياس إلى سواهم، وبكونهم كثيري العدد في سابق الزمان، وضئيلي العدد في لاحق الزمان؟

النصوص المفسّرة، متفاوتةٌ في تحديد (السابقين) إلى طاعة الله، وتطبيق مبدأ [الخلافة في الأرض].

فبعضُها يحدّد أسماء بأعيانها، وبعضها يكتفي بالتعميم وثالثٌ يُفصل في هذا الصدد.

بيد أنّ النص الذاهب إلى أنّ السابقين هم: [رسلُ الله وخاصته من خلقه] ـ فيما أُثِر ذلك عن الإمام الصادق(ع) ـ . . . مثل هذا النص، يظل متّسقاً مع الامتياز الممنوح للرسل والأئمة(ع)، بصفتهم يمثّلون قمة التجسيد لمفهوم (العبادة): كما هو واضح.

وطبيعيٌ، أن يُضاف إليهم [كما ألمحت إلى ذلك بعضُ النصوص المفسّرة، وكما يقتضيه ظاهر النص القصصي]: النماذج التي سارعت قبل سواها إلى التصديق برسالات السماء، أو النماذج التي أخلصت في ممارساتها العبادية بنحوٍ أشدّ من سواها: سواء أكان ذلك يعني عدداً كبيراً من الأمم الماضية وعدداً قليلاً من أمّة محمد(ص)، أو العدد القليل في أخريات الزمان بالقياس إلى أوائله مطلقاً.

* * *

والآن، لِنتّجه إلى وصف(البيئة) المخصّصة للسابقين.

لقد هيّأتِ السماء لهُم، الوسائلَ الثلاثَ المعروفة: الأكل، الشرب، الجلوس، أولاً.

ثم: نوّعت هذه الوسائل، ثانياً.

وأخيراً: أخضعتها لانتقاءٍ خاص، من حيث(الترَف) في الإشباع.

وقد رافق هذه الوسائل الماديّة، إشباعٌ عقليّ أو نفسي يتصل بالعلاقة القائمة بين الأطراف.

أما الوسائل المادية الثلاث المعروفة، فأولها هو: المكان المُعدّ للجلوس، حيث تمّ على النحو التالي:

﴿على سُرُرٍ موضونة. متكئين عليها، مُتقابلين﴾.

إنّ مجرد جلوسهم [مستندين، متكئين] بدلاً من الجلوس العادي، كافٍ في تحقيق دلالة (الترَفِ). فإذا أضفنا إلى ذلك، جلوسَهم على (السرير) بدلاً من الجلوس على أرض الجنّة، حينئذٍ يبلغ (الترفُ) درجةً عالية.

ثم، إذا أضفنا إلى ذلك، أنّ(السرير) نفسه، قد وُصِفَ بأنه (موضون) أي: منسوج، محبوك، متشابك الحَلقات، حينئذٍ فإنّ (الترف) يبلغ ذروته من حيث توفّر مثل هذه الحاجة الجمالية.

ولكي يتم الإشباعُ بنحوٍ لا مماثلَ له، نجد أنّ وَصْلَهُ بتهيئة المناخ النفسي للجالسين على السُرر، قد تحقق بنحوه الذي لا مزيدَ عليه، ونعني به: كونهم (مُتقابلين)، يجلس كلٌ منهم قِبال الآخر، لا أنّهم منفردون، أو مبعثرون.

وواضحٌ، أنّ الجلوس واحداً قبال الآخر، لا يُكلّف الجالسَ أدنىٰ حركة أو أدنىٰ جهدٍ مبذول في التوجّه إلى صديقه الذي يُحدّثه... وهذا منتهىٰ (الترف) الذي يمكن أن نتصوّره في هذا الميدان.

وهذا كلّه، فيما يتصل بنمط (الجلوس)، ولقاء الأحبّة فيما بينهم.

ولكن، هل أنّ مثل هذه (الجلسة)، تمضي بشكلها المُترِف المذكور، دون أن يرافقها (زادٌ) من الأكل والشرب؟

إنّ الزاد بشكليه: الأكل والشرب مُهَيّأ تماماً، كما سنرىٰ ذلك مفصّلاً.

غير أن مجرد الأكل والشرب، لا يحققان النمط العاليَ من (الترَف)، ما لم يقترنا بـ (الوسائل) الجمالية العالية أيضاً.

ولعلّ أول ما يتحسّسه الجالسون على السررالموضونة هو: العنصر البشري الذي (يخدمهم): وهم (جالسون) على أسِرتهم.

وها هو العنصر البشري الخادم، يتقدّم إليهم بتهيئة ما يشتهونه، واحداً واحداً.

﴿يَطوفُ عليهم: وِلْدَانٌ مُخلّدون. . . ﴾.

وسواء أكان هؤلاء (الولدان) قد هيّأتهم السماء خصيصاً لخدمة الجالسين على السرر الموضونة، أم كانوا أطفال الدنيا الذين لم تكن لهم حسنات، أم كانوا أطفال المشركين الذين أعفوا من الحساب ما داموا غير مُكلّفين. . . أيّاً، كان هؤلاء (الولدان)، فإنهم ـ في الحالات جميعاً ـ قد هيّأتهم السماءُ: لكي (يخدموا) هؤلاء الجالسين على السرر الموضونة، . . . يطوفون عليهم، بما يشتهونه من (الزاد): حتىٰ لا يُكلّفوا أنفسهم أدنىٰ نَصَبٍ في الجلسة الأبدية التي يلتقي الأحبّةُ فيها بعضهم بعضاً.

* * *

هَا هُمْ (السابقون) في «جنّات النعيم»، مُتكئين على السرر، مُتقابلين: واحد حيال الآخر، في أعلىٰ سُلّمٍ من (التَرَفِ)، لا يكلّفون أنفسَهم أدنىٰ تعبٍ أو حركةٍ في إشباع حاجاتهم المتصلة، بالجلوس، وبلقاء الأحبة.

(الزاد) أيضاً، يتهيأ لهم بالمستوى ذاته من الترف، حيث يتطوّع [الولدان المخلّدون] لخدمتهم: في تهيئة الزاد: أكلاً وشرباً.

والآن، ما هي مستويات التناول لكلٍ منهما؟ وما هي درجة (الترف) الذي يُصاحب اشباع حاجاتهم لكلٍ من الشرب والأكل؟

فيما يتصل بالشرب، يقول النص القصصي:

﴿يطُوف عليهم وِلدان مُخلّدون. بأكوابٍ وأباريق وكأسٍ من مَعين. لا

يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنزِفُون﴾.

المُلاحظ، أنّ تناول (الشرب) من الممكن أن يتم بأية (أداة)، بأيّ (إناء) مُتاح في هذا الصدد.

بيد أنّ السماء تأبىٰ إلا أن تُحقق لعبادها المخلصين، السابقين إلى الخيرات... أعلى أدوات التَرفَ التي تتساوق مع نفس درجة (التَرَفِ) الذي حَقّقَ لهم الجلوس على السرر، ولقاء الأحبة.

لقد هيأت السماءُ لهم، بدلاً من (آنيةٍ) واحدة، ثلاثة أشكال من الأواني: تتّسم جميعُها بمظهرٍ جماليٍ يُحقق للسابقين إشباعاً مزدوجاً لكل من حاستي الجمال والتذوق.

لقد هُيئت لهم هذه الأشكال الثلاثة: بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَعين.

فهناك (أكوابٌ)، أي: أقداحٌ واسعة الرؤوس.

وهناك ثانياً، (أباريق) أي: الأواني ذات الخراطيم، والعُرىٰ، ذات المظهر البرّاق في صفاء لونها.

وهناك ثالثاً: (كؤوس)، وهي واضحة الشكل: كما هو بيّن.

ومن البيّن أيضاً، إنّ كلاً من (الأواني) المذكورة، يقترن بإشباعٍ جمالي مختلف عن الآخر، فالأكواب، غير الأباريق، وكلاهما غير الكؤوس... كلٌ منها متميزٌ عن الآخر: ليس في مظهره الخارجي فحسب، بل في مظهره الحركي في اليد، وفي عملية التناول... فالأباريق مثلاً ذات عُرىً تتناول باليد... وقد تكون الكؤوس مثلها...

وقد تكون الكؤوس أيضاً... وقد لا تكون كذلك... غير أنهما متميزان بالضرورة عن الأباريق في اشتمالها على خراطيم للشرب مثلاً... وهكذا.

إذن، هناك مظهر جماليٌ يتصل بشكل الأواني. وهناك مظهرٌ حركيّ يتصل بطريقة التناول: حملاً باليد، وشرباً بالفم. وكلّها تُحقّق مستوياتٍ تمثل الذروة من (الترَفِ) الذي أعدته السماء لعبادها السابقين إلى طاعة الله.

* * *

لقد تساوقَ كلٌ من مظاهر الجلوس والشرب في بيئة «جنات النعيم» التي أعدّت للسابقين إلى طاعة الله.

(الأكلُ) أيضاً، يتساوق بدوره مع درجة (الترف) التي لحظناها في (الشرب) و(الجلوس).

ولنقرأ:

﴿وفاكهةٍ ممّا يتخيّرون. ولحمِ طَيْرٍ مما يشتهون﴾.

الزادُ هنا، نمطان: فاكهةٌ ولحم.

وحين ننقل هذين النمطين من تناول الطعام، إلى خبراتنا في الحياة الدنيا، حينئذٍ يمكننا أن نقرّر بوضوح أنّ لحوم (الطير) هي أشدّ جذباً من لحوم (الأنعام) مثلاً...

فإذا أضفنا إلى ذلك، أن لحوم (الطير) متنوعة، وإلى أن كلاً منّا من الممكن أن يتناول نوعاً منها بالقياس إلى الأنواع الأخرىٰ... حينئذٍ فإن تناول ما نشتهيه من هذا النوع أو ذاك، يحقق أعلى درجات (الإمتاع) الذي ننشده.

إذن، اختيار لحوم الطير على سواها من جانبٍ، ثم اختيار ما نشتهيه من أنواعها من جانب آخر، يمثّل ذروة الإشباع المتصل بحاجاتنا (الحيوية).

وهكذا كله فيما يتصل بما هو مُلِحٌّ في خبراتنا الدنيوية.

أمّا ما يتصل بما هو أقلّ إلحاحاً ونعني به (الفاكهة)، فإنّها موسومة بنفس

الطابع: ما نشتهيه ونختاره.

«وفاكهةٍ مما يتخيّرون...».

* * *

والآن، لا نزال مع القصة في سردها لبيئة الزاد: أكلاً وشرباً.

لا نزال أيضاً، نتناول النص القصصي من زاوية خبراتنا في الحياة الدنيا.

فالسابقون إلى طاعة الله، يتناولون: بالأكواب والأباريق والكؤوس، ما هو جارٍ مثل النهر أو النهر ذاته.

ولا نغفل: أن صفة (الجري) تحمل بدورها إثارة بالغة المدىٰ في إشباعها للحس الحيوي والجمالي.

إنّ ما هو (جارٍ) بمثل الأنهار، وما هو ظاهر للعيون، ينطوي على جملةٍ من الدلالات:

فأنت حينما تمدّ عينيك إلى مجرى ثرٍ، غزيرٍ لا نضوبَ فيه، عندها، تُحقّقُ توازناً داخلياً لا يصحبه أيّ توترٍ محتمل في حساب المستقبل...

المجرىٰ الثرّ، الغزير، الدائم... يحقّق في الآن ذاته إشباعاً جمالياً، بما ينطوي عليه مرأى النهر من جمال وجذب...

ولكن، يضاف إلى ذلك كلّه، إنّ القصّة عقبت على ذلك، بما يلي:

﴿لا يُصدَّعُون عنها، ولا يُنزفون﴾.

هذا التعقيب، لو نقلناه، إلى خبراتنا الدنيوية، لأمكنَ أن ندرك بوضوح قيمة الشّرب الذي لا نتفرّق عنه، أو لا يصيبنا أذىً منه، ولا ننزف عنه: حينما نتناول ماءً أو لبناً أو عسلاً دون أن نقيده بالمقادير الملائمة مثلاً...

والقيمةُ النفسية لمثل هذه الخبرات التي يَدعنا النصُ القصصي ننقُلها من خبرة دنيويةٍ إلى خبرةٍ أخروية مع ملاحظة: أنّ التركيبة الآدمية قائمة على

(دوافع) تبحث عن الأشباع من جانبٍ، ثم: تشبع فعلاً من جانب آخر.

لكننا، لو تصوّرنا أن (الاشباع) عمليةٌ استمراريةٌ لا يسبقها (توترٌ) مثلاً، أو أنّ (التوتر) غير مصحوبٍ [بما نألفه في حياتنا الدنيا] باحتمالات (الإحباط)، أو مجرّد التوجس من الاحباط مثلاً... أقول، لو أمكننا أن نتصور أمثلة هذا التركيب الدافعي الجديد للآدميين، في جوار الله سبحانه... لأدركنا، بوضوح ضخامة العطاء الذي تمنحه السماء لعبادها السابقين إلى طاعته...

[اللَّهُمَّ احشرنا مَعَهم، بمحمدٍ وآلهِ الطاهرين].

المهمّ، أنّ الوصف القصصي لبيئة (السابقين): شرباً، وأكلاً، وجلوساً وتلاقياً مع الأحبة... يظل من حيث عنصر (الإشباع) مجسّداً لذروة (التَرَف) الذي يمكن أن نتمثّله في هذا الصدد...

ولكنّ الأمر لا يقف عند التخوم المذكورة، بل يتجاوزه إلى عنصرٍ جديد: ثمّ إلى نمط التعامل الأخلاقي فيما بين السابقين إلى الطاعة، إلى العبادة، إلى الخلافة في الأرض.

لقد هيأت السماء لعبادها (السابقين) إلى الطاعة، حاجات حيويةً من النمط الأشد تَرَفاً: كما لحظنا. شراباً يُدار بأكواب وأباريق وكؤوس، فاكهةً مما يتخيرون، لحمَ طير مما يشتهون، حوراً كأمثال اللؤلؤ المكنون.

هذه الحاجات الحيوية، أردفتها السماء بحاجاتٍ نفسية: كان أولها هو لقاء الأحبة يقابل الواحدُ منهم الآخر في جلسته على السرر الموضونة.

والآن، يُتوّج النصُ القصصي هذه الحاجة النفسية بظاهرة خاصةٍ من السلوك هي: أنّ السابقين إلى الطاعة ـ في مقرّهم «جنّات النعيم» يطبعهم نوعٌ من [التوافق الاجتماعي] عبر العلاقة القائمة بين الأطراف، على هذا النحو:

﴿**لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً: سلاماً سَلاما**﴾.

وقبل أن نتحدث عن هذه الظاهرة الاجتماعية في بيئة جنات النعيم، ينبغي أن ننتبه إلى تعقيب القصة على الحاجات الحيوية التي هيأتها للسابقين إلى الطاعة فيما يتصل بحاجات الجوع والعطش والجنس والحاسة الجمالية، حيث عقبت القصةُ على ذلك، بقولها: «جزاءً بما كانوا يعملون».

هذا التعقيب هو الحصيلة الفكرية لكل ما رسمته القصة من حاجات حيوية.

فالطعام ـ منعزلاً عن مفهوم العبادة أو الخلافة في الأرض ـ لا يعني إلا حاجةً تنتفي أهميتها أساساً. وهكذا سائر الحاجات المتصلة بالشرب والحاسة الجمالية.

ونحن الآن قبال بيئتين: بيئة الحياة الدنيا، وبيئة الحياة الأخرىٰ.

أمّا بيئة الحياة الدنيا، فقد ألغتها القصةُ [بطريقة فنيّة غير مباشرة] من ذاكرة الإنسان، ولخصتها في هدفٍ فكريٍ ونفسي واحد هو قولها: ﴿**جزاءً بما كانوا يعملون**﴾. أي: أنّ العمل لله هو المسوغ الوحيد لتهيئة الحاجات الحيوية بنحوها المترف في الحياة الآخرة.

وإذا كان الطعامُ مثلاً [في بيئة الدنيا] يُشكّل مجرد(وسيلة) لاستمرار الكائن الآدمي في ممارساته العبادية، فإنه يتحول [في بيئة الآخرة] إلى كونه أيضاً (وسيلة) للعبادة: لكنّها من نمطٍ آخر.

ترىٰ، كيف يمكن إدراك مثل هذا الفارق بين الوسيلتين؟

* * *

إنّ علاقة الكائن الآدمي بالله، تظل متصلة بحاجةٍ (عقلية) أو (نفسية)

صرف: سواء أكانت هذه العلاقات بين الفرد و بين الله في بيئة الدنيا، أو في بيئة الآخرة.

أمّا الحاجة [الحيوية ـ أي: البيولوجية] من طعامٍ ونحوه، فإنها في نطاق الدنيا تظل (وسيلةً) يكتنفها (صراعٌ)، وفي نطاق الحياة الآخرة ينتفي عنصر (الصراع) فيها.

فأنت حينما تؤجل رغبتك في تناول طعام شهي، تكون قد اجتزت مرحلة صراع بين تناول الطعام وبين تأجيله: كأن تصوم مثلاً، أو تمضي إلى جبهات القتال دون أن تحسّ بقيمة ما هو زائدٌ على الحاجة، أو تمتنع عن تناوله: نظراً لِشوبهِ بما هو محرّمٌ... إلخ. كل ذلك يتطلب تأجيلاً للذةٍ حيويةٍ، واجتياز مرحلة الصراع بين الحصول على اللذة وتأجيلها، حتى ينتهي بك المطاف إلى يقينٍ تامّ: أن (الطعام) لا ضرورة له إلا بما يسدّ الحاجة، وأنّ الصومَ، والتوجّه نحو جبهات القتال، والامتناعَ عن الشبهات الحائمة على زادٍ مشتبهٍ به، هوالخيار الإيجابي الذي يتسق مع دلالة مفهوم الخلافة في الأرض.

أما في الحياة الآخرة، فإن الصراع لا وجود له البتة، كما لا وجود للخيار ما دام لا صراعَ في الموقف. كلّ ما في الأمر أنّ الطعام يظل (وسيلة) تلقائية [كعملية الدورة الدموية مثلاً] لا يصاحبها خيارٌ في التوقف أو الجري.

يضاف إلى ذلك، أنّ هذه الوسيلة أو الأداة إنما اكتسبت هذا النمط من الإشباع، فلأنّها (جزاءٌ) لممارسات العمل العبادي في الحياة الدنيا: مما يعني أن العمل العبادي [وهو حاجة عقلية ونفسية] هو الدلالة الوحيدة لمعنىٰ (الإنسان).

من هنا، فإن العلاقات الاجتماعية في بيئة الآخرة بما يطبع هذه العلاقات من دلالة نفسية وعقلية، تظل هي السمة التي تغلّف السلوك، فيما توّج بها النصُ القصصي، رسمه لبيئة جنات النعيم، قائلاً عنهم: ﴿**لا يسمعون فيها لغواً**

ولا تأثيماً. إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾.

* * *

إننا لو نقلنا طبيعة العلاقات الاجتماعية التي قالت القصةُ عنها بأنها مطبوعة [في بيئة جنات النعيم] بعدم سماعِ اللغو والإثم، وبأنّ التحيّة والسلام والحب هو الطابع الذي يسود العلاقة بين الأطراف الاجتماعية. . .

أقول: لو نقلنا هذه الدلالة إلى خبراتنا في الحياة الدنيا، حينئذٍ سنُدرك أهمية مثل هذه العلاقات الاجتماعية، مثلما سنُدرك: الأهمية الفنيّة لمثل هذا الرسم القصصي.

فالقصةُ بدلاً من أن تطالبنا بشكلٍ مُباشر بأن نختط لأنفسنا سلوكاً قائماً على الحب في نشاطنا الدنيوي، سلكت منحىً فنياً غير مباشر في مطالبتنا بالسلوك القائم على الحب، والابتعاد عن لغو الكلام، وتجريح الآخرين.

وقالت القصةُ لنا: أنّ أهل الجنة لا يتكلمون بكلام لا فائدة فيه.

وقالت لنا: إن أهل الجنّة لا يُسيء أحدُهم إلىٰ الآخر، ولا يتّهمهُ.

وقالت لنا: إنّ أهل الجنة: يُسلم بعضُهم على الآخر، ويُحيّيه، ويفيض عليه مشاعر الحب.

هذا السلوك الذي يطبع أهل الجنّة، تُطالبُنا القصةُ بمثله في سلوكنا الدنيوي أيضاً، دون أن تقول لنا، ذلك مباشرة بل جعلتنا نستوحي ونستخلص ونستنتج بأنفسنا، ضرورة أن ندرّب أنفسنا [في الحياة الدنيا] على الابتعاد عن لغو الكلام، والابتعاد عن الإساءة، وإبداله بلغة الحب، وبالكلام الهادف.

كلّ ما في الأمر، إنّ أهل الجنّة لا يحيون(صراعاً)، في ابتعادهم عن لغو الكلام، والإساءة. في حين أنّ السلوك الدنيوي قائمٌ على تركيبة (الصراع) الذي تطالبنا السماء باجتيازه، وتأجيل اللذة العابرة، والتدريب علىٰ ممارسة

العلاقة القائمة على حبّ الآخرين، وعلى الابتعاد عن الكلام الذي لا فائدة فيه.

كل هذه الدلالات، أوحتها القصةُ لنا إيحاءً، وفق طريقةٍ فنيّةٍ غير مباشرة، على نحو ما تقدم الحديثُ عنه.

والآن، بعد أن أوضحنا الطريقة الفنية التي سلكتها القصة في حملنا على استخلاص ما فيها من دلالة فكرية، يتعيّن علينا أن نتحدث بالتفصيل عن كلٍ من مفهوم [عدم اللغو] و[عدم التأثيم] و[التحية أو السلام]، في خاتمة الوصف الذي شمل بيئة (السابقين) إلى طاعة الله، في جنات النعيم التي أُعدّت لهم... حيث بدأ وصفُ بيئتهم بأنهم «على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدانٌ مخلّدون بأكواب وأباريق وكأسٍ من معينٍ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون وفاكهةٍ مما يتخيرون ولحم طيرٍ مما يشتهون وحورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون». حيث انتهىٰ ذلك بأنهم «لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً: سلاماً سلاما».

* * *

قلنا، إنّ (السابقين) إلى طاعة الله، لا يتكلّمون ـ في بيئة الجنّة ـ بكلامٍ لا فائدة فيه: «لا يسمعون فيها لغواً...».

وإذا نقلنا هذه الظاهرة إلى بيئة (الدنيا)، لحظنا أنّ (اللغو) من الممكن أن يتجسّد في عدة أنماط من السلوك، منها:

الكلام غير الهادف، الكلام زائداً عن الحاجة، المزاح، الغناء، الجدال العقيم... إلخ.

ومثلما قلنا أيضاً: فإنّ القصة [من وجهة نظرٍ فنيّة] تستهدف إيصال هذه الحقيقة إلى نشاطنا الدنيوي أيضاً [بنحوٍ غير مباشر]، بغية حملنا على تعديل

السلوك وضبطِه: عَبْر مرحلة الصراع الذي يطبع السلوك البشري في الحياة الدنيا.

إنّ النصوص المأثورة عن أهل البيت(ع)، تُطالبنا (بالصمت) عندما لا نجد ثمة ضرورة إلى الكلام.

وفي حقل الأمراض النفسية، يُشير أهل البيت(ع) إلى أنّ [حبّ الكلام] يشكل واحداً من هذه الأمراض التي ينبغي أن تدرّب ذواتنا على التخلّص منها.

فمن الواضح، أنّ أية شخصيّةٍ عندما تحاول أن تتكلّم في ما لا ضرورة له، إنما تحاول لفت الانتباه إلى (ذاتها) المريضة التي تتحسّس الضعة والهوان، ومحاولة سدّها بأية وسيلةٍ تؤكد هوية الذات.

أمّا الشخصية السليمة، فإنّ إحساسَها بالثقة، والاستقلال، والكفاءة، جديرٌ بأن يلغي لديها أيّ حافزٍ إلى الكلام الذي لا ضرورة له.

* * *

القيمة الفكرية الثانية في القصة، هي: عدم (التأثيم) «لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً».

وواضح، أنّ الكلمة المجرّحة، القاسيةَ، المُتهِمةَ: الكلمةَ التي تُسيء إلى الآخرين، إنما تعبّر [في حقل المرض النفسي] عن وجود نزعة عدوانية لدىٰ صاحبها: ملأىٰ بالحقد والضغينة والحسد والكراهية.

ولا حاجة لنا إلى التذكير بنصوص أهل البيت(ع) في هذا الحقل، ما دام المشرّع الإسلامي ـ أساساً ـ يُشدّد على تنقية الشخصية، وتدريبها على (الحبّ) بدلاً من (الحقد).

وهذا ما ألمحت القصةُ إليه، في القيمة الفكرية الثالثة التي طرحتها في القصة، عبْر رَسْمِها للسابقين إلى طاعة الله: [في بيئة الجنة]، ونعني بذلك هذه

الفقرة:

«إلا قيلاً سلاماً سلاما».

فالسلام، أو التحية، لا يُشكل مجرّد سلوكٍ لفظيٍ خال من الدلالة، بل [حتىٰ في حالة الافتعال] يظل تعبيراً ـ أو على الأقل ـ محاولةً في التدريب على (الحبّ)، يمسح من الأعماق بقايا الكراهية أو التوتر الذي يطبع أحد الأطراف الاجتماعية، في السلوك الدنيوي.

* * *

خارجاً عن القيم الفكرية للقصة، نجد، أنها قد خُتمت بالوصف الحائم على ما هو (نفسي) قبال ما هو (حيوي) متصلٌ بالطعام، والشرب، والحاسة الجمالية: مما تُشعرنا ـ هذه النهاية القصصية ـ بأن القيمة الحقّة التي تُتوّج بيئة [السابقين إلى طاعة الله] هي: الحبّ الذي يطبع العلاقة القائمة بين الأطراف.

المهم، أنّ (السابقين) إلى الطاعة، يُشكّلون صفوة أو نخبةً، رسمتهم القصةُ في الذروة من النعيم: حيوياً ونفسياً.

يليهم [في بيئة الجنّة] أصحابُ اليمين، أو الميمنة.

وَهُم: المجموعة: الأقلّ امتيازاً من السابقين.

وطبيعيٌ، أن نتوقع إشباعاً أقل حجماً عند أصحاب اليمين، بالقياس إلى السابقين، ما دامت عملية [الاختبار الدنيوي] الذي اجتازه (السابقون) قد اقترن بتأجيلٍ أكبر حجماً من التأجيل الذي مارسه أصحاب اليمين: في مواجهتهم للحياة الدنيا، ولذائذها.

والآن، لنقرأ نصوص القصة، في رسمها لبيئة الجنة التي أعدّت لأصحاب اليمين:

﴿وأصحابُ اليمين. ما أصحابُ اليمين﴾.

﴿في سِدرٍ مخضود. وطَلْحٍ منضود. وظلٍ ممدود﴾.

﴿وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾.

﴿وفرش مرفوعة﴾.

﴿إنّا أنشأناهن إنشاءاً. فجعلناهن أبكاراً. عُرُباً أتراباً﴾.

إنّ المتأمّل لهذه البيئة التي أُعدّت لأصحاب اليمين، يجدها ـ عبْر المقارنة ـ بالبيئة التي أعدّت (للسابقين)، ذات فارقية كبيرة دون أدنىٰ شك فيما يتصل بدرجة الإشباع، أو درجة (الترَفِ): مع ملاحظة غياب العنصر الاجتماعي المتمثل في: تحديد العلاقات القائمة بين الأطراف.

وواضح، أنّ لهذا الفارق بين البيئتين، مسوغاته المتصلة بالفارقية بين الفريقين في ممارساتهما لمهمة الخلافة في الأرض.

كما أنّ الطرائق الفنيّة التي سلكتها القصة في هذا الصدد يُجلي حقائقَ جديدة ينبغي أن نقف عنها مفصلاً.

* * *

المُلاحظ: أنّ أول عنصر يختفي [في الجنة التي يرفل فيها أصحاب اليمين] هو: عنصر (المكان) من حيث وسائل (الترَف) الذي يصاحبه. فليس ثمة إشارة إلىٰ (السُرر) التي وُصفت بأنها محبوكة موضونة، متكئين عليها، متقابلين.

هذه الأوصاف: السُرر، كونها موضونة، الاتكاء عليها، مقابلة الأحبة واحداً حيال الآخر: هذه الأوصاف التي لحظناها ـ فيما يتصل بعنصر المكان ـ قد اختفت هنا [عند أصحاب اليمين]، بحيث لم يرد أيّ وصف لمكان الجلوس، عدا: [الظلّ الممدود] و[الفرش المرفوعة] التي لا نملك يقيناً بأنها تعني: المكان المفروش، ما دام ظاهر النص وبعض النصوص المفسرة،

تذهب إلى أن المقصود بها النساء.

والسؤال هو، هل أنّ القصة اعتمدت عنصر [الاقتصاد في عملية السرد القصصي] بحيث لم تكن ضرورةٌ لوصف سَبقَ أن قدمته لأصحاب السبق(السابقين): فحذفته هنا، اعتماداً على كشف القارىء لهذه الحقيقة؟

هذا السؤال لا تمكن الإجابةُ عليه بحسمٍ ويقين، ما دمنا بالضرورة، نُدرك بأنّ فارقاً بين درجات الإيمان يطبع المؤمنين دون أدنىٰ شك.

وتبعاً لذلك، فإنّ درجات (الإثابة) لا بدّ أن تتفاوت بدورها أيضاً: بحيث تنعكس على مستويات (التَرَفِ) في الجنّة.

بيد أننا ـ في نصوص قرآنية كريمةٍ أخرىٰ ـ نجد تعميماً لأصحاب الجنة فيما يتصل بوسائل الجلوس، من نحو قوله تعالىٰ:

«على الأرائك ينظرون» «فيها سررٌ مرفوعة» «زَرَابيُّ مبثوثة» «نمارق مصفوفة» إلخ... فالأرائك والسُرر والفرش: اتكاء عليها أو جلوساً: قد وردت في سياق أصحاب الجنة، دون أن تشير هذه النصوص القرآنية إلى الفارقية بين الأصحاب.

والملاحظ، أنّ أصحاب اليمين قد اختفىٰ مثل هذه الأوصاف من أبياتهم في الجنة قبال الوصف التفصيلي لأصحاب السبق.

والسؤال، للمرة الجديدة لماذا لم يرد وصفُ المكان لأصحاب اليمين؟ وهل أنهم داخلون في التعميمات الواردة في وصف أهل الجنة، فيشملهم هذا الوصف للمكان؟؟. وإذا كان الأمر كذلك: فلماذا اختفىٰ وصف المكان هنا قبال الوصف التفصيلي للسابقين؟؟

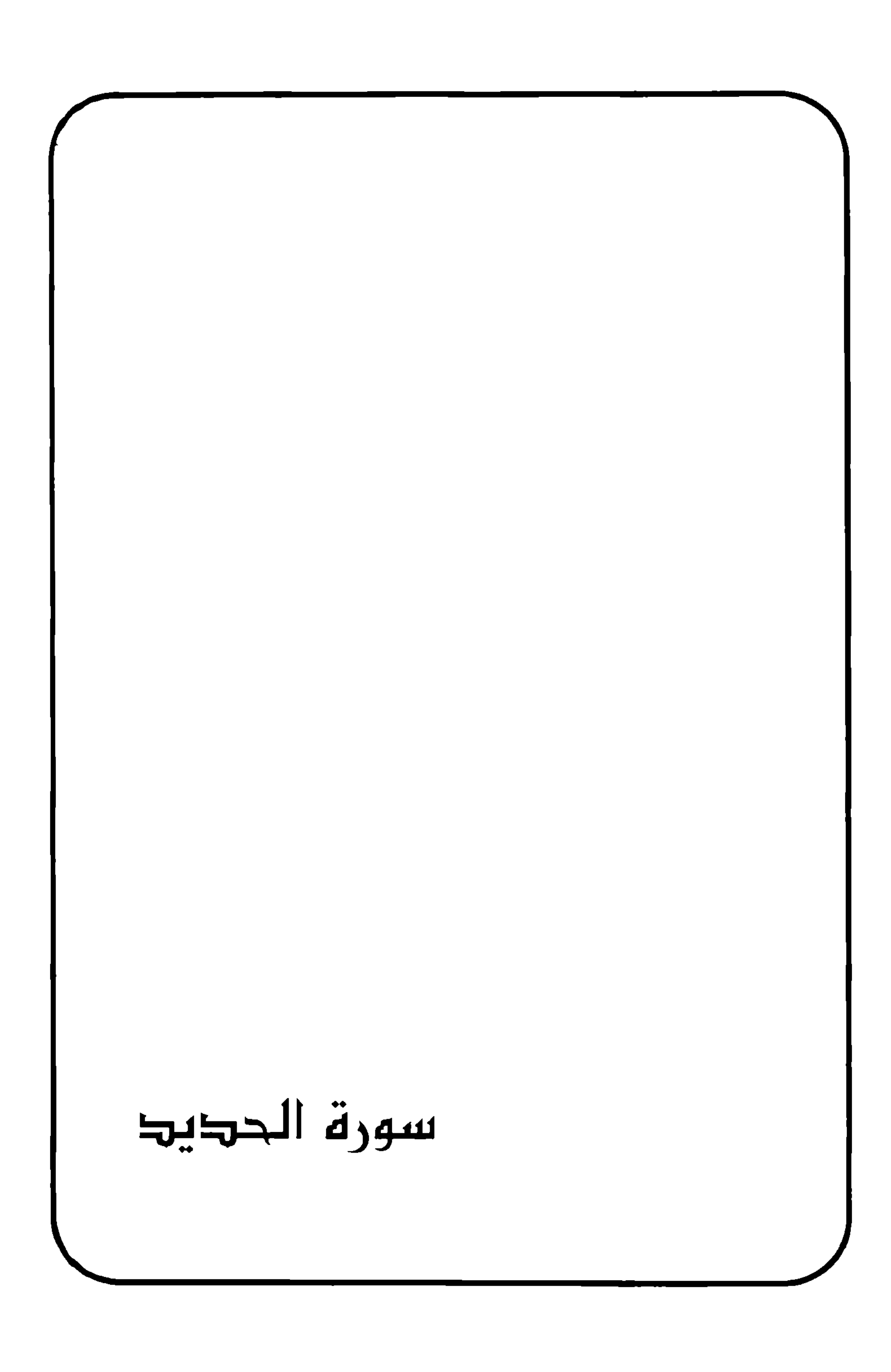
* * *

لحظنا أن هذه السورة تمحضت لرسم البيئات الثلاث (السابقين،

أصحاب اليمين، أصحاب الشمال)... وقد مهّدت السورة الكريمة لهذه القصص بالحديث عن الواقعة في اليوم الآخر، وانقسام الناس حينئذٍ ثلاث فئات (وكنتم أزواجاً ثلاثة...) ثم أخذت السورة برسم على بيئة للفئات المشار إليها... وبذلك يكون الربط بين المقدمة والوسط القصصي من الوضوح بمكان كبير..

وأما ختام السورة، فقد جاء تلخيصاً أو نتيجة أو تنمية عضوية لما فصلته الأقسام الثلاثة من السورة (فأما إن كان من المقربين... وأما إن كان من أصحاب اليمين... وأما إن كان من المكذبين الضالين) مع ملاحظة أن هذا الختام سبقه رسمٌ عن القرآن الكريم (فلا أقسم...) ووصل بالجزاء الأخروي، ثم وصل بين هذا الجزاء وبين التلخيص للجزاءات الثلاثة (السابقة، اليمين، الشمال)... ونعتقد أن الرسم المرتبط بالقرآن وبعدم مسّه إلا المطهّرون، ثم إدخاله في سياق الجزاءات الثلاثة، يظل ـ كما كررنا ـ إفصاحاً عن الأهمية التي يخلعها النص علىٰ الظاهرة المشار إليها، حيث جاء الربط الفني بين أهمية القرآن الكريم وبين التكذيب به من قبل المنحرفين، ربطاً واضحاً يصل بين الجزاء الأخروي الذي ينتظرهم وبين الجزاءات الثلاثة التي تم رسمها من خلال العنصر القصصي، بالنحو الذي لحظناه.

* * *



سورة الحديد

قال تعالى: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم: سبَّح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيزُ الحكيمُ له مُلْك السماوات والأرض، يُحيي ويُميتُ وهو على كل شيءٍ قديرٍ هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليم هو الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيَّام ثم استوى على العرش، يعلمُ ما يلجُ في الأرْض وما يخرجُ منْها، وما ينزلُ من السماء وما يعرج فيها، وهو معكُم أين ما كُنْتُم، والله بما تعملُون بصير له مُلْكُ السماوات والأرض وإلى الله تُرجعُ الأمُور يُولجُ الليل في النهار، ويُولجُ النَّهار في الليل وهو عليمٌ بذات الصُّدور﴾**.

بهذا المقطع تُستهلُّ سورة الحديد، وهو مقطع يتناول ظواهر تتصل بصفات الله تعالى وبالإبداع الكوني... إلاّ أن الصياغة الفنية لهذه الظواهر: تتم من خلال جملة من الخصائص التعبيرية التي تلفت الانتباه... أن كل نصٍ فنّي يتضمن عناصر «صورية وإيقاعية ولفظية وبنائية»... والمقطع الذي نتحدث عنه تطبعه عناصر (لفظية) ـ في المقام الأول، ثم عناصر إيقاعية، ثم عناصر صورية: وفق نسب متفاوتة حسب التسلسل الذي ذكرناه... وأول ما يمكن ملاحظته (في العناصر اللفظية) هو: (عنصر التقابل) من نحو قوله تعالى: **﴿يُحيي و يُميت﴾** و**﴿هو الأول والآخر﴾** و**﴿الظاهرُ والباطن﴾** **﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾** **﴿يولج الليل في النَّهار ويُولج النَّهار في الليل﴾**. إن هذا التقابل بين الاحياء والإماتة، بين الأول والآخر، بين الولوج والإخراج، بين الظاهر والباطن، بين الليل والنهار: يظل عنصراً فنياً يحقق الإثارة عند المتلقي، فضلاً عن أنه ينطوي على دلالات فكرية يستهدف المقطع توصيلها إلينا، وهذا مثل قوله تعالى: **﴿الأوّل والآخر والظاهرُ والباطنُ﴾**: حيث أن هذه

الدلالات تحدد مفهوم أزليته تعالى أو أنها (رمز) لكونه تعالى هو الظاهرة المتفردة التي يفتقر الوجود إليها إذ أنه هو الأول والآخر في كل شيء والظاهر لكل شيء... ومثل قوله تعالى بأنه: المحيي والمميت حيث يصبّ هذا المعنى في نفس الظاهرة المنفردة لله تعالى، وكذلك سائر (التقابلات) التي لحظناها...

ونتجه إلى عنصر (الصورة) فنجد أن هذا المقطع قد تخلّلته صورة فنية هي ﴿**ثُمَّ اسْتوى على العرش**﴾... هذه الصورة تصبّ في نفس الدلالة الفكرية التي تضمّنتها الظواهر المتقابلة، حيث أن تفرده تعالى ينسحب على مطلق الأشياء ومنها: هيمنته تعالى على الوجود... وهذا يعني أن المقطع قد صيغ بنحوٍ تتجانس فيه عناصر الفن لفظياً وصورياً وغيرهما كما سنرى لكن: لنقف أولاً عند هذه الصورة الفنية:

إن هذه الصورة ﴿**ثم ٱسْتوى على العرْش**﴾ تنتسب (من حيث المفهوم البلاغي) إلى عنصر (الرمز)، و«الرمز» هو: حسب التعريف الفنّي له ـ تعبير محدود عن أشياء غير محدودة، أي: إنه (لفظ) ذو إيحاءات متنوعة لا يتحقق استيعابها من خلال الألفاظ بل لا بد من أن يُنتقىٰ لفظ محدّد ذو إمكانية إيحائية تفجّر في ذهن القارىء معاني متعددة، كذلك عبارة ﴿**ٱستوى على العرْش**﴾، حيث أن الله تعالى بصفته منزّهاً عن الجسمية أو الحدوث، حينئذٍ لا يمكن أن يُرمز لهيمنته على الكون ما هو تعبير حسّي. لكن مع ذلك: انتخب النص القرآني الكريم مثل هذه الصورة «ثم استوى على العرش»... فما هذا السّر الفنّي في ذلك.

ونجيب:

بما أن (الرمز) هو إشارة أو إيماء (وليس حقيقة) كما يؤشر الضوءُ الأخضر والأحمر إلى الحركة والتوقف، حينئذٍ لا تكون الصورة الرمزية ذات

طابع تنزه الله تعالى عنه، لأننا لسنا ـ حقيقة ـ أمام «استواء على العرش» بل أمام «رمزٍ» للهيمنة والسيطرة على الكون، أمام (إشارة) للهيمنة والسيطرة: وليس أمام استواء حقيقي (حسّي)...

وهذا ما يرتبط بالمسوّغ الفنّي لانتخاب الصورة الرمزية. امّا ما يتصل بالأهمية الفنّية للرمز، فهذا ما يتضح تماماً، حينما تأخذ بنظر الاعتبار بأن هيمنة الله تعالى وسيطرته على الوجود لا تتاح الإحاطة بتفاصيلها إلاّ من خلال عبارات مفصلة، وحتى مع التفصيل يظل الذهن الإنساني مفتقراً إلى المزيد من التفصيلات، لذلك (من أجل الاقتصاد اللغوي من جانب، ومن أجل إتاحة المجال للذهن الإنساني بأنّ يتحرّك وفق تجاربه من جانب آخر) يُنتخب (الرمز) بما يمتلك من إيحاءات: لكي يستخلص القارىء بنفسه مستويات السيطرة أو الهيمنة لله تعالى، إذ أن الصورة عندما تقول له بأنّ الله تعالى قد استوى على العرش، حينئذٍ يترك الإنسان ذهنه متحركاً في مفهومات الهيمنة أو السيطرة لله تعالى دون حدود... المهم، أن هذه الصورة الرمزية جاءت متجانسة مع المفهومات التي طرحها هذا المقطع (المفهومات المرتبطة بصفات الله تعالى وبالإبداع الكوني) مفصحاً بهذا عن إحكام النص من حيث تلاحم أجزائه بفضائح الآخر، بالنحو الذي أوضحناه...

❊ ❊ ❊

قال تعالى: **﴿آمِنُوا بالله ورسُولِه، وأنفقُوا ممَّا جعلكُم مُستخلفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجْرٌ كبيرٌ وما لكُم لا تُؤْمنون بالله، والرّسولُ يدعُوكُم لتُؤْمِنُوا بربكُم وقد أخذ مِيثاقكُم إنْ كنتُم مؤمنين هو الّذي يُنزِّلُ على عبدهِ آياتٍ بيّناتٍ ليُخْرجكم من الظُلُماتِ إلى النُّور، وإنّ الله بكُم لرؤوف رحيم وما لكُم ألاّ تُنفقُوا في سبيل الله، ولله ميراثُ السّماوات والأرض، لا يستوي منكم منْ أنْفق منْ قبل الفتحِ وقاتلَ، أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنْفقوا من بعدُ**

وقاتلُوا، وكلاً وعدَ الله الحُسنى، والله بما تَعملون خبيرٌ مَنْ ذا الذي يُقرِضُ الله قرضاً حسناً فيضاعِفَهُ له وله أجْرٌ كريم﴾.

في هذا المقطع من سورة الحديد، يطرح النص ظاهرة (الانفاق) في سبيل الله تعالى... لكن، ينبغي أن ننظر إلى المنحى الفني الذي سلكه النص في هذا المقطع وصلته بفكرة السورة الكريمة...

الإنفاق هو واحد من أهم الظواهر العبادية التي يشدّد فيها القرآن الكريم والسنَّة... وفي هذا المقطع تُطرح أكثر من قضية ترتبط بمفهوم الإنفاق ودلالته العبادية... فأولاً: أن المال هو مما أورثه الله تعالى الإنسان **﴿وأنفقوا ممّا جعلكُم مستخلفين فيه﴾** وهذا يعني أن المال هو لله تعالى وأنه تعالى ملكهُ للإنسان، وأن هذا التمليك ينبغي أنْ يُنفق منه في سبيل الله فكما أن المال هو تمليك من الله تعالى لهذا «الشخص» أو ذاك فكذلك هو تمليك بالواسطة أي من خلال انفاق العبد هذا المال على غيره من الناس أيضاً... لذلك كرّر المقطع قضية الإنفاق بعد ذلك قائلاً: **﴿وما لكم ألاَّ تُنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرْض﴾**. هذا التكرار ذو دلالة فنية مزدوجة... فمن جانب: يستهدف التأكيد على أن المال أساساً هو لله تعالى **﴿ولله ميراثُ السّماواتِ والأرْض﴾** وليس للإنسان، كما أنه من جانبٍ آخر يربط المقطع بين ظاهرة الإنفاق وبين مقدمة السورة الكريمة التي ورد فيها التأكيد مرتين بأن الله تعالى هو مالك السماوات والأرض **﴿له مُلكُ السَّماوات والأرض: يُحيي ويُميت﴾ ﴿ له مُلكُ السَّماوات والأرض وإلى الله تُرجَعُ الأُمور﴾**...

إذن، عندما طرح النص ظاهرة الإنفاق في سبيل الله، استهدف أولاً أهمية هذا الإنفاق، وكونه واسطة بين الله تعالى والناس، وليس تمليكاً للشخص بعد كونه (توظيفاً) يمارسه هذا الشخص أو ذاك فيوصل المال إلى مستحقه...

ويُلاحظ هنا، أن المقطع طرح قضية خاصة ترتبط بالمجتمع الإسلامي في عصر النّبي(ص) حيث قارن النصُ بين الإسلاميين الذين أنفقوا من قبل فتح مكة وبين الإسلاميين الذين انفقوا بعد الفتح، وفضّل المنفقين قبل الفتح على المنفقين بعده ولوّح بالثواب لكل من الفريقين... وخلال هذه المقارنة نستكشف أن «الإنفاق» ـ مثل سائر الممارسات العبادية يقوم بقدر حجم التضحية، حيث أن الإنفاق قبل الفتح كان مصحوباً بتضحية أكثر من الإنفاق بعده: بصفة أن الوضع الاقتصادي الذي خبره مجتمع المهاجرين والأنصار: كان مصحوباً بالشدة، كما أن متطلبات المعارك المتواصلة كانت إلى الإنفاق أشدّ إلحاحاً من الإنفاق بعد الفتح...

والمهم، أن المقطع القرآني الكريم: حين ربط بين قضية خاصة (الإنفاق قبل الفتح وبعده) وبين قضية عامة (مطلق الإنفاق للمال الذي استخلفه الله تعالى للناس): إنما استهدف بلورة هذا المفهوم وتوضيح درجات الإنفاق...

ويلاحظ أيضاً، إن المقطع طرح خلال حديثه عن الإنفاق: قضية أخرى هي قوله تعالى: **﴿هو الّذي يُنزل على عبْدِهِ آياتٍ بيناتٍ ليخرجكُم من الظُلمات إلى النُّور﴾**. والسؤال هو، ما هو الموقع العضوي أو الفني لهذه الآية من حيث علاقتُها بموضوع الإنفاق...

في تصورنا أن النص استهدف لفت النظر إلى أهمية الإنفاق، وكونه أحد مصاديق (النور) الذي يغمر الإنسان...

واضح أيضاً، أن هذه الآية تضمنت صورة رمزية هي إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور، حيث (ترمز) الظلمات إلى الكفر والضلال، وحيث (يرمز) النور إلى الإيمان والهداية، حينئذٍ، فإنّ الإنفاق يظل واحداً من مصاديق الإخراج من الظلمات إلى النور...

أخيراً، يُلاحظ أن المقطع قد خُتم بقوله تعالى: **﴿منْ ذا الّذي يُقرضُ الله**

قرْضاً حسناً﴾، حيث تجسّد هذه الآية صورة (رمزية) أيضاً، إذ يرمز (القرض) إلى الإنفاق، كما هو واضح. . .

وهكذا نجد أن الصور الفنية (وهي الرموز) تساهم في بلورة مفهوم الإنفاق، متجانسة بذلك مع الغرض الفكري الذي يستهدفه النص، فيما يفصح مثل هذا التجانس من التلاحم بين أجزاء النص بعضها مع الآخر بالشكل الذي لحظناه. . .

* * *

قال تعالى: **﴿يوم ترىٰ المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعى نُورُهم بين أيديهِم وبأيمَانِهم، بُشراكُم اليوم جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ذلك هو الفوزُ العظيم يومَ يقولُ المُنافقُون والمُنافقاتُ للذين آمنُوا: ٱنظُرونا نقْتبسْ من نُورِكُم، قيل: ٱرْجعُوا وراءكم فٱلتمسُوا نُوراً، فضُرب بيْنهُم بسُورٍ لهُ باب باطنهُ فيه الرَّحمة وظاهرُهُ مِن قبلهِ العذابُ يُنادونَهُم: ألم نكُن معكُم، قالوا: بلى، ولكنَّكُم فتنتُم أنفُسَكُم وتربّصْتُم وٱرتبتُم وغرَّتكُم الأمانيُّ حتىٰ جاء أمرُ الله وغرَّكم بالله الغَرور فاليوم لا يُؤخذُ منكم فِديةٌ ولا من الذين كفروا، مأواكمُ النّارُ هي مولاكُم وبئس المصير﴾**.

هذا المقطع من سورة الحديد يتناول البيئة الأخروية **﴿الجنة والنار والموقف﴾**. وكان المقطع الأسبق يتناول سلوكاً دنيوياً هو «الإنفاق» في سبيل الله، ولكن النص، انتقل من الحديث عن الإنفاق إلى الحديث عن الجزاء الأخروي: لهدفٍ فنّي هو الربط بين الطاعة وانعكاساتها على المصير الأخروي للشخص.

لكن بغض النظر عن المبنىٰ العماري للنص، ينبغي أن نقف عند المنحى الفنّي الذي سلكه النص في حديثه عن البيئة الأخروية. . .

أول ما يواجهنا في المقطع هو قوله تعالى: **﴿يسْعى نورُهم بيْن أيديهم**

وبأيمانهم﴾ . ترى ما هو المقصود بـ «النور»؟ هل هو رمز للهدى والإيمان ونحوهما مما يستخدمه القرآن الكريم في مواضع مختلفة ومنها في هذه السورة التي جاء فيها **﴿ليُخرْجكم من الظلمات إلى النور﴾**؟؟ أم أن العبارة ليست (رمزية) بل (واقعية) يُقصد منها: انبثاق نورٍ أو ضياء فعلي أمام المؤمن؟؟ ما نحتمله فنياً هو: الدلالة الثانية أي أن هناك نوراً يتقدم الشخص بحيث يبصر من خلاله: طريقه إلى الجنة. . . والدليل على ذلك هو: الآية التي تليها حيث تقول: **﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات: انظرونا نقتبس منْ نوركم﴾** حيث يطالب المنافق بشيء من النور يستضيء به، ولا بد أن يكون النور هو الضياء الحقيقي وليس الضياء الرمزي إذ لا معنى أن يطالب المنافق: أن يعطيه المؤمن: شيئاً من الهدى أو الإيمان ونحو ذلك، ولهذا يتعين أن يكون المقصود بـ (النور) هو: الضياء الذي يتبّصر به المؤمن طريقه إلى الجنة. . .

لكن: ما هو الجواب الذي يرد به على المنافق؟ الجواب هو **﴿قيل ارجعوا وراءكم فٱلتمسُوا نُوراً﴾**. . . هنا يلجأ النص إلى عنصر (السخرية) من المنافق فيقول المؤمن له (ارجع والتمس نوراً)، والرجوع هنا اما أن يُقصد منه: الرجوع حقيقة كما لو يُقال لشخصٍ: ارجع إلى مكانك وابحث عن النور: مستهزئاً بسؤاله، أو يقصد به مجرد الرمز للرجوع إلى الدنيا حيث خسر المنافق فيها جولته بإيثاره المتاع العابر. . . وفي الحالين، فإن (السخرية) من المنافق تظل هي الجواب الذي يُقدَّم إليه. . .

لكن: ما هو ردّ فعل المنافق حيال هذا الجواب؟.

المنافق سأل نوراً، الجواب هو اذهب وراءك وابحث عن النور. . . ثم ماذا؟ **﴿فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قِبَلِهِ العذاب﴾**. ماذا تعني هذه الآية؟. . . للمرة الجديدة: المنافق يسأل نوراً، يجيء الجواب، اذهب والتمس نوراً وراءك. . . ويذهب المنافق بالفعل،

ولكنه ماذا يجد؟ يجد سوراً بين الجنة والنار، ثم ماذا؟ يجد (باباً) على هذا السور. . . وإذا في الباب؟ الباب يُشاهد منه ـ في الظاهر ـ إمكانية الدخول إلى الجنة لكن الحقيقة هي: الدخول إلى النار. . .

وحيال هذه المحاورة وانكشاف الحقيقة أمام المنافق، يبدأ المنافق بسؤال جديد يوجهه إلى المؤمن: ﴿**ينادُونهم: ألم نكنْ معكم؟**﴾ و يجيءُ الجواب: ﴿**بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم. . .**﴾.

إذن، حُسم الموقف وعرف المنافقون بأنّ القضية ليست إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بل هي الحقيقة العبادية كما أوضحتها مبادىء الإسلام وليس التلاعب بعقول المسلمين. . . هذا التلاعب من قبل المنافق دنيوياً: قابلته السخرية منه أخروياً. . . وها هم المؤمنون (يسخرون من المنافقين) في الآخرة جواباً على سخريتهم دنيوياً. . .

إذن، اتضح كيف أن هذا المقطع قد أحكم بناء النص رابطاً بين سلوك المؤمن والكافر دنيوياً وأخروياً، مجانساً بين الموقف، فيما يفصح مثل هذا التجانس عن إحكام النص وتلاحم أجزائه بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه. . .

* * *

قال تعالى: ﴿**ألم يأنِ للذين آمنُوا أنْ تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزَل من الحقِّ، ولا يكُونوا كالذين أوتُوا الكتاب من قبلُ فطال عليهِمُ الأمدُ فقسَت قُلُوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقُون اعلموا أنَّ الله يُحي الأرض بعد موتِها قد بيّنا لكمُ الآيات لعلّكم تعقِلُون إنَّ المُصدِّقين والمُصدِّقات وأقرضُوا الله قرضاً حسناً يُضاعفُ لهم، ولهمُ أجْرٌ كريمٌ والذين آمنوا بالله ورسُله أولئك هم الصِّدِّيقُون والشُهداءُ عند ربِّهم لهم أجرُهم ونُورُهم، والذين كفَروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم**﴾.

هذا المقطع من سورة الحديد: امتداد، لمقاطع سابقة تحوم فكرتها على موضوع (الانفاق في سبيل الله) وهو الموضوع الذي يقوم عليها الهيكل الهندسي للسورة الكريمة. . .

الجديد في هذا المقطع هو: جملة أشياء، منها: قضية قساوة قلب الإنسان بسبب من كثرة معاصيه، حيث تساءل المقطع القرآني قائلاً: ﴿**ألم يأن للَّذين آمنُوا أنْ تخشع قلوبهم لذكر الله؟؟**﴾ وهذا التساؤل هو: دعوة إلى أن يتلافى الإنسان ذنوبه ويُخشع قلبه لذكر الله تعالى قبل أن يقسو قلبه حيث لا يستطيع بعدئذٍ أن يتجه إلى الله تعالى، يقول النص في هذا الصدد ﴿**ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ، فطال عليهمُ الأمدُ، فقست قُلوبُهم**﴾. إن قسوة القلب: ظاهرة نفسية لها خطورتها في ميدان السلوك الإنساني يتميز عن سواه بكونه يتحرك من خلال النبض الإنساني فيه: أي إيمانه بالقيم الخيّرة التي يحياها، فإذا قسا قلبه: تلاشى ما هو إنساني فيه فيتحول إلى كائن متمزّق، متوتر، متصارع، عديم الإحساس بالمسؤولية...إلخ، وهذا ما حذّر النص منه. . . هنا يتقدم النص بآية جديدة تقول: ﴿**أعلموا أنَّ الله يُحي الأرض بعد موتها. . .**﴾ والسؤال هو، ما هي علاقة هذه الآية بقساوة القلب؟؟ ثم ما هي علاقة ذلك كله بفكرة السورة التي تحوم على مفهوم (الانفاق في سبيل الله)؟.

نحتمل فنيّاً: أن تكون الآية التي تقول بأنّ الله يحيي الأرض بعد موتها، نحتمل أن تكون منطوية على مهمة فنية مزدوجة، فهي من جهة توضح قدرة الله تعالى وهيمنته على كل شيء حيث كانت مقدمة السورة تحوم على هذه المفهومات (أي: هيمنة الله على الكون). . . لكن في نفس الوقت يمكن أن تكون هذه الآية (رمزاً) فنياً هو، أن الإنسان إذا عزم على التوبة إلى الإيمان والخشوع لله تعالى، حينئذٍ فإنّ الله تعالى يحيي قلبه فيعيده إلى الإيمان والخشوع لله تعالى، فكما أنه يحيي الأرض بعد موتها: كذلك يحيي القلوب

بعد موتها، لكن ينبغي أن يكون ذلك قبل أن يستمر ويصرّ على الذنب، لأن الإصرار على ذلك وفق الآية التي سبقتها يفضي إلى أن يقسو القلب فلا يفلح بعد ذلك **﴿ولا يكُونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ فطال عليهمُ الأمدُ، فقستْ قلوبُهم﴾**. . .

وأما علاقة قساوة القلب أو خشوعه لذكر الله تعالى: بقضية (الإنفاق في سبيل الله) فستتضح تماماً حينما نواجه بعد ذلك، الآية الآتية: **﴿إن المصدقين والمصدقات، وأقرضوا الله قرضاً حسناً، يُضاعف لهم﴾**. فبهذه الآية ربط النص بين (الإنفاق) وبين تساؤله **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله؟﴾** وبين تحذيره **﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم﴾**. . . وبكلمة جديدة، إن القارىء سوف يستخلص (من خلال هذه الطريقة الفنية التي سلكها القرآن الكريم بصورة غير مباشرة) يستخلص بأنّ «الإنفاق في سبيل الله» يستجر الشخصية إلى أن تخشع لله تعالى، وأن الامتناع عن ذلك سوف يفضي إلى أن تقسو القلوب، لذلك: ينبغي أن تسارع الشخصية إلى ممارسة هذا العمل.

بعد ذلك، يُلاحظ أن النص عندما تحدث عن المصدّقين والمصدّقات **﴿إنّ المصدّقين والمصدّقات، وأقرضوا الله قرضاً حسناً يُضاعف لهم﴾**، تحدّث أيضاً عن الإيمان بالله ورسله وانعكاسات ذلك أخروياً **﴿والّذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم، لهم أجرهم ونورهم﴾** لا نغفل، أن السورة الكريمة عندما تحدثت في مقاطع سابقة عن الإنفاق، أشارت إلى أنَّ المؤمنين في اليوم الآخر **﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾**، وها هي السورة الآن: تطرح نفس الإشارة وهي أن هناك (نوراً) في اليوم الآخر يضيء للمؤمن طريقه إلى الجنة في غمرة الموقف. . . وحينئذٍ يكون النص بهذا الربط والتكرار لقضية النور: قد أحكم بناء السورة الكريمة وجانس بين

موضوعاتها، مما يفصح ذلك عن جمالية المبنى الهندسي للسورة من حيث تلاحم أجزائها بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه...

* * *

قال تعالى: ﴿**اعلموا أنَّما الحياة الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخر بينكُم وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ: كمثل غيثٍ أعجب الكُفَّار نباتُه، ثم يهِيجُ، فتراهُ مُصفرّاً، ثم يكون حُطاماً، وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورِضوانٌ، وما الحياةُ الدُّنيا إلاّ متاعُ الغُرور**﴾.

هذه الآية من سورة الحديد، تمثل مقطعاً من مقاطع السورة الكريمة التي تصبّ موضوعاتها في فكرة محددة هي (الإنفاق في سبيل الله تعالى)، وقد جاءت هذه الآية أو هذا المقطع في سياق الحديث عن الإنفاق، حيث اعتمدت الآية عنصراً فنيّاً هو «الصورة التمثيلية والتشبيهية» التي حفلت بخصائص وسمات فنية: ينبغي أن نقف عندها...

من الواضح، أن (الصورة) هي: إحداث علاقة بين شيئين لا علاقة بينهما من حيث الواقع الحسي أو التجريدي، والهدف منها هو: تعميق وتوضيح الدلالة التي يستهدفها النص القرآني الكريم... وبما أن الحياة هي المظهر الوحيد لتحرّك الإنسان وممارسة عمله العبادي، حينئذٍ فإنّ ما يكتنفها من متاع عابر: يظل مسوّغاً كبيراً لأن تُجسّد للقارىء حقيقة هذا المتاع الذي يبهر الإنسان بحيث يقتاده إلى الانحراف ومن ثم إلى المصير الأخروي البائس... لذلك جاءت الصورة القائلة ﴿**إنَّما الحياةُ الدُّنيا: لعب ولهْو وزينةٌ وتفاخُر بينكم وتكاثُرٌ في الأموال والأولاد**﴾ جاءت هذه الصورة (تمثيلاً) أو تجسيماً أو تجسيداً لطبيعة المتاع الدنيوي... فالحياة ذاتها ليست لعباً أو لهواً بل (تتمثل) في لهو الإنسان ولعبه... ولذلك جاءت صياغة الصورة (تمثيلاً) بدلاً من التشبيه أو الاستعارة... إلاّ أن النص القرآني الكريم: تقدم بصياغة

صورة أخرى هي (التشبيه) وهي أن الحياة التي مثّلها باللعب واللهو والزينة إلخ: شبّهها الآن بـ (الغيث) ﴿**كمثل غيث أعجب الكفار نباتُه، ثم يهيج، فتراه مصفرّاً ثم يكون حطاماً**﴾. إن هذه الصورة التشبيهية تتداخل مع الصورة التمثيلية الأولى: لتبلور حقيقة جديدة تترتب على الحقيقة الأولى... فالحقيقة الأولى تقول: بأنّ الحياة لعب، لهو، زينة، تفاخر، تكاثر... والحقيقة الثانية تقول بأنّ اللعب واللهو والزينة... إلخ: إنما هي (تشبه) مطراً، أنبت زرعاً، قد أُعجب الكافرُ به، إلاّ أن هذا الزرع معرض لليبس، ثم للتحطيم...

والسؤال هو، ما هي الخصائص الفنية لهذا التشبيه؟ كان من الممكن أن يقول النص بأنّ الحياة كالنبات الذي يتلاشى في النهاية... لكنه فصّل الحديث عن هذا النبات بحيث جعل الصورة تندرج ضمن ما يسمّىٰ ـ في اللغة الأدبية ـ بالصورة الاستمرارية أو الموحَّدة، أي: الصورة التي تتألف من أجزاء متنوعة، تشكّل بمجموعها صورة كليّة، فما هو هذا السّر في ذلك؟.

في تصوّرنا، أن طبيعة الحياة أو طبيعة المراحل التي يقطعها الإنسان في حياته، ثم طبيعة الاستجابات المختلفة التي تصدر عن الإنسان حيال الحياة: تفرض ـ فنيّاً ـ مثل هذه الصور المتنوعة أو الصور التي تشكّل سلسلة مراحل هي: مطر ينزل من السماء، يستخدم في إنماء النبات، يُعجب الإنسان به (أي من حيث كونه ظاهرة أعجازية)... ولذلك علق النص على القول (كمثل غيث) بقوله (أعجب الكفار نباتُه)، أي قطع سلسلة الصورة بهذا التعليق حتى يكشف عن الجانب المنبهر من عملية نزول المطر وتسببيه لنمو النبات، ثم واصل النصُّ رسمه لصورة النبات المذكور فقال (ثم يهيج) أي: ييبس، ثم قال (فتراه مصفرّاً) ثم قال (يكون حطاماً)... هذه المراحل الثلاث «اليبس، الاصفرار، الحطام» تجسّد الجانب الآخر من حركة النبات، لأن الجانب، الأول منه هو (النمو) وهو أمر يحقق الإشباع للإنسان، إلاّ أن هذا النمو يتميّز

بكونه عابراً لسبب واحد هو: إنّ ما يتلوه من مراحل اليبس تجعله عديم الأهمية لأن المهم هو استمرارية الشيء حتى يتحقق الإمتاعُ به، أما أن يفضي في النهاية إلى اليبس: فأمر لا أهمية له البتة، لأن المهم هو: اللحظة الحاضرة التي يحياها الإنسان، فإذا كانت اللحظة الحاضرة دائماً هي يبسُ النبات، حينئذٍ لا يتحقق مفهوم الإمتاع به... من هنا ركّز النص على مراحل تلاشي النبات: اصفراراً ويبساً وتحطيماً... لأن الاصفرار هو نقطة التغير، ولأن اليبس هو نهاية الرحلة، ولأن التحطيم هو: تلاشي الشيء أساساً... وكل ذلك يتجانس مع طبيعة ما يواجهه الإنسان من مظاهر الإمتاع في الحياة... والمهم بعد ذلك، أن النص قدّم هذه الصورة ليصل بينهما وبين مفهوم (الإنفاق في سبيل الله تعالى) لأن الاحتفاظ بالمال يجسّد واحداً من صور التشبث بالحياة، وبهذا يكون النص قد أحكم السورة الكريمة من حيث تلاحم موضوعاتها بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه...

* * *

قال تعالى: ﴿**سابِقُوا إلى مغفرةٍ من ربكُم وجنةٍ عرضُها كعرضِ السماءِ والأرض، أُعدَّت للّذين آمنُوا بالله ورُسُله، ذلك فضلُ الله يُؤتيهِ من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم. ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفُسِكُم إلاّ في كتابٍ من قبل أنْ نبرأها، إنّ ذلك على الله يسير. لكيْلا تأسوا على ما فاتكُم ولا تفرحُوا بما آتاكُم، والله لا يحبُّ كلَّ مُختالٍ فخور. الذين يبخلُون ويأمرون النّاس بالبُخْل، ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد**﴾.

هذا المقطع الجديد من السورة يتناول جملةً من الظواهر العبادية والنفسية التي تعدّ جوهر السلوك البشري: من حيث تركيبة الإنسان، وما هو مقدر له، وكيفية مواجهته لما يصيبه من خير أو شر أو من فرح وألم... لقد أوضح هذا المقطع بأنّ كل ما يجري على هذه الأرض من جدب أو نحوه ثم

كل ما يجري على الشخصية من مرض ونحوه: إنما هو سابق في علم الله، محفوظ، في اللوح، يسيرُ على الله تعالى في تخطيطه بهذا الشكل أو ذاك: تبعاً لمتطلّبات الحكمة التي يجهلها الإنسان بطبيعة الحال... وإذا كان الأمر كذلك (أي: أنَّ التكييف الأرضي والبشري قُدّر له أن يتمّ بهذا النحو من الشدائد)، حينئذٍ يترتّب على ذلك أن يسلك الإنسان منحىً خاصاً في الحياة هو: ﴿**لكيلا تأسوا على ما فاتكُم ولا تفرحُوا بما آتاكم**﴾. إن هذه الآية تمثل خلاصة مبادىء الصحة النفسية للإنسان... وإذا كانت مبادىء الصحة النفسية (في تجارب علماء النفس) تتمثل في عشرات الصيغ التي يقدّمونها من أجل تحقيق التوازن الداخلي للشخص، فإنّ المبدأ القائل (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) يخترق هذه المبادىء ليصوغ معياراً يجسّد جوهر أو خلاصة ما ينبغي أن يفعلهُ الإنسان لتحقيق توازنه الداخلي...

إننا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن غالبية الأمراض النفسية حتى الجسمية تتسبب عن حالة «الإحباط» الذي يصيبُ الشخصية، أي عدم تحقيق الإشباع لحاجاتها: حينئذٍ يمكننا أن نفهم قيمة هذا المبدأ القائل بألاّ يتأسَّف الإنسان على ما فاته وإلاّ يفرح بما يأتيه... فالإنسان إذا لم يفرح بما يأتيه (كما لو أصاب مالاً) فإنّه لن يتألَّم إذا فقد مثل هذا المال، والعكس هو الصحيح أيضاً أي: إذا فرح الإنسان بالمال حينئذٍ يألم بالضرورة على فقدانه: لأن (المنبّه) وهو (المال) يظل فارضاً فاعليته على الشخص: حصولاً أو فقداناً، فإذا حصل عليه: فرح، وإذا خسره: تألَّم... لكن إذا درَّب ذاته على عدم الفرح بالشيء، فإنّ فقدانه: يظل بالضرورة غير مقترنٍ بالألم.

والآن، خارجاً عن هذه الحقيقة، ينبغي أن نتساءل عن علاقة هذا الموضوع النفسي ﴿**لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾. ما علاقةُ هذا الموضوع بفكرة السورة الكريمة: سورة الحديد التي تحوم على مفهوم

(الإنفاق في سبيل الله تعالى)؟ الآية الأخيرة من هذا المقطع الذي نتحدث عنه: توضح الصلة بين فكرة السورة وبين المبدأ النفسي المشار إليه تقول الآية الأخيرة: ﴿**الذين يبخلون، ويأمرون الناس بالبخل**﴾ إن فكرة السورة التي تحوم على مفهوم (الإنفاق في سبيل الله تعالى)، تتجانس بطبيعة الحال، مع هذه الآية الكريمة التي تشير إلى عدم الانفاق (وهو: البخل) وهذا يعني أن النص القرآني قد ربط بين موضوعات السورة الكريمة: بعد أن طرح مفهوماً عاماً يستهدف توصيله إلى القارىء... المفهوم هو: توضيح الحقيقة القائلة بأنّ كل شدّة تصيب الإنسان أو كل كارثة تصيب الأرض، إنما هي مكتوبة في اللوح المحفوظ، وأن الإنسان ينبغي ألا يتألّم من هذه الشدائد والاّ يفرح ـ بالمقابل ـ بانفراج الشدّة أو تدفق الإشباع، وبعد أن أوضح النصُ هذا المفهوم الذي استهدف توصيله إلى القارىء، عاد، فوصل بين أجزاء السورة التي تحوم على قضية الانفاق، حيث كان الحديثُ عن البخل طرحاً جديداً في بلورة مفهوم الإنفاق... فإذا لم يفرح الإنسان بما «أتاه ولا يأسى على ما فاته» حينئذٍ لا يبخل بالمال ولا يأسى على فواته... إذن، بهذا النحو من الطرح، يكون النص قد أحكم بناء السورة الفنّي من حيث علاقة أجزائها بعضاً مع الآخر بالنحو الذي لحظناه...

❊ ❊ ❊

قال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيّناتِ وأنزلنا معهم الكتابَ والميزان ليقُومَ النَّاس بالقِسط وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس وليَعلَم الله من ينصُرُه ورُسُلَه بالغيب، إنَّ الله قويٌّ عزيز. ولقد أرسلنا نُوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذُريّتهما النُّبوَّة والكتاب، فمنهم مُهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون. ثمَّ قفَّيْنا على آثارهم برسُلنا، وقفَّينا بعيسى آبن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قُلوبِ الذينَ اتّبعُوه رأفةً ورحمةً ورهبانيةً ابتدعُوها ما كتبناها عليهِم إلاّ ابتغاءَ رِضوانِ الله،**

فما رعَوْها حقّ رعايتِها، فآتينا الذين آمنُوا منهم أجْرَهم، وكثيرٌ منهم فاسقون﴾.

بهذا المقطع تُختم سورة الحديد التي حامت فكرتها علىٰ قضية «الانفاق في سبيل الله تعالى» بخاصة الانفاق المرتبط بالجهاد... هنا، تختم السورة بجملة من الموضوعات، ومنها: الحديث عن الكتابيين حيث يستهدف النصُّ التركيز علىٰ سلوكهم حيال رسالة الإسلام... لقد طرح النصُّ أوّلاً قضية إرسال الرسل: نوح، إبراهيم، عيسىٰ عليهم السلام...

كما طرح خلال ذلك: موضوعاً عن (الحديد)، وطرح ظاهرة (الميزان) أيضاً... هذه الظواهر الثلاث، تتباين فيما بينها، إلاّ أنّ النصّ طرحها في هذا السياق، مُلفتاً النظر إلى أهميتها: حيث أنّ سمة الفن أن يتناول أكثر من موضوع في صياغة فنية خاصة... فما هي السمات الفنية لهذه الموضوعات المطروحة؟ لقد تحدّث النص عن نوح وإبراهيم وعيسىٰ. أما (نوح) فلكونه أباً للأنبياء (بعد حادثة الطوفان)، وأما (إبراهيم) فلكونه (أباً) لهم ينتهي بمحمد(ص)، فضلاً عن شريعته التي عمل بها من بعده وأقرّت في شريعة الإسلام في كثير من مبادئها ، وأما عيسىٰ فلكونه مرتبطاً بالمسيحيين الذين يتحدّث النص عن سلوكهم...

لكن، يلاحظ أن المقطع طرح ظاهرة جديدة تبدو وكأنّها لا علاقة لها البتّة بموضوع السورة، ألا وهو قوله تعالى: **﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾**...

هنا ينبغي أن نتذكّر بأنّ السورة الكريمة تحدّثت عن «الإنفاق في سبيل الله تعالى» وأنّها تحدّثت بذلك في قضية الجهاد والقتال حيث قالت: **﴿لا يستوي منكم مَن أنفق مِنْ قبل الفتح وقاتل﴾**، وهذا يعني أنّ الانفاق جاء في صعيد الحديث عن الجهاد والقتال، وحينئذٍ فإنّ (الحديد) ـ وهو السلاح ـ قد جاء هنا

متوافقاً مع متطلبات القتال، لذلك أوضح بأنّ (الحديد) أو السلاح الذي تقاتلون به إنما هو معطىً من معطيات الله تعالى للدفاع به عن الإسلام، ثم ذكر منافع أخرىٰ له مثل استخدامه للأدوات المنزلية وغيرها. . .

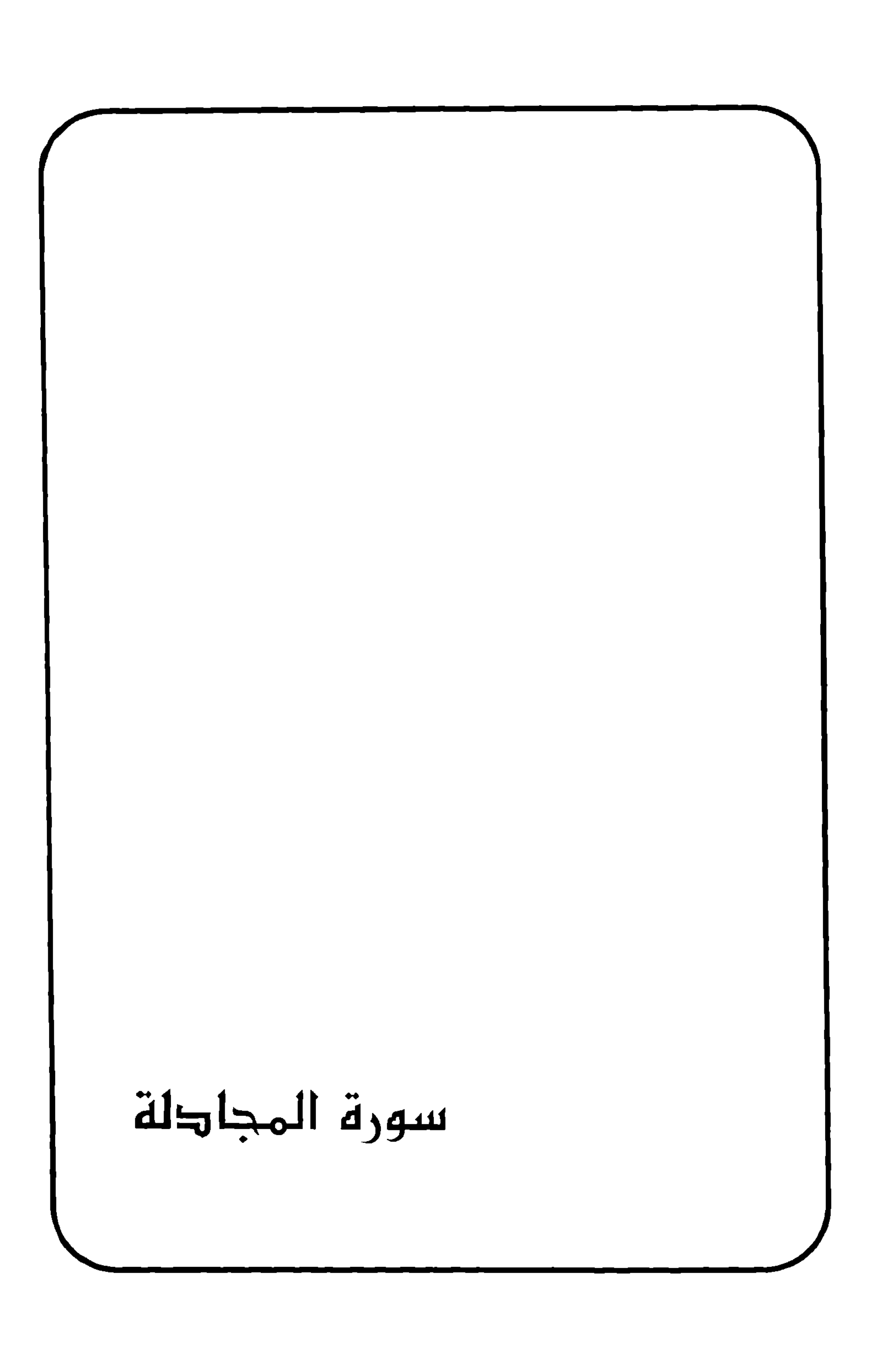
لكن، يُلاحظ أيضاً، أنّ المقطع طرح موضوعاً آخر هو (الميزان) الذي يعني كونه (أداة) للتعامل الاقتصادي. . . وما دام الأمر يتعلّق بالتعامل الاقتصادي ـ والإنفاق واحد من وجوه التعامل الاقتصادي ـ حينئذٍ فإنّ الموقع الفنّي لهذا الموضوع يظل واضحاً من حيث ارتباطه ببناء السورة الكريمة. . . بيد أنه في نفس الوقت، ينبغي أن ندرك بأن (الميزان) هو (أداة) لها أهميتها في ميدان التعامل الأخلاقي أيضاً، لأنه مؤشر إلى نظافة النفس الإنسانية من حيث كونها تتعامل مع الناس بالقسط وبالابتعاد عن الذات ومكاسبها الفردية، لذلك نجد أن النصوص القرآنية الكريمة طالما تتحدّث عن (الميزان)، بل نجد أن نبيّاً مثل شعيب عليه السلام قد خصّه الله تعالى بإرساله إلى مجتمع كان يتلاعب بالموازين، مما يعني أن هذه الظاهرة لها أهميتها لدى الله تعالى من حيث إفصاحه عن استقامة النفس والتعامل بالقسط والعدل مع الناس. . .

أخيراً، طرح المقطع، قضية المسيحيين، وأشار إلى أنهم ابتدعوا رهبانيةً لم تفرض عليهم، مستخلصاً من ذلك: حقيقة عبادية هي، موقفهم من رسالة الإسلام حيث ينبغي أن يدفعهم سلوكهم إلى الإيمان بهذه الرسالة التي كتبت عليهم، وليس بمجرد الرهبانية غير المفروضة عليهم. . .

ثم ختم النص ذلك بقوله: ﴿**اتقوا الله وآمنوا برسوله، يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به، ويغفر لكم**﴾، حيث ترتبط هذه الآية بالمصير الأخروي الذي رسمه الله للمؤمنين في تضاعيف هذه السورة التي أشارت إلى أن المؤمنين في اليوم الآخر يسعى نورهم بين أيديهم

وبأيمانهم. . . وبذلك يكون قد ربط بين أجزاء السورة بنحوٍ يفصح عن إحكام السورة من حيث تلاحم موضوعاته، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *



سورة المجادلة

قال تعالى: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تُجادلُك في زوجها، وتشتكي إلى الله والله يسمعُ تحاورَكُما إنّ الله سميعٌ بصير الذين يُظاهرون منكم من نِسائهم ما هنّ أُمّهاتِهم، إنَّ أُمهاتُهُم إلاّ اللاّئي ولدنَهُم، وإنَّهم ليقولون مُنكراً من القولِ وزُوراً، وإنّ الله لعفوّ غفور﴾**.

لقد استهلت السورة الكريمة بهذا المقطع الذي يتضمّن حكاية أو أقصوصة عن امرأةٍ تشتكي إلى الله تعالى قصة زوجها الذي ظاهَرها، حيث جاءت إلىٰ النبي(ص) ونقلت إليه قضيّتها المذكورة، وحيث نزل «الوحي» لتبيين الحكم الشرعي للظهار من تحرير رقبة، وإلاّ فصيام شهرين، وإلاّ فإطعام ستين مسكيناً...

الأقصوصة أو الحكاية المشار إليها، تتكفل النصوص المفسّرة بتبيين تفاصيلها، بيد أنّ النص عرض (وفق الفن القصصي الذي يعتمد الاقتصاد اللغوي وإبراز الحادثة أو الموقف الذي ينتخبه النص لهدفٍ فكري خاص من الأقصوصة) موقفاً هو: «مجادلة امرأةٍ رسول الله في زوجها»، (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)، ثم: شكواها إلى الله تعالى (وتشتكي إلى الله)، ثم استماع الله لتحاور الرسول(ص) والمرأة... إذن، هناك ثلاثة مواقف في هذه الأقصوصة، محاورة امرأة مع رسول الله(ص)، وشكواها إلى الله تعالى، واستماع الله تعالى للمحاورة المذكورة...

هذا هو الهيكل الفنّي للأقصوصة...

إلاّ أنّ الخطورة الفنية لهذا الهيكل، تتجسّد أولاً في: اقتصادها اللغوي المعجز، ثم في: انتخابها للمواقف الثلاثة المذكورة دون غيرها من

التفصيلات. . ثم في استتباع مثل هذين العنصرين (الاقتصاد والانتخاب) عنصراً مهمّاً هو: «التشويق» القصصي لمعرفة «النهاية» التي أسفرت عن المحاورة والشكوى، المشار إليهما. . . هذه الخصائص أو السمات القصصية، تضفي مزيداً من «الجمالية» و«الامتاع» و«الإثارة» دون أدنىٰ شك.

لقد انتخب النصُّ من (الحوادث والمواقف): ظاهرة «المجادلة مع النبي(ص) بالنسبة إلى امرأةٍ ذات مشكلة مع زوجها»، أمّا ما هي «المشكلة»، فأمرٌ قد أبهمه النصُّ، وتَرَكَ للقارىء أن يستخلص ذلك فيما بعد. إن إبرازه «للمجادلة» دون غيرها، ينطوي علىٰ هدف فنّي هو: وجود مشكلة تهتمّ بها الزوجة كثيراً، بحيث تجيء إلىٰ النبي(ص) وتعرض ذلك عليه، وهو أمرٌ يكشف عن اهتمامات المرأة وتعلّقها بزوجها. أما بالنسبة إلىٰ شكواها إلى الله تعالى، فإن انتخاب هذه الظاهرة دون غيرها، فأمر يدعنا نستكشف فنياً بأن جواب النبيّ(ص) لم يكن في صالحها، ولذلك التجأت إلى الله تعالى. . . وبالفعل، فإنّ النصوص المفسّرة تقول بأنّ النبيّ(ص) بعد أن أخبرته بأنّ زوجها قد ظاهرها قد أخبرها بأنّ «الظهار» ـ كما هو سائد قبل نزول التشريع الإسلامي ـ يقضي بافتراق الزوجين، وهو أمر دفعها إلى أن تشتكي إلى الله تعالى ليحلّ لها مشكلتها، وأما بالنسبة إلىٰ الانتخاب الفنّي الثالث وهو قوله تعالى: ﴿**والله يسمع تحاوركما**﴾، فإنّ الأهمية الفنية لانتخاب هذه الظاهرة دون سواها من الظواهر التي رافقت شكوىٰ الزوجة، فتتمثّل في أن القارىء يستطيع أن يستوحي من ذلك بأن «التوجّه إلى الله تعالى» كافٍ في حلّ «المشكلات» أو الشدائد التي تُصيب الإنسان. . . وبالفعل، ما إن تنتهي الأقصوصة من رسم المواقف المشار إليها، حتىٰ ترسم لنا «النهاية» القصصية في هذا الصدد، فتقول: ﴿**الذين يظاهرون منكم من نسائهم، ما هنّ أمّهاتهم، إن أمّهاتهم إلاّ اللائي ولدنهم، وأنّهم ليقولون منكراً من القول وزوراً، وإنّ الله لعفوّ غفور والذين يظاهرون من نِسائهم، ثم يعودُون لما قالوا فتحريرُ رقبةٍ من**

قَبل أن يتماسَّا، ذلكم تُوعظون به، والله بما تعملُون خبير فمن لم يَجِد فصِيامُ شهرين مُتتابِعَين من قَبلِ أن يتمَاسَّا، فمن لم يسْتطع فإطعامُ سِتّين مسكيناً. . . ﴾.

هذه «النهاية القصصية» تنطوي علىٰ دلالة فنية «مزدوجة»، فهي ـ من جانب ـ تعرض لنا «حكماً شرعياً» بالنسبة إلى أحد أنواع الطلاق «الظهار» حيث رتّبت عليه: العتق، فإن لم يمكن فصيام شهرين، وإلاّ فإطعام ستين مسكيناً. . .

وهذا ما يرتبط بالهدف الفكري لقضية «الظهار». .

وأمّا ما يرتبط بالسمة الفنية للأقصوصة (بصفتها صياغة خاصة تعتمد الاقتصاد والانتخاب، وتتوكّأ على التشويق والاستيحاء والإمتاع). فإنّ «النهاية» المذكورة التي أشارت إلى «حكم الظهار»، تظل جواباً فنياً لتلكم التساؤلات التي يثيرها القارىء حول مشكلة الزوجة وتحديدها ونهايتها، حيث اعتمد النصُّ عنصر (التشويق) الذي تمثّل في: الكشف عن الملابسات التي غمضت أمامنا وتطلّعنا إلىٰ معرفتها، فيما كشفها في «النهاية» المذكورة: عندما ذكر حكم «الظهار» بحيث استخلصنا طبيعة (المشكلة) التي رسمتها الأقصوصة في بدايتها ووسطها. . .

إذن، أمكننا ملاحظة مدىٰ الإحكام الهندسي للنص من حيث تنامي وتلاحم أجزائها المرتبطة بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿إنّ الذين يحادُّون الله ورسُولَه، كُبتوا كما كُبِت الذين من قبلهم، وقد أنزلنا آياتٍ بيّناتٍ، وللكافرين عذابٌ مُهين يوم يبعثُهُم الله جميعاً فينبئُهُم بما عملوا، أحصاهُ الله ونسُوه، والله علىٰ كل شيءٍ شهيد ألم ترَ أنّ الله يعلم ما في السماوات وَما في الأرض. ما يكونُ من نجوىٰ ثلاثةٍ الّا هو رابعُهُم ولا**

خمسةٍ إلاّ هو سادِسُهم ولا أدنىٰ من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهُم أين ما كانوا، ثم يُنبّئهم بِمَا عَمِلُوا يوم القيامة، إنّ الله بكلّ شيءٍ عليم﴾.

هذا المقطع من سورة «المجادلة»، جاء تعقيباً علىٰ الأقصوصة التي استُهلّت بها السورة الكريمة، ونعني بها: أقصوصة المرأة التي جاءت تجادل النبيّ(ص) في زواجها، حيث بيّنت الأقصوصة أحكام «الظهار» من تحرير رقبة. . . إلخ. هنا ـ في المقطع الذي نتحدّث عنه الآن ـ يُعلّق النصُّ على مَن يخالف أحكام الله تعالى في كفارات الظهار وغيرها من الأحكام، ملوّحاً بالجزاء الدنيوي والأخروي الذي ينتظر المخالفين لأحكام الله تعالى، حيث انتقل النصُّ من قضية خاصة هي «الظهار، إلىٰ قضية عامة هي، مخالفة أحكام الله تعالى وانعكاسها علىٰ مصائر المخالفين. . .

والمهم ـ من الزاوية الفنية ـ يعنينا أن نشير إلىٰ المبنىٰ الهندسي للسورة وعلاقة مقاطعها: بعضها مع الآخر، حيث أنّ الانتقال من الخاص إلى العام: يشكّل واحداً من خصائص البناء الفنّي للنص، وها هو المقطع القرآني الكريم يستثمر هذه القضية العامة ليحدّثنا ـ كما سنرىٰ ـ عن مجموعة من الموضوعات المرتبطة بسلوك الإنسان، يجعلها محوراً يدور عليه هيكل السورة الكريمة، ومن جملتها هذا الموضوع: **﴿ألم تر أنّ الله يعلم ما في السماوات و مَا فِي الأرض، ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلّا هو رابعهم و لا خمسة إلّا هو سادسهم و لا أدنىٰ من ذلك و لا أكثر إلّا هو معهم أين ماكانوا، ثم ينبّئهم بِمَا عَمِلُوا يوم القيامة، إنّ الله بكل شيءٍ عليم﴾**...

هذا الموضوع «و هو العلم بالنجوىٰ» والإنباء يوم القيامة بما يعمله الناس، هو أحد المحاور الذي ستحوم عليه موضوعات السورة، حيث يرتبط بالموضوعات السابقة واللاحقة من السورة، أما الموضوعات السابقة، فإنّ العنصر المشترك بينها وبين الموضوع الحالي فهو فقرة « فينبّئهم الله بما عملوا»

حيث أنها جاءت تعقيباً علىٰ موضوع «الظهار»، كما أنها جاءت الآن تعقيباً علىٰ موضوع «النجوىٰ» التي نهىٰ الله تعالى عنها، حيث عقّب قائلاً: **﴿ثم ينبّئهم بِمَا عَمِلُوا يوم القيامة﴾**، لكن بغض النظر عن المبنىٰ الهندسي لهذه الموضوعات وعلاقتها بعمارة السورة الكريمة، يهمّنا أن نتبيّن السمات الفنية لهذا المقطع الذي يتحدّث عن «النجوىٰ» حيث نلحظ أن المقطع قد اعتمد ظاهرة (العدد) في رسمه لهذا الموضوع، وحيث أشار إلى أن الله تعالى هو (رابع) بالنسبة إلىٰ ما لو تناجىٰ ثلاثةُ أشخاص، وإلى أنه تعالى: «سادس» بالنسبة إلىٰ ما لو تناجىٰ خمسةُ أشخاص، أو أكثر أو أقل من هذا العدد من المتناجين . . .

والسؤال هو، ما هي الأسرار الفنية لمثل هذه الصياغة بالنسبة إلى ظاهرة العدد المشار إليه؟.

يقول المعنيّون بشؤون اللغة أنّ. . . «التناجي» بين الأشخاص يشمل الثلاثة فصاعداً، أما التشاور بين الأشخاص، فيشمل الاثنين، وهذا ما يفسّر لنا سرّ قوله تعالى: **﴿ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلاّ هو رابعهم﴾** حيث انتخب مثالاً للجمع وهو «الثلاثة»، ثم جعل ذاته مع (رابعٍ) بينهم ليشير إلى أنّه تعالى مطّلع علىٰ ما في الصدور، ثم افترض مثالاً جديداً هو (ولا خمسة إلاّ هو سادسهم)، حيث أن «الخمسة» واستتلاءه تعالى سادساً، هو استمرارية لتسلسل العدد من جانب، ثم كونه مضاعفاً (أي عدد الستة) لأقلّ الجمع «الثلاثة»: من جانب آخر، وبهذا يتّضح السرّ الفني للأمثلة المتقدمة من الأعداد (الثلاثة: فالرابع، والخمسة، فالسادس). . .

المهم، أنّ علمه تعالى بذات الصدور، ثم الإنباء يوم القيامة بما يعمل الناس، يظل أحد الأهداف الفكرية الذي تحوم عليه السورة المباركة، حيث لحظنا (مقدمة السورة) **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما﴾** وقوله تعالى تعقيباً علىٰ حكم «الظهار»: **﴿والله بما**

تعملون خبير﴾، ثم تعقيبه على أنّ ذلك بأنّ الله يُنبّؤهم يوم القيامة بما عملوا، وقوله تعالى بالنسبة إلى التناجي بالإثم والعدوان، بأنّه تعالى ينبؤهم بما عملوا: كل هذه الموضوعات قد انسحبت علىٰ هيكل السورة المباركة، مُجانسةً بين أقسامها المختلفة، مما يُفصح ذلك عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص، بالنحو الذي لحظناه.

قال تعالى: **﴿ألم ترَ إلىٰ الَّذين نُهوا عن النجوىٰ ثم يعودُون لما نُهوا عنه، ويتناجَون بالإثم والعُدوان ومعصِية الرسُول، وإذا جاؤوك حيّوكَ بما لم يُحيّك به الله، ويقولون في أنفسهم: لولا يعذّبُنا الله بما نقول، حسبُهُم جهنَّم يصلَوْنها فبئس المصير...﴾**.

هذا المقطع امتدادٌ لما سبقه من المقاطع التي تتحدث عن العلاقة بين الرسول(ص) وبين الآخرين، حيث يطرح المقطع هنا قضية (المناجاة) بين الأشخاص وما ينبغي أن يواكبها من آداب السلوك. فبالرغم من أنّ المقطع يتحدّث عن قضية خاصة هي: سلوك المنافقين واليهود بالنسبة إلىٰ المؤمنين حيث كانوا ـ وهم يحضرون مجلس رسول الله ـ يتناجون فيما بينهم ويغمزون المؤمنين، كما أنّهم كانوا ـ حينما يتعاملون مع الرسول(ص) في سلامهم عليه(ص) يحيّونه بعبارات عدوانية مثل (السام عليك) بدلاً من (السلام عليك): تخيّلاً منهم بأنّ ذلك يخفىٰ على شخصيّته(ص)، أقول: بالرغم من أنّ هذه القضية ذات طابع (خاص)، إلاّ أنّ (الفنّ) يتجاوز ما هو (خاص) إلىٰ ما هو (عام)، فيحدّثنا عن (المناجاة) بنحو عامٍ فيقول: **﴿يا أيّها الَّذين آمنوا إذا تناجَيْتم، فلا تتنَاجَوا بالإثم والعُدوانِ ومعصيةِ الرسُول، وتناجَوا بالبرّ والتقوىٰ، واتّقوا الله الذي إليه تُحشرون إنّما النجوىٰ من الشيطان، ليحزُن الذين آمنوا وليس بضارّهم شيئاً، إلاّ بإذن الله، وعلىٰ الله فليتوكّل المؤمنون﴾**. واضح، أنّ هذه الآيات الكريمة ترسم ما يسمّىٰ ـ في لغة علم الاجتماع ـ بـ (علاقات

التعاون) مقابل (علاقات التنافر) اللذين يطبعان عمليات التفاعل الاجتماعي بين الأفراد والجماعات، وهي حينما تؤكد علاقات (البرّ) و(التّقوىٰ) مقابل علاقات (الإثم) و(العدوان) و(معصية الرسول)، إنما ترسم مبادىء الاجتماع البشري بنحو عام، سواء أكانت بين الطوائف المتماثلة أو المتخالفة فكرياً، حيث أنّ (البرّ) ـ وهو مطلق الإحسان إلى الآخرين ـ و(التقوىٰ) ـ وهي خاصة بالمؤمنين ـ تتناولان كلاً من التعامل مع المؤمنين فيما بينهم ومطلق الطوائف التي تشكّل قاعدة المجتمع البشري. . .

والمهم هو ملاحظة الصياغة الفنية لهذه الظاهرة وعلاقتها بالمبنىٰ الهندسي للسورة الكريمة. . . فالمُلاحظ أنّ كلاً من المنافقين واليهود ومطلق الأفراد والجماعات غير المتلزمة بمبادىء التّقوىٰ، تظل هي الطَرفَ الاجتماعي الذي يتعامل مع الإثم والعدوان ومعصية الرسول(ص) مقابل المؤمنين الذين يتعاملون مع البرّ والتّقوىٰ. . . وقد صَوَّر المقطع الذي نتحدّث عنه الآن طبيعةَ السلوك الذي يصدر عنه اليهود في مناجاتهم العدوانية حيال المؤمنين، حيث رسَم (من خلال الحوار الداخلي) طبيعة تصوّراتهم المخطئة التي يصدرون عنها في مفاجأة بعضهم الآخر أو في عدوانهم علىٰ الرسول(ص) من حيث صيغ التحية أو السلام العدواني عليه(ص)، وحيث كان الرسم لحوارهم الداخلي علىٰ هذا النحو: (ويقولون في أنفسهم: لولا يعذّبنا الله بما نقول)، إنّ هذا «الحوار الداخلي» أي: حديث الإنسان مع نفسه، له أهميّته الفنية دون أدنىٰ شك، فبما أنّ الأمر يتعلّق بالمناجاة ـ وهي سرية بين اليهود أنفسهم ـ، وبما أنّ قولهم (السام عليك) ـ وهي سريّة أيضاً يحتفظون بسريّتها فيما بينهم ـ لذلك فإنّ «الحوار الداخلي» يفرض فاعليته في أي حديث صادر منهم، مضافاً إلى ذلك، فإنّ تصوّرات اليهود الذاتية إلى أنّهم متميّزون عن غيرهم وأن الله تعالى لا يعذّبهم. . . إلخ، حينئذٍ فهم حينما يمارسون العدوان حيال النبيّ(ص) من خلال صيغة (السلام) السرّية، تظلّ تصوّراتهم محتفظة بما هو سرّي داخل

أنفسهم، وهذا ما يجعل للحوار الداخلي (حديث الإنسان مع نفسه) مسوغاته الفنية، حيث انعكس ذلك في الحوار الذي صاغه المقطع المذكور القائل: **﴿ويقولون في أنفسهم: لولا يعذّبنا الله بما نقول﴾**، أي: إنّهم يتحاورون مع أنفسهم ـ حينما يحيّون النبيّ(ص) بصيغة «السام عليك» ـ قائلين بأنّ الله تعالى لا يعذّبهم بهذا القول...

والآن إذا تجاوزنا هذا البُعْدَ الفنّي المرتبط بمسوّغات «الحوار الداخلي»، لحظنا أولاً أنّ هذا الحوار قد تجانسَ فنياً مع طبيعة الموقف، مضافاً إلىٰ تجانس الموقف نفسه (وهو: المناجاة العدوانية) مع هيكل السورة الكريمة الذي يحوم علىٰ إبراز ظاهرة «المناجاة» في أكثر من موقع حيث لحظنا أنّ المقطع الأسبق تحدّث عن مطلق المناجاة بين الناس **﴿ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلاّ هو رابعهم... إلخ﴾**، وحيث نجد المقاطع اللاحقة تتحدّث عن (المناجاة) أيضاً، وهذا ما يكشف بوضوح عن مدى تماسك وتلاحم وتجانس الأجزاء التي تنتظم النص القرآني الكريم.

* * *

قال تعالى: **﴿يا أيُّها الذين آمنُوا، إذا قِيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسَحُوا يَفسح الله لكم، وإذا قيل: انشُزُوا فانشُزُوا، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذينَ أُوتُوا العلم درجاتٍ، والله بما تعملُون خبيرٌ يا أيّها الّذين آمنوا، إذا ناجَيتُم الرَّسُول فقدّموا بين يدي نجْواكُم صدَقَة ذلك خيرٌ لكُم وأطهر، فإن لم تجِدُوا فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ أأشفقتُم أن تقدّموا بين يديْ نجواكُم صدقاتٍ، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم، فأقيموا الصلاة وآتُوا الزَّكاة وأطيعوا الله ورسُولَه، والله خبيرٌ بما تعملون﴾**...

هذا المقطع من سورة «المجادلة»، يتناول آداب التعامل مع الرسول(ص) من حيث (المجالسة) بالنسبة إلىٰ المؤمنين.. وكان المقطع

الأسبق يتحدّث أيضاً عن آداب (المجالسة)، ومنها: النجوىٰ بين الأشخاص، حيث ترتبط النجوىٰ بطبيعة السلوك البشري من حيث كون الكلام تعبيراً عن النزعة المسالمة أو العدوانية لدىٰ الشخص... لذلك عندما طرحَ النص القرآني الكريمُ قضيّة (النجوىٰ)، إنّما طرَحَ أهم معالم السلوك الذي يحوم علىٰ هاتين النزعتين: المُسالمة أو العدوان.. هنا ـ في المقطع الحاليّ الذي نتحدّث عنه ـ يواصل النصُّ طَرْحَ الأنماط الأخرىٰ من السلوك المرتبط بـ«النزعتين»، ومنها: المطالبة بالتفسّح في المجالس بالنسبة إلىٰ القادمين الجُدد إلىٰ المجلس، كما يُطالب بتقديم (الصدقة) بالنسبة لمن يتناجىٰ مع الرسول(ص) خاصة.

إن المطالبة بالتفسّح في المجالس أو تقديم الصدقة، تنطوي علىٰ معطيات ضخمة في ميدان التدريب علىٰ السلوك السويّ، وليست مجرّد آداب عادية في حقل الاجتماع بين الأشخاص أو مجلس الرسول(ص)... فالتفسّح في المجالس أو التضييق علىٰ القادمين إليها ليس مجرّد سلوك عابر يحياه الإنسان يومياً، بل إنّه يرتبط بالصميم من سلوك الإنسان: من حيث نزعاته المسالمة أو العدوانية، فكما أنّ (الكلام) هو تعبير عن سلامة الشخصيَة أو عدوانيتها، كذلك: فإنّ السلوك (الحركي) تعبير عن المسالمة أو العدوان، فإذا فسَحَ الجالسُ لأخيه مكاناً في المجلس، فإنّ هذه الحركة تعبير عن نزعته المسالمة، وإذا ضَيّقَ المكان، فإنّ ذلك يعبّر عن عدوانيته وكراهيته وإيذائه للشخص القادم... وهذا يعني أنّ أمثلة هذا السلوك الذي يندب إليه القرآن أو يحذّر منه تظل في الصميم من تركيبة الإنسان القائمة علىٰ التجاذب بين الخير والشر، بين المسالمة والعدوان، بين الاستواء والانحراف...

كذلك، فإنّ المطالبة الخاصة بتقديم (الصدقة) بين يدي الرسول(ص): عند المكالمة، تظل ـ من جانب ـ حثاً علىٰ تدريب الشخصية علىٰ الانفاق

والانفتاح علىٰ الآخرين، أي: التدريب علىٰ الإيثار ووأد النزعة الأنانية عند الشخص، فضلاً عن أنّها ـ من جانبٍ آخر ـ تعد امتحاناً أو تجريباً لمدىٰ استعداد الشخصية للتبرّك بمحادثة الرسول(ص) حيث تساهم هذه التجربة في تزكية وتطهير الشخصية، لذلك ـ كما تقول النصوص المفسّرة كان الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ـ هو الشخصية الوحيدة التي مارست تقديم (الصدقة) بين يدي الرسول(ص)، فيما كان هذا السلوك تعبيراً عن تميّز شخصيته العبادية بالنسبة إلى الصحابة الآخرين. . .

ويُلاحَظ (من الزاوية الفنية) أنّ النص قد استخدم عنصر (الاستعارة) في صياغته للحقيقة المتقدمة، حيث قال: ﴿**إذا ناجيتم الرسول، فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة. . .**﴾، والاستعارة هي صورة: ﴿**بين يدي نجواكم**﴾، أي: أنّه خَلَع علىٰ (النجوىٰ) ـ وهي ظاهرة لفظيّة ـ سمةَ الحركية الجسدية وهي (اليد). . . وأهمية هذه الاستعارة الفنية تتمثل في: التجانس بين (الصدقة) التي تُقدَّم من خلال (اليد) وبين (النجوىٰ) التي ترتبط أو تقترن بإعطاء الصدقة. . . والتجانس الفنّي المذكور لا ينحصر في الصياغة الصورية (الاستعارة) فحسب، بل يتجاوزه إلىٰ التجانس بين (الصورة الاستعارية) وبين (فكرة) النص القرآني الكريم التي تتمثّل ـ في أحد محاورها ـ في ظاهر (المناجاة) بين الأشخاص، حيث لحظنا أنّ السورة الكريمة (سورة المجادلة) ركّزت علىٰ ظاهرة (المناجاة) مطلقاً: سواء أكانت بين الأشخاص العاديين ﴿**ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلاّ هو رابعهم. . . إلخ**﴾، أو كانت بينهم وبين الرسول(ص) خاصة، مما يعني أنّ الصورة الاستعارية المذكورة قد ارتبطت عضوياً بهيكل السورة الكريمة، فيما يُفصح ذلك عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص: من حيث علاقة أجزائه، بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿**ألم ترَ إلى الَّذين تولَّوا قوماً غضِبَ الله عليهِم، ما هم مِنكم ولا منهُم، ويحلفُون على الكذِبِ وهم يعلمُون أعدّ الله لهُم عذاباً شديداً إنّهم ساءَ ما كانُوا يعملون إتّخذوا أيمانَهُم جُنَّةً، فصدُّوا عن سبيل الله فلهم عذابٌ مُهين لن تُغني عنهم أموالُهُم ولا أولادُهُم من الله شيئاً، أولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدُون يوم يبعثُهُم الله جميعاً، فيحلفُون له كما يحلفُون لكُم، ويحسَبُون أنّهم علىٰ شيء، ألا إنّهم هم الكاذِبُون استحوذ عليهم الشّيطان فأنسَاهُم ذِكر الله، أولئك حِزبُ الشّيطان، ألا إنّ حزبَ الشّيطان هم الخاسِرُون. . .**﴾.

هذا المقطع من سورة المجادلة، يتناول فئة (المنافقين)، بعد أن كانت المقاطع السابقة من السورة قد تناولت فئة (اليهود)، كما تناولت فئة (المؤمنين)، وبهذا النَسَق من التناول تكون السورةُ قد قُسِّمت (من زاوية العمارة الفنية) إلىٰ أقسام متوازنة بين مختلف الشرائح الاجتماعية التي عاصرت زمنَ الرسالة الإسلامية. . . المنافقون الذين تتحدّث عنهم السورة، كانوا يتولّون قوماً غضب الله عليهم (وهم اليهود) ـ كما تقول النصوص المفسّرة ـ، وكما يسعف ذلك: السياقُ الذي وردت فيه هذه الفئاتُ الاجتماعيةُ التي أشرنا إليها، وفي مقدّمتهم (اليهود)، حيث كانت المقاطع السابقة تتحدّث عن تعاملهم العدواني مع الرسول(ص) فيما كانوا يتناجون بالإثم والعدوان في مجلسه (ص)، ويحيّونه بصيغ من السلام العدواني. . . والمهم، أنّ النص القرآني الكريم حينما يكرّر الحديث عن اليهود، ثم: حينما يصفهم بأنّهم طائفة (قد غضب الله عليهم) إنما يكشف بذلك أو يُلفت النظر بذلك: عن مدىٰ الانحراف الذي يطبع هذه الطائفة بحيث يميّزها عن سائر الطوائف المنحرفة. . . وحينما يتعرّض للمنافقين (من خلال علاقتهم باليهود) إنّما يقوم بمهمة فنية مزدوجة هي: كشف الانحراف عن الطائفتين: اليهود والمنافقين الذين يضطلع هذا المقطعُ الذي نتحدّث عنه حالياً بعرض سلوكهم المنحرف،

حيث يُستند إلىٰ تعاونهم مع اليهود، ثم: إلىٰ طرائقهم التي يتسترون من خلالها علىٰ نفاقهم، ألا وهي (الحلف) أو (اليمين) بأنّهم من المؤمنين، حتّى أنّهم يلجأون إلىٰ هذا الحلف في يوم القيامة أيضاً فيحلفون لله تعالى كما كانوا يحلفون للناس في الحياة الدنيا بأنّهم مؤمنون. . .

وهذا الأسلوب من العرض لِحلفهم حتى يوم القيامة، يكشف ـ بطريقة فنيّة مُمتعة ـ عن الطابع النفسي للشخصية المنافقة، بحيث ينعكس نفاقها الذي يتميّز بالحلف (حيث أنّ الحلف هو الوسيلة النفسية الرئيسة التي يضطر المنافق إليها لإبعاد التُّهمة عنه) ينعكس هذا النفاق علىٰ سلوكها الأخروي أيضاً، بحيث يغفل المنافقون بأنّهم أمام الله تعالى: مع أنّ الموقف يستدعي أبسط مستويات الذكاء لإدراك أن الحلف في اليوم الآخر لا يمكن تمريره ـ كما هو واضح، وهذا ما يكشف عن سمة أخرىٰ للمنافقين، ألا وهي الغباء البالغ أقصىٰ درجاته لدىٰ هؤلاء المنحرفين. . . ويُلاحظ ـ مضافاً إلىٰ ما تقدّم من الصياغة الفنية في رسم سلوكهم ـ أنّ المقطع قد اعتمد عنصر (الصورة الفنيّة) في بلورة سلوكهم المنافق، حيث قدّم (استعارة) هي قوله تعالى: ﴿اتّخذوا أَيْمَانَهُم جُنَّةً﴾، والجُنَّة هي الستر: كما هو واضح، وقد جعَلها النصُّ استعارة لستر الحقيقة التي تطبع أعماق المنافقين، حيث يُضمرون خلاف ما يُعلنون، ويجعلون (الحلف) بالله ستاراً لما تضمره أعماقهم من الكفر. . .

إذن، جاءت (الاستعارة الفنية) هنا، موظّفة من أجل إنارة الموقف الذي يصدر عنه المنافقون، فيما يكشف هذا التوظيف للصورة الاستعارية عن تجانس كلٍّ من الأفكار مع عناصر التعبير (أي: الفكرة والصورة)، من حيث تجانس بعضهما مع الآخر، مفصحةً بذلك عن مدىٰ الإحكام الهندسي لعمارة السورة الكريمة.

* * *

قال تعالى: **﴿إنّ الذّين يُحادّون الله ورسُولَه، أولئك في الأذلّين كَتَبَ الله: لأغلبنّ أنا ورُسُلي، إنّ الله قويٌّ عزيز لا تجدُ قوماً يُؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادّ الله ورسُولَه ولو كانوا آباءَهُم أو أبناءَهُم أو إخوانَهُم أو عشيرتَهُم، أولئك كتبَ في قُلُوبِهمُ الإيمان، وأيّدهُم بروح منه، ويُدخلُهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدِين فيها، رضيَ الله عنهُم ورضوا عنه، أولئك حزبُ الله ألا إنّ حزب الله هم المُفلحون. . .﴾**.

بهذا المقطع تُختم سورة (المجادلة) التي ركّزت حديثها علىٰ آداب المجلس والمجادلة: بخاصة فيما يتصل بالتعامل مع الرسول(ص)، حيث عَرَضت السورةُ لشرائح مختلفة من الناس، مثل اليهود والمنافقين وسواهم في تعاملهم السلبي مع الرسول(ص) وفي مخالفتهم للمبادىء التي رسمها الله تعالى ورسولُه، وحيث خُتِمت السورة في المقطع الذي نتحدّث عنه الآن، بالحديث عن سمات المؤمنين الذين يلتزمون بمبادىء الله تعالى وبرسوله(ص). . . ويعنينا من هذا الختام، أسلوبه الفنّي وصلته بعمارة السورة الكريمة. . .

أمّا الأسلوب الفنّي فيتمثّل في اعتماد المقطع عناصر «حوارية» و«صورية» و«لفظية» متنوّعة ساهمت جميعاً في إضفاء المتعة الجمالية علىٰ النص، ففي قوله تعالى: **﴿كتب الله: لأغلبنّ أنا ورُسُلي﴾**، نجد كلاًّ من «الحوار» و«الصورة» تزدوجان في عبارة واحدة هي: **﴿كتَب﴾**، حيث أنّ **﴿كتبَ﴾** تشكّل «حواراً» خطياً مقابل «الحوار اللفظي»، كما أنّها تُشكّل صورة «استعاريّة» هي: تقرير الحقيقة القائلة بأنّ الله تعالى ورسُله يفرضون فاعليّتهم علىٰ الوجود سواء أكانت هذه الفاعلية نصراً فكرياً أو عسكرياً، وسواء أكان ذلك عاجلاً أو آجلاً، وأهمية هذه الاستعارة تتمثّل في أنّ «الغلبة» لرسالات السماء قد جُعِلت بنحو مفروض منه هو: الكتابة، بغضّ النظر عن كونها (رمزاً)

لما هو في «اللوح المحفوظ» أو رمزاً لتحقق الغلبة. . .

ويُلاحظ أنّ هذا الرمز أو الاستعارة قد تكرّرت صياغته في الآية التي تلت هذه الآية التي نتحدث عنها، وهي قوله تعالى بالنسبة إلىٰ المؤمنين ﴿**أولئك كتَبَ في قلوبِهِمُ الإيمانَ**﴾، فالإيمان حقيقة نفسية يحياها الإنسان في ذهنه وقلبه، إلاّ أنّ المقطع صاغها على نحو «الاستعارة»، فَخَلع طابع (الكتابة) علىٰ القلب ومَنَحه بُعداً حسيّاً: كما هو واضح. . . وجمالية هذه الاستعارة تتمثّل في أنّ (الكتابة) رمزٌ عن مفروضية الشيء وجعْلِهِ حقيقة لا سبيل إلىٰ إزالتها، أي كونها رمزاً للإيمان الذي يطبع قلوب المؤمنين الذين ـ كما تقول الآية الكريـمة ـ: ﴿**يوادّونَ مَن حادّ الله و رسوله و لو كانوا آباءَهُم أو أبـناءهُـم أو إخوانهم أو عشيرتَهُم**﴾. . .

وهذا ما يتّصل بعنصري الصورة والحوار. . .

أمّا ما يتصل بالعنصر «اللفظي» في هذا المقطع، فالمُلاحظ أنّ كلاً من ظاهرتي «التقابل» و«التكرار» قد اعتمدها المقطعُ في تقرير الحقائق. . فقد «قابَلَ» النصّ بين «المنافقين» الذين تحدّث عنهم في مقطعٍ أسبق وبين «المؤمنين» الذين تحدّث عنهم في المقطع الختامي، مستخدماً من خلال عنصر «التكـرار» عبـاراتٍ «مشتـركـة» و«متقـابلـة» مثـل: ﴿**إنّ الـذيـن يحـادّون الله ورســولـه ...** ﴾ مقابل ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادَّ الله ورسوله**﴾، ومثل قوله في ختام حديثه عن المنافقين: ﴿**أولئك حزب الشيطان، ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾، مقابل ما ورد في ختام حديثه عن المؤمنين: ﴿**أولئك حزب الله، ألا إنّ حزب الله هُمُ المفلحون**﴾، حيث خُتِمتِ السورة الكريمة بهذه العبارة التي (تتعامل) و(تتضاد) مع العبارة التي خُتم بها الحديث عن المنافقين، حيث قابل بين ﴿**حزب الله**﴾ و﴿**حزب الشيطان**﴾، وقابَلَ بين مصائرهما، فأومأ إلى أنّ ﴿**حزب الله (هم المفلحون)**﴾

مقابل قوله تعالى ﴿**إنّ حزب الشيطان (هم الخاسرون)**﴾ . . . فجاءت عبارات (الله) و(المفلحون ثم عبارات (الشيطان) و(الخاسرون) تجسّد (التضاد)، وجاءت عبارات (أولئك) (ألا) (إنّ) (هم)، تجسّد (التماثل)، حيث نلحظ جمالية ما يُسمّى بـ (التضاد من خلال التماثل) أو (التماثل من خلال التضاد) واضحة في صياغة هذا المقطع . . . مع ملاحظة أنّ هذا التقابل بين المقطعين، يكشف عن ترابط وتلاحم النص: من حيث الأجزاء التي تنتظم السورة الكريمة، مُفصحاً بذلك عن إحكام النص بالنحو الذي لحظناه.



سورة الحشر

قال تعالى: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيزُ الحكيم هو الّذي أخْرَجَ الذين كفَروا من أهْلِ الكتاب منْ دِيارِهم لأوَّل الحشر ما ظَننتُم أن يَخْرُجوا وظنّوا أنّهم مانِعَتُهم حُصونُهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يَحتسِبُوا وقَذَف في قلوبهم الرُّعبَ، يُخرِبُونَ بيُوتهم بأيديهم وأَيدي المؤمنينَ فاعْتَبروا يا أُولي الأبصارِ﴾.

هذا المقطع الذي استُهلّت به السورة الكريمة، يبدأ بظاهرة التسبيح لله من قِبل السماوات والأرض، وهذا التسبيح ينطوي علىٰ دلالة فكرية تلقي بأشعّتها علىٰ مضمون السورة، وهذا المضمون هو: النصر العسكري الذي حققه الله للإسلاميين في معركتهم مع اليهود. . .

إذن، السورة تحوم علىٰ فكرة محدّدة هي (الجهاد في سبيل الله)، وكما نعرف فإنّ (فكرة الجهاد) تظل نصيب كثير من سور القرآن، إلاّ أنّ كل سورة تطرح جانباً من مبادىء (الجهاد) وما تتصل به من مختلف الممارسات حيال الكفار أو الممارسات المتصلة بالإسلاميين أنفسهم.

هنا في السورة التي نتناولها الآن، تنبثق فكرة (الجهاد) من إحدىٰ معارك الإسلاميين مع اليهود، وبالرغم من أنّ المعركة المذكورة تنحصر في نطاقٍ محدّد أو خاص، إلاّ أنّها تتجاوز ذلك لتنقلها ـ وهذا هو الطابع الفني لنصوص القرآني الكريم ـ إلى طابع عام من الأفكار أو المبادىء الإسلامية ذات الصلة بمفهوم (الجهاد في سبيل لله) وما تواكبه من أنواع التعامل العسكري وغيره في هذا الميدان. . .

ونحن ما دمنا نُعنىٰ بإبراز الدلالة الفكرية للسورة القرآنية من خلال

عمارتها أو بنائها الهندسي من حيث صلة أجزائها بعضاً مع الآخر، حينئذٍ يتعيّن علينا ملاحظة هذا الجانب من خلال الفكرة الرئيسة التي تحوم عليها سورة (الحشر)... ولعلّ أوّل خيوط هذه الفكرة المرتبطة بمفهوم (الجهاد). هو: موضوع إخراج اليهود من (المدينة المنوّرة).

إنّ عملية إخراجهم من المدينة تمّت من خلال محاصرة الإسلاميين لحصونهم، حيث اضطرّوا إلىٰ المصالحة علىٰ حقن دمائهم وإخراجهم ـ من ثمّ ـ إلىٰ خارج الحدود، حيث اتّجهوا إلى أرض الشام...

إنّ ما يعنينا من هذه العملية هي: طبيعة المبادىء التي واكبت عملية إخراجهم، وهي مبادىء تفرز عموميّتها في كل زمان ومكان بحيث تصبح جزءً من النسيج الفكري للإسلاميين في تعاملهم العسكري مع العدو أيّاً كانت هويّته...

لقد أوضح النص أوّلاً بأنّ إخراجهم من المدينة قد ارتبط بنمطين من التصوّرات، أحدهما: التصوّر الإسلامي حيث ظنّ الإسلاميون أنّه من الصعوبة التغلُّب علىٰ عدوّهم **﴿ما ظننتم أن يَخْرُجوا﴾**، وأما الآخر: فهو التصوّر الذي صدر اليهود عنه متمثّلاً في ظنّهم بأنّ (قوّتهم العسكرية) تقف حاجزاً دون الفتح الإسلامي **﴿وظنّوا أنّهم مانِعَتُهم حُصونُهم من الله﴾**.

هنا ينبغي أن نقف عند هذين التصوّرين.. من حيث دلالتهما فكرياً وهندسياً... أمّا فكرياً فإنّ النص يريد أن يقول لنا بأن قضية النصر أو الهزيمة العسكرية بنحو عام، سواء أكانت للإسلاميين أم لأعدائهم، لا تتم فاعليتهما إلاّ (بمشيئة السماء وليس بمشيئة البشر). وهذه الفكرة لها أهميّتها وخطورتها في ميدان التعامل العسكري، إذ أنّها تغيّر أيّة معادلة مادية قد اعتاد القاصرون عبادياً أن يصدروا عنها، عندما يُخيّل إليهم أنّ الإمكان الذاتي للشخصية أو الجماعة يمثّل الدور الوحيد في صياغة النصر العسكري أو الهزيمة، وهذا ما

طبع الإسلاميين عندما تصوّروا صعوبة إخراج العدو من أرضهم، كما طبع سلوك العدو حينما تصوّر أن قوّته العسكرية تحتجزه من الهزيمة، إلاّ أنّ الذي حدث هو: أنّ العدو قد هُزِم حقاً حيث ﴿**أتاهمْ الله من حيثُ لم يَحتسبوا، وقذفَ في قلوبهم الرعب، يُخْربونَ بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين**﴾.

إنّ عملية قذف الرعب في قلوب الأعداء لا تحتاج إلىٰ أي توضيح من حيث كونها تدخّلاً مباشراً من الله، كما أنّ تخريب العدو لبيوته ثم تخريب الإسلاميين لبيوت العدو: يكتسب نفس السمة من حيث تدخّل السماء في ذلك، وهذا كلّه من حيث الدلالة الفكرية...

أما من حيث الدلالة (الفنية) أو البناء الهندسي لهذا المقطع من السورة، فيتمثّل في ذلك التقابل أو الموازنة بين تصوّرين: التصوّر الإسلامي والتصوّر الذي صدر عنه العدو.. فبالرغم من أنّ الإسلاميين يجسّدون الفئة الحقة، وأنّ اليهود ومطلق العدو يجسّد الفئة الباطلة... بالرغم من ذلك، فإنّ كليهما صدر عن تصوّر مشترك هو: عدم ظن الإسلاميين بأنّهم منتصرون علىٰ العدو، وعدم ظن العدو بأنّه منهزم أمام الإسلاميين.

وأهمية هذه المقارنة الهندسية بين التصوّرين أو الفئتين (مع أنّ إحداهما تمثّل الحق والأخرى تمثّل الباطل) تتجسّد في تلك الدلالة الفكرية التي أشرنا إلى أنّ النص يُعنى بإبرازها في هذه السورة، ونقصد بها فكرة: أنّ الهزيمة العسكرية أو النصر ليست منحصرة أو مرتبطة بالإمكان الذاتي للشخص أو الجماعة: إسلامية كانت أم منحرفة، بل ترتبط أساساً بمشيئة الله تعالى...

* * *

قال تعالى: ﴿ولولا أنْ كتبَ اللهُ عليهم الجلاء لعذَّبهم في الدُّنيا ولهم في الآخرة عذابُ النَّار ذلك بِأَنَّهُمْ شاقُّوا الله ورسوله ومَن يُشاقِّ الله فإنّ الله شديد العقاب ما قطعتُم من لينةٍ أو تركتمُوها قائمةً على أُصولها فبإذن الله وليُخزي الفاسقين﴾.

يتحدث هنا المقطع من سورة الحشر عن السبب الذي استتبع عملية الإخراج المذكور متمثلاً في كون اليهود خالفوا الله ورسوله...

ويتابع النص التركيز على الفكرة المذكورة مقدماً لنا شريحة أخرى من الأحداث العسكرية التي واكبت الإسلاميين في انتصارهم على اليهود، وهذه الشريحة تتمثل في عملية قطع النخيل التي أمر النبي(ص) بها حيث أوضح المقطع أنّ عملية القطع أو عدمها إنّما تمتّ بإذن الله تعالى...

ومن البين أنّ المبادىء العسكرية في الإسلام تتخذ موقفاً نسبياً من التعامل مع العدو من حيث الوقائع المتصلة بأرض العدو ومعالمها الاقتصادية، ففي حين يمنع الشرع الإسلامي من إتلاف الموارد الاقتصادية للعدو بغية أن يفيد الإسلاميون منها بعد الفتح، نجده في موقف آخر يقرّر ما يتناسب مع الموقف العسكري... وهذا ما نلحظ في المقطع الذي نتحدث عنه حيث سوغ عملية قطع النخيل وحيث أشار إلى إبقاء البعض الآخر، بقوله تعالى: ﴿وليُخزي الفاسقين﴾. والمهم من (الزاوية الفنية) أنّ النص عندما يقرر المبدأ المذكور إنّما يصله بالفكرة العامة التي استهل بها سورة الحشر من أنّ النصر أو الهزيمة إنّما تتمان بمشيئة الله، وها هو الآن بعد أن قرر في مقطع أسبق بأنّ إخراج العدو من أرضه إنّما هو مشيئته تعالى، يقرر بأنّ إتلاف الموارد

الاقتصادية للعدو أو عدمها إنّما يتم بمشيئته تعالى أيضاً **﴿ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها: فبإذن الله﴾**. إذن (من زاوية البناء الهندسي للسورة) نجد أنّ السورة قدمت نمطين من الوقائع العسكرية: لغرض إبراز الهدف الفكري القائل بأنّ هزيمة العدو تتم بإذن الله تعالى...

وحين نتجه إلى مقطع ثالث من السورة نجد أنّ الفكرة المذكورة تشيع في المقطع الجديد بدوره، لكن من خلال واقعة جديدة، ومن خلال تقرير مبدأ عسكري آخر هو (الفيء) أو الغنيمة...

يقول المقطع: **﴿وما أفاء الله على رسوله منهم، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾**...

هنا ينبغي أن ننتبه بدقة على الإحكام الهندسي للنص، فهو هنا يقدم ظاهرة اقتصادية تتصل بالفيء من حيث ترتبه على مبادىء الفقه العسكرية المتصل بالأرض التي تفتح بدون المقاومة العسكرية.

طبيعياً، أنّ معالجتنا للنص القرآني الكريم لا تتناول البعد الفقهي منه إلاّ من حيث صلته ببناء السورة وعمارتها، لكن ما نعتزم توضيحه هو أنّ النص يستثمر هذا الجانب ليقدّم مبدأ فقهياً من خلال فكرة عامة قلنا أنّها تتمثل في كون الوقائع العسكرية إنّما تتم بمشيئة الله... وها هو النص يقدم لنا المبدأ الفقهي المتصل بأحد أشكال (الفيء)، وصلة هذا المبدأ بفكرة مشيئة الله حينما قال تعالى **﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء﴾** بمعنى أنّ الله تعالى مكن الإسلاميين من عدوهم بدون قتال فقذف الرعب في قلوب الأعداء...

إذن، المقطع الثالث من السورة، حام بدوره على نفس الفكرة العامة التي تغلّف السورة...

وها هو المقطع الرابع من السورة، يحوم على نفس الفكرة أيضاً، ولكن

من خلال مبدأ آخر . . . ولنستمع: ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرَّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم. . .**﴾.

هذا المبدأ الفقهي يتصل بالموارد الاقتصادية التي تترتب على الفيء من حيث توزيعه على الأصناف التي ذكرتها الآية. . . وللمرة الجديدة نقول: أنّ النص يستثمر فنياً هذا البعد الفكري الذي تحوم السورة عليه، ليقدم مبدأ فقهياً يتصل بالجانب الاقتصادي منه، مع ملاحظة أنّ النص قدم تعليلاً لهذا النمط من التوزيع الاقتصادي على الاصناف المذكور، معللاً ذلك بقوله ﴿**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾ بمعنى أنّ الهدف من التوزيع المذكور هو عدم تجميع المال في يد الأغنياء فحسب. . .

والمهم، هو أنّ تقرير أمثلة هذه المبادىء الاقتصادية يتم من خلال لغة الفن في صياغة النص وفق بناءٍ أو عمارةٍ هندسية تتواصل وتتلاحم موضوعاتها بعض بالآخر: بحيث تصب في رافدٍ فكري محدد هو ما سبق أن كررنا الإشارة إليه ونعني به أنّ جميع الوقائع العسكرية من نصر أو غنيمة إنّما تتم بمشيئة الله وإنّه لا يدَ للعنصر البشري في ذلك إلاّ بما يمارسه من التزام بالمبادىء الإسلامية. . . والمهم أيضاً، أنّ النص تابع الحديث عن عملية التوزيع الاقتصادية المذكورة، مبيناً في المقاطع اللاحقة، انسحاب الإفادة من ذلك على المهاجرين، والأنصار الّذين فتحوا صدورهم للمهاجرين، مشدداً على طرح بعض المبادىء المهمة، بالنحو لذي سنقف عليه لاحقاً.

* * *

قال تعالى: ﴿**للفقراء المهاجرين الذي أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله وَرِضْوَاناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان من قبلهم يحبُّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم**

حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسهِ فأولئك هم المفلحون والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقُونا بالإيمان ولا تجعل في قُلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا، ربَّنا إنَّك رؤوف رحيم﴾.

هذا المقطع من سورة الحشر، يتصل بقضية توزيع الفيء أو الغنيمة العسكرية على الفقراء المهاجرين من مكة إلى المدينة... والذي يعنينا منه هو السمة النفسية التي خلعها النص على المهاجرين، ثم الأنصار، ثم التابعين، من حيث نظافة الأعماق التي تصدر عنها الشخصية الإسلامية...

لقد جاء هذا المقطع امتداداً لمقطع أسبق يتحدث عن الفتح الإسلامي الذي تم، دون أن يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وإلى أنّه قد تم بمشيئة الله وليس بالإمكان الذاتي للمقاتلين الإسلاميين... لكن، بما أنّ عملية النصر العسكري تظل مرتبطة بمبدأ الالتزام الإسلامي الذي يصدر الشخوص عنه، حينئذٍ نتوقع (من الزاوية الفنية) أن يتجه النص القرآني الكريم ـ بعد أن أوضح بأنّ الإسلاميين قد انتصروا على اليهود من خلال عملية إخراجهم من المدينة المنورة ـ نتوقع أن يقدم النص لنا نموذجاً إيجابياً من سلوك الإسلاميين حققت السماء لهم نصراً عسكرياً دون أية مقاومة...

وها هو النموذج الإيجابي من السلوك يتمثل في سمات أخلاقية عرضها النص بالنسبة إلى الفئات الثلاثة التي شكلت المجتمع الإسلامي عصرئذ وهم: المهاجرون، الأنصار، والتابعون... لقد رسمهم النص بكونهم **﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون﴾**... وهذا ما يتصل بسمات المهاجرين... ولا نحسّ بالحاجة إلى توضيح الدلالات التي انطوت عليها هذه السمات نظراً لوضوح انتسابها إلى أرفع مستويات الإيمان بالله، فهم (صادقون) ـ كما وصفهم النص ـ وهم ينصرون الله

ورسوله، وهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً... وما داموا كذلك، حينئذٍ علينا أن نستخلص بنحو غير مباشر (وهذا هو سمة الفن العظيم) أنّ قضية النصر العسكري الذي أشار المقطع الأسبق من السورة إليه ترتبط بالنمط من الالتزام الإسلامي لهؤلاء الشخوص. وقد واصل النص القرآني الكريم رسم سمات أخرى للإسلاميين الذين يمثلون شرائح اجتماعية أخرى، ونعني بهم (الأنصار) و(التابعين)، فوسم الفئة الأولى بأنّها ذات (إيمان) بالله **﴿والذين تَبَوَّءُو الدار والإيمان﴾** كما وسمها بطابع نفسي يعد النموذج الأرفع للشخصية السوية، وهي: سمة (الحب) حيث يعد (الحب) كما هو واضح في اللغة النفسية... السمة الرئيسة للاسوياء، قائلاً عنهم: **﴿يحبون من هاجر إليهم﴾** كما وسمهم «بالأيثار» وهي السمة التي تفرز السوي عن غيره قائلاً عنهم: **﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**. ثم وصل المقطع هذه السمة النفسية (الإيثار) بسمة عبادية، قائلاً عنهم: **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**. وهذا يعني فضلاً عن الحقيقة النفسية القائلة بأن السلوك السوي لا ينفصل عن السلوك العبادي ـ أنّ النص القرآني الكريم رتب أثراً أو لنقل ثواباً أخروياً على السمة المذكورة، ومن ثم ربطها بنفس سمة (الإيمان) التي استحق الأنصار من أجلها تحقيق النصر العسكري لهم ـ في نطاق الإثابات الدنيوية...

أخيراً، تحدث النص عن الشريحة الثالثة من المجتمع الإسلامي عصرئذ وهي فئة (التابعين)، قائلاً عنهم: **﴿والذين جاءوا من بعدهم، يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنّك رؤوف رحيم﴾**.

واضح، أنّ هذه الآية تفصح عن نفس سمة (الحب) الذي طبع فئة (الأنصار) مما يعني أنّ منعكساتها في صعيد (الإيمان) بالله تظل مطبوعة بنفس

الإثابة الأخروية والدنيوية التي أشرنا إليها. . . ويتضح ذلك بجلاء من خلال الحوار أو الخطاب الذي وجهه التابعون إلى الله تعالى ﴿**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان**﴾ حيث وصل هذه السمة (الإيمان) ـ وهي السمة الوحيدة التي ترتبط بقضية النصر العسكري الذي حققه الله للإسلاميين ـ بسمة مشتركة شدّد النص القرآني عليها في عرضه لهذه الفئات الثلاث. . . ثم أردف النص هذه السمة الفكرية بسمة نفسية هي (عدم الحقد) أو (الحب) حينما قال عن هذه الفئة التي أجرى على لسانها الحوار المذكور ﴿**ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا**﴾. . .

إذن، أمكننا الآن أن نلحظ مختلف الخطوط أو الأبنية الفنية التي اعتمدها النص القرآني الكريم في رسمه للشخوص الإسلاميين من حيث تلاحم وتجانس السلوك الذي صدرت عنه الفئات الاجتماعية الثلاث المشار إليها، ومن حيث ارتباط هذا السلوك بعملية النصر العسكري الذي تحدثت عنه مقدمة سورة الحشر، وكونه نصراً قد تم بمشيئة الله، وكونه مرتبطاً بإيجابية السلوك الذي يصدر الإسلاميون عنه. . .

والآن، بعد أن ينتهي النص ـ في هذا المقطع الذي تحدثنا عنه. . . من رسم الفئات المذكورة ـ يبدأ بمواصلة حديثه عن المنحرفين أو الكفار الذي اشتمل الحديث عنهم في بداية السورة بقضية انهزامهم عسكرياً مقابل الإسلاميين، حيث يعرض لنا شريحة أخرى من المنحرفين، بعد أن كان القسم الأول من السورة يتحدث عن (اليهود)، بينما يتجه القسم الآخر منها، إلى الحديث عن علاقاتهم مع المنافقين

* * *

قال تعالى: ﴿**ألم ترَ إلى الذين نافَقُوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئِن أُخرجتُم لنخرُجَنّ معكم ولا نُطيعُ فيكم أحداً أبداً، وإن قُوتِلتُم**

لننصُرنَّكم، والله يشهد إنّهم لكاذبون لئن أُخرجوا لا يَخرُجُون معهم ولئن قُوتلوا لا ينصُرُونَهم ولئِن نصَرُوهم ليُولُّنَّ الأدبارَ ثم لا يُنصرونَ لأنتم أشدُّ رهبة في صُدورِهِم من الله ذلك بأنّهم قومٌ لا يفقهُون لا يُقاتلونَكم جميعاً إلاّ في قُرى محصَّنة أو من وراء جُدُرٍ بأْسُهُم بينهم شديد تحسَبُهُم جميعاً وقلوبُهُم شتّى ذلك بأنّهم قومٌ لا يعقِلُون كمثَلِ الذين من قبلِهِم قَرِيباً ذاقُوا وَ بَال أمرِهِم و لهُم عذابٌ أليم﴾.

في هذا القسم من السورة يتحدث النص عن اليهود من حيث علاقتهم بالمنافقين، وقد كان القسم الأول من السورة يتحدث عن اليهود من حيث الموقف العسكري الذي هزموا من خلاله.

وهذه الفكرة ـ أي فكرة هزيمتهم من قبل الله ـ يواصل النص الآن إضافة بعدٍ جديدٍ لها هو: الدعم البشري الذي يحاول المنافقون تقديمه إلى اليهود. يقول النص ما معناه: أنّ المنافقين يقولون لإخوانهم في الكفر ـ وهم اليهود ـ لئن أخرجتم من المدينة المنورة لنخرجن معكم وإلى أنهم لن يطيعوا محمداً(ص) في موقفه من اليهود، وإلى أنّهم سينصرون اليهود في الحالات جميعاً...

هذا الدعم اللفظي الذي قدّمه المنافقون لليهود، تكفل النص القرآن الكريم بالرد عليه، فأوضح أولاً بأنّ المنافقين كاذبون في تعهدهم اللفظي المذكور، ثم أوضح تفصيل ذلك بقوله:

أولاً: أنّ المنافقين سوف لن يخرجوا مع اليهود، وهذا في حالة إخراجهم، وهذا ما تم فعلاً حيث أخرج اليهود من المدينة على نحو ما لحظنا ذلك في القسم الأول من السورة... ثانياً: أوضح النص أنّ المنافقين سوف لن ينصروا اليهود في حالة مقاتلتهم **﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾** وهو ما حدث فعلاً في أحدث معارك الإسلاميين مع اليهود، حيث خذلهم المنافقون..

ثالثاً: أوضح النص أنّه حتى في حالة افتراض أنّ المنافقين سوف يشاركون اليهود في المعركة، ألا أنّهم سوف يفرون من ساحة القتال **﴿ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾** رابعاً: أوضح النص أنّه حتى في حالة افتراض أنّ المنافقين سوف لن يهربوا من ساحة القتال، فإنّهم (أي: اليهود) سوف لن ينصروا بهذا الدعم العسكري الموهوم من قبل المنافقين.

إنّ ما يعنينا من هذه الملاحظات الأربع التي أوضحها النص القرآني في ردّه على اليهود والمنافقين جميعاً هو: تثبيت الفكرة التي حامت عليها سورة الحشر ونعني بها: أنّ النصر والهزيمة لن يتمّا إلاّ بمشيئة الله وإلى أنهما يرتبطان بمشيئة الله تعالى، وارتباط ذلك بمدى الالتزام بمبادىء الله . . . أما وأنّ الإسلاميين قد التزموا بمبادىء الله فحينئذٍ تحقق لهم النصر على النحو الذي لحظناه في القسم الأول من السورة، وأما بالنسبة إلى اليهود فبما أنّهم لم يلتزموا بمبادىء الله فحينئذٍ لا بد أن تلحقهم الهزيمة: وفقاً للمعيار الذي ذكرناه. . .

إذن، جاء هذا القسم من سورة الحشر متلاحماً عضوياً مع القسم الأول منها، كما تم ذلك من خلال طرح موضوع جديد هو فئة المنافقين حيث تأدت صياغة ذلك بثنائية فنية هي: إشراك الكفار في صعيد متماثل من المواقف حيث أدخل النص: المنافقين عنصراً جديداً في معسكر الكفر، ثم جمعهما (أي: اليهود والمنافقين) في مصير واحد هو: خذلانهم عسكرياً.

والآن، إذا تجاوزنا هذا الجانب العماري من النص (أي: البناء المتلاحم فنياً) نجد أنّ النص يقدم لنا حقائق مختلفة أخرى تتصل بسلوك المجتمع الكافر من حيث علاقته بالمواقف العسكرية التي يصدرون عنه أو التي لحقتهم في ضوء ما لحظناه من قضية الدعم المزعوم، مبيناً ـ مضافاً لتدخل مشيئة الله في تكييف المواقف ـ أسباباً مختلفة تتصل بالبناء النفسي للشخصية الكافرة.

قال تعالى: **﴿لأنتُم أشدُّ رهبة في صُدورهم من الله، ذلك بأنَّهم قومٌ لا يفقهُون لا يُقاتِلُونَكُم جميعاً إلاّ في قُرى محصَّنة أو من وراء جُدُر، بأْسُهُم بينهم شديد تحسبُهُم جميعاً وقلوبُهُم شتّى ذلك بأنّهم قومٌ لا يعقلون. . .﴾**.

هذا المقطع يتحدث عن المنافقين وعلاقتهم بالإسلاميين من حيث الموقف العسكري. . إنّ هؤلاء المنافقين الذين يصدرون عن (النفعية) في سلوكهم سبق لهم أن عاهدوا اليهود (وهم العدو الذي تكفلت سورة الحشر بعرض هزيمتهم العسكرية أمام الإسلاميين) عاهدوهم لفظياً بالدعم العسكري لهم، إلاّ أنهم بحكم نفعيتهم التي تبحث عن العافية فحسب لا يمكن لهم أن يحققوا عمليّاً هذا الدعم. . . وقد أوضح النص القرآني الكريم - في مقطع أسبق - مسوغات ذلك فكرياً. أما الآن فيتحدث عن الأسباب النفسية التي تغلف سلوكهم المذكور، فهم أولاً يتميزون بطابع (الخوف) من الإسلاميين حتى أنّهم ليجدونهم أشد رهبة من الله، مع أنّ المفروض أن يخافوا الله قبل أن يخافوا من الإسلاميين. . . سر ذلك، أنّهم كما قال النص عنهم: **﴿قوم لا يفقهون﴾** أي: لا يعون الفاعلية الحقيقية لله تعالى، لذلك لا يتجاوزون في نطاق تفكيرهم الدنيوي الصرف نطاق الحياة الدنيا بمظاهرها الحسية،. . . ومنها: المظهر العسكري الذي يطبع المسلمين. . . وتبعاً لهذا التصور المحدود لا يمكنهم (وهم يبحثون عن العافية من جانب، ويتميزون بالخوف من أية قوة عسكرية تقضي على نفعيتهم من جانب آخر) لا يمكنهم أن يتقدموا لمقاتلة الإسلاميين إلاّ في حالات خاصة يضمنون من خلالها سلامة المصير، وقد أوضح النص القرآني الكريم، هذة الحالات متمثلة في أنّهم لا يقاتلون **﴿إلاّ في قرى محصنة﴾** أو **﴿من وراء جدرٍ﴾**، أي: لا يقاتلوا إلاّ في أماكن حصينة دون أن يملكوا شجاعة في تجاوز أماكنهم إلى ساحة القتال في الأماكن الأخرى كما أنهم لا يملكون شجاعة في ممارسة القتال إلاّ وراء الجدران. . .

وهذا يعني أنّ الحرص على تحقيق مكتسباتهم الدنيوية يجعلهم خائفين أشد الخوف من ممارسة أي عمل عسكري يهدد مكتسباتهم المذكورة. . .

واضح، أنّ هذا التكييف النفسي لشخصية المنافق ، جاء (من الزاوية العمارية للنص) متجانساً مع فكرة سورة الحشر، وحينما يرسم النص القرآني الكريم أمثلة هذا التكييف النفسي للمنافقين (ومن قبل ذلك التكييف النفسي لشخصية اليهودي) إنّما يجانس بين دلالة الفكرة الذاهبة إلى أنّ الله تعالى هو الذي نصر الإسلاميين على اليهود ومن ثم على المنافقين أيضاً (من خلال إلقاء الرعب في نفوسهم منذ البداية) وبين هذا التكييف الذي يحجز العدو من مواجهة الجيش أو الفئة الإسلامية. . .

خارجاً عن ذلك، يواصل النص القرآني الكريم رسم مفردات السلوك الأخرى التي تغلف شخصية المنافقين، وهي سمات تساهم بدورها في تكييف شخصياتهم بنحو يحتجزهم أيضاً عن ممارسة الدعم العسكري ضد الإسلاميين. . . لقد وسمهم بهذا النحو من البناء الاجتماعي لشخصياتهم **﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾**. واضح أن النصر يتحقق بقدر توفر عنصر التماسك الذي لا مناص منه في هذه الطائفة الاجتماعية أو تلك، ومع فقدان أو ضعف الرابطة المذكورة لا تمكن لأية طائفة اجتماعية أنّ تسجل نصراً على الآخرين، وحينما يسم النص المنافقين بكونهم ذوي عداوة شديدة بعضهم مع الآخر، فإنّ هذه السمة تفصح عن استحالة لمّ قواهم وحشدها أمام الإسلاميين، كما أنّ إشارة المقطع القرآني الكريم إلى أن الملاحظ العابر يحسبهم مجتمعين بينما قلوبهم شتىٰ هذه الإشارة تفصح أيضاً عن مزيد من الدلالات التي تعمق قناعة المتلقي بأنّ الله تعالى قد خذل المنافقين وكيّف نفسياتهم تكييفاً يخفي على الملاحظ العابر الذي قد تبهره المظاهر الخارجية لشخصياتهم ومجتمعاتهم. . .

أياً كان، فإنّ فكرة الهزيمة أو النصر العسكريين المرتبطين بمشيئة الله وليس بمشيئة البشر تظل وراء هذه الصياغة لشخصيات المنافقين، ومن قبلهم لشخصيات اليهود الذين جاء رسم المنافقين في سياق الرسم لسلوكهم، من حيث الموقف العسكري وعلاقته بالإسلاميين... لذلك، أشار المقطع بعد ذلك إلى تجربة سابقة حينما قال: ﴿**كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم**﴾ وهي تجربة الهزيمة العسكرية التي لحقت أقواماً سابقين صدروا عن نفس الموقف المعادي لرسالة الإسلام...

أخيراً، يذكّر النص القرآني الكريم المنافقين بعلاقتهم مع اليهود في ضوء الموقف الذي سبق رسمه في مقطع أسبق ونعني به: الدعم اللفظي الذي قدّمه المنافقون لليهود في مقاتلتهم للإسلاميين، حيث قدم تشبيهاً لهذا الموقف هو، موقف الشيطان من المذنبين ﴿**كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إنّي أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها و ذلك جزاء الظالمين**﴾ إنّ هذا التشبيه يتناول موقف المنافقين الذين قالوا لليهود: سوف ندعمكم، فكانت النتيجة عدم الدعم من جانب وشمول الهزيمة العسكرية لهما جميعاً من جانب آخر...

❊ ❊ ❊

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغدٍ واتّقوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملُون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهُم أنفسَهُم أولئك هم الفاسقُون لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنّة أصحاب الجنة هُمُ الفائزون لو أنزلْنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتهُ خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون...**﴾.

هذا المقطع من سورة الحشر، جاء بمثابة نهاية للسورة، تلحقه جملة من الآيات التي تتناول صفات الله تعالى من حيث كونه ملكاً، قدوساً، سلاماً،

مؤمناً، مهيمناً، عزيزاً، جباراً، متكبراً، خالقاً، بارئاً، مصوراً، حيث تختتم السورة بالآيات المتقدمة. . .

يعنينا من المقطع الذي يتحدث عن المؤمنين وتنبيههم على ضرورة النظر إلى ما يقدمون لأنفسهم في اليوم الآخر من الوظيفة التي أوكلتها السماء إليهم. . . يعنينا من ذلك معرفة الصلة الفنية بين هذا المقطع المخصص للحديث عن المؤمنين وبين المقاطع السابقة التي كانت تتحدث عن النصر العسكري للإسلاميين وهزيمة اليهود والمنافقين أمام رسالة الإسلام. . .

إنّ أدنى تأمل لهذا المقطع، يقتادنا إلى إدراك السر الفني الكامن وراء ذلك. فالعمل العبادي يمثل وحدة في السلوك البشري، يستوي في ذلك أن يكون السلوك (جهاداً في سبيل الله) وهذا المحور الفكري الذي حامت عليه سورة الحشر ـ كما لحظنا ـ أو أهدافاً اجتماعية أو فردية يتوفر عليها الشخص. . . فالمهم هو أداء الوظيفة العبادية بما هو أحسن عملاً عند الله. . . لقد طالب المقطع القرآني الكريم الذي نتحدث عنه الآن بالتقوى، وذكر المؤمنين بضرورة النظر في ممارساتهم التي سيحاسبون عليها في اليوم الآخر، وقدّم تشبيهاً في هذا الميدان هو تحذير المؤمنين من كونهم **﴿كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾**.

هذا التحذير يحمل سمة (العام) أي: ينطوي على مخاطبة البشر جميعاً وسمة الفن كما نعرف جميعاً هي عموميته أو انتقاله من تناول الخاص إلى العام، من الجزء إلى الكل. . . وإذا كان النص القرآني الكريم قد نقل لنا أحداثاً ومواقف خاصة في سورة الحشر وهي وقائع النصر العسكري الذي حققه الإسلاميون في معركتهم مع يهود المدينة المنورة ومنافقيها، فإنّه قد استثمر هذه الوقائع والأحداث الخاصة لتوظف فنياً لما هو (عام) أي:

لممارسة العمل العبادي المطلوب وهو هدف كل النصوص القرآنية كما هو واضح. . . لكن ينبغي لفت النظر إلى أنّ عملية الانتقال الفني من الخاص إلى العام تظل في النص القرآني محكمة كل الإحكام من حيث الترابط والتلاحم والتواقف الهندسي بين أجزاء السورة الواحدة، بحيث تجيء متجانسة مع مفردات (الخاص). فمثلاً نجد أنّ التشبيه الذي قدمه المقطع القرآني ونعني به **﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾**، هذا التشبيه جاء متجانساً مع الأحداث والمواقف التي صدرت عن اليهود والمنافقين في تعاملهم العسكري مع الإسلاميين. . .

لقد لحظنا كيف أنّ النص القرآني الكريم في مقطع أسبق قد رسم لنا التكييف النفسي لليهود والمنافقين، حيث رسم اليهود أشخاصاً **﴿ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾** وأشخاصاً **﴿قذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم﴾**، ثم رسم المنافقين أشخاصاً نظروا إلى المسلمين بنحو **﴿أشد رهبة في صدورهم من الله﴾** ورسمهم أشخاصاً لا يقاتلون **﴿إلاّ في قرى محصنةٍ أو من وراء جدر﴾** ورسمهم أشخاصاً **﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾**. هذا الرسم لأشخاص اليهود والمنافقين يمثل عملية (نسيان) لله، (نسيان) لأنفسهم: حيث كانوا ينظرون ـ في مواقفهم العسكرية ـ إلى المظهر الحسي للحياة الدنيا دون أن يأخذوا بنظر الاعتبار فاعلية (الله) تعالى وتدخله في تكييف النصر أو الهزيمة العسكرية. . . لذلك، جاءت عملية تذكير المؤمنين وتحذيرهم بألا يكونوا **﴿كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾**، هذا التذكير من خلال التشبيه المتقدم جاء رابطاً فنياً بين أجزاء النص، حيث ارتبطت الأقسام المختلفة من السورة بعضها بالآخر بنحو عضوي لا ينفصم سابقها عن لاحقها: وفق تنامٍ تتدرج الأفكار من خلالها بنحو متناسق، ووفق سببية يفضي جزء منها إلى الجزء الآخر، بالشكل الذي لحظناه. . .

والأهم من ذلك كله، أنّ عملية النقلة الفنية من مفهومٍ خاص هو (الجهاد في سبيل الله) ومن وقائع جزئية هي: معارك الإسلاميين مع اليهود والمنافقين، إلى طرح مفهوم عام هو: ضرورة ذكر الله تعالى ومحاسبة النفس من خلال التأكيد على الفقرة القائلة ﴿**ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ**﴾ هذه النقلة الفنية تظل بعداً له مهمته الازدواجية في عملية تعديل سلوك الإنسان: حيث يستخلص المتلقي من جانب: الدلالة التأريخية التي تنطوي عليها هذه الحادثة أو القصة ثم يفيد بعد ذلك من الدلالة العامة التي ذكره النص بها، ونعني بذلك: المطالبة بالتقوى ﴿**يا أيها الذين آمنوا آتقوا الله**﴾ والمطالبة بالنظر إلى ما قدمت النفس الإنسانية لغدها ﴿**ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾ والتذكير بعدم تحوّل الإنسان إلى شخص يشبه أولئك ﴿**الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾ . . . كل أولئك يشكل مهمة فنية مزدوجة تتصل بعمارة النص القرآني فكرياً وهندسياً، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

سورة الممتحنة

قال تعالى: **﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، تلقون إليهم بالمودّة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يُخرجون الرَّسُول وإيّاكم أن تُؤمنوا بالله ربكُم إن كنتُم خَرَجتم جِهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تُسرُّون إليهم بالمودَّة، وأنا أعلم بما أخفيتُم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواءَ السَّبيل إن يثقَفُوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسُطوا إليكم أيديهُم وألسنتَهُم بالسُّوء، وودُّوا لو تكفرون﴾**.

بهذا المقطع: تفتح سورة (الممتحنة) التي تصب فكرتها في موضوعٍ هو: العلاقات الاجتماعية (السياسية منها بخاصة) بين الإسلاميين وبين أعدائهم سواء أكانت العلاقات في صعيد المؤسسة السياسية (الدولة) أو في صعيد الجماعة أو الطائفة أو في صعيد العلاقات الفردية... وبالرغم من أنّ هذه السورة أو الآيات نزلت ـ كما يقول المفسرون ـ في قضية خاصة هي: إرسال أحدهم كتاباً بواسطة إحدى النسوة لمشركي قريش يعلمهم بأنّ النبي(ص) مستعد لمقاتلتهم، حيث فضح الوحي نفاق هذا الشخص وأرسل النبي(ص) علياً عليه السلام وسواه، إلى المرأة التي أخفت الكتاب في شعرها، ثم أبرزته إلى الإمام علي عليه السلام عندما امتشق حسامه وهددها بالضرب... أقول: بالرغم من أن الآيات نزلت في هذه الحادثة، إلاّ أنّها ـ كما سيلحظ في الأقسام اللاحقة من السورة ـ تظل قضية عامة تخص مطلق العلاقات بين الإسلاميين والأعداء، علماً بأنّ النصوص الفنية الخالدة ـ وهذا ما أكدناه مراراً ـ تتميز بكونها تنطلق من قضية خاصة إلى قضية عامة حتى تصبح خالدة، مطلقة: تفيد منها المجتمعات قديماً وحديثاً...

القضية هي، أنّ العدو ينبغي ألا يتخذ ولياً وألا تكون مودة بين المسلم

وبينه، لأنّ الولاية، والمودة ينبغي أن تتمحض لله تعالى، يقول المفسرون: إنّ الشخص الذي بعث الكتاب إلى أهل مكة: اعتذر إلى رسول الله(ص) بأنّه خشي على أهله بمكـة من الأذى الذي يلحقهم بسبب من توجه الجيش الإسلامي إلى مكة... وهذا يعني أنّ الشخص المذكور: حرصاً على سلامة أهله، قد مارس هذا السلوك... وهذا ما نبّه النص القرآني الكريم عليه حينما قال ﴿**لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة**﴾ سواء أكان العدو غريباً أو قريباً من الشخصية الإسلامية... لذلك نجد أنّ الآية التي أعقبت هذا الموضوع، قالت: ﴿**لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير**﴾. هذه الآية تشكل (واصلاً فنياً) بين هذا القسم من السورة والأقسام الأخرى التي سنتحدث عنها...

ولكن ما يعنينا الآن (من حيث عمارة السورة القرآنية الكريمة) أن نوضح بأنّ المقطع الذي نتحدث عنه: قد قدّم معياراً عبادياً أو اجتماعياً (من حيث علاقة المسلم بعدوه) هو: ألا تكون مودة هناك بين المسلم وعدوه: حتى لو كان الكافر: ولداً للمسلم أو أحد أقربائه... النص لم يقل هذا صراحة، بل سلك منحى فنياً لتقرير هذه الحقيقة، والمنحى الفني هو قوله تعالى: ﴿**لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم**﴾ أي أنّ النص قال بأنّه لا ينفع الإنسان ولده أو قريبه في اليوم الآخر الذي يتم فيه الجزاء من دخوله إلى الجنة أو النار... قال هذا الكلام، حتى يستخلص القارىء نتيجة هي: أنّ المودة بالنسبة إلى الكافر حتى للولد وللقريب غير جائزة، أي: أنّ النص تركنا ـ نحن القراء ـ نستنتج بطريقة فنية غير مباشرة: هذه الحقيقة... وهذا واحد من أهم السمات الفنية في النص القرآني الكريم... وسنجد لاحقاً صدى هذه الحقيقة التي تقول بأنّ المسلم ينبغي ألا يواد ويناصر العدو: حتى لو كان ابنه أو قريبه، وهو أمر يكشف لنا عن سمة فنية أخرى هي: عمارة

السورة القرآنية من حيث تلاحم أجزائها بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومِهم: إنّا بُرَءَاؤُا منكم ومما تعبُدون من دون الله، كفَرنا بِكُم وبدا بيننا وبينكُم العداوة والبغضاء أبداً حتى تُؤمنوا بالله وحده، إلاّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملِكُ لك من الله من شيءٍ، ربَّنا عليك توكَّلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير﴾**.

هذه الآية ـ من سورة الممتحنة ـ تشكل مقطعاً جديداً من السورة... إلاّ أنها تحفل بخصائص فنيةٍ، مثيرةٍ ومدهشة من حيث علاقتها بأفكار السورة الكريمة التي تتناول العلاقة الاجتماعية بين المسلمين والكفار. لقد كان المقطع الأسبق من السورة يقول بما معناه: إنَّ الأولاد والأرحام لن ينفعوا الإنسان عند الجزاء الذي يتسلمه في اليوم الآخر، قاصداً بذلك: أنّ المسلم ينبغي ألاّ يعقد علاقة مودةٍ وحبّ مع الكافر حتى لو كان ابنه أو قريبه وها هو النص الآن يقدم حكاية أو أقصوصة (إبراهيم عليه السلام) مع قومه... حتى يجعلنا نستخلص من هذه الحكاية: قضية هي: أنّ سلوك الشخصيات المصطفاة يقوم على علاقة خاصة بالله تعالى تتجاوز كل العلاقات الاجتماعية بما فيه: علاقة الابن بأبيه مثلاً، بحيث ينبغي على المؤمن ألا يعقد أية علاقة مودة وحب مع الكافرين حتى لو كان أباه... هذه الحقيقة صاغها النص وفق أسلوب فني بالغ الأهمية... فما هي سمات هذا الأسلوب؟.

لقد ذكر النص قصة إبراهيم دون غيره من الأنبياء، فلماذا؟ ثم قرن مع إبراهيم جماعة مبهمة من المؤمنين لم يحدد هويتهم حيث قال: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم و الذين معه﴾** إننا نعرف بأنّ إبراهيم كان وحده

(أمة) مقابل قومه الكافرين بحيث لم يؤمن معه أحد بما فيهم أبوه آزر إلاّ شخصية لوط وٱمرأته، وحينئذٍ يقف القارىء ـ وهو يتساءل: من هم هؤلاء الذين آمنوا مع إبراهيم؟ نحتمل قوياً وهذا ما يسنده منطق السورة وبعض النصوص المفسّرة بأنّ المقصود من الذين آمنوا، هم: الأنبياء ممن كانت مواقفهم مماثلة لإبراهيم عليه السلام مثل لوط عليه السلام في موقفه من ٱمرأته أو نوحٍ في موقفه منها أو نوحٍ نفسه حينما تخلى عن ابنه الذي فصّل القرآن الكريم: حديثه عن العلاقات القائمة بينهما حيث انتهت بالتخلي عنه. لكن، بما أنَّ إبراهيم عليه السلام قد تميز موقفه من أبيه وقومه بخصائص لم تتوفر لسواه، لذلك من الزاوية الفنية ركز النص على أقصوصة إبراهيم وأبهم أقصوصة سواه.

والآن، لنر كيف عالج النص هذه القضية... لقد أوضح النص أولاً بأنّ إبراهيم ومن يماثله قد قالوا لقومهم: **﴿إنّا بُرَءَاؤُا منكم وممّا تعبدون من دون الله﴾** وقالوا لقومهم أيضاً **﴿بدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء﴾**... فهنا إشارة أولاً إلى أنَّ إبراهيم ومن يماثله قد تبرأ من عبادة الأصنام وهذه حقيقة...

إلاّ أنَّ الحقيقة الأخرى ذات الأهمية (من حيث صلتها بفكرة السورة التي تصب في قضية العلاقات بين المؤمن والكافر هي: أنّ إبراهيم ومن يماثله قالوا لقومهم أن علاقتنا بكم هي العداوة والبغضاء. وهذا هو الهدف الفكري من وراء هذه الأقصوصة لكنَّ: الهدف الأشد تأكيداً هو: إبراز أقرب العلاقات النسبية بين المؤمن والكافر وهي علاقة إبراهيم بأبيه، حيث قال النص بعد ذلك **﴿إلاّ قول إبراهيم لابيه لأستغفرن لك﴾**. هذه العبارة ذات دلالة فنية ضخمة من حيث علاقتها بفكرة السورة التي قالت في مقطع سابق بأنّه: **﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم﴾**، حيث قدّم النص لنا علاقة إبراهيم بأبيه حتى يجعلنا نستنتج ـ بطريقة فنية غير مباشرة ـ بأنّ علاقة إبراهيم عليه السلام بأبيه: إنّما

كانت من أجل أنّه احتمل أن يعدل أبوه سلوكه ويتجه إلى الإيمان، ولذلك استغفر له، لكن ـ وهذا ما تحدثت به سورة أخرى ـ عندما تبين له عدم صحة ذلك: تبرأ من أبيه . . .

إذن، بهذا المنحى من الفن وصل النصُّ بين موضوعات السورة الكريمة، مفصحاً بذلك عن مدى إحكام المبنى الهندسي للسورة الكريمة من حيث تلاحم أجزائها بعضاً مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿**لقد كان لكم فِيهم أُسوةٌ حسنة، لِمن كان يَرْجُوا الله واليومَ الآخِرِ، ومن يتولَّ فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد عسى الله أن يجعل بينكُم وبين الذين عاديتُم منهم مودَّة والله قديرٌ، والله غفورٌ رحيم لا ينهاكمُ الله عن الذين لم يُقاتِلُوكم في الدين ولم يُخرجُوكم من دياركُم، أن تبرُّوهم وتُقسِطوا إليهم، إنَّ الله يُحبُّ المُقسطين إنّما ينهاكُمُ الله عن الذين قاتلُوكم في الدين وأخرجُوكم من ديارِكُم، وظاهروا على إخراجِكُم أن تولَّوهُم، ومن يتَولَّهُم فأولئك هم الظالمون**﴾.

هذا المقطع من السورة، امتداد لسابقه من المقاطع التي تتحدث عن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والكفار . . .

لقد طالبت السورة في مقطع أسبق بأن يقتدي المسلمون بابراهيم عليه السلام وسواه ممن أحبوا في الله وأبغضوا في الله حيث قاطعوا حتى أرحامهم وأولادهم الذين لم يؤمنوا، . . وهنا تتكرر هذه المطالبة بمقاطعة الكافرين وترك مودتهم من أجل الله تعالى. إلاّ أنَّ المقطع يعلق على هذا الجانب بقوله: ﴿**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة**﴾.

ترى، ماذا نستنتج من هذا التعليق؟.

في تصورنا، أنَّ النص يستهدف أولاً ذكر حقيقة أو قاعدة عامة هي أنّ المسلم ينبغي ألا يحمل مودة وحباً حيال الكافرين حتى لو كان ابنه أو أباه بل عليه، أن يحب ويبغض من أجل الله تعالى فحسب. . .

وحينئذٍ، إذا عزم المؤمن على ممارسة هذا السلوك: بحيث يتخلى حتى عن ابنه أو أبيه من أجل الله تعالى، عندها، من الممكن أن تتحقق المودة بين هذه الأطراف: كما لو أسلم الكافر، وحُسم الأمر. وهذا ما حدث بالفعل في قضية فتح مكة، حيث دخل الناس في دين الله أفواجاً، وزالت الخصومات التي كانت بين بيوتاتٍ من المهاجرين عادوا الكفار من أجل الله تعالى، فعادت المودة من جديد بين هذه البيوتات: من خلال الدخول في الإسلام. . .

طبيعياً، لا يعني هذا أنّ القاعدة هي: عودة المحبة بمجرد أن يصمم الإنسان على معاداة الكافر (حيث أن إبراهيم نفسه لم تعد المودة بينه وبين أبيه، كما أن نوحاً لم تعد المودة بينه وبين ابنه)، لكن النص يستهدف الإشارة إلى إمكانية أن تعود المودة في سياقات خاصة: كما حدث في فتح مكة. . .

بعد ذلك، يطرح النص مبدأ آخر من مبادىء العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والكفار، هو: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم: أن تبرُّوهم﴾**. . .

إنّ هذا المبدأ: يشكل ـ في واقعه ـ مبدأ سياسياً يرتبط بمطلق الجماعات أو الدول التي لا تحمل نزعة عدائية أو بالأحرى لم تمارس سلوكاً عدائياً حيال المسلمين، حيث طالب النص بالقسط حيال هذه الجماعات. . . وإذا كانت هذه المبادىء مرتبطة بمناخ اجتماعي خاص هو معاملة أهل مكة لمجتمع المسلمين في المدينة حيث أنّ المكيين أخرجوا المسلمين من ديارهم، وقاتلوهم، فإنّ هذه القضية الخاصة تنسحب ـ في الواقع ـ على القضايا العامة فيما يمكن تطبيق هذا المبدأ على شتى المجتمعات قديماً وحديثاً... بحيث

يظل تكييف العلاقات الاجتماعية بين الإسلاميين وغيرهم (في مستوى الافراد والجماعات والدول) قائماً على معيار السلوك العدواني أو المسالم، ففي حالة السلوك العدواني: يتجه النهي عن أي تعامل ودي مع العدو، وأما في حالة السلوك المسالم، فإنّ التعامل الودي أو ما يسمّى بـ (علاقة التعاون) هو الذي يتعين في هذه الحالة. . .

المهم، بعد ذلك ينبغي ألا نغفل عن البناء الفني الذي قام عليه طرح هذه الموضوعات. . . فقد سبق أن أوضحنا أنّ فكرة السورة الكريمة تقوم على تحديد العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والكافرين: حيث يتناول كل مقطعٍ طرح جانب من هذه العلاقات، وكان التركيز منصباً على محور واحد هو: أنْ تكون العلاقات (من حيث العواطف العامة) علاقات تنافر بين المسلم والكافر. . . وأن تتكيف العلاقات (بين الإيجاب والسلب) ـ من حيث السلوك العملي للكافر، بحيث إذا أبرز سلوكاً عدوانياً: قوبل بمثله وإلاّ فسلوك التعاون بدل التنافر، هذه المبادىء: تم طرحها من خلال مبنى فني قائم على إحكام بالغ من حيث تلاحم مقاطع السورة بعضها من الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءَكُم المؤمناتُ مهاجراتٍ، فامتحنُوهنّ الله أعلم بإيمانِهنّ فإن علمتُمُوهنّ مؤمناتٍ فلا ترجِعُوهنَّ إلى الكفار، لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلُّون لهنّ، وآتوهم ما أنفقُوا ولا جُناحَ عليكُم أن تنكِحوهنَّ إذا آتيتمُوهُن أجُورهنّ، ولا تُمسكُوا بعِصمِ الكوافر، واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا، ذلكم حُكم الله يحكُمُ بينكم والله عليم حكيم. . .**﴾.

بهذا المقطع وما بعده تختم سورة (الممتحنة) التي تناولت موضوع العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والكفار. . . هنا، في القسم الأخير من السورة، يتناول المقطع: العلاقات الاجتماعية أيضاً، لكن: من خلال

العلاقات الزوجية بين المسلمين والكفار.. ويلاحظ، أنّ المقطع يتناول قضية خاصة تتصل بمعاهدة الحديبية التي تم فيها التصالح على أن يرد المسلمون من جاء من أهل مكة إليهم، وألا يرد المكيون من جاء من أهل المدينة إليهم... بيد أنّ هذه المعاهدة لم تشمل العنصر النسوي، وذلك لمتطلبات الحكمة العبادية التي ترتب على المرأة أثراً يختلف عن الأثر الذي يترتب على الرجل، مضافاً إلى انسحاب ذلك على العلاقات الزوجية أساساً...

بيد أنّ المهم هو، أن نوضح أولاً بأنّ هذا المقطع بالرغم من كونه قضية خاصة بزمان ومكان معين، إلاّ أنّ النص طرح مفهومات أو أحكاماً عامة من خلال هذه القضية الخاصة، القضية الخاصة هي: أنّ المرأة المسلمة التي هاجرت من مكة إلى المدينة: إذا كانت مؤمنة حقاً، فلا يجوز ارجاعها إلى أهلها الكفار... أما القضية العامة فهي قوله تعالى ـ تعقيباً على القضية ـ **﴿لا هنَّ حل لهم، ولا هم يحلون لهن﴾** أي: لا تحلّ المرأة المؤمنة على الكافر، ولا هو يحل لها... وهذا حكم فقهي عام: كما هو واضح، إلاّ أنّه جاء في سياق قضية خاصة.

ويترتب على هذا الحكم: أنّ الافتراق يتم بين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر بمجرد خروجها عنه دون أن يتم طلاق: بصيغته المعروفة...

وهناك حكم فقهي آخر جاء في سياق هذه القضية الخاصة، ألا وهو قوله تعالى: **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** أي: لا يجوز التزوج من المرأة الكافرة أيا كانت... وهذا حكم فقهي عام: كما هو واضح، إلاّ أنّه جاء أيضاً في سياق القضية المرتبطة بالمهاجرات...

بعد ذلك يتقدم النص ليتحدث أيضاً عن قضية خاصة هي بيعة النساء (بالنسبة لفتح مكة) حيث قال النص: **﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنَّ ولا**

يأتين بِبُهْتَانٍ يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهنّ واستغفر لهن الله﴾. وبالرغم من خصوصية هذه البيعة، إلاّ أنّ فيها (عمومية) ترتبط بسلوك المرأة بنحو عام، أي: إمكانية صدورهن (وهن ذوات تركيبة خاصة) عن أمثلة هذا السلوك الذي ينبغي أن يلاحظن من خلاله. . .

أخيراً، ختم المقطع بآية كريمة هي **﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم، قد يئسوا من الآخرة، كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾**. هذه الآية ذات موقع هندسي وفني لافتٍ للنظر. . . أما من حيث الفن، فتشتمل على (تشبيه) مدهش مليء بالإيحاءات المتنوعة، التشبيه يقول: أنّ الكافر يائس من الآخرة (وهذا هو الطرف الأول من التشبيه)، وأما الطرف الآخر، فهو يحمل إيحاءات متنوعة، منها: أنّ يأس الكافر الحي من الآخرة، مثل يأس الكافر الميت الذي يتيقن بعد موته بأنّه لاحظ له في الآخرة، ومنها أن يأس الكافر في الآخرة مثل يأسه من إحياء أهل القبور، ومنها أنَّ يأس الكافر (وهنا يتحدث النص ـ وفقاً للنصوص المفسرة ـ عن علاقة المسلمين بالكفار اليهود) إن يأس الكافر اليهودي مثل يأس الكفار الذين احتوتهم القبور ممن يئس من الآخرة. . .

وهذا فيما يتصل بالتشبيه. . .

أما ما يتصل بعمارة السورة الكريمة، فإنّ هذه الآية التي تطالب أن لا يتولى المسلمون: الكفار أو اليهود، إنّما تصبّ في الفكرة الرئيسة التي تحوم عليها السورة الكريمة وهي (العلاقات الاجتماعية بين المسلمين الكفار)، حيث يفصح مثل هذا الختام وصلته ببداية السورة ووسطها: عن مدى جمالية وإحكام النص، بالنحو الذي لحظناه. . .

الفهرس